

مصر
النهضة



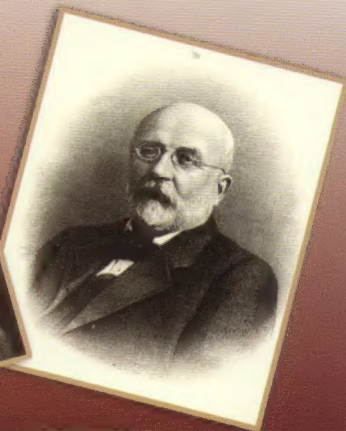
الآثار المصرية المستباحة

الإدارة المصرية والآثار في القرن التاسع عشر



١٠٦

د. أشرف محمد حسن علي



النهضة



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة

الآثار المصرية المستباحة

الإدارة المصرية والآثار في القرن التاسع عشر

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. شريف كامل شاهين

على، أشرف محمد حسن.

الأثار المصرية المستباحة: الإدارة المصرية والآثار في
القرن التاسع عشر/ تأليف أشرف محمد حسن على..
القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز
العلمية، مركز تاريخ مصر المعاصر، ٢٠١٦.

٥٠٧ ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك 3 - 1246 - 18 - 977 - 978

١ - المصريات . علم

٢ - الآثار الفرعونية

١ - العنوان

٩١٣، ٣٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٣٤ / ٢٠١٦

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 1246 - 3

الآثار المصرية المستباحة

الإدارة المصرية والآثار في القرن التاسع عشر

تأليف

د. أشرف محمد حسن علي



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

مصر النهضة

العدد (١٠٦)

سلسلة دراسات علمية في تاريخ
مصر الحديث والمعاصر

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. شريف كامل شاهين

رئيس التحرير

أ.د. أحمد زكريا الشلق

سكرتير التحرير

عبد المنعم محمد سعيد

مدير عام المطبعة

محمد برعي رجب

تصميم الغلاف

محمد عماد

المسئول التنفيذي

سامي عبد الحميد

الأراء الواردة بالنص لا تعبر عن رأى هيئة
التحرير ولكن تعبر عن رأى المؤلف

أسس هذه السلسلة

أ.د. يونان لبيب رزق

عام / ١٩٨٣

للمراسلات / مركز تاريخ مصر المعاصر / دار
الكتب والوثائق القومية / كورنيش النيل -
رملة بولاق.

تقديم

هناك العديد من الدراسات باللغات الأجنبية واللغة العربية تناولت بالتأريخ علم الآثار المصرية، أو علم المصريات، واختص بعضها بدراسة نهب الآثار وتدميرها بمختلف الوسائل والأساليب، منها على سبيل المثال كتاب:

Peter France, The Rape of Egypt: How the Europeans Stripped Egypt of its Heritage, London, 1991.

الذي تُرجم إلى اللغة العربية مرتين: أولهما لمحمد مستجير مصطفى، نشرته دار سينا عام ١٩٨٩ تحت عنوان: "اغتناب مصر"، وثانيهما لإبراهيم محمد إبراهيم، نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام تحت عنوان: "أوروبا والآثار المصرية"، وقد كتبه المؤلف بأسلوب أدبي أكثر منه أكاديمي، وإن ذيله بقائمة بالمصادر، وقد تضمن فصلاً عن ارتباط الاكتشافات الأثرية بالسياسة والإدارة.

وهناك كتاب دونالد ريد "قراعتة من؟ دراسة في علم الآثار والمتاحف" الذي ترجمه أستاذنا الدكتور رءوف عباس حامد (عليه رحمة الله)، وصدر عن المركز القومي للترجمة عام ٢٠٠٥، والذي يمكن القول بأنه يؤرخ لعلم المصريات وصلته بالهيمنة الإمبريالية، ورد الفعل الوطني في موقف العلماء المصريين دفاعاً عن تراث مصر وهويتها القومية، حيث يدحض الكتاب الفرية التي رددتها الكتابات الغربية بشأن عدم أحقية المصريين بأثار بلادهم.

وهناك كتاب بريان فاجان الذي صدرت طبعته الأولى بالإنجليزية في لندن عام ١٩٧٧ The Rape of the Nile, London، وترجمه إلى العربية أحمد زهير أمين تحت عنوان "نهب آثار وادي النيل، ودور لصوص المقابر" وصدر عن مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢، والذي ركز على عمليات ونشاطات رجال الآثار ولصوص المقابر والسائحين في نهب آثار مصر، وقد أفرد فصلاً لدور "المهرب الأكبر بلزوني، الإيطالي الذي فتح الباب للسطو على آثار مصر...".

وربما كانت أحدث الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، في بعض جوانبها، دراسة وائل الدسوقي "تاريخ علم المصريات" الذي أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١٤، وإن كان قد ركز على نشأة العلم وتطوره خلال القرن التاسع عشر.. وغير هذه الدراسات كثير مما تناول بعضاً من جوانب هذا الموضوع المهم والخطير المرتبط بتحديث مصر، وهويتها، وموقف القوى الإمبريالية منها.

والمؤلفات والدراسات السابقة، رغم ضرورتها وأهميتها، إلا أنها لم تهتم اهتماماً واضحاً بدور الإدارة المصرية من خلال التشريعات والقوانين واللوائح، وتطبيقها، وأثرها على وضع الآثار وعمليات نهجها خلال القرن التاسع عشر، وفي اعتقادنا أن هذا الكتاب الجديد، الذي بين أيدينا، يتفرد بتقديم دراسة وافية وموثقة عن هذا الموضوع، تفتقر عليها الدراسات السابقة، كما أن هذه الدراسة تميزت بالإحاطة والشمول مع تقديم نظرة نقدية لكل ما سبق نشره حول هذا الموضوع.

وأود أن أشير إلى أن مؤلف هذا الكتاب، وهو الدكتور أشرف محمد حسن، الذي يعمل مدرساً للتاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، كان قد نال بأصول هذه الدراسة درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ٢٠٠٥ تقديرًا لهذا العمل العلمي الكبير الذي أخرج لنا منه هذا الكتاب، فأضاف للمكتبة التاريخية المصرية عملاً علمياً جاداً ورصيناً تناول فيه بشكل أساسي، موقف الإدارة المصرية من الآثار ومشكلاتها خلال القرن التاسع عشر.

ومن المهم أن نذكر أن المؤلف لم يترك مصدراً وثائقياً في الأرشيف القومي المصري يتعلق بالآثار، إلا ونقب فيه واستفاد منه، فضلاً عن المصادر المخطوطة والمطبوعة، والمراجع العربية والأجنبية والمعربة وكتب الرحالة، كما نبّه إلى أهمية بعض الكتب المطبوعة في مصر - والمنسية - والتي صدرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وعالجت موضوعات أثرية، بالإضافة إلى أدلة المتاحف والدوريات التي صدرت خلال الفترة التي تشملها الدراسة.

وقد بدأ المؤلف دراسته بتمهيد عن موقف الإسلام من الآثار القديمة، كما استعرض خلفية عن وضع الآثار قبل القرن التاسع عشر، معالجا مشكلاتها الأساسية المتمثلة في النهب والتخريب والاستغلال والسرقة وتجارة الميماوات، ثم تناول جهود الاحتلال الفرنسي في الكشف عن حضارة مصر القديمة وأثارها.. ثم قدم فصلاً مهماً عن دور الأجانب، من قناصل وسائحين ورحالة أو مقيمين في مصر، في نهج هذه الآثار، وموقف الإدارة المصرية والحكام من هذا الموضوع خلال القرن التاسع عشر. وقد تفردت هذه الدراسة عن كل ما سبقها بأن تناولت القوانين والتشريعات واللوائح والأوامر والقرارات المتعلقة بالآثار في عصر محمد علي وخلفائه حتى نهاية القرن التاسع عشر. كما درس المؤلف أهم المشكلات البشرية، وخاصة ما يتعلق بالسلات والاستغلال والإهمال والتخريب وتجارة الميماوات، والطرق غير المشروعة التي خرجت بها الآثار من مصر، وتساءل عن مدى أحقيتها في المطالبة باستردادها، كما تناول المشكلات والأخطار الطبيعية الناتجة عن الرمال والمياه وتأثيرها على وضع الآثار المصرية... وقد أرخت الدراسة للمؤسسات الأثرية، المصرية

والأجنبية، من متاحف ومدارس متخصصة في هذا المجال، واختتم الدراسة بفصل عن مخصصات مصلحة الآثار ومواردها.

* * *

ومن القضايا المهمة التي أثارها المؤلف وأدلى فيها برأيه بعد البحث والدراسة، قضية موقف الإسلام من الآثار القديمة، فرأى أنه يرتبط بموقف الإسلام من النحت والتصوير، وأكد أن القرآن الكريم لم يتعرض للتصوير بشيء باعتباره أحد الفنون الجميلة، وأن الأحاديث النبوية، التي منها ما يلعن المصور وما يمنع بيع الصور، بغض النظر عن صحتها من عدمه، فذكر أن هناك من العلماء والباحثين ما يربطون بينها وبين الواقع الذي قيلت فيه والسبب الذي قيلت من أجله، فمنع التماثيل في بداية عصر الإسلام، جاء مخافة أن يساق المسلمون بالتقليد إلى عبادتها -كما كان أمر العرب في الجاهلية- والتوحيد هو شرط الإسلام الأول. كما أن كراهية الرسول (ص) لم تكن عامة، بل كانت تتعلق بالجانب الذي يشغل عن العبادة، أما الزينة فلا كراهية فيها، وقد أقر نقود الجاهلية والممالك الأخرى وهي مصورة، وكان يضحك مع عائشة وهي تحمل دُمَها وتلعب بها، كما كانت زوجاته يتخذن أقمشة مزخرفة برسوم الإنسان والحيوان.

وقد طفق المؤلف يضرب الأمثلة بنصوص تحمل في طياتها إباحة الإسلام للفن جملة، إلا ما كان مسيئاً إلى العقيدة، وكان فيه ما يُخشى منه عليها. واستشهد برأي الإمام محمد عبده حين ذكر "أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تُحرّم وسيلة أفضل من وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل"، وذكر كاتبنا أن هذه القاعدة هي التي سار عليها المسلمون في موقفهم تجاه ما وجدوه من آثار في البلاد التي فتحوها، فلم يتعرضوا للآثار بشيء، ولم يؤثر عن الحكام المسلمين في مصر غير تاريخها الطويل أنهم اتبعوا سياسة منظمة من شأنها إلحاق الضرر بالآثار المصرية لأسباب دينية، بل حرصوا على المحاشطة عليها للنظر والاعتبار بها، تطهيقاً لما أمر الله به في غير موضع من كتابه الكريم، بالسير في الأرض والسياحة فيها والتفكير في ملكوت الخالق، والاتعاظ والاعتبار بآثار من تقدم من الأمم.

ونود الإشارة إلى أنه من الموضوعات المهمة التي عالجها المؤلف، في الفصل الثاني، باقتدار وتوسع ربما يغني عن كل ما كتب حول هذا الموضوع، هو دور الأجانب في نهب الآثار المصرية، فقدم لنا دراسة شاملة استفادت مما نُشر وترجم، فضلاً عن بعض الدراسات المنشورة بالفرنسية، وقد تفردت هذه الدراسة عن غيرها بأنها استفادت من الوثائق المودعة بدار الوثائق المصرية بشأن موقف الإدارات المتعاقبة خلال القرن التاسع عشر تجاه هذه القضية. وقد ركزت على دور الهيئات القنصلية في نهب الآثار المصرية والتي ملأت بها متاحف بلادها، وخاصة ما قام به قناصل الدول الكبرى آنئذ، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والسويد، من أمثال دروفيتي

قنصل فرنسا، وسولت قنصل بريطانيا، وانستازى قنصل السويد والبروج، فضلا عن نشاط الرحالة الإيطالي بلزوني.

كذلك قدم المؤلف معلومات قيمة عن دور الأجانب المقيمين بمصر في هذا الشأن، إلى جانب نشاط السائحين الوافدين إليها، مثل السائحة البريطانية ايميليا إدواردز، والكولونيل بوتان، والرحالة الفرنسي كايو وغيرهم... وقد تتبع المؤلف دور البعثات العلمية التي وفدت إلى مصر بكثرة من أوروبا والولايات المتحدة، فركز على بعثة شامبليون وروزيليني (١٨٢١-١٨٢٨) وبعثة سيكاباريلي الإيطالي وغيرهم.

إلى جانب ذلك سلط المؤلف الضوء على أمناء المتاحف الأجنبية ودورهم في نهب آثار مصر، خاصة دور أوجست مارييت الذي حضر إلى مصر عام ١٨٥٠ مندوباً عن متحف اللوفر، وأليس بدج الذي جاء عام ١٨٨٦، وقد لعبا دوراً خطيراً في جمع أكبر قدر من التحف الفنية، بوسائل مشروعة وغير مشروعة، لإثراء المتاحف التي يعملون بها. ولم يغفل مؤلفنا عن فئات من علماء الآثار الذين جاءوا إلى مصر بحثاً عن العلم والمعرفة، لا سرقة الآثار وتهريبها، من أمثال جاردنر ويلكسون الإنجليزي الذي أقام بمصر (١٨٢٣-١٨١٢)، حيث كلفه محمد علي القيام برحلة كشفية في صحراء مصر الشرقية كشف خلالها عن آثار كثيرة، وروبرت هاى الإسكتلندي، والفرنسيان جان جاك أمبير ومكسيم، وكان الأخير قد قدم إلى مصر عام ١٨٤٩ وقام بالتقاط أول صور فوتوغرافية للعديد من المعابد والآثار المصرية، وكذلك فلندرز بيترى الذي ينظر إليه باعتباره باعث حضارة مصر القديمة.

وفي نهاية دراسته لهذا الموضوع، ناقش المؤلف مزاعم الكتاب الأجانب بشأن تهريب الكنوز الأثرية بأنهم نقلوها إلى بلادهم للحفاظ عليها من تدمير الأهالي ونزوات التجار المحليين، ومن تعرية الرياح وطفيان الرمال، وأن متاحف بلادهم هي الوطن الملائم للآثار المصرية حيث تحفظ فيها بأمان... وقد فند المؤلف هذه الحجج جميعاً، ليكشف أنها مجرد مبررات للنهب والسرقة.

وفي تقديري أن من أهم فصول هذا الكتاب أيضاً الفصل الثالث، الذي تناول فيه الكاتب دراسة تطور الأوامر واللوائح والقرارات والقوانين والتشريعات التي أصدرتها الإدارات المختلفة بشأن الآثار المصرية خلال القرن التاسع عشر، حيث قدم دراسة متفردة وموثقة تعالج هذا الموضوع، فدرس فوضى تصاريح الحفر والتنقيب خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، وجهود شامبليون مع محمد علي لضبط هذه الأمور، وكذلك جهود بعض علماء الآثار الآخرين الذين طالبوا الباشا بإصدار الأوامر والقرارات المتعلقة بالحفاظ على الآثار، وقمّر ذلك بأنهم فعلوا هذا "لكي يستزفونها هم لأنفسهم"، وقد يختلف البعض مع المؤلف في تحليلاته ونقده لمحمد علي في هذا الشأن، لكن من المؤكد أن المؤلف حرص على ذكر الكثير من الحقائق المتعلقة

بموقف محمد على من الآثار، ويكفى أنه أصدر أول تشريع خاص بالآثار في أغسطس عام ١٨٣٥ والذي اعتبره الكاتب "طفرة حقيقية في هذا المجال". وقد استنتج مؤلفنا أن رفاعة الطهطاوي "ليس ببعيد أن يكون هو الذى صاغ هذا القانون"، وبالرغم من ذلك فقد يختلف البعض مع الكاتب في نقده للطهطاوي في هذا الشأن.

المهم، أن مؤلفنا انتقل بدراسة هذا الموضوع إلى عهود خلفاء محمد على، فدرس ما صدر من قوانين وأوامر في عهد كل من عباس الأول ومحمد سعيد والخديو إسماعيل.. وإن ركز على تطبيق هذه القوانين وكيف تحايل الأجانب على التخلص منها لاستئناف الحفر والتعريب. كما تابع معالجة ما صدر من تصاريح وتراخيص تتعلق بالتنقيب عن الآثار خلال عهد الخديو توفيق، وموقف سلطات الاحتلال البريطانى، التى لم تكن ترغب في سيطرة الفرنسيين على هذا المجال في مصر... ومن المهم أن نشير إلى أن الكاتب لم يكتف بالحديث عن التشريعات والقوانين، التى عالجها بشكل نقدي كشف عن أوجه القصور فيها، وإنما راح يدرس مدى نجاح الإدارات المختلفة في تطبيقها وتوضيح مدى التزامها بها وتقييمها.

وأخيراً، لست أحب أن أطيل في التقديم أكثر من ذلك، حتى أخلى بين القراء وبين الكتاب، الذى قدمه مؤرخ جاد وصبور، نجح في أن يقدم للمكتبة التاريخية العربية عملاً علمياً موثقاً، يتسم بجرأة التحليل والنقد، فاستحق التهنئة على هذا العمل، الذى جعلنا نأمل فيه خيراً كثيراً لتاريخ وطن جدير بكل معنى مخلص وواع.

والله ولى التوفيق...

رئيس التحرير

أ.د. أحمد زكريا الشُّلُق

أكتوبر ٢٠١٥

المقدمة

ظلت مصر فترة طويلة من الزمن مجالاً واسعاً وأرضاً مباحة للباحثين عن الآثار؛ فمصر بحكم موقعها وتاريخها كانت صاحبة أكبر حضارة قديمة ظهرت في حوض البحر المتوسط، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الحضارة من الآثار القائمة والمدفونة ما يدهش كل من زار مصر في عهدها القديم والحديث، ولا يكاد يوجد في شتى بقاع المعمورة أرض تضارع مصر في كثرة أثارها القديمة وتنوعها ونفاسها وروعها وتفرداها في قيمتها الفنية والتاريخية، فلا عجب - إذن - في أن تجتذب روائع الفن المصرى التى انتشر خبرها في جميع أرجاء العالم من قديم الزمان سىلاً لا ينقطع وروده من الرجال؛ يقدون على مصر يضربون في أرجائها باحثين منقبين علّهم يجدون في أرضها ما يملنون به وطايم، ويعد لهم ثروة ومورد رزق لا ينضب.

ومع قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م / ١٢١٣ - ١٢١٦ هـ) زاد الاهتمام بأمر الآثار المصرية عقب قيام المجمع العلمى الفرنسى الذى صاحب الحملة بتقديم أبحاثه التى قام بها خلال فترة الاحتلال إلى العالم، وهى تلك الأبحاث التى اشتمل عليها جميعاً كتاب "وصف مصر" الذى طبع في باريس بين عامى ١٨٠٩، ١٨٢٨ م والذى اكتسبت مجلداته شهرة واسعة في جميع أنحاء أوروبا، وساهمت إلى حد كبير في إيقاظ الاهتمام بمصر من جديد بين الطبقات المتعلمة في كل أقطار غرب أوروبا تقريباً.

وقد اتجه هذا الاهتمام بشكل رئيسى إلى آثار مصر القديمة التى قام علماء الحملة بدراساتها دراسة وافية منظمة، فأزاحوا الستار عن عظمة الحضارة الفرعونية التى ظلت مجهولة قروناً طويلة من الزمان، وكانت الشهية لدراسة هذه الآثار قد تفتحت - كذلك - عندما صدر في باريس في مطلع القرن التاسع عشر - وتحديدأ في عام ١٨٠٢ م - كتاب فيفان دينون - أحد الفنانين المصاحبين للحملة - تحت عنوان "رحلات في مصر السفلى والعليا" والذى كان يتكون من مجلدين يحويان النصوص، ومجلد واحد يحوى اللوحات التى رسمها دينون بنفسه، وقد سجل ظهور هذا الكتاب بداية الاهتمام المحموم بالآثار المصرية، والذى تبدى في أوروبا الغربية، لاسيما بعد انتهاء الحروب النابليونية عندما أصبح في إمكان المترفين الأوروبيين القيام مرة أخرى برحلات طويلة إلى بلاد الشرق.

ولقد أبدى هذا الاهتمام بالآثار المصرية علماء جادون، كما أبداه رحالة يجوبون الأرض، وأبداه أيضاً أثرياء مولعون بالفنون الجميلة، وأدلى القناصل الأوروبيون العاملون في مصر

بدلوهم في هذا المجال، وقاموا بتكوين مجموعاتهم الخاصة بطرق مشروعة أحياناً وغير مشروعة في كثير من الأحيان، وقد أدى ذلك كله إلى قيام سوق رائجة للتجارة في الآثار المصرية القديمة والتي كانت تتكالب للحصول عليها متاحف العالم المختلفة.

وقد تفاقمَت المشكلة في ذلك الوقت نظراً لتقاعس الحكومات المصرية في بدايات القرن التاسع عشر عن إصدار التشريعات المنظمة لمسألة البحث عن الآثار وحيازتها، إذ لم يكن لدى حكام مصر الوعي الكافي بخطورة هذه المشكلة، وذلك لأنهم لم يُغيروا مصر القديمة وتاريخها وأثارها أهمية تذكر، وكثيراً ما كانت الآثار في ذلك الوقت تستخدم كوسيلة من وسائل التأثير السياسي، بينما درج الأهالي على استغلالها أسوأ استغلال بالحصول منها على مواد تصلح لاحتياجاتهم المعيشية ولم تتورع متاحف أوروبا بدورها عن انتهاز الفرصة ونقل ما يمكن نقله من هذه الآثار، ووضعها في قاعاتها للعرض على الجمهور بغية تحقيق قدر أكبر من التفرد والذوق والشهرة والانتشار، بينما كانت تجارة المومياوات تجارة رائجة داخل مصر وخارجها، حيث كانت تستخدم إما كوقود أو كسماد أو حتى كنواء للعلاج من الأمراض.

هكذا كانت الحال قبل إنشاء مصلحة الآثار المصرية، فقد على مصر كل قاص ودان، فبيعت في أرضها، ويستخرج منها ما شاء وشاء له جلده وصبره في العمل، ويعود بما عثر عليه إلى بلاده فيتصرف فيه كيف شاء وشاء له ضميره، إذ لم يكن في مصر في هذه الفترة ضابط ولا رابط يحكم هذه المسألة لا من القانون ولا من أعراف البلاد.

وبعد حين أخذ المصريون يتجهون إلى أن هذه الآثار هي آثارهم، وأن لها عليهم حقوقاً طبيعية وشرعية يجب أن تحدد وتوضع لها لوائح معينة وقواعد ثابتة وقوانين ملزمة، فصدرت خلال القرن التاسع عشر مجموعة الأوامر والقرارات واللوائح والتشريعات والقوانين التي تنظم أعمال البحث عن الآثار التاريخية بشكل يسمح بالمحافظة على هذه الآثار ومنع هدمها أو تخريبها أو تهريبها إلى الخارج، كما أنشئت مصلحة الآثار المصرية، وصار من حقها أن تشرف على الحفائر الأثرية على أن يكون ما يعثر عليه من هذه الآثار ملكاً للدولة المصرية، وهكذا باتت الحاجة ملحة إلى إنشاء متحف مصري للآثار القديمة، فظهر متحف بولاق، وبفضله أصبحت مصر أول دولة في منطقة الشرق الأوسط تقوم بتأسيس المتاحف القومية لحفظ الآثار، ولا يقلل من شأن هذا المتحف أنه بدأ متواضعاً، أو أنه تأثر في عمله بالضغط السياسي أحياناً، ورغم أن هذا المتحف قد مرت به عدة تقلبات محزنة خلال مشواره حياته الطويل من بولاق إلى الجيزة إلى قصر النيل إلا أنه لم تقب شمس القرن التاسع عشر إلا وقد أصبح المتحف المصري من أكبر متاحف حفظ الآثار القديمة في العالم.

ويكتنف موضوع موقف الحكام - والإدارة بصفة عامة - في مصر في القرن التاسع عشر من مسألة الآثار المصرية كثير من الغموض، إذ تعد هذه المسألة من الأمور التي اختلط فيها أمر السياسة والاقتصاد، وارتفع مستوى التعامل معها إلى أرقى مستويات الحضارة - أحياناً - حينما نرى إنساناً يهتم اهتماماً مجرداً بتراث أخيه الإنسان، كما تدنى إلى أسوأ صورة - أحياناً أخرى - حينما نلاحظ حال التكالب والتنافس على تهريبها إلى خارج مصر بطرق غير مشروعة، كما أن تلك المسألة كانت إحدى الأمور التي تم التعامل معها بصور مختلفة من قبل الإدارات المصرية في القرن التاسع عشر، بل تعارضت بشأنها بعض قرارات الإدارة الواحدة ما بين التفريط أو الإفراط المبالغ فيه.

ويزداد الأمر غموضاً وتعقيداً كلما عثرنا على مزيد من الوثائق والمصادر والمراجع الخاصة بهذا الموضوع، ففي هذه الحالة تتفاقم الحيرة وتتضاعف إشكاليات الموضوع، إذ أن النظرة العامة على هذه المصادر تؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك على تناقض ملحظه منذ الوهلة الأولى، وهو ما يتمثل في الفوضى التي تم التعامل بها مع مسألة الآثار، ونعني بها فوضى القوانين والأقوال والأفعال؛ لذا فإن هذه الدراسة تحاول رصد تلك المسألة بجوانبها المختلفة وأطرافها المتنوعة وتطوراتها المتلاحقة، وتعمل على الفوص في دهاليز السياسة في محاولة للوصول إلى رسم أقرب صورة إلى الحقيقة عن مظاهر الاهتمام وجوانب الإهمال، من حيث التوظيف السيامي والاهتمام المنظم والجاد واللامبالاة المسرفة والبحث عن الثراء... جملة ما بين تسامى القيم وتدنى السلوك. ومن هنا فقد أردت أن أخص هذا الجانب من تاريخ القرن التاسع عشر بدراسة مستقلة قائمة بذاتها يتوفر فيها العمق والاستيعاب.

ولعل أهم ما يميز هذا الموضوع هو الجدة، إذ لم نر - فيما نعلم - دراسة تعالج مسألة الآثار في مصر والاهتمام المحلي والدولي بها في القرن التاسع عشر بصورة شاملة على الرغم من أهمية هذا الموضوع وحيويته، فقد كانت الدراسات المتعلقة بهذه الفترة تهتم في معظمها بالنواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقلماً أعطت هذه الدراسات أهمية متميزة لمسألة الآثار.

لقد حفل القرن التاسع عشر بصور مختلفة من الاهتمام الدولي بمسألة الآثار، الأمر الذي أحدث نقلة كبيرة في معرفة تلك الآثار، وظهرت اهتمامات اختلفت دوافع أصحابها كما تضاربت قرارات بعض الحكام بهذا الشأن، وكل تلك الأمور جديرة بالبحث وإلقاء الضوء عليها، وإني لأمل أن أساهم - كباحث - في دراستها بصورة تتناسب مع أهمية هذا الموضوع وحيويته وخطورته.

ولعل استمرار ظاهرة تهريب الآثار القديمة المصرية إلى الخارج، كان باعثاً قوياً على البحث عن الجنور التاريخية لهذه الظاهرة والعمل على معالجتها بصورة شاملة، مع بيان موقف الإدارات المصرية المختلفة السابقة من التعامل مع هذه الظاهرة، وإيضاح الدوافع والأسباب التي حدثت

ببعض هذه الإدارات إلى الانغماس في أعمال من شأنها أن تؤدي إلى تبديد ثروة من ثروات القطر المصري، والإساءة إلى تراث القطر بغية تحقيق مصالح شخصية.

ومع ارتفاع الأصوات المطالبة بإعادة الآثار القديمة المسروقة إلى بلدانها الأصلية التي أخذت منها بغير حق، حتى إن المجلس الأعلى للآثار قد أنشأ "إدارة الآثار المستردة" لتتولى العمل على استرداد الآثار التي خرجت من مصر بطريقة غير مشروعة، أحببت أن ألقى الضوء على الظروف والملايسات التي خرجت بمقتضاها هذه الآثار من مصر - وأكثرها خرج منها خلال القرن التاسع عشر - كما أردت أن أجيب عما قد يطرأ على الأذهان من أسئلة بشأن هذه القضية من نحو: هل خرجت كل الآثار عن طريق التهب وبطرق غير مشروعة؟ وهل مازال لدينا الحق في المطالبة بها؟ وما الذي كانت تقضى به التشريعات والقوانين المصرية المختلفة في القرن التاسع عشر بشأن تهريب الآثار إلى الخارج؟ وهل كانت هذه القوانين مطبقة فعلاً؟ وما أساليب الخداع والحيل التي استخدمها المهربون من مختلف الجنسيات للتملص من هذه القوانين والهروب من الوقوع تحت طائلتها؟... وما إلى ذلك.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أتوجه بوافر الشكر إلى أستاذي العزيز الأستاذ الدكتور/ مالك محمد أحمد رشوان، الذي أشرف على هذه الدراسة، والذي يرجع إليه أكبر الفضل في إنجازها وخروجها في صورتها هذه التي خرج عليها، فما كنت أسير إلا بتوجيهه، وما كنت أصدر إلا عن رأيه وتسديد.

وختاماً: فيها هو ذا جهدي، وهو جهد المقل، فإن أكن قد وفقت فذلك فضل من الله، وإن كانت الأخرى - ونعوذ بالله منها - فمن نفسي، وحسبي أني قد اجتهدت، والخير أردت وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

د. أشرف محمد حسن علي

التمهيد

موقف الإسلام من الآثار^(١) القديمة

قد يثار تساؤل: ما الداعي للتعرض لموقف الدين الإسلامي من رقم التماثيل ونقش الصور، مع أن الآثار القديمة كانت موجودة بالفعل قبل ظهور الإسلام، فلا تنطبق عليها أحكام الشريعة في هذا الصدد على اعتبار أنها سبقت ظهور هذه الأحكام؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن موقف الإسلام من الآثار القديمة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموقفه من النحت والتصوير؛ إذ أن بينهما علاقة وطيدة - كما سيتضح لك بعد قليل - ومن ثم فإنه لم يكن من الممكن التعرض لبيان موقف الإسلام من الآثار القديمة إلا بعد بيان موقفه من النحت والتصوير.

وموقف الإسلام من النحت والتصوير أو ما يسمى بالفنون الجميلة عموماً من المسائل الدقيقة التي تحتاج إلى بسطٍ طويل لا تتسع له صفحات هذا الموجز، ولعل من أصعب الأمور على الباحث أن يجد نفسه مضطراً إلى الخوض في مسائل لا تدخل في نطاق تخصصه؛ إذ أنه - والحالة هذه - يكون أكثر عرضة للوقوع في الخطأ، ولا سيما إذا كانت المسألة تتعلق ببحث أمر فقهي قد يفضي في نهاية الأمر إلى إصدار حكم هو أقرب إلى الفتوى الشرعية، وهو أمر على درجة عالية من الخطورة لا يقدم عليه إلا من استكمل أدوات ومعارف خاصة لا بد منها لمن يقبل على الخوض في مثل هذه المسائل الشائكة، ولا يتوافر هذا الأمر إلا لقلّة من الباحثين المختصين؛ ومن ثم فإن دورنا هنا سوف يقتصر على إيراد الآراء والحجج والأدلة دون تدخل منا في الغالب إلا بقدر قليل من التنظيم والتعليق حسبما تسمح به الظروف.

هذا وتختلف الأديان فيما بينها في موقفها من النحت والتصوير والنقش تشريعاً وتطبيقاً، فقد حرمت اليهودية التصوير ونحت التماثيل تحريماً صريحاً، وتشددت في الحيلولة بين الناس وبين الفنون الجميلة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حيث جاء في التوراة في الإصحاح العشرين من سفر الخروج "لا تصنع لك تماثلاً منعوتاً، ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تمجد لهم، ولا تعبدن، لأنّي أنا الرب إلهك إله غيور" وقد قضى هذا النص على الفنون الجميلة عند اليهود قضاء مبرماً^(٢)، ولذلك كان التصوير عند اليهود في حالة بدائية ساذجة^(٣)، وأنت ترى أن علة تحريم رقم التماثيل في اليهودية - كما يتضح لك من النص السابق - إنما هي الخوف من اتخاذها آلهة أو حتى قريناً للآلهة؛ وهي نفسها العلة التي كانت السبب دائماً وراء كل تحريم لأي إبداع فني من هذا النوع.

ثم جاءت المسيحية تدعو إلى ترك الدنيا والتجرد منها والتطلع إلى الآخرة والإقبال عليها، ومثل هذه المبادئ ليس فيها ما يشجع على ازدهار الفنون الجميلة، ومن هنا يمكن القول بأن المسيحية لم تبتدع فناً جميلاً، بل انتفعت بالفن القائم بين يديها، وما الفن المسيحي إلا فن وثني لبس رداء المسيحية، فهو فن مسيحي فقط باعتبار ما يؤديه من خدمات للدين المسيحي^(٤).

أما في الإسلام فقد حرم القرآن الكريم الصور المجسمة التي تتخذ للعبادة بمقتضى قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْكَرَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٥) لأن كلمة (الأنصَاب) في الآية إنما يقصد بها الأحجار الكبيرة والأصنام التي كان العرب يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها وعندما في الجاهلية^(٦). أما التصوير باعتباره أحد الفنون الجميلة فلم يتعرض له القرآن بشيء، بينما ورد بشأنه نحو مائة وسبعين حديثاً: طائفة منها تنص على لعن المصور، وطائفة تمنع بيع الصور، وطائفة تذكر أن أصحاب الصور يعذبون يوم القيامة، وطائفة تبين إثم من يصنع الصور، وطائفة تحظر استعمال ثوب فيه تصاوير، وطائفة تشير إلى أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، وطائفة أباحت تصوير ما ليس فيه روح، وطائفة رخصت في التصوير على الوسائد وما أشبهها^(٧).

وقد وقف الناس من هذه الأحاديث التي تنص على حرمة التصوير والنحت مواقف مختلفة، فقد شكك بعض المستشرقين في صحة تلك الأحاديث من أساسها، وأنها مكشوبة على النبي ﷺ، وضمها فريق من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام - تمشياً مع تعاليم الدين اليهودي التي تنهى عن التصوير - أو وضعت ترغيباً في الزهد والتقشف والبساطة في العيش وتنفيراً من الإقبال على الترف، ويرى هؤلاء المستشرقون - تبعاً لذلك - أن النبي ﷺ لم يكره الصور، ولم ينه عن اتخاذها، وأن تحريمها لم يظهر إلا بعد وفاته ﷺ بنحو قرن ونصف قرن من الزمان عندما أخذ المحدثون يجمعون الأحاديث النبوية^(٨)، هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم لم يتعرض للتصوير بشيء كما سبق أن أسلفنا، وألج في رأى هؤلاء النفر من المستشرقين لوناً من التعاطف والميل نحو إنصاف الإسلام، فقد كبر على هؤلاء أن يتهم الدين الإسلامي بالجمود، ويأنه دين يسعى إلى كبت الحريات وتقييد ملكة الخلق والإبداع عند الأفراد، وغير ذلك من مثل هذه العبارات الطاعنة والالتمامات الباطلة التي حاول البعض إلصاقها بالإسلام من جانب هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بدعاة التنوير وما هم إلا دعاة الهدم والإفساد، على أن الوسيلة التي لجأ إليها هؤلاء المستشرقون وأعنى بها الطعن في صحة الأحاديث النبوية بدون دليل أو سند مما لا نرتضيه ولا نوافقهم عليه.

هذا وقد حاول فريق آخر من العلماء والباحثين أن يربط بين هذه الأحاديث التي تنهى عن النحت والتصوير وبين الواقع الذي قيلت فيه والسبب الذي قيلت من أجله - بغض النظر عن صحتها من عدمه - فحين ينهى النبي ﷺ عن النحت والتصوير ويعتبر المصورين أشد الناس عذاباً يوم القيامة^(٩)، فلا ينبغي أن يفهم منه عن ذلك أنه موقف عام من مطلق الجماليات المجسمة، بل يلاحظ فيها المنهج الذي أشار ﷺ إليه بقوله: "لولا قومك حديثو عهد بكفر لفلعت

ولفعلت^(١٠)، فقد كان رسول الله -ﷺ- يعمل على قطع دابر صناعة الأوثان والترويج لها بين قوم حديثي عهد بها^(١١)، فمنع التماثيل وقضى على الأوثان لأول عهده مخافة أن يساق المسلمون بالتقليد إلى عبادتها على النحو الذي كان عليه العرب في الجاهلية، فالسبب كان دينياً محضاً لأول الأمر، وقد بولغ في الحظر سداً للذريعة، والدين غرض وعهد العرب بالأصنام قريب، فتشدد الإسلام في القضاء على الأوثان لأن التوحيد أول شرط في الهداية الإسلامية ولا توحيد مع أصنام وأوثان خصوصاً في الصدر الأول^(١٢).

"ولقد كان ضرورة مصيرية ألا يسمح الإسلام بإقامة التماثيل وتصوير المناظر، وأن يتشدد في التحريم؛ لأنه لا يعقل أن تمر آلاف السنين والناس يتقبلون أمام الأصنام والأوثان يعبدونها من دون الله، ثم يأتي الإسلام ويأذن للمسلمين - وهم مازالوا في غضارة الإيمان بالله الواحد الأحد - باتخاذ التماثيل والتصاویر للترتين والتجميل، لأنه لو فعل ذلك لفتح الباب للشرك القديم، واستجاش الخواطر لتزعزعات الوثنية وما كان لها من عوائد وتقاليد، والإنسان أسير عاداته وتقاليده إلى حد بعيد، فهو يحن إليها إذا ما ابتعد عنها، ويشتد حنينه إذا ما أبعد عنها، ومن أجل ذلك كان تحريم الإسلام للنحت والتصوير"^(١٣).

ومما له دلالة عميقة في هذا الأمر، ما روى من أن رسول الله -ﷺ- لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان: يا شيبة، امح كل صورة فيه، إلا ما تحت يدي، ثم رفع يده -ﷺ- عن صورة عيسى بن مريم وأمه "والدليل على ذلك أن هذه الصورة بقيت كما هي ولم تتناولها يد المحو إلا في تاريخ متأخر، وذلك أيام ولاية عبد الله بن الزبير على المدينة سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م)^(١٤) وهو ما يدلنا على أن التصوير لم يكن منتهياً عنه جملة، وأن النهي كان عما هو مسف منه ويحول بين العبد وربّه ويمنى إلى معتقده^(١٥).

وكذلك ما يروى عن عائشة رضى الله عنها من أنها قالت: "كان لنا متر فيه تمثال طائر، وكان الداخل إذا دخل استقبله، فقال رسول الله -ﷺ-: أميطن هذا فإنى كلما دخلت فرأيت ذكرك الدنيا"، وتقول عائشة رضى الله عنها: إن الرسول -ﷺ- قد نزع الستر، فقطعت هي وسادتين كان يرتفق عليهما^(١٦). وهذا يعنى أن كراهية الرسول -ﷺ- للتحريم لم تكن عامة، بل كانت كراهية خاصة تشمل ذلك الجانب الذى يشغل عن العبادة، أما إذا كان للزينة فلا كراهية فيه، فالرسول -ﷺ- يرتفع بإيمانه المكين عن أن تستوقفه الدنيا وما بها من شهوات، ومن أجل ذلك كان يبعد وجهه الشريف عن رؤية ذلك الطائر المصور^(١٧).

وقد ثبت أن رسول -ﷺ- أقر نقود العرب في الجاهلية، وكانت ترد من الممالك الأخرى وهي مصورة^(١٨). كما يحكى عن عائشة رضى الله عنها حين زفت إلى الرسول -ﷺ- حملت معها دمي كانت تلعب بها، ولقد سألها النبي -ﷺ- عنها مرة فأجابته بأنها خيول سليمان، فضحك الرسول -ﷺ- ولم

يعد لسؤالها مرة أخرى ^(١٩)، كما يروى أن زوجات النبي -ﷺ- كن يتخذن أقمشة مزخرفة برسوم الإنسان والحيوان ^(٢٠).

كما ضرب عمر بن الخطاب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها، وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً، واستعمل يزيد بن خالد الصباحي الستر الذي فيه صور ولم ينكر الناس عمله، واستعمل يسار بن نعيم مولى عمر بن الخطاب وخازنه الصور في داره، وصبغت الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهما من التابعين ^(٢١)، وعندما دخل سعد بن أبي وقاص المدائن بعد موقعة القادسية التي هزم فيها جيوش كسرى نزل القصر الأبيض واتخذ الإيوان مصلى وكانت فيه " تماثيل جص فما حركها " كما كانت فيه لوحات مصورة فلم يأمر بإزالتها ^(٢٢)، وظلت هذه التصاویر من دون أن تمس نحواً من قرنين من الزمان بدليل ما جاء على لسان البحتری (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م):

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةً أَنْطَلَّ كِبْرَةٌ ارْتَفَعَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفَرَسٍ

وَالْمَنَاطِيَا قَوَائِلُ وَأَنْسُوشِرَ وَإِنْ يُزْجَى الصَّفُوفَ تَحْتَ الْبَرَفِ ^(٢٣)

فهذه الوقائع التي أشرنا إليها تحمل في طياتها إباحة الفن جملة إلا ما كان مسيئاً إلى المعتقد وكان فيه ما يخاف منه عليه، ويمكن اعتبارها سوابق فقهية يمكن الاحتجاج بها، بحيث إنه كلما أمنت غائلة السجود للأصنام وابتعد الناس عن عادات الجاهلية الأولى خفت القيود المفروضة على النحت والتصوير شيئاً فشيئاً وأجيز ما فيه مصلحة منه.

على أن البساطة والترف اللذين كانا سائدين في فجر الإسلام كانا لا يشجعان على نحت التماثيل أو رقم الصور ^(٢٤)، وبمرور الزمن وجدت طائفة من الملوك والأمراء ترخصوا في هذا الأمر وتسامحوا فيه، فزاولوا تصوير الأحياء وعملوا بعض التماثيل ^(٢٥)، وكانوا من أكبر دعاة التصوير ومعضديه حتى إن عبد العزيز بن مروان وإلى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) " بلغ من شغفه بالعمارة والتماثيل أنه بنى في مدينة القسطنطينية حماماً لابنه زيان، وأقام على بابه تماثلاً عجيباً من الزجاج " ^(٢٦) ثم هذا الخليفة الأموي الذي بنى قصر عَقْرًا بهادية الشام، وزين جدرانه وسقفه بالنقوش المختلفة الألوان، والخلفاء العباسيون الذين زينوا قصورهم في مدينة " سامراء " بالنقوش الجميلة، وكذلك الفاطميون في مصر وملوك فارس في إيران، وسلاطين المغول في الهند، وآل عثمان في تركيا، كل هؤلاء ازدهر في عهدهم فن التصوير ^(٢٧)، وكانوا يتسامحون في وضع الصور والتماثيل في القصور والدور والحمامات والحدائق.

يقول الإمام محمد عبده - في هذا الشأن -: "ويغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل" (٢٨).

ويقول المفكر الإسلامي محمد عمارة: "إن موقف القرآن الكريم من التصوير والتماثيل للأحياء ليس واحداً وليس عاماً، فحينما تكون سبيلاً للشرك بالله - شركاً جلياً أو خفياً - فهي حرام والواجب تحطيمها... أما عندما تنتفى مظنة عبادتها وتعظيمها والشرك بواسطتها فهي عندئذٍ نعمة من نعم الله" (٢٩).

أما وقد أصبح التعبد لصنم مما يمجّه إيمان المسلم فضلاً عن ثوقه؛ فإن له أن يصور وينحت بما يثرى حياته، ويعمق من فكره، ويجعل تأمله تأملاً كلياً يرقى فوق الصخب المادي ومغرياته (٣٠)، حتى إن ابن عطية الأندلسي المفسر يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَمُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَقَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾: "ولا يتناول أنه بقي في نفس مؤمن شيء من تعظيم الأصنام والتلبس بها حتى يقال له: اجتنبه" (٣١) مما يدل دلالة قاطعة على أن مظنة عبادة الأصنام قد انتهت تماماً بالنسبة للمؤمنين.

وهذه هي القاعدة التي سار عليها المسلمون في موقفهم تجاه ما وجدوه من آثار قديمة فيما فتحوه من البلاد صاحبة الحضارات العريقة، وهي أنه متى أمنت غائلة السجود للأصنام وانتفت مظنة عبادتها وتعظيمها فلا بأس من بقائها على حالها وإلا فلا بد من تحطيمها وتدميرها والتخلص منها، وهذا هو ما فعله القائد الفاتح قتيبة بن مسلم (٣٢) (ت ٩٦ هـ / ٧١٥ م) حين وصل - أثناء فتوحاته في بلاد ما وراء النهر - إلى سمرقند (٣٣)، ووجد فيها كثيراً من الأصنام وكان عبادها يعتقدون أن كل من اعتدى عليها مات لساعته، فكان لا بد من إعطاء درس عملي لهؤلاء الغافلين الضالين، وتنبههم على أن هذه الأصنام لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً "فأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم، وأخذ ما عليها وأمر بها فأخرجت، فجاءه غوزك فقال: إن شركك على واجب، لا تتعرض لهذه الأصنام؛ فإن منها أصناماً من أحرقتها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقتها بيدي، فدعى بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت" (٣٤).

أما في مصر فإن الوثنية كانت قد اختفت منها إلى غير رجعة، وحلت محلها المسيحية منذ عهد غير قريب، وتعدّ العهد بين المصريين وبين عبادة الأوثان، ومن ثم فإن المسلمين لم يتعرضوا للآثار المصرية بشيء ما، اللهم إلا ما دعت إليه الضرورة من استعمال بعض أحجارها في بناء المنشآت ذات النفع العام، وكذلك ما فعله بعض ضعاف العقول منهم من هدم بعض هذه الآثار ظناً منهم أنها تحتوى على كنوز وذخائر ومخبات - مما سيتلى عليك بعد - وفيما عدا ذلك فلم يؤثر عن الحكام المسلمين في مصر عبر تاريخها الطويل أنهم اتبعوا سياسة منظمة من شأنها إيقاع الضرر

بالآثار المصرية لاعتبارات دينية محضة، وإنما هو النفع العام والمصالح الشخصية، وفي ذلك يقول الأثرى أحمد نجيب: "إن الصحابة - وهم أعلام الهدى، وحجة كل من اهتدى - لم يتعرضوا لدمار هؤلاء الأصنام، ولم يقولوا بالحلل أو الحرام، ثم جاء من بعدهم السلف الصالح من العلماء، ولم يحكموا فيها بشيء ما وكانوا بها يتذكرون في المآب، وفيما فعلته تلك الأحقاب، ثم يهملون بالتوبة ويخلصون إليه الأوبة" (٣٥).

فالسبب الحقيقي - إذن - وراء حرص الملوك والأمراء والحكام المسلمين على المحافظة على الآثار المصرية والإبقاء عليها إنما هو النظر فيها والاعتبار بها، تطبيقاً لما أمر الله تعالى به في غير موضع في كتابه الكريم (٣٦) بضرورة السير في الأرض والسياسة فيها والتفكير في ملكوت الخالق، والاتعاظ والاعتبار بآثار من تقدم من الأمم.

يقول المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَقْلَمَ يَدِهِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْفُرُوقِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِيهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ (٣٧) يريد قريشاً والعرب؛ كانوا يتقلبون في بلاد عاد وثمود والطوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشام وغيره، وأنهم كانوا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم، وما حل بهم من ضروب الهلاك، وللمشاهدة في ذلك من الاعتبار ما ليس في غيره، وبين أن في ذلك آيات لأولي النهى أى لأهل العقول (٣٨).

ويقول تعالى مغاطباً أهل قريش بعد أن أورد قصة لوط عليه السلام - وكانت متاجرهم إلى الشام تمر على مدائن قوم لوط -: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَهْلًا تُغْلَلُونَ ﴾ (٣٩) أى فتعتبرون بما جرى على من كذب الرسل (٤٠).

والحق أن استجابة المسلمين الأوائل لهذه التوجيهات والأوامر الإلهية كانت سريعة وكاملة ونلمح أثر ذلك واضحاً في ذلك التراث الضخم من الكتب الجغرافية وكتب الرحلات التي تزخر بها المكتبات العربية، والتي خلفها لنا الرحالة المسلمون الأوائل، وقد بلغت هذه المؤلفات من الضخامة والكثرة والإبداع والجودة ما جعلها تولف فرعاً مهماً من فروع الأدب العربي من خلال ما يعرف بـ "أدب الرحلات".

ثانياً: الآثار المصرية قبل القرن التاسع عشر

١ - الآثار المصرية في كتابات الرحالة القدامى والعرب والأجانب

أ - الرحالة القدامى:

ما برحت مصر منذ أجيال متطاولة مطمحاً لأقطار الرواد والمستطلعين والمستكشفين من سائر الأمم والشعوب على اختلاف الزمان والمكان، ينظرون في آثارها، ويعجبون لما تركه الفراغة من المعابد والمقابر والتماثيل والأهرام مما يستوقف النظر، ويهبر العقل.

وقد ظلت آثار المصريين القدماء في مراقدها دهوراً طويلة، لا يصل إلى مكنونها علم ولا يدرك لغزها فهم، ولا تمتد إليها يد البحث والتنقيب حتى تبعثها من جديد، وتكشف عن مضامينها التاريخية، وأسرارها العلمية؛ ولذلك ظل تاريخ مصر القديم - مدة طويلة - لغزاً مجهولاً من ألغاز الزمان، غير معروف حتى المعرفة لدى عامة الناس وخاصتهم.

وقد عاشت تلك الآثار الخالدة تتحدى الفناء بشموخها، وقد حفظها تراب مصر - وساعده على ذلك مناخها الجاف - على مر الأزمان، وظل الناس جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، يأتون إليها ويشاهدونها، ويقفون أمامها وقفة إجلال وتبجيل، ولا يملكون حيالها إلا أن يصفوا روعتها، ويسجلوا عظمتها في دهشة وإعجاب.

ولم يكد يقوم مؤرخ عمومي قبل المسيح أو بعده إلا ذكر آثار المصريين وأعجب بضخامتها وبعد عهدها، ففي القرن الخامس قبل الميلاد قام هيرودوت Herodotus^(١١) بزيارة مصر وشاهد آثارها البديعة، وكتب عن الآثار المصرية وعن المصريين أنفسهم أبداع التقارير^(١٢).

وتبع هيرودوت في ذلك مجموعة أخرى من الرحالة والمؤرخين أشهرهم بلوتارك^(١٣) Ploutarkhos وديودور^(١٤) Diodoros وبليني^(١٥) Plinius ولكن هذا الأخير لم تستهوه الأهرام بصفة خاصة ورأى فيها: "إسراف زائد، واستعراض غبي للثروة قام به الفراغة"^(١٦)، بينما فضل عليها تمثال أبي الهول وقال عنه إنه: "قد يستحق الإعجاب أكثر منها"^(١٧).

ب - الرحالة العرب:

وفي العصور الوسطى كانت الآثار المصرية محل اهتمام الكثيرين من مؤرخي العرب والمسلمين، ولكنهم كانوا قد فقدوا المفتاح الذي كان من الممكن أن يفتح أمامهم أسرار تلك الحضارة العظيمة، ومن ثم فقد جاءت تفسيراتهم وشروحهم التاريخية مجردة - إلى حد بعيد - من النظرة العلمية؛ لذلك لا تعجب إذا رأينا ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٧ م) يقول: "ولم أجد عند أحد من أهل المعرفة من أهل مصر في الأهرام خبراً يثبت"^(١٨).

وإذا كان ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧ هـ / بعد ٩٧٧ م) قد رأى في الأهرام "مخازن للذخائر والأموال" ونفى أن تكون مقابر للملوك^(١٩)؛ فإن الاصطخري (ت ٣٦٤ هـ / ٩٥٧ م) قد أداه اجتهاده

إلى معرفة الغرض الأصلي من بنائها وهو أنها " قبور الملوك الذين كانوا يملك الأرض " (٥٠) وإن كان قد تفلسف في حساب عمر الأهرام وبنى حساباته على مقدمات من نسج خياله فجاءت نتائجه عارية تماماً من الصحة.

أما المقدسي (ت نحو ٣٨٠ هـ / نحو ٩٩٠ م) فقد اتبع نهجاً أكثر عقلانية من سابقه فقال: " وحولهما أمثال عدة صغار، وهذا يدل على أنها مقابر، ألا ترى إلى ملوك الديلم بالرى كيف اتخذوا قبورهم قباًباً عالية وأحكموها جهدهم وعلوها طاقاتهم كيلا تندرس " (٥١)، ثم يورد المقدسي - عن دون قصد - حقيقة لها دلالتها التاريخية الهامة حين يقول: " وثم صنم يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كسر أنفه وشفتيه " (٥٢)، وهذه الجملة المقتضبة الخاصة بتمثال أبي الهول - كما هو واضح - لها أهميتها، فهو يذكر أن الأنف كان مكسوراً حين زار مصر في القرن الرابع الهجري، رغم أن المؤرخين على مر العصور ذهبوا في تعليل ذلك مذاهب شتى، فالمقرئ مثلاً (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) يذكر أن شخصاً يدعى " محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية " (٥٣) قام في سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م لتغيير أشياء من المنكرات، وسار إلى وجه أبي الهول وشعته فهو على ذلك إلى اليوم (٥٤)، كما ادعى الرحالة الألماني فانسلب Vanslep أن ذلك قد تم على يد رجل مراكشي (٥٥)، بل قيل: إن الأنف قد تحطمت يوم معركة الأهرام الشبيبة التي دارت رحاها بين الفرنسيين والمماليك في ٢١ يوليو ١٧٩٨ م (٧ صفر ١٢١٣ هـ) رغم أن المعركة جرت في الواقع في إمبابية بعيداً عن الأهرام بمسافة كبيرة (٥٦)، كما قيل إن المماليك كانوا يتخذونه مرمى لقذائفهم، وأن هذا هو السبب في كسر الأنف (٥٧)، ولكن ما ذكره المقدسي هو ما رآه رأى العين فلا مجال للشك في ذلك، وإن كان قد علل خطأ سبب كسر الأنف والشفة بأنها بفعل الشيطان.

وتكمن فضيلة الرحالة الكبير أبو الحسن المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) في أنه نقل إلينا حديثاً دار في مجلس أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٤ م) بين جلسائه وخاصته وبين رجل قبطي معمر كان " ممن يشار إليه بالعلم من لدن حدائته، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها، وأنه ممن سافر في الأرض وتوسط الممالك وشاهد الأمم " (٥٨)، ويبدو أن هذا الرجل كان عالماً بحق، فقد تمكن - بفضل فكره الناقب وذكاؤه المتقد - من أن يسبق علماء المصريات المحدثين - العرب منهم والأجانب - في التوصل إلى كثير من النظريات التي تعد من الدعائم الأساسية التي يقوم عليها علم المصريات الحديث، فحين يتحدث عن اللغة المصرية القديمة والأنساب التي دعت إلى اندثارها وعدم التمكن من قراءتها واستكناه أسرارها يقول: " دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا حكمهم، وتداول أرض مصر الأمم، وقفلت على أهلها العلم

الرومي، وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرأه على حسب تعارفها إياه، وخلطها لأحرف الروم بأحرفها، على حسب ما وُلدوا من الكتاب بين الرومي والقبطي، فذهب عنهم كتابة أبائهم^(٥١). وهكذا استطاع هذا العالم المغمور أن يدرك العلاقة بين اللغة القبطية واللغة الرومية [اليونانية]، وهي علاقة صحيحة تماماً، وإن كان الباحثون المحدثون دائماً ما يعزّون إدراك هذا المبدأ - مبدأ العلاقة بين اليونانية والقبطية - إلى الأب اليسوعي الألماني أثانازيوس Kircher أحد علماء القرن السادس عشر الميلادي / الحادي عشر الهجري ويقولون إنه هو: "الذي وضع مبدأ أن اللغة القبطية هي التي كان يتحدث بها قدماء المصريين بعد صياغتها في حروف تشبه الحروف اليونانية، وهي بذلك تعتبر الصدى الصوتي للهيروغليفية"^(٥٢) وأنت ترى أن هذا الرجل القبطي قد سبق كبير شار إلى تأكيد هذه الحقيقة بما يزيد على سبعمائة عام.

بل إن هذا الرجل كان سباقاً إلى وضع إحدى النظريات الخاصة بطريقة بناء الهرم ثم تكسيته، حيث يقول: "كان القوم يبنون الهرم مدرجاً ذا مراقص كالدرج، فإذا فرغوا منه نحتوا من فوق إلى أسفل"^(٥٣) وهي نظرية معروفة مشهورة كثيراً ما تبناها ونادى بها المشتغلون بدراسة الأهرام المصرية في العصر الحديث، وبحكمة بالغة يضع هذا العالم القبطي العلاقة بين الشعب المصري وحكامه في العصور القديمة في إطار فلسفي ديني ملائم: "وكانوا مع هذا لهم مجد وقوة وطاعة للوكلهم ديانة"^(٥٤) وفكرة طاعة الشعوب للملوك ديانة فكرة واقعية ومنطقية خاصة في عصر الدولة القديمة.

فإن نحن وصلنا إلى البغدادي موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف الرحالة الطبيب المعروف (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) نكون قد وصلنا إلى أفضل وأشمل من كتب من الرحالة عن الآثار المصرية القديمة فيما تقادم أو توسط من العصور، فقد كان البغدادي في تقديره للآثار المصرية وإعجابه بها سابقة عصره بقرون طويلة، يقول عن الأهرام: "وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان، ولذلك صبرت على مر الزمان، بل على مرها صبر الزمان، فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً هي في غاية إمكانها، حتى إنها تكاد تتحدث عن قومها، وتخبر بحالهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وترجم عن سيرهم وأخبارهم"^(٥٥)، ويقول عن تمثال أبي الهول: "وفي وجهه حمرة وذهان يلمع، عليه رونق الطراوة، وهو حسن الصورة مقبولها، عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسماً، وسألني بعض الفضلاء: ما أعجب ما رأيت؟ فقلت: تناسب وجه أبي الهول، فإن أعضاء وجهه بالأنف والعين والأذن متناسبة، كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فإن أنف الطفل مثلاً مناسب له، وهو حسن به، حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوهاً به،

وكذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته، وعلى هذا سائر الأعضاء، فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار وهيئة بالقياس إلى تلك الصورة وعلى نسبتها، فإذا لم توجد المناسبة تشوهت الصورة، والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب في الأعضاء مع عظمها " ثم يختتم حديثه عنه بقوله: " وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه " (٦٤).

ولا يختلف ما ذكره كل من ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) والقزوينى (٦٨٢ هـ / ١٢٨٢ م) عن تمثال أبى الهول مع ما ذكره البغدادى - وقد كانا معاصرين له - فهما يبديان، إعجابهما به: " صورة منيعة كأن الصانع فرغ منه عن قرب " (٦٥)، وإن أعجب فإنه ليشهد عجبى من وجود مثل هذا التنوع الفنى الرفيع فى مثل هذا الوقت المبكر من تاريخ النقد الفنى.

وقد شدت أطلال مدينة منف القديمة انتباه البغدادى بدرجة لافتة للنظر: " فهذه المدينة مع سمعتها، وتقادم عهدها، وتداول الملل عليها، واستئصال الأمم إياها من تعفية آثارها، ومحو رسومها، ونقل حجازتها وآلاتها، وإفساد أهليتها، وتشويه صورها، مضافاً إلى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعداً، تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم الفطن المتأمل، ويحسر دون وصفه البليغ اللسن، وكلما زرتة تأملاً زادك عجباً، وكلما زدته نظراً زادك طرباً، ومهما استنبطت منه معنى أنباك بما هو أعزب، ومهما استثرت منه علماً ذلك على أن وراءه ما هو أعظم " (٦٦).

وقد رُوِّع البغدادى بما حل بالآثار المصرية من التلف والدمار بسبب الباحثين عن الكنوز والمطالب، وحط على الحكام بسبب تقاعسهم عن منع من أسماهم " الأندال المغرورون " (٦٧) من إتلاف الآثار، وأغلظ فى الكلام عليهم حتى وصفهم بأنهم " أبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل فى الخساسة " (٦٨).

هذا وقد أكثر لك من النقل عن البغدادى لترى معى أن ما دونه هذا العالم الجليل من آراء عن قيمة الآثار المصرية القديمة يكاد يكون - بل هو كذلك بالفعل - من آراء علماء الآثار فى العصور الحديثة. فليس من المستغرب - إذن - وقد عرف مؤلفو الموسوعة الشهيرة " وصف مصر " قيمة كتابه هذا " الإفادة والاعتبار " أن يستفيدوا من مادته (٦٩)، كما اعترف له بالفضل - كذلك - رواد النهضة التاريخية والأثرية الأوائل فى مصر فى القرن التاسع عشر، يقول عبد الله أبو السعود - أول من أسند إليه تدريس مادة التاريخ لطلبة مدرسة دار العلوم - فى كتابه " الدرس التام فى التاريخ العام ": " ورحم الله عصرنا بمصر ماضى، ودهراً انقرض وانتضى، كان فيه مثل الشيخ عبد اللطيف البغدادى الفقيه اللغوى الطبيب نزيل مصر - رحمه الله، وأكرم فى أعلى عليين مثواه - يذهب بنفسه، ويتسلق أعلى الأهرام بجلالة قدره، ويقيس ما عليه بناؤها من الأبعاد والمقادير، وينظر فى حقيقة أحوالها نظر العالم البصير، ويرجع إلى خلوته، فيكتب مثل رحلته " (٧٠) ويتعجب أحمد نجيب - أول من درس علم الآثار من المصريين مع أحمد كمال - من

موقف البغدادي هذا " مع أنه غريب عن هذه الديار. جاهل بحقيقة ما تدل عليه الآثار. فيما لیت شعري ماذا كان يقول لو كان وطنياً أو في عصرنا هذا وعلم من فائدته ما علم الآن؟ " (٧١)، ومما لا شك فيه أن الوطنية كما يراها أحمد نجيب لم تكن قد تحددت معالمها في عصر البغدادي، حيث لم تكن الحدود السياسية الصارمة قد رسمت على ما هي عليه الآن، وعلى الرغم من ذلك فإن البغدادي يعتبر " سائحاً " و " غربياً " على كل حال. هذا ولم أر كاتباً بعد عصر البغدادي - قديماً أو حديثاً - تناول الحديث عن الآثار المصرية القديمة والأدوار التي مرت بها إلا ونقل عن كتابه واعتمد عليه أو حتى أشار إليه. ويوشك أن يكون إعجابنا بالبغدادي كأحد أبرز الرحالة الذين زاروا مصر عبر تاريخها الطويل لا حدود له لولا مسألة عمرو وعمر (٧٢).

ونشك في أن يكون ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) قد زار منطقة الأهرام لأنه أعطى وضعاً خاطئاً لتمثال أبي الهول " وجهه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة " (٧٣) وإن كان قد أعجب - بصفة خاصة - بمعبد إخميم حتى إنه قد استغرق ما يقارب الصفحتين (٧٤) من رحلته في وصف هذا المعبد، وشاركه في إعجابه هذا كل من ابن بطوطة (ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) (٧٥) والمقرئ الذي قال عنه إنه كان مدهوناً " باللازورد وغيره من الأصباغ التي يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجذتها " (٧٦) ويظهر هذا الأخير - أعني المقرئ - اهتماماً واسع النطاق بالآثار المصرية القديمة ربما بدافع المواطنة.

وفي العصور الحديثة اهتم كتاب الحوليات الإسلامية بما كان يكشف عنه ويقول المصادفة من آثار مصرية قديمة، وقد سجل المؤرخ أحمد شلبي بن عبد الغني (ت ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م) حادثتين من هذا النوع (٧٧)، اكتشف في الأولى منهما تمثالاً ضخماً، قاس أحمد شلبي أطواله بنفسه، بينما استخرج في الثانية تابوت حجري كبير من تلوق قرية صا الحجر (٧٨) عندما كان الأهالي يحفرون لبناء ساقية، وقد أثار الاكتشاف الأول اهتماماً واسع النطاق بين رجال الحكم والإدارة في مصر حتى إن باشا مصر (٧٩) " سار إليه وتفرج عليه " (٨٠)، وإذ أدرك هذا الباشا ما يمكن أن يؤول إليه مصير هذا التمثال من التلف والإهمال والضياع حتى " أمر بردمه ثانياً فردموه "، وأما تابوت صا الحجر فقد اعتبر ملكاً خاصاً لمن كانت القرية داخلة في التزامه من أمراء المماليك وهو الأمير عثمان كتحذا (٨١) الذي أمر بنقله إلى القاهرة، فنقل إليها بعد عناء شديد وكلفة باهظة، وكانت فرصة لبعض اليهود ممن يدعون لأنفسهم علماء زائفاً ومعرفة مصطنعة، فقد رآهم أحمد شلبي بن عبد الغني وهم متعلقون حول التابوت بدعوى قراءة ما عليه من النقوش.

يبدو أننا أطلنا في عرض ما أورده الرحالة والمؤرخون المسلمون عن الآثار المصرية القديمة، ولكن هذه الإطالة وهذا العرض كان لابد منهما للرد على ما ينسبه البعض إلى العرب والمسلمين من

إهمال المحافظة على الآثار المصرية القديمة باعتبارها آثاراً وثنية^(٨٧). فأنت ترى أنهم قد اهتموا بها فعلاً كما فعل المسعودي والبغدادى والمقرئى، وقاموا بوصف الكثير منها وتسجيلها وتدوين ما توصلوا لجمعه من معلومات عنها في كتبهم. ولكنهم لم يكونوا على دراية بالنقوش المصرية التي انفلتت سرها مع الزمن، وكانت قد اندثرت قبل الفتح العربى بزمان طويل، فلم يستطيعوا الكشف عن سر ذلك الخط الهيروغليفى الذى أسموه بالقلم المجهول، ومن ثم لم يفهموا لغز الحضارة المصرية القديمة حق الفهم عن طريق العلم الصحيح باستثناء ما كان يروى من روايات ويحاك من أساطير وحكايات^(٨٨) والأهم من ذلك قيام بعض الأمراء والحكام بالبحث والتنقيب عن الآثار المصرية كما فعل عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م)^(٨٩) وأحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٤ م)^(٩٠) ومحمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦ م)^(٩١) بل إن المسعودى يؤكد أنه " كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر... أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدقائق والأموال والجواهر، وما أصيب في القبور من المطالب والخزائن"^(٩٢).

وربما كان بعض ما رواه المؤرخون عن هذه المحاولات التى أشرنا إليها مما لا يقبله العقل - كما في حالة عبد العزيز بن مروان - ولكن بعضها الآخر واقعى تماماً، ويتمشى مع ما هو معروف في الاستكشافات الأثرية الحديثة. حقاً إن الدافع وراء هذه المحاولات كان مادياً بحثاً - كما يشعر بذلك كلام المسعودى - ولكن المعرفة المجردة كانت وراء بعضها الآخر كما في محاولة المأمون فتح أحد الأهرام^(٩٣)، بل إنه كان هناك اهتمام بالنقوش الهيروغليفيه حداً ببعض الخلفاء إلى البحث عن يحسن قراءتها، مما أتاح الفرصة لكل مدع للمعرفة أن يدلى بدلوه وهو على يقين من أنه لن يجد معارضة أو إنكاراً، فجاءت كلها محاولات ساذجة يغلب عليها الحذر والتخمين، كما قرأ بعضهم على أحد الأهرام: " إني قد بنيتها فمن كان يدعى قوة في ملكه فليهدمها فإلهدم أبسر من البناء"^(٩٤)، وقرأ آخر لأحمد بن طولون: " أنا فلان بن فلان الملك الذى ميز الذهب من غشه ودنسه، فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه فليتنظر إلى فضل عيار دينارى على عيار ديناره، فإن مخلص الذهب من الغش مُخلص في حياته وبعد مماته"^(٩٥).

والذى يبدو لى أن هذه القراءة الأخيرة - على الرغم من سذاجتها الواضحة - كانت ترمى إلى غرض أبعد من ذلك بكثير: إذ ربما كانت محاولة ذكية من مدعى العلم والمعرفة هذا لى يلفت نظر ابن طولون إلى الاهتمام بأمر إصلاح المعاملات المالية حتى لا يتسلل إليها الغش والفساد، ولكنه لم يستطع مجابهة ابن طولون بقوته وسطوته وجبروته، ولا سيما أن ابن طولون كان حاد الخلق مسفك كثيراً من الدماء كما يقول المؤرخون^(٩٦)، فلجأ إلى هذه الحيلة الماكرة لى يحقق بغيته. وقد أتت حيلته هذه أكلها سريعاً، فقد قال أحمد بن طولون: " إن ما نهتني عليه هذه

الكتابة أحب إلى من المال"، ثم إن صاحبنا - وقد انطلت عليه الخدعة - بدأ " يشدد من حينئذٍ في العيار بمصر حتى صار عيار ديناره الذي عرف بالأحمدى أجود عيار"^(٩٦) مما يدل على أن الخلل والفساد كان قد تطرق بالفعل إلى النظام النقدي في عهد ابن طولون قبل هذا الحدث. ومساءلة نقد الحكام بطريق غير مباشر حيلة معروفة من قديم الزمان، تلجأ إليها الشعوب عادة عندما تشتد وطأة الحكم القائم ويضعف الوازع الديني عند الناس، فلا يستطيعون مجابهة الحكام وجهاً لوجه، ويلجأون إلى وسائل أخرى تكون أخف وطأة على الحكام من النقد المباشر"^(٩٧). ويتساءل أحد الباحثين: كم من المكاسب كانت تجنيها البشرية لو كان العرب قد عرفوا أسرار الكتابة الهيروغليفية؟ ثم يجيب: " لو عرف العرب أسرار هذه الكتابة... لأمكنهم قراءة ما كان عند المصريين القدماء من علوم وحكمة ولاستفادوا منها بما لهم من ذكاء فطري وشغف بالمعرفة، ولأضافوا إليها الكثير"^(٩٨).

هناك نص كتبه الإنجليزي جون بورنج John Bowring ضمن تقرير رفعه إلى حكومته عام ١٨٣٧ م عن الحالة العامة في مصر، كنت أنوى أن أؤخر الاستشهاد به إلى صلب البحث حيث إن فترته الزمنية التي يعالجها هي أقرب إلى البحث منها إلى هذا التمهيد، ولكني أجد نفسي مضطراً إلى إيرادها هنا لأنه يخدم قضيتنا هذه - أعني قضية الدفاع عن العرب والمسلمين ضد تهمة إهمال وتخريب الآثار المصرية - خاتماً به حديثي في هذا الموضوع، إذ يعتبر هذا النص شهادة لها قيمتها: "ومهما قيل عن التعصب الديني الذي كانت تتسم به جموع الفرس تحت قيادة قمبوز، ومهما قيل عن إهمال العرب، وطيش الأتراك، فإن جيلاً واحداً من الأوروبيين الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر بدعوى حب الفن والتعقيب عن الآثار القديمة قد أحدث في الآثار المصرية القديمة من التعظيم والتشويه والهدم ما لم يحدثه الحكم الإسلامي طوال قرون كاملة"^(٩٩).

الرحالة الأجانب:

وكما كانت مصر قبلة للرحالة العرب، فقد زارها كذلك عدد كبير من الرحالة الأجانب على اختلاف جنسياتهم، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعضهم، فمن هؤلاء: ديكيول Dicuil وهو راهب أيرلندي زار مصر في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري، ووصف أهرامها وحقق أبعادها، وصنف كتاباً ضمنه أبحاث الرحالة إلى مصر في عهده"^(١٠٠).

وفي القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري وفد على مصر الرحالة الإيطالي شرياقو دي أنكونا Ciriaco Di Ancona وزار الإسكندرية وشاهد آثارها، ثم وصل إلى القاهرة وزار الأهرام ورسمها، وقد ذكر شرياقو في كتابه الكثير عن الآثار المصرية التي رآها في رحلته، كما زوده بالصور والرسوم"^(١٠١).

وخلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي / العاشر الهجري زار الفرنسي بيير بيلون Pierre Belon مصر بين عامي ١٥٤٧ - ١٥٤٩ م (٩٥٤ - ٩٥٦ هـ) وحرص على الصعود على قمة الهرم، ثم دخله ووصف المصاعب التي صادفها وأنه اضطر لحمل شمعة في يده، وأن يزحف على بطنه في بعض المناطق داخل الهرم^(٩٨). أما أندريه تيفيه André Thevet الذي زار مصر خلال شتاء عام ١٥٥٠ - ١٥٥١ م (٩٥٧ - ٩٥٨ هـ) ومكث بها أربعة أشهر فقد أثار تمثال أبي الهول إعجابه بدرجة كبيرة، وقد قام بوصفه وذكر أن العرب يخشون الاقتراب منه، ولا يجرمون على هدمه خوفاً من أن تصيبهم اللعنة أو أن يصابوا بمكروه^(٩٩).

وفي النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي / العاشر الهجري زار الرحالة والشاعر الإنجليزي جورج سانديز George Sandiz مصر عام ١٦١١ م (١٠٢٠ هـ) وقام بتسليق الهرم الأكبر^(١٠٠)، وتبعه الفرنسي جيل فرمنال Gilles Ferrenal عام ١٦٣١ م (١٠٤١ - ١٠٤٢ هـ) الذي رأى أن الأهرام من أجمل عجائب الدنيا السبع، ولكنه وصف أبا الهول بأن "له وجه امرأة وجسد ثور"^(١٠١) ربما بسبب القلنسوة التي كانت على رأس التمثال، ولأنه كان مغطى بالرمال. كذلك قدم عالم الفيزياء الفرنسي مونكوني Monconys الذي زار مصر في نفس الفترة تقريباً (١٦٤٦ م / ١٠٥٦ هـ) وصفاً تفصيلياً عن الهرم الأكبر وحجارته التي بنى منها، وإن كان لم يجد الولوج إلى داخل الهرم ميسوراً حيث فوجئ بالعديد من الخفافيش^(١٠٢)، ويبدو أنه كان يخشاها.

ويلاحظ أن الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر حتى هذه الفترة قد اقتصرُوا في زيارتهم ووصفهم على الآثار التي تقع في مصر السفلى فقط - لا سيما في القاهرة والإسكندرية - أما آثار مصر العليا فلم يقدموا عنها أية معلومات لأنهم لم يزوروها، وربما كان الرحالتان بروتيه Proteé وشارل فرانسوا دي أورليان Charls Francoais Di Orlan اللذان زارا مصر عام ١٦٦٩ م (١٠٧٨ - ١٠٧٩ هـ) هما أول من توغل من الرحالة في زيارته حتى صعيد مصر، وقد سجل الأول منهما - بروتيه - زيارته القصيرة لمعابد الأقصر والكرنك، وأنه قضى ثلاث ساعات ونصف الساعة في معبد الكرنك، وشعر أنه في حاجة إلى شهر أو أكثر ليرى كل شيء، وكان يأمل أن يعود لزيارته مرة أخرى. ولكن بروتيه دفع ثمن رحلته تلك غالباً فقد هلك بالطاعون الذي اجتاح مصر عام ١٦٧١ م (١٠٨٢ هـ)^(١٠٣). أما الألماني فانسليب الذي زار مصر عام ١٦٧٢ م (١٠٨٣ هـ) فلم يتخط في رحلته جرجا جنوباً^(١٠٤).

ومن رحالة القرن السابع عشر الميلادي - كذلك - الإيطالي بيترو ديللا فال Valle وامتاز رحلته عن سابقيه بأنها كانت أشبه ما تكون بالبعوث التي في أيامنا هذه فقد جاء

ومنذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي / الثاني عشر الهجري كثرت رحلات الرحالة الأوروبيين إلى الشرق بصفة عامة وإلى مصر بصفة خاصة بسبب تقدم وسائل المواصلات وتوافر الأمن، ومن ثم فقد ظهر العديد من الكتب المزودة باللوحات الفنية المرسومة والتي تناولت الآثار المصرية القديمة فوصفتها بكثير من التفصيل الذي لا يخلو من الإعجاب الشديد^(١٠٧). وأول رحلة وطأت قدمه أرض مصر في هذا القرن هو الفرنسي بول لوكا Poul Lucas الذي تعتبر رحلته من أهم الرحلات التي تمت في النصف الأول من القرن الثامن عشر إلى مصر لا سيما وأنه كان " شغوفاً بدراسة الآثار "^(١٠٨) وقد زار بول لوكا مصر مرتين: الأولى عام ١٧٠٠ م (١١١١ - ١١١٢ هـ) والثانية في الفترة ما بين عامي ١٧١٤ - ١٧١٩ م (١١٢٦ - ١١٣١ هـ) وترجع أهمية رحلة بول لوكا - بالنسبة لموضوع بحثنا - إلى أن صاحبها كان من الرواد الأوائل الذين توغلوا في صعيد مصر وأول من رسم آثاره^(١٠٨)، ولم يتمس بول لوكا وهو يغادر مصر نصيبه من الآثار المصرية، فغادر إلى فرنسا محملاً بالعديد من الميديايات الأثرية الذهبية والفضية والبرونزية، بالإضافة إلى أحجار مختلفة النقوش^(١٠٩). كذلك قدم بول لوكا وصفاً لآثار الإسكندرية القديمة خاصة عمود بومبي^(١١٠).

وتبع لوكا الأب الجزويي كلود سيكار Claude Sicard الذي جاء إلى مصر عام ١٧٠٧ م (١١١٨ هـ) بغرض التبشير الديني بين الأقباط، ومكث بها عشرين عاماً حتى وفاته بالطاعون سنة ١٧٢٦ م (١١٣٨ هـ) قام خلالها بثلاث أو أربع رحلات إلى مصر العليا بين عامي ١٧٠٧ - ١٧٢١ م (١١١٨ - ١١٣٣ هـ)^(١١١)، وقد جذبت الحضارة المصرية القديمة انتباه سيكار فتوغل في مصر العليا ووصل في تجواله إلى مناطق لم يصل إليها أوروبي من قبل حتى يقال إنه وصل إلى النوبة^(١١٢). وكان قد زار معبدى الأقصر والكرنك، وتمثال ممنون والرمسيوم^(١١٣)، وبلغ جملة ما زاره من الآثار المصرية ٢٥ معبداً و ٥٠ مقبرة، ووصف ١٨ مسلة و ٢٠ هرمًا كبيراً، وأعطى وصفاً علمياً دقيقاً لما شاهده^(١١٤).

أما الطبيب الفرنسي جرانجيه Granger فقد زار مصر مرتين في عامي ١٧٣٠ م (١١٤٢ - ١١٤٣ هـ) و ١٧٣٤ م (١١٤٦ - ١١٤٧ هـ)، وتوغل في مدن مصر العليا وأعجب بمعبد الكرنك ووصفه بأنه " أجمل معابد العالم "^(١١٥). وجاء بعده الإنجليزي ريتشارد بوكوك Richard Pocock عام ١٧٣٧ م (١١٤٩ - ١١٥٠ هـ) بقصد " استكشاف روائع الإبداع الفني "^(١١٦) وزار الأقصر ورسم خريطة دقيقة لمعبداتها، ووضع رسوماً بيانية لتسع مقابر في وادي الملوك، ونسخ كثيراً من النقوش الإغريقية، وتعتبر رسومه البيانية هي الأحسن من بين مثيلاتها في عصره، وقد واصل بوكوك توغله جنوباً حتى أسوان^(١١٨)، وتوصف لوحاته التي رسمها هناك بأنها جيدة رغم قصر إقامته^(١١٩).

ومع بوكوك جاء القبطان الدانمركي لويس فريدريك نوردن Louis Frederic Norden الذي أبحر في النيل حتى فيلة ومعابد النوبة، وترك مجموعة رائعة من الرسومات لأثار طيبة^(١٢٠)، وقد قام نوردن برحلته تلك بتكليف من ملك الدانمارك كريستيان الخامس بقصد تسجيل الآثار المصرية، ومن ثم فقد كانت بمثابة بعثة علمية^(١٢١). وقد أصبح نوردن - هو وبوكوك - فيما بعد أعضاء أول جمعية لعلم المصريات أسست في لندن عام ١٧٤١ م (١١٥٤ هـ)^(١٢٢).

وفي الوقت الذي زار فيه نوردن الهرم الأكبر عام ١٧٣٧ م (١١٤٩ - ١١٥٠ هـ) كان عدد الزوار كبيراً إلى حد أن "الممرات في الجانبين الشمالي والجنوبي من الهرم قد اسودت من دخان المشاعل التي أدلاها الزوار من وقت لآخر"^(١٢٣).

ويعد بوكوك ونوردن جاء القسيس الإنجليزي توماس شو Thomas Show عام ١٧٣٨ م (١١٥٠ - ١١٥١ هـ)^(١٢٤) وزار الإسكندرية ومنطقة سقارة وفحص تمثال أبي الهول^(١٢٥)، ثم تبعه الراهب كلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont وهو من أسرة اهتمت بالآثار القديمة وقد زار فورمون مصر مرتين الأولى عام ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ)، والثانية عام ١٧٥٤ م (١١٦٧ هـ) ارتحل في الثانية منهما إلى مصر العليا^(١٢٦)، ويتميز فورمون بأنه حدد بدقة المكان الصحيح لماصمة الفراعنة القديمة بالقرب من سقارة عند الديرشين^(١٢٧). وقد أعجب فورمون بحضارة مصر القديمة إعجاباً كبيراً، وحرص على تزويد كتابه بخريطة عن سهول منطقة منف وعين شمس ضمنها شرحاً جغرافياً للأماكن القديمة^(١٢٨).

ويستحق منا الرحالة الألماني كارستن نيبور^(١٢٩) Carsten Niebuhr الذي زار مصر عامي ١٧٦١ - ١٧٦٢ م (١١٧٥ - ١١٧٦ هـ) أن نقف معه - كما استحق قبله البغدادي - وقفة بل وقفات. فقد خصص نيبور فصلاً كاملاً من الجزء الأول من رحلته - وهو الجزء الخاص بمصر - للحديث عن الآثار المصرية^(١٣٠). كما اهتم نيبور بالنقوش الهيروغليفية اهتماماً واسع النطاق، وكان على يقين بأن هذه الكتابة إنما تحفى وراءها تاريخاً عظيماً لمصر، وأن بالإمكان فك رموزها واستجلاء مكنونها وحل ألغازها ومعمايتها، بل يكاد يؤكد أن علماء أوروبا الماثبرين سيتمكنون من قراءة هذه النقوش الغريبة، وإن كان يعيب عليهم أنهم حصروا أنفسهم داخل بلادهم لا يرحلونها إلى الآثار نفسها لدراستها، يقول نيبور: "والحق أننا نجد بين جمهرة العلماء في أوروبا طائفة قليلة ممن أوتوا الصبر والمهارة لدراسة الآثار، ولكن هؤلاء لا يعملون - بصفة عامة - إلى إجراء البحوث خارج حجرة الدرس التي يقعون فيها، ولا يجدون سبيلاً إلى الآثار نفسها، وربما كانوا بحاجة إلى منتسغات من نقوش قدماء المصريين، فإذا حمل إليهم الرحالة عدداً كافياً منها؛ فإنني واثق من أنهم سيتمطيعون عما قريب أن يستجلوا الكثير من مكنونها، خاصة إذا كان أولئك الذين

سيكشفون عليها على علم باللغة القبطية الحقيقية التي كان الناس يتكلمونها قبل نزول الإغريق مصر، فهذه اللغة تبدو ضرورية لشرح النقوش الهيروغليفية^(١٣١).

وقد تكفل نيبور - بنفسه - بالقيام بهذه المهمة - أعنى مهمة مساعدة العلماء في حل رموز الكتابة الهيروغليفية - فنراه ينقل للعلماء صوراً مطابقة للأصل تماماً من النقوش الهيروغليفية حتى يعتمدوا عليها في مخططهم الطموح لحل رموز هذه الكتابة الغريبة، كما نراه يحرص على جمع الشواهد الدقيقة التي تعين على ذلك، ويقدم محاولة أولى مبدئية تتمثل في لوحة تضم جميع الهيروغليفيات المتكررة التي يمكن اعتبارها بمثابة حروف، ولست في حاجة إلى التذكير بأن رأيه في إمكان التوصل باللغة القبطية إلى حل رموز الهيروغليفية من القواعد الأساسية التي قام عليها فهم الهيروغليفية كما أسلفت القول، ولاحظ نيبور أن عمق بعض حروف الكتابة الفرعونية يصل إلى بوصة^(١٣٢) في بعض الأحيان " وهذه دلالة على حرص المصريين القدماء على حفظ أخبارهم إلى الأبد وأنه ليس الذنب ذنبهم إذا لم يعد في مقدور الخلف قراءة ما كتبه السلف " ^(١٣٣).

ويعاب على نيبور أنه ألقى - أو حاول أن يلقى - باللائمة في تخريب وتدمير الآثار المصرية القديمة على المسلمين وحدهم دون سواهم^(١٣٤) رغم أن هذا التخريب كان معروفاً منذ القدم، ولكن رجلاً سكندرياً يدعى محمد الشوربجي لقن نيبور درساً قاسياً وعملياً في اهتمام المسلمين بالعناية بالآثار القديمة عندما وجد هذا الرجل أن جدار الأساس لعمود بومبي (المعروف بعمود السواري) كان مهدماً شديد التهدم، فتناوله بالإصلاح، فما كان من نيبور إلا أن عدل عن رأيه قائلاً: " وإنما يدل ما فعله محمد الشوربجي في إصلاح العمود على أن المسلمين لا يسعون جميعاً إلى تحطيم ما في بلادهم من آثار " ^(١٣٥).

ومثله مثل بيير لوكا لم ينس نيبور حظه من الآثار المصرية، فحمل معه من مصر بعض التماثيل الصغيرة، وجعراناً جميلاً تلقاه هدية حاكم من ناحية أترب^(١٣٦) الذي " كان لا يكف عن التنقيب في أطلال هذه المدينة حتى إنه كان يكلف الناس بغرلة الأتربة المتراكمة بحثاً عن الأحجار والخواتم وما إليها " ^(١٣٧).

ولا نستطيع أن نفغل الإشارة إلى الرحالة الإنجليزي جيمس بروس Games Bruce الذي زار مصر عام ١٧٦٩ م (١١٥٥ - ١١٥٦ هـ) وهو في طريقه إلى الحبشة، وقد زار بروس سبع مقابر في وادي الملوك، وأعجب - بصفة خاصة - بنقوش مقبرة رمسيس الثالث فعكف هو ومساعدته على نسخها^(١٣٨)، ولما كان بروس أول من اكتشف هذه المقبرة ونشر رسومها فقد عرفت باسم " مقبرة بروس " ^(١٣٩)، كذلك رسم بروس ٥١٤ شكلاً مختلفاً من العلامات الهيروغليفية^(١٤٠).

ونود أن نختم حديثنا عن رحالة القرن الثامن عشر برحالتين فرنسيين لهما شهرة واسعة النطاق في مجال أدب الرحلات وهما: كلود إتين سافارى Claude Etienne Savary الذى زار مصر عام ١٧٧٧ م (١١٩١ هـ) ومكث بها ثلاث سنوات، والكونت شاسيبوف دى فولنى Chasseboeuf De Volney الذى زارها عام ١٧٨٢ م (١١٩٦ هـ). أما سافارى فهو وإن جاءت كتاباته عن الآثار سريعة إلا إنه قطع الشك باليقين حول الموقع الدقيق لمدينة منف القديمة، وكان قد ثار جدل كبير بين المؤرخين حول هذه المسألة^(١٤١). وأما فولنى - وقد بدا لي أن ألقبه بداعية الاحتلال ونذير الشؤم - فقد اتسمت كتاباته بالتعصب المكثف ضد مصر وشعبها، والكراهية البغيضة لكل ما هو مصرى حتى تمنى صراحة أن تقع مصر تحت براثن الاحتلال: "لو كانت تملك مصر أمة تقدر الفنون الجميلة لتكشفت جاهلية هذه البلاد عن مواد غزيرة يرضى بها أى بلد آخر... تلك الصنائع الدفينة في الرمال باقية وكأنها أمانة للأجيال المقبلة، وإلى هذا الزمن الذى لا نحسبه بعيداً نحيل تمنياتنا وآمالنا"^(١٤٢) وأنت خبير بأن هذه الأمة المحبة للفنون الجميلة التى يقصدها فولنى والى يتمنى لها أن تملك مصر لن تكون سوى وطنه فرنسا التى دعاها دعوة صريحة إلى احتلال مصر العارية عن أى دفاع، ولكى يحقق فولنى هذا الغرض حرص على تحليل كفاءة مصر العسكرية، وأكد أنه يمكن اجتياحها فى يسر وسهولة فليس ثمة حصون ولا قلاع على امتداد حدودها، وليس ثمة استحکامات أو مدفعية أو مهندسون، ولا يتجاوز أسطولها الرايض فى مرفأ السويس ثمانية وعشرين مركباً حربياً زود كل منها بأربعة مجانيق صدئة، ويقوم عليها بحارة لم يستخدموا البوصلة طوال حياتهم كلها، كما يشير إلى أن ميناء الإسكندرية خالٍ من أية حصون وليس فيه غير أربعة مدافع صالحة، وليس بين جنوده من يعرف كيف يصوب مدفعه، على حين أن الحامية التى تبلغ الخمسمائة قد انخفض عددها إلى النصف أكثرهم من العمال الذين لا يجيدون غير شد أنفاس الترجيلة^(١٤٣)، ومما لاشك فيه أنه كان لهذا الكلام أثر كبير فى نفس نابليون بونابرت حين طالع كتاب فولنى^(١٤٤).

كان بونابرت قد تقابل مع فولنى فى جزيرة كورسيكا عام ١٧٩٢ م واستمع منه إلى ذكرياته عن مصر مما حفزه لقراءة كتابه، وبعد ذلك، وبعد حوالى خمس عشرة سنة من رحلة فولنى يجرى الاضططلاع بالحملة، وما إن استقر رأى نابليون على غزو مصر حتى عرض على فولنى أن يصحبه إليها غير أنه اعتذر، وحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ م كان قادتها وعلماءها يحملون معهم نسخاً من كتاب فولنى^(١٤٥).

وحق الآثار المصرية لم تنج هى الأخرى من احتقار وكراهية فولنى، فبعد أن تنجح فرنسا فى احتلال مصر سوف: "يصبح بالإمكان عندئذ أن تنقب أرض النيل والصحارى الليبية"^(١٤٦) فى كل نواحيها، وأن يفتح الهرم الصغير ويهدم رأساً على عقب بتكاليف لا أعتقد أنها تجاوز الخمسين

ألف ليرة" (١٤٧) وهو يريد إضفاء الشرعية على تدميرها، وينظر إلى هذا التدمير بوصفه انتقاماً عادلاً من جانب الشعب المضطهد في مواجهة غطرسة المستبدين القدماء " هذه الأناوية، وهذه الهياكل، وهذه الأهرام العظيمة الضخامة، لا تدل على عبقرية شعب غنى محب للفنون بمقدار ما هي تدل على عبودية أمة تكابد ما تكابد من هوى أسيادها، وإننا نغفر عندئذٍ للجشع الذي ينتهك قبورهم، ويغيب آمالهم، ويضعف إشفاقنا على تلك الأخرى" (١٤٨).

ورغم كل هذا الحقد الدفين، يمضى فولنى، ويمضى بونابرت، وتبقى مصر!!!

هؤلاء هم أشهر الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر خلال عصورها المختلفة، وأبدوا اهتماماً خاصاً بالآثار المصرية القديمة، وحرصوا على تدوين وتسجيل هذا الاهتمام، وبدى أن يكون هناك الكثيرون غيرهم ممن لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم، أو ممن لم يولوا الآثار المصرية اهتماماً يجعلنا نشير إليهم هنا رغم الشهرة التي يتمتع بها بعضهم، ومنهم على سبيل المثال - ليون الأفريقي (١٤٩) - إن جاز لنا أن نعتبره في عداد الأوروبيين وغضبنا النظر عن أصله العربي - وقد زار مصر في القرن السادس عشر الميلادي / العاشر الهجري " وجاء وصفه لآثار مصر سطحياً وباهتاً" (١٥٠) ومنهم عالم الطبيعة الفرنسي سونين Sonnini الذي زار مصر في الفترة ما بين ١٧٧٧ - ١٧٨٠ م (١١٩١ - ١١٩٤ هـ) ووضع عنها مؤلفاً من ثلاثة أجزاء جاءت فيه " كتاباته عن الآثار سريعة" (١٥١)، ومنهم الكونت دانتريج Danzig الذي زار مصر عام ١٧٧٩ م (١١٩٣ هـ) لكن رسائله عن مصر " كتبت باختصار شديد خاصة فيما يتعلق بالآثار" (١٥٢)

ولا يستطيع المرء إلا أن يلتبس العذر لهؤلاء الرحالة الذين لم يكن بوسعهم - بسبب الموقف العدائي من جانب الأهالي تجاههم - أن يمتدوا في مواقع الآثار في أغلب الأحوال أو حتى مجرد أن يتزلوا إليها، وكان على الكثيرين أن يكتفوا بتسجيل مجرد ملاحظات سريعة، ولم يكن بوسعهم إلا أن يستحضروا بشكل تقريبي ما لمحوه من آثار أثناء اجتيازهم لهذه البلاد: حتى إن القبطان الدانمركي نوردن - على سبيل المثال - وجد لزماً عليه أن يرسم معبد آمون في الكرنك من سفينته (١٥٣)، كما أن عداء الأهالي تجاه بيير لوكا جعل من المستحيل عليه التوقف في الأقصر أو عبور النهر إلى القرنه (١٥٤)، وكاد بروس أن يفقد حياته في وادي الملوك مما اضطره إلى استعمال الأسلحة النارية للدفاع عن نفسه (١٥٥) ووجد نيبور ورفقاؤه عنتاً ومشقة شديدين من الأعراب أثناء زيارته لمنطقة الأهرام (١٥٦)، واضطر ريتشارد بوكوك إلى الحصول على إذن خاص من مشايخ الهدو لزيارة أحد المعابد بالكرنك لأن المعبد كانت تحتله النساء (١٥٧). ولعل إحجام من أحجم من الرحالة الأجانب عن زيارة الآثار المصرية والتوغل جنوباً في مصر العليا وإثارة السلامة لهو وسام شرف على صدر إخوانهم من الرحالة ممن لم يحذ حنوهم، وخاطر بنفسه متحملاً صعوبة المناخ

ووعورة الطرق والمسالك وعداء الأُمالي وفتك الأوبئة والطواعين من أجل الكشف عن حضارة كانت لا تزال مجهولة للبشرية حتى عصره وإن كلفه ذلك حياته.

ولم يقتصر أمر الاهتمام بالآثار المصرية من جانب الأجانب على الرحالة فقط، بل إن كثيراً من قناصل الدول الأوروبية العاملين في مصر كانت لهم اهتماماتهم الأثرية، ويأتى في مقدمة هؤلاء القنصل الفرنسي دى مايبه De Maillet الذى عمل في مصر ستة عشر عاماً من سنة ١٦٩٢ م (١١٠٣ هـ) إلى سنة ١٧٠٨ م (١١٢٠ هـ) وحرص مايبه على تدوين مشاهداته عن مصر على هيئة رسائل بلغ عددها ثلاث عشرة رسالة، خصص الرابعة منها لمدينة الإسكندرية وآثارها القديمة، وأفرد الخامسة للقاهرة وآثارها، بينما جعل الرسالة السادسة عن الأهرامات، والسابعة عن مومياءات منف، أما الرسالة العاشرة فقد خصصها للحديث عن دبانة الفراعنة، وقد أعجب مايبه بآثار مصر وحضارتها، وكان من رأيه أنها في حاجة إلى كشف على بواسطة علماء لديهم حب الاستطلاع والمعرفة، وبذلك يكون مايبه هو أول من نهى إلى دراسة آثار مصر دراسة علمية دقيقة ومتأنية^(١٥٨). كما كان مايبه كثير الزيارات للآثار المصرية بقصد البحث والدراسة حتى ليذكر نيبور أنه دخل الهرم الأكبر أكثر من أربعين مرة^(١٥٩)، ولكنه لم يكتفى بالزيارة فقد كان " ينقب ويسرق روائع الآثار "^(١٦٠).

كذلك يعتبر القنصل الفرنسي لى مير Le Maire الذى عمل في مصر من سنة ١٧١١ م (١١٢٣ هـ) إلى سنة ١٧٢٢ م (١١٣٤ - ١١٣٥ هـ) من القناصل الذين أولوا الآثار المصرية اهتماماً كبيراً^(١٦١).

وكان طبيعياً جداً أن يأخذ بعض هؤلاء الرحالة والقناصل عند عودتهم إلى أوروبا ما خف حمله وغلا ثمنه من الآثار المصرية مثل التماثيل الصغيرة والتعاويذ والتماثيل وما إلى ذلك باعتبارها نوعاً من الطرائف والغرائب. وقد رأينا من قبل غنيمه بول لوكا ونيبور من الآثار المصرية، كما اشترى بوكوك في القاهرة تماثيل^(١٦٢)، ويذكر بروم: " إن أحد التماثيل قد تم شراؤه مؤخراً لمجموعة ملك سردينيا "^(١٦٣) ولكنها على كل حال كانت قطعاً خفيفة الحجم قليلة العدد؛ إذ لم يكن النهب المنظم لثروة مصر الأثرية قد بدأ بعد.

٢ - الآثار المصرية المنقولة من مصر قبل القرن التاسع عشر:

قصة نهب وسرقة الآثار المصرية وإخراجها من مصر قديمة قدم الآثار نفسها، ومن العجيب أن يكون أول ما أخرج من آثار مصر هي القطع الضخمة من مسلات وتماثيل كبيرة بقصد تزوين الميادين الهامة في المدن الأوروبية الكبرى، فقد نقل أشور بانيبال Ashur Banipal مسلتين من مصر إلى نينوى^(١٦٤)، وفي العصر الروماني كان بعض القياصرة الذين استهوتهم المسلات الجرانيتية الضخمة - بصفة خاصة - يفخرون بأنهم استطاعوا أن ينقلوا من مصر المسلات

والتماثيل المصرية التي كانت تعاد إقامتها في أفخم مبادين مدينة روما، وكان من نتيجة ذلك أن فقدت مصر عدداً هائلاً من المنشآت المنحوتة والتماثيل والأحجار المنقوشة والمسلات^(١٦٥) بالرغم من كل صعوبات الفك والنقل وإعادة التركيب.

وقد حظيت مدينة روما - بصفة خاصة - بالنصيب الأوفر من المسلات المصرية حتى لقبت بمدينة المسلات، إذ تمتلك وحدها سبع عشرة مسلة منها سبع مسلات مصرية صميمة، ارتفاع كل منها يزيد على ستة أمتار، والباقي مما قلده الرومان تماماً، حتى إنهم قلبوا المخطوطات البيروغليفيه المنقوشة عليها^(١٦٦). هذا وقد أقدم الباباوات على تشويه المسلات المصرية التي نقلوها إلى مدينة روما في الأثران المختلفة بوضع الصليب على قمعتها دليلاً على انتصار المسيحية على الوثنية، وقد كان هذا التشويه المتعمد مثار انتقاد عنيف حتى من المسيحيين أنفسهم من أمثال جيمس بيكي Games Baikie الذي انتقد هذا العمل قائلاً: "وقد عبث بهذه المسلات إعلاء للعقيدة المسيحية عندما شوهت بوضع رموز الصليب على قمعتها"^(١٦٧)، أما الأستاذ سليم حسن - رحمه الله - فقد آهاب بأولى الأمر في مدينة روما "إذا كانوا يريدون المحافظة على تلك الآثار الرفيعة التي تدل على عظمة القومية المصرية، والتي اختلست من أرضهم أن يعيدها إلى سيرتها الأولى التي كانت عليها بقدر المستطاع، ولعمر الحق أن تعاليم المسيح الصامية لا تحتاج إلى مثل هذه الرفعة الوضعية" ثم يختم كلامه - رحمه الله - بجملة تخفى وراءها كثيراً من المعاني: "إن البعوضة قد تتسنى أعلى قمم الجبال وأشهبها وهي مع ذلك بعوضة"^(١٦٨)

ولما كانت مسألة إقامة مسلة لمجرد الزينة أمراً غير ذي نفع عند الرومان "ولما كانت أفكارهم متجهة دائماً نحو المفيد النافع فقد كانوا يجعلونها في مقاصد نافعة بأن استخدموا إحدى هذه المسلات كمزولة لبيان الوقت بينما جعلت الأخرى حداً"^(١٦٩).

وبالإضافة إلى مسلات روما توجد أربع مسلات في فرنسا، وواحدة في لندن، وواحدة في إسطنبول، وواحدة في بروكسل، وأخرى في برلين، وواحدة في نيويورك^(١٧٠) وتبلغ جملة المسلات الموجودة الآن في بلدان العالم المختلفة خمساً وخمسين مسلة، يعتبر بعضها أملاكاً خاصة لأفراد، ولا تملك مصر منها سوى خمس مسلات إحداها صغيرة للغاية^(١٧١) وإذا استثنينا المسلة الموجودة في ميدان الكونكورد (الوفاق) بباريس، ومسلة لندن، ومسلة نيويورك، والمسلة القائمة في ضبعة بانكس بإنجلترا، وكذلك نصف المسلة القائم في ذات الضبعة والتي خرجت جميعها من مصر في القرن التاسع عشر - وسوف نتناول الحديث عنها في حينها - تكون كل المسلات المصرية الأخرى الموجودة خارج مصر قد خرجت منها قبل القرن - التاسع عشر - أو بعده، وإن كانت جريدة المقتطف قد نشرت في عددها الصادر في سبتمبر ١٨٩٤ (١٣١٢ هـ) ما يؤكد أن "جملة المسلات المصرية الموجودة الآن ٥٥ مسلة: ٣٣ منها قائمة في بلدان مختلفة، و٢٢ مطروحة في القطر

المصرية مدفونة بالآثورة والأنقاض^(١٧٦)، فهل يعنى ذلك أنه قد خرجت من مصر مسلات أخرى في القرن العشرين؟ على أية حال فإن هذا الأمر لا يدخل في نطاق الفترة الزمنية لموضوع بحثنا. وغنى عن البيان أن هذه المسلات قد خرجت من مصر إما قهراً أو بطرق احتيالية خادعة أو بممالة من بعض حكام مصر المتواطئين الجهلاء.

وباستثناء المسلات يمكن القول بأن الآثار المصرية كانت نادرة في أوروبا قبل القرن التاسع عشر، وأنه لم تكن هناك - حتى ذلك الوقت - مجموعات متحفية مصرية حقيقية، بل تكاد تقتصر تلك الآثار على قطع قليلة العدد والأهمية تمكن من جمعها بعض الهاربين لامتلاك الغرائب والطرف من أمثال القاضي الفرنسي كلود دى برسك Claude de Peresc (١٥٨٠ - ١٦٣٧ م / ٩٨٨ - ١٠٤٦ هـ) الذى كان على علاقة وطيدة بأعضاء الجالية الفرنسية في مصر مكثه من اقتناء مجموعة من القطع الأثرية المصرية، كما ترتب على اهتمام بعض الأسر الحاكمة في أوروبا مثل أسرة آل مديتشى Medici في إيطاليا بجمع التحف أن اتخذت عملية اقتناء الآثار شكلاً أكثر جدية في القرن السادس عشر الميلادى / العاشر الهجرى، وكان من بين تلك التحف القليل من الآثار المصرية^(١٧٧).

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين اعتاد المترفون على السفر والترحال جامعين المنوعات والغرائب ليملاؤا بها خزائهم، وليرضوا بذلك نزعة حب التملك في نفوسهم، وليثيروا عجب أصدقائهم ومعارفهم، وكان الملوك والنبلاء الفرنسيون من أكثر أهل أوروبا اهتماماً بجمع الآثار؛ ففي عام ١٦٨٤ م (١٠٥٨ هـ) ظهر في مارسيليا ما أطلق عليه اسم "أصنام من مصر لحفظ المومياوات بإحكام"^(١٧٨) وهى تسمية يقصد بها التوابيت الأثرية على ما هو واضح، كما يتضح من أقدم جرد للآثار المصرية الموجودة في مكتبة لويس الرابع عشر، ويرجع تاريخه إلى عام ١٦٨٤ م (١٠٩٥ هـ) أنها كانت تحتوى على ما لا يقل عن ثلاث وثلاثين قطعة من الآثار المصرية، تضم تماثيل صغيرة وعدداً من الجعارين، وسبع عشرة مومياء من بينها اثنان غير سليميتين^(١٧٩)، ولا غرو فقد كان لويس الرابع عشر حريصاً على إرسال البعثات إلى بلاد الشرق للبحث عن العملات والمخطوطات وغيرها من الآثار؛ وقد كانت رحلة فانسلب - التى أشرنا إليها من قبل - بتكليف منه بهدف "الحصول على أكبر قدر من المخطوطات والعملات الأثرية"^(١٨٠)، وكذلك رحلة بول لوكا الذى أمره لويس الرابع عشر بأن "يحاول فتح أى هرم ويحصى ما بداخله"^(١٨١).

أخذت سوق الآثار المصرية تلتعش تدريجياً خلال القرن الثامن عشر. وفي عام ١٧٢٣ م (١٠٣٥ - ١٠٣٦ هـ) عرض توماس سيرجنت Thomas Sirgent - أحد هواة جمع الآثار - على جمعية الآثار في لندن "صندوقاً به تماثيل لمجموعة من الآلهة المصرية جاء مؤخراً من القاهرة"^(١٨٢) شد به انتباه أعضاء الجمعية مما زاد من الإقبال على شراء الآثار المصرية وارتفاع

أسعارها. كما ضمت مجموعة الطبيب الإنجليزي هانزسلون Hanze Slone - أحد مؤسسي المتحف البريطاني، والذي كانت مجموعته هذه نواة المتحف البريطاني عند إنشائه وتأسيسه سنة ١٧٥٦ م (١٠٦٩ - ١٠٧٠ هـ) - آثاراً مصرية من بينها بعض لفائف البردي وأدوات أخرى^(١٧٩). وبعد إنشاء المتحف كانت الآثار المصرية تشتري وتجلب باسم المتحف، ثم توضع للعرض، ولكنها كانت أشياء صغيرة من تماثيل وجعارين وفخاريات كتلك التي يمكن أن توجد في أسواق القاهرة والإسكندرية، وفي عام ١٧٥٦ م - سنة تأسيسه - حصل المتحف البريطاني على أولى موميائاته وتواييته عن طريق الهبة من أحد هواة جمع الآثار البريطانيين، ثم لم يلبث أن منح المتحف تابوتا ومومياء آخرين^(١٨٠).

وخلال ثمانينيات القرن الثامن عشر الميلادي أظهرت ماري أنطوانيت (ملكة فرنسا ١٧٥٥ - ١٧٩٣ م / ١١٦٨ - ١٢٠٧ هـ) شغفاً زائداً بمصر وأثارها حين أمرت " بإحضار عدد من القطع الأثرية المصرية إلى القصور الملكية"^(١٨١)، كما ضم متحف مدينة جرينوبل الفرنسية - مسقط رأس شامبليون - عشر قطع من الآثار المصرية أهمها تابوتان أحدهما يحتوى على المومياء الخاصة به، وكان قد أهداهما للمتحف القنصل الفرنسي ألفرس مور - الذي ينتهى إلى ذات المقاطعة - وكان يعمل قنصلاً عاماً في مصر لفترة من عام ١٧٩٩ م^(١٨٢) (١٢١٣ - ١٢١٤ هـ)، ومن المؤكد أن شامبليون قد زار هذا المتحف مراراً وهو صغير، وربما كان أحد الأسباب التي أدت إلى تعلقه وشغفه بالمصريات فيما بعد.

ولعل في صنيع ألفرس مور هذا ما يوضح لك الدور الذي كان يقوم به الدبلوماسيون الأجانب العاملون في مصر في سرقة وتهريب الآثار المصرية إلى الخارج؛ ولاسيما وأن أعباءهم الوظيفية كانت قليلة، والعائد المادى الذي كانوا يتلقونه من حكوماتهم مقابل أداء مهام وظيفتهم كان - في ذلك الوقت - ضعيفاً^(١٨٣). ولا يضمن لهم معيشة كريمة. وكان لديهم من الوقت والفراغ ما يمكنهم من القيام برحلات مستمرة إلى مناطق الآثار، وكانت العلاقات الشخصية بحكم وظيفتهم تذلل لهم المصاعب والعقبات، ومن هنا كان جمع الآثار بالنسبة لهم هواية وعملاً إضافياً مربحاً معاً^(١٨٤). ولا أراى أكون مبالغاً إن ذهبت إلى القول بأن هؤلاء القناصل إنما كانوا يقومون بعملهم هذا بمباركة من حكوماتهم وتحت مسمعا وبصرها، ويتضح ذلك جلياً من الرسالة التي بعث بها القنصل الفرنسي بالقاهرة دى هوساي Houssay إلى الكاردينال ريشليو Richelieu^(١٨٥) عام ١٦٣٨ م (١٠٤٧ - ١٠٤٨ هـ) والتي يقول فيها: " حيث إن أجمل الآثار القديمة قد صانت نفسها من عوادي الزمن قروناً عديدة ليتسنى لنيافتكم اختيار ما تشاءون منها لتزين مكاتبكم، أو الحفظ في خزائن نفائسكم؛ أتشرف بإخطاركم أنى... وزعت منشوراً في المشرق على كل القنصليات الفرنسية ينبه إلى ضرورة اتخاذ ما يلزم لتحقيق هذا الهدف النبيل"^(١٨٦).

ويتضح لك من هذه الرسالة مدى حرص الحكومات الأوروبية ورجالها العاملين في الشرق ومدى تفهمهم على اقتناص كل ما هو غريب وطريف من آثار تلك البلاد، وإن كان ينهى الاعتراف بأن فساد الأنظمة السياسية والإدارية القائمة في مصر في ذلك الوقت قد شجع على القيام بمثل هذه السرقات المنافية للأعراف والتقاليد الدبلوماسية، فكان استعمال الحيلة والرشوة أهم العوامل اللازمة للنجاح في هذا المضمار.

وإزاء هذا النجاح الذي حققه الدبلوماسيون الأجانب في مجال تهريب الآثار المصرية إلى الخارج، اتجهوا إلى التفكير في أن يحذوا حذو الرومان - قديماً - بنقل القطع الأثرية الضخمة كالمسلات والتمائيل الكبيرة بقصد تزوين العواصم المختلفة والمدن الأوروبية الكبرى، حيث ينسب إلى القنصل الفرنسي ماييه فكرة نقل مسلة مصرية إلى فرنسا، بل إنه فكر كذلك في نقل عمود السواري من الإسكندرية إلى باريس ورأى أنه يصلح لوضع تمثال لويس الرابع عشر على قمته، وقد قدم ماييه اقتراحه بالفعل إلى الحكومة الفرنسية ولكنه رفض نظراً لتكلفة المشروع العالية^(١٨٧).

وإلى جانب القناصل كان الكثيرون من رواد السياحة الذين زاروا مصر في مطلع العصور الحديثة يحرصون كل الحرص على العودة إلى بلادهم محملين بهدايا وتذكارات مصرية قديمة كالتماويد والتمائم والجعارين والتمائيل الصغيرة والبرديات وما إلى ذلك، وقد استمرت هذه العادة قروناً طويلة، وأنت تجد صدى لهذه العادة في مقولة رجل الدين الفرنسي الأب ماري جوزيف دي جيرامب Mary Joseph De Geramb التي داعب بها محمد علي أثناء مقابلة معه عندما زار الأول منهما مصر عام ١٨٣٣ م (١٢٤٨ هـ): "يخيل إلى ياسمو الأمير أن الإنسان لن يكون جديراً بالاحترام إذا هو عاد من مصر إلى أوروبا دون أن تكون في إحدى يديه مومياء وفي الأخرى تمساحاً" (١٨٨)، وقد استحضر جيرامب معه بالفعل من سيناء "مومياء في حالة جيدة"^(١٨٩)، وإن كان فيما يبدو قد عجز عن استحضار التمساح الذي كان في ذلك الوقت أصعب منالاً من المومياوات وغيرها من الآثار.

وقد تمتعت أسواق القاهرة الشعبية بشهرة عريقة في بيع الآثار والتحف ذات الأصل الفرعوني، كذلك كانت المومياوات وما يتصل بها متوفرة في هذه الأسواق، وكان تجار العاديات يتكفون ببيع الآثار والتحف لهؤلاء السائحين الذين كانوا يقبلون على الشراء منهم للحصول على هذه التحف إما بقصد التملك الشخصي على سبيل التذكار وإما بقصد الربح والتجارة، إذ كان يسهل تصريفها في أوروبا وتحقيق مكاسب كبيرة من ورائها^(١٩٠).

بل إن بعض السائحين كانوا يقومون بالتنقيب عن الآثار بأنفسهم بعد الحصول على إذن بذلك من السلطات متى كان لديهم من المال والنقود والفراغ ما يمكنهم من القيام بهذا العمل:

وقد نجعت بعض هذه الأعمال وأدرت على أصحابها الكثير من المومياوات والمتاع القبرى الجميل^(١١). رغم المخاطر والمضايقات التى كانوا يتعرضون لها من جانب الأهالى الذين كانوا ينظرون بعين التوجس والريبة إلى كل ما هو أجنبى، وربما كان لهم بعض الحق فى ذلك.

٣ - مشكلات الآثار المصرية قبل القرن التاسع عشر

هذا عن الآثار التى نقلت خارج مصر، أما عن الآثار التى بقيت فى الداخل فيمكن القول بأن الآثار المصرية قد تعرضت عبر تاريخها الطويل لموجات متلاحقة من السرقة والهدم والتخريب طوال العصور المختلفة، ويمكن بلورة مظاهر هذا الإهمال الذى لحق بالآثار المصرية فى ثلاث اتجاهات أو محاور رئيسية:

المحور الأول: التخريب.

المحور الثانى: الاستغلال.

المحور الثالث: السرقة.

وهذه المحاور أو الاتجاهات الثلاث المذكورة مرتبطة ببعضها إلى حد كبير بحيث لا يمكن فصل أحدها عن الآخر؛ إذ أنه كثيراً ما تؤدي السرقة إلى تخريب الأثر، كما أنه لابد أن يتبع هذا التخريب استغلال لما تبقى من الأثر، كما أن تعرض أثر ما من الآثار لعملية من عمليات التخريب لا بد أن يصعبه سرقة ما يحتويه هذا الأثر من كنوز ونفائس وما إلى ذلك.

أ - التخريب.

أما عن التخريب فقد يكون الدافع إليه دينى مرده إلى اختلاف الملل والعقائد، وإما سياسى راجع إلى اختلاف الأفكار والتوجهات، وإما شخصى بحث أوجدته الأحقاد والضغائن بين بنى البشر.

ومما لا شك فيه أن مصر قد شهدت - على طول تاريخها - عدداً كبيراً من الملل والشرائع والنحل والأديان السماوية والوضعية، كما تعاقب عليها غزاة وفاتحون ذووا معتقدات وأفكار دينية وسياسية مختلفة من شتى أرجاء المعمورة، وكانت مسرحاً لعدد لا يحصى من الفتن والثورات والاضطرابات مرت مصر خلالها بفترات طويلة من اختلال النظام وانعدام الأمن تخللها صور متنوعة من أعمال الملب والنهب والتخريب من تلك التى تتخذ من الممتلكات والمباني العامة والحكومية هدفاً لها عادة، وكثيراً ما تؤدي الغلبة لأحد الفريقين المتنافسين والمتصارعين على الآخر إلى اندفاع جارف ومحموم من جانب الغالب فى سبيل تدمير كل ما تصل إليه يده من ممتلكات المغلوب بدافع الرغبة فى الانتقام.

هذا وقد اشتهرت أسرات حاكمة بعينها بأنها ضربت بسهم وافر فى مجال النهب والتخريب مثل الأسرة السابعة والعشرون الفارسية التى "دمرت كثيراً من آثار مصر، وفتحت القبور، ونبشت

الأموات^(١١٦)، وكذلك الأسرة الرابعة والثلاثون الرومانية التي قيل إنها كسرت في يوم واحد بمصر أكثر من أربعين ألف تمثال^(١١٧). ورغم أن هذا العدد قد لا يخلو من بعض مبالغة إلا أنه يدل دلالة واضحة على ضخامة وكثرة ما دمر من الآثار المصرية على عهد هذه الأسرة.

وقد أدى ظهور المسيحية إلى تخريب الكثير من آثار الماضي بهدف القضاء على الوثنية وتسهيل انتشار الدين الجديد، ولعل هذا هو ما دفع الإمبراطور ثيوديسيوس إلى أن يأمر في سنة ٣٨٩ م بهدم معابد مصر " فدكت معابد دامت على الأرض خمسة آلاف من المئين لم تفعل بها عاديات الحروب والإغارات ما فعلت بها يد الدين الجديد "^(١١٨) ونال السرايوم - بصفة خاصة، باعتباره مديناً للآلهة - حظاً من التخريب والتدمير أكثر مما نال غيره من المعابد المصرية الأخرى، وكان ذلك على يد البطرك المتعصب سيريل وجنوده في عام ٣٩٧ م^(١١٩)، أما ما عجزت يد المتدينين الجدد عن هدمه من المعابد المصرية فقد اكتفوا بتشويه النقوش والكتابات التي كانت تغطي جدران تلك المعابد وبمحو ما عليها من صور الآلهة القدماء، حيث " اعتبر الأقباط أن نقوش المعابد من الشرور التي تجر إلى الخطيئة "^(١٢٠) وما كان يعسر تشويهه من النقوش كانت تتم تغطيته بطبقة جصية رسموا عليها صوراً للملائكة والقديسين.

هذا وقد قام الأقباط بتحويل عدد كبير مما تبقى من المعابد المصرية إلى كنائس بعد أن أدخلوا عليها من التعديلات المعمارية والفنية ما يجعلها تتلائم مع وظيفتها الجديدة مثل إقامة المذابح^(١٢١) وإزالة النقوش ورسم الصلبان وما إلى ذلك، وقد تهدت هذه الظاهرة بصورة أكثر وضوحاً في مناطق النوبة من صعيد مصر حيث تحولت معابد مثل معبد فيلة وبيت الوالى ودندرة والمحرقه ووادي السبوع وعدة وعمدا وكوروسكو والدر وأبو عوده - من الشمال إلى الجنوب على التوالي - إلى كنائس.

أما معبد دندرة فقد سجل على جدرانه نص مكتوب باللغة القبطية يتحدث - صراحة - عن تحويل هذا المعبد إلى كنيسة مسيحية عام ٥٧٩ م^(١٢٢)، وأما معبد إيزيس بفيلة فقد افتتحه رئيس مطارنة أسوان بعد تحويله إلى كنيسة عام ٥٧٧ م^(١٢٣)، بينما كانت لا تزال ترى حتى وقت قريب آثار تحويل معابد بيت الوالى ووادي السبوع إلى كنائس^(١٢٤).

وعندما زار شامبليون معبدى جبل عدة وعمدا شتاء عام ١٨٢٨ - ١٨٢٩ م (١٢٤٤ - ١٢٤٥ هـ) وجد أن معظم نقوش المعبدین البارزة مغطاة بطبقة من الملاط اضطر شامبليون لترعها باستخدام المطرقة حتى يتمكن من قراءة تلك النقوش^(١٢٥).

والى الشمال من مناطق النوبة بنى الأقباط كنيسة في ساحة معبد الأقصر بعد أن أدخلوا عليها عدة تعديلات: " فشوهوا جميع صور معبوداتها، ومحيت كتابتها بوضع طبقة من الجص عليها وتكسرت أساطينها وأزيلت وكانت ثمانية واستعوضت بعمودين من الجرانيت "^(١٢٦)، كذلك

حول الأقباط إحدى قاعات معهد رمسيس الثالث بمدينة هابو إلى كنيسة بعد أن أزالوا عدداً كبيراً من أعمدتها^(٢٠٦).

هذا وقد انتقد جوستاف لوبون أعمال التخريب والتدمير التي قام بها الأقباط تجاه الآثار المصرية القديمة، ووصف تلك الأعمال بأنها تعد "من أفظع ما عرفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية، ومن دواعي الأسف أن كان من بواكير أعمال ناشري الدين الجديد الذي حل محل دين الأنفاقة والرومان هدم المباني التي احترمتها أكثر الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة" ويعتقد لوبون أن هذه الأعمال التي يصفها بالوحشية قد أدت إلى سرعة "إمحاء الحضارة المصرية وزوال دور الخط الهيروغليفي"^(٢٠٧).

أما جيمس بيكي فيدعي على أحد الأساقفة الأقباط الذي ادعى لنفسه الفضل في القيام بإزالة النقوش البارزة من قاعة معهد إيزيس بقوله بعد تحويله إلى كنيسة بقوله: "كنا نود لو أن الأسقف الطيب تركه وشأنه كما هو"^(٢٠٨)، ويصف النقوش والرسوم المسيحية التي رسمها بعض الرهبان المسيحيين على جدران معهد وادي السبع بأنها "تمثل أكثر الفنون مأساوية" وبيتها وبين النقوش المصرية القديمة "فرق كبير ومأساوي وتدعو إلى الحزن"^(٢٠٩).

ولم يعهد عن المسلمين الذين فتحوا مصر ثم حكموها بعد ذلك أنهم قاموا بحملات منظمة تستهدف التدمير والنيل من الآثار المصرية القديمة، وكل ما ورد بهذا الصدد إنما هي محاولات فردية من جانب بعض الأشخاص الذين أداهاهم اجتهادهم القاصر إلى أن القضاء على تلك الآثار هو نوع من محاربة الوثنية وتعدد الآلهة، ولم يفتنوا إلى مالها من قيمة تاريخية وفنية كبيرة، فضلاً عن قيمتها المادية، وباستثناء هذه الحالات الفردية القليلة رأينا كيف أن رحالة المسلمين وعلماءهم وحكامهم كانوا يولون الآثار المصرية القديمة اهتماماً عظيماً، ومصادق ذلك قول العلامة البغدادي - رحمه الله - "وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار، وتمنع من العبث فيها والعبث بها وإن كانوا أعداء لأربابها، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها: لتبقى تاريخاً يتلوه به على الأحقاب، ومنها أن تكون شاهدة للكتب المنزلة، فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها، ففي رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر، ومنها أنها مذكورة بالصبر، ومنية على المأل ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم، وغير ذلك. وهذا كله مما تشاقق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه"^(٢١٠).

ب- الاستغلال.

أما عن استغلال الآثار المصرية القديمة باتخاذها مقاليع للأحجار، والاعتماد عليها كمواد أولية للبناء وغيره، واستخدامها في أعمال المنافع العامة فيى عادة قديمة ترجع إلى عهد الفراعنة أنفسهم، واشتهر حكام من الفراعنة بعبثهم - مثل رمسيس الثاني بصفة خاصة^(٢١١) - بكثرة

السطو على آثار من تقدمهم من الحكام واستغلال أحجارها في بناء منشآت وعمائر نسبوها إلى أنفسهم، وذلك نشداناً للسهولة وطلباً لسرعة إنجاز الأعمال، وقد رأينا كيف انتقلت عادة استغلال الآثار هذه من عصر الفراعنة إلى عهد الأقباط الذين قاموا باستغلال المعابد المصرية وتحولها إلى كنائس.

أما في العصر الإسلامي فيذكر جوستاف لوبون أن دراسة آثار العرب الماثلة في مصر تثبت "أن العرب لم يقتبسوا شيئاً من المباني القديمة الكثيرة التي وجدوها في أنحاء القطر المصري" (٢٠١). والحقيقة أن هذه العبارة تنقصها الدقة، فضلاً عن أنها تضمنت حكماً يحمل قدراً كبيراً من التعميم أفقده مصداقيته؛ إذ الواقع أن العرب قد استفادوا في كثير من الحالات من المباني المصرية القديمة في تشييد عمائرهم الجديدة، بل إن جوستاف لوبون نفسه لا يلبث أن يذكر بعد قليل أن أعمدة جامع عمرو بن العاص - أول مسجد أسس في مصر - "قد استعيرت من مختلف المباني اليونانية والرومانية" (٢١٠)، وإذا كان جامع عمرو يمثل حالة خاصة باعتبار أنه بني والمسلمون لم يكونوا قد تمكنوا بعد من تثبيت أقدامهم في مصر، فضلاً عن أنهم كانوا في حالة حرب لاستكمال عملية الفتح، مما يجعل من الصعوبة بمكان أن يقوم المسلمون بتجهيز المواد اللازمة لبناء المسجد بأنفسهم، فاعتمدوا على ما هو موجود منها بالفعل، لاسيما وأن الحاجة إلى المسجد كانت ملحة وضرورية وعاجلة ليتمكن من أداء رسالته في أسرع وقت ممكن، متمثلة تلك الرسالة في تأليف قلوب المصريين إلى الإسلام وترغيبهم فيه، والتي هي الغاية الأسمى المنشودة من عملية الفتح؛ أقول: إذا كان جامع عمرو كان كذلك فإن حالات آخر مشابهة قد تم رصدتها واستخدمت فيها بقايا المباني المصرية القديمة في بناء المساجد. فهل كان جوستاف لوبون يقصد "إن العرب لم يقتبسوا شيئاً كثيراً" أو أنهم "لم يقتبسوا شيئاً من نظم العمارة وطرز البناء؟" ربما كان الأمر كذلك، وربما كان هذا التفسير الأخير هو الراجح، خصوصاً وأن لوبون أعلنها بعد ذلك صريحة مدوية: "وجد العرب في جميع البلاد التي استولوا عليها عدداً كبيراً من المباني الإغريقية والرومانية والبيزنطية المتداعية أو المهجورة، وانتفعوا بأعمدتها وتيجان أعمدتها، كما تشهد بذلك مبانيهم الأولى التي تضم عدداً غير قليل من الأعمدة غربية المصدر" (٢١١). على أنني لا أعتقد أن الأعمدة اليونانية والرومانية التي قال لوبون إنها كانت في جامع عمرو قد كانت فيه منذ بنائه الأول، بل لا بد أنها قد أقحمت في بناء الجامع أثناء التعديلات الكثيرة التي أدخلت عليه عبر تاريخه المديد.

على أية حال فإن ولاية مصر وأمراءها وسلطانها وحكامها لم يكونوا كلهم على حد سواء في الاقتناع بمبدأ استغلال الآثار المصرية القديمة في بناء المنشآت العامة ولاسيما الدينية منها، فنجد مثلاً أن أحمد بن طولون كان رافضاً تماماً لهذا المبدأ، حيث إنه عندما شرع في بناء مسجده

عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) احتاج إلى ثلاثمائة عمود، فقبل له: تنفذ إلى الكنائس في الأرياف والضواحي الخراب فتحملها منها، فأنكر ذلك ولم يختره وكان يقول: هذه العمود إما أن تكون من مسجد أو كنيسة فتهزته عنها^(٢١٦)، ولكن محمد بن طفج الأخشيدي ووزراءه لم يجدوا حرجاً في ذلك، فعينما أرادوا بناء المسجد الجامع بالجيزة سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) واحتاجوا له إلى عمود مضوا بالليل إلى كنيسة من أعمال الجيزة وقلعوا عمدها وحملوا العمود إلى الجامع، حتى إن أبا الحسن الطحاوي^(٢١٧) (ت ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) ترك الصلاة فيه منذ ذاك تورعاً^(٢١٨).

كذلك كان يوجد على أسوار جامع الحاكم الذي بناه العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م): "كتابات بعضها بالقلم الكوفي، وبعضها بالهروجليفي... وأثار تشبه أثار قدماء المصريين"^(٢١٩)، وعندما أنشأ الظاهر ركن الدين بيمرس خانقاهه للصوفية سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٥ م) - والتي جعلت بعد ذلك مسجداً - "استدل على مغارة تحت الأرض فيها ذخائر، ففتحها فإذا فيها رخام جليل، فنقله إليها ورخمها منه"^(٢٢٠) كذلك هدم الأمير سيف الدين شيخون العمري بعد سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) بيتاً قديماً من الصوان الأخضر كان بمدينة منف "وأدخل منه شيئاً في خانقاهه وجامعه الذي كان بخط الصليبية"^(٢٢١)، كذلك وجد بجامع التركمانى أو الترجمانى: "ثمانية أعمدة من الرخام... منها عمود ذو ثمانية أضلاع على كل ضلع كتابة هيروجليفيه قديمة"^(٢٢٢) واستولى الفرنسيون أثناء حملتهم على مصر على حجر كان مجعولاً عتياً لشباك في جامع رضوان أغا عليه كتابة هيروجليفيه^(٢٢٣)، كذلك سجل نيبور أنه كانت توجد في أفنية مساجد القاهرة توابيت مختلفة عليها كتابات هيروجليفيه تستخدم أحياناً للماء^(٢٢٤).

والذى يظهر بعد كل ذلك أن استغلال خرائب المباني المصرية القديمة كان هو القاعدة الشائعة المتبعة، وأن التحرر من ذلك كان هو القليل الذى لا يقاس عليه، حتى إن على مبارك يذكر - أثناء حديثه عن مدينة الهنسا^(٢٢٥) -: "أكثر أعمدة الجوامع القديمة بها أخذت من كنائسها، وهى معابد المصريين الأول"^(٢٢٦).

على أنه إذا كان هناك نوع من التحرز لدى بعض حكام مصر في استغلال أنقاض المباني والآثار المصرية القديمة في بناء المنشآت الدينية فإننا لا نجد أثراً لمثل هذا التحرز في استغلال تلك الأنقاض في بناء المنشآت ذات الصفة العامة ولا سيما الحربية منها كالقلاع والأسوار والحصون، ومن هذا المنطلق نجد الأمير صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ - ٥٨٩ هـ / ١١٧١ - ١١٩٢ م) هو وزيره بهاء الدين قراقوش^(٢٢٧) (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) يقوم بهدم الأهرام الصغار التي كانت بالجيزة - وكانت كثيرة العدد - وينقلان حجارتها ويبنيان بها قلعة الجبل وسور القاهرة وقناطر الجيزة^(٢٢٨)، حتى إنه "لم يبق من هذه الأهرام المهدومة سوى قلبها وحشوتها وهى ردم وحجارة صغار لا تصلح للقناطر فلأجل ذلك تركت"^(٢٢٩)، وإذ لم تكن تكفه الأهرام فإن صلاح الدين أمر بهدم سور قرية

أنصنا^(٢٢٦) القديم " وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفة حمل صخرة منه إلى القاهرة حتى نقل بأسره إليها^(٢٢٧).

ويبدو أن استغلال الآثار المصرية في أعمال المنافع العامة لا سيما ما اكتسب منها طابعاً حربياً كان سياسة مرسومة سارت عليها حكومة صلاح الدين، حيث نجد واليه على الإسكندرية يأمر باقتلاع أكثر من أربعمائة عمود كانت منتصبة حول عمود السواري، وتكسيورها وإلقائها بشاطئ البحر " بزعم أن ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة، ويمنع مراكب العدو من أن تستند إليه^(٢٢٨)، وكان عمله هذا مثار انتقاد عنيف من جانب الرحالة البغدادى حين وصفه بأنه " من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة^(٢٢٩).

وقد سار الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) على نهج صلاح الدين الأيوبي عندما بنى قلعة الروضة إذ: " نقل إليها عمد الصوان من البرابي و [كذلك] عمد الرخام^(٢٣٠).

وتمثل قلعة الروضة هذه نموذجاً فريداً للاستغلال المتكرر لبقايا وأطلال الآثار المصرية القديمة في العصور الإسلامية المختلفة، فقد نقل منها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ما احتاج إليه من عمد الصوان والرخام - التي كانت قبل عمارة القلعة في البرابي - عندما بنى مجمعه الضخم الذى ضم بهما رستانا [مكاناً لعلاج المرضى] ومدرسة وإيوأناً عرف بدار العدل ومسجداً^(٢٣١)، حتى إن الفرنسيين وجدوا بهذا المسجد مسلتين مجعولتين أعتاباً فأخرجوهما وأخذهما إلى باريس^(٢٣٢). كما أخذ منها - قلعة الروضة - الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣١٠ - ١٣٤٠ م) حاجته من عمد عندما أعاد بناء إيوانه المعروف بإيوان العدل في قلعة الجبل^(٢٣٣) بلغ عددها اثنان وثلاثون عموداً من الأعمدة الجرانيتية الضخمة الرائعة، حتى إن علماء الحملة الفرنسية قد أبدوا دهشتهم للوقت والجهد اللذين استغرقا في نقلها إلى مثل هذا المكان المرتفع^(٢٣٤). وكذلك عندما بنى الجامع الجديد الناصرى سنة ٧١٢ هـ (١٣١٣ م) " وأخذ منها غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن " كما يقول المقرئى^(٢٣٥)، ولا غرو في ذلك فقد خص الجامع الناصرى وحده مائة وسبعة وثلاثون عموداً من الأعمدة التي كانت بالقلعة^(٢٣٦)، وإذا لم تكن تكفه خرائب قلعة الروضة فقد أغار على تمثال كبير وحطمه وجعل من أحجاره قواعد وأعتاباً للجامع المذكور^(٢٣٧).

وبمرور الزمن بدأت مسألة استغلال الآثار المصرية القديمة تتخلى عن طابعها النفعى العام وتتخذ شكلاً أكثر خصوصية، حيث يسجل نيبور أنه رأى في القاهرة توايبت أثرية عليها كتابات هيروغليفية تستخدم معاصر للزبوت ومزاود للهائم^(٢٣٨). كذلك رأى جرانجيه أن أحد الأتراك قد استخدم واحداً من أجمل المعابد القديمة اسطبلًا للخيول^(٢٣٩). كما شاهد القنصل الفرنسى ماييه

بعض الأعمدة الأثرية مستغلة في بناء منزل أحد الجنود، وبعضها الآخر في منزل قاضى العسكر (٢٤٠).

ج- السرقة:

أما سرقة الآثار المصرية فهي جريمة قديمة كذلك، ففي كل عصر من العصور الفرعونية تقريباً كان هناك لصوص يسرقون الآثار دون أدنى مراعاة لحرمة الموتى، بل ربما تمت بعض هذه السرقات بعد الدفن مباشرة، بل وبواسطة العمال الذين قاموا بعملية الدفن وبمساعدة من حراس المقابر أنفسهم ولاسيما الملكية منها، ولعل هذا هو الذى دفع الملوك المصريين القدماء إلى اتخاذ أحرص التدابير وأحزم الوسائل وأعقد الطرق لإخفاء مقابرهم عن أعين اللصوص، وقد كان لهم في ذلك مذاهب شتى نلحظها في طرق الدفن المختلفة التى تفنن في إبداعها الفراعنة القدماء، ورغم كل طرق الإخفاء والتمويه هذه فيمكن القول بأن جميع المقابر الهامة قد نهبت خلال العصور القديمة.

وقد كان الباعث على عمليات السرقة والنهب هذه هو ما كانت تحويه هذه المقابر من كنوز ثمينة، فقد كانت عادة المصريين القدماء أن يدفنوا مع موتاهم ما يعتقدون في نفعه للميت خلال حياته في الدار الآخرة، بالإضافة إلى العديد من المقتنيات التى كان يستعملها الميت في حياته الأولى، كما كانوا يزودون الموتى بقطع الأثاث الجنائزى الفاخرة، بالإضافة إلى التوابيت والمصوغات الذهبية وما يزينون به موميائاتهم من حلى ومصوغات ومجوهرات وأحجار كريمة (٢٤١).

وقد حفظت لنا البرديات أنباء قضية سرقة المقابر الكبرى التى جرت وقائعها في فترة حكم رمسيس التاسع (٢٤٢) (الأسرة العشرون) وتضمنت تلك البرديات إجراءات التحقيق مع بعض لصوص المقابر القدماء الذين سطوا على بعض المقابر الملكية وسرقوا محتوياتها، وقد تورط في هذه القضية كهنة منحرفون ومسئولون كبار متعدمو الضمائر وحراس مرتشون، ووقائع القضية شائقة نستطيع أن نتبين من خلالها طبيعة عمليات التقاضى التى كانت متبعة في ذلك الوقت، وسير إجراءات التحقيق، ووسائل الضغط والترهيب والتخويف التى استعملت مع المتهمين لإجبارهم على الاعتراف، وكذلك العقوبات القاسية التى وقعت عليهم، ومن العجيب أننا نعرفنا على وقائع قضية السرقة هذه من بعض البرديات المسروقة والتى بيعت في سوق الآثار في أواخر القرن التاسع عشر بطريقة غير شرعية (٢٤٣).

وقد استمرت عمليات سرقة ونهب الآثار المصرية عبر جميع العصور التاريخية التى مرت بها مصر، وفي العصر الإسلامى أضفى على هذه العمليات قدر كبير من الحل والشرعية حتى إن المقرئى عقد في خطبته فصلاً خاصاً عن: " الدفائن والكنوز التى تسمها أهل مصر المطالب (٢٤٤) انتهى فيه إلى جواز تنهب الدفائن والكنوز مستدلاً على ذلك بما روى من حديث عبد الله بن عمر

رضى الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر: "هذا قبر أبي رغال، وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج أصابته النجمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن ومعه عصا من ذهب إن نبشتم عليه أصبتموه معه، فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذي كان معه" (٢٤٥). وربما أسهم في ذلك إلى حد كبير نظرة عامة المصريين إلى الآثار المصرية القديمة باعتبارها آثاراً وثنية، ومن هنا كانوا يستحلون الحفر عن الكنوز والمطالب، فيفتحون القبور ويستخرجون منها الذهب والفضة والأثنية من النحاس وغيره، ودليل ذلك أن أحمد بن طولون حين بنى مسجده من المال الذي وجده فوق الجبل في الموضع المعروف بتنور فرعون كان يقول: "إني بنيت هذا الجامع من مالي حلال" (٢٤٦).

كما أن المدرسة الكاملية التي أنشأها الملك الكامل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٦ م) منته ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) - وهي أول دار بنيت لدراسة علم الحديث في القاهرة - "لما حُفر أساسها وُجد فيه صنم كبير من الذهب، فأمر الملك الكامل أن يضرب دنانير ويصرف على بنائها"، ويعلق ابن إياس على ذلك قائلاً: "فبنيت من وجه حل" (٢٤٧).

ولابن خلدون - وقد تعودنا منه الاختلاف - رأى آخر، فهو يرى أن "ابتغاء الأموال والكنوز ليس بمعاش طبيعي... وأن الذي يحمل على ذلك في الغالب - زيادة على ضعف العقل - إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب... أو زيادة الترف" (٢٤٨) "ومن رأى ابن خلدون أن الركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء، وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب" (٢٤٩)، ويتعجب ابن خلدون من غفلة العامة وظنهم بأن من يسعى لاستخدام السحر لإخفاء الكنوز سوف يترك وراءه دليلاً يكشف إمكانية إبطال ذلك السحر، حيث يقول: "من اخترن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه، فكيف ينصب عليه الأدلة والامارات لمن يبتغيه، ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار، وإلا فإن هذا يناقض قصد الإخفاء" (٢٥٠).

وقد كان للمغاربة بصفة خاصة - في عصر ابن خلدون وقبله وبعده إلى يومنا هذا - اهتمام زائد بالبحث عن المطالب والكنوز (٢٥١)، إذ كانوا يدعون القدرة على كشف الأماكن التي تحتوى على الخبايا والدفائن، وكثيراً ما لجأ إليهم بعض المصريين من ضعاف العقول بغية التوصل بمعارفهم المزعومة هذه إلى ما عساه أن يكون مغبوءاً من الدفائن والأموال، فضلوا وأضلوا، ولعل سوء الأوضاع الاقتصادية للشعب المصري على مدى فترات طويلة من تاريخ مصر عبر عصورها المختلفة كان عاملاً فعالاً في اعتقاد الكثير من المصريين البسطاء في مثل هذه الأوهام، وإننا لنعجب بدورنا ممن يعرف سبيل الوصول إلى هذه الكنوز والدفائن كيف يرشد غيره إليها مع أن بإمكانه أن يحوزها لنفسه، ولكنه الإنسان متى يئس من الواقع لجأ إلى الأمل.

وعبارات البغدادي التي أوردها في رحلته عن هؤلاء الواهمين تعد تصويراً صادقاً وواقعياً لحالة القوم النفسية وما كان يختلج في صدورهم من أوهام وآمال كاذبة، قال: "هم يحسبون كل علم يلوح لهم على أنه مطلب، وكل شيء مقطوع في جبل أنه يقضى إلى كثر، وكل صدم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه، فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه، وبيالغون في تهديمه وفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف، وينقبون في الأحجار نقب من لا يمتارى أنها صناديق مقلدة على ذخائر، ويسربون في فطور الجبال سرور متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها، وانتهاز فرصة لم يشعر غيره بها... ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك، ومن كان فقيراً قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أملة بأيمان يحلفها له، وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه، وعلامات يدعى أنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله، وما أفيح بعد ذلك ماله" (٢٥٢).

٤ - تجارة المومياوات (٢٥٣):

وتعد تجارة المومياوات من أعقد المشاكل التي واجهت الآثار المصرية القديمة وأكثرها تأثيراً على تلك الآثار بسبب ما ألحقته بها من أثار التدمير والتلف. وترجع تلك التجارة البغيضة - وإن تكن بغيضة إلى حد كبير - إلى سبب عجيب، فقد ساد بين الناس اعتقاد منذ القدم بأن القار يشفى من كثير من الأمراض والجروح والكدمات والكسور وغيرها وكان يسمى عندهم "موميا" وعند شحة القطران كانوا يستخدمون ما يجدونه منه داخل الجثث المحنطة لهذا الغرض، وقد نقل البغدادي عن جالينوس وغيره قوله: "إن هذا الذي يوجد في تجاويف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وأن يستعمل بدله إذا تعذر" (٢٥٤) ثم وجدوا أن من الأسهل استخدام لحم الجثث نفسها للغرض نفسه.

ويقدر صمويل بيرش Samwel Birsh - عالم المصريات البريطاني - عدد المومياوات التي حفظها المصريون عبر تاريخ الحضارة المصرية الطويل في مراحلها المختلفة بما يقرب من ٤٢٠ مليون موميا، بينما يقدره آخرون بما يصل إلى ٧٣١ مليوناً (٢٥٥) ونظراً لضخامة الاحتياطي المتوفر من هذه السلعة وزيادة المعروض منها فقد كانت أثمانها منخفضة جداً في مصر، وقد اشترى عبداللطيف البغدادي عندما كان في القاهرة "ثلاثة رموس مملوءة منه بنصف درهم مصرى" (٢٥٦) أما في الخارج فقد كانت أثمانها مرتفعة جداً نظراً لزيادة الطلب عليها، ومن هنا كانت تجارة المومياوات تجارة رابحة، وكانت تصدر إما كموميا كاملة أو فئاتها بعد تعيئته (٢٥٧).

واشتهرت سقارة - بصفة خاصة - بكثرة آبارها التي تحتوى على المومياوات حتى عرفت سقارة بـ "مدينة المومياوات" (٢٥٨) و "سهل المومياوات" (٢٥٩)، وأضحت لذلك مزاراً من أهم المزارات السياحية التي كان الرحالة يحرصون على زيارتها، وكانوا يستطيعون بمساعدة القاطنين في تلك المناطق أن يشتروا ما يحتاجونه من المومياوات من تلك المدينة، بل وأن يتزولوا بأنفسهم في هذه

الأبار وينتخبوا ما يشامون منها^(٣٦٠)، ويذكر الرحالة الفرنسي جان دي تيفنو Jean De Thévenot أنه فتح بنفسه مقبرة في سقارة وأخذ معه إلى فرنسا مسحوق مومياء بل وتابوتا^(٣٦١). وانتهز كثير من الرحالة والموظفين الأجانب العاملين بمصر فرصة وجودهم بها وانخرطوا في تجارة المومياوات المربحة، فقد زار الرحالة الألماني جوهان هلفريخ Johan Helfrich مصر سنة ١٥٦٥ م (٩٧٣ هـ) بغرض الحصول على المومياوات، وفي سبيل ذلك نبش عدة قبور لتحقيق هذا الغرض^(٣٦٢). أما الأسكتلندي جون ساندرسون John Sanderson - الذي كان وكيلاً لإحدى الشركات التركية بالإسكندرية عامي (١٥٨٥ - ١٥٨٦ م / ٩٩٣ - ٩٩٤ هـ) - فقد كان يقضى جانباً كبيراً من وقته في تجارة المومياوات واستطاع أن ينقل من مقابر منف مومياوات مصرية بلغ وزنها مئتان رطل^(٣٦٣) إلى إنجلترا بعد أن لجأ إلى الرشوة لتسهيل تهريبها، وحقق من وراء ذلك ربحاً جزيباً^(٣٦٤).

كان الإيمان بقدرة مسحوق المومياء على الشفاء من العديد من الأمراض عميقاً لدى الشعوب الأوروبية، ولم يكن ذلك مقصوراً على فئة دون أخرى من فئات المجتمع، بل شمل جميع فئات المجتمع الأوروبي تقريباً، بما في ذلك الطبقات الحاكمة المثقفة، حتى إن الإمبراطور فرانسوا الأول ملك فرنسا كان لا يخرج إلى سفر دون أن يصطحب معه عقار المومياء^(٣٦٥) وقد ترتب على ذلك أنه خرجت من مصر خلال تلك العصور أعداد كبيرة وكميات ضخمة من المومياوات المصرية الكاملة والمفتتة في محاولة لتلبية الطلب المتزايد عليها في مختلف البلدان الأوروبية. وتجارة رائجة كهذه كان لابد أن يجد القش طريقه إليها - كما هو الحال غالباً في كل تجارة رابحة - على الرغم من أن سلعتها هي الأموات، إذ أنه كثيراً ما كانت الجثث الحديثة تباع باعتبارها مومياوات محنطة^(٣٦٦)، وفي عام ١٧٧١ م (١١٨٤ هـ) حظرت دائرة المعارف البريطانية الناس في أوروبا وأمريكا من شراء مسحوق هذه المومياوات لأن ما يباع هو جثمان المجرمين لا المصريين القدماء^(٣٦٧).

وأمام هذه القناعة الشديدة بالمزايا الطبية لتلك المسحوق الغريب لم تجد نفعا تلك المحاولات البائسة التي كان يقوم بها الأطباء الأوروبيون من ذوى الضمائر اليقظة لتبصير أبناء جلدتهم وتنبههم إلى الآثار الضارة المترتبة على استعمال ذلك الدواء المقيت "والذي ينتج عنه بعض أعراض ضارة مثل خفقان القلب وتقلص المعدة والتقيؤ واصطكاك الأسنان"^(٣٦٨) فضلاً عن عدم فائدته للمرضى.

ومن جانبهم حاول الأتراك - بقدر الإمكان - الحد من تلك التجارة، وساعدهم على ذلك أن ربانة السفن وملاحيا - ولاسيما العرب منهم - كانوا يرفضون حملها في سفنهم لاعتقادهم أنها تنذر شؤم، فقد تصادف كثيراً أن تعرضت السفن التي تحملها لبعض العواصف والصعوبات الملاحية، ومع ذلك فقد أمكن للمهربين أن يتغلبوا على هاتين الصعوبتين، حيث إنه - وكما يقول

نيبور :- " بعد أن أصبح عمال الجمارك في الإسكندرية من اليهود لم يعد إخراج الجثث وإرسالها إلى أوروبا على سفن إيطالية أمراً بالغ الصعوبة " (١٦٩) وبالإضافة إلى ذلك كان المهريون يلجأون - عند الضرورة - إلى كتمان أمر تلك الشحنات المشنومة عن ملاحى السفن عند شحنها.

كان هذا عرضاً سريعاً لكافة النواحي المتعلقة بالآثار المصرية قبل القرن التاسع عشر جعلناه مختصراً بقدر الإمكان أملين في أن يكون الأساس الذى سوف ينبثق عليه بحثنا بعد، وقد كان هذا العرض الموجز ضرورة لابد منها قبل الدخول في الفترة الزمنية الأساسية للبحث: حيث إن كثيراً من المسائل المتعلقة بقضية الآثار المصرية في القرن التاسع عشر إنما ترجع أصولها وجنورها إلى فترات زمنية سابقة لهذا القرن بحيث يمكن النظر إليها فيه باعتبارها امتداداً لما كانت عليه من قبل.

الهوامش

- (١) الأثر في اللغة بقية الشيء، وما بقي من رسم الشيء، وكل ما يؤثر عن الغير والجمع: آثار. وفي الاصطلاح: أعمال القدماء ومصنوعاتهم الباقية بعدهم الحافظة لتوااريخهم وأيامهم. وعلم الآثار: مصطلح معناه: معرفة القدماء، ودراسة بقايا السلف كافة من أبنية وتماثيل ومعننات ونقود وما شاكل. ودار الآثار: المكان الذي يحفظ فيه ما خلفه الأوائل. انظر في ذلك: ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م): "لسان العرب" مادة (أ. ث. ز)، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ. ج ١، ص ٢٥. وانظر: مجمع اللغة العربية: "المعجم الكبير" نفس المادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م، ج ١، ص ٨٨. "المعجم الوسيط" ذات المادة، دار المعارف، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، ج ١، ص ٥٠. وانظر كذلك: لويس اليسوعي: "المنجد في اللغة" نفس المادة، دار المشرق، الطبعة السابعة والعشرون، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ص ٣. ثم انظر: أحمد نجيب: "الأثر الجليل لقدماء وادي النيل"، بولاق، القاهرة ١٣١١ هـ / ١٨٩٢ م، ص ٥١.
- (٢) محمد عبد العزيز مرزوقي: "الإسلام والفنون الجميلة"، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م، ص ٨.
- (٣) محمد كرد علي: "الإسلام والحضارة العربية"، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م، ج ١، ص ١٠٥.
- (٤) محمد عبد العزيز مرزوقي: "الإسلام والفنون الجميلة"، ص ٩ يتصرف.
- (٥) سورة المائدة، الآية ٩٠.
- (٦) ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م): "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" تحقيق: عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ج ٢، ص ٣٣٢.
- (٧) محمد عبد العزيز مرزوقي: "الإسلام والفنون الجميلة"، ص ١٨.
- (٨) المرجع السابق، ص ١٠٨.
- (٩) حديث: "أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون" رواه البخاري في صحيحه (كتاب اللباس - باب عذاب المصورين يوم القيامة) انظر البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م): "صحيح البخاري"، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ ج ٧، ص ٢١٥.
- (١٠) حديث "لولا قومك حديثو عهد بكفر لفلعت ولفعلت" رواه البخاري في صحيحه (كتاب الحج - باب فضل مكة وبنائها) باللفظ: "لولا حديثو قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام" وفي رواية: "لولا حديثان قومك بالكفر لفلعت" انظر البخاري "صحيح البخاري"، ج ٢، ص ١٧٩، ١٨٠.
- (١١) طه جابر العلواني: "الجمع بين القراءتين: قراءة الكون، وقراءة الوحي"، المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة، عدد رقم ٢٢ الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م، ص ٢٢، ٢١ باختصار.
- (١٢) محمد كرد علي: "الإسلام والحضارة العربية"، ج ١، ص ١٠٥ - ١٠٧.
- (١٣) محمد عبد الواحد حجازي: "موقف الإسلام من الفنون"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ص ٥٤.
- (١٤) ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م): "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج ٧، ص ١٧.
- (١٥) ثروت عكاشة: "موسوعة التصوير الإسلامي"، مكتبة لبنان، بيروت، بدون تاريخ، ص ٤٠.
- (١٦) الحديث رواه البخاري (كتاب اللباس - باب ما وصى من التصاوير) وفي رواية: "فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي (البخاري - كتاب اللباس - باب كراهية الصلاة في التصاوير) وفي هذه الرواية الأخيرة ما يدل دلالة قاطعة على أن علة الكراهية إنما هي الشغل عن العبادة. انظر: البخاري: "صحيح البخاري" ج ٧، ص ٢١٥، ٢١٦.
- (١٧) محمد عبد الواحد حجازي: "موقف الإسلام من الفنون"، ص ٥٥. وانظر كذلك: ثروت عكاشة: "موسوعة التصوير الإسلامي"، ص ٤.
- (١٨) محمد كرد علي: "الإسلام والحضارة العربية"، ج ١، ص ١١٠.
- (١٩) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م): "الطبقات الكبرى"، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج ٦، ص ٦٢.
- (٢٠) ثروت عكاشة: "موسوعة التصوير الإسلامي"، ص ٥.
- (٢١) محمد كرد علي: "خطط الشام" نشر مكتبة النوري، الطبعة الثالثة، دمشق ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ج ٤، ص ١٠٣.

- (٢٢) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢١ م): "تاريخ الأمم والملوك" تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سودان، بيروت، بدون تاريخ، ج ٤، ص ١٤، ١٥، وانظر كذلك: ثروت عكاشة "موسوعة التصوير الإسلامي"، ص ٥
- (٢٣) الزركلي: يقال يمز زركس أي عظيم، و الزركس الضخم والضخمة من الإبل. انظر ابن منظور "لسان العرب" مادة "د. ر. ف. م"، ج ٢، ص ١٣٦٢، ١٣٦٣، وانظر البيهقي في: "ديوان البيهقي" تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ج ٢، ص ١١٥٦.
- (٢٤) زكي محمد حسن: "في الفنون الإسلامية" مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م، ص ٢٥.
- (٢٥) محمد عبد العزيز مرزوقي: "أثر الإسلام في تقدم الفنون الجميلة" مجلة الهلال عدد ٤ ربيع الأول ١٣٦٠ هـ (أول أبريل ١٩٤١ م)، ص ٤١٩.
- (٢٦) حسن إبراهيم حسن: "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م، ج ١، ص ٢٤.
- (٢٧) زكي محمد حسن: "التصوير في الإسلام"، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م، ص ١٩.
- (٢٨) محمد كرد علي: "خطط الشام" ج ٤، ص ١٠٥.
- (٢٩) محمد عمار: "الإسلام والفنون الجميلة"، دار الشروق، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ٣٨.
- (٣٠) محمد عبد الواحد حجازي: موقف الإسلام من الفنون"، ص ٥٦.
- (٣١) "المحرر الوجيز"، ج ٢، ص ٢٢٢.
- (٣٢) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أمير فاتح، غزا بلاد ما وراء النهر وتوغل فيها، واقتنح كثيرا من المدائن، وغزا أطراف الصين، ومات قتيلاً. انظر ترجمته في: ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الله بن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م): "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ١١٢، وانظر: خير الدين الزركلي: "الأعلام"، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ج ١، ص ١١٢.
- (٣٣) سقزقند: بفتح أوله وثانيه، أو فتح أوله وإسكان ثانيه: بلد معروف مشهور من بلاد ما وراء النهر، فتحها قتيبة بن مسلم سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م). انظر: باقوت: شهاب الدين باقوت ابن عبد الله الرومي: "معجم البلدان"، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ج ٣، ص ٢٤٦ - ٢٥٠.
- (٣٤) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م): "الكامل في التاريخ"، دار صادر، الطبعة السادسة، بيروت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ج ٤، ص ٥٩٣.
- (٣٥) "الأثر الجليل"، ص ٦٠.
- (٣٦) بلغت هذه المواضع ثلاثة عشر موضعاً في القرآن الكريم، وهي: سورة آل عمران (الآية رقم ١٣٧)، وسورة الأنعام (الآية رقم ١١)، سورة يوسف (الآية رقم ١٠٩)، وسورة النحل (الآية رقم ٣٦)، سورة الحج (الآية رقم ٤٦)، سورة النمل (الآية رقم ٦٩)، سورة المنكبوت (الآية رقم ٢٠)، سورة الروم (الآية رقم ٩، والآية رقم ٤٢)، سورة فاطر (الآية رقم ٤٤)، سورة غافر (الآية رقم ٢١، والآية رقم ٨٢)، سورة محمد (الآية رقم ١٠).
- (٣٧) سورة طه: الآية رقم ١٢٨.
- (٣٨) ابن عطية: "المحرر الوجيز" ج ٤، ص ٦٩، وانظر الفخر الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ / ١٢١٠ م): "التفسير الكبير"، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، طهران، بدون تاريخ، ج ٢٢، ص ١٣٢، ثم انظر: أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٣ م): "البحر المحيط" تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على محمد معوض، زكريا عبد المجيد الفتوني، أحمد النجوى الجمل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ج ٦، ص ٢٦٧.
- (٣٩) سورة الصافات: الآيات رقم ١٣٧، ١٣٨.
- (٤٠) أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط" ج ٧، ص ٣٥٩.
- (٤١) هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م)، مؤرخ ورحالة يوناني لقب بأبي التاريخ، زار العالم المعروف آنذاك لاسيما العراق وفينيقيا ومصر، له تاريخ من أهم المراجع لمعرفة الأمم القديمة وأساطيرها. انظر ترجمته في: لويس اليسوعي: "المنجد في الأعلام"، "دار المشرق، الطبعة الثالثة عشرة، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ص ٧٣٦.
- (٤٢) مختار السيويني: "مصر القديمة، دراسات في التاريخ والآثار"، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ص ١٧.

- (٤٣) بلوتارك: مؤرخ يوناني، عاش في روما وجال في الشرق، له كتاب "السيرة المقارنة" وهو في سير مشاهير رجال اليونان والرومان "له ترجمة في لويس اليسوعي" المتجد، ص ١٤٢.
- (٤٤) ديودور الصقلي: مؤرخ يوناني، له تاريخ عام يبدأ منذ بدء الخليقة وينتهي بموت يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق. م. انظر ترجمته في: لويس اليسوعي: "المتجد"، ص ٢١٧.
- (٤٥) بليني: من علماء الطبعة الرومان، له كتاب "التاريخ الطبيعي" وهي مفيد في الاطلاع على معارف الأقدمين. ترجمته في: لويس اليسوعي: "المتجد"، ص ١٤٢.
- (٤٦) بريان فاجان: "سب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر" ترجمة: أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م، ص ٣٠.
- (٤٧) سليم حسن: "أبو الهول، تاريخه في ضوء الكشف الحديثة" ترجمة: جمال الدين سالم، مراجعة: أحمد محمد بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، ص ٨٥.
- (٤٨) ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: "فتوح مصر وأخبارها"، مكتبة المثنى، بغداد بدون تاريخ، مصورة عن، مطبعة بريل، لندن ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م، ص ٤٣.
- (٤٩) ابن حوقل: أبو القاسم ابن حوقل النصيب "كتاب صورة الأرض"، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ مصورة عن، طبعة بريل، لندن ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م، ص ١٥٢.
- (٥٠) الإسطخرى: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: "مسالك الممالك"، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، مصورة عن، طبعة بريل، لندن ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م، ص ٥٢.
- (٥١) المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد: "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، دار صادر بيروت، بدون تاريخ، مصورة عن الطبعة الثانية من طبعة بريل، لندن ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م، ص ٢١٠.
- (٥٢) المصدر السابق: نفس الصفحة.
- (٥٣) الخانقاه الصلاحية: نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي الذي أولفها على الفقراء الصوفية سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٢ م) وهي أول خانقاه عملت بهدار مصر، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح، انظر المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي: "المواظع والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، مكتبة الأديب، القاهرة، بدون تاريخ ج ٤، ص ٢٧٣.
- (٥٤) المصدر السابق: ج ١، ص ١٩٨، وانظر كذلك: محمد أنور شكرى: "من روائع الفن المصري، أبو الهول العظيم" مجلة "المجلة" عدد رقم ٦٩ جمادى الأولى ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م، ص ٢٦.
- (٥٥) سليم حسن "أبو الهول"، ص ٨٨.
- (٥٦) روبرت سوليه: "مصر رابع فرنسي" ترجمة: لطيف فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، ص ٣٦.
- (٥٧) جيمس بيكن: "الآثار المصرية في وادي النيل" ترجمة: لبيب حبشى، شفيق فريد، مراجعة: محمد جمال الدين مختار، نشر دار الكرنك، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م، ج ١، ص ١٨١.
- (٥٨) للمسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن: "مروج الذهب ومغانن الجوهر" كتاب التحرير، القاهرة، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م، ج ١، ص ٣٦٠.
- (٥٩) المصدر السابق: نفس الجزء، ص ٢٦٣.
- (٦٠) جان لاکوير: "شامبوليون، حياة من نور" ترجمة: نبيل سعد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، ص ٣٤٤.
- (٦١) للمسعودي: "مروج الذهب"، ج ١، ص ٢٦٣.
- (٦٢) للمسعودي: "مروج الذهب"، ج ١، ص ٣٦٣.
- (٦٣) البغدادى: "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر" تقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، عدد رقم ٣١٤، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٩١، ٩٠.
- (٦٤) المصدر السابق، ص ٩٦.
- (٦٥) ياقوت: "معجم البلدان"، ج ١، ص ٤٠١، وانظر كذلك: المقريزي: أبو عبد الله زكريا بن محمد: "آثار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ص ٣٦٩.
- (٦٦) البغدادى: "الإفادة والاعتبار"، ص ١٠٠.
- (٦٧) المصدر السابق، ص ١٠١.

- (٦٨) المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (٦٩) محمود المقداد: "تاريخ الدراسات العربية في فرنسا" سلسلة "عالم المعرفة"، عدد رقم ١٦٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جمادى الأولى ١٤١٣ هـ / نوفمبر ١٩٩٢، ص ٢٣٩.
- (٧٠) مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م ص ٨٦.
- (٧١) "الأثر الجليل"، ص ٥٤.
- (٧٢) نقصد هنا الإشارة إلى مسألة حرق مكتبة الإسكندرية، وهي تهمة أراد الحالفون على الإسلام وأمله [لحاقها بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب والصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وكانت رواية البغدادي بهذا الصدد ركناً رئيساً من أركان محاولة إثبات هذه التهمة الباطلة حيث يقول البغدادي - بعد أن رأى في الإسكندرية انقراض بناء متهم - "وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه"، البغدادي: "الإفادة والاعتبار"، ص ٩٨. هذا وقد فند الباحثون هذه الفرية، وبعثوها من جميع جوانبها، وانتهى المنصفون منهم - عرباً وأجانب، مسلمين وغير مسلمين - إلى براءة عمرو وعمر رضي الله عنهما.
- (٧٣) ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسي: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٤.
- (٧٤) المصدر السابق، ص ٥٨ - ٦٠.
- (٧٥) ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن محمد: "تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المعروف برحلة ابن بطوطة، نشر طلال حرب، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م، ص ٦٩.
- (٧٦) المقرئزي: "المواعظ والاعتبار"، ج ١، ص ٢٨٦ ويبدو لي أن شوقي قد استعار منه هذا المعنى في قوله: رب نقش كأنما نقش الصانع منه الهدى بالأمس نفذاً
- (٧٧) انظر محمد أحمد الجولي: "ديوان شوقي، توليف، وتوثيق، وشرح، وتعليق"، دار نهضة مصر، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٨، والمصباح لشوقي، وإن كان قول المقرئزي "الآن أفضل من قول شوقي بالأمس في الإشعار بالجدّة والعدانة، كما أن قول المقرئزي "الدهان" أفضل من قول شوقي "الصانع" من حيث مطابقة العرفة لمقتضى الكلام في الأول دون الثاني.
- (٧٨) أحمد شلبي بن عبد الغني: "أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا" تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانكي، القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ص ٢٩٤. أحداث يوم الخميس غرة المحرم ١١٣١ هـ (٢٤ نوفمبر ١٧١٨ م)، وانظر كذلك، ص ٥٧٧، ٥٧٨ أحداث شهر المحرم ١١٤٥ هـ (يونيو / يوليو ١٧٣٢ م).
- (٧٩) صا الحجر: إحدى القرى القديمة التابعة لمركز كفر الزيات، محافظة الغربية، انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م"، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٧٣ - ١٣٨٣ هـ / ١٩٥٣ - ١٩٦٣ م، قسم ٢، ج ٢، ص ١٦٦.
- (٨٠) كان باشا مصر في ذلك الوقت مسلم على باشا (١١٢٨ - ١١٣٠ هـ / ١٧١٦ - ١٧١٧ م). انظر عبد الرحمن الجبوتي: "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، دار الجليل، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ٩٢ - ٩٦.
- (٨١) أحمد شلبي بن عبد الغني: "أوضح الإشارات"، ص ٢٩٤.
- (٨٢) الأمير عثمان كتخدا القاز دغلي والد الأمير عبد الرحمن كتخدا الملقب بصاحب العمائر، كان من أرباب الحل والعقد وأصحاب المشورة، عمر جامعاً كبيراً بالتركية، وفي زاوية العميان بالزهر، وكذلك رواق الآثار به، مات مقتولاً سنة ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ م) انظر ترجمته في عبد الرحمن الجبوتي "عجائب الآثار"، ج ١، ص ٢٥٠، ٢٥١.
- (٨٣) انظر - مثلاً - مقال وجيه عتيق: "الحملة الفرنسية والمتفجرات التاريخية والحضارية" مجلة "المورخ المصري" عدد رقم ١ يناير ١٩٨٨ م (١٤٠٩ هـ)، ص ٢٢٧ - ٢٦٩ والذي يذكر فيه أن إهمال وتحقير آثار الفراغة كان شعوراً دينياً عاماً نتجت عنه الرغبة في تدمير وتخريب تلك الآثار المصرية القديمة من جانب القوى الإسلامية في مصر، وأن الآثار الفرعونية كانت عند المسلمين رمزاً بغيضاً لوثلية ما قبل الإسلام، وأنها توادف عندهم أصنام الثلاث والعزى وأشياء أخرى من هذا القبيل.
- (٨٤) شوقي على هيكل: "أول عربي يحشق الفراغة" مجلة الهلال، عدد نوفمبر ١٩٩٣ م (١٤١٤ هـ)، ص ٨٩.
- (٨٥) المقرئزي: "المواعظ والاعتبار"، ج ١، ص ٦٤، ٦٥.
- (٨٦) البلوي: أبو محمد عبد الله بن محمد (ت بعد ٣٣٠ هـ / بعد ٩٤١ م): "سيرة أحمد بن طولون" تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٩٤ - ١٩٦.

- (٨٧) المقرئزي "المواعظ والاعتبار" ج ١، ص ٦٥.
- (٨٨) للمسعودي: "مروج الذهب" ج ١، ص ٢٧٥.
- (٨٩) ابن تفرى بردي: أبو المحاسن يوسف بن تفرى بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م، ج ١، ص ٥١.
- (٩٠) ابن حوقل: "كتاب صورة الأرض"، ص ١٣٦.
- (٩١) المقرئزي: "المواعظ والاعتبار"، ج ١، ص ٦٦.
- (٩٢) انظر بخصوص صفات أحمد بن طولون: ابن العماد: "شذرات الذهب"، ج ٢، ص ١٥٧، الزركلي: "الأعلام"، ج ١، ص ١٤٠.
- (٩٣) المقرئزي: "المواعظ والاعتبار"، ج ١، ص ٦٦.
- (٩٤) يذكرنا ذلك بقصة الملك الفارسي بهرام بن بهرام والموليان - رجل الدين في العصر الفارسي - مع اليوم، وهي قصة مشهورة ذكرها ابن خلدون في مقدمة تاريخه (انظر: ابن خلدون: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م: "العبر وديوان المبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" المعروف بتاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ج ١، ص ٢٣٩، ٢٤٠. فصل في أن الظلم مؤذن بغرابة العمران) وأنت تجد أصداء لذلك في عصرنا الحديث من خلال ما يعرف باسم (الرسوم الكاريكاتيرية) والتي يكون القصد من وراءها نقد الأنظمة السياسية القائمة من وراء حجاب.
- (٩٥) محمد كمال السيد: "بعض أسرار الهرم الأكبر" مجلة "الثقافة" عدد رقم ٥٦ مايو ١٩٧٨ م، ص ٣٨، ٣٩.
- (٩٦) محمد فؤاد شكرى، عبد المقصود العناني، سيد محمد خليل: "بناء دولة مصر محمد علي، السياسة الداخلية"، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م، ص ٦٣٦.
- (٩٧) نجيب الحقيقي: "المستشرقون"، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، ج ١، ص ١١١.
- (٩٨) مجلة "المجلة": "الأثار المصرية واهتمام الإيطاليين بدراسها" عدد رجب ١٣٧٦ هـ / فبراير ١٩٥٧ م، ص ١٢٨.
- (٩٩) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر" سلسلة: مصر النهضة، عدد رقم ٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م، ص ١١١، ١١٢.
- (١٠٠) المرجع السابق، ص ١١٣.
- (١٠١) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء"، القرن التاسع عشر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ج ٢، ص ٢٩٠.
- (١٠٢) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ص ١١٢، ١١٣.
- (١٠٣) المرجع السابق، ص ١١٢.
- (١٠٤) تشارلز نيمس: "طيبة، آثار الأقصر" ترجمة: محمود ماهر طه، محمد العز موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثاني) بدون رقم، القاهرة ١٤٢٠ / ١٩٩٩ م، ص ٥٦، ٥٥.
- (١٠٥) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ص ٦٦.
- (١٠٦) مجلة "المجلة": "الأثار المصرية واهتمام الإيطاليين بدراسها"، ص ١٢٨.
- (١٠٧) مختار السويفي: "مصر القديمة"، ص ٢٠.
- (١٠٨) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة والفاصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة: تاريخ المصريين، عدد رقم ٥٢، القاهرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، ص ٥٧.
- (١٠٩) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة والفاصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٥٩.
- (١١٠) Paul Lucas: "Voyage du sieur Paul Lucas Au Levant" Rouem 1772. 111 Tome. 1, p: 20, 21.
- (١١١) Ibid: 1, p: 45.
- (١١٢) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة والفاصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٥٩.
- (١١٣) تشارلز نيمس: "طيبة"، ص ٥٦.
- (١١٤) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة والفاصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٦١.
- (١١٥) تشارلز نيمس: "طيبة"، ص ٥٧.
- (١١٦) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة والفاصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٦٢.
- (١١٧) المرجع السابق، ص ٦٢، ٦٣.

- (١١٨) جان لاكوثير: "شامبوليون. حياة من نور"، ص ٣٦.
- (١١٩) تشارلز نيمس: مرجع سبق ذكره، ص ٥٨، ٥٩.
- (١٢٠) جان كلود جلفان: "العملة الفرنسية في مصر العليا، بحثاً عن مواقع الآثار، وكشف العمارة الفرعونية" بحث منشور ضمن كتاب "العملة الفرنسية في مصر، بونايرت والإسلام" ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ص ٦٣٢.
- (١٢١) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٢٦، وانظر ترجمة نوردن في: نجيب العقيلي: "المستشرقون"، ج ٢، ص ٥١٤.
- (١٢٢) برنان فاجان: "هب آثار وادي النيل"، ص ٤٥.
- (١٢٣) تشارلز نيمس: "طبعة"، ص ٥٩.
- (١٢٤) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر" ترجمة محمد مستجير مصطفى، سينا للنشر والانتشار العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، ص ١٠.
- (١٢٥) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ص ٢٩١.
- (١٢٦) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١١.
- (١٢٧) إليهام ذهني: "مصر في كتابات الرحالة والفنّانين الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٦٤.
- (١٢٨) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٢٦.
- (١٢٩) إليهام ذهني: "مصر في كتابات الرحالة والفنّانين الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٦٥.
- (١٣٠) تنطق كذلك نيبوهر وتيبوهر، ومما لا شك فيه أن اختلاف النطق إنما هو راجع إلى اختلاف اللغة التي يقرأ بها الاسم، وعلى أية حال فقد أثبتناه هنا كما أثبتته المترجم لرحلته إلى العربية، وانظر ترجمة له في: نجيب العقيلي: "المستشرقون"، ج ٢، ص ٥١٥.
- (١٣١) كارستن نيبور: "رحلة إلى بلاد العرب وما حولها" ١٧٦١ - ١٧٦٧ م "الجزء الأول رحلة إلى مصر ١٧٦١ - ١٧٦٢" ترجمة: مصطفى ماهر، المطبعة العائلية، القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، انظر فصل الآثار المصرية من، ص ٣٣٩ إلى، ص ٣٦٤.
- (١٣٢) المرجع السابق، ص ٣٥٣، ٣٥٢.
- (١٣٣) البوصة تماوى ٢,٥ سنتيمتر تقريباً.
- (١٣٤) كارستن نيبور: "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ١١٢.
- (١٣٥) المرجع السابق: ج ١، ص ١١١.
- (١٣٦) المرجع السابق: ج ١، ص ١١٥.
- (١٣٧) أتريب: بلدة قديمة قرب بها - محافظة القليوبية، انظر بصحتها: على مبارك: "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدينتها وبلادها القديمة والشهيرة" ج ٨، ص ٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م مصورة عن، بولاق ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م.
- (١٣٨) كارستن نيبور: "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ١٨٨، ٣٦٣.
- (١٣٩) تشارلز نيمس: "طبعة"، ص ٥٩، وانظر ترجمة ليروس هذا في: على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٩، ص ٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م مصورة عن، بولاق ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٦ م.
- (١٤٠) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ٣١١.
- (١٤١) تشارلز نيمس: "طبعة"، ص ٥٩.
- (١٤٢) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ٢٩١.
- (١٤٣) فولقي: "ثلاثة أعوام في مصر وجزر الشام" ترجمة إدوارد البستاني، منشورات دار المكشوف، بيروت ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م، ص ١٧٨، ١٧٩، وانظر كذلك: أحمد أبو الغفر ملمي: "فولنييه" مجلة المجلة، عدد رقم (١٦) رمضان ١٣٧٧ هـ / أبريل ١٩٥٨ م، ص ٦٣، ٦٤.
- (١٤٤) الرحيلة أو النارجيلة أو الأرجيلة: كلمة فارسية الأصل، وتطلق في الفارسية والتركية والعربية على الوعاء المستعمل في تدخين التبغ وغيره، انظر أحمد السعيد سليمان: "تأصيل ما ورد في تاريخ الجبوتي من الدخيل"، دار المعارف، القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ص ١٣.
- (١٤٥) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء" ج ١، ص ٧٢، ٧٣.
- (١٤٦) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٧٤ باختصار.
- (١٤٧) يقصد صحرَاء مصر الغربية، وقد كانت تعرف بالصحرَاء اللببية في ذلك الوقت، كما كانت نظيرها صحراء مصر الشرقية تعرف بالصحرَاء العربية.

- (١٤٨) فولقي: "ثلاثة أعوام في مصر ودير الشام"، ص ١٧٩.
- (١٤٩) المرجع السابق، ص ١٧٨.
- (١٥٠) ليون الأفريقي: أبو على الحسن بن محمد الوزان (ت ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م) المعروف عند الإفريق باسم ليون الأفريقي، جغرافي، رحالة، مؤرخ، أسره أحد القراصنة الإيطاليين وأهداه إلى البابا ليو العاشر، وأصبح أنه تنصر. ولكن ما من دليل يؤكد ذلك، مات على أكثر الروايات مسلماً في تونس. انظر ترجمته في: الزركلي: "الأعلام"، ج ٢، ص ٢١٧، ٢١٨.
- (١٥١) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٥، ومن العجيب أن فاجان يصفه بأنه "كاثوليكي مثقف" ويتجاهل تماماً أصله الإسلامي.
- (١٥٢) إلياهم ذهفي: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٧٠.
- (١٥٣) المرجع السابق، ص ٧١.
- (١٥٤) كلود جلفان: "العملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٣٢.
- (١٥٥) تشارلز نيمس: "طيبة"، ص ٥٦.
- (١٥٦) المرجع السابق، ص ٥٩.
- (١٥٧) كارستن نيبوز: "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ٣٤٤.
- (١٥٨) تشارلز نيمس: "طيبة"، ص ٥٨.
- (١٥٩) إلياهم ذهفي: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٨٥ - ٨٨ باختصار.
- (١٦٠) نيبوز: "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ٣٥.
- (١٦١) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٢٤.
- (١٦٢) إلياهم ذهفي: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٨٩.
- (١٦٣) تشارلز نيمس: "طيبة"، ص ٦٠.
- (١٦٤) المرجع السابق: نفس الصفحة.
- (١٦٥) جورج بونز، جورج سوترون، جان بويوت، أ.أ. من إدواردز، فد. ل. ليونيه، جان دوريس: "معجم الحضارة المصرية القديمة" ترجمة: أمين سلامة، مراجعة: سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م، ص ٣٠٦، ويليئوي: مدينة آشورية قديمة، تقع أنقاضها تجاه مدينة الموصل العراقية، وهي الآن محافظة في العراق فأحداثها مدينة الموصل. انظر: لويس اليسوعي: "المنجد في الأعلام"، ص ٧٢٢.
- (١٦٦) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" الجزء الأول: "المصريون المحدثون" ترجمة: زهير الشايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع القاهرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، ص ٣٠٥.
- (١٦٧) راجع عباد: "المسلات المصرية، وروما مدينة المسلات" مجلة "المجلة" عدد رقم ٧٦ ذو القعدة ١٣٨٢ هـ أبريل ١٩٦٣ م، ص ١٣٤.
- (١٦٨) الآثار المصرية في وادي النيل، ج ١، ص ٤١.
- (١٦٩) سليم حسن: "مصر القديمة"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ج ٤، ص ٤٦١، ٤٦٢.
- (١٧٠) علي مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٧، ص ٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية القاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م مصورة عن، بولاق ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م.
- (١٧١) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل"، ج ١، ص ٤١.
- (١٧٢) للمقططف: مجلد: ١٨، ص ٨١٥.
- (١٧٣) روبر موليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٢٠.
- (١٧٤) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٤٠.
- (١٧٥) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٢٤.
- (١٧٦) المرجع السابق، ص ٢٥.
- (١٧٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٤١.
- (١٧٨) المرجع السابق، ص ٤٢.
- (١٧٩) بيتر فرانمن: "اغتناب مصر"، ص ١١، ١٠.
- (١٨٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٤٤.
- (١٨١) بيتر فرانمن: "اغتناب مصر"، ص ٦٤، ٦٥.

- (١٨٢) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٢٣.
- (١٨٣) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ١٢٨، ٢٢٠.
- (١٨٤) لطالما شك الدبلوماسيون الأجانب العاملون في مصر - مراراً عديدة - من انخفاض العائد المادي الذي كانوا يتقاضونه من حكوماتهم لا سيما مع ارتفاع تكاليف الحياة المعيشية في القاهرة والإسكندرية. بالإضافة إلى الغرامات المتلاحقة التي كان يفرضها عليهم باشوات مصر. انظر: إليهام ذهني: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٤٤. حتى إن بعضهم كان يسعى جاهداً لدى حكومته لترسله للعمل في بلد آخر غير مصر. كما فعل القنصل الفرنسي لي ريكور Li Roncourt (١٧٤٧ - ١٧٥٠ م / ١١٦٠ - ١١٦٣ هـ). انظر: (إليهام ذهني: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٩٠). كذلك كتب القنصل البريطاني سولت إلى حكومته شاكياً من أن المحافظة على الأساسيات الدنيا الجديرة بقتل كل راتبه. وأنه بحاجة لدخل إضافي. انظر: بيتر فرانك: "اغتصاب مصر"، ص ٢٣٨) ومما لا شك فيه أن هذا الدخل الإضافي إنما كان يأتيه عن طريق تجارة الآثار.
- (١٨٥) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٤٠، ٤٢، بتصرف.
- (١٨٦) الكاردينال ريشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢ م / ٩٩٣ - ١٠٥٢ هـ) من كبار رجال السياسة الفرنسيين، وزير لويس الثالث عشر، أسس الأكاديمية الفرنسية. انظر ترجمته في: لويس اليسوعي: "المنجد في الأعلام" مرجع سبق ذكره، ص ٣١٦.
- (١٨٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٩.
- (١٨٨) إليهام ذهني: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٨٧، ٢٢٢.
- (١٨٩) جون مارلو: "تاريخ النهب الاستعماري لمصر، من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م إلى الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ م" ترجمة عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م، ص ١٨.
- (١٩٠) إبراهيم غالي: "سيناء عبر التاريخ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م، ص ٢٠٧.
- (١٩١) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٤٠ - ٤٣، بتصرف واختصار.
- (١٩٢) للرجع السابق، ص ٤٤.
- (١٩٣) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ٢٩.
- (١٩٤) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ٣١.
- (١٩٥) جوستاف لوبون: "الحضارة المصرية" ترجمة: صادق رستم، المطبعة العصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٩.
- (١٩٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٦.
- (١٩٧) للرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٩٨) للنسخ: مائدة مكتبة وسط البهكل توضع عليها الذبيحة المقدسة من الخبز والخمر ويرمز لقبر المسيح. انظر: ألفريد بتلر: "الكنائس القبطية القديمة في مصر" ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة الأثنا غريغوريوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م، ج ٢، ص ٣١٠.
- (١٩٩) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل"، ص ٥٥، ٩٥.
- (٢٠٠) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٢٢.
- (٢٠١) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٩٣، ١١٠.
- (٢٠٢) عماد عدلى (مترجم): "شامبلون في مصر، الرسائل والذكرات" مراجعة طاهر عبد الحكيم، دار الفكر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ١٨٩، ٢١٥.
- (٢٠٣) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ١٨٥.
- (٢٠٤) للرجع السابق، ص ٢٧٩.
- (٢٠٥) جوستاف لوبون: "حضارة العرب" ترجمة عادل زعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، ص ٢٠٦ - ٢٠٨.
- (٢٠٦) الآثار المصرية في وادي النيل، ج ٥، ص ٥٧.
- (٢٠٧) نفس المصدر، ص ١٣١، ١٣٢.
- (٢٠٨) البغدادي: "الإفادة والاعتبار"، ص ١٠٦، ١٠٧.
- (٢٠٩) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٧، ص ١٤٢.
- (٢١٠) جوستاف لوبون: "حضارة العرب"، ص ٢٠٣.
- (٢١١) المرجع السابق، ص ٢٢٨.

- (٢١٢) المرجع السابق، ص ٥٢٥.
- (٢١٣) البلوى: "سيرة أحمد بن طولون، ص ١٨٢، وانظر كذلك: المقرئ: "المواعظ والاعتبار" ج ٤ ص ٣٣٨، ٣٣٩، ثم انظر: حسن الباشا: "جامع ابن طولون" بحث منشور ضمن كتاب "القاهرة، تاريخها، فنونها، آثارها" مطابع الأهرام، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م، ص ٤٣٨.
- (٢١٤) الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الفقيه، ولد ونشأ في طحا من صعيد مصر، انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر. وكان ثقة ثباتاً، اتصل بأحمد بن طولون فكان من خاصته. انظر ترجمته في: ابن العماد: "شعرات الذهب"، ج ٢، ص ٢٢٨، وانظر كذلك: الزركلي: "الأعلام"، ج ١، ص ٢٠٦.
- (٢١٥) المقرئ: "المواعظ والاعتبار" ج ٤، ص ١٢٤، وانظر كذلك: على مبارك: "الخطط التوفيقية"، ج ١٠، ص ١٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م مصورة عن، بولاق ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م.
- (٢١٦) المرجع السابق: ج ٢، ص ٢٠٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م. مصورة عن الطبعة الثانية القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م. وانظر كذلك نفس المرجع ج ٤، ص ١٧٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م مصورة عن، بولاق ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٦ م.
- (٢١٧) المقرئ: "المواعظ والاعتبار" ج ٤، ص ٢١٧، ٢١٨، وانظر: على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٤، ص ١٤٢.
- (٢١٨) المقرئ: "المواعظ والاعتبار" ج ١، ص ٢١٧، ٢١٨.
- (٢١٩) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٤، ص ١٤٦.
- (٢٢٠) المرجع السابق: ج ٢، ص ٢٨٥.
- (٢٢١) كارستن نيبور: "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ٣٥٩.
- (٢٢٢) الهلستا: قرية من قرى مركز بني مزار - محافظة المنيا، تقع على الجانب الغربي لبحر يوسف. انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي "قسم ٢، ج ٢، ص ٢١١، ٢١٢.
- (٢٢٣) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ١٠، ص ٢.
- (٢٢٤) بهاء الدين قراقوش: بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، أمير نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي وناب عنه في الديار المصرية. وكان مولعاً بالعمارة، بنى سور القاهرة، وقلعة الجبل، وقناطر الجيزة. انظر ترجمته في: ابن العماد: "شعرات الذهب" ج ٤، ص ٣٣١، ٣٣٢، الزركلي: "الأعلام"، ج ٥، ص ١٩٣.
- (٢٢٥) البغدادي: "الإفادة والاعتبار"، ص ٨٩، ٩٠، وانظر كذلك: المقرئ: "المواعظ والاعتبار"، ج ٢، ص ٣٣٠، وانظر أيضاً عبد الرحمن زكي: "قلعة صلاح الدين وفلاح إسلامية معاصرة"، سلسلة الألف كتاب، عدد رقم ٢٨٨، القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م، ص ١٠٨، ٢.
- (٢٢٦) البغدادي: "الإفادة والاعتبار"، ص ٩٠.
- (٢٢٧) أنصتا: مدينة قديمة في شرقي النيل بصعيد مصر ناحية ملوى، كانت تسمى قديماً أنيتوي، وسماها العرب أنصتا، وبسبب خراب مساكنها في أوائل القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي قيد زمامها باسم الشيخ عبادة، وهي من توابع أنصتا المذكورة. انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ١، ص ١٣٢، ١٣٣.
- (٢٢٨) ابن جبير: "تذكرة بالأخبار"، ص ٥٦.
- (٢٢٩) البغدادي: "الإفادة والاعتبار"، ص ٩٨.
- (٢٣٠) المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (٢٣١) المقرئ: "المواعظ والاعتبار"، ج ٣، ص ٢٩٧.
- (٢٣٢) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٩٨، وانظر كذلك: عبد الرحمن زكي: "قلعة صلاح الدين"، ص ١٢٩.
- (٢٣٣) على مبارك: "الخطط التوفيقية"، ج ٢، ص ٨٩.
- (٢٣٤) المقرئ: "المواعظ والاعتبار"، ج ٣، ص ٢٩٨.
- (٢٣٥) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ١، ص ٢٩٨، "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل" ترجمة: أيمن فؤاد سيد أحمد، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، ص ٢٣٢.
- (٢٣٦) المواعظ والاعتبار"، ج ٣، ص ٢٩٨.
- (٢٣٧) المقرئ: "المواعظ والاعتبار" ج ٤، ص ٩٨.
- (٢٣٨) المصدر السابق: ج ١، ص ١١٨، وانظر كذلك: على مبارك: "الخطط التوفيقية"، ج ١٠، ص ٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م مصورة عن الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- (٢٣٩) "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ١٨٦، ٣٥٦.

- (٢٤٠) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة والقصائل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٢٥٩.
- (٢٤١) المرجع السابق، ص ٢٦١.
- (٢٤٢) مختار السويفي: "مصر القديمة"، ص ٣١٦.
- (٢٤٣) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦ - ١٩.
- (٢٤٤) المرجع السابق، ص ١٨.
- (٢٤٥) المقرري: "المواظ والاعتبار"، ج ١، ص ٦٤، ٦٦، والمطالب واحدها مطلب: كلمة كان المصريون يطلقونها على الكنوز، وقد كانت الكلمة مستعملة بهذا المعنى إلى عهد المقرري، والمطالبة مم الباحثون عن الكنوز.
- (٢٤٦) الحديث في سنن أبي داود "كتاب الإمارة" حديث رقم ٤١.
- (٢٤٧) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٤، ص ٩٦، ٩٧.
- (٢٤٨) ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس التحفلى نحو ٩٣٠ هـ / نحو ١٥٢٤ م: "بدائع الزهور في وقائع الدهور" تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، قسم ١، ج ١، ص ٢٦٤.
- (٢٤٩) ابن خلدون: "كتاب العرب"، ج ١ ص ٣٢٢.
- (٢٥٠) المصدر السابق: نفس الجزء، ص ٣٢٤.
- (٢٥١) المصدر السابق: نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٢٥٢) جرجس همام: "اكتشاف دفان الكنز" مجلة "المقتطف" عدد فبراير ١٨٧٧ م المعرم ١٣٧٤ هـ، ص ٤٢، ص ١٠٧، ١٠٨.
- (٢٥٣) المومياة: جسم الإنسان أو الحيوان المحنط المحفوظ بطريقة خاصة، وهي مشتقة من الكلمة الفارسية "موميا" أو "ماميا" ومعناها القار أو ما يعرف بالقطران، ولما كان القار مادة أساسية في عملية التحنيط فقد أطلق على الجثة المحنطة: موميا. انظر: عبد النعم محمد حسنين: "قاموس الفارسية"، دار الكتاب المصري اللبناني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٧٠٣. وانظر كذلك بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٦.
- (٢٥٤) "الإفادة والاعتبار"، ص ١١٠.
- (٢٥٥) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٢٤، ٢٥. مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ٥٢، ٢٤.
- (٢٥٦) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ١٠٩.
- (٢٥٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٦.
- (٢٥٨) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ص ١١٣.
- (٢٥٩) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة والقصائل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٢٤٧.
- (٢٦٠) إلهام زهفي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ص ١١٣.
- (٢٦١) روبرت موليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٢٢.
- (٢٦٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٧.
- (٢٦٣) الرطل: يساوي ٤٤٥ جراماً تقريباً.
- (٢٦٤) مختار السويفي: "مصر القديمة"، ص ٣١٩، وانظر كذلك بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٧.
- (٢٦٥) روبرت موليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ١٩.
- (٢٦٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٧.
- (٢٦٧) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٢٤.
- (٢٦٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٧.
- (٢٦٩) "رحلة إلى بلاد العرب"، ج ١، ص ١١٣.

الفصل الأول

الحملة الفرنسية وموقفها من حضارة مصر القديمة وأثارها

تمهيد:

عرضنا فيما سبق - على نحو موجز - لما كانت عليه حالة المعارف العامة المتعلقة بالآثار المصرية قبل قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م / ١٢١٣ - ١٢١٦ هـ) تلك الحملة التي صوّرت في أذهان الفرنسيين وكأنّ الغرض منها هو اكتشاف منابع الحضارة المصرية القديمة، مما جعلها تحظى بتأييد الكثيرين منهم. وحتى مطلع القرن التاسع عشر لم تجذب مصر ولا أثارها إلا اهتماماً ضئيلاً في أوروبا، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن قام نابليون بحملته العسكرية العقيمة مصطحباً معه جماعة من العلماء كانوا أول من لفت الانتظار إلى حضارة مصر القديمة وأثارها، ورغم فشل هذه الحملة عسكرياً - فبدلاً من أن يفتح نابليون لوطنه طريقاً إلى الهند، فر عانداً إلى فرنسا متخفياً ومستتراً تحت جناح الظلام - إلا إن نجاحها العلمي كان مذهلاً، فإذا كانت الحملة الفرنسية قد فشلت في غزو مصر إلا إنها نجحت نجاحاً باهراً في وصف مصر، ووضعت في ذلك مؤلفاً كان أكبر وأوفى مؤلف ظهر إلى الآن في وصف البلاد المصرية. ورغم قصر مدة الحملة، ورغم الصعوبات التي واجهتها فقد أنجزت هذه الحملة في ثلاث سنوات ما يحتاج إنجازه - عادة - إلى عشرات من السنين.

وفيما يتعلق بمصر القديمة، فقد قام علماء الحملة بدراساتها دراسة وافية منظمة، وأزاحوا الستار عن عظمة الحضارة المصرية القديمة التي ظلت مجهولة قروناً طويلة من الزمان، وقدموا وصفاً مفصلاً للآثار المصرية القديمة ونقوشها الهيروغليفية، على الرغم من أن هؤلاء العلماء لم يكونوا ليعرفوا كلمة واحدة ولا حتى حرفاً واحداً مما نسخوه أو نقلوه والواقع أن العمل الذي أنجزته الحملة فيما يتعلق بمصر القديمة ووصف أثارها كان من الضخامة بحيث لا يتسنى لنا الإلمام أو الإحاطة به، مما يجعل من الصعوبة بمكان تقديم صورة تفصيلية وافية عنه، ومن ثمّ فإننا سنحاول هنا استحضار هذا العمل في سماته العريضة وتقديم صورة إجمالية جدّ أمينة له بقدر الإمكان.

أولاً: جهود علماء الحملة الفرنسية في الكشف عن حضارة مصر القديمة وأثارها: لجنة العلوم والفنون:

كان في عزم بونايرت أن يجعل من مصر مستعمرة فرنسية دائمة، ولتحقيق هذه الغاية فقد ضم إلى حملته عدداً من العلماء في كل فن من فنون المعرفة تقريباً. كانت مهمتهم دراسة كافة موارد مصر الطبيعية وغير الطبيعية وتقديم تقارير عنها، وقد تشكلت هذه المجموعة من العلماء بمبادرة فردية من جانب نابليون نفسه، فقد كان هو ذاته عضواً في المجمع العلمي الفرنسي، وكان قد اتخذ قرار اصطحاب هؤلاء العلماء بعد أن حضر بنفسه إحدى جلسات المجمع، فكان أن صدر قرار حكومة الإدارة في ١٦ مارس ١٧٩٨ م (٢٧ رمضان ١٢١١ هـ) يطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف بونايرت المهندسين والفنانين وغيرهم من أعضاء الهيئات التي كانت تخضع لإشراف وزارة الداخلية، وكان بونايرت قد اختار قبل ذلك مونج Monge لرئاسة هيئة العلماء الذاهبين إلى مصر^(١).

وكانت حاجة بونايرت إلى هؤلاء العلماء أصلاً للأغراض الإدارية، ويهدف استغلال ثروة مصر الاقتصادية، ولكن الذي حدث أن كثيراً من هؤلاء العلماء قد تغلوا بمحض إرادتهم عن تلك الأغراض النفعية البحتة إلى مجرد الرغبة في العلم والمعرفة.

وقبل أن تغادر الحملة فرنسا كان هؤلاء العلماء قد انتظموا في لجنة عرفت باسم " لجنة العلوم والفنون "، ويستفاد من المصادر الرسمية أن هذه اللجنة كانت مؤلفة من مائة وسبعة وستين عالماً ومهندساً وفناناً وعالم آثار^(٢)، ترك اثنتان منهم في مالطة ثم عادوا أدراجهم مرة أخرى إلى فرنسا بعد ذلك^(٣)، وكانت أكبر قوة في اللجنة هي قوة المهندسين المدنيين (تسعة عشر) والمساحين ورسم الخرائط (ستة عشر)^(٤) بالإضافة إلى عدد من الأطباء والجراحين والكيميائيين والمصورين والمستشرقين وعلماء النبات وغيرهم في مختلف التخصصات العلمية.

وقد قسمت لجنة العلوم والفنون عند وصولها مصر ثلاثة أقسام: الأول في القاهرة، والثاني في الإسكندرية، وكانوا حوالى خمسة عشر عالماً أوجد لهم كليبر Kleber مكاناً مريحاً في منزل قنصل البندقية، أما القسم الثالث من العلماء فقد استقروا في رشيد، وكانوا حوالى عشرين عالماً أقاموا في بيت فارسي Varsy أحد التجار الفرنسيين بالمدينة^(٥)، وما إن وطأت أقدام هؤلاء العلماء أرض الإسكندرية حتى انفرط عقدهم في كافة أنحاء الدلتا يدرسون مختلف نواحي الحياة المصرية، وقد حظيت الآثار المصرية القديمة بنصيب وافر من هذه الدراسات، فمنذ اليوم الأول لوصول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية، وفي المنشور الذي وجهه بونايرت إلى الشعب المصري بتاريخ ٢ يوليو ١٧٩٨ م (١٨ محرم ١٢١٣ هـ) أظهر نابليون وعياً مبكراً بقيمة الحضارة المصرية القديمة مؤكداً لجنوده وضباطه وعلمائه: " أننا سنجد عند كل خطوة نخطوها بها [مصر] آثاراً مجيدة

جديرة بأن تثير إعجاب الفرنسيين^(٦)، فكانت هذه دعوة صريحة من جانبه لهم للدرس والبحث والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة، وسرعان ما استجاب العلماء لهذه الدعوة، فبادر دومينيك فيفان دينون Dominique Vivant Denon إلى زيارة عمود بومبي ورسمه، كما رسم أيضاً مسألة كليو باترا^(٧)، وزار كذلك آثار صا الحجر، وكانوب^(٨)، وإن لم يجد فيهما ما يرضى به فنه^(٩)، وكذلك زار كل من مالوس Malus وفيشر Févre آثار بويطة^(١٠).

المجمع العلمي المصري:

وما أن استقر الأمر لبونا بريت في القاهرة حتى أرسل في ٢١ أغسطس ١٧٩٨ م (٩ ربيع الأول ١٢١٣ هـ) يطلب حضور جميع العلماء إلى القاهرة، ثم أصدر في اليوم التالي مباشرة قراره بإنشاء المجمع العلمي المصري Institute d'Egypte اختار لعضويته خلاصة لجنة العلوم والفنون التي صحبها معه إلى مصر، وقد عهد نابليون إلى سبعة من أقطاب تلك اللجنة وإلى قواد الجيش باختيار أعضاء هذا المجمع الذي قسم إلى أربعة أقسام يتألف كل منها من اثني عشر عضواً، وهذه الأقسام هي:

١. قسم الرياضيات، وقد ضم في عضويته كلاً من: مونج، ونابليون، وفورييه Fourier وكوستاز Costaz نوبيه Nouet وكينو Quesnon ولوير Le Pere وجيرار Girard، ولوروا Le Roy، والجنرال أندريوسى And reossi، ومالوس، وساي Say (وقد حل محله بعد مقتله أثناء الحملة على سوريا لانكريه Lancret).

٢. قسم الطبيعة، وقد انتظم في عضويته كل من: برتوليه Berthollet، ودولوميو Dolm ieu، وكونتي Conte، وجيوفروا سان هيلير Ceoffroi Saint Hilaire، وديكو تيل Descotils، وسافيني Savigni، وديجنيت Desgenettes وشامبي Champy ودليل Delile، والجراح دوبوا Dupois، وقد حل محله بعد ذلك الجراح لارى Larrey وكان قد ترك في القسم مقعدان شاغران شغل أحدهما بعد ذلك بوشان Beauchanps.

٣. قسم الاقتصاد السياسي، وأعضاؤه هم: جلوتيه Gloutir، وسولكوفسكى Sulkowshy، وتاليان Tallien، وبوسليج Poussielgue، وسوسى Sucy كبير مهمات الجيش (وقد حل محله فيما بعد بورين Bourrienne) والجنرال كافا ريللى Caffarelli (الذي حل محله بعد مقتله كورانسز Corrances).

٤. قسم الآداب والفنون ويتكون من: برسيغال دي جرانميزون Perseval De Grandmaison، ودوترتير Dutertre، ودفيان دينون، وريجل Rigel، وريدوتيه Redoute، وقسيس يوناني يدعى رفائيل دموناخيس Raphael De Monachis بالإضافة إلى اللغوى فنتور

Venture (الذى حل محله ريبو Ripault)، ونورى Norry (الذى حل محله بعد ذلك المعمارى لوبير الابن) وقد ظلت أربعة مقاعد شاغرة شغل أحدها فيما بعد الرسام ريجو Rigo^(١١).

وقد وضع للمعهد ثلاثة أهداف رئيسية على أعضائه أن يسعوا جميعاً إلى تحقيقها وهى:

١. تقدم ونشر المعارف في مصر.
 ٢. بحث دراسة الحقائق الخاصة بمصر من النواحي الطبيعية والصناعية والتاريخية.
 ٣. إبداء الرأى حول الموضوعات المختلفة التى قد تطلب الإدارة الفرنسية فيها الرأى^(١٢).
- وقد اختير للمجمع مقر ملائم بحارة الناصرية قريباً من مسجد السيدة زينب يتكون من عدد من القصور المحاطة بالحدائق التى خلفها الأمراء المماليك الذين فروا إلى الصعيد بعد معركة الأهرام مثل منزل حسن بك كاشف جركس وقاسم بك وإبراهيم كتخدا السنارى وأبو يوسف أمير الحج وغيرها من المنازل والقصور^(١٣). وقد ضم المجمع قاعة كبرى للاجتماعات ومكتبة تحوى العديد من الكتب والمجلدات التى تتناول مصر وتاريخها وجغرافيتها ومساكنها وديانها، وعلى الإجمال كل ما يتعلق بها، ومعامل للكيمياء والطبيعة، وحظيرة للحيوان، وحديقة للنبات، وورشاً ميكانيكية، ومرصداً، كما ضم كذلك أول متحف
- للآثار المصرية القديمة^(١٤). وقد زار المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرى هذا المجمع مراراً وقدم له وصفاً مفصلاً وشائعاً مؤكداً على ما شاهده فيه من ضروب النشاط والبحث العلمى^(١٥).
- وقد نص في قرار تأسيس المجمع العلمى على أن ينعقد المجمع مرتين شهرياً، وأن ينتخب المجمع من أعضائه رئيساً ونائباً للرئيس ومكثراً دائماً ومديراً وأميناً دائماً ومترجماً عربياً، كما نص على أن يقوم المجلس بنشر أبحاثه كل ثلاثة أشهر متمثلة في مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التى يؤلفها لدراسة المسائل التى تعرضها عليه الحكومة، كما تقرر أن يقوم المجلس بإعطاء جائزتين كل سنتين: الأولى لأفضل بحث خاص بتقديم الحضارة والمدنية في مصر، والثانية لأفضل بحث خاص بتقديم الصناعة^(١٦).

وهكذا انقسم العلماء الذين كانوا بصحبة حملة بونايرت إلى هئتين علميتين منفصلتين، كان لكل منهما قوامها الخاص بها، ولا يربط بينهما سوى صلة العلم وتضافر الجهود العلمية وإلى هاتين الهئتين العلميتين - وأعتى بهما (لجنة العلوم والفنون) و (المجمع العلمى المصرى) - يرجع الفضل فيما حققته الحملة الفرنسية من إنجازات علمية في مصر، ولا سيما في مجال الكشف عن عظمة مصر القديمة وحضارتها وأثارها، ففي الجلسة الأولى التى عقدها المجمع العلمى بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ م (١١ ربيع الأول ١٢١٣ هـ) أكد مونج - الذى كان قد تم اختياره رئيساً للمجمع^(١٧) - أن من أهم الأغراض التى أنشئ المجمع من أجلها، وأول البحوث التى يجب على أعضائه القيام بها تلك التى تتعلق "... بدراسة الآثار القديمة، وكشف النقوش والكتابات التى على

الجرانيت... " (١٨) وتشجيعاً للعلماء على القيام بهذه المهمة قرر نابليون تشكيل سرية قوامها مائتان من الجنود لحراسة ثلاثمائة من العلماء في رحلة لزيارة أهرام الجيزة (١٩)، ولم تلبث تلك الرحلات التي كان يقصد بها الدراسة والبحث، وليس مجرد التسلية والمتعة أن أصبحت تشمل جنود الحملة كذلك، وكانت تتم بصفة منتظمة، وإن كان قد حذر عليهم الزيارات الفردية لها، لأن وجود البدو في المنطقة جعلها غير مأمونة (٢٠).

وقد كان البارون دمينيك فيفان دينون من أكثر أعضاء المجمع العلمي المصري إسهاماً في الدراسات والبحوث المتعلقة بالحضارة المصرية القديمة، وأول إسهاماته في المجمع العلمي كان بحثاً وافياً أعده بتكليف من المجمع عن بعض أعمدة أثرية قديمة عثر عليها ملقاه إلى جوار سور قناطر المياه (٢١)، كما شارك دينون في الرحلة التي قام بها العلماء إلى الأهرام، ومكث نصف ساعة داخل الهرم الأكبر، وإن كان قد رأى أن الأهرامات لا تستحق ثناء " لأن حجم الفطرسة الذي أدى إلى الاضطلاع ببنائها إنما يبدو أنه يتجاوز حجمها المادي، ولا يعرف المرء ما الذي يجب أن يكون أكثر إثارة للدهشة في هذا الأثر: الجنون الاستبدادي الذي اجتراً على إصدار أمر بتنفيذه أم الرضوخ الأحق من جانب شعب مد سواعده عن طيب خاطر إلى بناء مثل هذه العمائر (٢٢) " ويبدو أن دينون كان متأثراً - في هذا الإطار - بمواطنه فولتي (٢٣)، ولكن دينون لم يظل على رأيه هذا طويلاً؛ إذ أنه سرعان ما سيقوم بتغييره عندما يقوم برحلته إلى مصر العليا، بل وربما قبل ذلك؛ فإذا كانت الأهرام لم تثل إعجابه فإنه اعتبر تمثال أبي الهول قمة فريدة في جمال الإحساس " إن الخطوط التي ظلت باقية إلى اليوم تمتاز بالليونة، كما تمتاز بالنقاء، وتعبيراً لوجه رقيق جميل هادي " (٢٤) وهو يضيف مؤكداً " إن أحداً لم يف هذا الوجه حقه في كمال بساطته... وهو بالفعل يستحق الإعجاب " (٢٥).

رحلة فيفان دينون:

كان فيفان دينون يتحرق شوقاً للارتحال نحو الجنوب وزيارة مصر العليا مبرراً ذلك بأنه لم يغادر باريس كي يقر في القاهرة، فأذن له بونابرت بذلك، وانتهز دينون فرصة خروج قافلة محملة بالمون والذخائر إلى الجنرال ديزيه Desaix فذهب معها وصعد في النيل حتى التقى بقوات الجنرال بليار Belliard وظل في صحبة. هذا القائد طوال المدة التي قضاهما في الصعيد والتي بلغت حوالي ثمانية شهور، تمتع خلالها بحماية الجيش ورسم ما شاهده من معابد وتمائيل وأثار، فزار المنيا وملوى وهناك لم تلق أنتينوبوليس [الشيخ عبادة] على الضفة الشرقية للنيل منه اهتماماً، ولكن هرموبوليس (٢٦) على الضفة الأخرى من النيل روعته وأثارت انتباهه ودهشته برواقها الفخم فصاح هاتفاً وقد تملكه الإعجاب حين رأى لأول وهلة الطراز المعماري الفرعوني الأصيل: " ما أظن الإغريق أتوا بجديد، فليس ثمة أبعد مما أراه... فما أخذ المصريون شيئاً عن غيرهم من الأمم (٢٧) "

ويرسم دينون - في دقائق معدودة سمح له بها بليار - تخطيطاً أولاً للرواق يضم إليه وصفاً لتيجان أعمدته، وقد كانت هذه أولى مشاهدات دينون للفن المصري القديم^(٢٨).

وفي أسبوع قضى دينون ساعات قلائل سمح له بها في مقابرها القديمة المنحوتة في صخور سلسلة الجبال الغربية مع أن تلك المقابر "كانت مغطاة بالرمز الهيروغليفية التي تستغرق قراءتها شهوراً على فرض الإلمام باللغة، ويستغرق نسخها أعواماً"^(٢٩)، وفي جرجا مكث دينون ثلاثة أسابيع متضجراً لأن متطلبات الحملة العسكرية لم تكن تتمشى مع مواقع الآثار القديمة، على الرغم من أن أطلال أبيدوس^(٣٠) كانت تقع على بعد اثني عشر ميلاً فقط منها، حيث يوجد معبد رمسيس الثاني وتمثالا ممنون، وخلال الأسابيع الثلاثة التي قضاهها دينون في جرجا كان يتوسل إلى ديزيه كل يوم حتى يرسل فصيلة من الجنود لاستطلاع منطقة أبيدوس، وكان ديزيه يقول له في كل مرة: "أريد أن أخذك هناك بنفسى، ولكن مراد بك موجود على مسيرة يومين من هنا، وسيكون هنا بعد غد، وتتشب بيننا وبينه معركة فتهزم جيشه، بعد يومين لن يبق لنا ما نفكر فيه إلا الآثار، وسأساعدك على فتحها"^(٣١) ولكن ديزيه لم يتمكن من الوفاء بوعدده، فقد أجبرته مطاردته الحديثة لمراد بك على أن يمر بأطلال أبيدوس مرور الكرام.

تحرك مراد بك إلى الجنوب أكثر، ووصل الفرنسيون في متابعتهم له إلى دندرة^(٣٢)، وانهر دينون بمعبدها الرائع، وانتشر الجيش في ربوع المعبد يوماً كاملاً ليشاهدوه^(٣٣)، وكتب دينون يقول: "ظللت أنتقل والقلم في يدي من أثر إلى أثر، تجذبني طرافة الواحد فأترك الآخر... ولم أجد من العيون والأيدي ما يكفى، وكان رأسى أصغر من أن يرى ويرسم ويصف كل شيء يروعي النظر إليه، وشعرت بالخلج من قصور الرسوم التي صورت بها هذه الروائع"^(٣٤) "واستمر دينون في الرسم حتى نفدت أعلامه، فصهر رصاص البنادق لرسم به إلى أن تأتي الإمدادات مع القوات"^(٣٥)، واضطر دينون إلى التأخر عن الجيش حتى يستكمل لوحاته، ولم يوقفه سوى حضور الجنرال بليار بنفسه ليصاحبه إلى مكان المعسكر الهعيد^(٣٦)، وفي المساء جاءه أحد الضباط ليقول له: "منذ أن جئت إلى مصر وأنا أشعر بالغيبة من كل شيء، لقد كنت طوال الوقت حزينا ومريضاً ولكن دندرة أبرأتني، إن ما رأيته اليوم قد خلصني من جميع متاعبي"^(٣٧) كما أبدى بليار - من جانبه - إعجابه بالنقش الفائر المعروف باسم فلك البروج أو مجرى الشمس الظاهري، الذي كان يزین سقف إحدى قاعات المعبد، وكان دينون قد رسم هذا النقش، وغد ذلك اكتشافاً عظيماً في وقتها حتى إن أعضاء المجمع العلمى عندما اطلعوا على الرسم قرروا إرساله إلى فرنسا لدراسته^(٣٨)، على أن فرنسيين آخرين قدما إلى مصر بعد ذلك، لم يكتفيا بالرسم المنقول، فقاما بنقل السقف المحتوى على النقش كاملاً - بعد نشره - إلى باريس في عام ١٨٢٢م/١٢٢٧هـ على ما سيأتى بعد، وقد بلغ من إعجاب دينون بمعبد دندرة أنه خصص له ثلاث لوحات كاملة في الكتاب الذى نشره

بعد ذلك ^(٣٩). وكان يؤكد: " إن ما لا يمكننى الشك فيه هو أن الإغريق لم يبتكروا شيئاً، ولم يشيدوا شيئاً يتميز بطابع أحسن من طابع هذا الأثر " ^(٤٠).

واصل مراد توغله في الصعيد - وربما كان ذلك من حسن حظ دينون - فاندفعت تجربة ديزيه خلفه مباشرة، وبعد بضعة أيام وصل الجيش الفرنسى إلى الضفة الغربية من طيبة القديمة حيث أطلال الأقصر الغربية والكرنك، وفي استجابة عفوية لروعة وضخامة الأطلال وقفت القوات الفرنسية مذهولة وأخذت في التصفيق ^(٤١)، بينما بادر دينون بوضع مخطط للمكان، ووجد دينون معاونة صادقة من جنود الحملة الذين عرضوا عليه أن يستخدم سيقانهم مسنداً للوحاته، كما تحلقوا حوله ليظلوه ويدفعوا عنه وهج الشمس وهو يخط رسوماته ^(٤٢).

ومرة أخرى ينتزع دينون من رسوماته ولوحاته بعد أن وصلت أنباء إلى الجنرال ديزيه بأن مراد يعسكر في إسنا ^(٤٣) جنوباً، واجتازت القوات الفرنسية في طريقها إلى إسنا أطلال أرمنت ^(٤٤)، وقضى دينون ليلته في معبدها، وفي الفجر رسمه ^(٤٥)، ثم مضى نحو إسنا التى أكد دينون أن انقراض معبدها تعد: " أكمل بقايا للعمارة القديمة " ^(٤٦).

كان مراد ومماليكه قد غادروا إسنا قبل وصول القوات الفرنسية إليها بساعات قلائل، ولم يكن أمام هؤلاء الأخيرين إلا مواصلة هذا الطراد المثير بينهم وبين المماليك الفارين إلى الجنوب، فمروا بأطلال هيركونبوليس ^(٤٧) التى وصلوها قبيل الغروب ليرسم دينون بالجهد الجهد معبدها قبل حلول الظلام ^(٤٨)، ثم مروا بإدفو ^(٤٩) حيث معبد إدفو الشهير، ثم واصلوا الزحف حتى بلغوا أسوان جنوباً.

اتخذت القوات الفرنسية من أسوان مركزاً تنطلق منه تجريداتها العسكرية شمالاً وجنوباً نحو فنا وبلاد النوبة لقتال المماليك والثائرين والمتطوعين من عرب الحجاز، مما أتاح لدينون الفرصة لكي يستقر في أسوان ما يقرب من الشهر استطاع خلاله أن يرسم جميع آثار أسوان تقريباً ^(٥٠)، كما زار جزيرة فيله ^(٥١) ورسم معابدها ^(٥٢).

كان من أثر خروج دينون مع جيش بليار في تجريداته العسكرية المتعددة أنه تمكن من زيارة بعض الأماكن الأثرية مرات عديدة، فزار آثار طيبة سبع مرات، ودندرة عشراً، وادفو وفيله أربعاً ^(٥٣)، وفي كل زيارة كان يجد شيئاً جديداً يرسمه وينقله، ففي زيارته الثالثة لإدفو اكتشف رموزاً هيروغليفية لم يرها من قبل وقال: " لقد زادت أبجديتى الهيروغليفية بأكثر من ثلاثين رمزاً " ^(٥٤)، كما رسم تخطيطاً أولياً لمعبد كوم أمبو ^(٥٥)، وقام باستكشاف وادى الملوك ^(٥٦) وفي طريق عودته إلى القاهرة تم له اكتشاف مدينة هابو ^(٥٧) ومقابرها والرمسيوم والكرنك، ثم زار مرة أخرى أهرام مسقارة والجزيرة ^(٥٨) قبل وصوله إلى القاهرة في (يوليو ١٧٩٩م / صفر ١٢١٤هـ) بعد رحلة استغرقت تسعة أشهر في صعيد مصر.

أحضر دينون معه إلى القاهرة حوالى مائتى رسم تشمل إلى جانب صور التماثيل والمعابد وما إلى ذلك، رسوم نقوش هيروغليفية^(٥٩)، وقد أثارت هذه اللوحات اهتمام زملائه من أعضاء المجمع العلمى الذين لم تكن الفرصة قد واثتهم بعد لزيارة آثار صعيد مصر، كما استحوذت تلك الرسوم على إعجاب بونابرت، وكان في نية دينون أن يلقى بحثاً عن نتائج رحلته تلك في المجمع العلمى، وقد أكد دينون للجميع أن هذه الرسوم قد: "رسمت أكثرها على ركبتي أو وأنا على صهوة جوادى، ولم يكن لى أن أتم إحداها على غير هذا الوجه، إذ أننى خلال عام كامل لم أجد منضدة سوية أستطيع أن أستخدمها لأن أرسم عليها"^(٦٠)، وقد حققت له هذه الرسومات امتيازاً جعل نابليون يصير على اصطحابه إلى الدلتا حتى يرسم له معركة أبو قير البرية التى انتصر فيها بونابرت على الجيش التركى في (١١ يوليو ١٧٩٩ م / ٧ صفر ١٢١٤ هـ)، وهو الأمر الذى منع دينون من تقديم تقرير لهيئة المجمع العلمى عن نتائج رحلته، وعندما أدرك نابليون أن مهمة دينون قد انتهت اقترح عليه أن يرافقه في رحلة العودة إلى فرنسا مع اثنين من زملائه أعضاء المجمع العلمى وهما مونج وبيرتوليه، فغادر الجميع الإسكندرية في (٢٣ أغسطس ١٧٩٩ م / ٢١ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) في طريقهم إلى فرنسا^(٦١).

أثار رجوع فيفان دينون إلى فرنسا ضيق زملائه العلماء الذين بقوا في مصر إذ أن هذه العودة المبكرة سوف تجعله يفكر في نشر أعماله قبل أفراد الحملة الآخرين، وبذلك يحقق لنفسه سبقاً كبيراً من شأنه أن يجلب له الشهرة والمجد في الأوساط العلمية والأدبية دون رفاقه الآخرين، والحق أنه يمكن التماس بعض العذر له في ذلك إن هو فكر في الإسراع بالنشر؛ لأنه ما من شئ كان يسمح بمعرفة ما إذا كانت ظروف الحرب سوف تتيح لهم إنجاز أعمالهم أو عودة وثنائهم من عدمه، لاسيما وأن وضع الحملة في مصر كان لا يبشر بخير^(٦٢)، خصوصاً بعد قطع مواصلاتها مع وطنها فرنسا، ومن ثم أصبحت القوات الفرنسية محصورة في مصر تحت رحمة الأسطول الإنجليزى، وسوف نرى أن العلماء كانوا سيفقدون - بالفعل - وثنائهم وعيناتهم ونتائج أبحاثهم لولا شجاعتهم في مواجهة قادة الأسطول الإنجليزى.

وقد دافع دينون عن تصرفه هذا بقوله: "عندما غادرت الإسكندرية إلى فرنسا كان أعضاء المجمع العلمى ما يزالون بالقاهرة وقد بقيت فترة طويلة أجهل ما إذا كانوا قد قاموا بالرحلة التى كان بونابرت قد نظمها لزيارة الصعيد قبل رحيله، إذ أن ظروف القتال كانت قد بدأت تهدد هذه النخبة من العلماء، وتحول دون وصول تقاريرهم القيمة إلى فرنسا، وبذلك وجدت نفسى الوحيد الذى جمع عدداً كبيراً من الرسوم التى لم أصور فيها معالم مصر فحسب بل صورت فيها بعض المعارك الهامة التى خاضتها الحملة، ومن ثم لم أكن لأستطيع أن أحرم مواطني من ثمرات بحوثى وجهودى المضنية، وإلا أكون قد ظلمتهم، ومن أجل هذا التزمت بنشرها"^(٦٣).

ومن ناحية أخرى، فإن دينون لابد وأنه كان يعلم جيداً أن التعجيل بنشر كتابه والحملة لا تزال باقية في مصر، من شأنه أن يهين لهذا الكتاب ظروفاً دعائية ضخمة سوف لا تتوافر له فيما لو تأخر هذا النشر بعد رجوع الحملة أو حتى بقاؤها واستمرارها زمناً طويلاً في مصر، فقد كان الشعب الفرنسى بكافة طوائفه وفئاته يتلهف شوقاً لمعرفة أى شئ عن ذلك البلد البعيد المجهول الذى أقدمت حكومة الإدارة على الدفع إليه بفلذات أكبادهم وخيرة شبابه دون سابق جريرة أو إنذار، ومن هنا كان قرار دينون بنشر الكتاب.

غير أن الإعداد لنشر الكتاب وحفر وتجهيز الرسومات واللوحات قد استغرق من دينون وقتاً طويلاً قارب السنتين، كان علماء الحملة خلالهما قد رجعوا من مصر بوثائقهم وأبحاثهم، وعندما علم دينون أن العلماء سوف ينشرون نتائج أبحاثهم، قرر أن يجعل كتابه مجرداً من صفة البحوث، فخرج الكتاب في صورة يوميات رحلة، ولعله كان يخشى في قرارة نفسه من الدخول في موازنة مع علماء الحملة الآخرين سوف تكون نتيجتها - من دون شك - في غير صالحه؛ إذ أن الكتابة العلمية تحتاج إلى أدوات خاصة ربما كان علماء الحملة يتفوقون على دينون في امتلاكها، أما أدب الرحلة فقد أجاد فيه دينون وهو يقول في ذلك: "كنت أعترم في بادئ الأمر أن أسوق بعض ملاحظات نقدية عن الآثار، وأن أناقش ما جاء به الرحالة من قبلى، وقد استشرت بعض كبار الشخصيات لإضافة بعض الملاحظات العلمية إلى كل ما هو جدير بالانتباه مما قد صورته، غير أنه ما كاد يبلغنى أن المجمع العلمى قد قام برحلته وأن أعضاءه قد عادوا مزودين بغنيمة كبيرة من المعلومات، وأن الدولة مستقومة مشكورة بالإتفاق على نشر موسوعة علمية لسائر النواحي حتى طرحت جانباً هذا المنهج الذى يمكن أن يقوم به غيرى ممن هو خير منى"^(٦٥) ولعل هذا هو السبب في عدم تقيد الكاتب بالأصول الفنية المتبعة عادة في كتابة البحوث العلمية، فلا توجد - مثلاً - اقتباسات من المؤلفين القدامى والسابقين، ولا توجد استطرادات تاريخية وما إلى ذلك.^(٦٥)

صدر كتاب دينون عام ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) تحت عنوان "رحلة في مصر السفلى والعليا خلال عمليات الجنرال بوناپرت الحربية" في مجلدين: يشتمل الأول منها على جزأين يتضمنان النص الأدبي، وشرحاً للوحات الإحدى والأربعين التى يتضمنها المجلد الثانى^(٦٦)، وكان صدوره في طبعتين: إحداهما فاخرة وطبع منها حوالى مائة وخمسين نسخة، وأخرى عادية طبع منها حوالى أربعمائة نسخة، وسرعان ما نفدت الطبعة الأولى وحلت محلها طبعة ثانية^(٦٧).

قام دينون بإهداء طبعة الكتاب الأولى إلى نابليون بوناپرت، وقد جاء في هذا الإهداء: "ستقبل أوروبا - وقد عرفت أنى كنت في صحبتكم في إحدى أكثر حملاتكم تعلقاً بالذكرى - كتابي هذا باهتمام كبير، لم أهمل أى شئ لئى أجعله جديراً بالبطل الذى أردت أن أهديه له... إن

ضم بريق اسمك إلى عظمة آثار مصر يعتبر ربطاً لعظمة أمجاد قرننا هذا بالعصور التي تتخطى بعظمتها الأساطير" (٦٨).

وقد لاقى الكتاب عند صدوره رواجاً كبيراً، وأحدث ظهوره دوياً هائلاً في الأوساط الأدبية، ليس في فرنسا وحدها وإنما في إنجلترا كذلك، ولم يتفوق عليه في هذا الإطار سوى كتاب "العبقرية المسيحية" لـ شاتوبريان (٦٩) حتى كان الناس يتخاطفونهم رغم ارتفاع سعره، فقد بيعت الطبعة العادية منه بمبلغ ثلاثمائة وستين فرنكاً فرنسياً، بينما وصل ثمن الطبعة الفاخرة إلى سبعمائة وعشرين فرنكاً، في الوقت الذي تجاوز فيه ثمن الكتاب في إنجلترا مائة جنيه إنجليزي (٧٠)، وقد جاء نابليون على رأس قائمة المائتين وأربعين مشتركاً في اقتناء الطبعة الأصلية، والتي ضمت كذلك ملكي أسبانيا وروسيا وعدداً من السفراء وأصحاب البنوك والفنانين والتجار بالإضافة إلى عدد من الإنجليز ورجال الحملة الفرنسية على مصر (٧١)، وقد توالى صدور طبعات الكتاب حتى لقد صدرت منه أربعون طبعة خلال القرن التاسع عشر (٧٢)، كما ترجم إلى عدة لغات مختلفة، فترجم إلى الإنجليزية في العام التالي لصدوره مباشرة (٧٣)، ثم ترجم بعد ذلك إلى الألمانية والإيطالية والروسية (٧٤).

وإذا كنا بصدد الحكم على "رحلة دينون" فإنه يمكن القول على سبيل الإجمال بأن فيفان دينون قد نجح في أن ينقل لأوروبا صورة صادقة عن آثار مصر، وأن يكشف للأوساط العلمية الأوروبية عن عظمة الحضارة المصرية القديمة، وأن يزيح عنها القناع الذي غشها قروناً طويلة من الزمان، وأن يقدم مجموعة من الرسوم والصور المحفورة أشد إتقاناً من سائر الصور السابقة عليه (٧٥)، وإن لم تكن ترقى إلى مستوى العمل الدقيق الجدى الذي قدمه علماء الحملة الفرنسية بعد ذلك بسنوات في "وصف مصر"، ومن هذه الناحية يمكن اعتبار لوحاته من حيث الإتقان والجودة في مرتبة وسطى بين لوحات نوردن وبوكوك السابقة عليه ولوحات "وصف مصر" التالية له، وإن كان نشرها قبل "وصف مصر" قد أكسبها شهرة وانتشاراً واسعين متى كانت هي اللوحات الوحيدة المنشورة والمتوفرة لدى القراء.

ولم تغل لوحات فيفان دينون من الانتقادات، ففيما يتعلق بالرسومات التي تعالج فن العمارة عند قدماء المصريين لوحظ أنها تقتصر إلى الدقة التسجيلية التي يلتزم بها الأثريون (٧٦).

كما أنه تغفل مراعاة النسب الواقعية لعناصر العمارة، كما أن معظم الرسوم "تتضمن تشويهات وأخطاء قياس أو اتجاهات خاطئة، كما أن ميل جدران بوابات المعابد، وميل جدران أبواب العمانر مبالغ فيه دائماً بحيث إن هذه اللوحات لا يمكنها أن تقدم عن العمارة التي تصورهما غير فكرة تقريبية" (٧٧) وفوق ذلك فإن الدراسات الهندسية من هذا النوع عموماً "لا تحتل سوى مساحة محدودة من عمله" (٧٨)، أما رسومات النقوش والأشكال الهيروغليفية فالعلامات فيها جد

مشوهة، والوجوه والأوضاع ليس فيها شيء مصرى حقاً، وهنالك بون بعيد بينها وبين الواقع، كما أن الكاتب لم ينجح في التحرر تماماً من تأثيره بالفن الإغريقى^(٧١).

ورغم كل هذه الانتقادات الموجهة إلى رحلة دينون فلا أحد يستطيع أن ينكر فضل الرجل على الدراسات الأنثية المصرية القديمة، ومما لا شك فيه أن أداء دينون كان جيداً حسب المتاح، فلقد حرمة العجلة التي أحاطت به وسط حصار الطلقات النارية من أن يقتفى الأثر ويحاكى تفاصيله المميزة، وكما يقول عنه جان ماري كاريه: "كان يرسم مخطوطاته الأولية بين كل طلقة بندقية وأخرى"^(٨٠) حتى إنه كاد يفقد حياته خلال إحدى المعارك.^(٨١)

عانى فيفان دينون - الذى كان في الحادية والخمسين من عمره - كثيراً من قيظ الصحراء الذى لا يطاق، ومن العواصف الرملية المقيتة: "فالتصق جفناه من الرمذ، والتهمت مقلته، ونزف أنفه طويلاً، وانتشر على جلده طفح مؤلم، واستعالت مسامه كلها بثوراً"^(٨٢) ومع ذلك كان يتوسل إلى العسكرين لكى يتوقفوا قليلاً، أو ينحرفوا عن الطريق المباشر حتى يمروا بأطلال الآثار القديمة لعله يجد شيئاً جديداً ينقله ويرسمه، وفي وادى الملوك حصل على إذن بزيارة قبر رمسيس الثالث، وأخذ يتصايح بصوت عالٍ للمطالبة برع ساعة وبعد مساومات عنيفة سمحوا له بعشرين دقيقة لا تزيد ثانية واحدة، وكان أحد الأشخاص يهديه، بينما يمدده آخر بشمعة لإضاءة ما يشير به دينون إليه^(٨٣).

كان علماء الحملة الفرنسية أول من اعترف لدينون بالفضل - رغم تخليه عنهم، وقيامه بالنشر قبلهم - فأشادوا به في مواضع عدة من كتابهم "وصف مصر" وأكدوا على صحة ما أورده من معلومات في رحلته، وقرظوا كتابه واعترفوا بأهميته^(٨٤)، ولم يكن دينون غائباً عن المقدمة التاريخية لوصف مصر، فقد وجه إليه فوربيه من خلالها تحية خاصة بكلمات أحرفها من نور: "رجل ذواقة، لا يمكن أن يقدرها [الآثار المصرية] إلا واحد من نوعه، وستظل أعماله التي قدمت لأوروبا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر تلفت في كل العصور انتباهاً قوياً، إذ أن لها جمالها الذى لا يشع إلا منها، كما أنها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء أن ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده"^(٨٥) ويكفى الرجل أنه قدم للعالم من الرسوم المطبوعة عن مصر ما ينيف على الثلاثمائة وعشرين رسماً^(٨٦).

كُلف دينون بعد عودته إلى فرنسا بإنشاء متحف اللوفر، وأسندت له إدارته مكافأة له على دوره في الكشف عن حضارة مصر القديمة، فأنشأ به أول جناح للآثار المصرية، وكان حريصاً على إمداده بالتحف والآثار حتى تكونت به مجموعة متحفية مصرية حقيقية^(٨٧) كما انتخب عضواً في المجمع العلمى الفرنسى^(٨٨).

تلك كانت مغامرة فيفان دينون في مصر، والتي استمرت ثلاثة عشر شهراً نجح خلالها في أن ينقل لأوروبا صورة صادقة عن الآثار المصرية، وروائع الفن المعماري المصري القديم، وإليه وإلى زملائه من المهندسين والمصورين والرسامين من أعضاء الحملة يرجع الفضل في إرساء دعائم الدراسات المصرية القديمة.

لجنة جيرار:

كانت هذه اللجنة تحت رئاسة عالم الرياضيات ومهندس الطرق والجسور سيمون جيرار وتضم في عضويتها كلاً من: بروسيرجولوا Brosper jollois، وديفلييه دوتيراج De villiers du terrage، وديبوا - إيميه Dubbois - Aimé، ودوشانوا Duchanois من مهندسي الطرق والجسور، وديكوتيل وروزيير Rozière، وديبوي Dupuy من مهندسي المناجم، وكاستيه Casteix النحات، ورغم أن الهدف الرئيسي من تأليف هذه اللجنة كما كلف به جيرار هو: "بحث الوسائل التي يمكن الانتفاع بها من النيل في زيادة خصوبة مصر وأن تجمع البيانات اللازمة لوضع خريطة عامة للنظام المائي لهذه البلاد"^(٨٩) إلا أن أعضاءها كانوا أشد اهتماماً بالآثار من شئون الري وماء النيل حتى غدا علم الآثار هو هوايتهم المحببة، وكان أكثر أفراد المجموعة تعلقاً بالآثار ودراسها ورسمها اثنين: الأول منهما جولوا الذي في الثانية والعشرين من عمره، والثاني ديفلييه وكان لا يتجاوز التاسعة عشرة من العمر، وكلاهما كان طالباً بمدرسة البوليتكنيك [الفنون المتعددة] الفرنسية^(٩٠)، وقد أصبحا منذ ذلك الوقت متلازمين دائماً في أبحاثهما الأثرية، وإليها يرجع الفضل في كتابه العديد من الأبحاث عن الآثار المصرية القديمة في كتاب "وصف مصر"^(٩١).

غادرت هذه اللجنة العلمية القاهرة في طريقها إلى مصر العليا في (١٩ مارس ١٧٩٩ م / ١٢ شوال ١٢١٣ هـ) مدعومة بإمكانيات هزيلة يصعب على المرء أن يتصور كفايتها للقيام بعمل على مثل تلك الدرجة من الأهمية من نحو ذلك العمل الذي كلفت به اللجنة، فضلاً عن الإنجاز الذي حققته بالفعل زيادة على مهمتها الأصلية، فقد تضمن أمر الرحيل الذي تلقاه ديفلييه من رئيسه جيرار: "أرجو أن تهتموا اليوم بأن تدبروا حصولكم على الأشياء الآتية بيانها: عدد من أقلام الرصاص، و ٤ رزم ورق، و ٤ أنابيب لاصق، و ٦ أقلام"^(٩٢) وأنه لمن العجيب أن يقوم علم جديد مبتكر - هو علم الآثار المصرية - بمثل هذه الإمكانيات الضئيلة، وأن ينجز بها أهم عمل أنجز حتى الآن في مثل هذا الوقت القليل عن عمائر مصر القديمة.

كان لدى هؤلاء الرجال - فيما يتعلق بدراسة الآثار المصرية - منهج ينتوون السير عليه، وهو يخالف منهج دينون الذي: "لم يسجل غير رسوم كروكية ومشاهد دون أن ينقل أي تخطيط هندسي، ودون أن يجري أي قياس"^(٩٣) ومن ثم فقد نظرت اللجنة للمعابد والنقوش نظرة فنية هندسية، فقد رفعوا تصميم المعابد مستعينين بميزان البناء وبمقياس الأبعاد وطاولو الرسم،

وسجلوا كافة النقوش بطريقة تكاد تكون آلية^(٩٤)، أما نظرة دينون إلى الآثار فقد كانت نظرة فنان، نظرة جمالية تمتاز بالبساطة والتلقائية والحس الجمالي المرهف الذى ينبع من كونه فناناً ورساماً. مروا في طريقهم بأنثينوى، ثم أسيوط وزاروا مقابرها التى زارها دينون من قبل وكانوا طوال الطريق لا يفكرون إلا في رؤية دندرة بأسرع ما يمكن، وكان ذلك يغضب جيرار الذى لم يكن راضياً عن عشقهم للآثار القديمة، فدخل في شجار مع ديبوا - إيميه انتهى بنفى هذا الأخير إلى القصير على ساحل البحر الأحمر، ورغم أنهم كانوا جميعاً يؤدون مهامهم الأساسية على أكمل وجه باعتراف جيرار نفسه، ومن حسن حظهم أنهم وجدوا في القائد بليار رجلاً متفهماً لرسالتهم فساندهم في مشروعهم، وكان يأذن لهم بمواصلة أبحاثهم الخاصة بمواقع الآثار، بل وكانوا يحصلون منه على قوة حراسة كافية لحمايتهم، ولكن لما كان من غير الممكن توفير هذه القوة دائماً فقد كانوا يقررون عند الضرورة الاستغناء عنها على الرغم من تحذير بليار الدائم لهم بأنهم قد يصدفون في خروجهم أشخاصاً خطرين ولكن حماسة هؤلاء الرجال جعلتهم لا يأبهون دائماً بمثل هذه المخاطر^(٩٥).

في دندرة يقوم جولوا وديفلييه برسم فلك البروج بدقة أكثر مما فعل دينون^(٩٦)، على الرغم من انزواء المكان وضعف الإضاءة به، قاموا بتقسيمه إلى قطاعات بمساعدة أسلاك ممدودة أفقياً على السقف بغية تقديم تمثيل أمين له يسمح بالدراسة الدقيقة لمعارف المصريين القدماء الفلكية، وإذا أخذ المرء في اعتباره الصعوبات المادية التى تعين عليهما العمل فيها فإنه لا يمكنه إلا أن يبدي إعجابه بروعة النتيجة التى توصلوا إليها^(٩٧).

كان جيرار لا يفتأ يذكر مرافقيه دائماً بالهدف الأسامى من رحلتهم، وكان يلومهم على اهتماماتهم الأثرية، كتب ديفلييه إلى صديقه ديبوا - إيميه المنفى إلى القصير: "إنى أتهمه [جيرار] أمامك بأنه يكره الآثار، فقد أنفق في النوم ثلاث ساعات من الأربع التى مكثها في دندرة"^(٩٨) ويقوم جيرار مرة أخرى بالتعبير من جديد عن عدم ارتياحه إلى الأعمال التى يقوم بها معاونوه من تلقاء أنفسهم، ويطلب منهم التركيز على مهامهم المتعلقة بالمسح والقياس لوادى النيل.

كان إنتاج هذا الفريق من الرسومات غزيراً، فنفتدت منهم أقلام الرصاص التى جلبوها معهم من القاهرة، ويكتب ديفلييه إلى صديقه رهبو في القاهرة: "إنكم إن لم ترسلوا إلينا أقلام رصاص أيها الصديق العزيز فلن يكون بوسعنا أن نقدم إليكم شيئاً عن رحلتنا، لقد استهلكنا جميع أقلامنا، ونحن يائسون، تحدث إلى كونتييه الذى لا بد وأنه قد جهزها، وإذا كان الأمر خلافاً لذلك استعمر من أصدقائك، واشتر وجهز ما سوف تجده عند كونتييه الذى سيتولى تسليمها إلى الجنرال دوجا Dugua الذى سوف يرسلها مع أحد راكبي الجمال هذا أمر متفق عليه"^(٩٩).

تتواصل الرحلة نحو الجنوب فتمر بأطلال قوص، ثم تصل أخيراً إلى طيبة في (٢٨ يونيو ١٧٩٩ م / ٢٤ محرم ١٢١٤ هـ) وما كاد جولوا و ديفلييه يبلغان الكرنك حتى أذهلتهما بضخامته وشموخه وروعته، فعكفا على رسمه وتسجيل أبعاده^(١٠٠)، غير أنهما لم يتمكنوا من البقاء في طيبة غير يوم واحد، ويضطران إلى التحرك جنوباً مع عزمهما على العودة من جديد عندما تسمح لهما الفرصة بذلك، وبعد عدة أيام يصلون إلى إسنا، وفي إسنا يكتشفون وسط أطلال المدينة الإفرنج الجميل لمعبد كان من المحتمل - لولا هذه المناسبة - أن يظل مجهولاً لزمّن طويل من جانب الرحالة المعاصرين، وبعد أن نفذوا إلى القاعة الفسيحة وقفوا مشدوهين من هول المفاجأة: "إن عمارتها والتي لا تقدم لنا آثار مصر الأخرى سوى فكرة بسيطة عنها، تركت في نفس كل منا الانطباع نفسه؛ فقد تملكنا إعجاب غامض لا نقوى على التعبير عنه بحال من الأحوال، وجعل كل منا ينظر بالتوالي إلى الآثار وإلى زملاء الرحلة، محاولاً التأكد مما إذا كان قد خانه نظره أو عقله، أو إذا كان قد فقد فجأة الذوق والأسس التي سبق أن حصلها من دراسة الآثار الإغريقية^(١٠١)" لقد أقرّوا في إسنا بتفوق العمارة الفرعونية على الطرازين: الإغريقي، والروماني، وتحرروا بشكل كامل من نفوذ هذين الطرازين اللذين كانا يمدان حتى ذلك الوقت نموذجاً للفن المعماري.

وبعد أن قضت لجنة جيران عشرة أيام في هذه المدينة - إسنا - استأنفت طريقها نحو الجنوب فوصلت إلى خرائب إدفو في ١٠ يوليو ١٧٩٩ (٦ صفر ١٢١٤ هـ) ثم استأنفوا مسيرتهم جنوباً حتى وصلوا إلى أسوان في ٢٥ يوليو ١٧٩٩ م (٢١ صفر ١٢١٤ هـ) وقاموا بزيارة جزيرة إلفنتين^(١٠٢) ثم فيلة المدينة بالعمائر القديمة، حيث عكف جولوا وديفلييه على رسم أطلالها وتسجيلها زهاء أسبوعين^(١٠٣)، وبعدها يبدأون رحلة العودة، ويطوفون من جديد بمواقع الآثار الرئيسية، ومن إسنا يرسل ديفلييه رسالة جديدة إلى ربهو: "إنك لم ترسل إلى أقلام الرصاص، وأنت تضعني في ورطة كبرى"^(١٠٤) ولم يكن هناك من سبيل للتخلص من هذه الورطة سوى صهر رصاص بليار وصبه ليصنعوا منه مزيداً من الأقلام رغم حاجة بليار الشديدة والملحة إليه^(١٠٥).

وصلوا إلى طيبة للمرة الثانية في (٨ أغسطس ١٧٩٩ م / ٦ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) وأقام جولوا و ديفلييه في قرية قريبة من مدينة هابو، وشرعوا منذئذ في رسم وتسجيل أطلال المدينة القديمة صاحبة التاريخ العريق: "كنا نشعر بالسعادة عندما نفكر بأننا سوف ننقل كل ثمار العلم القديم إنجاز المصريين إلى وطننا، وقد كان ذلك فتحاً حقيقياً حاولنا إنجازه باسم القنون"^(١٠٦) كان هذا شعورهم وهم يعملون تحت حرارة شهر أغسطس الملهبة، وفي ظروف مادية أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها متواضعة.

كان جولوا و ديفلييه يعملان بمفردهما في أغلب الأحيان، وربما انضم إليهما في بعض الأحيان ديكوتهيل و روزير و دوشانوا و ديبوى، وسرعان ما رجع ديكوتهيل و روزير و ديبوى إلى القاهرة،

وواصلت بقية البعثة مهمتها في تسجيل الخطط الهندسية للعمائر القديمة وبعد الانتهاء من استكشاف جميع عمائر الضفة الغربية يجرى الانكباب على دراسة عمائر الضفة الشرقية بعد نقل قاعدة العمل إلى الأقصر^(١٠٧) مما جعلهم يقيمون في طيبة خمسة وعشرين يوماً متوالية^(١٠٨). عادت البقية الباقية من لجنة جيرار إلى القاهرة في (٢٧ أكتوبر ١٧٩٩ م / ٢٧ جماد الأول ١٢١٤ هـ) بعد أن نجحت في إعداد بيان لجميع الأطلال التي أمكنها الاقتراب منها وزيارتها^(١٠٩)، كما تمكنت من اكتشاف مقبرة أمنحتب الثالث^(١١٠)، وقام جولوا و ديفلييه بصنع نماذج للمعابد والتماثيل والمسلات، وكانا بارعين للغاية في تقليدها^(١١١)، وكانت المحصلة الختامية لرحلتهما المضنية مسحاً شاملاً للزراعة والرى في صعيد مصر، بالإضافة إلى كم كبير من الرسوم والنقوش وعدد من المذكرات والأبحاث المتعلقة بعلم الآثار المصرية، والتي تم نشرها بعد ذلك في "وصف مصر".

لجنتا كوستاز وفورييه:

كان من نتائج رحلة فيفان دينون الناجحة أن أصدر بوناپرت - بناء على طلب العديدين من أعضاء المجلس العلمي، ومدفوعاً بالرسومات التي أراه دينون إياها - قراراً بتشكيل لجنتين علميتين على وجه العجلة من العلماء والفنانين والمهندسين أنيطت بهما مهمة زيارة ودراسة آثار مصر القديمة في الصعيد دراسة علمية على نحو موضوعي دقيق، ورسم تلك الآثار ونسخ نقوشها بكل دقة قدر الإمكان.

أما اللجنة الأولى: فقد كانت تضم في عضويتها أربعة عشر عالماً برئاسة كوستاز عالم الهندسة، بينما كانت عضويتها تتألف من لويير ويلزاك Balzac من المهندسين المعماريين، وسان - جينيس Saint Genis - من مهندسي الجسور والطرق، وكورابوف Corabouef من الجغرافيين، ولينووار Lenoir وكوتيل Coutelle من المتخصصين في الآليات، ونويه وميشان Mechain من علماء الفلك، وفيار Viard عالم الهندسة، ولاهات Labbatte الطبيب، وكوكبير Coquebert عالم النبات، وسافيني عالم الحيوان، وريبو المتخصص في الآداب.

أما اللجنة الثانية: فقد كانت بقيادة فورييه عالم الهندسة، ومعه اثنا عشر عالماً آخرون هم: أرزوليه Arnolet، وشابرول Chabrol، ولانكريه من مهندسي الجسور والطرق، وجومار من الجغرافيين، وفينسان Vincent المهندس، وميسل Cécile المتخصص في الآليات، وريدوتيه الرسام، ولاسبيري Lascipière الطبيب، ودوليل عالم النبات، ورويه Royer الصيدل، وجيوفروا سان هيلير عالم الحيوان، وفيلوتو Villoteau المؤلف الموسيقي، وقد كلفت هذه اللجنة بصفة خاصة - من بين المهام الأخرى التي كلفت بها - بدراسة النقوش الدقيقة ومحاولة تفسيرها، وبذلك يكون عدد أعضاء هاتين اللجنتين مجتمعتين سبعة وعشرين عضواً^(١١٢).

غادرت اللجنتان القاهرة في ٢٠ أغسطس ١٧٩٩ م (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) أي قبل رحيل بونابرت إلى فرنسا بثلاثة أيام، وكان نشاط العلماء والفنانين من أعضاء هاتين اللجنتين عظيماً في البحث عن الآثار وزيارتها ورسم المعابد والنقوش الهيروغليفية والتماثيل وما إلى ذلك، ووصف العلماء الآثار التي زاروها وصفاً دقيقاً، وكان بفضل جهودهم أن أمكن الوقوف على حقائق عدة عن معتقدات المصريين القدماء وعاداتهم وأساليب معيشتهم ومدى معارفهم في علوم الطب والفلك وفنون الهندسة والعمارة^(١١٣)، وحين التقى أعضاء هاتين اللجنتين مع زملائهما من أعضاء لجنة جيوار فيما بين إدفو وجبل السلسلة، اتفق الجميع على تنسيق العمل فيما بينهم، وحث جولوا وديفيليه زملاءهم الآخرين على اتباع نفس الأسلوب الذي سارا هما عليه، وعرضاً عليهم ما حققاه من إنجازات^(١١٤)، واتضح أن الجزء الأساسي من العمل كان قد أنجز بالفعل، وارتأوا فيما بينهم أنه بدلاً من الشروع في العمل من جديد، فإنه من الأنسب أن يتقاسموا فيما بينهم ما كان لا يزال في حاجة إلى الدراسة والبحث^(١١٥)، مادام الهدف الأساسي في النهاية هو الرغبة في خدمة العلم والتفاني في إنكار الذات، وحين استقرت أركان منهجهم في العمل بدأ العمل بلا هوادة، وفي ذلك يقول جولوا وديفيليه: "لم تفتنا لحظة لم ندخرها للبحث والدراسة، رسمنا خرائط مساحية لكل المدن القديمة، وجمعنا القياسات والرسوم التخطيطية اللازمة لرسم الخرائط والارتفاعات والمقاطع الرأسية لكل المعابد"^(١١٦) فاهتم جومار - من أعضاء لجنة فورييه - بكشف ودراسة معبد إدفو الذي كان مدفوناً تحت الرمال^(١١٧)، واهتم ريبو و كورابوف وسان جينييس - من أعضاء لجنة كوستاز - بجمع كل ما له علاقة بفن العمارة القديم^(١١٨)، بينما سلك كوستاز نفسه طريقه إلى مقابر الكاب^(١١٩) على الضفة الغربية للنيل، فكانت دهشته ماثلة لدهشة دينون حين اكتشف مقابر القرنه^(١٢٠)، ورسم ريدوتيه - من أعضاء لجنة فورييه - وبلزاك - من أعضاء لجنة كوستاز - ما صادفاه من آثار في جزيرة فيله والفنتين وفي كوم أمبو وادفو وإسنا وأرمنت والأقصر والكرنك ووادي الملوك في مدينة طيبة، وكذلك في مدينة هابو ودندرة^(١٢١).

مكثوا شهرين كاملين في طيبة^(١٢٢)، فحسوا خلالها معابد الأقصر والكرنك وميدامود على البر الشرقي ومعابد الرمسيوم والقرنة ومدينة هابو بالبر الغربي^(١٢٣)، وأبدوا اهتماماً خاصاً بمقابر وادي الملوك، وكان دينون لم يزر منها غير مقبرة رمسيس الثالث أما هم فقد استطاعوا الوصول إلى اثنتي عشرة مقبرة من المقابر الملكية كان من بينها قبر الملكة حتشبسوت^(١٢٤)، وبذلوا جهداً كبيراً في كشف هذه المقابر الصخرية حتى المنعزلة منها، وأداهم ذلك إلى اكتشاف مقابر كانت مجهولة لم يشر إليها أحد من الرحالة الذين جاءوا قبلهم^(١٢٥) كما نشروا تصميمات عدد منها في "وصف مصر"^(١٢٦).

كان إنجاز هاتين اللجنتين من الضخامة بحيث استنفد جميع مواردهما المالية التي كانت مقررة لهما من قبل وهو الأمر الذي جعلهما تطلبان بموارد أخرى جديدة بعد اهتمامهما بكشف الكثير من التفاصيل عن النحت والنقوش البارزة^(١٢٧)، وقد وجد العلماء مساندة صادقة من العسكريين الذين كانوا يرشدونهم إلى مواقع الأطلال المتطرفة والبعيدة، مثلما دلهم قائد الحامية العسكرية في جرجا على أطلال معبد سيثي الأول في أبيدوس، فعكفوا على تسجيله ورسمه^(١٢٨). كما درس العلماء خلال رحلة العودة أطلال أنتينوي^(١٢٩) قبل أن يصلوا إلى القاهرة في منتصف شهر نوفمبر تقريباً من عام ١٧٩٩ م^(١٣٠) (جماد الثاني ١٢١٤ هـ) بعد أن أنجزوا عملاً يعتقد أصحابه أنه: "ما من عمل آخر [مثلته] في الواقع قدم - وربما سيقدم - رسوماً وخرائط خاصة بالآثار قام بتنفيذها معماريون ومهندسون اعتماداً على قياسات مقارنة محققة ومستكملة من جميع جوانبها"^(١٣١).

حرص فورييه على أن يسجل في مقدمة "وصف مصر" ملخصاً للإنجاز الذي حققته هاتان اللجنتان ومنجهما في العمل: "كنا في ذلك الفصل من العام الذي تسهل فيه رياحه القوية الملاحة في النيل، عندئذ كان ميسوراً علينا أن نصعد في وقت قصير إلى جزيرة إلفنتين، وفي نفس الوقت عزمنا على أن نبلغ كل الأماكن التي تقع بها الآثار بغية التعرف أولاً على الأشياء التي ينبغي لنا أن نصفها، وأن نضع عن طريق هذا الحصر الأول نظاماً أكثر دقة في أبحاثنا. وحين وصلنا إلى الحدود التي تفصل مصر عن النوبة، إلى الجنوب من الشلال الأول، هبطنا مجرى النيل من أسوان حتى القاهرة، ووضعنا كل أثر مرة أخرى تحت فحص بالغ الدقة، فما إن كانت السفن تلمس الشاطئ حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الأسوار أو الأفنية التي يمكن أن نجد بها بعض بقايا المنشآت قديمة، وأقمنا خرائط طبوغرافية، ورسمنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى، كما قسمنا الأبعاد المعمارية، بالإضافة إلى التفاصيل التي لا حد لها للزينات، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة أو المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التي تغطيها، وفي الوقت نفسه كنا نلحظ الحالة الراهنة للأطلال، وأساليب البناء، وطبيعة المواد التي بنيت بها المنشآت، ودوناً الكتابات العادية أو التاريخية أو تلك التي تختص بالنذور والمناسبات الدينية الأخرى"^(١٣٢).

كما قام فورييه أيضاً بإعداد بحث تناول بالربط والتنسيق أعمال هاتين اللجنتين بعد عودتهما إلى القاهرة ونشرته صحيفة كورييه دوليجيبت Courier L' Egypte التي كانت تصدرها الحملة الفرنسية في مصر في عددها السابع والأربعين^(١٣٣)، وكانت هذه الصحيفة قد نشرت قبل ذلك موجزاً لرحلة دينون إلى الصعيد^(١٣٤)، أما نابليون العائد إلى فرنسا والذي كان تشكيل هاتين اللجنتين بتوجيه مباشر منه، والذي وضع بنفسه خط سيرهما، وهياً لهما كل الظروف المواتية والوسائل اللازمة لنجاحهما في مهمتهما، فقد بلغ من عنايته بنشر بحث يعرض نتائج هاتين

اللجنتين أنه طلب من ربو - أحد أعضاء لجنة كوستاز - أن يكتب تقريراً بهذا الخصوص - وكان ربو قد عاد هو الآخر إلى فرنسا بسبب اعتلال صحته - فصعد ربو بالأمر وإن حاول أن يصرف بونابرت عن نشر هذا التقرير، لأن ربو - على حد قوله - ما كان يرغب في الاعتداء على آراء زملائه وحرمانه من جهودهم^(١٣٥)، ومع ذلك فقد ظهر هذا التقرير منشوراً في صحيفة المونيتور Moniteur الفرنسية الرسمية^(١٣٦).

والحق إن هذه العصاة القليلة من العلماء قد ضربت أروع الأمثلة في العمل الجماعي المشترك وإنكار الذات والرغبة في التفاني من أجل خدمة العلم، وعلى الرغم من الصعوبات العديدة التي أحاطت بهم والتي كان بعضها كفيلاً بثنيهم هم أعنى الرجال، ولكن إيمانهم الراسخ بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقهم جعلهم يستسهلون الصعب من أجل أن ينقلوا إلى أوروبا أرقى ما وصلت إليه فنون البشرية من رقى وإتقان ورفعة عبر تاريخها الطويل.

لقد كان النجاح الذي حققته رحلة دينون ولجنة جيرار ولجننا كوستاز وفورييه في صعيد مصر، دافعاً لأن يقترح أعضاء لجنة العلوم والفنون القيام برحلة علمية أخرى إلى بلاد النوبة وهضبة الحبشة^(١٣٧) للتنقيب عن الآثار وزيارة المعابد القديمة التي اعتقدوا أن هذه الجهات تضم عدداً منها يفوق ما يوجد في الصعيد المصري، وكان هؤلاء العلماء يعقدون الآمال العريضة على حماية مراد بك لهم أثناء رحلتهم تلك بعد أن عقد كليبر معه معاهدة الصلح المعروفة في ٥ أبريل ١٨٠٠ م (٩ ذو القعدة ١٢١٤ هـ)^(١٣٨)، وكان نقض اتفاق العرش من جانب الإنجليز قد أياأس هؤلاء العلماء من العودة إلى بلدهم قريباً، وكان كليبر قد استدعاهم إلى القاهرة من أجل هذا الغرض عقب توقيع الاتفاق المذكور، وبدا أن الحملة سوف تظل باقية في مصر إلى أجل غير مسمى، مما دفع العلماء إلى التفكير في القيام بهذه الرحلة، غير أن مقتل كليبر بعد ذلك ما لبث أن عطل قيامها^(١٣٩).

فلما تسلم مينو قيادة الحملة عادت فكرة الرحلة إلى الظهور من جديد، لا سيما وأن مينو قد أظهر استعداداً لإجابة مطالب العلماء، وأصدر أوامره فعلاً بقيام هذه الرحلة العلمية، ولكن مينو كان كثير التردد؛ إذ أنه سرعان ما نقص أوامره وظل ثلاثة أشهر بأكملها يصدر الأمر تارة برحيلها، ويلغى هذا الأمر تارة أخرى، حتى أدرك العلماء أنه لا أمل في الرحيل فتفرقوا، وهكذا حُرمت المعرفة من مشروع على عظيم النفع والأثر، كان من الممكن أن يكون ماثرة أخرى تضاف إلى المآثر العلمية العديدة التي حققتها الحملة الفرنسية في مصر، وذلك لأن مينو "لم يكن بالرجل الذي يسعه التفكير في مثل هذه المشروعات الجليلة أو يستطيع إدراك قيمتها"^(١٤٠).

وكما كان صعيد مصر وآثاره مجالاً خصباً للنشاط علماء الحملة الفرنسية، فقد حظيت آثار الوجه البحري والدلتا بعناية واهتمام هؤلاء العلماء كذلك، فقد رسم جاكوتان Jacotin خريطة

لآثار سقارة ومنف^(١٤١)، كما زار جيزار ودوجا آثار هليوبوليس وقام الاثنان بفحص مسلة عين شمس، وقام كل من لانكره وفيفر بقياس ارتفاع هذه المسلة وأبعادها، ورسم جاكوتان مواقع هذه الآثار وحققها من الناحية الجغرافية^(١٤٢).

كذلك قام علماء الحملة الفرنسية بقياس الهرم الأكبر^(١٤٣)، واستطاع نوبيه الفلكي أن يكتشف أن كل زاوية من زوايا الهرم الأكبر تتجه إلى حبة من الجهات الأربع الأصلية، ووصف الأهرامات ورسمها^(١٤٤)، كذلك أجرى مهندسو الحملة تنقيبات هامة أمام تمثال أبي الهول^(١٤٥) ورسمه كل من كونتية ودوترتر^(١٤٦)، كما قاموا بتخليصه من الرمال التي تراكمت فوقه ومن حوله^(١٤٧).

وقام ديفرنوا Desvernois بدراسة نقوش بارزة بديعة في بعض المقابر القريبة من الهرم الأكبر، وكانت تمثل شتى الأعمال الرفيعة مرسومة بما امتازت به خطوط الفن المصري القديم من نقاء ودقة ونظام عجيب، وقد علق ديفرنوا على هذه النقوش بقوله: "إن مما يستحق الإعجاب أكثر من كل شيء هو الدقة التامة في تصوير أصغر التفاصيل... لقد هزت هذه المناظر مشاعري هزاً قوياً بحيث ما زالت عالقة بذهني خمسين عاماً"^(١٤٨)، كذلك زار شامبي وفورييه وجيوفرواسان هيلير آثار منف، ووضعوا تقريراً مسبباً عن أعمالهم في هذه المنطقة الأثرية^(١٤٩)، وقام فريان Friant برحلة إلى برج العرب، وأمكنه أن يعثر على بعض الآثار في هذه المنطقة، فقرر مينو إيفاد لجنة من العلماء لزيارة هذه الآثار ضمت كلاً من: لويير، ولانكره، وشابروول^(١٥٠).

وكان جولوا يجوب أنحاء الريف "وبدرس الآثار"^(١٥١) كذلك أعد سان جينيس بحثاً مستفيضاً عن الإسكندرية القديمة^(١٥٢)، وكتب دولوميو بحثاً آخر عن ذات الموضوع، كما كتب نوري بحثاً عن عمود بومبي^(١٥٣)، أما جيوفروا سان هيلير فقد اهتم بدراسة الحيوانات التي حنطها قدماء المصريين، كما اهتم كذلك بدراسة المومياوات التي عثر عليها في طيبة وسقارة^(١٥٤).

على أن أهم ما عثر عليه رجال الحملة من آثار في الوجه البحري كان هو حجر رشيد ونظراً لأهمية هذا الاكتشاف في تاريخ علم المصريات، ولأنه أحدث ضجة كبرى في الأوساط العلمية المعنية بالدراسات المصرية القديمة، فقد أفردنا له الصفحات التالية.

حجر رشيد:

في منتصف شهر يوليو من عام ١٧٩٩م (صفر ١٢١٤ هـ) كان بعض رجال الحملة الفرنسية يقومون بعمل عدة تحصينات في قلعة سان جوليان بالقرب من المصب الغربي للنيل عند رشيد على الشاطئ الغربي من النهر، وقد أنشئت تلك التحصينات في موضع القلعة القديمة التي بناها سلاطين المماليك في العصر المملوكي، والتي ظلت بقاياها تعرف باسم "برج رشيد" وكانت تتم تحت إشراف دوتبول D' Hautpoul الضابط المهندس والضابط بوشار Bouchard بناء على أوامر من

القائد العام بونابرت، وقد تمثلت تلك التحصينات في بناء قلعة جديدة مكان القلعة القديمة، وعندما بدأ الحفر لإقامة القلعة الجديدة عثروا على بقايا أبنية مصرية قديمة كان السلاطين المماليك قد استخدموها في بناء قلعتهم السابقة على عادتهم في ذلك الوقت، ومن بين هذه الخرائب عثروا على حجر من البازلت الأسود شديد الصلابة^(١٥٥)، أبعاده: ١٢٠ سنتيمتر، ٩٠ سنتيمتر، ٣٢ سنتيمتر طولاً وعرضاً وسمكاً على التوالي، ولكنه غير منتظم الشكل، فقد كان الجزء العلوي منه مكسوراً وناقصاً^(١٥٦).

وبعد انتزاع الحجر من مكانه الأصلي وتنظيفه مما علق به من الطين والتراب، تبين أنه نقش على أحد وجهيه ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن البعض الآخر، كانت المجموعة العليا المكسورة الناقصة تتضمن أربعة عشر سطراً [وقد اتضح فيما بعد أنها بالخط الهيروغليفي]^(١٥٧)، بينما كانت المجموعة الوسطى تتكون من اثنين وثلاثين سطراً [وقد اتضح كذلك فيما بعد أنها خط ديموطيقي]، أما المجموعة الثالثة السفلى فقد كانت بالخط الإغريقي وتتضمن أربعة وخمسين سطراً^(١٥٨).

أدرك بوشار ورفاقه بثاقب فكرهم أن هذه النقوش ربما تمثل أهمية كبيرة، ذلك أن النقوش الهيروغليفيه المجهولة على الحجر متى كانت ترجمة للنص المكتوب باللغة الإغريقية التي كانت معروفة في ذلك الوقت : فإن النص كان طويلاً بدرجة تكفى لأن يكون أساساً لدراسة اللغة الهيروغليفيه، فكان أن أبقى بوشارد إلى أعضاء لجنة العلوم والفنون بالقاهرة ليعلمهم بنبا هذا الاكتشاف الذي قام لاكتريه بعرضه على زملائه أثناء إحدى اجتماعات لجنة العلوم والفنون في ١٩ يوليو ١٧٩٩م (١٥ صفر ١٢١٤ هـ) واصفاً تلك النقوش المكتشفة بأنها "قد تكون ذات نفع كبير"^(١٥٩).

أحدث هذا الكشف ضجة كبرى بين الأوساط العلمية في ذلك الوقت، ونشرت صحيفة كوربيه دوليجيب في عددها السابع والثلاثين بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٧٩٩م (١٤ ربيع الثاني ١٢١٤ هـ) ما نصه: "تم العثور وسط الأعمال التي قام بها دويتول لتدعيم قلعة رشيد القديمة على الضفة الغربية للنيل... على حجر من الجرانيت الأسود الرائع، حبيباته رفيعة للغاية، وصلب جداً لدى طريقه... توجد على أحد وجهيه فقط المصقول صقلاً ناعماً ثلاثة مخطوطات مختلفة منحوتة في ثلاث مجموعات من الخطوط المتوازية. المجموعة العليا - الأولى - مكتوبة بحروف هيروغليفيه... المجموعة الثانية - الوسطى - مكتوبة بحروف يعتقد أنها سريانية، أما المجموعة الثالثة مكتوبة باليونانية... تمت ترجمة جزء من النص اليوناني بأوامر من الجنرال مينو... ويتيح هذا الحجر فرصة عظيمة لدراسة الحروف الهيروغليفيه، بل لعلها تتيح فرصة إيجاد مفتاح لغزها"^(١٦٠).

وحيث إن أهمية هذا الاكتشاف قد تأكدت بالكيفية السابقة والتي لم تكن لتخفى على أحد فقد قام الجنرال مينو الذى كان مقيماً في ذلك الوقت بالإسكندرية بنقل هذا الحجر إلى منزله واعتبره ملكية خاصة له، ولكن بونايرت عندما بلغه نبأ هذا الاكتشاف أمر بإحضار الحجر من الإسكندرية إلى القاهرة، فأحضر إليها عن طريق بولاقي، ووضع في المجمع العلمى المصرى ليكون في متناول فحص ودراسة المختصين من أعضاء البعثة العلمية التى كانت مصاحبة للحملة، وقام هؤلاء العلماء بفحص الحجر وحاولوا معرفة معانى الكتابات المنقوشة عليه، ولكنهم أخفقوا في ذلك ولم يصلوا إلى نتيجة حاسمة، وعندئذٍ أمر نابليون بعمل نسخ مقلدة لكل ما هو مكتوب على سطح الحجر من كتابات ونقوش وتوزع هذه النسخ على علماء أوروبا لدراستها وتحديد معانيها^(١٦١).

شرع الرسامون في رسم الحجر وما عليه من نقوش مصرية بدقة عظيمة، ففضوا في هذا العمل عدة أسابيع وحاول مارسيل Marcel مدير المطبعة أن يطبع من النقوش الموجودة على الحجر عدة نسخ، ونجح في ذلك بأن غسل الحجر بمحلول من الملح المخفف، ثم تركه يجف، ثم صب عليه حبر الطباعة ووضع عليه الورق، أما كونتيه فقد استخدم في ذلك الطريقة المتبعة في طبع الصور والحروف المحفورة على المعادن، وقد نجحت هذه المحاولة كذلك، وأرسلت نسخ من كل ذلك إلى باريس حيث حملها دوجا إلى المجمع العلمى الفرنسى^(١٦٢).

وبعد انتهاء عمليات النسخ هذه، استعاد الجنرال مينو الحجر مرة أخرى، ونقله إلى منزله، وظل متمسكاً بملكيته له، وبعد أن تطورت الأوضاع في غير صالح الحملة الفرنسية وأجبر الإنجليز الفرنسيين على الخروج من مصر بصفة نهائية، طالب الإنجليز بتسليم حجر رشيد لهم طبقاً لنصوص المعاهدة التى وقعت بين الطرفين، وبلغ من إصرار الإنجليز على الحصول على هذا الحجر أن اللورد إلجين Elgin سفير بريطانيا في إسطنبول - وكان واحداً من أكبر قراصنة خطف وتهريب الآثار لصالح بلاده - أرسل سكرتيره الخاص ويدعى وليام هاميلتون William Hamilton إلى مصر خصيصاً لهذا الغرض^(١٦٣)، ولكن مينو رفض تسليم الحجر باعتباره ملكاً شخصياً له، على أن الإنجليز ممثلين في هاميلتون وفي القائد العام الجنرال هتشنسون Hutchinson تمسكوا بوجوب الحصول عليه، وأمام إصرارهم هذا اضطر مينو إلى التخلي عن هذا الحجر على كره منه، وكتب إلى هيتشنسون يقول له: "إنك تريد يا سيدى الجنرال، ففى وسعك أن تأخذه ما دمت أقوانا، ولك أن تنقله متى شئت"^(١٦٤) وقد كان لنجاح هاميلتون في مهمته هذه أثره في أن كلفه السفير في العام التالى بالإشراف على انتهاب منحوتات البارثينون^(١٦٥) اليونانية المشهورة، ونقلها من أثينا إلى لندن^(١٦٦).

قام الجنرال تيرنر Timer القائد الإنجليزي بمصادرة حجر رشيد من فوق سفينة فرنسية كانت تنأهب للإقلاع به خلسه، ثم نقله من الإسكندرية إلى لندن، وكتب في تقريره عنه: "غنيمة مجيدة للسلاح البريطاني... لم تنتزع من أيدي شعب أعزل، ولكن أخذت بشرف وطبقاً لقوانين الحرب" (١٦٧)، ويبدو أن لكلمة "شرف" هذه عند تيرنر مدلولاً يختلف عن مدلولها المعروف عنها عادة.

وبعد نقله إلى لندن أودع الحجر في قاعة الجمعية الأثرية الإنجليزية حيث ظل لعدة شهور لقي فيها معاملة كريمة، فقد أجريت عليه دراسات كثيرة تم خلالها تصويره وعمل نسخ حجرية متكررة منه ثم إرسالها إلى علماء المشرقيات في مختلف بلدان العالم، كما أودعوا نسخاً منه في كافة جامعات إنجلترا (١٦٨) ثم نقشوا على خلفيته عبارة: "تم الاستيلاء عليه في مصر بواسطة الجيش البريطاني سنة ١٨٠١ م" (١٦٩)، وقام هتشنسون القائد العام للبحرية البريطانية بإهدائه إلى جورج الثالث George III ملك إنجلترا الذي تنازل عنه بدوره إلى المتحف البريطاني (١٧٠)، فنقل إلى إحدى قاعات العرض بالمتحف كتحفة أثرية جذبت - ولا تزال تجذب - اهتمام العديدين من رواد المتحف.

ظل حجر رشيد مترعاً على عرشه في المتحف البريطاني كإحدى أهم التحف الأثرية التي يمتلكها المتحف، ولم يغادر مكانه إلا مرة واحدة فقط زار خلالها باريس في عام (١٩٧٢ م / ١٣٩٢ م) بمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على قيام شامبليون بحل رموز اللغة الهيروغليفية (١٧١)، أما مصر - موطنه الأصلي - فلم تشهد حجر رشيد مرة أخرى منذ أن خرج منها عام ١٨٠١ م وحتى الآن.

لا جدال في أن الصدفة وحدها هي التي سمحت لرجال الحملة الفرنسية بالعثور على حجر له هذه الدرجة من الأهمية، ولكن الصدفة وحدها لم تكن لتكفي لكي يشعر القائمون بهذا الاكتشاف بالأهمية القصوى لهذا الحجر المكتشف، والذي أعطى للبشرية مفتاح حل لغز اللغة الهيروغليفية التي استغلق فهمها على الأذهان قروناً طويلة، وقد أعطى هذا بطبيعة الحال دفعة عظيمة للدراسات المصرية القديمة، وسجل بداية تلك المرحلة الطويلة التي أخذ يتكامل فيها تدريجياً تاريخ مصر القديم.

لقد كانت نظرة هؤلاء المستكشفين ناقبة بحق، وتمتع بقدر كبير من الدقة وبعد النظر فقد كان من الممكن أن يمر عليهم هذا الحجر دون أن يستدعي من جانبهم أدنى انتباه، بداية من الجندي مجهول الاسم الذي استخرجه من الأنقاض ولاحظ النقوش المدونة عليه فقام بعرض أمره على رؤسائه ومروراً ببوشار قائد الموقع، ثم مينو ثم فوربيه محرر صحيفة الكوربيه الذي قام بنشر خبر الاكتشاف متفهماً لأهميته القصوى، تماماً كما مر من قبل على سابقهم الذين

نقلوا هذا الحجر من مكانه الأصلي واستخدموه في بناء القلعة القديمة دون أن يثير انتباههم. ولكن كلا الفريقين كان من نوع مختلف وبهتما بون بعيد.

وصف مصر:

ترجع مائدة فكرة نشر جماعي لرسموم وأعمال وملاحظات لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمي المصري إلى الجنرال كليبر الذي كان صاحب الفضل في تنظيم جهود العلماء بالصورة التي أسفرت عن نجاحهم في إنجاز السفر الضخم المعروف بـ "وصف مصر".

كان كليبر قد بعث برسالة إلى المجمع العلمي المصري في (٢٢ نوفمبر ١٧٩٩م / ٢٣ جمادى الثاني ١٢١٤ هـ) غداة عودة لجنتي كوستاز وفورييه من الصعيد، تلاها فورييه على أعضائه جاء فيها: "إن المرء لا يسعه إلا أن يبدى إعجابه بذلك النشاط العظيم وذلك التساند الذي ظهر بين أعضاء هاتين اللجنتين لتبادل ثمار البحوث العديدة التي قاموا بها، ولا مرء في أن من دواعي هذا الإعجاب الكبير ذبوع تلك الفكرة التي ترمي إلى جمع كل تلك الآثار الجميلة في كتاب عظيم واحد... وذلك لأن هذه الفكرة إنما يدل ذبوعها على وطنية العلماء وكرم أخلاقهم، وأما أولئك الفرنسيين الذين زاروا الصعيد قبل تأسيس اللجنتين (لجنتي كوستاز وفورييه) أو زاروا هذا الإقليم في أثناء بحوثهم العلمية ودراساتهم الفنية، أو عنوا بهذه الدراسات في أثناء قيامهم بوظائف أو أعمال أخرى فإن الواجب يقتضي انضمامهم كذلك إلى أعضاء هاتين اللجنتين، لأن الغرض واحد لا يتغير، ألا وهو البحث عن الحقائق لنشر نور العلم والعرفان... وعلى ذلك فإن ما أرجوه هو أن يتم بوجه السرعة اتخاذ ما يكفل من أسباب لتصنيف تلك البحوث المختلفة بتوزيع موادها واختيار من يعهد إليه بتنسيق ثمارها في كتاب عظيم يجمع بين دفتيه شتاتها" (١٧٢).

وعلى ذلك فقد تقرر في المجمع العلمي دعوة جميع أعضاء لجنة العلوم والفنون، وأصحاب البحوث والمذكرات العلمية الآخرين، وذلك حتى يمكن التفاهم في شأن الكتاب المزمع تصنيفه بصورة تتضمن تنسيق هذه الآثار العلمية ونشرها كاملة، كما تقرر كذلك اختيار فورييه للإشراف على هذا العمل (١٧٣).

على أن هذه الفكرة الطموح قد تعطل تنفيذها بعد أن صادف القائمون عليها عقبتين كؤودتين لم يكن من الممكن التغلب عليهما في ذلك الوقت، أما العقبة الأولى فقد تمثلت في ضرورة رجوع بعض العلماء إلى فرنسا مزودين بالمادة العلمية التي سيحتويها الكتاب المنشور تمهيداً للبدء في إعداده، غير أنه كان من المتعذر على العلماء أن يغادروا مصر بسبب انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا، ومن ثم لم يتمكن هؤلاء العلماء من العودة إلى فرنسا إلا بعد حولين كاملين (١٧٤).

أما العقبة الأخرى فقد تمثلت في النفقات الضخمة التي سوف يتطلبها نشر عمل كبير كهذا العمل، وكان قد حدث اتفاق بصدد النشر بين أعضاء لجنة العلوم والفنون وبين أحد رجال

الأعمال الفرنسية ويدعى هاملان Hamelin، ووافق كليبر على هذا الاتفاق، ولكن مينو الذى خلفه فى قيادة الحملة رفض أن يستمر الاتفاق مع هاملان قائماً بدعوى أن بحوث العلماء ملك للجمهورية الفرنسية، وأن من واجب حكومتها أن تضطلع بمهمة النشر، وأن تكافئ المؤلفين على بحوثهم صوتاً لكرامتها، فقرر العلماء فيما بينهم أن يتضامن العلماء الذين سوف يضم الكتاب بحوثهم ودراساتهم فى تحمل نفقات النشر بعد الفراغ من إعداده^(١٧٥).

وعند توقيع اتفاقية الجلاء عن الإسكندرية بين الفرنسيين والإنجليز حدثت مشكلة أخرى كادت تعصف بالمشروع من أساسه حين أصر الإنجليز على الاستيلاء على الأوراق والرسومات والمجامع العلمية التى كانت بحوزة العلماء، والتى كان من المقرر أن تشكل مادة الكتاب المقترح، مع أن العلماء كانوا يتوقعون أن ينالوا شروطاً مماثلة لما جاء فى اتفاقية الجلاء عن القاهرة التى وقعها بليار، والثى نصت فى مادتها الحادية عشرة على أن: "حكام السياسة وأرباب العلوم والصناعات [يقصد بهم أعضاء لجنة العلوم والفنون] يصحبون ويأخذون معهم جميع الأوراق والكتب ليس التى تخصهم، بل كل ما يروونه نافعا لهم"^(١٧٦)، وتلك "التي شروها من مصر"^(١٧٧).

ولكن الإنجليز كانوا أكثر تشدداً عند توقيع اتفاق الجلاء عن الإسكندرية بعد أن رأوا بأعينهم مدى تخرج موقف الفرنسيين فيها، فاعترضوا على منطوق المادة السادسة عشرة من الاتفاقية والتى تقضى بأنه "يقع لأعضاء المجمع العلمى المصرى ولجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم جميع الأوراق والرسومات والمذكرات ومجاميع التاريخ الطبيعى، وجميع آثار الفنون والعاديات القديمة التى جمعوها من مصر"^(١٧٨) وكان من رأى الإنجليز أن "أعضاء المجمع لهم أن يأخذوا معهم جميع الآلات الفنية والعلمية التى جاءوا بها من فرنسا، ولكن المخطوطات العربية والتمائيل وباقى المجاميع التى جمعت للجمهورية الفرنسية تعتبر من الأملاك العامة، ومن ثم تسلم لقواد الحلفاء"^(١٧٩).

وقف العلماء موقفاً محموداً فى الدفاع عن ثمره جهودهم العلمية، فقد عارضوا المطالب الإنجليزى بهذا الصدد، وكتبوا إلى مينو خطاباً شديد اللهجة قالوا فيه: "إن القائد العام الفرنسى إذا كان يحق له أن يبيت فى مصر الجيش والمستعمرة، ويتصرف فى مهمات الجيش وعتاده فإنه ولا شك يتجاوز سلطاته إذا اعتقد أن حقه كذلك أن يفصل فى ثمره جهود العلماء التى هى ملكهم الخاص"^(١٨٠).

اقتنع مينو بوجهة نظر العلماء ووعد بأن يطلب من الإنجليز تعديل هذه المادة، ولكنه فشل فى مسعاه، وأصر الإنجليز على التوقيع على شروط التسليم بأكملها بما فيها تلك المادة القاضية بتسليم تلك الأوراق والبحوث العلمية إليهم، وأصر العلماء بدورهم على موقفهم، وهو الأمر الذى أسخط مينو عليهم، فكتب إلى الجنرال هتشنسون يقول: "علمت لتوى أن بعض جامعى

المجموعات يودون أن يشحنوا بذورهم ومعادتهم وفراشاتهم وزواحفهم حيثما اخترت أن تشحن أمتعتهم [يقصد إلى لندن وكان العلماء قد هددوا ميتو بمرافقة المجموعات إلى لندن إن هو سلمها للإنجليز]^(١٨١) ولا أعرف ما إذا كانوا يريدون أن يحشوا أنفسهم بها... لكني أستطيع أن أؤكد لك أنهم إذا راقت لهم الفكرة فلن أمنعهم" ^(١٨٢).

كانت الفكرة السائدة لدى العلماء أن هاملتون كان هو المسئول عن إصرار هتشنسون على سلب العلماء ثمرة جهودهم لرغبته في الاستيلاء على ما لديهم من مذكرات وبحوث علمية، مما جعل جيوفروا سان هيلير يصيح فيه قائلاً: "كلا، نحن نرفض أن نطيع هذه الأوامر. إن جيشكم لن يدخل الإسكندرية إلا بعد يومين، وهذه مدة كافية ولا شك لأن نتوج جهودنا ببذل هذه التضحية الأخيرة، وعندئذ يمكنكم أن تفعلوا بأشخاصنا كما تشاءون. كلا، إنى أكرر القول بالرفض، ولن يقول أحد بعد ذلك إننا سلمنا بهذه التضحية عن طيب خاطر، فنحن سوف نحرق بأنفسنا ما معنا كنوز. إنكم تنشدون الشهرة والمجد، إذن فعليكم أن تتدبروا ما سوف يسجله التاريخ من ذكريات عندما يقول إنكم قد أحرقتم مكتبة أخرى بالإسكندرية" ^(١٨٣).

وربما يمكننا أن هاميلتون لم يكن مسئولاً عن هذا الموقف المتشدد الذي سلكه هتشنسون تجاه العلماء أثناء مفاوضاته مع الجانب الفرنسي بقصد رجوع الحملة إلى فرنسا. ذلك أن هاميلتون لم يكن مهتماً إلا بالحصول على الآثار المصرية التي جمعتها الحملة أثناء إقامتها في مصر، وهو الغرض الأصلي من المهمة التي كلفها بها سيده السفير لورد إلجين، بل ربما لم يكن على علم - وهو في طريقه إلى مصر - بوجود مثل تلك المجموعات العلمية لدى العلماء فقد كانت الآثار هي كل ما كان يسعى للحصول عليه إرضاءً لسيده الذي كان شغوقاً بجمعها ومولعاً بالتجارة فيها، تلك التجارة التي بدت خلال هذه الفترة وكأنها هي العمل الأساسي للغالبية العظمى من الدبلوماسيين الأجانب العاملين في مختلف الولايات التابعة للدولة العثمانية بل وفي الدولة ذاتها، وأغلب الظن أن هتشنسون كذلك لم تكن لديه أية اهتمامات علمية أو معرفية، وإنما هي رغبة المنتصر دائماً في قهر وإذلال المغلوب، وتحقيق أكبر قدر من المكاسب التي يمكن الحصول عليها منه، وتجريده من كل ما يمكن أن يمثل لديه قيمة مادية أو معنوية، وكأنه لزاماً على المغلوب أن يدفع تكاليف النصر الذي أحرزه عليه غريمه، وهو نصر لم يتحقق إلا بعد أن بذل هذا الأخير في سبيله كل مرتخص وغال، ولم يكن الفرنسيون في ذلك أفضل حالاً من الإنجليز، فقد غزا الفرنسيون إيطاليا قبل مجيئهم مصر، وساموا أهلها سوء العذاب، ونقلوا منها ما احتوت عليه خزائنها ودور تحفها من كنوز ونفائس، وتلك ظاهرة ربما كان علماء النفس أحرى ببحثها من المؤرخين.

على أية حال فإن هاملتون - وقد شعر بالشك يختلج صدور العلماء الفرنسيين تجاه تصرفاته - قد أكد للعلماء صدق نياته في الوساطة لهم لدى هتشنسون لإنهاء مشكلتهم، وقد أقلحت وسماطته بالفعل، فضلاً عن أن هتشنسون لم يكن بالرجل الذي يرضى أن يوصم بتهمة العداء للعلم في زمن كانت فيه كل من الدولتين الكبيرتين تدعى لنفسها أنها حاملة لواء الحضارة والمدنية والتقدم، فوافق هتشنسون على أن يترك للعلماء ثمرة جهودهم، وفي (٢٧ سبتمبر ١٨٠١ م / ١٩ جماد الأول ١٢١٦ هـ) غادر أعضاء لجنة العلوم والفنون مصر إلى فرنسا ومعهم مذكراتهم وبحوثهم ومجموعاته العلمية التي اعتمدوا عليها في إصدار كتاب "وصف مصر".

بعد العودة إلى فرنسا لقي مشروع وضع كتاب شامل يجمع بحوث العلماء تأييداً وتشجيعاً من نابليون بونابرت، وكان قد أصبح قنصلاً أول، وفي (٦ فبراير ١٨٠٢ م / ٣ شوال ١٢١٦ هـ) صدر قرار بأن تقوم الحكومة بنشر الكتاب المزمع تصنيفه على نفقة الخزنة العامة، كما منح العاملون في تحريره وإعداده رواتب ثابتة^(١٨٤)، وعهد إلى لجنة مؤلفة من ثمانية أشخاص انتخبهم العلماء للإشراف على تبويب الكتاب وإنجاز العمل وتقدير نفقاته وجمع مواده وإخراجه، وأعضاء هذه اللجنة هم: برتوليه، ومونج، وكونتيه، وكوستاز، وديجنيت، وفورييه، وجيرار، ولانكريه، وانضم إليهم خلال العمل جومار وجولوا بعد وفاة لانكريه وكونتيه، ثم انضم إليهم ديفلييه ودوليل^(١٨٥).

صدر المجلد الأول من "وصف مصر" في عام ١٨٠٩ م (١٢٢٤ هـ) بعنوان رئيسي هو: "وصف مصر" تحته عنوان آخر فرعي هو: "مجموعة الملاحظات والأبحاث التي أجريت في مصر أثناء حملة الجيش الفرنسي"^(١٨٦)، وقد كتب على غلاف هذا المجلد وكذلك غلاف المجلد التالي له أنه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون الأكبر، ثم توالى ظهور مجلدات الكتاب الأخرى حتى صدر المجلد التاسع والأخير منه عام ١٨٢٢ م (١٢٣٧ هـ) ولما كانت بقية المجلدات التسع بعد الثاني قد ظهرت بعد سقوط نابليون فقد كتب على غلافها أنها قد طبعت بأمر الحكومة^(١٨٧).

وهذه المجلدات التسع المخصصة للدراسات موزعة على النحو التالي:

* مجلدان لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر.

* أربعة مجلدات لدراسة العصور القديمة: اثنان منها للدراسات، واثنان آخران لوصف العصور القديمة.

* ثلاثة مجلدات لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر والتي تبدأ تقريباً منذ الفتح الإسلامي وحتى مجئ الحملة الفرنسية.

وبالإضافة إلى هذه المجلدات المخصصة للنصوص كان هناك أحد عشر مجلداً للوحات والأطلس الجغرافي^(١٨٨).

وقبل الانتهاء من هذه الطبعة الأولى كان قد بدئ في طبع الكتاب طبعة ثانية خلال الفترة من عام (١٨٢١ م / ١٢٣٦ هـ) إلى عام (١٨٢٩ م / ١٢٤٤ هـ) وهي الطبعة المعروفة باسم طبعة بانكوك Panchouche، وقد خرجت هذه الطبعة الثانية في سبعة وثلاثين مجلداً: ستة وعشرين منها تحوى النصوص، وأحد عشر مجلداً تحوى الرسوم والخرائط^(١٨٩) وهذه الأخيرة هي نفسها المجلدات التي صدرت مع الطبعة الأولى.

وجدير بالذكر أن محتويات مجلدات هذه الطبعة ذات الستة وعشرين مجلداً من النصوص هي نفسها تقريباً^(١٩٠) محتويات الطبعة الأولى ذات المجلدات التسعة، ولكنها وزعت على مجلدات أصغر حجماً بقصد تقديم "تسهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة [بغية] انتشار هذا المؤلف ورواجه في كل أوروبا"^(١٩١).

لقد أحدث ظهور كتاب "وصف مصر" دويًا هائلاً في المحافل العلمية بأوروبا، فقد سلب الأضواء على مصر صاحبة أقدم الحضارات وأكثرها تقدماً وازدهاراً، وجعلها منذ ذلك الحين قبلة الرحالة والباحثين والمنقبين، والكتاب أشبه ما يكون بدائرة معارف حقيقية لمصر القديمة والحديثة إلى انتهاء عهد الحملة الفرنسية، وهو يعتبر "أعظم كتاب كُتِبَ لدراسة شعب من الشعوب"^(١٩٢) مما جعل الفرنسيين يوجهون اللوم إلى بوناپرت لأنه لم يهتم بإخراج كتاب مماثل عن فرنسا ذاتها: "إن فرنسا لتستحق - دون جدال - أن تكون موضوعاً لوصف يتم بنفس هذا النسق" إذ أنه "ليس ثمة بلد يحوز وصفاً بهذه الدرجة من التمام والكمال في كل مناطقه"^(١٩٣).

لم تكن مصر القديمة وأثارها غائبة عن "وصف مصر" بل لم يتأخر ظهورها فيه كثيراً، فهي تبدأ في الظهور منذ السطر الثالث من المقدمة التي كتبها فورييه للوصف إذ هي: "موطن الفنون، وهي التي ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم معابدها، وكذا القصور التي سكنها ملوكها"^(١٩٤)، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد شيد قبل حرب طروادة^(١٩٥) بل إنها ظهرت قبل ذلك، فقد حرص دينون الذي أسندوا إليه رسم صورة غلاف الكتاب في طبعته الأولى على إبراز عظمة مصر القديمة فضم هذا الرسم مصوراً للمعابد والأهرام وأبي الهول ومسلة كليوباترا وعمود السوارى ورسم فلك البروج بمعبد دندرة وبردية وتاج وأحد تماثيل الكباش بطيبة ومناظر من مقابر وادي الملوك وحتى حجر رشيد دفعة واحدة^(١٩٦).

اشتمل كتاب "وصف مصر" على مائة وستة وعشرين بحثاً متنوعاً عن مختلف نواحي الحياة في مصر، وبعض هذه الأبحاث طويل، وبعضها متوسط الطول، وبعضها الآخر قصير لا يتجاوز عدة صفحات قليلة، ولكن عدد هذه الأبحاث الأخيرة طفيف، ومن هذا العدد الإجمالي يوجد ثلاثون بحثاً تتعلق بمصر القديمة وأثارها، وهو ما جرى العرف على تسميته منذ ذلك الوقت بأركيولوجيا العصور القديمة^(١٩٧)، ويعنى ذلك أن الدراسات الخاصة بمصر القديمة تمثل نحو

٢٣,٨% من عدد الدراسات التي تضمنها الكتاب، أي أنها تشغل أقل قليلاً من ربع مباحث "وصف مصر".

أما عن الرسومات واللوحات فقد اشتمل "وصف مصر" على ثمانمائة وأربع وتسعين لوحة^(١٩٨)، بعضها أحادي الموضوع، وبعضها الآخر يشتمل على أكثر من رسم ما بين صغير وكبير بحيث وصل عدد هذه الرسوم الكبيرة والصغيرة إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف رسم^(١٩٩)، بعضها ملون وأكثرها غير ملون، وقد تطلب تنفيذ هذه الصور والرسومات واللوحات إلى الاستعانة بنخبة ممتازة من الرسامين والطابعين وما يقرب من أربعمئة حفار^(٢٠٠). ومن بين هذه اللوحات الثمانمائة والأربع وتسعين توجد أربعمئة وتسع عشرة لوحة تتناول الآثار الفرعونية، وهي تشكل أهم مجموعة رسومات نشرت حتى الآن دفعة واحدة حول هذا الموضوع^(٢٠١)، وهذا يعني أن اللوحات الخاصة بالآثار المصرية في "وصف مصر" تشكل ٤٦,٨% من مجموع اللوحات أي أقل قليلاً من النصف.

فإذا نظرنا إلى الدراسات واللوحات معاً يمكننا القول بأن مصر القديمة وآثارها تشكل ما نسبته ٣٥,٣% من كتاب "وصف مصر" وهو ما يزيد على ثلث الكتاب مما يعني أن حضور الآثار المصرية القديمة كان قوياً وفعالاً في "وصف مصر".

حرص فورييه في مقدمة الكتاب على أن يوضح للقارئ المنهج الذي سار عليه زملاؤه من العلماء في دراستهم ووصفهم للآثار المصرية القديمة مؤكداً أن الناس سوف يجدون في هذا الكتاب "لوحة أمينة للآثار المصرية، وسيجد الناس [كذلك] في متناول أيديهم أعظم ما أنتجته عبقرية الفنون وأكثرها تماماً"^(٢٠٢) فمن ناحية الصروح والمعابد بين فورييه أن "هذا المؤلف سوف يقدم وصفاً دقيقاً لها، لقد تعرفنا على الموقع الجغرافي لكل مبنى، وبنائه على الخريطة ثم أقمنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التي تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت نفس المدينة، أو بموقعها بالنسبة للنيل أو للجبال المجاورة، وقد ضاعفنا من المناظر المرسومة لهذه الخرائب الجليلة، أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها... لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا بإخلاص وأمانة نفس الأثر الذي أحدثه فهم رؤية مصر، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقرية موضوعاً أكثر سموً ورفعة، وقد قام هؤلاء عدة مرات وبالعناية البالغة الدقة بقياس أطوال المباني وأطوال الأجزاء الرئيسية أو الإضافية التي يتكون منها، وقد رسمت لكل هذه المباني تصميمات وواجهات وقطوعات أخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة، ولقد حققت الرسوم والدراسات التي تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمح إليه لدراسة العمارة المصرية، ونستطيع نحن أن نستخدمها لإنشاء مباني تشبه تلك التي وصفناها، ولابد لنا أن نلاحظ

أن هذا العمل من جانبنا لم يكن قاصراً على بعض الأطلال المنعزلة التي أفلتت من فعل الزمن، وإنما اشتمل على المباني الرئيسية لأمة متنورة تدين لها أغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسساتها... وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لمعمارة المصريين واثقين بأننا قد ضمناها أجمل منشآتهم^(٢٠٣).
أما بالنسبة للنقوش فقد شرح فوربيه طريقة العلماء في دراساتها ورسمها بقوله: "أكبنا على نقل وتقليد دقيقين لأعمال النحت والحفر التي تزدهر بها هذه الصروح، أما الرسوم البارزة فتمثل أشياء باللغة المتنوع، كما أنها تلقى أضواءً جديدة على علوم العصور القديمة... وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المباني على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية، ولم نحفظ لها بأشكالها المفردة فحسب، بل والنظام والوضع الخاص بإشاراتها كذلك، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التي تهم العلوم والتاريخ، وقلدنا بعناية الألوان التي لا تزال تحكي العديد من المباني والتي تبدو وكأنها لم تفقد شيئاً من بريقها الأول"^(٢٠٤).

وقد أولى علماء الحملة اهتماماً خاصاً بمقابر وادي الملوك، والكهوف الجبانزة والأهرامات التي قاموا بتحديد موقعها الجغرافي، واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال، وكذلك الأبعاد الخارجية وأبعاد كل الغرف التي أمكنهم أن يتوغلوا إليها^(٢٠٥).

كذلك حرص علماء الحملة الفرنسية على أن يلحقوا بالخرائط الطبوغرافية وبالأشكال المرسومة وباللوحات المعمارية وبالرسوم البارزة وصفاً جمعوا فيه كل الملاحظات التي لا يستطيع الرسم أن ينقلها، وتهدف هذه الأوصاف إلى التعريف بالحالة الراهنة للمباني والتدهور الذي حدث فيها بفعل الزمن، وكذلك نوع المواد التي استخدمت في بنائها، وأساليب البناء والألوان وغير ذلك^(٢٠٦).

أما الذين قاموا بدراسة الآثار المصرية ووصفها في كتاب "وصف مصر" فكانوا: جومار ولانكريه وديبوا - إيميه وشابرول وسان جينيس وجولوا وديفلييه وروزيير وكارستي Caristie وكورديه Corder وونوري وكوستاز.

وصف جومار وحده آثار القاهرة ومنف والأشمونين وأنتينوى وأبيدوس وطيبة^(٢٠٧) وأرمنت^(٢٠٨) وإدفو^(٢٠٩) وأسوان^(٢١٠) وجزيرة الفنتين^(٢١١)، وشارك مع شابرول في وصف آثار كوم امبو^(٢١٢)، كما شارك مع كارستي في وصف آثار الفيوم^(٢١٣). أما لانكريه فقد وصف آثار جزيرة فيلة^(٢١٤)، كذلك وصف ديفلييه وجولوا آثار إسنا^(٢١٥) وطيبة^(٢١٦)، وانفرد ديفلييه بوصف الآثار في برزخ السويس^(٢١٧)، أما سان جينيس فقد وصف أنقاض الكاب^(٢١٨)، بينما كتب كوستاز دراسة صغيرة عن مكان قرية طود القديمة^(٢١٩).

أما عن تاريخ مصر القديم وجغرافيتها وعادات المصريين القدماء وعلومهم وفنونهم وصناعاتهم وما إلى ذلك، فقد كتب جيرار مذكرة عن مقياس النيل في جزيرة إلفنتين، وكتب

كوستاز عن الزراعة لدى قدماء المصريين وكتب كذلك عن فنونهم وعاداتهم ودياناتهم وكتب جومار عن بحيرة قارون وعن معارف قدماء المصريين في الفلك والرياضيات، وعن النقوش القديمة عموماً والهيروغليفية خصوصاً، وعن سكان مصر في العصور القديمة، وعن الأهرامات، وكتب روزير عن جغرافية شواطئ البحر الأحمر القديمة، وعن تجارة المصريين القدماء، وعن بعض الآثار التي وجدت في منطقة برزخ السويس، وبحث ريج Raig موضوع بروج الشمس عند قدماء المصريين، وتحدث لانكره عن الفرع الكائوي للنيل، وتناول جولوا وديفلييه موضوع بروج الشمس، وتكلم فوربيه عن الحكومة عند قدماء المصريين، وكذلك عن العلوم عندهم، وعن الآثار الفلكية في مصر، ووضع بوديه Boudet مذكرة تاريخية عن صناعة الزجاج، وكتب كوتيل عن أهرام الجيزة، وتحدث ديبوا - إيميه عن فروع النيل القديمة ومصباتها^(٢٢٠)، وعن الإسرائيليين وخروجهم من مصر^(٢٢١)، وتناول فيلوتو الموسيقى وألنها عند قدماء المصريين^(٢٢٢).

وأما الذين رسموا الآثار المصرية القديمة فكانوا: بلزك وسيسل وشابرول وكورابوف وديفلييه ودوترت وجيرار وجولوا وجومار ولانكره وفوربيه ولوجنتيل Le Gentil ولينووار Lenoir ولوير وريدوته وروزير وسان جينيس وفيار وكوتيل ودوليل وبروتان Protain وكاريسقي وكاستيه وكونتيه وديبوا - إيميه وفاي Faye وفيفر Fèvre وجاكوتان وجراتيان لوير Gratien [وهو أخو لوير المذكور قبلاً] ومارتان Martin^(٢٢٣). وقد كان كل من جولوا وديفلييه صاحبي الفضل الأكبر في رسم أكبر عدد من اللوحات، وكان تفوقهما في ذلك كاسحاً بحيث لا يقارن، يليهما في المرتبة الثانية من حيث عدد اللوحات المرسومة جومار وشابرول ودوترت ولوير، ثم سيسل وريدوته ولانكره، في حين أن مساهمة أفراد آخرين مثل كوستاز وفوربيه كانت محدودة^(٢٢٤).

وقد امتازت بعض هذه اللوحات بالدقة المفرطة، فقد بلغت أبعادها أحياناً مائة وخمسة وثلاثين سنتيمتراً طولاً، وسبعين سنتيمتراً عرضاً، كما هناك حجم غير عادي بلغت مقاساته مائة وثلاثة عشر سنتيمتراً وواحداً وثمانين سنتيمتراً طولاً وعرضاً^(٢٢٥)، بحيث اقتضاهم الأمر أن ينشئوا مكابس ضخمة لم تكن مستخدمة من قبل، وذلك أن حجم الآثار المصرية التي التزم العلماء بنقلها جميعاً بنفس النسبة (نسبة حجم الرسم إلى الأصل) كان يتطلب من الورق المخصص لطبع اللوحات أحجاماً غير عادية، وقد قام العلماء بجهود ناجحة لتطوير هذا الفرع من فروع الصناعة الفرنسية^(٢٢٦)، ومن الطريف أن العلماء قد اضطروا إلى البحث عن أسماء جديدة لهذه الأحجام المستحدثة غير العادية من الورق والتي لم تكن معروفة من قبل، ويفخر القائمون على طبع " وصف مصر " بأن " مصانع أوروبا لم تضع حتى اليوم [وقت طبع الكتاب] أوراقاً بهذا الحجم أو على هذه الدرجة من الجمال "^(٢٢٧) فهل رأيت كتاباً يسهم طبعه في تطوير الصناعة عند أمة من الأمم ؟ ولكن الأمر لم يقتصر على صناعة الورق، فقد " اصطنعت -

كذلك - وسائل ثمينة لتطوير فن النحت أسرع بتقديمه كما أثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته" (٢٢٨).

بلغت دقة هذه اللوحات في إبراز أدق التفاصيل حداً جعل نابليون بونابرت يحجم عن نشر خريطة مصر الكبيرة التي رسمها ثلاثة وعشرون رساماً بمقياس رسم ١ / ١٠٠,٠٠٠ لأسباب أمنية (٢٢٩)، وفيما يتعلق برسوم الآثار فإن عين القارئ تستطيع - كما يقول جان ماري كاريه - أن: "تحصى في الرسومات عدد الأحجار، وأن تتبين المواد والأنماط والتقنيات المستخدمة في البناء" بل ويمكن في بعض الأحيان ملاحظة: "أن المهندس لم يتقن عمل استدارة القبة أو أنه أخطأ قليلاً في الحجم أو في القياس" (٢٣٠) كما كانوا يقومون أحياناً برسم بعض الأشخاص بجوار الأعمدة كمقياس رسم جيد يستطيع القارئ من خلاله الحكم على الأبعاد الضخمة للآثار (٢٣١).

لم يكن "وصف مصر" وصفاً فقط، بل كان وصفاً وتسجيلاً وتفسيراً وتحليلاً ودراسة، إذ لم يقتصر الأمر على مجرد الرسم والقياس، بل حاول العلماء قدر إمكانهم أن يفسروا كثيراً من الظواهر المتعلقة بتلك الآثار، كما بذلوا جهوداً كبيرة في فهم وتحليل كافة العناصر المكونة للآثار والتعرف على وظيفة كل عنصر فيها ومعرفة خصائصه المميزة له، فهم يفسرون انخفاض الصروح والمعابد المصرية عن المستوى العام لمنسوب أراضي وادي النيل ومن ثم انغمارها تحت الرمال بالارتفاع المستمر لأراضي الوادي سنوياً نتيجة الترسيبات المتراكمة التي خلفتها وراءها الفيضانات السنوية المتكررة لنهر النيل (٢٣٢). ويلاحظون الدور الذي تلعبه الرطوبة الناتجة من ارتشاح المياه في إتلاف وهدم الكثير من الآثار المصرية، ويضربون لذلك مثلاً بتحطم أحد التماثيل الهائلة بسبب هذه الظاهرة (٢٣٣)، وهم كذلك يدرسون أثر تلك الظاهرة على قاعة الأعمدة بمعبد الكرنك مؤكدين أنه: "ما من عمود ضخّم تضمه القاعة إلا وتعرض لتداعيات وأضرار جسيمة... وهو ما يمكن أن نرجعه إلى قلة صلابة الأرض بسبب ارتشاح المياه الناجمة عن فيضان النيل... حيث استسلمت القاعة لهذا النوع المؤثر من التدمير" (٢٣٤) وهم يتوقعون ألا تصمد تلك الأعمدة طويلاً بسبب سوء حالتها، وقد تحققت نبوءتهم هذه بعد قرن من الزمان حيث سقطت بعض أعمدة تلك القاعة في شهر أكتوبر من عام ١٨٩٩ م / جمادى الثاني ١٣١٧ هـ (٢٣٥). كما يرجحون أن يكون خراب البوابة الضخمة لمعبد الكرنك راجعاً إلى ضعف البناء عن أن يكون ذلك راجعاً لكارثة طبيعية كزلزال مثلاً (٢٣٦)، ثم يلاحظون - أخيراً - أن هذا المعبد - معبد الكرنك - "قد بنى بانقراض آثار أخرى أكثر قدماً منه" (٢٣٧).

ومما يذكر لعلماء الحملة - كذلك - ما كان بينهم من تعاون محمود سعياً إلى الوصول إلى بعض الأهداف الكبيرة التي يتطلب إنجازها وتحقيقها تضامناً من علماء ذوى تخصصات مختلفة، كتسجيل تخطيط هندسي عام لمواقع الآثار الكبرى ولا سيما تلك التي تعرضت لخراب جسيم

متيحين لنا بذلك الوسيلة الوحيدة لمعرفة الخصائص العامة التي كانت عليها تلك المواقع قبل خرابها^(٢٣٨)، كما يذكر لهم أيضاً ما بذلوه من جهد في إعادة تركيب واستحضار الصورة الأصلية للعديد من العمائر التي تهدمت أجزاء منها وذلك بقياس الأجزاء المهدمة على الأجزاء السليمة الباقية، وقد حققوا في ذلك نتائج باهرة^(٢٣٩)، كما يذكر لهم كذلك نجاحهم في التوصل إلى معرفة الموقع الصحيح لبعض المدن المصرية القديمة المندثرة^(٢٤٠).

على أن ذلك لم يمنع من وقوع العلماء في بعض الأخطاء التاريخية، من نحو ما قرره جولوا وديفيليه من أنه: " ليس ثمة شك في أن صرح الكرنك العظيم لم يكن إلا قصراً "^(٢٤١) ومن نحو ما اعتقده دهنون من قدم معبد دندرة مع أن المعبد قد شيد بآخره على عهد البطالمة^(٢٤٢). وكذلك من نحو ما ظنه مهندسو الحملة خطأ من أن الخرائب القديمة الواقعة بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة هي خرائب السرايوم، وقد ظل اسم السرايوم يطلق على هذا المكان حتى الآن على الرغم من اكتشاف مكان السرايوم^(٢٤٣) الحقيقي في منتصف القرن التاسع عشر على ما سيأتى تفصيله بعد. وعلى أية حال فإنه لا بد من أن نلتصم العنبر للعلماء في ذلك؛ إذ لم تكن المعالم الأساسية لتاريخ مصر القديم قد اتضحت بعد، كما كان الجهل باللغة الهيروغليفية يقف حائلاً دون استنطاق تلك الآثار، وإكراهها على أن تبوح بمكنونها وتفصح عن أسرارها، ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا تلك الظروف المرهقة وغير المواتية التي كان ينبغي على علماء الحملة أن يعملوا في ظلها، وكذلك الصعوبات التي كان يتعين عليهم أن يجابهوها، فقد كانوا يضطرون إلى العمل أحياناً في ظل العمليات العسكرية العنيفة التي كانت تدور رحاها بين القوات الفرنسية من جهة والقوات العثمانية والمماليك والثوار من جهة أخرى وكثيراً ما أصيب هؤلاء بجراح خطيرة، كما لقي بعضهم مصرعه بسبب هذه العمليات العسكرية، ولا ننسى - كذلك - تفشى الأوبئة والأمراض والطواعين بين قوات الحملة بسبب الظروف القاسية التي واجهتها، واختلاف أحوال المناخ في مصر عنها في وطنهم الأصلي فرنسا، وبسبب هذين العاملين لقي ثلاثون من العلماء المرافقين للحملة مصرعهم على اختلاف تخصصاتهم، وذلك عدا ثلاثة ماتوا في الطريق أثناء العودة إلى فرنسا^(٢٤٤).

ومن الصعوبات التي واجهت الحملة أيضاً تلف جزء كبير من ألاتهم وأدواتهم العلمية في أثناء العبور إلى مصر، وكذلك بسبب الثورات التي قامت في القاهرة، فقد غرقت السفينة لاباتريوت La patriot التي كانت تحمل جزءاً كبيراً من هذه الأدوات^(٢٤٥)، كما قام الثوار أثناء ثورة القاهرة الأولى في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ م (١١ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ) بالهجوم على منزل الجنرال كفاريللي مهندس القلاع والتحصينات وأحد أعضاء المجمع العلمي المصري وأتلفوا ما كان بها من آلات علمية " وكان بتلك الدار كثير من آلات الصنائع والنظارات الغربية والآلات الفلكية والهندسية

والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير، كل آلة لا قيمة لها إلا عند من يعرف صنعها ومنفعتها، فبئد ذلك العامة وكسروه قطعاً، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات " (٢٤٦).

ونظراً لانقطاع كل صلة بين مصر وفرنسا بعد انتصار الإنجليز في موقعة " أبو قير " البحرية في (أول أغسطس ١٧٩٨ م / ١٨ صفر ١٢١٣ هـ) فقد أصبح كل اعتماد العلماء على مهارة كونتية زميلهم المخترع الذي استطاع بفضل مهارته الفنية أن يصنع عدداً من الآلات والأدوات التي استعان بها العلماء في بحوثهم (٢٤٧).

كذلك واجه العلماء صعوبات جمة من جانب الأهالي الذين كانوا يسيئون الظن بهم ولا يفرقون بينهم وبين سائر قوات الحملة، فظلت الشكوك تساورهم من ناحية هؤلاء العلماء الذين لقوا بسبب ذلك عنناً ومشقة في بحوثهم، وقد رأينا كيف كان العلماء أعضاء اللجان المختلفة الذين ذهبوا إلى الصعيد لدراسة الآثار ونسخ نقوشها، لا يستطيعون الخروج لزيارة تلك الآثار إلا في حماية وحراسة قوة تصحبهم من القوات التي توجهت إلى الصعيد لإخضاعه والسيطرة عليه، ولطالما شكوا هؤلاء العلماء من عدم تعاون السكان معهم: " كانوا قد أنذروا بوجودنا، ورفضوا الإجابة على أسئلتنا " (٢٤٨) حتى كانوا يمتنعون عن مجرد إرشاد العلماء إلى مواقع الآثار القديمة التي قد تكون بعيدة ومتطرفة، وكثيراً ما كانت تلجهم تهديدات الأهالي وتحذيراتهم إلى ترك مواقع الآثار قبل الفراغ من دراستها دراسة متأنية، فلا يستطيعون أن يكونوا عنها سوى " أفكار مشوشة " (٢٤٩) وفي بعض الأحيان كان الأهالي يمنعون العلماء من دخول الصروح الأثرية القديمة المحاطة بمساكن حديثة، بل كانوا يحظرون عليهم مجرد الاقتراب منها رغم المحاولات العديدة التي كان العلماء يبذلونها من أجل طمأننة الأهالي وكسب مودتهم (٢٥٠)، حتى ليؤكد جولوا وديفلييه أثناء فحصهما لمعبد الأقصر: " لا ينظر سكان هذه المنطقة أبداً إلى أعمالنا إلا بشيء من الخوف، إلا أنه بفضل المناورة توصلنا إلى قياس كل الأجزاء حتى نضع التصميم الهندسي لها " (٢٥١).

كذلك كانت درجات الحرارة المرتفعة سبباً في زيادة مصاعب علماء الحملة، ولاسيما أولئك الذين ألجأهم الظروف للعمل في صعيد مصر حيث مواقع الآثار القديمة، وقد كانت هذه الحرارة المرتفعة موضع شكاية العلماء " علينا أن نستشعر زيادة الحرارة التي نسخها في ظل مناخ مصر العليا القاسي، ففي مدار الصيف يصعد ميزان الحرارة الموضوع على سطح الأرض حتى ٤٥ درجة، وسيكون ضرباً من الجرأة وضع القدم على الأرض الحارقة، ولن يكون لمس حصاة ملقاة في حرارة أشعة الشمس بلا ألم، وأحياناً تكون الحرارة شديدة جداً إلى درجة أننا نسمع الحيوانات التي أضناها التعب تطلق أنيناً وتسرع إلى النهر لتغطس فيه بسرعة ولهفة " ومع ذلك يؤكد جولوا وديفلييه أنه " لم يكن هناك إلا النشاط الفرنسي الذي يمكن أن يواجه هذا المناخ الحارق... ولهذا

فقد كان أهل البلد يتعجبون عندما يروننا نتجول في السهل ونعيد ملاحظتنا وأبعادنا على مدى ساعات اليوم^(٢٥٢).

ولنتخيل سوياً كيف كان يعمل جومار في ظل هذه الظروف المرهقة وهو يستكشف معبد إدفو المغطى بالرديم: "دخلت من فتحة إضاءة على السطح تسمح بمرور جسم الإنسان وفي فمي شمعة ويهدى مقياس، فوجدت نفسي في قاعة مليئة بالخفافيش، ارتفاعها لا يزيد على المتر ونصف المتر... ومن فتحة أخرى تسلفت إلى القاعة الثانية... وحيث كانت جميع أبواب الاتصال مسدودة فلم يكن من الممكن زيارة القاعات إلا قاعة تلو قاعة عن طريق الدخول من فتحات الإضاءة... وجدت الأرض مرتفعة... ولم يكن هناك نور فتوجب على أن أزحف على بطني في هذا الجزء من الرواق على ضوء شمعة، ولم أتمكن من رسم هذا النطاق الطويل من الصور إلا بعد مشقة بالغة"^(٢٥٣) ويروى جومار كيف تم إنزاله في حفرة ضيقة يبلغ عمقها من ستة إلى سبعة أمتار تم حفرها حول أحد الأعمدة المردومة بالانقراض وهو معلق في حبل ومعه قلم ومسطرة ومشعل، ويقوم برسم وقياس جميع أجزاء محيط العمود والتي تمتد إلى مسافة ستة أمتار ونصف^(٢٥٤) في مثل هذا الجو الخانق والقيظ المستعر.

كان علماء الحملة الفرنسية يواجهون أحياناً خطراً حقيقياً - من دون مبالغة - أثناء فحصهم ودراسهم للآثار المصرية، فقد كان يتحتم عليهم أن يدخلوا في بعض الأحيان كهوفاً ومقابر ومغارات كانت تستخدم كمقالب للأحجار في الأزمنة القديمة على ضوء مصباح ضعيف، وكان بعض هذه المغارات يمتد إلى مئات من الأمتار في عمق الجبال، وفي طرق واتجاهات متشابهة ومتداخلة بحيث تشبه الأناويه^(٢٥٥)، مما يجعل من عدم التمكن من الاهتداء إلى الطريق الصحيح للخروج هو الهلاك المحقق، وبطبيعة الحال لم يكونوا كلهم على حد سواء في جسارة القلب والقدرة على مواجهة الأخطار الفجائية والمواقف المتأزمة، كما كان من الممكن أن يذهبوا "ضحية حريق يمكن أن تحدثه شرارة وسط المواد القابلة جداً للاشتعال التي تمتلئ بها المقابر"^(٢٥٦).

ولعل حب العلم والرغبة الشديدة في المعرفة المجردة كانا يخفقان كثيراً من وطأة هذه المخاطر على علماء الحملة، كذلك لا يمكننا أن نغفل الأثر الإيجابي الذي كان في نفوس العلماء ذلك التعاطف الكبير والمعاونة الصادقة الفعالة التي كانوا يلقبونها أثناء إجراء بحوثهم الأثرية من بعض المستنيرين من قادة الحملة العسكريين، وقد مر بك قبلاً كيف كانوا يلقبون بليار بالصدوق الصدوق للفنون، والواقع أنه ما من عضو من أعضاء اللجان العلمية التي زارت الصعيد لدراسة الآثار القديمة إلا وأثنى على التسهيلات التي أعطيت لهم ليكرسوا أنفسهم لدراسة تلك الآثار، ولكن بليار كان يستحق ثناء خاصاً: "شعرنا بعطف هذا الجترال ويتحتم علينا هنا أن ندين له بالعرفان"^(٢٥٧).

ومثل بليار في ذلك ديزيه الذى "كان مغرماً بالفن، فقد انقاد للخطبة برغبته السامية والشجاعة، وذهب ليجوب العاصمة القديمة التى فتحها لتوه [طيبة] يملؤه حب الاستطلاع، وكان معجباً بمبانيها الفخمة وأروقعتها الفسيحة وتمائيلها الضخمة" (٢٥٨).

ورغم أن بونابرت نفسه لم يكن يبدى أى اهتمام بالآثار المصرية القديمة، حيث لم يكلف نفسه مؤونة زيارة أى من المعالم الأثرية الشهيرة والهامة في مصر، باستثناء زيارة وحيدة للأهرام وأبي الهول، أبى خلالها أن يدخل الهرم الأكبر : لأن دخوله كان يقتضى منه الزحف على يديه ورجليه، وهو الأمر الذى اعتبره بونابرت عملاً لا يليق بمكانة القائد العام (٢٥٩) : ورغم أن بونابرت كان يعتبر أن هذه الأطلال والصروح القديمة لا تستحق كل هذا المدح والإطراب الذى يقال عنها : وأنها لا تعطى أى أفضلية لمصر على سائر البلدان الأوروبية في هذا الإطار : وأن الفرق الوحيد في رأيه يكمن في أن مصر تحتفظ بآثار خالدة بفضل صفاء سمائها وطبيعة موادها الأولية في حين أن درجات الحرارة الأوروبية لا تسمح بذلك في أوروبا (٢٦٠) : إلا أن نابليون كان كثير الاهتمام بالدراسات المصرية القديمة، شديد الرغبة في تذليل العقبات التى تحول دون قيام العلماء المصاحبين للحملة بإتمام تلك الدراسات على أكمل وجه، وقد رأينا كيف أن القرار الأخير له في مصر قبل رحيله إلى فرنسا كان يقضى بإرسال لجنة كوستاز وفورييه إلى صعيد مصر بقصد دراسة الآثار المصرية القديمة ليس حباً في تلك الآثار، وإنما رغبة من جانبه في أن يخلد اسمه في التاريخ كأحد أبرز دعاة الفنون والعلوم، كما خُلد اسمه كأحد أبرز القادة العسكريين، ولا غرو فقد كان نابليون مغرماً بالقيام بالأعمال والمشروعات العظيمة التى من شأنها أن تضفى على اسمه وشخصه مزيداً من الشهرة والمجد، ولعله مدفوعاً في ذلك من ناحية أخرى بذلك السباق القديم المحموم بين الفرنسيين والإنجليز، ورغبة كل فريق منهما في أن يحرز لنفسه على الآخر سبقاً وتقدماً في كافة النواحي العلمية والحضارية، ومما لا شك فيه أن شرف السبق باكتشاف حضارة ذات مجد تليد مثل مصر من شأنه أن يقدم لفرنسا مزيداً من الأفضلية على غريمتها في هذا المجال وسنرى كيف أن فرنسا - بفضل هذا وباعتراف من إنجلترا ذاتها - قد أصبح لها ولواطنيها اليد الطولى والسيطرة الكاملة على كافة المسائل والقرارات والمصالح والإدارات المتعلقة بالآثار المصرية في مصر لمدة تزيد على قرن ونصف قرن من الزمان.

ولعل من الغرب أن يقتزن علم الآثار المصرية الوليد باسم هذا القائد غير المحب وغير المقدر لقيمة الآثار المصرية، ولعل من الأغرب أن يظل مقروناً باسمه على الدوام.

بقى أن نذكر لهؤلاء العلماء جهدهم في القيام بتصحيح كثير من الأخطاء التى وقع فيها الرحالة السابقون لهم، تلك الأخطاء التى أدت في بعض الأحيان إلى تحميل "المعماريين المصريين أخطاء لم

يقترفوها... وذلك يبرهن على أنهم لم يلتفتوا إلا باهتمام قليل إلى آثار مصر العليا " وقد قام هؤلاء العلماء من ناحيتهم بكل ما من شأنه أن: " يبدد كل الشكوك" (٢٦١) من الدراسات والبحوث.

وعلى الرغم من الوعي الذي أبداه علماء الحملة بقيمة الآثار المصرية، والجهد الكبير الذي بذلوه في دراستها والكشف عنها ؛ إلا أنهم قد تورطوا في كثير من الممارسات الخاطئة التي من شأنها أن تسيئ إلى تلك الآثار وأن تعرقل من نمو علم المصريات الوليد، وأن تعطل سيره وتقدمه في طريقه الصحيح، ومن بين تلك الممارسات قيامهم بتلطيف الآثار بكتابة أسمائهم عليها جرباً على تلك العادة المذمومة التي كان يعرض عليها كثير من الرحالة الذين زاروا مصر في مختلف العصور، وقد ظلت تلك التشويهات باقية على هيئتها وحالتها سنين طويلة شاهدة على فعلتهم الشنعاء هذه، فيذكر محمد مجدى بك الذى زار معبد إيسنا عام ١٨٩٢ م (١٣١٠ هـ) أنه رأى هناك: " أسماء بعض الفرنسيين قد نقشت أيام احتلالهم مصر " (٢٦٢) كذلك قام النحات كاستييه بحفر نقش تذكارى على بوابة الهو الكبير لمعبد فيلة يسجل فيه انتصارات الجنرال ديزيه في الصعيد (٢٦٣)، كما قام أعضاء لجنة العلوم والفنون بتسجيل خطوط الطول ودوائر العرض للمدن الرئيسية المصرية القديمة التي كانت أطلالها لا تزال باقية في مصر على جدران معبد الكرنك (٢٦٤)، وقد علل العلماء أعمالهم هذه بأنه " في الأماكن التي تستدعى الكثير من الذكريات بالرغم من صعوبة الوصول إليها... لا يستطيع المرء مقاومة الرغبة الملحة في ترك بعض العلامات الدالة على وجوده هناك... وتخليداً لذكرى وصول الفرنسيين إلى أعماق هذه الأطلال الغامضة" (٢٦٥)، وتلك حجة داحضة عليهم ؛ فلو أن كل شخص زار أثراً رائعاً وترك ذكره عليه لأنه أعجب به، فإن هذا الأثر سوف ينمى بطبيعة الحال مختفياً وراء سلسلة لا تنتهى من التوقيعات والذكريات، حقاً إن الوعي الأثرى في ذلك الوقت لم يكن ليستهجن مثل تلك التصرفات التي قد تبدو وكأنها بسيطة في ذاتها، إلا أنه يجب ألا ننسى أننا بصدد الحديث عن علماء من المفترض أنهم قد بلغوا من كمال العقل ونضج الفكر ما يمكنهم من إدراك الأثر السئ الذى تلحقه تلك العادات المزدولة بالآثار، ولا سيما وقد أوسعنا هؤلاء العلماء من جانبهم في " وصف مصر " ذمماً بالحديث عن الجهل والبربرية وعدم التحضر والإهمال والإساءة إلى الآثار القديمة، فإذا كان هذا هو حال العلماء فكيف يطمون السكان الأقل منهم إدراكاً بقيمة تلك الآثار !!

على أية حال فإن تلك العادة الذميمة قد انتقلت من العلماء إلى الأفراد العاديين من قوات الحملة، فهذا هو الجاويش فرانسوا يخط اسمه ومكان ميلاده وربته وكنيته وتاريخ زيارته للمهرم الأكبر على جدران حجرة الملك (٢٦٦)، وكان جاويشاً، ترى كيف يكون الحال لو كان جنرالاً وقائداً كبيراً ؟ أغلب الظن أن أمثال فرانسوا هذا على عهد هذا الملك كانت فرائضهم ترتعد خوفاً لمجرد التلطف باسم الملك في حضرتهم.

على أن الممارسة الأخطر من جانب علماء الحملة وقادتها فقد تمثلت في قيامهم بسرقة الآثار المصرية وتهريبها إلى فرنسا، وهو ما سيكون موضع حديثنا الآتي بعد.

ثانياً: الحملة الفرنسية ودورها في تهريب الآثار المصرية إلى فرنسا.

كما قد أشرنا فيما سبق إشارة عابرة إلى قيام الفرنسيين بعد اجتياحهم إيطاليا بالاستيلاء على ثرواتها وكنوزها وتحفظها الأثرية والفنية، وتفصيل ذلك أنه في مايو من عام ١٧٩٦م (ذو القعدة ١٢١٠ هـ) صدر قرار حكومة الإدارة بتعيين مونج وبيرتوليه وأربعة خبراء آخرين أعضاء في لجنة حكومية تتولى فحص التحف الفنية والآثار العلمية في البلاد المفتوحة ونقل ما يستحق النقل منها إلى فرنسا^(٢٦٧). وكانت هذه اللجنة تسير في أعقاب الجيوش الفرنسية المنتصرة، تفحص المجموعات الفنية والمتاحف والمكتبات وتحدد ما يسلم منها للجمهورية الفرنسية بمقتضى شروط ومعاهدات الصلح، وكان من سوء حظ الإيطاليين أن هذه اللجنة المشنومة كانت موفقة في عملها إلى حد بعيد، حيث نقلت من روائع التحف الفنية والآثار الإيطالية ما ملأ ثلاثمائة صندوق كبير^(٢٦٨) احتفت فرنسا كلها باستقبالها خلال عام ١٧٩٧م أى قبل قيام الحملة الفرنسية بحوالى عام، والقيام بجولة واحدة في متحف اللوفر - كما يقول بربان فاجان - كافية للاستدلال على مدى توفيق اللجنة في أداء مهمتها، ويكفى القول بأن لوحة "الموناليزا" ذائعة الشهرة كانت من اختيار مونج^(٢٦٩)، وقد أصبحت هذه التحف الأثرية والفنية المسروقة تمثل النواة الأولى لمتحف اللوفر بعد إنشائه فيما بعد، وكانت أحد أسباب تدعيم المتحف وإعطائه هذا الطابع العالمى الذى هو عليه الآن، ومما هو جدير بالذكر أن هذه التحف الأثرية المنقولة من إيطاليا كانت تشتمل على عدد من التماثيل المصرية القديمة^(٢٧٠)، والتى كان قد سبق نقلها من مصر إلى إيطاليا خلال العصر الرومانى كما سبق الإلماع على ذلك.

كوثق نابليون على عمله هذا بعد عودته من إيطاليا بأن اختير عضواً بأكاديمية العلوم أحد أقسام المجمع العلمى الفرنسى^(٢٧١)، وغنى عن البيان أن هذا التكريم لم يكن راجعاً إلى تميزه الفكرى والعلمى بقدر ما يرجع إلى قيامه بإثراء متاحف فرنسا بالكنوز الإيطالية^(٢٧٢)، إذ كان يشرف بنفسه عقب انتهاء المعارك الحربية على تغليف هذه القطع الفنية جيداً، ويقوم رسل تابعون للحرس الإمبراطورى بإرسالها إلى فرنسا على وجه السرعة، حتى لقد استطاع نابليون أن يمد متحف اللوفر وحده بحوالى خمسة وعشرين ألف قطعة فنية حصل عليها من مصر وهولندا وإيطاليا وأسبانيا وحتى من أصقاع روسيا الباردة^(٢٧٣).

كان واضحاً - إذن - منذ البداية أن الفرنسيين في مصر سوف يسيرون على سوابقهم التى ساروا عليها في إيطاليا وغيرها من الدول التى اكتسحوها، وبدا أن كل الدلائل تشير إلى ذلك حتى ليروى - إن صدقاً وإن كذباً - أن جوزفين Jospheen زوجة بوناپرت قالت له قبل توجهه إلى

مصر: " إذا ذهبت إلى طيبة فأرسل إلى مسلة صغيرة " (٢٧٤) ولعل هذا هو السبب الذي جعل فكرة نقل مسلة مصرية إلى فرنسا تنسب إلى بوناپرت (٢٧٥).

كانت هذه الإزهاصات نذيراً بما كان على وشك الحدوث، فما إن مُكِّن للفرنسيين في أرض مصر حتى انبثوا فيها كالجراد المنتشر يجوبون أرجاءها جرياً وراء الخرائب القديمة التي كانت تملأ أرضها وبحثاً عن كل غال ونفيس من الآثار والتحف يمكن نقله إلى فرنسا دون عناء شديد.

كان الجيولوجي وعالم التعدين ديوديه جارتى دولوميو حامل لواء دعوة الفرنسيين إلى نهب الآثار المصرية عندما قدم إلى المجمع العلمي ورقة تحوى اقتراحات " باختيار الآثار القديمة وحفظها ونقلها من مصر " (٢٧٦) وتأمين وصولها إلى فرنسا سالمة، واستجابة لدعوة دولوميو تم تجميع عدد من الآثار المصرية القديمة، وخصص لها مكان في المجمع العلمي (٢٧٧) تمهيداً لشحنها إلى الإسكندرية وإرسالها إلى فرنسا في أقرب فرصة، ولا يوجد في محاضر جلسات المجمع العلمي ما يحمل على الاعتقاد بأن ذلك العمل كان مثار انتقاد من جانب أحد من العلماء، أو أنه أثار أى تأنيب ضمير (٢٧٨). وكانت الحجة التي بدت مقنعة للعلماء في ذلك الوقت هي العمل على إنقاذ تلك الآثار من يد الجهل والتخريب والتدمير لتجد موطناً آمناً لها في المتاحف الفرنسية، وهو مبرر وإذ سوف يعرض لنا كثيراً في دراستنا هذه : إذ أنه أصبح من الثوابت في معتقدات نهائي الآثار المصرية في القرن التاسع عشر.

وتدل شواهد الأحوال على أن الاستجابة لدعوة دولوميو كانت سريعة، فقد استولى الإنجليز من الفرنسيين بعد هزيمة هؤلاء الأخيرين في وقعة " أبو قير " البحرية على تابوت من الرخام الأخضر كان الفرنسيون قد عثروا عليه في أحد مساجد الإسكندرية وأخذوه إلى سفنهم تمهيداً لنقله إلى فرنسا (٢٧٩)، وأنت إذا علمت أن وقعة " أبو قير " البحرية هذه كانت في الأول من أغسطس عام ١٧٩٨ م (١٨ صفر ١٢١٣ هـ) وأن الفرنسيين نزلوا الإسكندرية في ٢ يوليو ١٧٩٨ م (١٨ محرم ١٢١٣ هـ) أيقنت أن الفرنسيين قد بدأوا في نهب الآثار المصرية ولما يكملوا في مصر شهرهم الأول بعد، مما يدل دلالة قاطعة على أن النية كانت مبيتة للقيام بمثل هذه الأعمال، وربما كان هذا التابوت الأثري هو أول غنائم الفرنسيين - بل نقصد الإنجليز - من الآثار المصرية القديمة (٢٨٠).

ويلاحظ ان علماء الحملة الفرنسية الذين تركزت جهودهم الكشفية في مناطق القاهرة والدلتا - حيث يصعب القيام بحفائر أثرية مجدية - قد اهتموا اهتماماً خاصاً بالاستيلاء على الآثار القديمة التي كانت مستخدمة في بناء البيوت والكنائس والمساجد القديمة، حيث لم يكن يلزم - كما يقول جراتيان لوپير - أقل من جيش منتصر حتى يمكن اجتياز عتبة هذه المساجد وانتزاع هذه الآثار منها (٢٨١).

ولم ينس قادة الحملة الذين توجهوا إلى الصعيد لمطاردة المماليك القارين إلى هناك واجههم في الإسكندرية في مثل هذا العمل الشائن، فقد قام الجنرال ديزيه بإرسال تمثالين إلى القاهرة بقصد إرسالهما إلى فرنسا، غير أن الذين كلفوا بنقلهما - وكانوا من المصريين - وجدوا أن أحدهما شديد الثقل فقاموا بإلقائه من القارب في النهر^(٢٨٢).

هذا ولم تقم الحملة الفرنسية بإجراء حفائر أثرية منظمة وعلى نطاق واسع أثناء إقامتها في مصر لأنها لم تكن تملك الوقت أو المال أو الوسائل اللازمة للحفر والتنقيب، وكل ما فعلته في هذا الإطار لا يتعدى مجرد كونه حفائر بسيطة وسريعة قصد بها استكمال إجراء البحوث والاستكشافات الأثرية^(٢٨٣)، ومع ذلك فقد كانت الحفائر الصغيرة من الكثرة بحيث أدت على الحملة الكثير من الآثار الصغيرة، كالتماثيل والتعاويذ والعقود وبعض التماثيل الصغيرة وبعض البرديات^(٢٨٤)، كما كانت الحملة تلجأ أحياناً إلى الحصول على القطع الأثرية عن طريق شرائها من الأهالي^(٢٨٥) متى كانت تلك القطع الأثرية على درجة من الأهمية الفنية والتاريخية تجعلها أهلاً للشراء.

أما ما كان يتم تجميعه من الآثار بواسطة الطرق السابقة - من الخرائب القديمة والحفائر البسيطة والشراء - فقد كان يوضع في مكان خصص لهذا الغرض بالمجمع العلمي، وكان قد تم تعيين دولوميو مسئولاً عنها، ووُفِّرَ له مساعدون من أجل " التجميع الدقيق لكل الآثار الدقيقة التي قد يستطيعون جلبها، مع تمييز الآثار التي تجعلها أهميتها جديرة بالعناية ولكن لا يمكن نقلها دون أضرار " ^(٢٨٦)، ويبدو أن قادة الحملة وعلماءها كانوا ينوون الإبقاء على هذا النوع الأخير من الآثار التي لا يمكن نقلها دون أضرار في مصر، والعناية بها في محلها الذي وضعت به في المجمع العلمي، وافترضنا هذا إن صح، يكون هذا المتحف الذي أنشأته الحملة الفرنسية هو أول متحف أنشئ للعاديات والآثار القديمة في مصر، حيث لم يكن الغرض منه تجميع الآثار فقط تمهيداً لإرسالها إلى فرنسا وإنما قصد به كذلك حفظ ما يستحق الاعتناء به من الآثار المصرية القديمة.

وأما الآثار الأخرى الصالحة للشحن إلى فرنسا فقد كانت ترسل إلى الإسكندرية تمهيداً لإرسالها إلى فرنسا ريثما تسمح الظروف بذلك، ورغم الحصار البحري الذي فرضه الأسطول الإنجليزي على السواحل المصرية، فقد تمكنت بعض السفن الفرنسية من التسلل خلسة إلى فرنسا، وكان من بينها السفن الثلاث الصغيرة التي أقلت بونايرت ورفاقه في رحلة العودة، والتي كانت محملة بكنوز لا تقدر بثمن من الآثار الفرعونية القديمة^(٢٨٧)، كان من بينها سبع قطع صغيرة أخذها معه نابليون لهداياها إلى زوجته جوزفين ربما كبديل عن مسلة طيبة التي لم يستطع إحضارها إليها كما طلبت منه، وقد انتهى الأمر بإحدى هذه القطع - وهي تمثال من عهد الدولة الوسطى - إلى متحف بروكلين بالولايات المتحدة الأمريكية^(٢٨٨). كذلك كان دينون مرافقه يحمل في جعبته لفافة

من ورق البردي نشرها عام ١٨٠٢ م ضمن الطبعة الأصلية لكتابه، وقد شكلت هذه البردية مع حجر رشيد أحد أهم المستندات التي اعتمد عليها الباحثون فيما بعد في محاولاتهم لحل رموز اللغة الهيروغليفية^(٢٨٩)، وقد شغلت هذه الكنوز الفرنسيين عن محاسبة نابليون بشكل جدى على نتائج حملته^(٢٩٠)، كما حمل دينون معه كذلك تابوتاً بموميائه أهداه فيما بعد إلى متحف مدينة بولوني سان - مير^(٢٩١).

على أن محاولات التسلسل هذه لم يكتب لها النجاح جميعاً، فقد تمكن الأسطول الإنجليزي من إحباط بعضها بفضل يقظته المستمرة ورقابته المتشددة للسواحل المصرية، وربما كانت أكبر عمليات تهريب الآثار التي تم ضبطها من جانب الأسطول الإنجليزي هي تلك التي وقعت أحداثها في شهر فبراير من عام ١٨٠٠ م (رمضان ١٢١٤ هـ) عندما كلف الجنرال كليبر ثلاثة من العلماء الفرنسيين هم: جراتيان لويير وديكوتيل ونويه الفلكي بالإبحار إلى فرنسا مع إحدى شحنات الآثار المصرية المهربة، وقد ضمت هذه الشحنة - من بين ما كانت تضمه آثار - حوضاً من الرخام كان قد عثر عليه في أحد مساجد الإسكندرية وبصل وزنه إلى ستة آلاف كيلو جرام، وتحمل كل وجوهه الخارجية والداخلية كتابات ورسوم هيروغليفية، وقد وصف جراتيان لويير هذا الأثر بأنه " واحد من أكثر الآثار التي بقيت من الحضارة المصرية القديمة مدعاة للفضل " وبأنه " لا يقدر بثمن بالنسبة للفنون والتاريخ " ^(٢٩٢) وكانت تضم كذلك حوضين آخرين من الرخام الأسود كان قد عثر عليهما في القاهرة^(٢٩٣)، أحدهما كان يوجد أسفل سلم جامع ابن طولون، وكان معداً للسقي، أبعاده ٢,٧، ١,٣٨، ١,٩ طولاً وعرضاً وارتفاعاً على التوالي، وعلى جميع أوجهه كتابة هيروغليفية من الداخل والخارج^(٢٩٤) كسابقه، وأما الآخر فقد كان منحوتاً على شكل جسم إنسان^(٢٩٥). وضمت الشحنة المهربة كذلك مسلتين صغيرتين من البازلت الأسود المصقول تبلغ أطوال كل منهما من ثلاثة إلى أربعة أمتار^(٢٩٦)، وعليهما نقوش هيروغليفية، وكان قد تم استخراجهما من جامع المنتصرون قلاوون حيث كانتا مجعولتين أعتاباً لهذا المسجد^(٢٩٧) بالإضافة إلى حجر يشبه حجر رشيد ذى كتابات ثلاث^(٢٩٨)، إحداها باليونانية وعدد أسطرها اثنان وسبعون سطراً، والثانية بالهيروغليفية، والثالثة بالديموطيقية، وعدد كل منهما اثنان وعشرون سطراً، وكان الفرنسيون قد عثروا على هذا الحجر في مسجد رضوان أغا إذ كان مجعولاً عتياً لشباك في هذا المسجد^(٢٩٩)، كما ضمت الشحنة بالإضافة إلى كل ذلك قبعة أحد التماثيل الضخمة، وقطعاً مفتتة من أحواض وتماثيل أخرى^(٣٠٠).

وقد تمكن الأسطول الإنجليزي من ضبط هذه الشحنة الأثرية المهربة وهي في طريقها إلى فرنسا، ولكنه بدلاً من أن يقوم بإرجاعها إلى مصر فقد استولى عليها باسم البحرية الإنجليزية ولمصلحة المتحف البريطاني، وفي ذلك يقول جراتيان لويير في نبرة حزن وأمل معزياً نفسه في

فقدان تلك الشحنة الثمينة: "إذا كانت الأحداث العسكرية الأخيرة التي أدت إلى جلائنا عن مصر قد حرمت فرنسا من إحدى المعالم التي كان يمكنها أن تثرى متحف العاصمة، فليس للآداب والفنون أن تأمى، فخسارتها لم تكن تامة فهذه الغنيمة بفضل عزيمتنا التي لا تلين في تناول أيدينا؛ إذ يستطيع الأدباء والفنانون أن يذهبوا لتأملها... في متحف لندن" (٣٠١).

ويفهم من كلام علماء الحملة الفرنسية أنه لم يكن في نيتهم الاقتصار على جمع القطع الأثرية الصغيرة فقط، وإنما كانوا ينوون القيام بنقل التحف الأثرية الضخمة كالمسلات والتوابيت والتماثيل الكبيرة غير أنه "لم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأماكن المقدسة إلى أوروبا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف ببذلها على الإطلاق" (٣٠٦) كما يدل قول لوبرير عن مسلة الإسكندرية الساقطة من أنه: "يلزم لنقلها سفينة تبلغ حمولتها ثلاثمائة طن" (٣٠٦) على أنه كان يفكر هو وزملاؤه في نقلها بالفعل.

وأمام الحصار الخائق الذي فرضه الإنجليز على السواحل المصرية وخوفاً من وقوع الآثار المهرية في يد الإنجليز اضطر الفرنسيون إلى تكديس كميات كبيرة من الآثار المصرية في مدينة الإسكندرية انتظاراً لما سوف تسفر عنه تطورات الحرب، وعندما أجبر الإنجليز الفرنسيين على توقيع معاهدة الجلاء عن مصر تمسك الإنجليز بالحق في حيازة الآثار القديمة بما فيها حجر رشيد بالإضافة إلى الجامعات العلمية الخاصة بعلماء الحملة، بينما أصر الفرنسيون على الاحتفاظ بتلك المجموعات العلمية، وتمسك مينو من جانبه بحجر رشيد باعتباره من ممتلكاته الشخصية، وقد مر بك سلفاً كيف أفلح علماء الحملة في مساعهم بالاحتفاظ بالمجموعات العلمية، وكيف أخفق مينو في الدفاع عن حقه في حجر رشيد، أما الإنجليز فقد نجحوا في الاستيلاء على حجر رشيد من مينو وعلى الآثار المصرية الأخرى التي كانت بحوزة رجال الحملة.

وهكذا يمكن القول بأنه عند جلاء الحملة الفرنسية عن مصر كانت هناك ثلاث مجموعات من الغنائم تتنازعها ثلاثة أطراف، أما الغنائم فهي: الجامعات العلمية والمذكرات التي كانت بصحبة علماء الحملة، ثم حجر رشيد الذي اعتبر - نظراً لأهميته التي ظهرت له - قسماً برأسه، ثم الآثار المصرية الأخرى التي كانت بحوزة الحملة، وكانت تنوى نقلها إلى فرنسا.

وأما الأطراف الثلاثة المتنازعة فقد تمثلت في الفرنسيين والإنجليز ومينو، أما الفرنسيون فقد

رتبوا هذه الغنائم حسب أهميتها لهم كالتالي:

١ - الجامعات العلمية والمذكرات.

٢ - حجر رشيد.

٣ - الآثار الأخرى.

وقد دخل الفرنسيون المفاوضات التي دارت بينهم وبين الإنجليز حول شروط معاهدة الجلاء على أساس الترتيب السابق ؛ حيث انصب كل اهتمامهم وتركيزهم على المطالبة بالمجاميع العلمية والمذكرات كمطلب أساسي لهم لا ينبغي التنازل عنه بأي حال من الأحوال، ثم إن أمكن بعد ذلك المطالبة بحجر رشيد أو بالآثار المصرية الأخرى فيها، وإلا فلا بأس بالاكتماء بالحصول على المجاميع العلمية والمذكرات، بدليل أن جيوفروا سان هيلير لم يشر من قريب أو بعيد - أثناء حديثه مع هتشنسون - إلى الغنائم الأخرى، وإنما اقتصر فقط على المطالبة بمجاميعه هو وزملائه، وكان مينو هو الوحيد الذي تضمن حديثه إشارة إلى هذه الآثار حيث أكد " أن حكومة الجمهورية لا تملك من هذه الأشياء سوى تابوتين كان قد صدر أمره بإرسالهما إلى فرنسا، وأما فيما يتعلق بالتمائيل الأخرى فإن فريان يمتلك اثنين منها كان قد عثر عليهما أثناء تنقيبه عن الآثار بالإسكندرية على نفقته الخاصة " (٣٠١) وهكذا عندما نجح علماء الحملة في الفوز بمجموعاتهم الخاصة بهم فإنهم لم يهتموا اهتماماً كبيراً بالمطالبة بشيء مما تبقى من الغنائم، وكأنهم يطبقون مبدأ المجموعات مقابل الآثار (٣٠٥).

وأما الإنجليز فقد كان مهمهم الأول وشغلهم الشاغل هو إجلاء الفرنسيين عن مصر كما يتضح من قول السير سدنى سميث Sedny Smith في رسالة له إلى لورد إلجين: "إن الهدف القومي العظيم سيتحقق إذا استطعنا إخراج الفرنسيين من البلاد حتى لو حملوا الأهرام معهم" (٣٠٦)، أما الاهتمام بالآثار أو بحجر رشيد فقد كان بتحريض من لورد إلجين الذي كان قد أرسل وليام هاميلتون في مهمة خصيصاً لهذا الغرض، وهكذا كان الإنجليز يرتبون أولوياتهم كالتالي:

١ - إخراج الفرنسيين من مصر.

٢ - حجر رشيد.

٣ - الآثار الأخرى.

٤ - المجاميع العلمية والمذكرات.

وعندما تمكن الإنجليز من تحقيق هدفهم الأول وهو إجلاء الفرنسيين بدأوا يفكرون في الاستيلاء على حجر رشيد، وعندما تنازل لهم عنه مينو بعد عناد لم يطل أمده، أخذوا يسعون للحصول على الآثار الأخرى، وعندما حصلوا عليها طمعوا في الحصول على مجموعات العلماء الخاصة، ولكنهم صُدُّوا بما أظهره علماء الحملة الفرنسية من تمسك بها وتصميم على الاستيلاء عليها، ويبدو لي أن الإنجليز لم يكونوا جادين في المطالبة بمجموعات العلماء، لعلمهم أن هذه المجموعات سوف لا يمكن فهمها حق القهم بدون العلماء الذين قاموا بجمعها وتدوينها ودراستها ؛ لأنها لم تكن قد استقرت بعد في كتاب صالح للنشر وإنما كانت مجرد مواد أولية تحتاج إلى مزيد من التبويب والتنظيم والترتيب، ولعل الإنجليز إنما أرادوا فقط أن يتغنوا من هذه المجموعات

أداة للضغط على العلماء من أجل الحصول على أكبر قدر من المكاسب فيما يتعلق بالفنائم الأخرى، بحيث تبدو موافقة الإنجليز على احتفاظ علماء الحملة بهذه المجموعات وكأنه تنازلٌ من جانبهم يستحق في مقابله تنازلاً أكبر من جانب الفرنسيين فيما يتعلق بفنائم الحملة الأخرى، وأعني بها حجر رشيد والآثار المصرية الأخرى، أما مينو فقد استسلم سريعاً لضغوط الإنجليز وتخلّى عن حجر رشيد الذي كان يدعى ملكيته ؛ إذ لم يكن مينو بالرجل الذي يملك مقومات التفاوض أو صفات المفاوض الماهر، فقد كان يقلب عليه الغرور والتردد وكثرة الانفعال والغضب، وكلها لا تصلح لمن يتصدى للقيام بمثل هذه المهمات الشائكة، ويغلب على ظني أن الفرنسيين - على الرغم من حرج موقفهم في مصر - كان بإمكانهم أن يحققوا مكاسب أكبر في المفاوضات فيما يتعلق بالحصول ولو على نصيب من الآثار المصرية الأخرى التي جمعتها الحملة في ظل تلهف الإنجليز الشديد على إخراجهم من مصر، بغض النظر عن أي أمر آخر، وعلى أي حال فإنه أياً ما كان الفريق الذي استحوذ على الآثار المصرية المنهوبة - الفرنسيون أم الإنجليز - وأياً ما كان المكان الذي استقرت فيه تلك الآثار بعد ذلك - اللوفر أو لندن - فإن الخاسر الوحيد في النهاية هو مصر وعلم الآثار المصرية.

أقول ذلك على الرغم من أن معاهدة تسليم القاهرة كانت تنص على أن " تتقاسم الدولتان الإنكليزية والعثمانية جميع ما تركوه الفرنسيّة " (٣٠٧) أفلم يكن من الممكن المطالبة بتطبيق هذه المادة على تسليم الإسكندرية كذلك ؟ ولكن من ذا الذي كان بإمكانه أن يطالب بذلك ؟ العثمانيون الذين كانوا يعيشون نشوة استرداد ولايتهم المفقودة، أم أتباع مراد بك الذي كان قد تحالف مع الفرنسيين بينما كانت مدافعهم تدك القاهرة دكاً، أم محمد بك الألفي الذي ارتقى في أحضان الإنجليز، أم الشعب المصري الذي كان يئن تحت وطأة فقر مدقع وحكم استبدادي بغيض ؟ الواقع أنه لا أحد، هل يعنى ذلك أن الفرنسيين خرجوا من مصر بدون أن يحملوا معهم أى آثار مصرية ؟ الواقع أنهم خرجوا بالعديد من القطع الأثرية الصغيرة التي كانت بحوزة أفراد الحملة واحتفظوا بها بصفة شخصية، وقد بلغت هذه القطع عدة آلاف من التماثيل الصغيرة والتماثيل واللوحات الحجرية الصغيرة (٣٠٨)، وقد شاركهم في ذلك أخصائهم البريطانيون، وقد أشاع أولئك وهؤلاء بعد عودتهم إلى أوروبا أن مثل هذه الآثار توجد بوفرة في مصر (٣٠٩)، ففتحو بذلك أعين الأوروبيين على كنوز مصر الأثرية مما مهد السبيل أمام موجات نهب الآثار التي اجتاحت مصر خلال القرن التاسع عشر.

والمطالع لمجلدات كتاب " وصف مصر " المختلفة يجد العديد من الأمثلة للآثار المصرية التي خرجت مع أفراد الحملة عند مغادرتهم مصر، مثل ذلك التمثال الرائع الذي حمّله إلى فرنسا الجنرال فيال Vial (٣١٠)، وذلك الدرج الثمين من البردي الذي أخذه الفرنسيون إلى بلادهم، وكان

قد قارب الأربعة أمتار طولاً^(٣١١)، وفي ذلك يقول قوربيه: " وقد جلبنا معنا من مصر أحجاراً منقوشة وتمائيل بأكملها أو مجذوعة، وقطعاً من البرونز، وشظايا من الخزف أو البورسلين، وأحجاراً مقطوعة ومشذبة تحمل نقوشاً ورسوماً فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة ويعلم وعادات أهل البلاد، كما تفحصنا باهتمام عدداً هائلاً من مومياءات البشر، ومومياءات الحيوان من ذوات الأربع، وكذا الزواحف والطيور واحتفظنا بالكثير منها، وقد عثرنا في الصناديق والآنية الفخارية التي تضم هذه الأجساد الجافة على أقمشة من نسيج ثمين، وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقان، وعلى أعداد هائلة من الشظايا كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البرديات مغطاة بنقوش هيرغليفية أو بحروف هجائية، وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة وداخل الحفريات الكثيرة التي اقتضى القيام بها الفحص الذي أجريناه للمباني، وكذلك في داخل المقابر العامة أو الملكية، وفي بعض الأحيان في داخل البيوت الحالية، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية^(٣١٢) هذا وقد أهدى بعض هذه الآثار إلى مكتبة الملك^(٣١٣).

ومما هو جدير بالذكر أنه بعد هزيمة نابليون في موقعة واترلو، وعند توقيع معاهدة الصلح (١٨١٥ م / ١٢٣٠ هـ) كانت أول شروط الدول المنتصرة هي استعادة كل المقتنيات والتحف والكنوز التي سلبها نابليون منها، وهكذا استعادت إيطاليا وهولندا وأسبانيا وبقية الدول كنوزها، بينما لم يتبق سوى مصر وحدها لم تستعد شيئاً^(٣١٤).

ومع استرداد الدول المنتصرة لممتلكاتها تعرض متحف اللوفر لانتكاسة شديدة وأصابته فترة من الهزال^(٣١٥)، غير أنه لم يلبث أن انتعش من جديد بفضل الإمدادات المتلاحقة من الآثار المصرية التي كانت تأتيه من مصر إما مهربة أو بمباركة من حكوماتها الغافلة، وقد استمرت هذه الإمدادات تترى خلال القرن التالي بأكمله مما سيتضح لك بعد قليل.

الهوامش

- (١) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر" طبعة: دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٦١٥.
- (٢) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر" ترجمة: فؤاد أندراوس، مراجعة: محمد أحمد أنيس، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٤١ هذا وتختلف المصادر فيما بينها في عدد هؤلاء العلماء، وربما كان مرد الاختلاف إلى اشتراك نفر من القواد وضباط الحملة في العمل مع أعضاء لجنة الفنون، فأحصاهم بعض الكتاب ضمن العلماء، بينما أغفلهم البعض الآخر، على أى حال فإن أكثر المصادر التى رجعنا إليها تكاد تجمع على مائة وسبعة وستين عالماً فقط. هذا ويمكنك الاطلاع على إحصاء بأسماء أعضاء لجنة العلوم والفنون وتخصصاتهم المختلفة بالرجوع إلى: عبد الرحمن الراجى: "تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر" طبعة: دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ج ١، ص ٣٩٩ وما بعدها، وهم فيه مائة وستة وأربعون عالماً فقط، وقد أترنا هنا عدم إيراد هذه الأسماء منعاً للإطالة، على أن نكتفى من هؤلاء بذكر من أسهم منهم بدور فعال في الكشف عن مصر القديمة وحضارتها وأثارها على ما سيتضح بعد.
- (٣) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٣٨.
- (٤) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٤١.
- (٥) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦١٩.
- (٦) عبد الرحمن الراجى: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ٤١.
- (٧) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٨٥.
- (٨) كاتوب: مدينة قديمة كانت تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بالقرب من "أبو قير" الحالية، وإليها يلصق الفرع الكاتوبي من النيل، والذي كان يحسب عندها في البحر. انظر: محمد رمزى: "القاموس الجغرافى" قسم ١، ص ٣٥٥، وانظر كذلك قسم ٢، ج ٢، ص ٣١٧.
- (٩) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٣٧.
- (١٠) المرجع السابق، ص ٦٢٨، وبوسطة: هي تل بسطة الحالية، إحدى المدن التابعة لمركز الزقازيق - محافظة الشرقية. انظر: محمد رمزى: "القاموس الجغرافى" قسم ١، ص ١٦٠.
- (١١) انظر بخصوص أعضاء المجمع العلمى المصرى: عبد الرحمن الراجى: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ١١٩، ١٢٠، وانظر كذلك: كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ١٨٣.
- (١٢) بهترفرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٩.
- (١٣) عبد الرحمن الجيرى: "عجائب الآثار"، ج ٢، ص ٢٣٣.
- (١٤) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٢٠.
- (١٥) عبد الرحمن الجيرى: "عجائب الآثار"، ج ٢، ص ٢٣١ وما بعدها.
- (١٦) عبد الرحمن الراجى: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ١١٨ باختصار.
- (١٧) وقد اختير كذلك بونايرت نائباً للرئيس، ولغورييه سكرتيراً دائماً، وكوستاز مساعداً للسكرتير.
- (١٨) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٢٤.
- (١٩) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ٧٨.
- (٢٠) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ١٧٣.
- (٢١) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ٧٩.
- (٢٢) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٣٥.
- (٢٣) انظر التمهيد في بحثنا هذا.
- (٢٤) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٢٥٣ وأنت تجد تشابهاً كبيراً - يكاد يبلغ حد التناطبق - بين كلام ديتون هذا وبين كلام البغدادى الذى سبق لنا إيراد، وإذا علمت أن ديتون هذا قد اعتبر في عصره "حكماً ومرجعاً في حسن الذوق" كما يقول بيتر فرانز (اغتصاب مصر، ص ٢٠) أدركت مبلغ ما وصل إليه العلامة البغدادى في هذا الإطار.
- (٢٥) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٥.
- (٢٦) هي بلدة التشموتين الحالية، وتتبع مركز ملوى - محافظة المنيا. انظر: جورج بوزتر وآخرون: "معجم الحضارة المصرية القديمة"، ص ٣٤٧، وقد زال هذا الرواق اليوم ولم يبق له أثر، بل لم يكن موجوداً عندما زار شامبوليون مصر عام

- ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) وقد وصفه شامبلون بأنه كان " من أجمل الآثار المصرية " انظر: عماد عدلى: " شامبلون في مصر "، ص ٤١٧.
- (٢٧) ثروت عكاشة: " مصر في عيون الغرباء "، ج ١، ص ٧٩.
- (٢٨) المرجع السابق، نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٢٩) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٦٣.
- (٣٠) هي العرابية المدفونة الحالية، إحدى القرى التابعة لمركز البلبنا - محافظة موهاج، وهي في الخطط التوفيقية العرايات المدفونة. انظر محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ٩٨.
- (٣١) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٦٤.
- (٣٢) مدينة قديمة تقع غربي مدينة قنا، محافظة قنا. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ١٧٦.
- (٣٣) بريان فاجان: " نهب آثار وادي النيل "، ص ٥١.
- (٣٤) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٦٤.
- (٣٥) بيتروفرانس: " اغتصاب مصر "، ص ٢٣.
- (٣٦) بريان فاجان: " نهب آثار وادي النيل "، ص ٥١.
- (٣٧) روبرت سوليه: " مصر ولع فرنسي "، ص ٤٣.
- (٣٨) محمد فؤاد شكري: " الحملة الفرنسية "، ص ٦٨٣.
- (٣٩) ثروت عكاشة: " مصر في عيون الغرباء "، ج ١، ص ٨٢.
- (٤٠) جان كلود جولمان: " الحملة الفرنسية في مصر العليا "، ص ٦٣٦.
- (٤١) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر "، ص ٢٣.
- (٤٢) ثروت عكاشة: " مصر في عيون الغرباء "، ج ١، ص ٨٨، ٨٩.
- (٤٣) إسنا: مدينة على الشاطئ الغربي من النيل، وهي قاعدة مركز إسنا. محافظة قنا. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ١٥١.
- (٤٤) أرمنت: مدينة من أقدم المدن المصرية، وتتبع الآن مركز الأقصر، محافظة قنا. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ١٦٠.
- (٤٥) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٦٦.
- (٤٦) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر "، ص ٢٤.
- (٤٧) مدينة قديمة مندثرة، ويعرف مكانها الآن بالكوم الأحمر، وهي من توابع مركز إدفو. محافظة أسوان. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ١، ص ٤٧٣، وانظر كذلك قسم ٢، ج ٤، ص ١٩٥، ١٩٦.
- (٤٨) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٦٦.
- (٤٩) مدينة إدفو: من أكثر المدن المصرية قدماً، وهي حالياً قاعدة مركز إدفو محافظة أسوان. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ٢١١.
- (٥٠) محمد فؤاد شكري: " الحملة الفرنسية "، ص ٦٣٨.
- (٥١) قبله أو أنس الوجود: كانت تسمى قديماً بلاتى، وكانت تقع جنوب أسوان على بعد حوالى ثمانية كيلو مترات، ومساحتها لا تزيد على تسعة أفدنة كلها مشغولة بمباني المعابد المصرية القديمة. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ٢١٧-٢٢١، وقد اختفت هذه الجزيرة تحت مياه السد وحل محلها أخرى صناعية في مكان آخر ونقلت إليها معابدها.
- (٥٢) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٦٨.
- (٥٣) محمد فؤاد شكري: " الحملة الفرنسية "، ص ٦٣٨.
- (٥٤) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٧٦.
- (٥٥) ثروت عكاشة: " مصر في عيون الغرباء "، ج ١، ص ١٠٩، وكوم أمبو: مدينة قديمة اندسرت ولم يبق من آثارها إلا مبنيها الذى يعرف بمعبد هاتور، وقد بنيت على أنقاضها مدينة كوم أمبو الحالية وهي تتبع محافظة أسوان. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ٢٣٣.
- (٥٦) كريستوفر هيرولد: " بونايرت في مصر "، ص ٢٧٦.
- (٥٧) هي مدينة القرنة الحالية، وتشغل الجزء الغربى من مدينة طيبة [الأقصر] وهي في الخطط التوفيقية مدينة أبو. انظر: محمد رمزي: " القاموس الجغرافي " قسم ٢، ج ٤، ص ١٦٢، ١٦٣.

- (٥٨) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٢٧٦.
- (٥٩) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٣٨.
- (٦٠) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الغريب"، ج ١، ص ١١٧.
- (٦١) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٣٨.
- (٦٢) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٣٧.
- (٦٣) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الغريب"، ج ١، ص ١٢٣.
- (٦٤) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ١٢٣، ١٢٤.
- (٦٥) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٣.
- (٦٦) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٧.
- (٦٧) Jean Edward Goby: "Les Quarante Editions Traduction et Adaptations Du (voyage Dans La Basse et La Haute Egypte) De Vivant Denon" Cahiers d'histoire Egyptienne, Egyptian history papers, face 2, December 1950. P. 294.
- (٦٨) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٧.
- (٦٩) شاتوبريان: Chateaupriand (١٧٦٨ - ١٨٤٨ م / ١١٨٢ - ١٢٦٤ هـ) من كبار الكتاب الفرنسيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأحد دعاة الحركة الرومانتيكية. انظر ترجمته في: لويس اليسوعي: "المجدد في الأعلام"، ص ٣٨٠.
- (٧٠) Goby: op. cit., p. 295.
- (٧١) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٨.
- (٧٢) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٣.
- (٧٣) جون مارلو: "تاريخ النهب الاستعماري لمصر"، ص ١٨.
- (٧٤) Goby: op. cit., p. 295.
- (٧٥) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الغريب"، ج ١، ص ١١٧.
- (٧٦) المرجع السابق: نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٧٧) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٣٨.
- (٧٨) المرجع السابق: نفس الصفحة.
- (٧٩) المرجع السابق: نفس الصفحة. بتصرف.
- (٨٠) نقلاً عن: روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٣.
- (٨١) إلهام هفي: "مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر"، ص ٧٦.
- (٨٢) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٢٧٦.
- (٨٣) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٣.
- (٨٤) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢٠، ص ٢٠٩، وانظر كذلك: ج ٢١، ص ٣٠٨.
- (٨٥) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٣١.
- (٨٦) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الغريب"، ج ١، ص ١٢٨. هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرحلة قد نشرت في مصر عامي ١٩٥٢/١٩٥١ م (١٣٧٠ - ١٣٧١ هـ) وقد أشرف على نشرها جان إدوارد جوبيه بتكليف من الأمير إبراهيم حلمي، وقد أرفق جوبيه بالطبعة المصرية بياناً بالترعين طبعة السابقة للكتاب وأماكن طباعتها. انظر Goby op. cit. pp 290.
- (٨٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٥٢، وانظر كذلك: كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٤٠٤.
- (٨٨) عبد الرحمن الرافعي: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ١٣٦.
- (٨٩) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٢٧٤.
- (٩٠) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٣.
- (٩١) عبد الرحمن الرافعي: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ١٢٧، ١٢٦.
- (٩٢) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٣٩.
- (٩٣) المرجع السابق: نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٩٤) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الغريب"، ج ١، ص ١٣٢.
- (٩٥) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٠، ٦٤١ بتصرف.

- (٩٦) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٣٨.
- (٩٧) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٢.
- (٩٨) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ٢٧٤.
- (٩٩) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٢.
- (١٠٠) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٢.
- (١٠١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢٠، ص ٢٩٢.
- (١٠٢) إلفنتين: جزيرة مصرية قديمة واقعة في النيل تجاه أسوان، وكانت عاصمة البلاد المصرية في عهد الأسرتين الفرعونييتين: الخامسة، والسادسة. انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢، ج ٤، ص ٢٢١، ٢٢٢.
- (١٠٣) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٢.
- (١٠٤) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٥.
- (١٠٥) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ٢٧٤.
- (١٠٦) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ١٩.
- (١٠٧) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٦. بصرف واختصار.
- (١٠٨) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢٠، ص ٢٨٩.
- (١٠٩) كلود ترونيكر: "مصر القديمة في وصف مصر" بحث منشور ضمن كتاب هنري لورنس وآخرين: "الجملة الفرنسية في مصر"، ص ٦٢٢.
- (١١٠) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ٥، ص ١٠٨.
- (١١١) روبرت سوليه: "مصر ولع قديم"، ص ٤٣.
- (١١٢) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٨، هذا ولا تتفق المراجع فيما بينها على أعضاء هاتين اللجنتين، فبينما يذكر ثروت عكاشة أنهما ضمتا ثلاثة وعشرين عضواً: اثني عشر عضواً في لجنة كوستار وأحد عشر عضواً في لجنة فوربيه (مصر في عيون الغرباء، ج ١، ص ١٣٢) يذكر ترونيكر أن عدد أعضائهما مجتمعين ستة وعشرين عضواً بدون تفصيل (مصر القديمة في وصف مصر، ص ٦٦١) وكلاهما لم يذكر أسماء الأعضاء.
- (١١٣) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٣٩.
- (١١٤) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٢.
- (١١٥) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٩.
- (١١٦) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٠٨.
- (١١٧) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٢.
- (١١٨) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٠٨.
- (١١٩) الكاتب: بلدة قديمة تتبع الآن مركز إدفو - محافظة أسوان. انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ١، ص ٤٢٢.
- (١٢٠) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٣.
- (١٢١) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٣٩.
- (١٢٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٠٨.
- (١٢٣) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٣.
- (١٢٤) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ٤، ص ٢٨٨.
- (١٢٥) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ١٧، وصف اللوحة رقم ٧٣.
- (١٢٦) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ٨، ص ٧٤.
- (١٢٧) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٠٨.
- (١٢٨) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٣.
- (١٢٩) جان كلود جولفان: "الجملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٩.
- (١٣٠) يذكر محمد فؤاد شكرى أن هؤلاء العلماء قد ظلوا في الصعيد إلى وقت اتفاق العرض حينما استدعاهم الجنرال كبير على وجه السرعة إلى القاهرة انتظاراً للجلاء عن البلاد والمودة إلى فرنسا (الجملة الفرنسية، ص ٦٣٩) ولكن اتفاق العرض قد تم توقيعها في ٢٤ يناير ١٨٠٠ م (٢٧ شعبان ١٢١٤ هـ). انظر عبد الرحمن الرفاعي: "تاريخ الحركة القومية"، ج ٢، ص ١٣٥ في حين أن اللجنتين كانتا قد وصلتا إلى القاهرة قبل هذا التاريخ بوقت طويل، كما يتضح

ذلك من الرسالة التي بعث بها أعضاء المجمع العلمي غداة عودة لجنتي كوستاز وفورييه من الصعيد والتي يبدى فيها إعجابه بإنجاز هاتين اللجنتين، ويدعو إلى الربط والتلصيق بين أبحاثهما معاً. وتاريخ هذه الرسالة ٢٢ نوفمبر ١٧٩٩ م (٢٣ جماد الثاني ١٢١٤ هـ). انظر محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٣. مما يدل على أن كوستاز وفورييه ورفاقهما قد وصلوا إلى القاهرة قبل عقد اتفاق العرش المذكور بما يزيد على الشهرين.

- (١٣١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٠٨.
- (١٣٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٣٩، ٣٤٠.
- (١٣٣) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٣.
- (١٣٤) المرجع السابق، ص ٦٦٠.
- (١٣٥) قارن بين موقف ربو هذا وبين موقف دينون السابق.
- (١٣٦) المرجع السابق، ص ٦٤٥.
- (١٣٧) كلود ترونيكر: "مصر القديمة في وصف مصر"، ص ٦٦٢.
- (١٣٨) عبد الرحمن الرافعي: "تاريخ الحركة القومية"، ج ٢، ص ١٦٣، وانظر نص هذا الاتفاق في نفس الجزء، ص ٣٦٣ - ٣٦٥.
- (١٣٩) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٦٥.
- (١٤٠) نفسه.
- (١٤١) المرجع السابق، ص ٦٣٠.
- (١٤٢) المرجع السابق، ص ٦٦٩.
- (١٤٣) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٤٧.
- (١٤٤) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٣٠.
- (١٤٥) ملهم حسن: "أبو الهول، تاريخه ونشأته"، ص ٣٤.
- (١٤٦) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٣٠.
- (١٤٧) محمد عبد الهادي محمد: "نشأة وتطور ترميم وصيانة الآثار" مجلة كلية الآثار، عدد سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، ص ٢٨٧.
- (١٤٨) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ٢٥٢.
- (١٤٩) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٦٦.
- (١٥٠) المرجع السابق: نفس الصفحة.
- (١٥١) كريستوفر هيرولد: "بونايرت في مصر"، ص ١٨٠.
- (١٥٢) عبد الرحمن الرافعي: "عصر إسماعيل" طبعة دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ج ١، ص ٢٧٢.
- (١٥٣) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٢٥.
- (١٥٤) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٢٨.
- (١٥٥) المرجع السابق، ص ٦٣٥ باختصار.
- (١٥٦) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٢.
- (١٥٧) كان من حسن الحظ أنه عثر على حجر بمعبد جزيرة فيلة بأسوان كُتب عليه بالهروغليفية نص هو طبق الأصل من النص الهروغليفى المنقوش على حجر رشيد، فتم بذلك استكمال ما نقص من هذا النص (انظر مختار السويفى: "مصر القديمة"، ص ١١٠).
- (١٥٨) عبد المنعم أبو بكر: "مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية" بحث مستخرج من مجلة "المشرق" عدد رقم ٤ السلسلة السابعة، شعبان ١٣٨٠ هـ / ديسمبر ١٩٦٠ م، طبعة مطبعة جوتنبرج. بدون تاريخ، ص ١٣.
- (١٥٩) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٢.
- (١٦٠) المرجع السابق: نفس الصفحة.
- (١٦١) مختار السويفى: "مصر القديمة"، ص ١٠٨، ١٠٩.
- (١٦٢) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٣٦ باختصار. ومنذ ذلك الوقت انكب الباحثون على محاولة قراءة النصوص المنقوشة على الحجر، وكان طبيعياً أن يبدأ الباحثون بالنص اليوناني أيسر النصوص جمعاً وأسهلها في القراءة، فقام ألأب استيفان ويستون بترجمة هذا النص اليوناني إلى الإنجليزية، وقرأ الترجمة أمام أعضاء الجمعية

- الأثرية بلندن، كما قام العالم الفرنسى مسيو تيل بترجمة هذا النص إلى الفرنسية، بينما قام المسيو أميلون بترجمته إلى اللاتينية، وقد تمت جميع هذه الترجمات خلال عام ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ)، كما قام المستشرق الفرنسى دى سامى بدراسة النص المكتوب بالديموطيقية في نفس العام (انظر مختار الموسيقى: "مصر القديمة"، ص ١١٠) كما تهافت عدد من الباحثين على محاولة دراسة النص الهرىوغلىفى، وكان من أشهرهم دى سامى المذكور والموسيقى أكرالد والإنجليزى توماس بوتج، ثم الفرنسى شامبليون الذى يرجع إليه الفضل في حل رموز تلك اللغة، وقد اتضح فيما بعد أن النصوص الثلاثة المنقولة على الحجر تحوى شكراً قدمه كهنة منف عام ١٩٦ ق. م لبطليموس الخامس تقديراً للمعطى الذى أهذاها عليهم. (انظر: عبد المنعم أبو بكر: الكشف الأثرية، وأثرها في كتابة التاريخ القديم "المجلة التاريخية، عدد رقم ٥ سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م، ص ١٠).
- (١٦٣) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ٢، ص ٢٨٩، ٢٩٠.
- (١٦٤) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ٤٠١.
- (١٦٥) (١٦٤) البارثينون Partheno: معبد شهير في مدينة أثينا باليونان، وهو من روائع الفن الإغريقى، بنى في القرن الخامس قبل الميلاد، وزينه بالتماثيل والنقوش النحات الكبير فيدياس. انظر لويس اليسوعى: "المنجد في الأعلام"، ص ١٠٨.
- (١٦٦) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ٢، ص ٢٩٠.
- (١٦٧) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٣٦٥.
- (١٦٨) مختار الموسيقى: "مصر القديمة"، ص ١٠٩، ١١٠.
- (١٦٩) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٣٦٥.
- (١٧٠) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٣٠.
- (١٧١) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسى"، ص ٥٠.
- (١٧٢) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٤٣، ٦٤٤.
- (١٧٣) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٤٤.
- (١٧٤) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٣.
- (١٧٥) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٤٤.
- (١٧٦) نقولا الترك: "ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأفطار المصرية والبلاد الشامية" تحقيق: ياسين سويد، طبعة: دار الفارابى، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، ص ١٥٧، وانظر كذلك: أمين سامى "تقويم النيل عصر محمد على" طبعة: دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م، ص ١٦٠.
- (١٧٧) عبد الرحمن الجبرى: "عجائب الآثار"، ج ٢، ص ٤٧٣، وانظر كذلك له: "مظهر التقديس بنهاب دولة الفرنسيس" طبعة: مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٢٣٧، ٢٣٨.
- (١٧٨) عبد الرحمن الرافعى: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ٣٨١.
- (١٧٩) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٣٨٢.
- (١٨٠) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٧٣.
- (١٨١) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ٤٠٠.
- (١٨٢) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٣٠.
- (١٨٣) محمد فؤاد شكرى: "الجملة الفرنسية"، ص ٦٧٤، ٦٧٥.
- (١٨٤) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٤٤.
- (١٨٥) عبد الرحمن الرافعى: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ٤٣١.
- (١٨٦) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٨.
- (١٨٧) علماء الجملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ١، ص ٧ (مقدمة المترجم).
- (١٨٨) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٨ (مقدمة المترجم).
- (١٨٩) عبد الرحمن الرافعى: "تاريخ الحركة القومية"، ج ١، ص ٤٣١.
- (١٩٠) يمتلئ من ذلك دراسة واحدة وردت في الطبعة الثانية (طبعة بانكوك) ولم ترد في الطبعة الأولى، وهذه لدراسة خاصة بمسجد أحمد بن طولون وحياة منشئه ومؤسساته. انظر علماء الجملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ١، ص ٩ (مقدمة المترجم).
- (١٩١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٢ مذكرة مقدمة من المسيو بانكوك إلى وزير الداخلية الفرنسى بخصوص إعادة طبع كتاب "وصف مصر".

- (١٩٢) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج. ١، ص ١٤٥.
- (١٩٣) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ١، ص ٢٨١ من مذكرات المسيد بانكوك السالفة الذكر.
- (١٩٤) كان علماء الحملة الفرنسية يعتقدون خطأ أن بعض المعابد المصرية القديمة هي تصور للملوك الفراعنة، وسوف نشير إلى ذلك في حينه.
- (١٩٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٩٦.
- (١٩٦) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ١٩ شرح لوحة المقدمة، وانظر كذلك: روبير سوليه "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٤، ٥٥.
- (١٩٧) شارل جليسي: "الجواب العلمية لحملة مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١م" بحث منشور ضمن كتاب: هنري لورنس وآخرين. "الحملة الفرنسية في مصر"، ص ٢٢٤.
- (١٩٨) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٥.
- (١٩٩) عبد الرحمن الرافعي: "تاريخ الحركة القومية"، ج. ١، ص ٤٣١.
- (٢٠٠) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج. ١، ص ١٤٥.
- (٢٠١) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٩.
- (٢٠٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ١، ص ٣٥١، ٣٥٠.
- (٢٠٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٥٧.
- (٢٠٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٥٢.
- (٢٠٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٥٢، ٣٥٣.
- (٢٠٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٥٢، بتصرف واختصار.
- (٢٠٧) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٧.
- (٢٠٨) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ٢٠، ص ٣٢٣ - ٣٤٨.
- (٢٠٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٣ - ٢٧٢.
- (٢١٠) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٠١ - ١٤١.
- (٢١١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٤٣ - ١٧٣.
- (٢١٢) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٧٥ - ٢١١.
- (٢١٣) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٧، وتجدر الإشارة إلى أن جومار قد انتخب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي مكافأة له على أبحاثه في الآثار المصرية. انظر: عبد الرحمن الرافعي: "تاريخ الحركة القومية"، ج. ١، ص ١٢٥.
- (٢١٤) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ٢٠، ص ١٣ - ١٠٠.
- (٢١٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٥ - ٣٢١.
- (٢١٦) المصدر السابق، ج ٢١ وقد استغرقت دراستها الجزء بكامله.
- (٢١٧) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٧.
- (٢١٨) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ٢٠، ص ٢٧٣ - ٢٨٤.
- (٢١٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٤٧، ٢٤٨ وطود إحدى القرى القديمة التابعة لمركز الأقصر - محافظة قنا. انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٧، ج ٤، ص ١٦٢.
- (٢٢٠) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٧.
- (٢٢١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ٢٠، ص ٣١١ - ٣٧٢.
- (٢٢٢) المصدر السابق، ج ٧. وقد استغرقت هذه الدراسة هذا الجزء بتمامه.
- (٢٢٣) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٤٨.
- (٢٢٤) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٩.
- (٢٢٥) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج. ١، ص ٣٦٩.
- (٢٢٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٦٢.
- (٢٢٧) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨١ من مذكرات السيد بانكوك التي أشرنا إليها من قبل.
- (٢٢٨) المصدر السابق، نفس الجزء ورقيم الصفحة.
- (٢٢٩) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٥.

- (٢٣٠) المرجع السابق، ص ٥٦، ٥٥.
- (٢٣١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ١٨، شرح اللوحة رقم ٥١.
- (٢٣٢) المصدر السابق، ج ٢١، ص ١٣٠ وما بعدها.
- (٢٣٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٥.
- (٢٣٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٣٣.
- (٢٣٥) مجلة "المقتطف" عدد نوفمبر ١٨٩٩ م (رجب ١٣١٧ هـ) مجلد رقم ٢٣، ص ٨٧٣.
- (٢٣٦) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٦٥.
- (٢٣٧) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٣٤.
- (٢٣٨) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٩، ٦٥٠، يتصرف.
- (٢٣٩) المرجع السابق، ص ٦٤٧.
- (٢٤٠) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ١٢، ص ٢٨١.
- (٢٤١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٦٩.
- (٢٤٢) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ٨٢.
- (٢٤٣) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ١٣، ص ٢٢.
- (٢٤٤) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦١٢.
- (٢٤٥) المرجع السابق، ص ٦١٣.
- (٢٤٦) عبد الرحمن الجبيري: "عجائب الآثار"، ج ٢، ص ٢٢٧، ٢٢٨ والجعالة والجُعالة والجَعَالَة: مما جُئِلَ له على عمله، والجُعْل والجُعْلَة: الأجر على الشيء فعلاً أو قولاً: انظر: ابن منظور: "لسان العرب" مادة (ج.ع.ل)، ج ١، ص ٦٣٧.
- (٢٤٧) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦١٣.
- (٢٤٨) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢٠، ص ٣٤٧.
- (٢٤٩) المصدر السابق، ج ٢١، ص ٢٧٦.
- (٢٥٠) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٥.
- (٢٥١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٧.
- (٢٥٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ص ١٥.
- (٢٥٣) المصدر السابق، ج ٢٠، ص ٢٢٢، ٢٢٣، وانظر كذلك، ص ٢٦١.
- (٢٥٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٢٣.
- (٢٥٥) انظر - مثلاً - في ذلك: تلك المقالات الشيقة الممتعة التي نشرها الأثرى أحمد نجيب في مجلة "المقتطف" عددي نوفمبر وديسمبر ١٨٩٩ م، والتي يتحدث فيها عن اكتشافاته الأثرية في مغارقي الصباغة والرماد والتي واجه فيها نجيب ظروفًا صعبة من نفس تلك الظروف التي واجهها علماء الحملة، وكاد لنجيب أن يفقد بسببها حياته، وسوف نتعرض لذلك في حينه.
- (٢٥٦) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣٦.
- (٢٥٧) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٩.
- (٢٥٨) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٦.
- (٢٥٩) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤١.
- (٢٦٠) المرجع السابق، ص ٤٠.
- (٢٦١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣١٣.
- (٢٦٢) "ثمانية عشر يوماً بصعيد مصر" مطبعة الموسوعات، القاهرة ١٣١٩ هـ/ ١٩٠١ م، ص ١٢٩.
- (٢٦٣) جان كلود جولفان: "الحملة الفرنسية في مصر العليا"، ص ٦٤٥، وانظر كذلك: ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء"، ج ١، ص ١٣٢.
- (٢٦٤) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢١، ص ٣١٣.
- (٢٦٥) المصدر السابق، نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٢٦٦) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ١٧٣.
- (٢٦٧) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ٣٩.
- (٢٦٨) المرجع السابق، ص ٤٠.

- (٢٦٩) "نهب آثار وادي النيل"، ص ٤٨.
- (٢٧٠) روبر موليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٨.
- (٢٧١) يضم هذا المجمع النخبة المصفاة من العلماء والكتاب والأدباء والفنانين الكبار من الفرنسيين في مختلف الميادين، وهو يشتمل على خمس أكاديميات: أكاديمية النقوش والآداب، أكاديمية العلوم، الأكاديمية الفرنسية وهي تهتم بالدراسات اللغوية الفرنسية، أكاديمية الفنون الجميلة، أكاديمية العلوم والأخلاق السياسية. انظر: محمود المقداد: "تاريخ الدراسات العربية في فرنسا"، ص ٢٤٨.
- (٢٧٢) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ١٤.
- (٢٧٣) محمد المسمى قنديل: "اللوهر، شاب عمره ٢٠٠ عام، مجلة "العربي" عدد رقم ٤٢٢ رجب ١٤١٤ هـ/يناير ١٩٩٤ م، ص ٨٩.
- (٢٧٤) لبيب حيشي: "مسلات مصر، ناطعات المسحاب في الزمن الماضي" ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة: جمال مختار، طبعة المجلس الأعلى للآثار، سلسلة الثقافة التاريخية والأثرية، مشروع المائة كتاب، عدد رقم ٢٣ القاهرة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م، ص ١٨٤.
- (٢٧٥) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٦٤١.
- (٢٧٦) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٢٤، وانظر كذلك: بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٥٠.
- (٢٧٧) كريستوفر هيرولد: "بونابرت في مصر"، ص ١٨٤.
- (٢٧٨) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٢٥.
- (٢٧٩) علي مباركة: "الخطط التوفيقية"، ج ١٠، ص ٤٩.
- (٢٨٠) المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٩، ٢٨٥.
- (٢٨١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٣، ص ٣٢٧.
- (٢٨٢) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٢٥.
- (٢٨٣) انظر أمثلة لهذه الحفائر في: علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٢، ص ١٦٠، ٣٢٥، وانظر كذلك: ج ٢١، ص ١٢٥، ٢٨٤، ٢٩٩، ٣٢١، ٣٧٩، ٤١٠.
- (٢٨٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٣.
- (٢٨٥) المصدر السابق، ج ١٩ شرح اللوحة رقم ٧١ شكل رقم ٥.
- (٢٨٦) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٢٥.
- (٢٨٧) محمد المسمى قنديل: "اللوهر"، ص ٨٩.
- (٢٨٨) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ٣١.
- (٢٨٩) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٦.
- (٢٩٠) محمد المسمى قنديل: "اللوهر"، ص ٨٩.
- (٢٩١) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر" منشورات دار الحياة بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص ١٨٩.
- (٢٩٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٣، ص ٣٢٧.
- (٢٩٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٩.
- (٢٩٤) علي مباركة: "الخطط التوفيقية"، ج ٢، ص ٣٢٤ وهو يطلق على هذا الحوض اسم "الحوض المرصود"، وتستطيع أن تجد وصفاً تفصيلياً لهذا الحوض في كتاب "وصف مصر"، ج ١٩ شرح اللوحين رقم ٢٤، ٢٥.
- (٢٩٥) انظر وصفاً تفصيلياً لهذا الثابوت في المصدر السابق، نفس الجزء، شرح اللوحة رقم ٢٣.
- (٢٩٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٩.
- (٢٩٧) علي مباركة: "الخطط التوفيقية"، ج ٢، ص ٨٩، وانظر وصفاً وافياً لثابتي المسلتين في "وصف مصر"، ج ١٩ شرح اللوحين رقم ٢١، ٢٢.
- (٢٩٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٩.
- (٢٩٩) علي مباركة: "الخطط التوفيقية"، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (٣٠٠) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٣، ص ٣٢٩.
- (٣٠١) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٣، ص ٣٢٩.
- (٣٠٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٣.

- (٣٠٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٣٦.
- (٣٠٤) محمد فؤاد شكرى: "الحملة الفرنسية"، ص ٦٧٤.
- (٣٠٥) دميديك فالبييل: "علم المصريات" ترجمة: لؤيس بقطر، طبعة: دار الفكر، سلسلة كتاب الفكر عدد رقم ١٨ الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، ص ١٤٠.
- (٣٠٦) كريستوفر هيرولت: "بونايرت في مصر"، ص ٣٧٠.
- (٣٠٧) نقولا الترك: "ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية"، ص ١٦٦.
- (٣٠٨) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ١، ص ٣٥٣.
- (٣٠٩) تشارلز نيمس: "طبعة"، ص ٦٠.
- (٣١٠) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر"، ج ٣، ص ٨٩.
- (٣١١) المصدر السابق، ج ١٧ شرح اللوحة رقم ٣٥.
- (٣١٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٣.
- (٣١٣) المصدر السابق، ج ٢١، ص ١٢٩، وانظر كذلك، ج ١٩ وصف اللوحة رقم ٦٩ أشكال رقم ٨، ٧، ١١.
- (٣١٤) محمد المني قنديل: "اللوهر"، ص ٨٩.
- (٣١٥) المرجع السابق، ص ٩١.

الفصل الثانى

الدور الأجنبى فى نهب الآثار المصرية القديمة من مصر فى القرن التاسع عشر وموقف الإدارة المصرية

أولاً: دور الهيئات القنصلية:

لقد كان رجال الحملة الفرنسية فى تكاليفهم على جمع الآثار المصرية القديمة مدفوعين بالرغبة فى إرضاء نزعة حب الاستحواذ والتملك لدى بنى الإنسان، ولم تكن مصر بالبلد الوحيد الذى طالته مأساة من أفرطوا فى جمع الآثار القديمة : بل إن بلاداً أخرى ذات مدنيات قديمة وحضارات عريقة مثل بلاد اليونان وإيطاليا قد ذاقت - هى الأخرى - آلاماً مريرة من جراء هذا الحب المسموم، ويمكن القول بأن تنافس الممالك الغنية على اقتناء التحف القديمة الثمينة قد جعلها تهمل مبادئ العدالة نحو البلاد التى كانت تمثل تلك الآثار جزءاً من مجدها التليد وحضارتها الغابرة ومدنيتها البائدة وتراثها القديم.

وقد كان ما جمعه علماء الحملة الفرنسية وعرضوه فى أوروبا قد تسبب فى تهاافت الأوربيين على مشاهدة الآثار المصرية القديمة؛ ففى فرنسا كان متحف اللوفر قد فرغ بالكاد من إعداد الآثار المصرية التى جلبها علماء الحملة وتجهيزها للعرض على الجمهور، وفى إنجلترا كان المتحف البريطانى قد تسلم لتوه حجر رشيد، كما أخذ الجنود الفرنسيون والإنجليز ممن شاركوا فى المعارك التى دارت رحاها على أرض مصر أثناء فترة الحملة يعرضون على ذوبهم ومعارفهم ما كانوا قد أحضروه معهم من مصر بصفة شخصية من آثار مصرية قديمة. كذلك كانت مجلدات "وصف مصر" فى طريقها إلى الظهور، تلك المجلدات التى اكتسبت شهرة واسعة فى جميع أنحاء أوروبا، وساهمت إلى حد كبير فى إيقاظ الاهتمام بمصر من جديد بين الطبقات المتعلمة فى كل البلدان الأوروبية، وكان طبيعياً أن يتجه هذا الاهتمام بشكل رئيسى إلى آثار مصر القديمة التى كان كتاب "وصف مصر" بمذكراته وأطالسه الضخمة الفخمة المليئة بصور المعابد المصرية الكثيرة ونقوشها قد قام بدراسة كبيرة عنها. ومن ناحية أخرى كان علماء الدراسات اللغوية الأوروبيون قد خطوا خطوات واسعة على طريق حل رموز اللغة الهيروغليفية، وقد سجل ذلك كله بداية الاهتمام المحموم بمصر وبالآثار المصرية.

وفى مصر، كان محمد على قد تمكن من إحكام قبضته على جميع أنحاء القطر المصرى بعد أن نجح فى استئصال شأفة المماليك الذين كانوا يمثلون شوكة فى جنب الحكومة المصرية

الناشئة، وتمكن بالتالى من إخضاع جميع الأقاليم المصرية لسيطرته وإدارته المركزية ؛ مما أسهم بدوره في توفير عنصرى الاستقرار والأمن اللازمين لقيام نشاطات سياحية موسعة، لاسيما بعد أن انتهت الحروب النابليونية في أوربا وأصبح في إمكان الأوروبيين أن يقوموا مرة أخرى برحلات طويلة، كما كان محمد على من جهته يعامل الأوروبيين معاملة تتسم بالود، وكانت النتيجة أن أصبحت رحلات السياح إلى مصر أكثر سهولة وأماناً، فازداد عددها، ونشطت السياحة في وادى النيل، ولم تعد مقصورة على عددٍ محدودٍ من الأثرياء والدبلوماسيين والرحالة والمغامرين كما كانت من قبل.

كان السائحون يجوبون أنحاء القطر المصرى طولاً وعرضاً باستصدارهم من محمد على فرمانات^(١) أو تصاريح مرور تبيح لهم حرية التنقل والإقامة والطواف في جميع أرجاء البلاد، وكانت تلك التصاريح تتضمن تعليمات إلى مديري ومأموري المديريات والمراكز بضرورة توفير كل أسباب الراحة للسائحين، وتقديم الخدمات التي يطلبونها على أكمل وجه، كما كانت تحذر هؤلاء المديرين من كل ما شأنه أن يثير شكايه السائحين ضدهم.

وكان لاهتمام محمد على بتنظيم الإدارة وإحكام سيطرته على الأقاليم المصرية أثره في أن تمتع المجتمع المصرى في عهده بانتشار الأمن، وأصبح في إمكان السائحين أن يحصلوا على تصاريح مرور تبيح لهم زيارة كافة أنحاء البلاد من الإسكندرية شمالاً حتى الشلالات^(٢) ووادى حلفا^(٣) جنوباً، هذا بالإضافة إلى مناطق أخرى مثل دمياط^(٤) والفيوم^(٥)، وطور سيناء^(٦) والقصير^(٧) على ساحل البحر الأحمر، ومع امتداد الفتوحات المصرية جنوباً باتجاه السودان وشرقاً باتجاه الجزيرة العربية وبلاد الشام وبحراً باتجاه كريت أصبح في إمكان السائحين الأوروبيين أن يزوروا مناطق مثل سنار^(٨) وكردفان^(٩) ودنقلة^(١٠) وبربرة^(١١) في بلاد السودان، كما أصبح بإمكانهم زيارة بر الشام^(١٢) ومدنه مثل يافا^(١٣) وعكا^(١٤) والقدس الشريف^(١٥) وبيروت^(١٦) وطرابلس الشرق^(١٧) ودمشق^(١٨) وبلبلبك^(١٩) وحلب^(٢٠) وأنطاكية^(٢١) وجبل الدروز^(٢٢)، كما أصبح بإمكانهم أن يزوروا جزيرة كريت^(٢٣) بالإضافة إلى مدن شبه الجزيرة العربية مثل الحجاز^(٢٤) وجدة^(٢٥)، وفي ذلك يقول القنصل الرومى دوهاميل Duhamel في تقريره لئى رفعه إلى حكومته عام ١٨٣٧م/ ١٢٥٣هـ: "منذ عهد قريب ذهب بعض السائحين بل وبعض السيدات الأوروبيات لزيارة آثار بلاد العرب وتدمر، أما في السنوات الأولى من حكم محمد على فكان من الضروري إرسال حرس من خمسمائة فارس لمرافقة أمثال هؤلاء في زيارة الأهرام التي لا تبعد عن القاهرة بأكثر من ساعتين"^(٢٦).

وقد كانت تصاريح المرور هذه تمنح للسائحين من مختلف الجنسيات في سهولة ويسر، فقد منحت لسائحين من إنجلترا^(٢٧) وفرنسا^(٢٨) وألمانيا^(٢٩) وإيطاليا^(٣٠) وروسيا^(٣١) والنمسا^(٣٢) والمجر^(٣٣) والسويد^(٣٤) وهولندا^(٣٥) وأمريكا^(٣٦)، وكان من بين هؤلاء السائحين، الأمراء^(٣٧)

والقناصل^(٣٨) والأطباء^(٣٩) ورجال الدين^(٤٠) وغيرهم، كما كان من بينهم شخصيات عامة تتمتع بمركز سياسي واجتماعي وديني مرموق مثل حاكم دار الهندستان الإنجليزي^(٤١) وسفير دولة السويد بالأستانة^(٤٢) ومطران دير الإفرنج بجبل الدروز^(٤٣) ونجل القنصل الإنجليزي بطرابلس الغرب^(٤٤)، كما كان من بينهم كذلك بعض السائحات النساء. وتشير الوثائق الخاصة بالسباحة في عصر محمد علي إلى ارتفاع متزايد وملحوظ في أعداد السائحين^(٤٥) الذين يزورون مصر من سنة إلى أخرى مع تزايد الإحساس بانتشار الأمن داخل المجتمع المصري.

وقد قدمت لهؤلاء السائحين الأجانب تسهيلات كبيرة وخدمات لا حصر لها تشمل الأوامر المشددة إلى المعنيين بمساعدتهم في كل ما يلزمهم والتحذير من التعرض لهم بسوء^(٤٦)، وتوفير وسائل الانتقال اللازمة لهم براً أو بحراً^(٤٧)، وكذلك توفير الحماية الأمنية الملائمة^(٤٨)، وصرف ما يلزم لهم من نقود أثناء الطريق بالإيصالات اللازمة ثم إرسالها إلى الخزينة فيما بعد لمحاسبة قناصل دولهم بمقتضاها^(٤٩)، وكذلك عدم تفتيش أو فتح أمتعتهم بالجمارك^(٥٠) والسماح لهم برسم الآثار^(٥١)، وأخذ نسخ ونماذج جصية مقلدة منها^(٥٢)، وتجديد تصاريح مرورهم كلما أرادوا ذلك^(٥٣)، ثم معاونتهم في مجابهة ما يعترضهم أثناء سياحتهم من مشاكل وأزمات، مثل التحري عن الأشياء المسروقة منهم وإعادتها إليهم^(٥٤).

وقد فطن المؤرخ النبيه عبد الرحمن الجبرتي إلى بوادر تلك الحركة السياحية النشطة التي اجتاحت مصر خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، وعرض في كتابه لموضوع الآثار واهتمام الأجانب بها: "لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء والمستغربات، والفحص عن الجزئيات وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان والتصاوير التماثيل التي في المغارات والبرابي بالناحية القبلية وغيرها، ويطوف منهم أشخاص في مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض، ويصرفون لذلك جُملاً من المال في نفقاتهم ولوازمهم"^(٥٥).

على أن التسهيلات ذات التأثير الأخطر على قضية الآثار المصرية والتي منحها محمد علي للسائحين الأجانب فقد تمثلت في تخويلهم الحق في التنقيب عن الآثار المصرية في الأماكن التي يختارونها والاحتفاظ بما يعثرون عليه من آثار قديمة، ونقلها وتصديرها إلى الخارج، وإعطائهم التصاريح والأوامر العالية التي تعينهم على ذلك، بل إن محمد علي لم يكن يقصر هذا الحق على الأجانب السائحين فقط بل كان يمنحه كذلك للأجانب العاملين والمقيمين في مصر ولاسيما قناصل الدول الكبرى، كما منحه كذلك لعدد قليل من المصريين ممن كانوا يرغبون في التنقيب عن الآثار القديمة والتجارة فيها.

وقد بالغ محمد علي مبالغة شديدة في إعطاء هذه التصاريح التي تباع لحاملها التنقيب عن الآثار، والاستحواذ على ما يجدهونه منها، حتى شهدت السنوات الأولى من حكمه تصاعداً كبيراً على

صعيد التدمير الذى لحق بالآثار المصرية القديمة، وفي ذلك يقول الرحالة الفرنسى إدوارد دى مونتوليه Edward De Montulié الذى زار مصر عامى ١٨١٩، ١٨٢٠م (١٢٣٥، ١٢٣٦هـ) وارتحل فيها إلى الصعيد واستبشع ما يقوم به لصصوص الآثار من تخريب، وأدان تجارهم البشعة: "إذا كانت هناك مقابر أخرى سليمة فإلى أتمنى ألا يكتشفها الأثريون الفضوليون... فالتوايبت الحجرية ومن فيها سوف تشحن إلى لندن أو باريس " وقد أبدى مونتوليه أسفه لعدم وجود متحف قومى مصرى لحفظ ما يستولى عليه القناصل^(٥٦).

وهكذا أصبحت مصر خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر مسرحاً لصراع شرس بين جامعى التحف الذين كانوا ينقضون على الآثار كالجوارح مدفوعين بحب المغامرة والاكتشاف، وقبل ذلك الرغبة في الكسب المادى مما أدى إلى قيام سوق عظيمة للآثار المصرية القديمة لتلبية رغبات جامعى الآثار وحاجات المتاحف.

وقد لعب كثير من الأوروبيين المقيمين بمصر ولا سيما قناصل الدول الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والسويد الدور الأكبر في تموين هذه السوق مستغلين وضعهم الدبلوماسى وصلاتهم القوية بمن كانوا على رأس الإدارة المصرية القائمة في ذلك الوقت، وكذلك رغبة محمد علي في إرضاء الدول الأوروبية العظمى بهدف الظفر بمعاونتهم على إحداث نهضته الشاملة التى كان ينوى القيام بها في مصر، ومستغلين كذلك فساد الموظفين الحكوميين الذين كانوا لا يتورعون عن قبول الرشوة حتى وإن كان في ذلك ضياع لحقوق وممتلكات شعوبهم، وقد حفلت مذكرات نهبى ولصوص الآثار الأوائل في العصر الحديث بالعديد من وسائل التحايل والرشوة وطرق الابتزاز والسلب التى كانوا يستخدمونها في الوصول إلى أغراضهم الدينية هذه.

وتشير دراسة التصاريح الخاصة بالتنقيب عن الآثار والتى صدرت عن محمد على خلال العقود الثلاثة الأولى من حكمه إلى أنها كانت تصدر مطلقة بدون قيد أو شرط، على أنها كانت تشترط في بعض الأحيان شرطاً غامضاً مهماً يتمثل في أن يكون البحث والتنقيب " خالياً من المحذورات "^(٥٧) أو " أن يكون سالماً من المحذور "^(٥٨) أو " على أن يكون البحث بعيداً عن الجهات المحذور البحث فيها "^(٥٩) وقد فسر هذا الشرط في وثائق أخرى بأن " تكون المواضع التى يجرون الحفر فيها أبنية قديمة خربة خالية عن العمار والبنيان، وألا تكون بملك أحد، وألا يبحثوا عن الآثار القديمة يهدم المباني السليمة "^(٦٠) وبأن يكون حفرهم في محلي لا يكون تحت تصرف شخص يتضرر بذلك، ومن غير أن يهدموا بناء "^(٦١) وألا يكون الحفر في الأراضى الزراعية^(٦٢).

كما تشير دراسة تلك التصاريح إلى أنها لم تكن مقيدة بفترة زمنية محددة يلغى على صاحب التصريح بعدها إما أن يوقف حفائره أو أن يقوم بتجديد تصريحه لفترة زمنية جديدة، غير أنه يستثنى من ذلك ثلاث حالات فقط قيد تصريح التنقيب في إحداها بمدة سنة واحدة^(٦٣) وقيد في

الثانية بخمسة أشهر^(١٤)، بينما قيد في الثالثة بستة أشهر^(١٥) ولعل من نافلة القول أن نذكر بأنه لم تكن هناك اشتراطات معينة بشأن تسجيل الآثار المكتشفة، أو ترك المواقع التي تعرضت للتخريب في حالة مرضية أو ملائمة أو نحو ذلك من الشروط التي كان مجرد التفكير فيها في ذلك الوقت من جانب الحكام والمنقبين - أو بالأحرى لصوص الآثار - يعد نوعاً من الرفاهية والعبث. ومما لا شك فيه أن النصيب الأوفر من هذه التصريحات كان يمنح لقناصل الدول الأوروبية من نوات النفوذ، من أمثال برناردينو دروفيتي^(١٦) Bernardino Drovetti قنصل فرنسا وهنري سولت^(١٧) Henry Salt قنصل بريطانيا وجيوفاني أنستازي^(١٨) Giovanni Anastasy قنصل السويد والنرويج، ونتيجة لنشاط هؤلاء القناصل وعملاتهم ظهرت المجموعات المبكرة من الآثار المصرية في متاحف تورينو واللوفر ولندن وبرلين وفيينا وفلورنسا وبروكسل وغيرها من المتاحف الأوروبية، فضلاً عما أكتنته المجموعات الخاصة، وقد ساعدهم على ذلك أن أعباء العمل القنصلية في ذلك الوقت كانت قليلة وهينة، ولذلك وجد القناصل والدبلوماسيون الأجانب أن لديهم من الوقت والفراغ ما يمكنهم من الرحلة لجمع الآثار، فضلاً عن أن هؤلاء القناصل قد استفادوا كثيراً من وضعهم الدبلوماسي ومن صلاتهم بكبار المسؤولين المصريين في جمع وتكوين هذه المجموعات الأثرية الضخمة التي قاموا ببيعها بعد ذلك للمتاحف الأوروبية.

وقد خطر لهؤلاء القناصل في بادئ الأمر أن بإمكانهم أن يعملوا مجتمعين في تجارة الآثار وذلك بنظام الشراكة فيما بينهم، فقد حدث أن أصدر محمد علي أمراً في ٢٠ ربيع الأول ١٢٣٧ هـ (١٥ ديسمبر ١٨٢١ م) إلى كاشف الجيزة يقول فيه: "قد أفادنا قنصل الإنكليز المحترم الخواجة صولت أنه اتحد مع قنصل فرانتسه الخواجة دوروتي [دروفيتي] المحترم وقنصل السويد الخواجة بوكي المحترم وأدخلوا معهم من أحييتهم بعض أشخاص معلومي الأسماء، ووكلوا عن أنفسهم جميعاً القبودان المسى قاويليا^(١٩) وعينوه مأموراً لإخراج الآثار العتيقة من جوار الأهرام بالجيزة، وأنهم سيجرون الحفر في تلك الجهات بمعرفة القبودان المذكور اعتباراً من تاريخ كتابنا هذا لمدة سنة واحدة، وأن ما يجدونه من الآثار العتيقة ستوزع بينهم بموجب عقدهم، فقد صرحنا لوكلهم المذكور بالحفر في تلك الجهات والبحث عن الآثار العتيقة بشرط أن يكون ذلك خالياً من المحذور، فإذا علم هذا لديك بمنة الله تعالى ينبغي ألا تمنعوه وأن تعاونوه عند اللزوم"^(٢٠) ولكن يبدو أن هذه الحرية المفرطة التي منحها محمد علي لهؤلاء القناصل في سبيل التخريب عن الآثار والاتجار بها، بالإضافة إلى طمعهم وجشعهم ورغبتهم في الكسب المادي السريع قد أزكت في نفوس هؤلاء القناصل نار الحقد والعداوة والبغضاء، فأخذوا يتنافسون فيما بينهم - بعد أن كانوا متعاونين - للحصول على أكبر قدر من الآثار المصرية، وكانوا يلجأون في سبيل ذلك إلى الرشوة والعنف أحياناً، فتسربت بالتالي آلاف القطع الأثرية من مصر عن طريق هواة جمع الآثار وتجارها

وكل من لاهم له إلا الإثراء السريع من تجارة التحف والآثار، حيث وجد هؤلاء في البحث عن الآثار مهنة مجزية يمكن أن تصل بهم إلى الثراء الفاحش بسرعة كبيرة، فسلكوا كل السبل للوصول إلى هذه الغاية، وهكذا وقع التراث المصرى القديم في أيدي نفر من الدخلاء الأجانب الذين كانوا يستهدفون العثور على التحف في أقصر وقت وبأقل التكاليف. ولا يمكن وصف هؤلاء إلا بنهابي القبور ومخربي الآثار.

ما يهمنا أن التعاون بين هؤلاء القناصل لم يدم طويلاً، إذ أنه سرعان ما اشتد التنافس والخلاف بينهم كل منهم يحاول أن يفوز بأهم المناطق التي تبشر بالكشف عن تحف مهمة، وكثيراً ما التحم المنقبون في معارك طاحنة كان لحد السلاح درواً هاماً في حسمها. وفي ذلك يقول الإنجليزي هيوار كارتر Heward karter: "كانت هذه أجدد أيام الاستكشاف والبحث عن الآثار، كان كل شئ موجود من الجعران إلى المسلة، وإذا حدث خلاف بين الأخوة الأعداء من المستكشفين فقد كان يمكن للبلندقية أن تحسم الأمر"^(٧١) ومما لا شك فيه أن كارتر لم يتعد عنه الصواب كثيراً عندما وصف هذه الأعمال بأنها كانت أقرب إلى أعمال القرصنة منها إلى أعمال البحث والتنقيب.

وقد كان لقنصلي الدولتين الأعظم في ذلك الوقت - فرنسا وإنجلترا - اليد الطولى في مجال البحث والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة والتجارة فيها، بحيث بدا أن الصراع الإنجليزي الفرنسي قد انتقل من ميادين القتال في أوروبا إلى وادي النيل، وبدا كذلك أن هذا الصراع إنما يجري بنفس الدرجة من الشراسة والضراوة وإنما أكبر بهاء أكبر ودماء أقل.

أما القنصل الفرنسي برناردينو دروفيتي فقد ولد في بيهدمونت الإيطالية سنة ١٧٧٦م ودرس القانون وحصل على الجنسية الفرنسية قبل أن يلتحق بالجيش في فرنسا ويؤدي خدمته مرافقاً لبونايرت أثناء حملته العسكرية على مصر، وبعد انتهاء الحملة عاد دروفيتي إلى أوروبا حيث عين وهو في سن الخامسة والعشرين قاضياً عسكرياً في مدينة تورينو، وفي العام التالي عاد دروفيتي إلى مصر حيث تم تعيينه كنائب قنصل في الإسكندرية، بينما عين ماثيوديلسبس de Lesseps Mathieu والد فرديناند المحرك الأول لمشروع قناة السويس قنصلاً في القاهرة^(٧٢)، وحين اعترف الأتراك بنابليون بونايرت امبراطوراً لفرنسا، ردّ البريطانيون بدعم المماليك والمناوئين للأتراك، وانتقل دروفيتي إلى القاهرة ليخلف ماثيو ديلسبس وليعمل بدوره على دعم القوات المعارضة للمماليك والتي سرعان ما تمثلت في محمد علي، وحين سيطر محمد علي على البلاد كان دروفيتي قد تأكد له حليفاً وصديقاً، فلقد عرف ممثلو نابليون كيف يكتسبون ثقة الرجل القوي في مصر، ويقدمون له المشورة ويساعدونه بقدر إمكانهم، وقد اعترف له مواطنوه المقيمون في مصر

بالفضل في ذلك حيث يقول عنه كلوت بك: " كان عمله هذا فاتحة السباسة العاذقة التي لم تكف حكومتنا عن انتهاج سبيلها حيال محمد علي^(٧٦) .

تلك العلاقات القوية بين الحكومة في مصر وفرنسا في مطلع القرن التاسع عشر كان يتم توطيدها بين العين والأخر عن طريق تبادل الزيارات الرسمية. ففي عام (١٨٤٥م / ١٢٦١هـ) زار إبراهيم باشا ابن محمد علي باريس وخلال نفس العام قام دوق دي مونتبيينيه duc de Montpensier أصغر أبناء الملك لوى فيليب برد الزيارة، ومُنِعَ خلال زيارته وسام الجوقة الفرنسية لمحمد علي الذي أقام مأدبة عشاء للضيف الفرنسي ليلة سفره أعرب خلالها عن امتنانه الشديد لملك فرنسا وحكومته اللذين لم يتخليا إطلاقاً عن غمره بالرعاية في الأيام الصعبة كما في الأيام الهادئة^(٧٧). كما يروى أن محمد علي قد صرح ذات مرة لأحد زواره بقوله: " سواء ساعدتني فرنسا أو لم تساعدني فهذا لن يغير من امتناني لها سأظل طوال حياتي مقدراً وشاكراً لما فعلته من أجلي، وسوف أورث هذا لأبنائي، وسأوصيهم بأن يظلوا دائماً في حماية فرنسا^(٧٨) .

وهكذا صار لزاماً على محمد علي أن يقوم بتسديد ما عليه من دين للدولة التي كان جميلها بطوق عنقه، وهو الدين الذي تم تسديد أكثره بعملية أثرية، نلمح ذلك واضحاً من خلال أمره الذي أصدره في ٢٧ رمضان ١٢٤٢هـ (٢٤ أبريل ١٨٢٧م) إلى حبيب أفندي رئيس ديوان خديوى والذي يشير فيه إلى أنه: " قد عزم صديقه دوروتى قنصل جنرال فرنسا على القيام إلى فرنسا، وأنه بالنسبة للموالاة، استنسب إهداء رأسين من الخيول النجدية لابن الملك، ورأس نجدى أيضاً لصديقه المذكور، وإرسال تلك الخيول مع مئاسهم وعلايقهم إلى اسكندرية، مع إرسال جانب من الآثار القديمة الذهب على يد أحد القواصة إليه^(٧٩) . ويزيد محمد علي الأمر توضيحاً لرئيس ديوانه فيأمره " بأن يستخرج من خزانة الأمتعة الخديوية ما هو محفوظ فيها من الخواتم والأساور وما شاكل ذلك من العاديات والآثار العتيقة فيرسله كله إلى الإسكندرية مصحوباً بالسجل الخاص به " ويؤكد حبيب أفندي من جهته أنه " قد أدى مقتضى الأمر العالى المذكور " وأنه أيضاً قد " بعث بالآثار والعاديات المطلوبة وهي ست وأربعون قطعة ما بين خاتم وكسنتان وأسورة وقلادة ولوح وما أشبهها مما ورد من الإسكندرية والجيزة والصعيد^(٨٠) " كما نلمحه كذلك واضحاً من خلال الأمر الذي أصدره محمد علي إلى كتبخده بتاريخ (٧ ذو الحجة ١٢٣٦هـ / ٥ سبتمبر ١٨٢١م) والذي يؤكد فيه أنه " عرض صديقنا الخواجة دوروتى قنصل فرنسا المقيم في الإسكندرية أنه يريد نقل الأحجار الأثرية التي جمعها من إقليم المنوفية، إلا أنه نظراً لكبر حجم تلك الأحجار فليس من الممكن نقلها على المراكب النيلية، ويلتمس إعطاه عقبه بالأجر، وبما أن قبول التماس الموما إليه من لوازم الصداقة فمطلوب إعطاء الخواجة دوروتى الموجود في ذلك الطرف عقبه لنقل الآثار " ولما كانت التسهيلات الممنوحة لدوروتى ما كان ينبغي لها أن تقف عند

حدي في نظر محمد علي، فقد أمر حاكم المنوفية " بإيجاد الفلاحين بالأجرة لدفع الأحجار الأثرية المذكورة من أماكنها ووضعها في العقبة وإرسالهم لنقل الآثار " (٧٨).

وإذا كان محمد علي قد اقتنع في قرارة نفسه بأنه بهذه التسهيلات الضخمة التي منحها لدروفيتي قد وفاه حسابه، فقد بقى عليه أن يوفى فرنسا هي الأخرى حقها، ودولة مثلبا لن تقنع بأى حالٍ من الأحوال بأقل من مسألة كبيرة حتى يقال إنه - أى محمد علي - قد " أدى خدمة مقابل معروفهم وصنعهم الجميل معه "، ومع ذلك يصبر محمد علي على أنه " مهما فعلنا مع هذه الدولة لا يعادل جميلها ومراعاتها لي في السابق " (٧٩).

لم يكن دروفيتي - إذن - ممثلاً للدولة الصديقة فقط، بل كان كذلك موضع ثقة محمد علي وأمين سره، وهو الأمر الذي منحه وضعية استثنائية أفادته كثيراً في مجال التنقيب عن الآثار المصرية، فقد كان يتولى بنفسه تقديم الطلبات الخاصة بالحفر والتنقيب إلى محمد علي مما مكنه من عرقلة منافسيه في هذا المجال، في الوقت الذي حصل فيه هو وأعوانه على فرمانات تنقيب تشمل مساحات شاسعة بطول مصر وعرضها، وهو الذي شجع محمد علي على الاستعانة بالفرنسيين خاصة في مجال البحث عن الآثار المصرية القديمة (٨٠).

كان دروفيتي يمتلك ثلاث مميزات جوهرية رجحت كفته على منافسيه من القناصل المنقبين الآخرين:

١. أنه كان أقدم من منافسيه في هذا المجال في مصر مما مكنه من تثبيت أقدامه في ميدان التنقيب الأثري قبلهم.

٢. أنه كان معروفاً جيداً من قبل السلطات المحلية والأهالي الذين قدموا له مساعدات صادقة

٣. أن معاونيه من المنقبين الذين كانوا يعملون معه كانوا على درجة عالية من الكفاءة والاستعداد الدائم لتنفيذ أوامره بدقة (٨١) وكان دروفيتي قد عين وكلاء له في كل المواقع الأثرية الرئيسية بطول وادي النيل، وأمرهم بتثبيت كل محاولة للحفر بدون إذن منه، وادعى حقوقاً منفردة على كل المناطق التي زارها، ولم يكن يأبه كثيراً بالقوانين التي تقيد حركته وحركته في البحث عن الآثار، وكان يتسم بالجشع والطمع ومن ثم فقد كرهه منافسوه، حتى ليقول عنه جان لاكوثير - كاتب سيرة شامبليون -: " إن مواهبه التي استخدمها في مصر تكشف في جميع الأحوال عن شخصية غير عادية، ولو أن ضمير لم يكن دائماً على مستوى جسارته وخياله، ولكن سيظل اسمه مرتبطاً إلى الأبد ببناء الدولة المصرية على يد محمد علي والذي كان له أحد المعاونين الأجانب الأكثر استمرارية وكفاءة، ومرتبطاً أيضاً بمولد علم المصريين الذي خدمه - بخير أو بشر - ناهياً للآثار في جشع وعبقورية لا مثيل لها " (٨٢).

حصل دروفيتي على حق التنقيب في مناطق شاسعة من الأراضي المصرية، ففى تصريح واحد فقط من تصاريح الحفر العديدة التى منحها له محمد على تم تخويله حق التنقيب في مناطق الغربية والمنوفية والشرقية والبحيرة والقليوبية والجيزة دفعة واحدة، وهو ما يشمل نصف مساحة القطر المصرى تقريباً، ولم يكن يدانيه أحد من القناصل الآخرين سوى القنصل الإنجليزى سولت الذى كان يمتلك هو الآخر حق التنقيب في مناطق واسعة كذلك، ولما كان هذا الأمر مدعاة للنزاع والشقاق بين القنصلين المذكورين فقد اتفقوا فيما بينهم حسماً للنزاع والشقاق على تحديد مناطق النفوذ لكل منهما، وعقدوا لذلك اتفاقية جعلوا بمقتضاها مجرى النيل حداً فاصلاً بين مناطق النفوذ الفرنسية ومثيلتها الإنجليزية، بحيث يصبح التنقيب في الأراضي الواقعة على الضفة الشرقية من النهر حقاً خالصاً لدروفيتي وأعوانه، بينما تصبح أراضي الضفة الغربية للنهر مجالاً مباحاً لتنقيبات سولت ومن يعملون معه، ووضعوا بذلك نهاية لصراعاتهم الدائمة من أجل البحث عن الآثار القديمة "تماماً مثل الملوك الذين يريدون تدارك الأسباب التى يمكن أن تجدد منازعتهم، والقضاء عليها"^(٨٣) ولعل من العجيب أن يعقد مثل هذا الاتفاق المشين بدون تدخل من السلطات الرسمية أو حتى بدون علمها من الأساس.

كان دروفيتي يستخدم في حفائره عدداً كبيراً من الأيدي العاملة، وقد مكّنه وضعه الدبلوماسى وصلاته القوية بالإدارة المصرية القائمة من أن يوفر لهؤلاء العمال الحماية الكافية ضد تسلط المديرين والحكام، كتب دروفيتي إلى الديوان الخديوى يلتتمس منه "حماية تابعيه على أبو رواش ومحمد الأسبوطى المقيمين في قرية صاينة [صان] لحفر المباني القديمة والبحث عن الآثار " فحضر الديوان الخديوى إلى المدير المسئول عن الإقليم الذى تتبعه البلدة المذكورة " يرجوه التفضل بحمايتهما حسب طلب القنصل الموما إليه "^(٨٤). وحدث في عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٦م) أن أحد عمال دروفيتي ويدعى الحاج عبد الله كان ينقب عن العاديات في خرائب سفارة واعتقله كاشف المنطقة، فاستصدر دروفيتي على الفور أمرين عاليتين بإطلاق سراح الحاج عبد الله المذكور وإخلاء سبيله والإفراج عنه^(٨٥)، وأكثر من ذلك أن دروفيتي كان يحصل لعماله الذين يعملون له في التنقيب عن الآثار على استثناءات من القيام بأعمال السخرة والتجنيد الإجبارى، فقد أصدر محمد على أمراً إلى متصرف جرجا يقول فيه: " كان يوجد لصديقنا الخواجة دوروتى قنصل فرنسا سابقاً رجلاً يدعى حماد من فلاحى قرية قورنة، وكان يستخدمه في أشغال التفتيش على الآثار بالأجرة، ومعه ترخيص بهذا الخصوص من تجلنا صاحب العطوفة إبراهيم باشا، وآخر من تجلنا البك الدفتردار، وحيث أن المومى إليه سمع في هذه الأثناء بأنه قد تنبه على الفلاح المذكور بالذهاب إلى جهات دنقلة لاستخدامه في بعض الخدمات، فقد التمس عدم إرساله إلى خدمات خارجه بعد ما

يقوم بوظيفته المكلف بها كفلاح، وحيث إننا سمعنا له بذلك فمطلوبنا أن تنهوا على من يلزم بخصوص عدم إرسال الفلاح المذكور في الخدمات البعيدة بل يشتغل في أشغاله بقرنته^(٨٦).

وقد عاون دروفيتي في أعماله المرذولة هذه عدد من الأجانب المقيمين بمصر ممن كانوا ينقبون لحسابه، ويأتى على رأس هؤلاء مواطنه النحات المرسيلي [نسبة إلى مرسيليا] جان جاك ريفو Jean Jaques Rifaud الذى أقام في مصر أربعة عشر عاماً ركز اهتمامه فيها على الآثار القديمة، وقد نجح ريفو في اكتشاف بعض المعابد الملحقة بمعبد الكرنك، كما قدم عدة رسومات تصور مصر القديمة^(٨٧)، وقد عمل ريفو مع دروفيتي سنين طويلاً في مجال التنقيب عن الآثار القديمة، وكان منقهاً لا يعرف الكلل^(٨٨) حتى وصف بأنه "أكبر نهاب فرنسي للآثار القديمة في وادي النيل"^(٨٩) ولا غرو فإن العديد من القطع الأثرية التي تضمنتها مجموعات دروفيتي المختلفة، والتي توزعت بين متاحف العالم المتعددة تحمل علامة جان جاك ريفو وكيل دروفيتي، إذ يوجد مثلاً على جانب تمثال كبير من أحد تماثيل أبو الهول يحمل وجه أمنحتوب الثالث وموجود في متحف تورينو بإيطاليا النقش التالي: "اكتشف بمدينة طيبة عام ١٨١١م بواسطة ريفو النحات القديم الذى يعمل في خدمة دروفيتي"^(٩٠) "بل إنه ظل يقوم بتقطيع معبد الكرنك بمنهج منظم من سنة ١٨١١م حتى سنة ١٨٢٧م"^(٩١).

كان جان جاك ريفو يستخدم جيشاً من الأيدي العاملة في مواقع العمل، وكان سريع الغضب تنتابه أطوار غريبة في بعض الأحيان حتى إنه كان يضرب المصريين الذين لا يفهمون لهجة أهل البروفانس في فرنسا^(٩٢) - لهجته الأصلية - ومع ذلك كان يعتبر نفسه مدافعاً عن العمال في مواجهة جشع الأعيان والحكام المحليين، ولم يتورع ريفو - شأنه في ذلك شأن منافسيه من الإنجليز والإيطاليين وغيرهم - عن نشر قطعة حجرية منقوشة أو عن استخدام المتفجرات لانتزاع تحفة فنية^(٩٣).

ومن المنقبين الذين اشتغلوا لحساب دروفيتي كذلك الإيطالي أنطونيو ليبولو Antonio Lebolo الذى استطاع أن يعثر على عدد كبير من المومياءات التي ترجع إلى العصر البطلمي وسلمها لدروفيتي واحتفظ لنفسه بواحدة منها، وكان ليبولو من أشد المخلصين لدروفيتي في مجال الآثار القديمة، بينما كان عدواً لدوداً للقنصل البريطاني سولت وأعوانه^(٩٤).

ولم يقتصر نشاط دروفيتي في مجال الآثار القديمة على التنقيب عنها فحسب، بل إنه كان يشتري كذلك من الأهالي كل ما يقع تحت يده من الآثار بغية تحقيق ربح من التجارة فيها وقد قام الكونت دي فربان^(٩٥) de Forbin مدير المتاحف الفرنسية بزيارة منزله في الإسكندرية فأصيب بدھشة عميقة: "لقد قضيت جميع أيامي تقريباً لدى مسيو دروفيتي، وبالرغم من أنه كان قد شحن جزءاً كبيراً من مجموعته إلى ليفورنو إلا أنني شاهدت لديه مسكوكات في غاية الندرة، لقد

تم تنسيق هذه القاعة العجيبة بنظام رائع، ويمكننا أن نتعلم خلال ساعات قليلة تاريخ مصر عن طريق الآثار التي تحويها وذلك بالطريقة الأكثر امتاعاً والأكثر يقيناً^(٩٦) ويؤكد فوربان " أن العرب لا يكفون عن ملاحظته في الخان الذي يعيش فيه يحضرون له مومياوات وبرديات ومسكوكات وحتى الأحجار المنقوشة، وأنهم دائماً، ما ينصرفون وهم راضون عن السعر الذي يحدده لهم بنفسه^(٩٧)."

أنفق دروفيتي من عمره سبعة وعشرين عاماً في مهنة الآثار والتنقيب عنها، ونجح خلال تلك الفترة في تكوين ثلاث مجموعات أثرية ضخمة: أما مجموعته الأولى فقد ضمت ثمانية آلاف ومائتين وثلاثاً وعشرين قطعة أثرية من بينها حوالى مائة من التماثيل الكبيرة الحجم^(٩٨)، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من البرديات واللوحات المنقوشة والأدوات الجنائزية التي جاء معظمها من مقابر طيبة ويعود أكثرها إلى عصر الدولة الحديثة، وكان في نية دروفيتي ألا يبيع مجموعته إلا للدولة التي يمثلها في مصر، والتي كون مجموعته هذه تحت رايتها بالإلهام منها، وكان يعرب عن أمله في " أن تكون فرنسا التي يحبها بكل جوارحه منذ عشرين عاماً كوطنه هي التي تحصل على مجموعته لوضعها في متحف باريس^(٩٩) ولكن المسئولين في فرنسا ترددوا في قبول هذا العرض لعدة أسباب - وذلك على الرغم من إلحاح شامبليون الدؤوب على مواطنيه بضرورة شراء هذه المجموعة لصالح متحف اللوفر قبل أن يظفر بها أي متحف أوروبي آخر - ويأتى في مقدمة أسباب هذا الرفض أن رجال الدين الفرنسيين كانوا يعارضون بشدة شراء آثار قد تهدم مرجعية الكتاب المقدس إذا عرضت على الناس حيث ستثبت تلك الآثار أن مصر كانت موجودة ومزدهرة قبل سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد وهي السنة التي بدأ فيها الخلق تبعاً لحسابات أجراها في القرن السابع عشر جيمس أسشار كبير الأساقفة والذي كان قد استخرجها من نصوص الكتاب المقدس، وأصبحت هذه المسألة عقيدة ثابتة من العقائد اللاهوتية^(١٠٠)، وهو ما جعل السلطات الفرنسية تحجم عن شراء آثار قديمة قد تثير جدلاً عميقاً وتتسبب في إثارة المخاطر نتيجة لتعارضها مع تعاليم الكنيسة. وكانت مسألة قدم الآثار المصرية من المسائل التي كانت موضع جدلٍ حارٍ وعنيف ظلت أواره مستعرة طوال القرن التاسع عشر بين أنصار الكنيسة المتمسكين بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس من ناحية - والذين كان شامبليون يلقيهم دائماً بحزب " طافئي الأنوار " و " أصحاب القبعات السوداء " - وبين دعاة التنوير والإصلاح ومؤيدي الحركة العلمانية وأنصار العلم التطبيقي من ناحية أخرى، وقد أثرت هذه المسألة - بشكل أو بآخر - في سيرة حياة علم المصريات الوليد، بل وفي الكشف الأثري في مصر في القرن التاسع عشر بصفة عامة وهو ما سنعرض له في حينه.

أما السبب الآخر من أسباب الرفض الفرنسي لشراء مجموعة دروفيتي الأولى فقد تمثل في معارضة آدم جومار الشديدة للمشروع، ووقوفه في طريق إتمام الصفقة، ويعود ذلك إلى تخوف جومار من أن يؤدي نجاح هذه الصفقة إلى توطيد مركز شامبليون في الأوساط العلمية الفرنسية بحيث يؤهله ذلك لأن يكون مرشحاً بقوة لإدارة الجناح المصري في متحف اللوفر الذي كان مزماً إنشاؤه في ذلك الوقت، وهو المنصب الذي كان جومار يمني النفس بالحصول عليه، لأنه كان يعتقد في قرارة نفسه أنه أحق به وأولى من شامبليون، إذ كان جومار هو صاحب فكرة إقامة قاعة للآثار المصرية في متحف اللوفر تضم - إلى جانب آثار تسترد من لندن (١٠١) - نسخة من حجر رشيد ومجموعة دروفيتي هذه (١٠٢).

كانت أجواء العلاقات بين جومار وشامبليون متوترة ومسممة، فقد كان جومار الذي أنفق من عمره ثلاث سنوات في مصر، والذي جاهد من أجل نشر موسوعة "وصف مصر" العظيمة، يعتبر نفسه مسئولاً ومرجعاً في كل ما يتعلق بالشئون المصرية، وكان ينقم على شامبليون - ذلك الشاب الصغير الذي لم تطأ قدمه أرض مصر قط - ما أصابه من نجاح في مجال الدراسات المصرية القديمة، وكشف أسرار اللغة الهيروغليفية، وإذا كان شامبليون قد لقب بـ "المصري" فإن جومار كان يطلق على نفسه لقب "المصري الحقيقي" وحينما أدرك جومار أن اسم شامبليون ومجده كمكتشف يرتبط باقتناء مجموعة دروفيتي الأثرية فقد أصبح مناهضاً للعملية، وتوصل إلى اقتناع رئيس الوزراء كوريبار والملك بعدم الالتفات إليها (١٠٣).

كان دروفيتي لا يزال مُصرّاً على ألا يبيع سوى لفرنسا رغم أنه كان قد تلقى عرضاً بريطانياً وآخر ألماني، كما كان سولت يلح عليه لكي يبيع للمتحف البريطاني رغم أنه هو نفسه لم يفعل ذلك مع مجموعته الثانية، ولكن صبر دروفيتي كان قد نفذ أمام هذا التردد الفرنسي، ووصل إلى مرحلة اليأس، فاتجه إلى مواطنيه الأصليين في إيطاليا حيث اشترى منه ملك سردينيا هذه المجموعة الأثرية الضخمة المحملة بالأخطار العظمى والتي جعلت المتدينين في فرنسا يرتعدون خوفاً منها، ودفع ملك سردينيا ثمناً لهذه المجموعة أربعمائة ألف ليرة إيطالية أي ما يزيد على ثلاثة عشر ألف جنيه إنجليزي (١٠٤) بسعر الصرف السائد آنذاك وكانت هذه فاتحة الأرباح التي حققها دروفيتي من التجارة في الآثار المصرية القديمة.

شكلت مجموعة دروفيتي الأولى - والتي أطلق عليها اسم الدروفيتيانا - نواة القسم المصري في متحف مدينة تورينو (حاضرة إقليم بييمونت - سردينيا) وأصبحت زينة هذا المتحف، حيث وضعت التماثيل الضخمة في فناء المتحف لتبني بوجود كنوز أخرى عديدة في الداخل من اللوحات والتماثيل النصفية والتحف البرونزية والمسكوكات الذهبية والفضية وأوراق البردي، ولا غرو في ذلك فإن جومار نفسه وصف هذه المجموعة بأنها "أجمل ما عرف من الآثار المصرية" (١٠٥).

رغم معارضته الشديدة لشرائها، كما وصفها شامبليون بأنها "متحف متكامل يمتدنا بإحضارنا إلى فرنسا" (١٠٦) والواقع أن شامبليون قد شعر بالمرارة بسبب فشله في إقناع حكومته بشراء المجموعة، إذ ما كان ينبغي لرأى الذى قام بحل الهيروغليفية أن يستبعد في يسر، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكتب عن الملك السردى متزلفاً: "علمت اليوم أن صاحب الجلالة ملك سردينيا قد اقتناها، ولن يكون العلم قد فقدنا - إذن - ما دامت قد أصبحت من ممتلكات عاهل عمل أجداده الكثير لصالح الآداب، وبلد خدم علماء العلم خدمات جليلة" (١٠٧) وكتب كذلك: "إنه - لسوء الحظ - قد اختلعت من عاصمتنا مجموعة أثرية كان من المفروض أن تكون لها بمثابة زينة أبدية... ولو أن سخاء صاحب الجلالة ملك سردينيا احتفظ بها في تورينو ليجعل منها وديعة مشتركة لأوروبا كلها بفضل حسن استقباله للزوار" (١٠٨) وفي حقيقة الأمر فإن شامبليون كان يرمى إلى أن تدعوه الحكومة السردينية - وهو الخبير بالمصريات - لى يقوم بتصنيف هذه المجموعة ووضع دليل متحفى لها.

وجهت حكومة سردينيا - بالفعل - الدعوة إلى شامبليون لزيارة متحف تورينو وإبداء رأيه في مجموعة دروفى وتقييمها ودراستها وتبويبها وفهرستها، ووصل شامبليون إلى تورينو في ٧ يونيو ١٨٢٤م (٩ شوال ١٢٣٩هـ) حيث كانت القطع الأثرية الضخمة من المجموعة قد وصلت لتوها إلى المدينة السردينية قادمة من جنوة وهي محملة على عربات المدافع، حيث وضعت في قصر جميل: صالات رحبة، وممرات واسعة، وأسقف عالية، وحدائق بديعة وكأنها "إطار جميل للجمال" (١٠٩) وقد كان شامبليون يعترم الإقامة في المدينة الإيطالية أياماً معدودات، ولكن غزارة البرديات وكثرة التماثيل أطالت فترة إقامته به حتى الأول من شهر مارس ١٨٢٥م (١١ رجب ١٢٤٠هـ) (١١٠) ولعل من حسن الحظ أن شامبليون قد سجل لنا انطباعه حين دخل متحف تورينو لأول مرة في (٩ يونيو ١٨٢٤م / ١١ شوال ١٢٣٩هـ) وشاهد فيه مجموعة دروفى للمرة الأولى: "...لم أكن أتوقع ثراء مثل ذلك، وجدت الساحة مزينة بتماثيل ضخمة من الجرانيت الوردى والبازلت الأخضر: مجموعة ارتفاعها ثمانية أقدام تمثل آمون رع وإلى جواره الملك حورس ابن أمينوفيس الثانى من الأسرة الثامنة عشرة منحوتة نحتاً رائعاً، لم أر شيئاً بهذا الجمال أبداً، في الداخل توجد تماثيل ضخمة جداً أيضاً: تمثال رائع ضخم في حالة رائعة كما لو أنه خرج لتوه من أتليه (١١١) النحات، تمثال من قطعة واحدة ارتفاعه ستة أقدام يمثل رمسيس الأكبر جالساً على عرش بين آمون رع ونيث، عمل رائع، تمثال ضخم من البازلت الأخضر، تنفيذه مذهش، وتمثال واقف لأمينوفيس الثانى، وتمثال لبنتاح من نفس عصر الأمير، ثم مجموعة من الحجر الجيري للملك أمنحوتب وزوجته الملكة، تمثال للملك رمسيس العظيم من الحجم الطهيبى من البازلت الأخضر، رائع... ولا يعبر ذلك سوى عن جزء من المجموعة لا يزال علينا أن نفتح مانتين أو

ثلاثمائة صندوق أو لفة، ثم فرد سبعة وأربعين مخطوطاً فقط والمجموعة تضم مائة وواحداً وسبعين... إن هذه المجموعة تتخطى أى مديح ممكن " (١١٣)، والواقع أن مجموعة دروفيتى الأولى كانت سبباً رئيسياً في ثراء متحف تورينو بالتمائيل الضخمة، وهو بذلك يضارع أكبر المتاحف الأوروبية في هذا المجال.

كان حزن شامبليون على ضياع مجموعة دروفيتى هذه حزناً عظيماً، وكان كل يوم يمر عليه وهو في الدروفيتيانا يزيد من غضبه على الذين رفضوا أن تدخل هذه الكنوز متحف اللوفر " وددت لو أن أصحاب السلطة صغاراً وكباراً جاءوا ليمضوا يوماً أو يومين في متحف تورينو ليسمعوا النعوت التمجيدية التي يطلقها عليهم زوّار المجموعة من الفرنسيين، لم أجد واحداً لم يعرب عن أسفه لضياع هذه الآثار على فرنسا بسبب العقول الميكروسكوبية لعظمتنا السياسيين، إنه حفل موسيقى مستمر من الدعاء عليهم، وإنى بدورى أقوم بواجبى المقدس في توجيهه إلى العنوان الصحيح " (١١٤).

ولم يكن شامبليون هو الوحيد الذي ندد برفض الحكومة الفرنسية شراء مجموعة دروفيتى الأولى، فقد اشترك معه في ذلك دي فوربان مدير المتاحف، الذي رأى " أن الأفكار الضيقة للاقتصاد في النفقات تعتبر بمثابة وفاة الحقيقة فيما يتعلق بالثروة الوطنية " (١١٥).

تمكن دروفيتى من تكوين مجموعة أثرية ثانية كانت أقل ثراء من الأولى حيث ضمت خمسة آلاف قطعة فقط (١١٦)، ولما كانت التجربة التي خاضها أثناء بيع مجموعته الأولى قد دلّته على الطريق الذي يتحتم عليه أن يسلكه فقد توجه هذه المرة مباشرة إلى الحكومة السردينية غير أنه فوجئ برفضهم شراء هذه المجموعة، فعرضها على المسئولين الفرنسيين الذين كانوا قد تعلموا الدرس جيداً من تجربتهم الأولى فوافقوا على شرائها بمبلغ مائتين وخمسين ألف فرنك فرنسى وهو ما يعادل عشرة آلاف جنيه استرلينية (١١٧)، وكانت هذه المجموعة: " تضم مجوهرات مصرية على درجة لا تصدق من الفخامة... وبخلاف التماثيل تضم هذه المجموعة خمسين بردية مصرية وإغريقية، وخمسمائة جعران، وأواني، وثماني لوحات جنانزية " (١١٨) وقد عرضت هذه المجموعة في متحف اللوفر حيث تمت دعوة دروفيتى للحضور إلى باريس بمناسبة عرض المجموعة للجمهور في المتحف الباريسى الشهير " (١١٩)، وكما كانت فرحة شامبليون - الذى كان قد تم تعيينه أميناً للقسم المصرى في متحف شارل العاشر (اللوفر) - غامرة بهذه المجموعة. إذ وجد فيها نوعاً من التعويض عن فقدان المجموعة الأولى لصالح متحف تورينو حتى إنه كتب إلى أحد أصدقائه السردنيين في سبتمبر من عام ١٨٢٧ م (صفر ١٢٤٣ هـ) يقول له على سبيل المداعبة والإغظة: " أصبحنا كما ترى أكثر جمالاً وثراء منكم أنتم الذين كان بإمكانهم أن يكونوا الأوائل ولم يرضوا

بذلك " (١٢٠) يشير بذلك إلى رفض الحكومة السردينية شراء مجموعة دروفيتي الثانية عندما عرضها عليهم هذا الأخير.

وبخلاف هاتين المجموعتين نجح دروفيتي في تكوين مجموعة أثرية ثالثة وأخيرة كانت أقل في ثرائها من المجموعتين الأوليين، وقد بيعت هذه المجموعة الثالثة إلى متحف برلين في عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) بمبلغ ثلاثين ألف فرنك فرنسي^(١٢١) تعادل ألفاً ومائتين من الجنيهات الاسترلينية، وكان ذلك بتركية من عالم المصريات الألماني كارل ريتشارد لبيسيوس Karl Richard Lepsius.

نستنتج من ذلك أن القنصل الفرنسي برناردينو دروفيتي قد حقق من تجارته في الآثار المصرية القديمة دخلاً يزيد على أربعة وعشرين ألف جنيه استرليني، وهو مبلغ يعد ثروة بمقاييس ذلك العصر، وإن كان أسلوبه الوصولي وجشعه وشدته في التعامل مع المصريين والأوروبيين على السواء قد جعله من الشخصيات البغيضة، كما كانت وسائله هو وأعوانه في جمع الآثار والتنقيب عنها عنيفة ومخربة^(١٢٢)، وقد عاقبة القدر في أخريات حياته حيث أنهى أيامه محتجراً في مستشفى للأمراض العقلية بمدينة تورينو الإيطالية، والتي كان دروفيتي قد زودها بمجموعة آثارها المصرية الشهيرة دولياً^(١٢٣) وعلى العموم فإن المجموعات الثلاث التي باعها دروفيتي تمثل أفضل وأروع الآثار المصرية الموجودة في أوروبا بصفة عامة وفي متحف اللوفر بصفة خاصة^(١٢٤). أما القنصل البريطاني هنري سولت فقد كان كذلك من كبار مهربي الآثار المصرية في القرن التاسع عشر، فقد أشرف هذا القنصل على شحن عشرات الآلاف من القطع الأثرية المنهوبة إلى بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، وكان يقوم ببيع هذه الآثار للمتاحف، ولهواة جمع التحف وتكوين المجموعات الأثرية.

لم يتلق سولت في مسهل حياته تعليماً نظامياً، ولكنه كان في الأصل رساماً يتمتع بموهبة حقيقية كما كان مغرمًا بالشرق والاستمراق^(١٢٥). وكان سولت قد سافر في رحلة إلى أفريقيا عام ١٨١٢م (١٢١٦هـ) وأقام فترة طويلة بالجيشة، ثم زار مصر وقضى فيها بعضاً من عام ١٨٠٧م (١٢٢٢هـ) أعجب أثناءه بالآثار المصرية إعجاباً كبيراً^(١٢٦)، ويبدو أنه أخذ منذ ذلك الوقت يتطلع للعودة إلى مصر فما إن علم باعتزال القنصل البريطاني بالإسكندرية في ذلك الوقت الكولونيل ميسيت العمل الدبلوماسي لأسباب صحية عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) حتى أخذ يسعى للحصول على المنصب الذي خلا باستعفاء ميسيت، وكانت خطته لذلك أن يطوف بلندن طالباً من معارفه ذوي النفوذ أن يوصوا به لدى وزير الخارجية اللورد كاستلري، وكان من بين مسانديه ثلاثة من المهتمين بالآثار القديمة مدفوعين في ذلك بدوافع مختلفة:

الأول: هو لورد فالنسيا، أحد الأرسقراطيين الإنجليز من هواة الرحلات، وهو الذى كان سولت بصحبته أثناء رحلة أفريقيا السابقة، وكان هذا اللورد يتطلع إلى تزئين مقر الأسرة بالآثار القديمة.

الثانى: جوزيف بانكس Joseph Bnkes رئيس الجمعية الجغرافية وأحد أمناء المتحف البريطانى فى ذلك الحين، وكان بانكس يدرك تماماً أن فى وجود سولت فى مصر فرصة ثمينة للحصول على آثار مصرية قديمة لصالح المتحف البريطانى، وأن أى شئ قد يعثر عليه سولت فى وادى النيل سوف يرحب به المتحف.

الثالث: ويليام هاميلتون سكرتير اللورد إلجين وقد التقينا بهما قبل ذلك عندما أثرت مشكلة حجر رشيد بين الفرنسيين والإنجليز، وكان هاميلتون قد أصبح وكيلاً للخارجية البريطانية، ولما كان من المهتمين بالآثار القديمة فقد كان يتحرق شوقاً للعثور على حجر رشيد آخر، وكان يقول لسولت مشجعاً: "أيا كانت تكاليف المهمة فستحملها بترحيب أمة مستنيرة حريصة على أن تسبق منافسها فى متابعة أسعى مصالحي العلم والأدب" (١٣٧).

والواقع أنه بعد أن اتضحت أهمية حجر رشيد كأداة يمكن التوصل من خلالها إلى حل رموز اللغة الهيروغليفية : حدث نوع من الجنون والهوس بهذا الحجر بين البريطانيين والفرنسيين، فراحوا يتلمسون الوسائل التى يمكن أن تؤدى بهم إلى العثور على أحجار أخرى مماثلة، وكان التسابق بينهم رهيباً فى هذا المضمار، ولما كان الطرفان يعلمان جيداً أن جزءاً كبيراً من الأحجار الأثرية القديمة قد استخدم فى تشييد المساجد الإسلامية على مر العصور : فقد ركزوا اهتمامهم على البحث فى أنقاض المساجد القديمة المهجورة والمتهدمة، عسى أن يجود أحد هذه المساجد بحجر رشيد آخر يكون معوناً على حل اللغز المستعصى، ويجد فيه الفرنسيون تعويضاً عن الحجر الأول الذى أجبروا على التنازل عنه بشكلٍ مهين لصالح المتحف البريطانى، ولعل الأمر الذى أصدره محمد على إلى وكيل مجلس الإسكندرية فى ١٢ رجب ١٢٥٢ هـ (٢٣ أكتوبر ١٨٣٦ م) والذى يقرر فيه " الموافقة على هدم المصلى الكائنة بالمحمودية لخراها، والمحافظة على الحجر التاريخى " (١٣٨) له صلة مباشرة بالمسألة التى هى موضع حديثنا الآن. ولكن الذى حدث فى عام ١٨٢٧ م (١٢٤٢ هـ) كان غربياً حقاً ويدعو إلى الدهشة، فقد لاحظ البريطانيون أن حجراً من البازلت كان يشكل عتبة باب مسجدٍ متهدمٍ بالقاهرة منقوش بما يشبه الكتابة الموجودة فوق حجر رشيد، فطلبوا من محمد على السماح لهم بنزع الحجر لصالح علم المصريات، وتقدموا بالطلب وفقاً للقواعد المعتادة المتبعة من خلال القنصل العام البريطانى الذى بسط المسألة برمتها أمام أعضاء الديوان الخديوى، وكان القنصل من الكرم بحيث عرض على الأعضاء تعمير المسجد كله مقابل هذا الحجر. (١٣٩)

قام حبيب أفندي مأمور الديوان الخديوى بعرض الأمر على محمد على، وأوضح له كيف أن الإنجليز قد "أبلغوه عدة مرات بواسطة ترجمانهم أنهم يريدون قلع العتبة التحتانية لباب جامع الميرأخور الكائن داخل باب النصرى الذى يقرب باب المصطبة بالمحروسة، التى هى عبارة عن حجر أسود على جانبيه خطوط قديمة، وأخذها معهم لأنها من الآثار، وأنه نظراً لكون الجامع المذكور قديماً قد استأذنه فى هذا الشأن"^(١٣٠) وبعد يومين أصدر محمد على أمراً بعدم الموافقة على إعطاء الإنجليز هذا الحجر، "وعدم جواز ذلك"^(١٣١). وفيهم من قول مأمور الديوان أنهم "أبلغوه عدة مرات" أن الإنجليز كانوا مصرين على الاستيلاء على الحجر الأثرى، ولعل هذا ما دفع محمد على إلى أن يأمر حبيب أفندي بأن يبلغ الإنجليز "إننا مازلنا نسمح لهم بإعطاء كل حجر يجدونه فى مواضع مختلفة، فلا يصح أن نعطيهم الأحجار التى فى مباني الجوامع أيضاً"^(١٣٢) ويبدو أن دروفيتى الذى علم بموضوع الحجر قد لعب درواً فى إقناع محمد على برفض طلب الإنجليز على أساس أن السماح بترع عتبة الباب يعد نوعاً من انتهاك حرمة المسجد، وهو أمر من شأنه أن يثير غضب الأهالى. ولعل دروفيتى أراد إرجاء المسألة ريثما يجرى هو ترتيباته من أجل الحصول على الحجر لنفسه، مع أن محمد على قد تبين له أنه إذا كان قد رفض طلب البريطانيين على مثل هذا الأساس الدقيق فإنه لا يستطيع بالتالى السماح للفرنسيين بترع الحجر.

قرر دروفيتى أن الوقت قد حان لكى يبرز مواهبه ويمارس ألاعبه وحيله فى هذا الميدان، فتقدم بطلب إلى إبراهيم باشا ابن محمد على للسماح له بترع الحجر دون أن يذكر له بالطبع أن أباه قد رفض طلباً إنجليزياً مماثلاً، واستجاب إبراهيم للطلب مشتركاً فحسب أن يقال للأهالى إن محمد على هو الذى يريد الحجر لنفسه، مما قد يثير استهجاناً أقل من جانب الأهالى فى حالة مالو أخذه الأجانب، ولكن البريطانيين كانوا قد علموا بالخطأ، فتوجهوا ليلاً إلى المسجد، ونزعوا الحجر حاملين إياه فى انتصار إلى دار القنصلية البريطانية، وحدثت ضجة كبيرة، وأقنع إبراهيم أباه بضرورة تسليم الحجر للحكومة المصرية، غير أنه سرعان ما تبين أن الحجر لا يستحق كل هذه الضجة التى أثارت حوله، فقد كشف فحص الحجر أنه قد شوه إلى حدٍ أفقده قيمته العلمية، واكتفى الإنجليز بأخذ نسخ مما تبقى من نقوشه وأرسلوها إلى لندن، بينما أعادوا الحجر إلى المسجد، وانتهى الأمر بالحجر إلى باريس^(١٣٣) ولعل هذا يلقي الضوء على نماذج من بعض ألوان الفش والخداع التى اتسمت بها المناوشات والمناقصات الدولية حول الآثار المصرية على امتداد وادى النيل طوال قرن كامل من الزمان كما يوضح لك الأسباب التى حدثت بلورد هاميلتون إلى تزكية سولت لدى الخارجية البريطانية من أجل تعيينه فى وظيفة القنصل البريطانى فى مصر، وهى الوظيفة التى خلت باستعفاء ميسيت.

على أية حال فإن سولت قد استفاد من رعاية هؤلاء الثلاثة له، حيث وافق اللورد كاستلري وزير الخارجية البريطاني على إلحاقه بالوظيفة الشاغرة براتب سنوى قدره خمسون جنياً، وهكذا كان سولت إفراداً لعصر الوصاية والأرستقراطية، إذ أن وصوله إلى هذا المنصب إنما جاء بطريق غير طبيعى، ومن ثم فإن المؤرخين المحدثين لا ينظرون له دائماً بعين الرضا^(١٣٤).

وصل سولت إلى مصر عام ١٨١٦ م (١٢٣١ هـ) وكان عليه أن يرد الجميل للأصدقاء الذين أعانوه على تعيينه في منصبه، قال في رسالته الأولى للأصدقاء: " سأبعث إليكم بأثار لم ترها العيون"^(١٣٥)، ولكنه وجد عند وصوله أن شراء الأثار أصبح صعباً لأن الطلب كان قد تجاوز العرض، وهو الأمر الذى أغضب الكونت دى فوربان حتى إنه صرخ قائلاً: " المسرفون الإنجليز أيقفوا جشع الشرقيين، الأثار الصغيرة تباع بأسعار مفرطة في بلاد الشرق"^(١٣٦) وهكذا لم يعد أمام سولت إلا أن ينقب بنفسه، فالتربة المصرية كريمة ومخبية جداً مع هوة جمع الآثار القديمة، إذ يكفى أن تحرك الرمال لتجد الأشياء ذات القيمة التى تعود إلى العصور الفرعونية المختلفة، وكذلك العصور الهلنانية والرومانية، كتب سولت يوماً إلى راعيه الأرستقراطى لورد فالنسيا: " لقد اتخذت كل وسيلة ممكنة للجمع، ويسرنى أن أقول إننى كنت ناجحاً للغاية بحيث سأستطيع أن أرسل لكم شحنة من أشياء لم يسبق أن رأيتموها، غير أنه على أن أبلغكم أنى مشدوه بأفاق العمل الذى مازال ممكنأ القيام به في مصر العليا، بحيث أشعر أننى لا أستطيع أن امتنع عن تكوين مجموعة لنفسى، ولكن ثقوا أنكم ستحصلون على نصيب طيب، ورغم أن مجموعتى قد تمنع مجموعتكم من أن تصبح فردة، إلا أنكم تستطيعون أن تثقوا في حقكم في الخيار إذا تخليت عنها، وتركها لكم إذا مت"^(١٣٧) وعندما غرقت الشحنة الأولى التى أرسلها إلى أصدقائه بعث إليهم معزياً: " الآثار المصرية كثيرة"^(١٣٨).

كان من حسن حظ سولت أن دروفيتى كان قد أمر بالانتقال إلى الإسكندرية قبل وصوله بقليل، مما أتاح الفرصة لسولت لاستغلال معرفة سابقة له بمحمد على ترجع إلى زيارته السابقة لمصر بصحبه لورد فالنسيا، وسرعان ما ذكر لأصدقائه أن الأمور بينهما تسير سيئاً طيباً، وأن النفوذ الفرنسى في حالة جزر، لأن الباشا " لا يكاد يستمع إلى أى عروض أخرى غير تلك التى أمثلها، ويلجأ التجار في كل طارئة إلى وساطتى الحميدة لصالحهم، والأجانب الذين ليس لهم قنصل في مصر يطلبون باستمرار السماح لهم بالانضواء تحت رأيتنا"^(١٣٩) ورغم أن سولت كان قد تخلف عقداً كاملاً عن دروفيتى في دخول مجال تجارة الآثار إلا أنه سرعان ما لحق به، ولذلك اشتدت المنافسة بين الطرفين: دروفيتى بعلاقاته الحميمة بالسلطة والأهالى، وسولت بأمواله ونفوذه السياسى، وقد علق المستكشف الإنجليزى ريتشارد بيرتون Richard perton على ذلك فيما بعد قائلاً: " كانت أراضى النيل حينئذٍ - كما هى الآن - ميداناً للنهب، والثروات تكون بالحفر، لا

بحثاً عن الذهب وإنما عن الآثار، وأصبح ميدان الأركيولوجيا ميدان قتال بين جيشين من التراجمة والفلاحين وعمال التراحيل، أحدهما على رأسه سولت الرهيب، والآخر تحت قيادة دروفيتي^(١٤٠) وهكذا مشط الرجال القطر كله بحثاً عن مناطق الامتياز، وتجاهلاً تماماً الأصول الدبلوماسية في تعاملهما بهذا الصدد، أما بخصوص المنافسين الآخرين فقد كان من السهل عليهما تعطيلهم وإزاحتهم عن الطريق وإبطال مفعول الفرمانات التي تصدر لصالحهم، وإن المرء ليتساءل في دهشة: كيف أمكن لهذين القنصلين أن يجدا من الوقت ما يمكنهما من القيام جيداً بمهام وظائفهم الدبلوماسية، والاهتمام بشئون رعاياهم وقضاء حاجيات جالياتهم المقيمة في مصر على الرغم من تنقلاتهم الكثيرة، وتعدد رحلاتهم إلى كافة أنحاء القطر المصري سعياً وراء جمع الآثار القديمة !!! ؟.

كان سولت يمثل الدولة التي أظهرت العداوة لمحمد علي، ولما كان هذا الأخير لا يستطيع مواجهة السلطان وبريطانيا في وقت واحد فقد اجتهد في كسب ودّ هذه الدولة ذات النوايا المريبة، كما اجتهد في كسب ثقة ممثلها في مصر، ولعل الأمر الذي أصدره محمد علي في ١١ جمادى الأولى ١٢٤٥هـ (٢ أغسطس ١٨٣٨م) يلقي الضوء على السياسة التي انتهجها محمد علي إزاء هذه الدولة : فقد حدث أن تعطلت عملية تزويد الواهورات الإنجليزية بالفحم في ميناء السويس مما دفع القنصل الإنجليزي إلى رفع شكواه لمحمد علي الذي أصدر على الفور أمراً إلى كتبخدا باشا بسرعة تدراك هذه المسألة ومعالجتها مذكراً إياه بأنه " لكون تشهيل أشغال دولة الإنكليز لا تقاس بأشغال بقية الدول، بل هي أرجحها عن أشغال كما يعلم ذلك من مطالعة الأوامر السابق صبورها إلى ديوان مصر... فيلزم دقة المبادرة في إنجاز طلبات أشغال هذه الدولة أول بأول، وأحذر من إلجاء القنصل المرسوم ليشتكي مرة أخرى "^(١٤١).

ومن الواضح أن سولت قد انتفع كثيراً من الفرمانات التي كانت تفدقها عليه الإدارة المصرية بسخاء، كما لم يمجز عن توفير المال الذي يستخدمه في تأليف قلوب الأهالي وجنهم إلى جانبه في مواجهته الشرسة مع دروفيتي العنيد، وكان جوزيف بانكس يحرضه دائماً على أن يوسع من أعماله، ونتيجة لهذه المساندة من مسئول رسمي يشغل منصباً رفيعاً في المتحف البريطاني، شعر سولت بالأمان في استخدام أمواله لتنفيذ عمليات التنقيب، ولم يكن لديه شك في أنه سوف يلقي الجزاء الكافي والربح المناسب، ومن ناحيتها لم تتوان الإدارة المصرية عن مَد يد المساندة لسولت وتوفير المساعدة اللازمة له، والمطالع لأوامر محمد علي الصادرة خلال الفترة التي تولى فيها سولت منصب القنصل البريطاني في مصر يدرك ذلك جيداً، فقد حصل سولت من خلال تلك الأوامر على تسهيلات لا حدود لها فيما يتعلق بنشاطه في البحث عن الآثار القديمة ونقلها إلى الخارج، بدءاً بالسماح له بالتنقيب في "المحلات التي يتوقع وجود الآثار القديمة فيها"^(١٤٢) بطول القطر

المصري وعرضه، ثم حماية رجاله الموفدين من قبله للتنقيب عن الآثار في الجهات التي وقع اختياره عليها، ومنع الغير من التعدي عليهم^(١٤٦)، ثم مساعدته في نقل الآثار التي عثر عليها^(١٤٤)، وتوفير وسائل النقل اللازمة لتلك الآثار من المراكب وغيرها " من غير ممانعة من طرف كشاف الأقاليم وموظفي الموانئ وغيرهم في أثناء نقلها من تلك الجهات " ثم مساعدته " في مشطري الأحجار التي يجدها عند بعض العرب وفي استجلاب ما يجده من الأحجار بدون صاحب في بعض الأحيان " ثم " السماح بعدم فتح الصناديق المحتوية على الأحجار الأثنيكية التي يرسلها... من مصر إلى إسكندرية لنقلها إلى أوروبا^(١٤٧) " وأخيراً معاونته في شحن الآثار التي جمعها ووضعها في السفن المكلفة بنقلها من الموانئ المصرية إلى الخارج^(١٤٨).

كان يعمل مع سولت معاونون أجانب من جنسيات مختلفة يساعدونه في إدارة أعمال التنقيب واسعة النطاق والتي كان يقوم بها بحثاً عن الآثار المصرية القديمة، ومن هؤلاء جيوفاني كافيجليا، وهو إنجليزي من أصل إيطالي، وصفه لاکوتير بأنه " كان منقباً جسوراً وحاذقاً " ^(١٤٩) عمل فترة من الوقت لحساب سولت، ثم عمل فترة أخرى لحساب الكولونيل وايز Wyse ثم استقل عنه بعد ذلك وأخذ يعمل بمفرده، وقد تركزت تنقيبات كافيجليا وحفائره حول منطقة الأهرام وأبي الهول، حيث قام في عام ١٨١٦م (١٢٣٢هـ) باستكشاف بئر الهرم الأكبر. وأزال النفايات من داخل البئر ووصله بالغرفة الداخلية للهرم وهي غرفة الدفن^(١٥٠)، وفي ذلك يقول المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي: " وأرادوا الإطلاع على الأهرام، وأذن لهم صاحب المملكة، وذهبوا إليها ونصبوا خيمة، وأحضروا الفعلة والمساحي والغلقان، وعبروا إلى داخلها وأخرجوا منها تربة كثيرة... ونزلوا إلى الزلافة^(١٥١) ونقلوا منها تراباً كثيراً... وانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت " ^(١٥٢).

وفي نفس العام قام كافيجليا برفع الرمال التي تراكمت حول تمثال " أبو الهول " تمهيداً للكشف عنه، فحفر خندقاً حول التمثال الكبير مبتدئاً من الشمال، وقد عالج كافيجليا كثيراً من العقبات التي صادفته أثناء حفر الخندق المذكور، كما تعرضت حياته وحياة عماله للخطر بسبب السافيات التي كان يغشى منها أن تدفع الرمال إلى الخندق فتدفنهم جميعاً، ولكنه استطاع أن يبلغ قاعدة الصنم مستعيناً بكتل من الخشب يحجز بها سفى الرمال، وتمكن بذلك من أن يقيس ارتفاع الأثر من القاع حتى قمة الرأس، ولاحظ طبقة الكساء فوق الجسم والمخيلين وبقايا اللون الأحمر الذي كان ملوناً به، وقد قرر كافيجليا بسبب ما لاحظته من قيام الخطر الداهم أن يتوقف عن العمل إلى حين، فقد كان اتساع الخندق الذي يعمل فيه مع عماله عشرين قدماً في أعلاه ونحو ثلاثة أقدام فقط عند القاع، وإن كان قد عاد مرة أخرى ليضطلع بأعمال التنقيب على نطاق واسع أمام التمثال نفسه، واستخدم عدداً من العمال يتراوح بين الستين والمائة، وظل يعمل من أول مارس حتى نهاية يونيو من عام ١٨١٦م^(١٥٣) (من أول ربيع الآخر إلى نهاية شعبان ١٢٣١هـ).

وبدا كما لو كان الجبرتي قد حضر بنفسه هذه الأعمال: " وحفروا حول الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام، والتي تسميها الناس رأس أبو الهول، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ممتد كأنه راقدٌ على بطنه، رافع رأسه، وهي التي يراها الناس، وبإحدى يديه مغمي بها أنفاله عليه من الرمال، وساعده من مرفقيه ممتدان أمامه، وببينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه نقوش شبه قلم الطير^(١٥٤)، وفي داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر، رابضٌ باسطٌ ذراعيه في مقدار الكلب، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل [البريطاني] ورأيت يوم ذاك، وقبيل المرتفع من جسم أبو الهول من عند صدره إلى أعلى رأسه فكان اثنين وثلاثين ذراعاً، وهو نحو الربع من باقي جسمه، وأقاموا في هذا العمل نحواً من أربعة أشهر^(١٥٥) هذا وقد اختفى كثيرٌ من الآثار التي عثر عليها كافيجليا أثناء تنقيباته التي أجراها في منطقة الأهرام، حيث يُعثر بعضها بين متاحف العالم المختلفة، بينما اندثر البعض الآخر فقد قام متحف فينا بالنمسا باقتناء بعض هذه الآثار^(١٥٦)، كما قام كافيجليا من ناحيته ببيع أربعة من التماثيل الأسدية التي وجدها مصفوفة بانسجام إلى جانب قدمي تمثال " أبو الهول " إلى الإنجليز^(١٥٧).

بعد ذلك قرر كافيجليا أن يغير منهجه من التنقيب العلوي أو الكشف إلى التنقيب التجاري، بعد أن شعر أن هذا النوع الأخير من التنقيبات يمكن أن يجلب أشياء بالغة القيمة للعلم، كما يمكنه أن يبرز كذلك وفي نفس الوقت أثاراً قيمة وقابلة للبيع أكثر من الأهرام وبجهد أقل كثيراً وهو الأمر الذي أسخط عليه راعبيه سولت ووايز، فقد اكتشف وايز حين رجع أن العمل الذي يموله لفحص الأهرام كان يستخدم أساساً للحفر بحثاً عن المومياوات^(١٥٨)، ولما كان وايز غير معني بتحقيق ربح فقد نغم على كافيجليا هذا التصرف مع أن وايز نفسه لم يكن فوق مستوى الشبهات، فعلى الرغم من أنه كان قد وافق على أن كل ما يكتشف من آثار بمقتضى فرمان التنقيب الذي خولته له السلطات المصرية يكون ملكاً لمحمد علي : إلا أننا نجد أن وايز قد قام بإرسال لوحتين أثريتين إلى إنجلترا، وإن كانت إحداهما ترى الآن في باريس دون أن يعلم سر ذلك^(١٥٩).

أدت هذه الخلافات التي نشبت بين كافيجليا وراعييه سولت ووايز إلى أن يختار كافيجليا العمل منفرداً، حيث نجح في عام ١٨٢٠ م (١٢٣٥ هـ) في الكشف عن تمثال ضخيم لرمسيس الثاني أثناء حفائره في منطقة " ميت رهينة " وقد أهدى كافيجليا هذا التمثال إلى المتحف البريطاني ببساطة شديدة، إلا أن المتحف لم يتخذ أية محاولة لنقل هذا التمثال، إذ لم يعن به الرأي العام الإنجليزي عناية كافية^(١٦٠)، ولم يجد كافيجليا - أمام هذا الرفض من جانب المتحف البريطاني - مفرّاً من إهداء التمثال مرة أخرى إلى ملك توسكانيا، وقام كافيجليا بتكليف شامبليون -

الذى كان ملك توسكانيا أحد دعاة وممولى رحلته العلمية إلى مصر - بنقل هذا التمثال إلى الملك التوسكاني وتسليمه له، وقد وعد شامبليون بأنه سوف يتولى معه نقل التمثال إلى توسكانيا في حالة ما إذا تمكن من "تقطيعه بالمنشار" (١٦١) ولحسن الحظ أنه لم يفعل، والذي يبدو أن ضخامة التمثال وكبر حجمه وثقل وزنه الزائد عن الحد كانت أسباباً أدت إلى إحجام الأطراف المختلفة عن قبول منحة كافجيليا الثمينة، وكانت النتيجة المترتبة على ذلك أن ترك رمسيس الثاني ملقى في مكانه مدة ست وستين سنة في حفرة من الطين يهبط إليها الزائرون إذا رغبوا في إلقاء نظرة على وجه فرعون مصر العظيم الذى كان يتنسم التراب والطين بطريقة كانت كفيلة بأن تثير غضبه، وكان التمثال يفرق كل عام إبان الفيضان ولا يظهر إلا عند إنحسار المياه عنه (١٦٢)، وكانت السيدة إميلي إدواردز Amelia Edwards التى زارت موقع التمثال أثناء رحلتها إلى مصر عام ١٨٧٧ م (١٢٩٤ هـ) ولم تتمكن من رؤيته جيداً بسبب غرقه في مياه الفيضان قد ذكرت عنه أنه: "تمثال من الحجر الجيرى المعتم والمتآكل... لرمسيس الأكبر... يخص الأمة البريطانية، ولكن الحكومة الإنجليزية شديدة الاقتصاد بحيث لا تعمل على تحريكه، لذلك فهو يرقد هنا مقلوباً على وجهه، ويفرقه الفيضان مرة كل عام، ولا يظهر فقط إلا عندما تبخر البرك المتخلفة عن الفيضان، وتجف كافة التجاويف الطينية... وقد أخبرنا هؤلاء الذين جاءوا إلى التجويف، وشاهدوه من أسفل أثناء فصل الجفاف بأنه نموذج نبيل ورائع كفترة من أفضل فترات الفن المصرى" (١٦٣).

ومع كافجيليا، استعان سولت كذلك بخدمات الرحالة السويسرى جان لويس بوركهات John Lewis Burchhardt وهو من كبار المستشرقين وعلماء اللغة، أوفدته الجمعية الأفريقية في لندن إلى مصر بقصد القيام منها برحلة إلى غرب أفريقية لاستكشاف نهر النيجر الذى كان مثار جدل بين الجغرافيين في ذلك الوقت، فارتحل أولاً من لندن إلى سوريا التى أقام فيها ما يربو على السنتين أجاد خلالها اللغة العربية إجادة تامة، كما ألمَّ تماماً كاملاً بطبائع الشعوب الشرقية وبعاداتها وتقاليدها، كما حفظ شيئاً من القرآن الكريم وتفقّه في الشريعة الإسلامية، ثم وصل إلى القاهرة في الرابع من سبتمبر عام ١٨١٢ م (٢٦ شعبان ١٢٢٧ هـ) وأقام فيها منتظراً قيام قافلة منها تصطحبه إلى غرب أفريقيا وبلاد النيجر، تلك القافلة التى لم يقدر لها القيام قط خلال السنوات الخمس التى أقامها بوركهات في القاهرة منذ وصوله إليها في ٤ سبتمبر ١٨١٢ م وحتى وفاته فيها في ٤ أكتوبر ١٨١٧ م (٢٣ ذو القعدة ١٢٣٢ هـ). وخلال تلك الفترة التى أقامها بوركهات في القاهرة انتظراً للقافلة المرتقبة، قام بوركهات بالارتحال إلى مصر العليا وبلاد النوبة، وتوغل جنوباً حتى وصل إلى دنقله، ثم زار سواكن على البحر الأحمر، ونظراً لقربه من مكة فقد قرر أن يزورها ويؤدى مناسك الحج، ثم زار قبر الرسول - ﷺ - في المدينة بغية الوقوف على مزيد من المعلومات عن الدين

الإسلامي وعن شعوب المشرق، ثم عاد بعد ذلك إلى القاهرة حيث ترك كثيراً من المذكرات والرسائل الجادة عن المناطق التي زارها وارتحل إليها^(١٦١).

وصف بوركيات كثيراً من بلاد النوبة ومعابدها، بحيث إن أوصافه التي تركها لم تكن تعوزها الدقة أو ينقصها كمال التصوير^(١٦٢)، كما كان أول أوروبي في العصر الحديث يزور معبدى أبو سمبل. أما علاقته بالقنصل البريطاني سولت فقد بدأت منذ اليوم الأول لوصول القنصل المذكور إلى مصر، ولم تنته تلك العلاقة الوطيدة إلا مع خروج أنفاس بوركيات الأخيرة بعد أن كانا قد فرغا لتوهما من اتخاذ كافة التدابير اللازمة لنقل قطعة أثرية من أروع ما تم تهريبه من قطع الآثار القديمة من مصر إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وهى الرأس العظيمة لتمثال رمسيس الثانى المعروف بتمثال ممون، وقد تم ذلك بالتعاون مع رحالة آخر إيطالى سياتى ذكره بعد قليل. كذلك استخدم سولت في إدارة حفائره عدداً من اليونانيين الذين كانوا يقيمون في مصر من أمثال ياننى أثناسيو Janni Athnasio والذي تعرفه الوثائق باسم "بني أطناش" وكان قد ورد ذكره في هذه الوثائق على أنه مكلف "بالحفر في أراضى بعض المباني القديمة في الأقاليم الصعيدية للبحث عن الآثار"^(١٦٣) من طرف القنصل الإنجليزى، وأنه مطلوب حمايته وصيانته وألا يتدخل أحد في شئونه^(١٦٤)، وقد كان أثناسيو مترجماً بالقنصلية البريطانية، غير أن سولت قد استخدمه بجانب ذلك لكي يشرف على حفائره التي كان يقوم بها بحثاً عن الآثار القديمة. ومع أثناسيو استخدم سولت يونانياً آخر يدعى ترياندافيلو Triandafilo الذى كان يتولى إدارة حفائر سولت في طيبة، وقد استمر ترياندافيلو في أداء وظيفته هذه حتى وفاة القنصل البريطانى، وبعدها واصل التنقيب لحسابه الخاص، ويقول الرحالة الذين زاروا منطقة الأقصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر والتفوا بهذا اليونانى إنه كان يقيم وسط المقابر المصرية القديمة، وأنه كان يعيش على تجارة الآثار ومن غلة قطعة أرض كان يستخدم الفلاحين في زراعتها^(١٦٥)، وأنهم شاهدوا في منزلة خمس مومياوات قديمة بالإضافة إلى عدد كبير من الجعلان الأثرية وملفات من ورق البردى، وأنه كان يبيع الآثار بثمن مرتفع للغاية^(١٦٦)، ويقولون إنه قد اكتسب في التنقيب عن الآثار خبرة تؤهله لأن يحدد مكان جميع الآثار التي استخرجت من طيبة وبيعت في أوروبا منذ أربعين سنة مضت^(١٦٧).

وتشير الوثائق كذلك إلى وجود علاقة عمل في مجال التنقيب عن الآثار المصرية بين سولت وبين الفرنسى لبنان دى بلقون Linant De Bellefonds حيث تمنعه تلك الوثائق بأنه "رجل قونصل الإنكليز [المكلف] بالبحث عن آثار عتيقة"^(١٦٨).

أما الشخصية ذات التأثير الأخطر على حياة سولت العلمية وعلى نشاطه في مجال تجارة الآثار والتنقيب عنها فقد كان الرحالة الإيطالى جيوفانى باتيستا بلزوني Giovanni Battista

Belzoni (١٧٧٨-١٨٢٣ م/ ١٢٠٢-١٢٣٨ هـ) المعروف بـ "العملاق الصامت" و "فتوة السيرك" و "مارد بادوا" و "المارد محرك المعابد".

ولد بلزوني في مدينة بادوا Padova الإيطالية عام ١٧٧٨ م^(١٧٢)، وأنفق شبابه في إنجلترا يعمل في الأسواق والمسارح ممثلاً وللاعب سيرك^(١٧٣)، ولما كان بلزوني يتمتع بقوة خارقة وبنيان متين، فقد كان عروضه التي يقدمها تشتمل على فقرات في رفع الأثقال مدعمة ببعض الحيل الهيدروليكية، وكان ناجحاً في ذلك إلى حد كبير مما أكسبه خبرة واسعة في مجال حمل الأثقال واستخدام الروافع وتقنيات التوازن، وهي مهارات مفيدة دون شك لمن يرغب في السطو على المقابر^(١٧٤).

كان بلزوني يؤدي عروضه هذه متنقلاً بين البلدان المختلفة، فزار اسكتلندا وأيرلندا ومديرية ولشبونة والقسطنطينية وغيرها من البلدان، وفي ربيع عام ١٨١٥ م (١٢٣٠ هـ) قادته أقداره إلى مالطة حيث التقى هناك بوكيل لمحمد علي يدعى إسماعيل جبل طاروق وكان مكلفاً بالبحث عن المهندسين والخبراء الصالحين للمساهمة في إدخال صناعات جديدة إلى مصر أو تحديث أصاليب الزراعة التي لم تتغير منذ العصور الفرعونية، وخطر لبلزوني أن بإمكانه - مستعيناً بخبرته في مجال الروافع - أن يصمم آلة لرفع المياه يمكن إنتاجها على نطاق واسع، وتساهم في زيادة مساحة الأراضي القابلة للزراعة في وادي النيل^(١٧٥)، ويبدو أنه كان يمتلك من قوة التأثير على مستمعيه إلى حد أنه بقدوم شهر أغسطس من نفس العام كان بلزوني يقيم في القاهرة ويتلقى راتباً من محمد علي يبلغ خمسة وعشرين جنها سنوياً وذلك في مقابلة قيامه بتصميم آلة الري الجديدة^(١٧٦).

ولكن الاختراع الذي حضر بلزوني من أجله إلى مصر قد مُني عند تجربته لأول مرة بالفشل الذريع، وبذلك تبخرت آمال بلزوني في العمل كخبير في شئون الري، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفسه، وتقوده الظروف والأقدار إلى أن يتعرف على القنصل البريطاني مولت والرحالة السويسري بوركهارت، وكان بوركهارت قبل ثلاث سنوات من لقائه بلزوني قد قام بزيارته لمصر العليا - وهي الزيارة التي سبق وأن أشرنا إليها - وخلال هذه الزيارة قضى عدة أيام في طيبة حيث رأى هناك رأس تمثال ضخيم من الجرانيت يسمى تمثال "ممنون الصغير" وكان الرأس ملقى في مكان مهجور بجوار معبد يسمى "معبد ممنون" على البر الغربي للنيل، والحقيقة أن هذه الرأس كانت معروفة من قبل، فقد شاهدها علماء الحملة الفرنسية وتنبهوا لأهميتها، ووصفوها في موسوعتهم "وصف مصر" وقالوا عنها: "رأس ضخيم من الجرانيت الوردى... منحوت بإتقان نادر، كما يتميز بالدقة، وليس به أي تحطم أو شقوق، ويبدو بحالة جيدة، وربما كان السبب في ذلك أنه كان مغطى بالرمال قبل وصولنا"^(١٧٧). وأضافوا "لقد استحققت هذه القطعة أن تنقل إلى أوروبا لتعطى فكرة عن درجة الإتقان التي وصل إليها المصريون القدماء في فن قطع وصقل الجرانيت"^(١٧٨) وحاول

علماء الحملة نقلها ولكنهم لم يفلحوا، إذ لم تكن الظروف ملائمة على الإطلاق، هذا فضلاً عن ضخامة الرأس والتي كانت تزن سبعة أطنان، وترقد في رمالٍ ناعمة. كذلك سبق أن شاهدها ويليام هاميلتون أحد رعاة سولت ووصفها بأنها " أجمل وأكمل تمثال مصري يمكن رؤيته في البلاد بأمرها" (١٧٩).

وخطر لبوركهارت في ذلك الحين أن يتولى نقل الرأس، وعرض على محمد إهداءها إلى ولي عهد إنجلترا، ولكن محمد على لم ترق له الفكرة، وتساءل قائلاً: " أى ملك هذا الذى يريد أن يقتنى قطعة حجر " ويبدو أن بوركهارت قد ذكر ذلك كله أمام بلزوني الذى لم يعره اهتماماً في ذلك الوقت، ولكنه عندما تحطمت آماله في تنفيذ مشروع آلة الرى ووجد نفسه عاطلاً عن العمل اتصل ببوركهارت وعرض عليه فكرة نقل الرأس إلى إنجلترا، ورغم حماسة بوركهارت لتلك الفكرة إلا أنه لم يستطع تحمل تكاليف عملية النقل بمفرده، فعرضاً الأمر على سولت الذى وافق على الفور وصاح قائلاً: " إنها والله منحة من الرب " ولا غرو فقد كان سولت يتعجل رد الجميل لمن كانوا وراء تعيينه في وظيفته، وقطعة أثرية فريدة كهذه من شأنها أن تعلى من ذكره في الأوساط الاجتماعية الإنجليزية الراقية إن هو نجح في نقلها سالمة إلى المتحف البريطانى، وسرعان ما استصدر سولت القرمانات اللازمة، وتم الاتفاق على أن يتحمل هو وبوركهارت نفقات النقل ويهديا الرأس للمتحف البريطانى، وكان طبيعياً أن يكون بلزوني هو المسئول المنفذ لهذه العملية حيث تم تزويده بالتعليمات اللازمة والتي تتلخص في أن يقوم بإعداد المهمات اللازمة في بولاق ثم يتوجه من فورده إلى أسهوط حيث يقدم طلب الترخيص إلى إبراهيم باشا ابن محمد على، ثم عليه بعد ذلك أن يتوجه إلى طيبة حيث لا يدخر جهداً أو نفقات في نقل التمثال (١٨٠)، وتم الاتفاق على أنه: " سيتفضل السيد بلزوني بإعداد حسابات مفصلة للنفقات التي يتحملها في هذه المهمة والتي ستسدد له بسرور إلى جانب نفقاته الأخرى " كما تلقى بلزوني ألف قرش من سولت لشراء أى آثار أخرى يمكنه شراؤها في أثناء رحلته، وبطيبة الحال فإن بلزوني كان يعتقد في قرارة نفسه أنه مادام يعمل لصالح القنصل البريطانى فإن هذه الآثار سوف تشحن هي الأخرى إلى المتحف البريطانى (١٨١).

غادر بلزوني ميناء بولاق في ٣٠ يونيو ١٨١٦م (٤ شعبان ١٢٣١هـ) مصطحباً معه زوجته وتابعه ومترجماً وحارساً مسلحاً، فقد كان على وشك أن يواجه للمرة الأولى الأخطار الطبيعية والبشرية لتجارة الآثار في وادى النيل، وبعد خمسة أيام وصلوا إلى منفلوط حيث التقوا هناك بإبراهيم باشا الذى كان في طريقه إلى القاهرة مصعباً في النيل بصحبة القنصل الفرنسى دروفيتى الذى كان يزور وكلاءه في مصر العليا، ويتفاوض لشراء آثار أخرى جديدة تسهم في إثراء مجموعته، وكان معهم كثير من الآثار التي جمعوها من طيبة ورحب إبراهيم باشا ببلزوني، وأخبره

بأن عليه أن يقدم طلب الترخيص إلى محمد بك الدفتردار الذى تركه مسئولاً في أسبوط. أما دروفيتى فقد حذر سولت من أنه سوف لن يجد العمالة اللازمة لمشروعه في طيبة، وإن كان قد تنازل لبلزوني عن غطاء تابوت حجرى مصنوع من الجرانيت ملقى في مقبرة هناك، وسرعان ما اكتشف بلزوني بعد وصوله أن هذا الغطاء كان محشوراً داخل مقبرة صخرية بطيبة بشكل يصعب معه زحزحته وإخراجه من المقبرة^(١٨٢).

وفي اليوم الثانى وصل بلزوني إلى أسبوط حيث قابل الدفتردار وحصل منه على الأوامر اللازمة، ثم استأنف سيره حتى وصل إلى الأقصر، وهناك أخذ يبحث عن الرأس المطلوبة حتى وجدها، وكان عليه بعد ذلك أن يتعاون مع المسئولين المحليين والأهالى بوسيلة التعامل الوحيدة المضمونة في ذلك الوقت وهى وسيلة المال، فقدم للموظفين الحكوميين هدايا كثيرة من البن والبارود، كما منح الأهالى أجوراً مضاعفة نظير العمل معه في نقل الرأس، وتمكن بلزوني بعد مناقشات عديدة مع الأهالى والحكام من زحزحة الرأس ونقله إلى جوار شاطئ النهر مستعيناً في ذلك بما كان يتقنه من حيل وأساليب جر الأثقال ورفعها ثم بدا له قبل أن يقوم بشحن الرأس أن يستكمل رحلته جنوباً بحثاً عن الآثار، فزار أسوان والفنتين وكلابشة والدر حتى وصل إلى " أبو سمبل " حيث عزم بلزوني عن الكشف عن معبد " أبو سمبل " المردوم وفتحه، ولم يجد بلزوني أى مشقة في الحصول على التصريح اللازم لذلك من حاكم المنطقة داوود كاشف وهو أحد ثلاثة إخوة كانوا يتقاسمون حكم بلاد النوبة فيما بينهم، أما الاخران فيدعى أحدهما حسن والاخر حسين، وكان داود قد اشترط على بلزوني أن يحصل على نصف الكنوز المكتشفة مقابل موافقته على فتح المعبد، ولم يهد بلزوني أى اعتراض على ذلك، فقد كان واثقاً تماماً أن الكثر المزعوم لن يكون سوى بعض التماثيل، وقد لاحظ بلزوني أن الكاشف كان يتسلم بنفسه منه أجر العمال الذين كانوا يعملون معه ثم يستبقيه لنفسه ولا يعطى العمال منه شيئاً، ولم يتوان بلزوني من ناحيته عن نفخ الكاشف كل حين بما يتيسر من هدايا حتى يضمن معاونته له، ولا يتسبب في إعاقة العمل، وكانت هذه الهدايا في الغالب لا تخرج عن المرايا والفصوص الزجاجية التى كان أهالى النوبة يعجبون بها كثيراً^(١٨٣)، وبإياله من ثمن يخلص تباع به ثروات مصر وتراثها.

اضطر بلزوني بسبب ضيق الوقت وقلة الموارد المالية إلى إيقاف عملية كشف المعبد قبل الانتهاء منها تماماً، فقد كان عليه أن يشرف على شحن رأس ممنون التى كان قد تركها على شاطئ النهر قبل حلول موسم الفيضان، فقفل راجعاً إلى الأقصر على أمل العودة مرة أخرى إلى " أبو سمبل " ربما تسمح الظروف لاستكمال فتح المعبد، وكان قد حصل على وعدٍ من داوود كاشف بعدم السماح لأحدٍ بالاقتراب من المعبد إلى حين عودة بلزوني مرة أخرى، وفي طريق العودة عرج بلزوني على جزيرة فيله حيث شاهد هناك مجموعة مكونة من اثنتى عشرة كتلة حجرية منحوتة

ومنقوشة بعناية، بحيث إذا ضمت معاً تعطى مشهداً متكاملًا، غير أن هذه الكتل الحجرية كانت من الضخامة والثقل بحيث يستحيل عليه أن ينقلها في مركبة، فاكتمت باتخاذ الإجراءات اللازمة لحمايتها وحراستها، وترك للحاكم المسئول نقوداً وأوامر بقطعها إلى أجزاء مناسبة، وشحنها إلى الأقصر مع أول مركب قادمة، وواصل بلزوني رحلته شمالاً حتى وصل إلى الأقصر حيث فوجئ بعدم وجود مراكب، إذ كانت كلها قد حجزت للعمل في خدمة محمد علي، لكن الحظ كان مع بلزوني هذه المرة، فقد وصل أخيراً إلى الأقصر قادماً من القاهرة في طريقه إلى أسوان قارب كبير على متنه اثنان من وكلاء دروفيتي - أحدهما كان جان جاك ريفو الذي التقينا به من قبل - وما كان بلزوني ليدع هذه الفرصة تفوته فاتفق مع أصحاب القارب على العودة من أسوان إلى الأقصر ليقوما بشحن الرأس، وأن يجلبا معهما من أسوان الألواح الحجرية التي كان قد تركها في رعاية أغا أسوان، وأصر صاحب القارب على أن يتقاضيا ثلاثة آلاف قرش نظير هذه المهمة على أن يدفع نصفها مقدماً، فوافق بلزوني على ذلك (١٨٤).

وانتظاراً لعودة القارب المذكور من أسوان قام بلزوني باستغلال الوقت وتكليف عشرين رجلاً بالحفر والتنقيب عن الآثار في مكان اختاره بالكرك، حيث عثر على عدة تماثيل نادرة في حالة ممتازة نقلها أيضاً إلى الأقصر معترماً شحنتها على القارب مع الألواح الحجرية ورأس ممنون. (١٨٥)

وعندما رجع القارب الذي حجزه بلزوني من أسوان لم يكن يحمل ألواحاً حجرية، بل كان يحمل تمرًا، فقد أقتنع وكلاء دروفيتي صاحب القارب بخطورة شحن هذه القطعة الأثرية الضخمة، فعرضوا على بلزوني إعادة نقوده، ولما كان بلزوني يدرك جيداً أن الوقت ليس في صالحه (١٨٦)، فقد رفع الأمر إلى خليل بك قريب محمد علي الذي كان حاكماً على مصر العليا في ذلك الوقت، وطلب منه إجبار صاحبي القارب على احترام اتفاقهما، وتصادف أن خليل بك في ذلك الوقت كان تلقى لتوه هدية من القنصل الفرنسي دروفيتي تشمل بعضاً من السمك المملح وزيت الزيتون، وقد أثارت هذه القضية غضب الحاكم الشديد والشعور بالإمانة البالغة لتلقيه مثل هذه الهدية البسيطة التي اعتبرها لا تليق بمركزه كحاكم إقليم من ذوى قربي محمد علي باشا مصر، حتى لقد ثار غضبه على كل من هو فرنسي، وشعر بلزوني أن الأمور تجري في صالحه هذه المرة كذلك (١٨٧)، فتقدم إلى الحاكم بشكايته طالباً منه إجبار مالكي القارب على تنفيذ الاتفاق، وأتحفه بما تيسر من الهدايا، فتحول الجو لصالحه وحصل على الحكم الذي يريد، وفي اليوم التالي مباشرة أرغم أصحاب القارب على تفرغ حملتهما من التمر، مما اضطرهم لتأجير أحد المراكب بأحر باهظ لنقل التمر للوجه البحري، فكان العملية كلها لم تدر عليهم ربحاً يذكر.

استعان بلزوني في عملية شحن رأس ممنون بقوة سبع روافع بالإضافة إلى جهود مائة وثلاثين رجلاً من الأهالي، وبعد انتهاء العملية بنجاح وضع بلزوني الآثار التي كان قد اكتشفها في الكرك في

صندوق كبير، ثم بدأت رحلة العودة في ٢١ نوفمبر ١٨١٦م (أول المحرم ١٢٣٢هـ) ووصلوا إلى القاهرة بعد أربعة وعشرين يوماً ومعهم أروع الآثار التي نقلت في النيل حتى ذلك الوقت، وذلك بعد رحلة شاقة لمدة خمسة أشهر ونصف الشهر.

كانت تعليمات سولت تقضى بأن تنقل الآثار الخفيفة إلى دار القنصلية البريطانية في القاهرة، وأن تنقل رأس ممنون إلى الإسكندرية تمهيداً لشحنها إلى إنجلترا، ونفذ بلزوني ما طلب منه دون مناقشة رغم استغرابه؛ إذ كان يظن أن كل ما معه يخص المتحف البريطاني غير أن سولت بدا وكأنه يعتبرها ملكية خاصة به يتصرف فيها كيفما يشاء. وفي أوائل سنة ١٨١٧م (نهاية ١٢٣٣هـ) وصل بلزوني مع الرأس إلى رشيد، ومنها إلى الإسكندرية حيث حفظت في مخازن محمد علي باشا حتى يتسنى شحنها لإنجلترا فيما بعد^(١٨٨).

وقد سجل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه: "عجائب الآثار" عملية نقل رأس تمثال ممنون فقال: "وأحضروا [من الصعيد] أيضاً رأس صنم كبير، دفعوا في أجرة السفينة التي أحضروه فيها ستة عشر كيساً^(١٨٩) منها ثلاثمائة وعشرون ألف نصف فضة، وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها، وذلك عندهم من جملة المتاجرة في الأشياء الغربية"^(١٩٠).

تلقى بلزوني مائة جنية مكافأة له على نجاحه في نقل الرأس، فقد أعطاه كل من سولت وبوركهارت خمسة وعشرين جنياً كان متفقاً عليها من قبل، ثم أضاف إليها سولت خمسين جنياً من ماله الخاص، كما سمح لبلزوني بأن يحتفظ باثنين من التماثيل التي جلبها معه من حفائره بالكرك، بينما أرسل الباقي إلى القنصلية البريطانية^(١٩١).

عرض بلزوني على سولت مشروع رحلة أخرى إلى الصعيد لجمع الآثار وتستغرق ستة أشهر، واقتنع سولت بالمشروع، فغادر بلزوني القاهرة في ٢٠ فبراير ١٨١٧م (٣٠ ربيع الآخر ١٢٣٣هـ) وركز جهوده هذه المرة في منطقة القرنة حيث كانت توجد في غرب طيبة مغابي كثيرة فيها من المومياءات والبرديات معين لا ينضب، وكان أهل القرنة يبيعون كل ذلك إلى القناصل والسمّاح وتجار الآثار بطريقة غير شرعية وبأسعار مرتفعة للغاية، واستطاع بلزوني أن يتعامل مع هؤلاء الناس المتخصصين في السطو على المقابر، وأولى بلزوني اهتمامه للبرديات، واعترف صراحة بأنه كان يسمى "لسلب البرديات من الأهالي" بل وكثيراً ما اشترك بنفسه مع لصووص المقابر من أهل القرنة في السطو على المقابر وسلب ما فيها من البرديات، وفي إحدى المرات دخل بلزوني مقبرة من مقابر القرنة كانت مكدسة بالمومياءات القديمة: "بحثت عن مكان أرتاح فيه، ووجدت مكاناً ونجحت في الجلوس، ولكن حين حط ثقل على جسد مصرئى سحقه كأنه صندوق من الورق المقوى، وبالطبع اعتمدت على يدي لأحمل ثقله، لكنهما لم يجدا دعامة أفضل بحيث غصت كلية وسط مومياءات معطمة مع صوت تهشم العظام والخرق والصناديق الخشبية مما أثار غباراً

أبقاني بلا حراك لمدة ربع ساعة منتظراً حتى يهدأ، غير أنني لم أكن أستطيع أن اتحرك دون أن أزيد الغبار، وفي كل خطوة أخطوها كنت أسحق مومياء في مكان أو آخر... وغص حلقى برائحة المومياوات، ولم أكن أستطيع أن أمر دون أن يحك وجهي بجثة مصرية... غير أنني لم أستطع أن أتجنب أن تغطي العظام والأقدام والأذرع والرؤوس التي تسقط من أعلى" (١١٣).

حرص بلزوني في القرنه على جمع أكبر عدد من المومياوات والبرديات في أقصر وقت ممكن، فاستأجر لذلك بعض الأهالي نظير أجور منتظمة، علاوة على مكافآت إضافية لهذا الغرض، وتمكن بذلك من تحقيق نتائج مذهلة دون أن يشعر به أحد، بحيث بحلول شهر أبريل كان قد تجمع لدى بلزوني من الكنوز والآثار ما يكفي لتكوين شحنة أخرى كان من بينها التابوت الحجري الذي سبق أن أهده له القنصل الفرنسي دروفيتي في رحلته الأولى، وذلك بعد أن نجح بلزوني في تخليصه من مكانه الذي كان محشوراً فيه (١١٣).

رأى بلزوني أنه ليس هناك ما يدعو إلى البقاء في الأقصر أكثر من ذلك، فقام بتعبئة ما جمعه من آثار، ونقله إلى رصيف المرسى بالأقصر، وبنى حوله سوراً، ووضع له الحراسه اللازمة ريثما تأتي الفرصة لشحن هذه الآثار إلى القاهرة، واتخذ بلزوني طريقه صوب الجنوب قاصداً جزيرة فيله ليحضر الألواح الحجرية التي كان قد تركها في الجزيرة تحت رعاية أغا أسوان، ووجدها حيث تركها بالفعل، لكنها جميعاً كانت قد شوهت وحطمت وكتب عليها باللغة الفرنسية "عملية فاشلة" فقد حرص أعوان دروفيتي الذين منعوا نقل الألواح كما كان مقرراً على أن يضموا أنها لن تستحق النقل في المستقبل (١١٤).

قرر بلزوني أن يواصل رحلته جنوباً لكي يتم العمل الذي بدأه أثناء رحلته الأولى في "أبو مسبل لاستكمال كشف المعبد المدفون، ورغم أنه نجح هذه المرة في كشف المعبد وإزاحة الرمال عن مدخله، إلا أن المعبد كان مخيباً للآمال من ناحية حصيلته من الآثار؛ إذ لم يعثر فيه بلزوني سوى على ثلاثة تماثيل وبعض المشغولات البرونزية الصغيرة (١١٥)، فقام بلزوني بشحن هذه التماثيل إلى الأقصر لكي تنضم إلى الغنائم الأخرى التي كانت تنتظر النقل بجوار مرسى الأقصر.

بعد ذلك قفل بلزوني راجعاً صوب الشمال ووجهته هذه المرة وادي الملوك، فقد علم بلزوني أن به ثمانى عشرة مقبرة أو أكثر نجح علماء الحملة الفرنسية في اكتشاف وتسجيل إحدى عشرة مقبرة منها، كما عثروا على الثامنة عشر قبل انسحابهم من مصر مباشرة، وقرر بلزوني أن يجرب حظّه في هذا الوادي المقفر، وكان حظّه عظيماً كعادته، فقد نجح في كشف أربع مقابر في أقل من عشرة أيام (١١٦). وكان من بين تلك المقابر مقبرة رمسيس الأول، ومن الغريب أن هذه المقبرة كانت تبعد عن مقبرة توت عنخ آمون التي أخطأها بلزوني لحسن الحظ بستين متراً فقط (١١٧)، ولعل هذه هي المرة الوحيدة التي يعاند فيها الحظ صاحبتنا، وربما كان ذلك لمصلحة العلم والتاريخ.

أما أهم مكتشفات بلزوني وأروعها في منطقة وادي الملوك فقد كان مقبرة سيتي الأول والد رمسيس الثاني الفاتح المشهور، حيث عثر بلزوني في هذه المقبرة على تابوت رائع الجمال وصفه بلزوني وقال عنه إنه: "يستحق أكبر إهتمام ولا يضارعه شئ آخر في العالم، وما كانت لتخطر لنا فكرة وجوده، إنه تابوت من أرق مرمر شفاف طوله تسعة أقدام وخمس بوصات، وعرضه ثلاثة أقدام وسبع بوصات، ولا يتجاوز سمكة بوصتين، ويصبح شفافاً حين يوضع ضوء بداخله، وهو منحوت بدقة من الداخل والخارج... ولا أستطيع أن أعطى فكرة كافية عن هذا الأثر الجميل القيم، وكل ما أستطيع قوله هو أن شيئاً يضارعه لم يجلب من مصر إلى أوروبا".^(١٩٨)

والطريف أن حامد أغا حاكم طيبة عندما سمع بالكشف الجديد أسرع في كتيبة من فرسانه إلى وادي الملوك ليرى الكنوز المكتشفة ويحصل على نصيب منها، فقطع في ست وثلاثين ساعة ما يقطع عادة في يومين كاملين، وانزعج بلزوني من هذه الحملة المفاجئة، ونظر حامد أغا ورجاله إلى النقوش والرسوم التي كانت تزين المقبرة في عجلة سريعة، ثم أخذوا يفتشون في كل ركن منها تفتيشاً دقيقاً، وبعد أن أعياهم البحث صرف الأغا رجاله ثم عاد ليسأل بلزوني عن الكثر الذي حصل عليه، وحينما أخبره بلزوني بأنه قد رآه كله ردّ حامد أغا بأنه قد علم أن بلزوني قد اكتشف "ديكاً ذهبياً محشواً بالدرر واللؤلؤ" وكان الديك الذهبي جزءاً من التراث الشعبي المصري، وكاد بلزوني أن ينفجر ضاحكاً، ولكنه تمالك نفسه وطلب من الأغا أن يتأمل المناظر الرائعة المنقوشة على جدران المقبرة الخالية، فنظر الأغا إليها نظرة سريعة وقال: "هذا مكان قد يصلح للحريم، فعلى الأقل سوف تجد النسوة شيئاً ينظرن إليه"^(١٩٩) ثم انصرف وهو يكاد يتميز من الفیظ.

شعر بلزوني أن هذه المقبرة هي أهم اكتشافاته وأروعها، ويمكن لها أن تعلو من شأنه وترفع من ذكره بين الأثريين لو صاحبها الدعاية الملائمة، وحدث في هذه الأثناء أن وصل القنصل البريطاني سولت إلى طيبة بصحبة عددٍ من الأثرياء والنبلاء الإنجليز كان من بينهم ثري إنجليزي يدعى اللورد بلمور، وكان هذا اللورد يطمع في تكوين مجموعة أثرية خاصة أثناء سياحته، فعاونه بلزوني في شراء مجموعة كبيرة من المومياوات والبرديات وبعض الآثار الأخرى سرعان ما وجدت طريقها إلى إنجلترا^(٢٠٠). وببدو أن سولت قد ألمح خلال حديثه مع تلك الصفوة من رجال المجتمع الإنجليزي إلى أن بلزوني إنما يعمل كمستخدمٍ لديه، وهو الأمر الذي أغضب بلزوني كثيراً، فراح يطالب سولت بضرورة تقنين علاقة العمل التي بينهما ووضعها في إطارها الملائم عن طريق توثيقها بعقد رسمي، ومن ثم فقد وقع الرجلان اتفاقاً بدا أنه يوضح الأمور:

كان سولت ينوي أن يدفع لبلزوني راتباً شهرياً يتراوح بين ٣٠٠، ٥٠٠ قرش فضلاً عن مصروفاته، ولكن الجاح المذهل الذي حققه بلزوني، دفع سولت إلى أن يقرر منحه ١٠٠٠ قرش

شهيراً بأثر رجعى منذ مقاديرته الإسكندرية، وأن يتنازل له فضلاً عن ذلك عن أى آثار قد يستغنى مولت عنها وتكون مفيدة لبلزوني.^(٢٠١)

وأوضحت ديباجة الاتفاق أن كل طرف إنما يعمل لحسابه، ومضت مواد الاتفاق لتحدد أن سولت سيدفع لبلزوني خمسمائة جنيه خلال الاثنى عشر شهراً التالية، وأنه سيتنازل له عن تمثال رأس أسد كان موجوداً في فناء القنصلية البريطانية، وأنه تنازل لبلزوني كذلك عن غطاء التابوت الذى سبق أن أهداه إياه دروفيتي، بالإضافة إلى أى أشياء أخرى يمكنه الاستغناء عنها، وأن التابوت المرمى سيقدم إلى المتحف البريطانى خلال ثلاث سنوات من تاريخ الاتفاق بسعر عادل، ويعتبر من حق بلزوني الحصول على نصف السعر الذى يدفع مقابل هذا التابوت متجاوزاً ألفى جنيه استرلينى وفي مقابل ذلك تعهد بلزوني بالتوجه إلى طيبة وإحضار تابوتين آخرين بقيا هناك " تحت رعاية وعلى حساب هنرى سولت وليس كمستخدم لديه " ^(٢٠٢).

وتطرق الاتفاق إلى إيضاح مسألة كان بلزوني لا يعها جيداً، وهذه المسألة تتخلص في أنه " يبدو أن هناك فكرة خاطئة لدى السيد جيوفانى بلزوني بشأن الأشياء التى تجمع تحت رعاية السيد هنرى سولت وعلى حسابه في مصر العليا، إذ يعتبرها موجهة إلى المتحف البريطانى، وأنه [أى سولت] قد أوضح للسيد بلزوني أن هذه الفكرة خاطئة تماماً " ^(٢٠٣).

عاد بلزوني إلى القاهرة بصحبة التابوت المرمى الذى كان قد اكتشفه في مقبرة سبتي الأول والآثار الأخرى التى كان قد قام بتجميعها على شاطئ النيل عند مرمى الأقصر، ومكث في القاهرة بعضاً من الوقت نجح خلاله في الولوج إلى داخل الهرم الأوسط الذى كان يعتقد حتى ذلك الوقت إنه كتلة صماء ^(٢٠٤)، وبعد هذا الكشف الجديد قام بلزوني ببيع الآثار التى تخلى له عنها سولت بثمن بخس يبلغ سبعة آلاف قرش للكونت دى فوربان مدير المتاحف الفرنسية. وذلك تمهيداً للقيام برحلته الثالثة إلى طيبة، والتى قدر لها أن تكون آخر رحلاته في النيل، ولعل من المفارقات العجيبة أنه على الرغم من أن بلزوني كان بإمكانه في هذه الرحلة أن ينقب لنفسه لا غيره، وذلك بعد الوفاء بأخر تعهداته تجاه راعيه سولت طبقاً للاتفاق المبرم بينهما، إلا أن بلزوني وجد نفسه عاجزاً عن ذلك، فقد اكتشف بلزوني بعد وصوله إلى الأقصر أن شطى النهر كليهما يملأهما أعوان دروفيتي وسولت اللذين استوليا على كل حقوق التنقيب في كل المناطق الهامة هناك، ومن ثم فقد أثر بلزوني تجنب المواجهة مع أعوان القنصلين، وإن كان قد اكتفى بأن يكون لنفسه مجموعة أثرية شخصية وصفها بأنها " مجموعتى الثرية الخصوصية الصغيرة التى أفخر باحتوائها على بعض الآثار الصغيرة الممتازة " ^(٢٠٥) ويرجع نجاحه في تكوين هذه المجموعة إلى أصدقائه في القرنين الذين كانوا يؤثرونه بأثمن وأنفس ما لديهم من الآثار التى يسلبونها من المقابر، وذلك نظراً لعلاقته الوطيدة السابقة بهم.

خطر لبلزوني أن يقيم معرضاً لمقبرة سبتي الأول في إحدى العواصم الأوروبية، وفكر في أن مثل هذا المعرض سوف يحقق مطامعه في نيل الشهرة والمكانة الاجتماعية والعائد المادي في آن واحد، لذلك أهتم بلزوني بعمل نسخ شمعية لنقوش المقبرة أو بالأحرى صنع نموذج متكامل لمقبرة سبتي الأول تمهيداً لعرض هذا النموذج في لندن، وقد انتهى بلزوني من صنع هذه النماذج بنهاية صيف عام ١٨١٨ م (نهاية عام ١٢٣٣ هـ) (٢٠٦).

وقبل أن يقوم بلزوني بمغادرة مصر نهائياً قام برحلتين طويلتين أخريين: الأولى منهما كان القصد من ورائها الكشف عن موقع مدينة برنيس القديمة التي كانت في العصر القديم الميناء الجنوبي الرئيسي لمصر على ساحل البحر الأحمر فترة طويلة، كما كانت أيام البطالمة مركزاً تجارياً مزدهراً تجتمع فيه المتاجر الواردة من الجزيرة العربية والهند والخليج الفارسي. أما الرحلة الأخرى فقد قام بها بلزوني في الصحراء الغربية للكشف عن معبد جوبيتر آمون في واحة سيوة (٢٠٧).

بعد هاتين الرحلتين المضنيتين غادر جيوفاني بلزوني الديار المصرية نهائياً إلى العاصمة البريطانية لندن بعد أن قضى في مصر نحو خمس سنوات، وكان وصوله إلى لندن في آخر مارس من عام ١٨٢٠ م (جمادى الآخرة ١٢٣٥ هـ) وأعلنت جريدة لندن تايمز نبأ وصوله: "عاد الرحالة الشهير السيد بلزوني إلى أوروبا بعد غياب استمر عشر سنوات أمضى منها خمسة بالكشوف الأثرية بمصر والنوبة" (٢٠٨) كما نوهت بشأنه صحيفة كوارترلى ريفيو واسعة الانتشار، ومجدت الصحيفة انتصاراته على المنقبين الفرنسيين في وادي النيل، وكانت هذه الصحيفة قد نشرت من قبل خبر إهداء رأس ممنون إلى المتحف البريطاني قائلة إنه يمكن لهذه المؤسسة من خلال جهود سولت وبلزوني أن تصبح أغنى مستودع للآثار في العالم (٢٠٩).

وجد بلزوني أن الظروف مواتية لإصدار كتاب يعرض فيه إنجازاته في مجال الاستكشافات الأثرية في مصر، واستقر رأيه على أن يعهد بالنشر إلى واحد من أكبر الناشرين الإنجليز في القرن التاسع عشر، وكان متخصصاً في نشر أدب الرحلات، وفي نهاية عام ١٨٢٠ م (أول سنة ١٢٣٦ هـ) ظهر كتاب بلزوني في جزأين تحت عنوان مطول جداً هو: "حكايات عن الأعمال والاستكشافات الجديدة في الأهرام والمعابد والمقابر والحفائر في مصر والنوبة، ورحلة إلى ساحل البحر الأحمر للبحث عن برنيس القديمة، ورحلة أخرى إلى جوبيتر آمون" وقد لاقى هذا الكتاب فور ظهوره نجاحاً كبيراً، وطبع طبعه ثانية، كما ترجم إلى الفرنسية والإيطالية والألمانية ويقال إنه طبع ثلاث مرات في مدى سنتين (٢١٠).

أقيم معرض بلزوني في القاعة المصرية في بيكاديللي في أول مايو ١٨٢١ م (شعبان ١٢٣٦ هـ) ونجح المعرض كذلك نجاحاً ياهراً، إذ زاره يوم الافتتاح وحده " ١٩٠٠ زائر دفع كل منهم نصف جنية ثمناً لتذكرة الدخول (٢١١). وقد احتوى المعرض على نموذجين بالحجم الطبيعي لأجمل

غرفتین بمقبرة سیتی الأول ونموذج لمعبد " أبو سمبل " وقطاع متقن لهرم خفرع، كما كانت هناك آثار حقيقية تشمل تماثيل وأواني تحنيط وأوراق بردى وموميאות وتوابيت. وقد قام بلزونی - على سبيل الدعاية لمعرضه بدعوة بعض الأشخاص إلى مشاهدة فك اللفائف عن مومياء فرعونية لشاب مصري " كانت جيدة وأجزاؤها سليمة " (٢١٦) واستمر المعرض حتى عام ١٨٢٢م (١٢٣٧هـ) وبعد ذلك عرضت محتوياته بكاملها للبيع في مزاد ليشتريها من يشاء من هواة اقتناء الآثار، بعد أن كان بلزونی قد قدم عشرين قطعة أثرية منها إلى المتحف البريطاني، كما أهدى تماثيلين ليوضعاً في مجلس مدينة بادوا الإيطالية مسقط رأسه (٢١٧).

تلك كانت قصة جيوفاني باتيستا بلزونی في مصر، ومما لا شك فيه أن كل ما قام به بلزونی في أثناء إقامته في مصر في سبيل البحث عن الآثار القديمة إنما كان القصد من ورائه تحقيق الشهرة والثروة وتصيد الآثار بطريقة غير علمية وبوسائل غير مشروعة، ولم يكن يعمل للآثار ولا لأصحابها أي احترام، وكثير ما أحرق العظام وبقايا الموميאות حينما كان يعوزه الوقود، حتى لقد أجمع الأثريون على تشبيه هذا الرجل بحرياء أدمية (٢١٨)، إذ كان مغرباً لا يترك مكاناً دون أن يأتي على محتوياته، لا يهيم إلا التحف النفيسة محطماً ما عداها، حتى وصف بأنه مزيج من الجهل والغرور والاندفاع نحو الشهرة (٢١٩).

كانت أساليب بلزونی في الحفر والتنقيب مهورة وغير علمية حتى إنه كان يقوم بفتح المقابر الأثرية بواسطة (الأكباش) وهي آلة حربية قديمة كانت تدك بها الأسوار وغيرها (٢٢٠)، ولعله قد دمر بهذه الطريقة من التحف أكثر مما اكتشف، ومع ذلك فإن بلزونی لم يكن ليعدم المعجبين، فقد قال عنه هيوارد كارتز: " وعلى العموم فإن عمله كان مرضياً إلى حد كبير " (٢٢١) ويعلق جيمس بيكي على ذلك بقوله: " على أنه عندما نتذكر أن هذا العمل كان يتضمن فتح أبواب المقابر المختومة بواسطة أداة من أفلاق النخيل، وفحص شعر الموميאות للتعرف عما إذا كان حقيقياً أم تقليداً بواسطة جذبه إلى أن يخرج من اليد، أدركنا أن تعبير (على العموم) يشبه الحسنة التي تخفى الكثير من الأخطاء " (٢٢٢).

أما مواطنوه فإنهم يعتبرونه من علماء المصريات الأوائل، ويصفونه بأنه " كان ذا علم غزير وعزيمة صادقة " (٢٢٣) وليس مواطنوه فقط، بل إن مجلة " المجلة " المصرية منحتة لقب " أعظم العلماء في العاديات المصرية بلا شك " (٢٢٤) هكذا فجأة وبدون مقدمات أو إبداء أسباب، ولعل هذه من الغرائب فنحن نعلم أن بلزونی لم يكن قد تلقى في حياته كلها سوى تعليم أولي، وأنه لم يدخل مجال الكشف الأثري إلا بطريق الصدفة البحتة، وكانت مؤهلاته في ذلك لا تتعدى قوته الجسمانية وجسارته في مواجهة الأخطار، وقدرته في مجابهة المواقف الصعبة، ومهارته في استخدام الروافع وحمل الأثقال، وهذه كلها لا تفرز عالماً.

نعود إلى سولت والذي نجح بفضل مساعدة بوركهارت وبنى أثناسيو ولينان وبلزوني وغيرهم في تكوين مجموعة أثرية ضخمة كانت تملأ دار القنصلية البريطانية وفناءها، وقد كان الجبرتي شاهد عيان صدوق على ذلك النشاط الأثري الذي كان يقوم به سولت ورفاقه: "ذهبوا إلى أقصى الصعيد، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام تصاوير، ونواويس من رخام أبيض، كان بداخلها موتى بأكفانها، وأجسامها باقية بسبب الأظلية والأدهان الحافظة لها من البلى، ووجه المقبور مصور على مثال صورته التي كان عليها في حياته، وتمائيل آدمية من الحجر السماقي الأسود المنقط الذي لا يعمل فيه الحديد، جالسين على كراسي واضعين أيديهم على الركب، ويبد كل واحد منهم مفتاح^(٢٢١) بين أصابعه اليسرى، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة... وهم ستة على مثال واحد كأنما أفرغوا في قالب واحد، يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة... ولما سمعت بالصورة المذكورة ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى بكير المعروف بالساعاتي وسيدى إبراهيم المهدى^(٢٢٢) إلى بيت قنصل الإنكليز بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة التركية، وشاهدت ذلك كما ذكرته^(٢٢٣)، كذلك زار الكولونيل فيدز كلارنس - وهو ضابط بريطاني كان يحمل البريد الرسمي المرسل من حاكم الهند العام إلى إنجلترا - زار دار القنصلية البريطانية، وأدهشته التماثيل الغربية المسندة إلى الجدران حتى ظن أنه داخل المقابر، ويضيف كلارنس: "لولا أنني تذكرت أني في قدس الأقداس الخاص بواحد من ألمع وأنجح هواة الآثار"^(٢٢٤) كما يذكر الكونت دي فوربان أنه رأى سولت ورفاقه يعسكرون في خيام في منطقة وادي الملوك بطيبة للإشراف على التنقيبات التي كانت تتم بتمويل منه، ويؤكد فوربان أن سولت قد استطاع بأمواله أن يكتسب ولاء المصريين له، وأن مشاريعه وخططه في مجال التنقيب قد توجت كلها بنجاح كامل^(٢٢٥) ويروى الرحالة الإنجليزي سانت - جون Sant John أن طيبة كانت تبدو له - أثناء إقامته في مصر - مستعمرة إنجليزية أكثر مما تبدو عاصمة قديمة مقفرة^(٢٢٦)، وذلك في إشارة إلى النشاط الإنجليزي المتزايد في مجال التنقيب عن الآثار القديمة في هذه المنطقة. ونفسه سولت اعترف في رسالة له إلى أحد أصدقائه بأنه كان يقضى معظم وقته "في السطو على المقابر ودراسة النقوش البارزة"^(٢٢٧) ولا غرو فقد كان شغل سولت الشاغل هو الاستفادة من نشاطه الأثري في تغطية مصروفاته مع تحقيق فائض يمكنه من التقاعد في الوقت المناسب.

ومثله مثل دروفيتي استطاع سولت أن يكون ثلاث مجموعات أثرية كبيرة، جمع الأولى منها بفضل المساعدات القيمة التي قدمها له بلزوني، وكانت هذه المجموعة تشمل - ضمن ما تشمله من آثار - التابوت المرمرى لمقبرة ميتي الأول، وأشياء أخرى عديدة من بينها تماثيل ضخمة موجودة الآن في المتحف البريطاني، ولا يزال يرى عليها إلى الآن توقيع بلزوني الذي قام باكتشافها

ونقلها لحساب سولت^(٢٢٨). وكان سولت حريصاً على ألا يبيع مجموعته الأولى هذه سوى للمتحف البريطاني، فكتب إلى راعيه وليام هاميلتون يؤكد له أن تماثيله التي جمعها سوف تلقى الضوء على النحت المصري وستثبت تفوقه الفني على غيره " مما يبين بجلاء أن الإغريق قد استعاروا الأسس - إن لم يكن ما هو أكثر - من هذا الشعب غير العادي، وقد عد ذلك خطأ كبيراً من جانب سولت، فعلى الرغم من أن هاميلتون كان معجباً بالآثار المصرية، إلا أنه كان قد ساعد أثناء عمله سكرتيراً للورد إلجين في التفاوض بشأن مرمريات إلجين التي أثار شرائها زوبعة كبيرة في بريطانيا، لا لأنه كان من المعتقد أنها مسروقة من اليونان وإنما لأنها كانت مرتفعة الثمن للغاية حيث وصل ثمنها إلى خمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات، فكان لابد من تبرير الأموال التي أنفقت على النحت الإغريقي، وكان هاميلتون حساساً إزاء كل ما يوحى بأن هذه المنحوتات قد لا تكون فريدة، ولم يكن أمناء المتحف البريطاني على استعداد ليقبلوا أى إدعاء بأن هذه المرمريات ليست أرقى إنجاز فني بشري^(٢٢٩).

ثم ارتكب سولت خطأ آخر عندما أكد في رسالته إلى هاميلتون أن من الصعب عليه حساب قيمة مجموعته الأثرية، ولكنه أشار عرضاً إلى أن الكونت دي فوربان مدير المتاحف الفرنسية قد ضغط عليه بشدة من أجل شرائها لحساب ملك فرنسا، وأنه - أى سولت - قد رفض ما يعرف أنه ثمن مجزٍ لأنه سيؤسفه أن يرى هذه الأشياء خارج إنجلترا، وأضاف سولت أنه مستعد لقبول تقييم هاميلتون نفسه أو أى شخص آخر قد تختار الحكومة الإنجليزية لهذه المهمة. وللمساعدة في هذا التقييم أرسل سولت قائمة بالأسعار التي يظنها عادلة، وقد أغضب ذلك أمناء المتحف البريطاني بشدة حتى أنهم سموا سولت متاجراً " و " لورد إلجين " آخر^(٢٣٠). وكان سولت قد حدد مبلغ ثمانية آلاف جنيه ثمناً مقترحاً لمجموعته^(٢٣١).

أحس سولت بفداحة الأخطاء التي ارتكبتها، وأخذ يعمل على تدارك هذه الأخطاء بسرعة. فكتب في ٢٨ مايو ١٨١٩م (٢ شعبان ١٢٣٤هـ) رسالة إلى جوزيف بانكس - راعيه الثاني وأحد أمناء المتحف البريطاني - يعرض فيها مجموعته بأكملها على المتحف البريطاني دون شروط، معرباً فحسب عن أمله في أن يقوم أمناء المتحف بتعويضه عن مصروفاته وألا تغفل الحكومة خدماته. كما كتب في نفس الوقت رسالة أخرى وجهها إلى رئيس عمله في وزارة الخارجية البريطانية يبلغه فيها بعرضه السابق، ويعتذر عن قائمة التقييمات السابقة، ويشرح له محنته المالية، وقال: إنه قبل أصلاً تعيينه قنصلاً عاماً في مصر على أساس أنه سيحصل - مثل سلفه الكولونيل ميسيت - على معاش بعد تقاعده، ولكنه عرف بعد ذلك أن معاش ميسيت كان مرتبطاً بخدماته في الوطن وليس كقنصل عام، وقيل له ألا يعول على مثل هذا الأمل، وأكد سولت أنه على الرغم

مما يمكن أن يدره عليه بيع مجموعته للفرنسيين من أموال إلا أنه لا يريد إلا أن يهبها للمتحف البريطاني^(١٣٣).

بقى عرض سولت غير المشروط لكامل مجموعته على المتحف البريطاني دون رد حتى وصل إلى لندن التابوت المرمى الذى استخرج من مقبرة سبتي الأول، وقد أدى ذلك إلى دخول بلزوني طرفاً ثالثاً في هذا النزاع، وحدثت مشادات بين بلزوني والمتحف البريطاني بخصوص هذا التابوت، وأخذ بلزوني يدافع عن حقوقه مؤكداً أن من حقه حسب اتفاقه مع سولت أن يحصل على نصف أى زيادة في سعر التابوت عن ثمنه الأصلي وهو ألفا جنيه، ولدى بلزوني عرض فرنسي مؤكد بثلاثة آلاف جنيه، ومن ثم فليس من حق المتحف البريطاني الحصول على التابوت ما لم يدفع مبلغاً يعادل هذا العرض، ولكن لورد مونت مورينسي - راعي سولت الثالث - أوضح أن التابوت قد أدخل بريطانيا دون رسوم جمركية لأنه موجه إلى المجموعة الوطنية، وأنه لو بيع لفرنسا فسوف تستحق عليه رسوم ربما زادت عن الفرق بين تقييم المتحف البريطاني والثلاثة آلاف جنيه قيمة العرض الفرنسي كما أثرت مسألة أخرى أضعفت من موقف سولت وبلزوني بعض الشيء وهي أن سولت لم يكن ليحصل على التابوت لولا الوضع الخاص الذى أضفته عليه الحكومة البريطانية، وما استمده بهذه الصفة من نفوذ لدى محمد علي، ولما كان سولت قد حصل على التابوت من خلال ممارسة النفوذ البريطاني الرسمي فليس من المناسب السماح بتصديره^(١٣٤).

استمر هذا الجدل العقيم بين المتحف البريطاني من ناحية وبين سولت وبلزوني من ناحية أخرى حولين كاملين، وفي ١٠ مايو ١٨٢٢م (١٨ شعبان ١٢٣٧هـ) كتب سولت مرة أخرى إلى أمناء المتحف مكرراً عرضه غير المشروط بهبة المجموعة كلها للمتحف، وأوضح سولت أن تجميعها قد كلفه ما يصل إلى ثلاثة آلاف جنيه وأنه أنفق ميراثه عن والده في تجميعها، وليست لديه وسيلة أخرى لإعالة نفسه وأسرته وأنه يعاني المرض، وأبلغ سولت الأمناء أن مبلغ خمسة آلاف جنيه هو ثمن مناسب مقابل المجموعة والتابوت معاً، ولما كان بلزوني قد أخبر الأمناء أنه يستطيع أن يحصل على ثلاثة آلاف جنيه مقابل التابوت وحده فقد قرر الأمناء عرض ألفي جنيه مقابل المجموعة وحدها دون التابوت، وإن كان اتخاذ مثل هذا القرار قد استغرق منهم ستة أسابيع حيث قدم الأمناء عرضهم الرسمي في يناير من عام ١٨٢٣م بشراء المجموعة عدا التابوت المرمى بمبلغ ألفي جنيه، ووافق سولت على ذلك^(١٣٥). وفي فبراير من العام التالي قام مهندس معماري مشهور من لندن يدعى جون ساون John Saon بشراء التابوت بعد أن دفع فيه ألفي جنيه. حيث وضعه في قاعة أعدها له بمزله وفتحها للعرض على الجمهور ثلاثة أيام متتالية، وكان التابوت يتلألأ في ضوء الشموع الخافتة التي وضعت بداخله^(١٣٦).

استمر سولت في جمع الآثار، ونجح خلال الفترة ما بين عامي ١٨١٩م، ١٨٢٤م (١٢٣٤هـ)، ١٢٣٩هـ) في تكوين مجموعته الأثرية الثانية بمساعدة من بني أنناسيو هذه المرة وكان سولت قد اكتسب من الخبرة في مجال تسويق الآثار ما جعله يحجم عن إرسال الشحنة الأثرية إلى المتحف البريطاني هذه المرة كذلك، بل شحنتها إلى أقاربه في ليفورنو انتظاراً لما ستسفر عنه مفاوضاته مع أمناء المتحف، فإن لم تكن لديهم رغبة في الشراء فتكون لدى غيرهم بطبيعة الحال، وإن كان سولت لا يزال يتمنى في قراره نفسه أن يقوم المتحف البريطاني بشراؤها منه، فكتب إلى وكيله في لندن في ١٥ يونيو ١٨٢٥م (٢٨ شوال ١٢٤٠هـ) قائلاً: "وقد جمعت آثاراً قيمتها أربعة آلاف جنيه، ومجموعي الآن في ليفورنو أرقى مجموعة موجودة من أوراق البردي، وأفضل مجموعة من البرونزيات المصرية، وعدة لوحات من الفخار الملون، وقطع فاخرة من الذهب واليورسلين، وباختصار كل ما يمكن أن يجعل من المجموعة الموجودة في المتحف البريطاني أفضل ما في العالم من مجموعات مصرية، وأنا على استعداد لأن أقدمها فوراً إلى المتحف لو استطعت أن أحصل على معاش يبلغ مئائة جنيه [سنوياً] مثلاً، يمكنني أن أتقاعد استناداً إليه" (٣٣).

وقد يبدو هذا الكلام من جانب سولت من قبيل الدعاية لسلعته، أو من باب تحلية البضاعة كما يقولون، ولكن رأيه هذا عندما يزكيه عالم فذ ضليع في المصريات مثل جان فرانسوا شامبلون فإن كلامه لابد أن يوضع في الاعتبار، وأن يؤخذ على محمل الصدق، فقد كان شامبلون بعد فشله في إقناع حكومته بشراء مجموعة دروهيقي الأولى يتحرق شوقاً لسماع أخبار تكشف عن وصول شحنات أثرية أخرى من مصر إلى أوروبا على أمل الظفر لبلاده بواحدة منها أو أكثر، فكتب إلى أخيه الأكبر جوزيف بنبله فيه عن "خطاب وصلني من فلورنسا أفادني بوصول جمرك ليفورنو طردٌ ضخّم يضم برديات مصرية يمتلكها مسيو سولت، ويبدو أن هذه المخطوطات معروضة للبيع، سيرسلون لي عن قريب مذكرة إجمالية بما تتضمنه، غير أنني لن أحصل عليها سوى لكي تثير أعصابي لأنني على يقين من أنهم لن فعلوا شيئاً في باريس من أجل الحصول على هذه البرديات" (٣٣) ولكن شامبلون المتلهف لرؤية هذه المجموعة لم ينتظر وصول هذه المذكرة، فقرر التوجه بنفسه إلى ليفورنو ليلقى نظره فاحصة على هذه المجموعة الأثرية، وقد وضع منذ البداية أن مجموعة سولت الثانية قد بهرتة تماماً: "شاهدت مجموعة آثار مصرية رائعة ومنتقاة بعناية: بعض الموميאות، وأعمال برونزية رائعة محلاة بأسلاك من الذهب والفضة... ومشغولة بطريقة تثير الإعجاب، توجد بها كذلك تماثيل صغيرة من الذهب الخالص تنفذها جاء بأروع ما يمكن تصوره... وأخيراً أجمل البرديات الجنازية التي شاهدتها في حياتي، كما تضم المجموعة أيضاً حوالى عشرين بردية إغريقية متباينة الأحوال وبعض الأشياء الغريبة، هذه الكنوز لن تثير دهشتك إذا علمت أن هذه المجموعة ليست سوى مجموعة مسيو سولت

فنصل إنجلترا في مصر... هذه المجموعة - وهي أجمل من مجموعة دروفيتي [الأولى] فيماعدًا التماثيل الضخمة التي تنقص هنا - معروضة للبيع، ويمكن أن تحظى بها الحكومة مقابل ٢٥٠٠٠٠ فرنك وهذه تعتبر صفقة من ذهب سيكون من المضحك ومن المخجل أيضاً أن تضيع^(٢٣٨)

وعندما لا يجد شامبليون تجاوباً من حكومته نجده يصرخ قائلاً: "إنى سأمرض من شدة الشعور بالمضايقة، ومن خجلي من حكومتى التي تجد أن مجموعة آثار رائعة، مكلفة للغاية علماً بأن ثمنها هو ٢٥٠٠٠٠ فرنك في الوقت الذي تنفق فيه الحكومة الإنجليزية ٢٣٥٠٠٠ فرنك لكي تنقل آثاراً مصرياً واحداً هو مسلة الإسكندرية"^(٢٣٩).

وعلى الجانب الآخر، كان المتحف البريطاني بدوره لا يزال متردداً في قبول عرض سولت مجدداً ولكن سولت لم يكن على استعدادٍ للمساومة في هذه المرة فكتب مرة أخرى إلى وكيله قائلاً: "سيسرني للغاية أن تذهب المجموعة إلى إنجلترا ولكن كفى مساومة مع المتحف البريطاني"، ثم أخبر سولت وكيله بأن أحد الأشخاص يقوم الآن بفحص مجموعته في ليفورنو لحساب مشتري ملكي يبدو أكثر سخاء وأقل التواء من أمناء المتحف البريطاني ولم يكن هذا الشخص الذي يقوم بفحص المجموعة سوى شامبليون، ولم يكن هذا المشتري الملكي سوى ملك فرنسا الذي قرر أخيراً بناءً على ضغطٍ والحاح من شامبليون شراء المجموعة كلها لصالح متحف اللوفر. ورغم أن سولت كان يتوقع الحصول على ١٥٠٠٠٠ فرنك ثمناً لهذه المجموعة، إلا أنها بيعت في النهاية مقابل ٢٥٠٠٠٠ فرنك أى ما يعادل عشرة آلاف جنيه إسترليني مما يؤكد لك أن كلام سولت عن سخاء العاهل الفرنسي لم يكن محض خيال، وتمت مراسم إجراء الصفقة في أبريل من عام ١٨٢٦م (رمضان ١٢٤١هـ) وتقرر أن تدفع الأموال لسولت على فترة أربع سنوات^(٢٤٠)، ولعل من الغريب أن تذهب هذه المجموعة الأثرية إلى ملك فرنسا وهو الذي أنفق سولت طيلة عمره في مصر في الكيد لمثله هناك.. والذي عمل هو ويلزوني وسائر معاونيه بلا كلل على انتزاع الآثار من قبضته مما يؤكد لك أن هؤلاء القوم لا خلاق لهم.

سافر شامبليون الذي كانت تغمره السعادة لنجاح مساعيه في إقناع مليكه بشراء مجموعة سولت إلى ليفورنو لكي يشرف بنفسه على شحن المجموعة الأثرية الضخمة إلى باريس تمهيداً لوضعها في متحف اللوفر: "وضعت في الصناديق بالفعل ما هو مصنوع من البرونز وعددها ما يقرب من ثلاثمائة: إما تماثيل كبيرة أو تماثيل صغيرة أو أشكال أو حيوانات أو آنية من كافة الأنواع... إنها أجمل المصنوعات البرونزية المصرية المكتشفة... تمكنت من مشاهدة التابوت المشهور بكل روية، إنه بالفعل لرمسيس ميامون، وهو قطعة واحدة من الجرانيت الوردى... يعتبر هذا التابوت أكبر التوابيت الموجودة في أوروبا"^(٢٤١) وأضاف شامبليون إن كل يوم يمر يزيدنى

اقتناعاً أن هذه المجموعة من الآثار الجميلة كان يجب أن تؤول إلى فرنسا [وقد آلت إليها بالفعل] لتعلاً الصالات المصرية العادية في المتحف الملكي في باريس^(٢٤٦).

وبعد أن فرغ شامبليون من مهمته كتب إلى أخيه: "المجموعة كلها شحنت على ظهر (لادوراني) وملاأت أحشائها تماماً وعلى الرغم من أن الحمولة ثقيلة للغاية أكد القومندان... أن كل شيء سيصل إلى القاهرة دون مشاكل"^(٢٤٧) وعندما عاد شامبليون إلى باريس تحوط رأسه هالة النجاح الذي أحرزه بخصوص حيازة مجموعة سولت تراه يؤكد: "الجميع هنا في باريس سعيد باقتناء مجموعة ليفورنو، ولا يوجد حديث ولا أحلام لا تدور حول المتحف المصري"^(٢٤٨) ويبدو أنها كانت أيام شامبليون السعيدة فقد كافاه الملك على جهوده بأن وقع في ١٤ مايو ١٨٢٧ م (١٧ شوال ١٢٤٢ هـ) على قرار بتعيين جان فرانسوا شامبليون أميناً للجناح المصري بمتحف اللوفر^(٢٤٩).

نعود إلى سولت والنسب الذي كان القدر يغني له أمراً آخر، إذ لم يترك له فرصة التمتع بما حققه من مكاسب مادية من وراء تجارة الآثار، حيث توفي سولت بمرض معوي في أكتوبر من عام ١٨٢٧ م^(٢٥٠) (ربيع الأول ١٢٤٣ هـ) ولم يكن قد استوفى بعد ثمن مجموعته الأثرية التي باعها للفرنسيين. وإن كان قد نجح قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط، وبمعاونة بني أئنا سيو أيضاً في تكوين مجموعة أثرية ثالثة كانت أكبر من الأولى ودون الثانية حجماً، وقد شحنت هذه المجموعة الثالثة إلى لندن حيث بيعت في مزاد علني كبير عام ١٨٣٥ م (١٢٥٠/١٢٥١ هـ) أي بعد وفاة سولت بثمانية أعوام وقد ضم المزاد ألفاً ومائتين وسبعين بنداً متنوعاً تشمل العملات والميداليات والتمائيل الخشبية والحجرية والبرونزية ولفائف من مخطوطات البردي، والجمارين والحلى الذهبية والموميאות وغير ذلك، وقد بلغت حصيلة المزاد ما يقرب من سبعة آلاف ومائة وثمانية وستين جنيه^(٢٥١).

وبذلك تكون حصيلة سولت من تجارة الآثار كالتالي:

٢٠٠٠ جنيه ثمن المجموعة الأولى التي اشتراها المتحف البريطاني.

٢٠٠٠ جنيه ثمن تابوت سيقى الأول الذي اشتراه جون ساون.

١٠٠٠٠ جنيه ثمن المجموعة الثانية التي بيعت لملك فرنسا واستقرت في متحف اللوفر.

٧١٦٨ جنيه ثمن المجموعة الثالثة التي بيعت بالمزاد في لندن.

المجموع ٢١١٦٨ جنيه

وبذلك يكون سولت قد حقق خلال عمله القنصلي الذي استغرق أحد عشر عاماً استغل فيها مركزه ونفوذه في تجارة الآثار دخلاً يربو على واحد وعشرين ألفاً من الجنيهات الأسترلينية، في حين أن ميراثه الذي تركه له والده المقدام والذي استخدمه في القيام بتلك الحفائر الأثرية التي أدت

عليه هذا الريح الوفير لم يزد عن خمسة آلاف جنية إسترليني^(٢٤٨)، والعجيب أن سولت قد مات وهو لا يزال قنصلاً، فلا هو حقق ما كان يصبو إليه من معاش مرجح، ولا تمتع بالمكاسب التي حققها من تجارة الآثار، ولا نال تقدير الأوساط العلمية والأدبية رغم أن ذلك كان أملاً طوال فترة عمله الدبلوماسي.

وبالرغم من كل ذلك، نجد هناك من يقول عن سولت - كما قيل عن بلزوني من قبل - "إنه لم يكن مجرد تاجر، فقد كان يكن لمصر ولآثارها حباً قوياً وصادقاً، ويستطيع كل من يقرأ حياته أن يدرك في سر أن الدافع لإقامته بمصر لم يكن حب المال أو الرغبة في الشهرة، بلا حاجة ملحة ورغبة رومانتيكية بحثة لم يكن هناك سبيل إلى إشباعها، فقد كان كما يبدو مسحوراً بكل ما حوله، ولم يكن هناك سبيل إلى الانفكاك من هذا السحر"^(٢٤٩) كما يحدثنا بإسهاب عن حب سولت لمصر "واحساسه بالزهو والفخر لأنه قدر له أن يعيش بين هذه الآثار الخالدة فترة من الزمن، وأن يصورها ويرسمها ويكتب عنها، وأنت تحس أيضاً أنه يتخذ من هذه الآثار مأوى يخلد إليه، ويحميه من تفاهات الحياة المعاصرة ومتاعها، وقد كان هذا الإحساس الأخير إحساس كثيرين من الشعراء والكتاب الإنجليز الذين كتبوا عن مصر في هذه الفترة"^(٢٥٠) وهذا يدعونا إلى التساؤل: هل كان كل من دروفيتي وبلزوني وسولت علماء آثار؟ وهل كانوا حقاً يعملون من أجل خدمة العلوم كما يعتقد بعضهم؟ بالطبع لم يكونوا كذلك بل كانوا تجاراً، لأنهم عندما أحسوا بأنهم قد جمعوا مقداراً كافياً من الآثار القديمة سارعوا ببيع مجموعاتهم الأثرية للمتاحف الكبرى في أوروبا بعد أن ضمنوا لأنفسهم ربحاً معقولاً، ولعل من الغريب أن كلا منهم قد أثرى المتاحف المنافسة لمتحف وطنه الأصلي، فبلزوني الإيطالي صاحب الفضل الأكبر في جمع الآثار التي تكون حالياً نواة قسم الآثار المصرية بالمتحف البريطاني، ودروفيتي الذي كان يبدو مدافعاً عن مصالح فرنسا باع مجموعته الأولى لمتحف تورينو الإيطالي، وهي التي قام عليها المتحف المذكور، كما باع مجموعته الثالثة لمتحف برلين الألماني، وكثير من مقتنيات سولت الإنجليزى موجودة حالياً في متحف اللوفر وكما يقول عنهم بريان فاجان: "جميعهم جروا وراء الشهرة والريح وذبيوع الصيت، وكلهم حققوا ولو بعض ما كان يصبو إليه، فكلهم خرج رابحاً بشكل أو بآخر، لكن الخاسر الوحيد كان علم المصريات"^(٢٥١) ولنضرب لك مثلاً لما كان يقوم به رجال الآثار هؤلاء من ممارسات من شأنها أن تؤدي إلى عرقلة المحاولات الجادة التي كانت تهدف إلى دراسة الآثار المصرية القديمة التي كانوا ينقلونها إلى أوروبا دراسة علمية دقيقة، فقد حدث في خريف عام ١٨٢١م (بداية عام ١٢٣٧هـ) أن كان عالم المصريات البريطاني توماس يونج في طريقه من إنجلترا إلى روما وتناهبوا حين وقع على مجموعة الآثار التي بعث بها دروفيتي إلى ليفورنو. وعندما طلب السماح له بإلقاء نظره عليها لاحظ أن من بينها حجراً يحمل آثار كتابات بكل من الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية،

وإذ أدرك يونج أهمية ما يبدو أنه حجر رشيد ثان فقد طلب من وكلاء دروفيتي السماح له بنسخ الحجر وعرض يونج على الوكلاء أن يدفع أجر فنان يقوم بعمل نسختين من الحجر، على أن تكون النسختان ملكاً لدروفيتي، وببقيا مع الوكلاء إلى أن يقرر دروفيتي ما إذا كان يريد بيع الحجر أو لا يريد ولن وبأى سعر، بل عرض يونج أن يبقى النسختين في مجموعة دروفيتي بشرط واحد وهو أنه إذا أرسل الحجر بحراً بعيداً عن ليفورنو يجب أن تبقى النسختان في ليفورنو إلى أن يصل الحجر سالماً إلى غايته، وبالطبع كان هذا عرضاً سخياً، لكن وكلاء دروفيتي لم يكونوا يستطيعون الموافقة دون إذن منه، وحين عرف دروفيتي بأهمية الحجر، رفض المخاطرة بتخفيض قيمته التجارية بالسماح بنسخه^(٢٥٦)، وهذا يدل على طبيعة هؤلاء القوم الذين كانوا لا يعرفون مبادئ ولا مثلاً، بل كان الدرهم والدينار هو دينهم والكسب والربح هو معتقدهم.

كان لنجاح القنصلين البريطانيين والفرنسي في عمليات نهب الآثار المصرية، وما حققه لهما هذا النهب من ثراء فاحش أكبر الأثر في إغراء قناصل الدول الأوروبية الأخرى على أن ينتهجوا نفس هذا المنهج، إذا أصبح كل من دروفيتي وسولت مثلاً يحتذيه قناصل السويد وبروسيا والنمسا وسردينيا وغيرهم من القناصل.

أما القنصل السويدي جيوفاني أنستازي فهو من أصل أرمني، وفد إلى مصر قادماً من سوريا وأقام بالإسكندرية، وعمل قنصلاً فخرياً للسويد والترويج لمدة طويلة تصل إلى تسعة وعشرين عاماً^(٢٥٧)، وكان تاجراً كبيراً إلى حد أنه من بين كل اثنتي عشرة باخرة تغادر الإسكندرية كان من بينها على الأقل ست تابعة له^(٢٥٨)، وكان يحظى بثقة محمد علي، كما كان يتمتع كذلك بثقة وزيره بوغوص بك، ولعل ذلك هو الذي شجعه على الانغماس في تجارة الآثار المشبوهة رغم ثرائه الفاحش، وقد عمل أنستازي في هذه التجارة منفرداً في أول الأمر، ثم بدا له بعد ذلك أن بإمكانه أن يحقق إنجازاً أفضل في هذا المجال إن هو اتحد مع مواطنه بوغوص بك، ولم لا ؟ فهو أرمني مثله، وبإمكانهما - إن اتفقا معاً - أن يكونا تشكيلاً عصابياً خطيراً للتنقيب عن الآثار المصرية وتهريبها إلى الخارج، هذا بأمواله وذاك بسطوته ونفوذه، وقد عملا مع بعضهما بالفعل لفترة من الوقت خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر، حيث نجد أمراً أصدره محمد علي في ٢٧ رمضان ١٢٣٧ هـ (١٧ يونيو ١٨٢٢ م) يقضى " بالتصريح لقنصل السويد بالإسكندرية والخواجة بغوص بك بالحفر في المحال التي يأملون فيها أثاراً عتيقة على ألا يمنهم عن ذلك أحد "^(٢٥٩) كما نجد أمراً آخر صدر في ٢٠ صفر من نفس العام (١٦ نوفمبر ١٨٢١ م) وينص على أنه " سبق أن أصدرنا أمراً بعدم التعرض للمواضع التي حفرها رجال صديقنا الخواجة انتسازي وكيل قنصل السويد وترجماننا الخواصة بغوص بجوار قرية سفارة التابعة للجزيرة بالاشتراك مع بعضهما ولا للآثار التي وجدوها، وسلمناه إلهم، فمطلوبنا إنفاذ ذلك الأمر وإجراؤه "^(٢٦٠).

ولا تختلف التسهيلات والامتيازات الممنوحة للقنصل أنستازى، لا تختلف كثيراً عن التسهيلات التى منحت لزميليه القنصلين الفرنسى والبريطانى دروفيتى وسولت، حيث شملت تلك الامتيازات منحه حق البحث والتنقيب فى مناطق شاسعة، فقد منح مثلاً حق التنقيب فى إقليم البحيرة والمنوفية والجيزة فى تصريح واحد^(٢٥٧)، كما أذن له " بإجراء حفري لتحري الآثار فى الأقاليم الصعيدية والقبلية "^(٢٥٨) جميعها فى تصريح آخر، كما شملت تلك التسهيلات كذلك تكليف المسؤولين فى الأقاليم القبلية بأن يسدو لمثليه: " المعاونة اللازمة كل بحسب ما يتعلق به "^(٢٥٩) وألا يمانعهم أحد " من قبل نظار كشاف الأقاليم "^(٢٦٠) وأن يوفروا له العمال اللزيمين بالأجرة^(٢٦١)، وكذلك المراكب اللازمة لاستخدامها فى نقل الآثار المكتشفة^(٢٦٢)، ثم معاونته فى شحن هذه الآثار وإرسالها إلى الإسكندرية^(٢٦٣).

تمكن أنستازى بفضل هذه التسهيلات الضخمة، ثم بفضل مساندة الوزير بوغوص بك له من تكوين أربع مجموعات أثرية كبيرة، حيث باع مجموعة ضخمة للحكومة الهولندية عام ١٨٢٨م (١٢٤٤/١٢٢٣هـ) ثم باع مجموعتين أخريين للمتحف البريطانى فى عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) ثم مجموعة رابعة لفرنسا عام ١٨٥٧م (١٢٧٤/١٢٧٣هـ) ولم ينس أنستازى أن يرد بعض الجميل للبلد التى كان يمثلها فى مصر فأهدى متحف استوكهولم تابوتاً ضخماً من الجرانيت^(٢٦٤)، كما أهدى ملك بروسيا تابوتاً آخر^(٢٦٥)، وأكثر من ذلك أن ابنته كانت ترى دائماً وهى ترتدى خاتماً أثرياً قديماً مزيناً بجعران نفيس^(٢٦٦).

وكان أنستازى قد ركز اهتمامه بصفة خاصة على الإتجار فى أوراق البردى القديمة حتى ذاع صيته واشتهر اسمه فى كتب التاريخ والآثار باعتباره من أكبر موردي البرديات فى العصر الحديث، فقد قام ببيع برديات لا حصر لها لمتاحف مختلف البلدان الأوروبية، وأشهر هذه البرديات موزعه الآن بين متاحف لندن وباريس وبرلين وليدن وغيرها من المتاحف^(٢٦٧) والغريب أن أنستازى قد أوصى بالثروة التى جمعها من التجارة فى آثار مصر القديمة لصالح الأعمال الخيرية فى السويد^(٢٦٨)، والأغرب أن يصفه شامبليون - بعد هذا كله - بأنه كان " معروفاً بالتزاهة والاستقامة "^(٢٦٩).

كذلك عُرف عن روزيتى Rossetti قنصل توسكانيا فى مصر اهتمامه بالتنقيب عن الآثار المصرية وجمعها وتهريبها إلى الخارج، وكان قد قام بدوره بإهداء تابوت حجري إلى المتحف الإمبراطورى فى فيينا^(٢٧٠)، كما أهدى واحداً آخر إلى شامبليون أثناء رحلة هذا الأخير إلى مصر، وأذن له بنقله إلى فرنسا، ولكن شامبليون صرف النظر عن مسألة نقل التابوت بعد أن أتضح له أن ذلك سيكون باهظ التكاليف، فضلاً عن أن التابوت ذاته لم يكن ذا قيمة أثرية كبيرة^(٢٧١)، وأهتم قنصل سردينيا فى مصر كارلو بيدمونتي بالآثار المصرية كذلك فقد عثرنا على أمر صادر من

محمد على إلى مأمور الجيزة في ١٣ رجب ١٢٤٤ هـ (١٩ يناير ١٨٢٩ م) بخصوص هذا القنصل، حيث يأذن له محمد على فيه " بحفر المحال المقال عن وجود حجر مكتوب بالخط القديم فيه، وبأخذه متى وجده حسب التماسه، ومساعدته بالأنفار التي تلزم بالحفر بمصاريف من طرفه" (٢٧٢).

نفس هذه الاهتمامات وجدت كذلك لدى السيد سالمون قنصل روسيا بالإسكندرية والذي " التمس بواسطة قنصل جنرال الدولة المذكورة الترخيص له بإجراء حفائر على ذمته بقصد البحث على الأنتيقة بجهات القطر... وقد حصلت له المساعدة من لدنا بإجابة ذلك... فأصدرنا أمرنا هذا إليكم كي لا تصير الممانعة للقونصل الموصى إليه في الفحت على الأنتيقة بكل جهة من جهاتكم" (٢٧٣)، ويكاد يكون الاهتمام بالآثار المصرية والتنقيب عنها ونقلها إلى الخارج قاسماً مشتركاً بين جميع القناصل الألمان العاملين في مصر خلال القرن التاسع عشر وعلى سبيل المثال فقد أهدى القنصل العام البروسي في مصر فون بنز Von penz إلى متحف برلين في عام ١٨٥٥ م (١٢٧١/١٢٧٢ هـ) تمثالاً للملك أمنحوتب الثالث (٢٧٤)، كما أهدى القنصل البروسي البارون لبتروث Baron De Lutteroth إلى نفس المتحف في عام ١٨٦٢ م (١٢٧٨/١٢٧٩ هـ) تابوتاً مرمرياً من عهد الأسرة الثامنة عشرة (٢٧٥). وخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر أظهر القنصل الألماني ترافيرس Travers نشاطاً ملحوظاً في مجال البحث عن الآثار المصرية القديمة، ونجح في أن يضيف لمتحف بلاده مجموعات أثرية قيمة من آثار مصر كان من بينها كمية ضخمة من أوراق البردي المستخرجة من تلال منطقة الفيوم خلال عام ١٨٧٧ م (١٢٩٤ هـ) (٢٧٦).

وعرف عن قنصل النمسا العام أسبري اهتمامه بالآثار المصرية وتهريبها (٢٧٧)، وشاركه في ذلك قنصل الدنمارك الذي أرسل إلى متحف كوبنهاجن الوطني عام ١٨٢١ م (١٢٣٦/١٢٣٧ هـ) عدداً من القطع المصرية الأثرية القديمة (٢٧٨)، كذلك يؤثر عن جورج جليدون Georg Gildon الذي اشتغل لفترة من الوقت قنصلاً للولايات المتحدة الأمريكية في مصر أنه كان شديد الاهتمام بعلم المصريات، وأنه قدم للمعهد الوطني في واشنطن بعضاً من قطع الآثار المصرية القديمة (٢٧٩) رغم أنه كان إنجليزياً الجنسية، أما القنصل الأمريكي الشهير ألبرت فارمان Albert farman فقد كان اهتمامه بالآثار القديمة المصرية ذا طابع وطني أكثر منه شخصي، وذلك أنه نجح في انتزاع موافقة الخديوي إسماعيل على نقل إحدى مسلات الإسكندرية التي كانت لا تزال باقية إلى نيويورك – وسوف نعرض لذلك في حينه – كذلك كان قنصل عام اليونان يشرف بنفسه على إدارة حفائر أثرية موسعة لحسابه في كل من الدقهلية (٢٨٠) والقليوبية (٢٨١) وأسيوط (٢٨٢).

كذلك لم يكن دروفيتي هو القنصل الفرنسي الوحيد الذي اشتغل بتجارة الآثار وسعى إلى الترويج من هذه التجارة، فالقنصلان الفرنسيان: بيافوان، ودوران اللذان تعاقبا على رأسه

القنصلية الفرنسية في مصر خلال فترة عزل دروفيتي عن هذا المنصب بين عامي ١٨١٤م، ١٨٢٠م (١٢٢٩/١٢٣٥هـ) قد انخرطاً كذلك في نفس الطرق وامتنها ذات المهنة حتى إن دوران قد نجح في تكوين مجموعة أثرية ضخمة كانت تضم ألف قطعة أثرية، وقد بيعت هذه المجموعة إلى متحف اللوفر حيث كانت تشكل أصل مجموعة المصريات في هذا المتحف الشهير قبل شراء مجموعتي دروفيتي وسولت الثابنتين^(٢٨٢) وقد شاركهما في ذلك القنصل الفرنسي سباتيه الذي بلغت شهرته في جمع الآثار المصرية وتكاليه على امتلاكها لحد أنه كان يطلبها بنفسه من الإدارة المصرية، فقد كتب هذا القنصل ذات مرة إلى المعية السنية يطلب منها " أن يسمح له الجنب العالي بإعطاء حجر أثري وجد جهة الخياطين في الداودية، ولو أنه شيء ليس بذي البال ولكن بالنظر لما عليه من النقوش بالحروف القديمة لهديه لمتحف لودر [الوفر] في باريس وأنه بهذا الإنعام يكن مسروراً وممنوناً جداً، وكذلك يريد الإنعام عليه ببعض آثار قديمة ذكرها في أصل الكتاب^(٢٨٤) ولعل هذه الجرأة الشديدة، وهذا التطفل الزائد من جانب سباتيه قد جعل مدير إقليم قنا وإسنا يضييق به زرعاً، حتى شكاه ذات مرة إلى المعية السنية، وأوضح المدير في شكواه أن هذا القنصل " أثناء عودته من الأقصر مر على الكرنك وأخذ تماثيل من الحجر الأسود: أحدهما تمثال رجل وثانيهما تمثال امرأة، ولدى سؤاله عنهما، أجاب أنه مأذون بذلك من لدن الجنب العالي، وأنه فضلاً عن ذلك سيأخذ غيرهما، ولدى وصوله إلى مصر سيرسل الأمر الكريم " وطلب مدير قنا وإسنا الإفادة عن رأي الجنب العالي في هذا الموضوع^(٢٨٥) كذلك أمد القنصل الفرنسي ديلابورت Delaport متحف اللوفر عام ١٨٦٧م (١٢٨٣/١٢٨٤هـ) بالعديد من التماثيل الفرعونية الرائعة^(٢٨٦)، ولا يجب أن ننسى القنصل الفرنسي ميمو Mimaut الذي كان طمعه وجشعه وتكاليه على جمع الآثار المصرية القديمة وتجارته الواسعة فيها أحد العوامل القوية التي وقفت وراء ظهور أول قانون مصري لحماية الآثار القديمة على ما سيستبين لك في الفصل التالي، وقد كان ميمو لا يفتأ يعلن في كل مناسبة عن رغبته في جمع ونقل ما يمكن نقله وجمعه من الآثار المصرية إلى فرنسا " من أجل تزيين بلادنا وأقوام نصرنا^(٢٨٧)."

وينطبق هذا الكلام - كذلك - على القناصل الإنجليز : فالقنصل البريطاني باركر Barker والذي خلف سولت بعد وفاته قد اهتم كذلك بالبحث عن الآثار، وصدر له تصريح من محمد علي في ١٩ رمضان ١٢٤٥هـ (١٤ مارس ١٨٣٠م) ويسمح له بمقتضاه " بفحت بعض المحتلات القديمة واستخراج ما يوجد بها من الآثار لحد الشلالات في مدة لغاية أغسطس وبعدم التعرض إليه لحد التاريخ المرقوم^(٢٨٨) وقد سار خليفته القنصل باتريك كامبل Patrick Campbell على نهج سلفيه سولت وباركر فقد صدر له هو الآخر تصريح يقضى " بالترخيص له بتعيين مندوبين

من طرفه للبحث عن انتيكات بالبنادر والقرى مدة ستة شهور، فعليه يلزم عدم منع من يعينهم المومي إليه من فحت وحفر بعض المحلات دون مس البناء القديم^(٢٨٩).

والحق أنه تحت حكم محمد علي وخلفائه تمكن ممثلوا الدول الغربية من استغلال مناصبهم بطرق غير لائقة مستفيدين من الموقف السياسى والاقتصادى القوى ومن التفوق الحضارى للشعوب التى يملئونها، وربما كان ذلك النهب المسعور لثروات مصر الأثرية من جانب هؤلاء القناصل أحد أبرز مظاهر هذا الاستغلال، على أن الاهتمام بالآثار المصرية والتنقيب عنها وتهريبها والتجارة فيها من جانب الدبلوماسيين الأجانب العاملين في مصر لم يقتصر على من كان من هؤلاء في درجة قنصل فقط، بل إن عدداً كبيراً من الموظفين الأجانب الذين كانوا يعملون في القنصليات الأجنبية المختلفة في مصر ممن كانوا أدنى من ناحية التمثيل الدبلوماسى عن درجة قنصل كانت لهم كذلك إهتمامات مماثلة، وربما كان يأتي على رأس هؤلاء جيوسبى دى نيتزولى Gusseppe Di Nizzoli الذى كان يشغل وظيفة مندوب قنصلية النمسا التجارى، ثم شغل فترة من الوقت منصب رئيس ديوان القنصلية المذكورة، وقد تمكن نيتزولى عن طريق منصبه الدبلوماسى الذى كان يضفى عليه وضعية خاصة من الحصول على التصاريح اللازمة التى كانت تتيح له حرية البحث والتنقيب عن الآثار القديمة، وربما كان الأمر العالى الذى أصدره محمد علي إلى كاشف الجيزة بتاريخ ١٥ جماد الأول ١٢٣٧هـ (٧ فبراير ١٨٢٢م) خير دليل على ذلك، حيث يقضى هذا الأمر بأنه "بناء على ما عرضه الخواجة نيتجولى [نيتزولى] مندوب قنصلية النمسا التجارى من أنه سيحفر في بعض المحلات الواقعة بقريةسقارة، ويبحث فيها عن آثار عتيقة، فلدى علمكم بمنه تعالى بأننا قد صرحنا له بالحفر في تلك المحال والبحث عن الآثار العتيقة على أن يكون ذلك خالياً من المحنورات، بادروا إلى العمل على الوجه المحرر"^(٢٩٠).

أجرى نيتزولى تنقيبات أثرية واسعة النطاق نجح من خلالها في تكوين مجموعة من التحف الأثرية أثناء إقامته في مصر بين عامى ١٨٢٨، ١٨١٨م (١٢٣٣، ١٢٤٣/١٢٤٤هـ) وباع جزءاً من هذه المجموعة إلى متحف فيينا عام ١٨٢٠م (١٢٣٥هـ) وجزءاً آخر إلى متحف فلورنسا عام ١٨٢٤م (١٢٣٩/١٢٤٠هـ) والجزء الأخير اشتراه منه شخص يدعى بلاجى Pelagi وأهداه فيما بعد إلى متحف مدينة بولونيا الإيطالية^(٢٩١)، وكان إيبوليتور وزيليني Ippolito Rossellini ذلك التوسكاني الذى صاحب شامبليون في رحلته إلى مصر عام ١٨٢٨م قد شهد بنفسه في أغسطس من نفس العام مراسم إتمام إجراءات بيع هذه المجموعة الثالثة من نيتزولى إلى بلاجى^(٢٩٢)، والتى آل أمرها في نهاية المطاف إلى متحف بولونيا كما سبق القول.

ثانياً: دور الأجانب المقيمين بمصر، والسائحين، والرحالة الوافدين إليها:

لقد أهتم الأجانب المقيمون بمصر - ولاسيما من كانوا يتمتعون منهم بمستوى معيشي متميز - بالتنقيب عن الآثار القديمة، وقام الكثيرون منهم بالعديد من الرحلات الاستكشافية إلى أقاصى الصعيد والدلتا بهدف الحصول على الآثار وإثراء مجموعاتهم الخاصة، أو المجموعات العامة لمتاحف أوطانهم، كذلك استفاد الموظفون العاملون منهم في خدمة محمد علي وخلفائه من مميزات وضعهم كموظفين حكوميين في أن يكونوا لأنفسهم مجموعات خاصة من الآثار القديمة دون كلفة أو مشقة، ويجب أن نشير من بين هؤلاء إلى الطبيب الفرنسي كلوت بك Clot Bey والذي يمكن القول بأنه كان مسئولاً عن الشؤون الطبية والصحية - تعليمياً وممارسة - في مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان يتمتع بمكانة عالية ومركز مرموق ونفوذ قوى، كما كان مهتماً بعلم المصريات، واقتنى مجموعة غنية من الآثار القديمة كانت تضم ألفين وستمائة وثمان وسبعين قطعة أثرية شملت توابيت حجرية وخشبية ولوحات جنازية ومشغولات برونزية وأوعية فخارية وتمائيل منحوتة وبرديات، بالإضافة إلى مسلة صغيرة وما يقرب من ست وعشرين من المومياوات المحنطة وقد قام كلوت بك بتصنيف هذه المجموعة الأثرية الرفيعة ووضع لها فهرساً وقائمة^(٢١٣)، وقد اشترى متحف اللوفر هذه المجموعة عام ١٨٥٣م (١٢٦٩/١٢٧٠هـ)^(٢١٤).

ويبدو أن مهنة الطب ومهنة البحث عن الآثار كانتا مهنتين متلازمتين في هذه الفترة من تاريخ مصر، حيث يذكر دى فوربان أنه رأى في صعيد مصر كثيراً من الإيطاليين الذين يدعون أنهم أطباء ويستغلون إلى جانب ذلك بالتجارة في الآثار المصرية القديمة، ويضرب فوربان مثلاً لذلك بطبيب إيطالي يدعى ماروكي Marouchi كان يعمل في خدمة حاكم أسيوط، وكان يتاجر فوق ذلك في الآثار القديمة^(٢١٥)، وهناك طبيب إيطالي آخر من جنوه يدعى سكوتو كان يعالج إبراهيم باشا، وأقام لفترة من الوقت في أسيوط كذلك، وكان يعمل هو الآخر في تجارة الآثار لحسابه الخاص^(٢١٦). كذلك قابل بلزوني وهو في طريقه إلى صعيد مصر لأول مرة طبيباً وصيدلياً يدعى فالسوماكي - بدا من اسمه أنه إيطالي هو الآخر - ويذكر بلزوني أن هذا الطبيب كان له اهتمام بجمع الآثار والاتجار بها^(٢١٧).

والواقع أن الموظفين الأجانب الذين كانت تحتم عليهم طبيعة عملهم البقاء لفترات طويلة في صعيد مصر كانت تتاح لهم الفرصة أكثر من غيرهم - بالنظر إلى ما يملكونه من الوقت والفراغ والإمكانات والنفوذ - في تكوين مجموعات أثرية خاصة بهم، مثلما فعل برنشون بك الذين كان مديراً لمصنع السكر بمنطقة الروضة في مديرية المنيا، والذي نجح في تكوين مجموعة أثرية كبيرة

بلغت ألفاً ومائتى قطعة أثرية شملت بعض الحلى والتوابيت، وقد انتهى الأمر بهذه المجموعة الأثرية إلى الاستقرار في متحف مدينة ليموج بفرنسا^(٢١٨).

وحق المواطنين الذين كانوا يعملون ويقيمون بالقاهرة كانوا يقومون بالتنقيب عن الآثار في المناطق القريبة من العاصمة مثل الجيزة وسقارة ومنف وغيرها من المناطق، كما كانوا ينتهزون الفرصة بين الحين والآخر للقيام برحلات ترفيهية إلى الصعيد بقصد السياحة والبحث عن الآثار في آن واحد^(٢١٩)، أو يرسلون من ينوب عنهم للقيام بمهمة البحث عن الآثار لحسابهم، وهو ما كان يفعله المسيو جومل مدير فابريكة بولاق^(٢٢٠)، والذي كان يدير لحسابه حفائر أثرية في منطقة سقارة، وعثر من خلالها على تمثال حجري ضخيم، وطلب من الإدارة المصرية السماح له بنقل التمثال الذي عثر عليه، والتصريح له بمواصلة "البحث والتنقيب عن الآثار"^(٢٢١). كما نراه في مرة أخرى يرسل تابعاً له يدعى يومسف وخادميه وترجمانه "للزعة في الأقاليم القبلية لغاية الشلال، والبحث عن الآثار في خرائب المباني القديمة"^(٢٢٢).

على أن حتى التنقيب عن الآثار المصرية القديمة، وتبريها والتجارة فيها لم تقتصر على الأجانب الموظفين فقط بل تعدتها كذلك إلى طوائف أخرى يفترض في مثلها أن تكون بمنأى عن مثل هذه الأعمال المشبوهة، وذلك لأن بضاعتهم التي يرجون لها إنما هي الآخرة، وأفكارهم التي يدعون لها إنما هي البعد عن زخرف الحياة الدنيا والتزهد عن شهواتها، وأغنى هؤلاء طائفة المتصربين ورجال الدين من الأجانب. ولعل من الغريب أن ينخرط هؤلاء - أيضاً - في مثل هذه السرقات المشينة. وهذا إن ذلك على أمر فإنما يدلك على أن هؤلاء القوم لم يكونوا أبداً على شيء، فتحدثنا المراجع عن المنصر الألماني الأب رودلف ليدر الذي "اشتهر بمساوماته العنيفة في مشترياته غير القانونية للآثار، والتي كان يقوم بها أثناء محاولاته غير الناجحة لتحويل الأقباط إلى البروتستانتية"^(٢٢٣) فضلاً عن أنه كان يقوم بتمويل حفائر أثرية لصالحه في منطقة سقارة^(٢٢٤).

كذلك زار الرحالة الفرنسي كادلفين في جرجا واحداً من رجال الدين الفرنسيين ويدعى الأب توماس فوجده يتاجر في المومياءات القديمة، فعلق على ذلك قائلاً: "يبدو أن هذه التجارة رائجة في جرجا حتى إن رجال الدين قد اشتركوا فيها"^(٢٢٥) كما كان رجل الدين الإنجليزي الأب جريفيل شستر مورداً منتظماً لمجموعة المصريين في المتحف البريطاني، وأحد أسباب تماء هذه المجموعة، فقد كانت صحته الضعيفة تجبره على قضاء الشتاء في مصر، وكان قد اكتشف بعد أول زيارة له لوادي النيل أن أمتاء المتحف البريطاني على استعداد لأن يشتروا منه جميع القطع الأثرية الصغيرة التي كان شستر يعود بها إلى لندن مع إعطائه ربحاً فيها، وفي الأعوام التالية بدأ شستر يضاعف من حملته الأثرية بغية تحقيق مزيد من الربح، حتى تحولت تلك الهواية لديه إلى مهنة مربحة^(٢٢٦).

أما عن دور السياح والرحالة الأجانب فقد سبق لنا أن أشرنا إلى تلك النهضة السياحية المتنامية، والتي شهدتها البلاد منذ مطلع القرن التاسع عشر وبداية حكم محمد علي، وفي حقيقة الأمر فإن انتعاش السياحة في مصر وتوافد الأجانب عليها قد زاد بشكل ملحوظ في عهد خلفاء محمد علي، حيث كانت أعداد السياح تزايد بكثير عما كانت عليه من قبل، فإذا كان عدد السياح الذين زاروا مصر سنة ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) أعنى في نهاية حكم محمد علي قد بلغ سبعة عشر ألفاً وأربعمائة وخمسة ثلاثين سائحاً، فإن هذا العدد قد ارتفع إلى سبعة عشر ألفاً وستمائة وثلاثة مائتين خلال عام ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) أثناء حكم عباس، ثم ارتفع العدد مرة أخرى إلى ثمانية وعشرين ألفاً وتسعمائة وأربعة وعشرين سائحاً في عام ١٨٦٠م (١٢٧٧-١٢٧٦هـ) أثناء حكم سعيد، ثم إلى ستة وخمسين ألفاً ومائتين واثنى عشر سائحاً في عام ١٨٦٤م (١٢٨١-١٢٨٠هـ) في مستهل حكم إسماعيل، ثم إلى سبعة وستين ألفاً وسبعمائة واثنين وسبعين سائحاً في عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ) أي قريباً من نهاية حكم إسماعيل^(٣٠٧)، وهذا يوضح لك مدى الزيادة المطردة في أعداد السائحين الذين كانوا يزورون مصر خلال كل عام من أعوام القرن التاسع عشر، غير أنه يبدو أن هناك أموراً أدت إلى انخفاض هذه الأعداد الغفيرة من السائحين الذين كانوا يزورون مصر خلال الربع الأخير من هذا القرن، فقد قدرت جريدة "المقتطف" عدد السائحين الذين دخلوا القطر المصري خلال الفترة من أول نوفمبر عام ١٨٩٤م وحتى نهاية مارس ١٨٩٥م (أول جمادى الآخرة وحتى نهاية شوال ١٣١٢هـ) بسبعة آلاف وأربعمائة واثنين وسبعين سائحاً، وذكرت الصحيفة أن عدد هؤلاء السائحين في مثل هذه المدة من العام السابق قد بلغ خمسة آلاف وأربعمائة وثلاثة وتسعين سائحاً^(٣٠٨)، وإذا كان معروفاً أن الفترة المشار إليها تمثل ذروة الموسم السياحي في مصر أدركت ما أصاب الحركة السياحية في مصر في نهايات القرن التاسع عشر من كساد وركود، بل إن أحمد نجيب الذي كان وثيق الصلة بالسياحة والسائحين على اعتبار أنه كان يشغل وظيفة مفتش وأمين بمصلحة الآثار المصرية قد قدر أعداد السائحين بستة آلاف سائح فقط سنوياً^(٣٠٩).

والجدير بالذكر أن نظرة مصر إلى السياحة في هذه الفترة لم تكن ذات مغزى إقتصادي، لأنه لم يكن هناك حرص من جانب الدولة على تشجيع السياحة لكي تكون مصدراً من مصادر تمويل الخزانة المصرية، بل إن هذه النظرة كانت تتعدى هذا الأمر، إذ كان الهدف من تشجيع السياحة والاهتمام بالسائحين هو إبراز أهمية مصر وتوضيح ما تتمتع به من طقس بديع، وما تحويه أرضها من آثار قل أن توجد في غيرها من بلدان العالم^(٣١٠)، وفي حقيقة الأمر فإن احتفاء الدولة بالسياحة والسائحين لم يكن بهدف خدمة السياحة في حد ذاتها، وإنما كان ذلك من قبيل الأمور السياسية والعلاقات الدولية. وفي إطار تحقيق هذه الغاية كانت الإدارة المصرية لا تكف عن

ابتكار الوسائل التي تساعد على جذب السائحين الأجانب إلى مصر، وقد كان من بين هذه الوسائل إعطاؤهم الوعود بالسماح لهم بالتنقيب عن الآثار القديمة والاحتفاظ بما يعثرون عليه منها^(٣١١). ووثائق النصف الأول من القرن التاسع عشر تحوى عدداً كبيراً من الأوامر وتذكر المرور وتصاريح التنقيب التي منحت لسائحين من جنسيات مختلفة وتبيح لحاملها البحث عن الآثار القديمة في كافة أنحاء القطر المصري، وتلزم الحكام المحليين بالمساعدة في ذلك قدر الإمكان، وتحذّرهم من المخالفة^(٣١٢). وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الخديوي إسماعيل عندما يريد تسليّة ضيوفه المشهورين من السائحين من ذوى المكانة العالية كان يرسلهم في زيارات فخمة للرحلة عبر النيل، كما كان يمنحهم ربوة عزراء أو عدة أقدام مربعة من مقبرة شهيرة، ويسمح لهم بالحفر إلى العمق الذي يرغبونه، والاحتفاظ بما يعثرون عليه من آثار، وكان في بعض الأحيان يرسل بعض الأدلاء لحفر الأرض لاكتشاف مقبرة ثم يتركها دون أن يفتحوها، ثم يسمح للزائر الجليل القدر باكتشافها، وعندما كان الأدلاء لا يوفقون إلى اكتشاف مقبرة غير مفتوحة فإنهم كانوا يعيدون إغلاق مقبرة قديمة بعناية ثم يعاد فتحها بعد يوم أو اثنين بين مظاهر الفرح^(٣١٣). ومن ناحية أخرى فإن عدداً كبيراً من كتب الإرشاد السياحي، والتي وضعها بعض المتخصصين مثل دليل ماريز الذي كتبه العالم ويلكنسون ودليل كوك الذي وضعه وليس بدج كانت تتضمن قائمة بالمواقع التي يمكن الحفر فيها وينبغي الالتفات إليها، ويتوقع أن ينتج الحفر فيها آثاراً قيمة^(٣١٤).

وقد حرص السائحون من جانبهم على الحصول على تذكارات أثرية تسجل زيارتهم لمصر، ولنا أن تتصور كم الآثار الهائل الذي خرج من مصر بهذه الطريقة، والواقع أنه لولا المخزون الكبير من الآثار المصرية القديمة في باطن التربة المصرية والذي بلغ ضخامة هائلة لاستحال الأمر إلى كارثة حقيقية. ويسجل أحد الباحثين الأمريكيين كيف أن السائحين من بنى وطنه – والذين كان عددهم قد ارتفع من ستين زائراً سنوياً خلال الفترة من بين عامي ١٨٢٣، ١٨٤٢م (١٢٣٨/١٢٣٩ هـ، ١٢٥٨ هـ) إلى أربعة آلاف زائر سنوياً في ثمانينيات القرن التاسع عشر – كانوا يتسابقون في تراحم مجنون للحصول على تذكارات لزيارتهم كانت في الغالب قطعاً من العملات المعدنية وجعارين وموميאות وما شابه ذلك. وهذه الطريقة حصل متحف بوسطن على أولى موميאותه المصرية عام ١٨٢٣م^(٣١٥).

وتحكي الكاتبة البريطانية إميلي إدواردز – التي زارت مصر في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر تقريباً – تجربتها إلى عاشتها هي ورفاقها في إقتناص الآثار المصرية القديمة ففى سقارة وجدت الكاتبة أن "الهضبة كلها مكدسة بقطع صغيرة من كسر الفخار، والحجر الجيري، والرخام، والمرمر، وشظايا الزجاج الأخضر والأزرق، والعظام البيضاء، وخرق الكتان الأصفر،

ومكعبات غير منتظمة الشكل من مادة غريبة الشكل ذات لون بني غامق... ثم اكتشفنا فجأة وفي هزة لن ننساها الكاتبة بأية حال أن هذه العظام المتناثرة هي عظام آدمية، وأن هذه الخرق الكتانية هي أجزاء من أكفان، وأن هذه المكعبات البنية الغريبة غير المنتظمة الشكل هي قطع صغيرة مما كانت ذات يوم لحماً حياً" (٣١٦) وتضيف إميلي إدواردز - بعد أن أدهشها السرعة التي تغلبت بها على شعور الاشمئزاز، إذ أنه سرعان ما وجدت نفسها تفتش بين البقايا عن الآثار كأي من ناهي القبور المتمرسين دون أدنى رادع من المبادئ أو تأنيب من الضمير - "ولكننا سرعان ما تجلدنا لدى مشاهدة مثل هذه المناظر وتعلمنا أن ننقب بين المقابر المترية دون الإحساس بتأنيب الضمير أكثر من إحساس عصابة مدربة من معترفي سرقة الجثث، وعندما كنا نتذكر هذه التجارب التي مررنا به فيما بعد كنا نشعر بالدهشة وثنى من الندم وكم كانت القسوة شاملة، والرغبة في اقتناص الرفات جامحة لدرجة أنني لا أشك في أننا لن نتراجع عن عمل نفس ما عملناه لو عادت نفس الظروف، أن غالبية المسافرين [الرحالة والسائحين] سيدلون بنفس هذا الاعتراف لو طلبنا إليهم، إنهم يشعرون بصدمة في البداية، ثم يستنكرون في فزع الأسلوب الذي تجرى به الحفائر، فهو على الرغم من التصريح به إلا إنه أسلوب وحش. إن النوق الذي يرحب بالجمارين والتمائيل الجنائزية الصغيرة سرعان ما كان يتطور إلى شراء أسلاب الموتى، وفي النهاية ينسون تأنيب الضمير السابق، ولا يتمنون حظاً أفضل من أن يكتشفوا مقبرة ويصادرونها إلى أنفسهم" (٣١٧).

وفي طيبة، تروى الكاتبة كيف أن حياتهم في هذه المدينة البائدة كانت مليئة بالمفارقات، فهم ينفقون صباحهم في زيارة المعابد ودراستها، وبعد الظهر يقضونه في اصطلياد الكنوز الأثرية المحظورة، وتتعرف الكاتبة بأن اللعبة كانت ممنوعة حقيقية، ولكن عدم قانونيتها لم يكن يقلل من متعتهم بها، بل ربما كان يزيدنا متعة، وأنهم قد نجحوا بالفعل في اقتناص نصيبهم من الآثار سواء في الأقصر أو في غيرها، ولكن بشكل أسامى في الأقصر (٣١٨). والحق أن متعة صيد الآثار القديمة كانت سريعة العدوى بين الرحالة والسائحين وأن العاطفة السائدة بينهم في ذلك الحين كانت هي صيد الصفقات المشبوهة بلا غضاضة، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن دفع حياته ثمناً لإرضاء هذه النزعة الغريبة، مثلما حدث مع هذا السائح اليوناني الذي كان قد توجه إلى منطقة سقارة "قاصداً مشتري أنثيكات من جهة الأهرام... وصار قتله بجهة صقارة من بعض الأهالي" (٣١٩) لقد زار مصر خلال القرن التاسع عشر مئات الآلاف من الرحالة والسائحين وجامعي التحف والأثرين الهواة وغيرهم، وبعض هؤلاء قنع بمجرد المشاهدة والمتعة، والبعض الآخر كان هدفه النهب والاستيلاء على الكنوز والريخ، وفي هذه الفترة بلغ تهريب الآثار المصرية مداه من برديات إلى أدوات جنائزية إلى مشغولات برونزية إلى تماثيل كبيرة وصغيرة إلى موميאות وغيرها، لدرجة أنه

هربت إلى أوروبا أحياناً معابد صغيرة كاملة، وكان وراء ذلك أشخاص أرادوا إشباع هوايتهم ونزواتهم أو تحقيق أرباح سريعة^(٣٢٠)، وسنحاول فيما يلي أن نلقى الضوء على بعض هذه السرقات وعمليات التهريب التي قام بها الأجانب الذين زاروا مصر خلال تلك الفترة.

كنا قد أشرنا قبل ذلك إلى رسم " فلك البروج " الذي كان يزين سقف إحدى غرف معبد دندرة، والذي اكتشفه رجال الحملة الفرنسية، وأعجبوا به، وقام علماءها برسمه ونسخه، كما أعجب به كذلك الجزال ديزيه إعجاباً كبيراً وكنا قد أشرنا أيضاً إشارة سريعة إلى ذلك الصدام الذي نشب بين رجال الكنيسة في أوروبا وبين علماء الآثار المصرية حول قضية قدم الآثار المصرية، وهو الصدام الذي شغلت به أوروبا زمناً طويلاً، ونريد الآن أن نربط بين هاتين الحادتين: كان رجال الدين في أوروبا قد وقعوا في خطأ البسوه ثوب الدين، وجعلوا منه عقيدة من أنكرها خرج عن الكنيسة وكفر بالدين. وموضوع هذا الخطأ أن في كتب العهد القديم نصوص عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم - ع - إلى نوح - ع -، وقد ذكرت التوراة في هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحداً بعد الآخر، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحددوا الزمن الذي مضى على خلق الإنسان. وطبقاً لحسابات رجال الدين فقد قدرت أقصى مدة من خلق الإنسان إلى رسالة عيسى - ع - بخمسة آلاف وخمسمائة وتسع وثمانين سنة، وقد جعلت الكنيسة من هذه الأرقام قضية مسلماً بها، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة، فانتشرت في المؤلفات الدينية، وهو الخطأ الذي أخذ علم المصريات يصطلم به منذ سنة ١٧٩٣ م (١٢٠٨-١٢٠٧ هـ)^(٣٢١).

في هذا العام - ١٧٩٣ م - كان عالم فرنسي يسمى ديبوي قد قام بدراسة البروج التي وجدت في المعابد المصرية، وألف في ذلك كتاباً استنتج فيه من علامات هذه البروج ومن حساب حسبه أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج، وأن عمر هذه البروج المصرية يبلغ ثلاث عشرة أو خمس عشرة ألف سنة قبل ميلاد المسيح، وبما أن شعباً من الشعوب لا يستطيع أن يبتكر هذه البروج في مسهل حضارته، فإن الحضارة المصرية لابد وأنها ترجع - إذن - إلى أقدم من خمس عشرة ألف سنة، وحينئذ انقسم العلماء إلى فريقين: فريق يقول إن الآثار المصرية تثبت أن خلق آدم يرجع إلى زمن أقدم من الزمن الذي حددته له التوراة، وفريق يتمسك بالتوراة ويدافع عنها^(٣٢٢).

وبينما كانت المعركة عند هذا الحد إذا بجامعة آثار فرنسي معترف يدعى سياستهان لويس سولينبييه وقد أخذته نشوة المعركة الناشئة حول البروج المصرية، إذا به يقوم بتكليف شخص يسمى جان بابتيست ليلوران بالذهاب إلى مصر والعمل على نقل البروج الفلكية محل الغلاف من معبد دندرة وشحنها إلى باريس. وقد كان التقرير الفرنسي لهذه العملية أن جمال هذه اللوحة قد آثار كثيراً الحاسة الفنية لدى الجزال ديزيه، وأنها نسخت بشكل رائع في " وصف مصر " حتى

إنها "بطريقة ما أصبحت أثراً وطنياً [فرنسياً]" (٣٣٦). ومن ثم يتعين نقلها من معبد دندرة إلى باريس. وهذه - كما ترى - حجة واهية لا يقرها عرف أو قانون، ولا يمكن لها أن تنطلي على أحد. أما السبب الحقيقي - في رأينا - لإقدام فرنسا - وغيرها من الدول - على تهيب مصر وانتزاع ثرواتها منها إنما يرجع إلى تلك المعايير غير العادلة التي كانت - ولا تزال - تتحكم في طبيعة العلاقات بين الدول الكبيرة والصغيرة، وهي معايير ظالمة تنيع - أساساً - من منطلق مبدأ "البقاء للأقوى".

وصل ليلوران إلى الإسكندرية في أواخر عام ١٨٢٠ م (١٢٣٦ هـ) للعمل على نقل اللوحة بأية وسيلة، وكان من الحصافة بحيث أخفى الغرض الحقيقي من رحلته عن محمد علي، وقدم له نفسه باعتباره رحالة أجنبياً يبحث عن العلم والمعرفة، وأعلن أنه ينوي الحفر في طيبة، وسرعان ما صدر له إذن المرور وتصريح التنقيب اللازمين: "التصريح للسائح الفرنسي المدعو لورن بالفرجة والسياحة في بحر النيل لغاية وادي حلفا والبحث عن الآثار في المباني القديمة ما دامت غير محنورة" (٣٣٤).

عندما وصل ليلوران إلى دندره وجد مجموعة من السائحين الإنجليز يرسمون لوحة فلك البروج، فتوجه إلى طيبة حيث اشترى بعض المومياوات والآثار الأخرى ليعطى انطباعاً بأنه سائح عارض يفتش عن آثار صغيرة، وعندما عاد ثانية إلى دندرة كان السائحون الإنجليز قد غادروها، وأصبح الجو خالياً أمامه ليقوم بتنفيذ مخططاته.

كانت اللوحة المنشودة محفورة في كتلتين من الصخر تمثلان سقف الغرفة الوسطى من غرف ثلاث موجودة في مبنى صغير مجاور للمعبد المشهور. وكان تخليص اللوحة من السقف عملاً خطيراً، لأن الصخرتين كانتا في منتهى الضخامة والسمك، حيث وصل سمك كل منهما إلى ثلاثة أقدام، ولما لم يكن معه من الأدوات سوى الزنامل والمناشير فقد لجأ ليلوران إلى استخدام البارود لعمل فتحات في سقف المبنى، ومن حسن الحظ أنه كان ماهراً في استخدام البارود فتمت العملية دون أن ينهار السقف، وبعد ذلك ثبتت المناشير في الثقوب الناتجة ثم عهد إلى أربعين من العمال الأشداء بموالة النشر في الجرانيت الصلب بلا انقطاع وبعد ثلاثة أسابيع من العمل ليلاً ونهاراً تم نزع اللوحة ونقلها إلى القارب الذي كان راسياً على بعد أربعة أميال من المعبد. وبعد مجهود ضخم تمكن العمال من وضع الكتلتين الحجريتين في قلب القارب بأمان، ولكن صاحب القارب ادعى أن المياه منخفضة إلى الحد الذي لا يسمح له بالإبحار شمالاً بهذه الحمولة الثقيلة، وأدرك ليلوران على الفور أن الرجل قد تلقى رشوة من الإنجليز، والحقيقة أنه قد تصادف أن سائحاً أمريكياً رأى ليلوران وهو يقوم بتزج اللوحة فأخطر سولت بما رآه، وعلى الفور قام سولت برشوة صاحب القارب، ولم يتأخر ليلوران في المقابل، فمنح الرجل ألفي قرش، وأبحر القارب، وفي منتصف الطريق إلى القاهرة أوقفهما رجل إنجليزي من أعوان سولت وسلمهما أمراً من بوغوص

بك بمنع ليلوران من نقل الأحجار، غير أن ليلوران رفع العلم الفرنسي وتحدى الإنجليز ومنعهم من مهاجمة قاربه، واستشاط سولت غضباً لأنه كان يريد أن يأخذ اللوحة لنفسه. وفي الإسكندرية حاول القنصلان الإنجليزي والفرنسي منع ليلوران من شحن لوحة فلك البروج إلى فرنسا، فقد كانا يدركان أنها سوف تمثل إضافة كبيرة لمجموعتهما، وأكد سولت أنه بدأ حفائره في دندره قبل أن يسمع ذلك الفرنسي بأن هناك مكان بهذا الاسم، ولكن جهوده هو والقنصل الفرنسي قد ذهبت أدراج الرياح^(٣٢٥).

قام ليلوران بشحن الأحجار إلى فرنسا بعد أن اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لوقايتها من أن يصاب بسوء، وفي يناير عام ١٨٢٢م (ربيع الآخر ١٢٣٧هـ) وصلت الشحنة إلى ميناء مارسيليا، وما إن عرف هذا الخبر حتى ذاع في أوروبا كلها، بل قيل إنه لم تبق في أوروبا جريدة واحدة لم تشر خبر وصول رسم فلك البروج إلى فرنسا^(٣٢٦)، ثم نقل الرسم من مرسيليا إلى باريس حيث أخترق شوارع العاصمة الكبيرة في موكب كموكب الغازي المنتصر، وضمن به أصحابه عن أن يبتذل، فلم يعرضوه للجُمُهور، ولم يقبلوا أن يدخلوا عليه إلا العظماء^(٣٢٧).

ألقت الحكومة الفرنسية لجنة من ثلاثة من العلماء لفحص الرسم وبيان قيمته العلمية وتقرير ما إذا كان أصلياً أم زائفاً، وانتهت اللجنة في تقريرها الذي رفعته للحكومة بأن الرسم المذكور أصلي وغير زائف. وعندئذ عرض سولتييه وليلوران على الحكومة الفرنسية أن يقوموا ببيع اللوحة لها، وادعيا أنها قد تلقيا عرضاً من دولة أخرى قيمته مائتا ألف فرنك، وأنهم قد رفضوا هذا العرض لأنهم يتمنون أن تحتفظ بلادهم بذخيرة مثله^(٣٢٨)، وفي نهاية الأمر وافق الملك لويس الثامن على شراء الرسم منهم بمبلغ مائة وخمسين ألف فرنك، وأودعه في متحف اللوفر حيث أعيد تجميعه هناك، أما زوار معبد دندره الآن فإن عليهم أن يقتنعوا بمجرد صورة منسوخة منه^(٣٢٩).

وأوضح سولتييه في تقريره الذي نشره عام ١٨٢٢م (١٢٣٧، ١٢٣٨هـ) عن عملية نقل لوحة فلك البروج من معبد دندره إلى باريس الأسباب التي دفعت إلى التفكير في القيام بهذه العملية المثيرة، فأشار إلى أن الوهابيين في شبه الجزيرة العربية يهددون مصر، ولو أنهم نجحوا في غزوها فسيحطمون كل آثارها القديمة "فمن هذا الخطر الداهم - وهو ليس خيالاً محضاً - من القوى المدمرة التي وصفناها من قبل، انتزعت بالتوفيق دائرة الأبراج في دندره لتوضع تحت الحماية الأوروبية"^(٣٣٠) والحق أن الأوروبيين لم يكفوا عن اختلاق الأعذار والمبررات التي كانوا يسوقونها لتبرير ما يقومون به من عمليات النهب والسرقة والاستنزاف المنظم لثروات مصر، وثروتها الأثرية - كما في غيرها من الثروات - بدعوى حمايتها من أخطار قد لا يكون لها وجود سوى في أخیلتهم المريضة فقط، يعاونهم في ذلك إدارة عابثة مستهترة لا يهمها من أمر أوطانها شئ لأنها دخيلة على

هذه الأوطان، مبتلاة بها، فلا تنظر إلى ماضيها وحاضرها، بل مبلغ علمها وأكبر همها هو بلوغ مارها وتحقيق مصالحها الشخصية فقط.

وقبل أن نترك مسألة سرقة رسم فلك البروج من معبد دندره ونقله إلى باريس نود أن نشير إلى تلك الرسالة الهامة التي كتبها جان فرانسوا شامبليون بخصوص هذا الموضوع، ويعترض فيها بشدة على هذا العمل، ويندد بهذه السرقة، وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة *La Revue Encyclopedique* التي كانت مترجمة إلى الفرنسيين نبأ وصول الأبراج السماوية إلى فرنسا، وكان الأخوان شامبليون - جان فرانسوا وباك جوزيف - قد اتفقا مع رئيس تحرير تلك المجلة على عدم نشر اسم كاتب هذه الرسالة وذلك خوفاً مما يمكن أن تسببه الرسالة المذكورة من مشاكل وأزمات للأخوين بسبب ما اشتملت عليه من انتقادات واضحة لما كان يقوم به مواطنوه من نهب للآثار المصرية القديمة ونقلها إلى فرنسا، وما يمكن أن يترتب على مثل هذا النشاط من تدمير وتخريب لتلك الآثار، ونحن إذ نقبس فقرات مطولة من هذه الرسالة فإننا نقصد بذلك أن نسجل هنا على شامبليون آراءه ووجهة نظره التي كتبها بنفسه حول هذا الموضوع، لكي نرى بعد ذلك مدى صدقه والتزامه بهذه الآراء عندما يوضع هو نفسه تحت الاختبار، أعنى أثناء قيامه برحلته المشهورة إلى مصر، وخوضه غمار التنقيب الأثري على أرض الواقع. فهل سيظل شامبليون على مبادئه وآرائه التي سجلها في هذه الرسالة، وذلك بعد ثمان سنوات من الآن عندما يرحل إلى مصر؟ هذا ما سوف نعرفه بعد قليل.

ما يهمنا الآن أن شامبليون قد بدأ رسالته بداية لا تتفق مع فحواها: "إننا نحى مشاعر النخوة الوطنية التي حثت اثنين من أبناء وطننا على القيام بهذا المشروع الجريئ بمهارة ونجاح. فبعد كل ما بذلته فرنسا من جهود تهدف إلى التنقيب عن الآثار المصرية واستكشافها، أصبح من حقها اليوم أن تحظى ببعض تلك الآثار النفيسة، كما أصبح من حقها أن تتبجح لإمكانية اقتناء قطعة فريدة تعوضها عن فقد حجر رشيد وباقي القطع الفريدة الأخرى التي اجتهد علماء الحملة الفرنسية في جمعها" ثم ينتقل شامبليون بعد ذلك إلى الغرض الأصلي من كتابة رسالته هذه: "ونحن إذ نرى السيدين سولينييه ولولوران لما بذلاه من عناية وجهد سيكلان بنقل الأبراج السماوية لمعبد دندره من ضفاف النيل إلى شواطئ نهر (السين) وليس إلى ضفاف نهر (التايمس)^(٣١)؛ لا يسعنا في ذات الوقت إلا الإعراب عن بعض الأسف لتجريد ذلك المعبد من أجمل القطع التي تزينه، بل يساورنا التساؤل حول ما إذا كان أخوانا في الوطن قد أخطأنا بفعلتهم تلك تحت تأثير شعور سام ونبيل، فهل يا ترى تدبر كل نتائج وتبعات هذا المشروع وهما مندفعان بتأثير الرغبة في رفع رأس الوطن؟ فهل فكروا في القدوة السيئة التي أعطيناها الآن لكافة الشعوب؟" وبعد ذلك يبدأ شامبليون في الحديث عن الأضرار الناتجة عن نزع القبة المذكورة من

سقف المعبد " إننا بصدد بناء رائع في حالة جيدة جداً من الحفظ..... إن مجرد سرقة أبراج الزودياك تجعل تلك الحجرة غير مسقوفة، كما تهدد باقي أجزاء السقف بالتدمير الكلى..... إن احتفاظ عمائر مصر القديمة بأسقفها كان العامل الرئيسى في حمايتها والحفاظ عليها بهذه الصورة المدهشة ؛ إذ أنه بمجرد خلع ذلك السقف الواقع، ما من شئ يحفظ الجدران والأعمدة وكل الدعائم " ثم أخذ شامبليون يعالج المسألة من وجهة نظر أعم وأشمل: " إن آثار وادى النيل تتكون من أحجار لن يتعذر علينا نقلها واحدة تلو الأخرى إلى فرنسا أو إنجلترا مهما بلغت أحجامها، ولكن ماذا سنكسب من وراء ذلك ؟ ينبغي علينا الاعتراف بأن الرومانيين قد قدروا الآثار المصرية حق قدرها أكثر منا بالرغم من جهلهم بالعلوم وتغلفهم في العديد من النواحي، وعندما رغبوا في الاعتراف منها لتكليل انتصاراتهم وتزيين مدينتهم اختاروا المسلات. ها هي تذكارات نصر نبيلة، ها هي الزينة الحقيقية لعاصمة كبيرة. كما أن إنجلترا فاقت في تقدير تلك الآثار فرنسا التي كانت ولا تزال تستطيع الاحتذاء بروما القديمة والمعاصرة، أما قطعة أبراج الزودياك التي ستصل إلى فرنسا، فلا يمكن استخدامها كزينة بل تقتصر أهميتها على الناحية العلمية فقط. لذلك كان بمقدورنا بلوغ غايتنا بدون فصل ذلك الحجر عن باقي المبنى الذى يشكل جزءاً لا يتجزأ منه منذ العديد من القرون. وقد نجحنا بالفعل في سلبه إلا أنه سيفقد قدراً عظيماً من قيمته وأهميته، ومن بدرنا لعل العلماء سيتجادلون في المستقبل حول المكان الذى كان يشغله في الأثر الكبير قبل اقتلاعه منه، أو حول زاوية اتجاهه، أو حول النقوش التي كانت تحيط به... ألخ ؟ وإذا كنا لا نقنع بالألفى نسخة المصغرة المنتشرة في جميع أنحاء أوروبا - علماً بأنه بمقدورنا مضاعفة ذلك العدد - وإذا كانت النقوش غير متقنة النسخ فما الذى سيمنعنا من صب تلك القطعة الأصلية بعناية في قوالب من الجبس أو الشمع أو الكبريت ؟ على أية حال فإن كان هناك ثمة ما يرضى محبي الفنون فسيكون ذلك هو رؤية هذا الأثر الجليل مخصصاً لمتحف فرنسا، أما في حالة خروجه من وطننا فلن يكون هناك ما يعزينا عن تشويه معبد دندرة على هذا النحو "(٣٣٦).

ويعنى ذلك أن شامبليون لا يسوؤه نهب الآثار المصرية وسرقتها إن كان ذلك في مصلحة فرنسا، وإن ترتب على هذا النهب تشويه الأبنية والآثار الباقية وتدميرها، بل حتى وإن فقدت الآثار المسروقة ما لها من قيمة علمية، تلك القيمة التي تقل كثيراً في حالة نزع الأثر من مكانه الأصلي ونقله إلى جهة أخرى كما شهد بذلك شامبليون نفسه، أما إذا كان ذلك النقل إلى دولة أخرى غير فرنسا فإن شامبليون لا يوافق على ذلك، وهو مبدأ غريب ما كان ينبغي صدوره من عالم له وزنه في مجال علم المصريات مثل شامبليون.

وإذا كنا بصدد الحديث عن الدور الفرنسى في تهريب آثار مصر القديمة إلى الخارج ؛ فإنه ينبغي ألا نغفل الإشارة إلى الجهود التي بذلها الفرنسى برنيس دافين Prisse d'Avennes في انتزاع

قاعة الأجداد^(٣٣٣) من معبد تحتمس الثالث بالكرك، ونقلها إلى باريس " بعد العناية الشديد والمشقة الزائدة " كما يقول على مبارك^(٣٣٤)، مع أن بريس دافين لم يكن لديه تصريح يخول له القيام بهذا العمل، فكان بريس يعمل في الليل بهمة حتى أفلح في تعبئة الأحجار في ثمانية عشر صندوقاً قبل الإبلاغ عنه لحاكم إسنا الذي قرر فرض الحراسة أخيراً على خيمة بريس. وبعد شهرين تمكن دافين من رشوة الحاكم نفسه، فسهل له نقل الصناديق إلى أحد المراكب أثناء الليل. وحتى القنصل الفرنسي نفسه قد تقاعس عن إتخاذ أى إجراء عقابي ضد بريس دافين، لأن الشحنة الثمينة قد استقرت في النهاية في متحف اللوفر حيث أعيد تجميع الغرفة من جديد^(٣٣٥). كذلك قام الكولونيل بوتان Le Colonel Botin الذي زار مصر عام ١٨١٢م (١٢٢٧هـ) بنشاط موسع في مجال البحث والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة، فزار وادى الملوك والقرنة عدة مرات، ثم عاد إلى بلاده في نهاية المطاف بمجموعة كبيرة من التماثيل والمبدليات الأثرية وأوراق البردى^(٣٣٦). وقد أشبهه في ذلك الكونت سانت فريول الذي نقل أثناء سياحته في مصر في شتاء عام ١٨٤١-١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) عدة قطع أثرية عثر عليها في معبد أرمنت ورجع معظمها إلى عهد تحتمس الثالث، وهذه القطع الأثرية محفوظة الآن في متحف مدينة جرينوبل الفرنسية^(٣٣٧) مسقط رأس شامبليون ولا يختلف عنهما كثيراً سالييه الذي نجح في تكوين مجموعة أثرية مصرية وصفها شامبليون بأنها " مجموعة ثرية "^(٣٣٨).

ومن بين الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر وأبدوا اهتماماً ملحوظاً بالآثار المصرية، الرحالة الفرنسي فريبريك كايو Frederic Caillaud وهو عالم طبيعة من مدينة نانت، كان شغوفاً بالآثار المصرية القديمة، جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) ومكث فيها ثلاث سنوات زار خلالها العديد من المناطق الأثرية^(٣٣٩)، وعاد بعدها إلى فرنسا ومعه مجموعة تزيد عن خمسمائة قطعة من الآثار القديمة^(٣٤٠) ويبدو أن كايو كان معروفاً في عصره بشدة ميله وولعه بجمع الآثار المصرية والتنقيب عنها : حتى إن جان فرانسوا شامبليون عندما أخبر أخاه الأكبر جاك جوزيف بأن الإيطاليين يعرضون عليه - بعد حصوله على الجنسية الإيطالية - وظيفة قائم بالأعمال الدبلوماسية في مصر، وكان ذلك في عام ١٨٢٥م (١٢٤٠، ١٢٤١هـ) رد عليه جاك جوزيف قائلاً: " العمل مع الأجنبي تفوح منه رائحة المغامرة، وهو مالا يصلح له سوى من كان غير كفء في بلاده، والذهاب إلى مصر بحثاً عن الأحجار هو عمل يصلح له من كان مثل كايو وغيره من الذين يتمتعون بأقدام صلبة ومعدة قوية "^(٣٤١) والغريب أن كايو قد أبدى استياءه بما تلحقه الدول الأخرى - غير فرنسا بطبيعة الحال - من دمار بكنوز مصر القديمة " والواقع أنه لو لم يكن يخشى على الآثار إلا من المياه وتتابع الفصول فلربما عاشت عصوراً طويلة، ولكن كان

عليها أن تواجه عنف الأتراك والأكثر من ذلك أيدي بعض الأوروبيين، ولن أذكر أسماء، وإنما اكتفى بأن ألاحظ أنهم ليسوا فرنسيين^(٣٤٢).

وهو كلام غريب ندهش له كثيراً، على أن دهشتنا هذه سرعان ما تزول عندما نعلم أن هذا الموقف من جانب كابو لم يكن فيه بدعاً بين غيره من مآثر الرحالة والكتاب الفرنسيين في ذلك الوقت، فمنذ السنوات الأولى للتنافس الإنجليزي الفرنسي في نهب الآثار المصرية وكل من الدولتين تلقى اللوم على الأخرى فيما يحدثه كلاهما من تلف يلحق ب تلك الآثار. على أية حال فإن هذا يقودنا إلى الحديث عن دور الجانب الإنجليزي هو الآخر، أو بالأحرى دور الرحالة والسائحين الإنجليز في سرقة آثار مصر القديمة ونقلها إلى الخارج، سواء إلى بريطانيا أو إلى غيرها من الدول. ويجب أن نبدأ هنا بالإشارة إلى مجموعة الدكتور هنري أبوت Henry Abbot التي تعد أكبر مجموعة مصرية دخلت الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن التاسع عشر، ورغم أن أبوت كان إنجليزي الجنسية إلا أنه قرر إحضار مجموعته من قطع الآثار المصرية القديمة التي جمعها أثناء إقامته في مصر إلى نيويورك عام ١٨٥٢ م (١٢٦٨/١٢٦٩ هـ) بغرض استثمارها تجارياً، إذ لم يكن أبوت ممن يهتمون كثيراً بالمصريات، وقد بقيت تلك المجموعة في الولايات المتحدة الأمريكية حتى بداية القرن العشرين لاتفوقها أية مجموعة أخرى.^(٣٤٣)

كذلك قام اللورد ألجيرنون بيرمي - يعاونه في ذلك الميجور أورلاندو فيلكس - بجمع مجموعة من الآثار أثناء سياحته في مصر وصلت في النهاية إلى أكثر من ألفي قطعة^(٣٤٤).

وحتى السيدات الإنجليزيات اللاتي زرن مصر خلال القرن التاسع عشر؛ كان للبعض منهن ولى اهتمام بجمع الآثار المصرية، ومن هؤلاء السيدات الليدى ميوكس Lady Meux التي قدمت إلى مصر في ثمانينيات القرن التاسع عشر ومكثت بها أحد عشر عاماً جمعت خلالها بعض الآثار القديمة وصلت في النهاية إلى مائتين وأحد عشر أثراً ضمت مومياء بتابوتها، ومع ذلك فقد استحوطت ليدى ميوكس تقريراً جريداً " المقتطف " لأنها " قد فطنت إلى ما لم تفطن إليه الحكومة المصرية حتى الآن، وهو أن جمع الآثار ووضعها في دار التحف لا يفيد الناس الفائدة المطلوبة منها، بل لابد من وصف هذه الآثار؛ وشرح كل ما يعلم من أمرها، وطبع ذلك في كتاب يطلع عليه علماء هذا الفن، ولذلك انتدبت رجلاً من أكبر العلماء في علم الآثار المصرية وهو الدكتور بدج من رجال دار التحف البريطانية لترتيب هذه الآثار ووصفها وصفاً علمياً مدققاً، فألف كتاباً مسهباً طبعته منه مائتي نسخة فقط طبعاً بديعاً بالصور والألوان، وجلدتها وزهبتها وأهدتها إلى المراكز العلمية... وهي آية في الوضع والطبع^(٣٤٥) واعترفت السيدة إميلي إدواردز بأنها تلقت من حاكم أرمونت مجموعة من الهدايا كان من بينها اثنان من الجعارين وتمثال جنائزي صغير من البورسلين الأخضر النادر، وقالت السيدة إميلي إن الحاكم نفسه قد أطلعها على جعلها كان

يرتديه بوصفه فصاً لأحد الخواتم^(٣١٦)، وكانت السيدة دف جوردون Duff Gordon التي زارت مصر ومكثت بها لعدة سنوات بداية من عام ١٨٦١م (١٢٧٧، ١٢٧٨هـ) كانت تشتري الآثار كهدايا وترسلها إلى أسرتها^(٣١٧) كما أرسلت قطعة أثرية كبيرة تمثل رأس تمثال لأسد إلى الإسكندرية لكي تشحن إلى إنجلترا^(٣١٨).

وكما هو مع الفرنسيين فقد كانت أساليب بعض هؤلاء الإنجليز في جمع الآثار وتبريها فجة وغير مستساغة، فقد تشكى مدير قنا وإسنا مرة أخرى إلى المعية السنية من أن سائحا إنجليزيا - هذه المرة ويدعى اللورد هارود - أثناء زيارته لأماكن الآثار أظهر رغبته في نقل مسلتين كبيرتين مكسورتين في ناحية الكرنك وتمثال كبير، وتزن كل مسلة حوالي خمسمائة قنطار^(٣١٩) وأمر بإنزالها إلى الساحل لنقلها، فأفهمه مدير قنا وإسنا بلطف بأن هذا يتوقف على صدور إرادة سنية، فأجاب - اللورد بأنه حاصل على تصريح، ويقول المدير إن الآثار المذكورة موجودة داخل البريه [المعبد] ويلزم كسر بعض الأحجار لإمكان استخراجها، كما أنه يلزم نحو خمسمائة عامل لمدة يومين لنقلها، وحبال وغير ذلك، وأنه نظراً لأن الرجل من عظماء الناس، وأنه لابد أن يكون حاصلأ على تصريح فقد كتب إليه المدير يبلغه أن يشرع في إعداد المعدات اللازمة للنقل ثم ينتظر أمراً^(٣٢٠) ولعل من نافلة القول أن نذكر أن الرجل لم يكن حاصلأ على أى تصريح يبيح له نقل تلك الآثار، بل وربما لم يكن حتى من عظماء الناس أصلاً، على أية حال فقد صدرت الأوامر المشددة اللازمة من المعية السنية إلى مدير قنا وإسنا "ليعترض على النقل ويمنعه متشبثاً بأنه ليست لديه أوامر تبيح الإخراج"^(٣٢١).

وإلى الولايات المتحدة الأمريكية وصلت في عام ١٨٢٣م (١٢٣٨/١٢٣٩هـ) مجموعة الملازم تانر Tanner Livtenant والتي تعد أول مجموعة قيمة من الآثار المصرية تشهدا الولايات المتحدة، وقد أهديت هذه المجموعة الثمينة إلى متحف ولاية ماسا شوستس. كما أحضر المقدم كوهين Colonel Cohen مجموعة أخرى إلى ولاية بلنيمور عام ١٨٣٥م (١٢٥٠/١٢٥١هـ) وهناك مجموعة ثالثة أخرى قيمة وهى مجموعة جون هامرسلى Gohn Hammersley التي نقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، والتي أهديت فيما بعد إلى جامعة كولومبيا^(٣٢٢).

وتجدر الإشارة إلى الدور الذى لعبه الأمريكى تيودور دافيز Theodore Davies الذى كان له نشاط واسع في مجال التنقيب عن الآثار المصرية منذ عام ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ) حتى إنه قدم موارد مالية ضخمة مساهمة منه في الحفريات التي كان يتولاها المسئولون عن إدارة مصلحة الآثار القديمة المصرية، ويقول أمريكيون إن ذلك الرجل كان من الإنصاف والكرم بحيث سمح في اتفاهه مع الحكومة المصرية بأن جميع المكتشفات تصبح ملكاً للمتحف المصرى بالقاهرة^(٣٢٣)، بينما يصير

مصريون على أنه قد حصل لنفسه على مكاسب من جراء هذه الرعاية، وأنه أخذ آثاراً من مقبرة تحتمس الرابع، وأخرى من مقبرة حور محب، وأواني فخارية من مقبرة أخناتون، بالإضافة إلى تابوت وجده في إحدى المقابر عام ١٩٠٣ م (١٣٢١-١٣٢٠ هـ) وأهداه فيما بعد لمتحف المتروبوليتان بنيويورك، وهم يؤكدون أن تكاليف الحفر التي أنفقها دافيز في استكشاف مقبرة أخناتون لا تزيد عن سبعة آلاف وخمسمائة جنيه، أما قيمة الآثار التي حصل عليها من تلك المقبرة فقد زادت على واحد وعشرين ألفاً من الجنيهات.^(٣٥١) كذلك حصل الأمريكي وليم برايم William Prime على فرمان من الحكومة المصرية بالسماح له بالحفر بحثاً عن الآثار في منطقة طيبة، وقام باستنجاز خمسين عاملاً للقيام بالحفر في وادي الملوك بالقرب من الأقصر وبدأ واضحاً أنه لم يستطع القيام بأى حفريات ناجحة بدليل عودته إلى القاهرة ومعه مجموعة بسيطة من الجعارين وقطع النقود ومومياة آدمية وأخرى لتمساح، وقد قام برايم بوضع تقرير عن رحلته^(٣٥٢).

ويستحق الرحالة وتاجر الآثار الأمريكية إدوين سميث Edwin smith ذكراً خاصاً من بين العديد من الأمريكيين الذين زاروا مصر بحثاً عن الآثار المصرية القديمة، فقد أقام أدوين في الأقصر ابتداءً من عام ١٨٥٨ م، (١٢٧٤/١٢٧٥ هـ) ولدة ثمانية عشر عاماً كان يقرض خلالها لصوص وتجار الآثار المحليين على ذمة سرقة الآثار المصرية وفي يناير من عام ١٨٦٢ م (رجب ١٢٧٨ هـ) حصل إدوين على مجموعتين من أوراق البردي، باع الأولى منها للألمان بينما أهدت ابنته المجموعة الثانية للجمعية التاريخية في نيويورك، وهي محفوظة الآن بأكاديمية الطب في نفس المدينة وتتضمن هذه المجموعة الثانية معلومات قيمة عن الطب عند القدماء المصريين^(٣٥٣).

ومن السائحين الإيطاليين تنهى الإشارة بصفة خاصة إلى جيوسيبي باسالاكوا Giuseppe Bassalacqua الذي ولد في مدينة تريستا الإيطالية عام ١٧٩٧ م (١٢١١/١٢١٢ هـ) وعندما بلغ أشده اتخذ من الاتجار في الخيول مهنة له، ثم بدأ له أن الحظ سيواتيه إن هو ذهب إلى مصر حيث الخيول العربية الأصيلة، إلا أنه وجد أن الاتجار في الآثار أكثر ربحاً، فقام بالحفر في مناطق مختلفة، وخاصة في طيبة ومنف وجمع مجموعة كبيرة من التحف حملها معه إلى باريس عام ١٨٢٦ م (١٢٤١/١٢٤٢ هـ) وأقام لها معرضاً كان له دوى كبير في الأوساط العلمية^(٣٥٤) وتقدمت إليه الحكومة الفرنسية بطلب لشراء هذه المجموعة الفريدة، فاشتراط عليها باسالاكوا أربعمئة ألف فرنك ثمناً لها، وهو ما جعل جان فرانسوا شامبليون يعارض هذه الصفقة بشدة، ويحذر حكومته من الثمن المبالغ فيه جداً والذي يطلبه جامع التحف الإيطالي، وكان يفضل شراء مجموعة سولت الثانية والتي كانت قيمتها أكبر بكثير من مجموعة باسالاكوا، وهذا في الوقت الذي كان فيه جومار يؤيد هذه الصفقة، ولعل ذلك مما يضيف سبباً ثانياً بدأ أنه معقول ومقبول إلى أسباب معارضة شامبليون الشديدة لشراء هذه المجموعة، فقد سبق وأن عارض جومار

صفقة شراء الحكومة لمجموعة دروفيتي الأولى والتي كان شامبليون يعرضها بشدة - كما سبق القول - أي أن هذه بتلك. على أي حال فإن عدم استجابة الحكومة الفرنسية لمطالب باسالاكوا قد دفعه إلى تخفيض ثمن المجموعة بمقدار الثلثين، ولعل هذا مما يؤكد صحة وجهة نظر شامبليون، وهو الأمر الذي دفعه بدوره هو الآخر إلى إعادة النظر في أمر شراء المجموعة، وكان من رأيه أن مبلغاً يتراوح بين ستين وثمانين ألف فرنك يعد ثمناً مناسباً لمجموعة باسالاكوا. وفي نفس الوقت كان متحف برلين قد دخل هو الآخر في المفاوضات الدائرة حول شراء المجموعة كمنافس قوى، وانتهى الأمر بتلك المجموعة إلى بيعها لملك بروسيا الذي أودعها في متحف برلين بعد أن تقاضى باسالاكوا مبلغ مائة ألف فرنك ثمناً لها، وذلك علاوة على وظيفة أمين القسم المصري بمتحف برلين^(٣٥٨) حيث ظل محتفظاً بهذه الوظيفة حتى وفاته عام ١٨٦٥م (١٢٨٢/١٢٨١هـ)^(٣٥٩).

وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر رزنت البلاد بأحد قراصنة الآثار الإيطاليين ويدعى أميلينو Amellino^(٣٦٠)، جاء إلى مصر بتمويل من بعض كبار هواة جمع التحف والآثار المصرية القديمة، وأجرى حفائره العشوائية في منطقة "أم الجعاب" القريبة من أبيدوس، وعثر على مجموعة من بقايا وأطلال ملوك الأسرتين الأولى والثانية المصريتين أخذ ينقب فيها بلا دراية ولا حرص بطريقة تقترب من التدمير، بل قام فعلاً بتدمير وتحطيم مجموعة كبيرة من التحف والأواني الحجرية المتكررة حتى يرفع من قيمة وثمان ما يحتفظ به^(٣٦١).

تسببت حفائر أميلينو في أم الجعاب والتي استمرت أربعة أعوام في تحطيم الكثير من آثار ذلك العصر، إذ كانت هذه الحفائر تسير خبط عشواء وبطريقة غير منتظمة، كما كان هو نفسه يفتقد إلى الخبرة والمران اللازمين، وكان يهدف من تنقيباته إلى الحصول قبل كل شيء على قطع أثرية ثمينة وذات قيمة مادية، كما نشر نتائج أبحاثه نشرأ غير دقيق^(٣٦٢).

ومن بين السائحين الألمان الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر، ونجحوا في تكوين مجموعة أثرية قيمة كان الجنرال البروسي البارون مينوتولي Minotoli وهو ألماني من أصل إيطالي، زار مصر خلال عامي ١٨٢٠، ١٨٢١م، ثم سافر إلى واحة سيوة ومنها إلى ليبيا، وقد تمكن أثناء زيارته لمصر من تكوين مجموعة أثرية كبيرة بعد أن ساعدته على ذلك تصارح الحفر اللازمة التي منحها له محمد علي: "نظراً لأن جناب صديقنا البارون مينوتولي المحترم جنرال بروسيا التمس التصريح له ولزوجته ولسبعة رجال من أتباعه بالتفرج على أعالي الصعيد لغاية وادي حلفه فقد تحرر أمر بإرفاق حاجب بمعينته، وألا يمانع حكام الأقاليم وضباطها في أمر تفرجهم ونزهتهم، وفي أمر استمرارهم إذا أرادوا البحث عن آثار المباني القديمة"^(٣٦٣) ومثل ذلك أيضاً: "طلب تحرير مكاتبات إلى مشايخ سيوة لأجل مساعدة الجنرال مينوتولي البروسي في أعماله المتعلقة بالبحث عن

الأنثيكات، وإرسال هذه المكاتبات إلى الخواجة بوغوص الترجمان ليسلمها إلى الجنرال المشار إليه^(٣٦٤)، وفي عام ١٨٢٣ م (١٢٣٨/١٢٣٩ هـ) أفتى متحف برلين مجموعة مينوتولى التي كونها بفضل هذه الأوامر السابقة، وبعبير أدق فإن المتحف المذكور قد أفتى نصف هذه المجموعة أو أكثر من نصفها قليلاً، ذلك أن جزءاً كبيراً منها قد تعرض للغرق في مجرى نهر الألب أثناء نقلها ومما هو جدير بالذكر أن مجموعة الإيطالي باسالوكوا رغم أنها كانت تقل عدداً عن مجموعة مينوتولى إلا أنها كانت تفوقها قيمة^(٣٦٥).

ويعترف الأمير رودلف النمساوى الذى قام برحلة إلى مصر في بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر بأنه قد حمل معه من مصر كثيراً من العاديات المصرية القديمة التى حصل عليها بطريق الشراء من تاجر آثار يقيم بقرية العرابية المدفونة كان من مخربات القدر أنه كان أعشى، وكان هذا الرجل الذى يصفه الأمير رودلف " بالمحترم " واحداً من أغنى ملاك العقارات في القرية، ويمارس الإتجار في الآثار المصرية، إذ كان يحفر في المعابد وما حولها رغم مخالفة ذلك للقانون^(٣٦٦). كذلك حمل الأمير معه أثناء عودته إلى بلاده نقشاً ثميناً كان مسجلاً على لوحة من الجرانيت الأسود عثر عليها الأمير ملقاة بالقرب من معبد أرمنت^(٣٦٧)، ومن الغريب أن كل هذه الصفقات المشبوهة قد تمت تحت سمع وبصر وبمباركة من الألماني هنرى بروجش الذى كان يرافق الأمير بصفته ممثلاً عن الحكومة المصرية كمرشد سياحى للأمير النمساوى ورفاقه، ولعل وجه القرابة في ذلك أن بروكش كان من الرواد الأوائل الذين أسهموا في تطوير الوعى الأثرى لدى الشعب المصرى، إذ كان يشغل وظيفة مدير أول مدرسة أثرية في مصر بل وربما في الشرق الأوسط.

واشتري الرحالة الروسى جولنشف مجموعة قيمة من الآثار المصرية في أواخر القرن التاسع عشر، كان من بينها مجموعة كبيرة من أوراق البردى التى عثر عليها في قرية الحيبه عام ١٨٩١ م (١٣٠٨/١٣٠٩ هـ) والتي كانت تحوى - من ضمن ما تحويه - القصة المشهورة في الأدب المصرى القديم باسم " مغامرات وينامون "^(٣٦٨). كذلك عثر هذا الرحالة الروسى على كمية أخرى من أوراق البردى المصرية في الدير الإمبراطورى في بتروجراد عام ١٨٨٠ م (١٢٩٧ هـ) احتوت هى الأخرى على قصة شهيرة في الأدب المصرى القديم، وتعرف باسم " الفريق "^(٣٦٩) وقد قام جولنشف بإهداء هذه المجموعة الأثرية إلى متحف الفنون الجميلة في موسكو ومتحف الإرميتاج في ليننجراد، حيث أصبحت هذه المجموعة نواة لمجموعات الآثار الشرقية في متحفين من أكبر المتاحف في الاتحاد السوفيتى في وقتها^(٣٧٠).

ثالثاً: دور البعثات العلمية:

تمهيد:

لقد تميز القرن التاسع عشر بكثرة البعثات التي وفدت إلى مصر من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بقصد وصف الآثار المصرية القديمة القائمة، وتسجيل النقوش والرسوم التي تكتنف تلك الآثار، وكذلك البحث عن الآثار والتحف الأثرية النادرة، وقد يكون من الصعب بل ومن المستحيل عمل حصر وإحصاء لكل البعثات العلمية التي أوفدها الجامعات والمعاهد ومتاحف الآثار ومتاحف القنون الجميلة من كل أنحاء العالم إلى مصر، وإن كان من المؤكد أن تلك البعثات قد جابت الفيافي والقفار، وارتادت صحارى مصر الواسعة، وبذلت جهوداً جبارة سعياً وراء المعرفة، فقد انتشر أعضاؤها في جميع أنحاء القطر المصرى ومعهم الرسامون الذين سجلوا مشاهداتهم تسجيلاً علمياً دقيقاً، ورسموا صوراً ولوحات دقيقة لأهم النصوص الهيروغليفية التي كانت مدونة على جدران المعابد والمقابر والتمائيل والمسلات. وإن كان من المؤكد كذلك أن بعض تلك البعثات قد كان لها في الآثار المصرية أغراض أخرى غير الأغراض العلمية ؛ فقد استغلت هذه البعثات فرصة وجودها في مصر، وفرصة الكرم الأثرى الذى أولاه حكام مصر في القرن التاسع عشر للأجانب، وراحوا ينقلون إلى بلادهم ما خف حمله وغلا ثمنه وعدم نظيره وندر وجود مثله من الآثار المصرية. وليس فقط ما خف حمله، بل وما ثقل كذلك حتى قد إنهم نقلوا إلى بلادهم توابيت حجرية ومسلات بأكملها، وبهنا في هذا الإطار أن نشير إلى بعثتين هما: بعثة شامبليون - روزليني، وبعثة ليسيوس، ثم إلى بعثة ثالثة أقل شهرة من الأوليين وهى بعثة إرنستو سكياباريلي Ernesto Sechiaparelli.

بعثة شامبليون^(٣٧١) - روزليني^(٣٧٢) (١٨٢٨-١٨٢٩م/١٢٤٤-١٢٤٥هـ):

كان جان فرانسوا شامبليون على معرفة تامة بالإنجاز العظيم الذى قامت به لجنة العلوم والفنون التى شكلها بونابرت أثناء حملته على مصر، كما كان يعى بوضوح أكثر من غيره ما يدين به لعلماء حملة ١٧٩٨ م ؛ إلا أنه كان يؤمن أيضاً بأن له دوراً يؤديه، ويقدم إضافة جديدة إلى عمل هؤلاء العلماء، ومن ثم فقد كتب في عام ١٨٢٧ م (١٢٤٣/١٢٤٢هـ) مذكرة رفعها إلى الملك شارل العاشر يلتمس فيها الموافقة على قيامه برحلة علمية إلى مصر، وقد أشار شامبليون في هذه المذكرة إلى: " إن أعضاء لجنة العلوم والفنون والرحالة الذين مضوا في أثرهم كانوا يعتقدون باستحالة الوصول إلى فض أسرار الرموز الهيروغليفية وهو ما حفزهم على عدم التدقيق في نسخ النقوش المسببة، والكتابات المقدسة المصاحبة للشخص المحفورة في لوحات النقش الغائر التاريخية، بل إنهم أهملوا نسخ الكتابات مكتفين بتحديد المكان الذى تشغله إلى جانب المشاهد المصورة التى نقلوها، في حين أن الاستنساخ الدقيق لهذه المناظر الرائعة بكل ما تحمله من نقوش

الكتابة الهيروغليفية يحمل في طياته قيمة ثمينة بغير حدود، وذلك أن هذه المشاهد يكتنف كل واحد منها سر الآخر، وهو ما يحقق الآمال العريضة التي تعقدها عليها علوم التاريخ^(٣٣٣) وهكذا فصل شامبليون في مذكرته للملك أهداف رحلته: أن ينقل إلى أوروبا تلك الوثائق الهامة التي يتهدها لصوص المقابر الذين يجهلون قدرها، كما تترصدها الفيضانات التي لا تكف عن التلاحق.

ومن ناحية أخرى فإن دروفيتي الذي كان على اتصال بشامبليون قد حذره من أن رحلته إلى مصر يجب ألا تتأخر كثيراً، لأن محمد علي قد بدأ - بالرغم من التحذيرات التي وجهها له دروفيتي كما يدعى - في هدم المعابد لاستخدام أنقاضها وأماكنها في بناء مصانع السكر. ومن ثم فقد أوضح شامبليون للحكومة الفرنسية أن هذا المشروع لا يمكن إرجاؤه بسبب الأخطار التي قد يترتب عليها عدم وجود ما يمكن الحصول عليه اليوم من السفر إلى هذه الأرض بعد بضعة سنوات^(٣٣٤).

وأرفق شامبليون بمذكرته كشفاً مفصلاً بالأعمال التي يجب أن تنفذ، وبالمهام التي يجب على أعضاء البعثة القيام بها، وهي تشمل رسم العديد من الأماكن والمباني الأثرية المتنوعة على طول ضفاف النيل، والقيام بحفائر أثرية توضع ثمارها في متحف اللوفر الملكي، أو في مكتب الآثار التابع للمكتبة الوطنية بباريس، وكذلك القيام بشراء بعض التحف المثيرة للاهتمام بقصد ضمها إلى المجموع الملكية^(٣٣٥).

وافق الملك شارل العاشر على قيام هذه البعثة العلمية، وتصادف في نفس الوقت أن وافق عاهل توسكانيا الدوق ليوبولد على إيفاء بعثة علمية توسكانية مماثلة، فتم الاتفاق بين البلدين على ضم البعثتين العلميتين في بعثة واحدة مشتركة بقصد خفض تكاليف المشروع بمقدار النصف^(٣٣٦). وهو ما يعني توفير ما مقداره تسعين ألف فرنك لخزانة كلا البلدين. أما فيما يتعلق بالحفائر الأثرية المقترحة فقد تم الاتفاق على أن باريس لن تكون مختصة وحدها بالحفائر والمشتريات الأثرية، بل إن هذه الحفريات ستتم حينما ينفق على ذلك الطرفان، كل على حساب حكومته^(٣٣٧).

ضمت البعثة الفرنسية التوسكانية المشتركة أربعة عشر عضواً بما يعادل سبعة أعضاء لكل من الدولتين: الفرنسية برئاسة جان فرانسوا شامبليون وتضم إلى جانبه ستة أعضاء: شارل نورمان مفتش الفنون الجميلة، وأنطوان بيان مهندس معماري، والرسامون ألكسندر دوشان ولوهو بارتان، بالإضافة إلى شاب عاشق للمصريات ورسام ماهر يدعى نستور لوت أما البعثة التوسكانية فقد كان يرأسها إيبوليتو روزيللي ومعه ستة أعضاء كذلك: المهندس المعماري جايتانو، والرسامان سلفادور سيروبيني وإنجيليلي، والطبيب أليساندرو ريتشي، وعالم الطبيعة جيوسبي راضي، وأحد مساعديه ويدعى جالاستري^(٣٣٨).

وفي الوقت الذي كان فيه شامبليون ورفاقه في مدينة طولون الفرنسية للإعداد لرحلتهم المرتقبة، بعث برناردينو دروفيتي: "يُعَمَّ مصر - مثلها مثل جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية - شعور مناهض للأوروبيين قد يشكل في بعض الأحوال سبباً لإثارة حركات وأعمال شغب تهدد سلامتهم الشخصية، سواء بالنسبة للمقيمين بصفة دائمة أو الذين يتصادف سفرهم هناك، وإذا كان الأمر يتعلق فقط بإرادة محمد علي بإيقاف ردود الفعل الغاضبة لما كان من الصعب الحصول على ما كلفتموني بطلبه منه [كان شامبليون قد طلب من دروفيتي الحصول له على فرمانات من محمد علي تسمح له بزيارة مصر] إلا أنه مجابه هو نفسه بهذا الغضب بسبب مبادئه وشعوره بالميل للأوروبيين، ولم يتمكن من إعطائي كلمة ضمان طلبتها منه من أجلكم ورفاقكم " وراح دروفيتي يعبر عن أمله في " أن يتغير الموقف السياسي للقوى الكبرى إزاء تركيا بما يسمح في المستقبل للرحالة أن يبدؤوا رحلتهم دون ما انتظار لأي إشعار آخر " (٣٧٩)

والحق أن منطقة الشرق الأوسط في ذلك الوقت كانت مفعمة بالقلق والاضطرابات بسبب الثورة اليونانية على السلطان العثماني، وكانت القوى الأوروبية ومن بينها فرنسا تساند اليونانيين ضد الأستانة بينما كان محمد علي تابعاً وحليفاً للسلطان، هذا فضلاً عن الدور الذي لعبته الأساطيل الأوروبية ومن بينها فرنسا بالطبع في تدمير الأسطول المصري في موقعة نافارين في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م (٢٩ ربيع الأول ١٢٤٣ هـ) (٣٨٠) وقد أدى كل ذلك إلى تدهور العلاقات المصرية الفرنسية بحيث يجعل ذلك من مسألة قدوم بعثة رسمية حكومية يرعاها ملك فرنسا إلى مصر في ذلك الوقت أمراً غير مرغوب فيه، ولا يمكن أن ينظر إليها من الجانب المصري بعين الود والترحاب. ولكن ذلك لم يكن السبب الحقيقي وراء محاولة دروفيتي عرقلة قيام هذه البعثة، وأما السبب الحقيقي فقد أوضحه شامبليون في مناسبة سابقة كارلو بيد مونتى قنصل سردينيا في الإسكندرية وزوج ابنة دروفيتي " طالما أن هنرى سولت على قيد الحياة فإن دروفيتي يريد أن يستخدمك لكي يهزمه ويشل حركاته، ولكن وبعد وفاته فإنه سيسقط القناع ؛ حينئذ يجب أن تأخذ حذرَكَ منه " (٣٨١) والذي حدث أن سولت قد توفي فعلاً في ٢٧ أكتوبر ١٨٢٧ م (٦ ربيع الآخر ١٢٤٣ هـ) وحدث بالفعل ما توقعه كارلو بيد مونتى إذ أنه ما إن اختفى منافس دروفيتي حتى أصبح هذا الأخير أقل إلحاحاً وتأييداً لرحلة شامبليون عن ذي قبل، كما أخذ ينشط لدى المسؤولين الفرنسيين غير المتحمسين لرحلة شامبليون - ومن بينهم منافسة جومار بالطبع - حتى لا يدرج أى بند للحفائر الأثرية في ميزانية الرحلة، إذ كان دروفيتي يأمل في أن يبقى سيد الموقف بلا منازع، ينقب كيفما يشاء ويهرب غنائمه في أى وقت يشاء، ويبيعها لمن يشاء وبالسعر الذي يشاء، على أية حال فإن جاك جوزيف الذي تسلم رسالة دروفيتي السابقة التي وصلت إلى باريس بعد مغادرة جان فرانسوا لها إلى طولون كان يدرك تماماً نوايا وأهداف هذا القنصل تاجر الآثار، فاحتفظ

بهذه الرسالة مدة أسبوع كامل قبل أن يوجهها إلى ميناء الإبحار - طولون - وقد تأكد له أنها ستصل متأخرة بعد إقلاع السفينة التي ستقل جان فرانسوا ورفاقه.^(٣٨٧)

وصلت بعثة شامبليون - روزيليني إلى الإسكندرية في ١٨ أغسطس ١٨٢٨ م (٦ صفر ١٢٤٤ هـ) وفور وصولها بدأت العراقيل والعقبات توضع في طريقها، فقد اعتبرها تجار الآثار ورجال الهيئات القنصلية المشاركين في هذا النشاط عائقاً أمام عمال النهب والسرقة وتهريب الآثار التي كانوا يمارسونها، لاسيما بعد أن علموا أن هؤلاء الدخلاء الجدد لم يحضروا للزيارة فقط إنما التنقيب عن الآثار أيضاً، فكتب جان فرانسوا إلى أخيه: "ارتعد كل تجار الآثار لنياً قدامى إلى مصر بغرض التنقيب عن الآثار، وأخذوا يتآمرون لمنحى من الحصول على الفرمانات اللازمة، ونجحوا في خداع الوزير بوغوص باشا الذي أفصح عن عدم رغبته في منح فرمانات إلا لصديقيه دروفيتي وأنستازي، ونصحوني بصرف النظر عن ذلك الأمر، إلا أنني كتبت مذكرة إلى مولى العقود في القنصلية الفرنسية موضعاً بها حقيقة أنني جئت إلى مصر للتنقيب عن الآثار لحساب متاحف الملك، وعليه فإنني مضطر أن أحيط وزراءه علماً بالأسباب التي منعتني من تنفيذ ما أسند إلى من مهام، كما أن موازنة دنيئة هي التي حالت دون حصولي على تلك الفرمانات، وبما أنني جئت مبعوثاً من الملك ومن حكومته فإن حرمانى من حق قد حصل عليه آخرون مثل بلزوني وباسالاكوا وريفو وغيرهم يمثل إهانة لشخص الملك الذي أحمل اسمه، وإذا كان الباشا ووزيره يرغبان حقاً في الحفاظ على سمعتهما في أوروبا كحماة للعلوم والفنون فيها هي الفرصة الوحيدة - بإعطائى فرمانات للتنقيب - لتشجيع وحماية العلم فعلاً، خلافاً لما دأبوا عليه حتى الآن، من تسهيل وخدمة المصالح الفردية والمضاربات التجارية عن طريق منحهم فرمانات مماثلة لمن لا يستحقونها. إن لي هدفاً آخر أبتغيه من وراء الحفائر، هدف أسى وأرفع من تلك المضاربات ألا وهو حصر محتويات المقابر التي ستودع بعد ذلك في متحف الملك الذي تفضل هو نفسه بإثرائه وذلك بإهدائه أربعين حلية ذهبية. ولقد بلغت هذه المذكرة التي أضفت إليها بعض الملاحظات الأخرى إلى الوزير بوغوص، إن هذا الإجراء علاوة على رأى العام السائد في الإسكندرية قد حسم القضية لصالحى... لذلك فقد تسلمت اليوم الفرمانات، حتى إن السيدين دروفيتي وأنستازي تنازلا لي عن حقهما في التنقيب في بعض المناطق المقصورة عليهما"^(٣٨٨)، ولا ندرى كيف يكون التنقيب عن آثار مصر القديمة وسرقتها وتهريبها إلى الخارج وسيلة مثلى لتشجيع وحماية العلوم والفنون ؟ ثم كيف يكون تزويد متحف اللوفر بآثار مختلصة من أصحابها هدفاً سامياً ورفيعاً !!!

على أى حال فإن شامبليون قد حصل على الفرمانات التي كان يستحيل عليه القيام بالرحلة من دونها، حيث صدر له في نهاية شهر صفر من عام ١٢٤٤ هـ (١٠ سبتمبر ١٨٢٨ م) أمرٌ كريم يقضى "بالتصريح له بالسفر إلى الأقاليم الصعيدية الشرقية والغربية لغاية برترة"^(٣٨٩) مع أعوانه

لمشاهدة الحفريات الجارية في صقارة والعراية المدفونة بإقليم الجيزة، وغرناق [الكرك] ولوقسور [الأقصر] وقورنه [القرنه] بإقليم جرجا بمعرفة الخواجة دروفيتى قنصل فرنسا، ولحفر بعض الأماكن، وإخراج الأحجار الأثرية منها وإرسالها إلى الإسكندرية، وبألا يتعرض لهم [أحد] من المأمورين ونظار الأقسام وسائر الحكام وقبودانات الموانى في ذهابه وإيابه إلى الجهات المذكورة ومنها، وأن يكرموا مئواه أينما حلّ، ويقدموا له المساعدة اللازمة في المرور والعبور^(٣٨٥) كما حصل روزيليني على تصريح مماثل له تماماً^(٣٨٦)، كما تقرر تعيين أحد القواسين لكل منهما " على أن يكون مرافقاً لهم لحين عودتهم^(٣٨٧)."

ومنذ اليوم الأول لوصولهم إلى مصر، كان شامبليون ورفاقه ينتهزون كل فرصة ممكنة لجمع ما يمكن جمعه من الآثار القديمة، إما عن طريق الحفر والتنقيب أو عن طريق عقد الصفقات المشبوهة، فقد كتب شامبليون إلى أخيه جاك جوزيف في ٢٧ سبتمبر ١٨٢٨ م (١٧ ربيع الأول ١٢٤٤ هـ) قائلاً: " سعيت إلى اقتناص بعض القطع الأثرية إلا إن الأسعار كانت ياهظة للغاية، وسأعود المحاولة مرة ثانية عند عودتي من صعيد مصر لثقتي بأن المجاعة ستجبرهم حينئذٍ على منحه اعتمادات مالية للشراء والتنقيب عن الآثار [وكان معارضو رحلته قد نجحوا في تجميد هذه الاعتمادات التي كانت مقررة له من قبل] فحسبى قليل من المال لكي أقوم بأشياء عظيمة، وإذا لم تغتنم الحكومة فرصة تواجدى في مصر لإثراء متاحفها فستكون تلك الطامة الكبرى^(٣٨٨) "

ويؤكد لأخيه في خطاب آخر بتاريخ ٥ أكتوبر ١٨٢٧ م (٢٥ ربيع الأول ١٢٤٤ هـ) أنه إذا تمكن من الحصول له على اعتمادات مالية خاصة لإجراء حفائر واسعة في منف فإنه سيتعهد له بملء متحف اللوفر يتمائيل على قدرٍ عظيم من الروعة والأهمية في أقل من ثلاثة أشهر، ثم يختم خطابه بقوله: " حرك هذا الطلب، واجعل الجميع يصرخون بأعلى صوتهم لكي يحزم المتكاسلون أمرهم " ولسنا نجد تعليقاً على ذلك أفضل من التعليق الذي كتبه وأضع سيرته حين قال: " هذه الكلمة [المتكاسلون] بلاغية أكثر مما ينبغي، وكان الأصدق أن يقول: المخربون^(٣٨٩) "

وفي قرية الشيخ عباده أعرب شامبليون عن بالغ أسفه وعميق حزنه لأنه لم يتبق شئ من الآثار التي وصفها علماء الحملة الفرنسية قبل ذلك بثلاثين عاماً، وذلك بسبب " عبث السكان وهمجيته، حيث قاموا بالتواطؤ مع حكومتهم بتدمير كل شئ حتى الأساسات ليستخرجوا الجير " ومع ذلك يعترف شامبليون بأنه عقد في تلك القرية أولى صفقاته الأثرية: " اشتريت رأس تمثال لرمسيس الأكبر دون أن يكلفنى ذلك أكثر من قرش واحد، وهو سعر بخس يشمل أيضاً نقل تلك الكتلة حتى مركب المعاش، وقد قام الترجمان بعقد تلك الصفقة الشائنة التي ما كانت نفسى لتطاولنى على اقترافها^(٣٩٠) " وإذا كان شامبليون قد حاول أن يتبرأ من هذا العمل المعيب مدعياً أن ترجمانه هو الذى قام بتلك الصفقة وليس هو، فإنه على الرغم من ذلك قد احتفظ بتمثاله

الذى دفع فيه قرشاً وحداً. ثم إنه قد استمر بعد ذلك القيام بمثل هذه الأعمال واعتاد عليها فيما بعد، ولعل هذا ما يؤكد سلامة وجهة نظر السيدة إميلي إدواردز بهذا الصدد والتي تتلخص في أن السائحين الأجانب يبدؤون زيارتهم لمصر دائماً بالتنقيب.

وفي طيبة حان وقت قيام شامبليون بالتنقيب، هاهو ذا يكتب لأخيه في ٢٥ مارس ١٨٢٩م (١٩ رمضان ١٢٤٤هـ) قائلاً: "وبما أننا بصدد الحديث عن التنقيب أخبرك بأننى شرعت في إجراء حفائر في الكرنك والقرنة، وقد أصبح في حوزتي ثمان عشرة مومياء ترجع إلى مختلف الأحقاب التاريخية، بيد أننى لن أحضر معى إلى فرنسا سوى أفضلها... لقد عهدت بقيادة الحفائر التى أجريتها... إلى رجل يدعى تمساح كان يقود حفائر المسيد دروفيتى في الماضى، وهو يبدو لى رجلاً ماهراً، وضعت فيه آمالاً كثيرة، بيد إن إمكانياتى المالية المحدودة لا تسمح لى بإجراء حفائر واسعة، وكان ينبغى أن تصلنى الاعتمادات الإضافية التى طالبت بها، إلا أن الوقت ينقضى على عجل... فإذا أتيت ببعض القطع الجميلة فسيكون ذلك من قبيل الصدفة من ناحية وبمثابة سخاء وكرم منى من ناحية أخرى، لأننى لست مجبراً على إحضار مجموعة أثرية لمتحف اللوفر، بعد أن رفض المسئولون عن قصد منى الأموال اللازمة لتحقيق هذه الغاية، وعلى الرغم من ذلك فسأحرص على تنشيط عمليات التنقيب... وسأرى بنفسى إذا ما كانت أجور الأربعين عاملاً الذين استخدمهم ستؤتى ثمارها [أم لا]... كما أن عندى ستة وثلاثين عاملاً آخرين ينقبون في القرنة أدفع أجورهم مناصفة مع روزيللى (٣٩١)

على أنه لم يلبث بعد عدة شهور أن صرف النظر عن القيام بتنقيبات وحفائر أثرية أخرى مكتفياً بشراء الآثار التى يريدونها من المعروض المتاح له بالأسواق، وذلك بعد أن اتضح له - كما يقول لأخيه -: "إن التنقيب عن الآثار ليس مهنتى، ولأن العربان الذين نستخدمهم في الحفائر تلزم مراقبتهم بلا هوادة، وإلا فلن ينجحوا في اكتشاف أى شئ، أذ إنهم سيقومون بسرقة وإخفاء كل ما يعثرون عليه" (٣٩٢) ومن الغريب أن يحدث ذلك في الوقت الذى كان فيه ملك فرنسا قد وافق أخيراً "على إضافة مبلغ عشرة آلاف فرنك إلى ميزانية المتاحف في عام ١٨٢٩م لى تخصص لعمليات التنقيب عن الآثار المصرية لإثراء متحف شارل العاشر" (٣٩٣) وهو المطلب الذى كان شامبليون قد ألح مراراً على الإدارة الفرنسية من أجل سرعة الاستجابة له.

كان روزيللى هو الآخر حريصاً على اقتناء ما تصل إليه يده من الآثار المصرية حيث نراه قد استحوذ على ناووس للملك بطليموس السابع كان موجوداً في معبد إيزيس بجريدة فيلة، وبُرى هذا الناووس الآن بمتحف فلورنسا في إيطاليا (٣٩٤). وقد أدى تكالب الفريقين الفرنسى والتوسكانى على الفوز بالنصيب الأوفر بين الآثار المكتشفة إلى وقوع نزاعات وخلافات وصدمات إما مع بعضهم البعض وإما مع الآخرين، فقد حدث أن اختلف الفريقان ذات مرة على لوحة منقوشة للملك

رمسيس الثانى كانوا قد انتزعوها من معبد إيزيس أيضاً وذلك لأن تلك اللوحة - والى سميت نتيجة لذلك بلوحة النزاع - قد أعطيت للفرنسيين في بادئ الأمر باتفاق الجانبين، ولكن الطبيب أليساندرو ريتشى طالب بها بعد ذلك لصالح التوسكانيين، فقد كان لريتشى بعض الحق في تحديد من يأخذ اللوحة لأنه هو الذى كان قد اكتشفها خلال رحلة سابقة له في مصر، بل إنه قام بنسخها، فضلاً عن أن شامبليون كان قد حصل على لوحة مماثلة لرمسيس الأول انتزعت من نفس الهيكل، وبالرجوع إلى القواعد الموضوعية الخاصة بتقسيم الغنائم بين الفرنسيين والتوسكانيين والى كانت محترمة حتى ذلك الوقت، فإن إعطاء إحدى القطعتين الهامتين للتوسكانيين يعد نوعاً من الإنصاف، ولكن يبدو أن الفرنسيين لم يكونوا مقتنعين بذلك، فقد أثبتت القضية مرة أخرى بعد عودة البعثة المشتركة كل فريق إلى بلاده، وكان الذى أثارها هذه المرة هو جان جوزيف - بعد وفاة جاك فرانسوا - وكان ذلك في إطار نزاع شامل بين الفريقين متعلق بكيفية نشر النتائج العلنى للبعثة المشتركة وتحديد ملكية الثروات التى جمعتها البعثة من مصر^(٣١٥).

كما حدث نزاع آخر بين جان فرانسوا وبين الإنجليز بسبب نقش بارز ملون كان شامبليون قد انتزعه من مقبرة مرينبتاح الأول الواقعة في وادى الملوك، وقد وصف شامبليون هذا النقش بأنه " قطعة جوهرة تساوى بمفردها من حيث القيمة مجموعة كاملة من القطع، ولقد تكبدت مشاق جسيمة من أجلها، وستسبب بكل تأكيد في إثارة الشجار مع الإنجليز المقيمين في الإسكندرية والذين يدعون أنفسهم الملاك الشرعيين لمقبرة مرينبتاح الأول التى قام بلزوني باكتشافها لحساب السيد سولت، وعلى الرغم من ذلك الإدعاء الجميل فليس أمامى سوى أحد أمرين: إما النجاح في الخروج بتلك القطعة وتوصيلها إلى طولون، وإما الإلقاء بها في أعماق البحر أو النيل بدلاً من تسليمها إلى أيدي غريبة، وقد حزمت أمرى على ذلك^(٣١٦) وبالحال من وسيلة غريبة لخدمة العلوم والفنون عن طريق إلقاء التحف الفنية الثمينة في مياه النهر أو البحر، ومن حسن حظ الفنون أن هؤلاء الإنجليز كانوا من التعقل - بل كانوا من ضعف الموقف ووهاء الحجة - بحيث سمحوا لشامبليون بالمرور بغنيمة الثمينة إذ يستطيع عشاق الفنون الجميلة أن يشاهدوا تلك القطعة الفنية النادرة وهى معروضة الآن في صالة هنرى الرابع بمتحف اللوفر^(٣١٧) بدلاً من الفوضى من أجلها في قاع اليم.

ها هو جان فرانسوا شامبليون يعدد لأخيه الغنائم التى حصل عليها أثناء إقامته في مصر حتى ١١ سبتمبر ١٨٢٩ م (١٢ ربيع الأول ١٢٤٥ هـ): أحضرت في الوقت الراهن قطعاً أثرية هامة بالرغم من صغر أحجامها، أما عن القطع الكبيرة فيقتصر الأمر على ثلاث أو أربع موميאות تحمل نقوشاً ونصوصاً جديدة، فضلاً عن أجمل نقش بارز وملون من مقبرة الملك مرينبتاح الأول [وقد سبق أن

تحدثنا عنه... وأروع تابوت رآته عينا بشر في الماضي والحاضر والمستقبل... بفضل هذه القطعة وحدها سأوفى ما على تجاه البلاط الملكي لا من حيث العرفان ولكن من الناحية المالية، إذ أن هذا التابوت يستحق بكل تأكيد مائة ألف فرنك مقارنة بغيره من التوابيت التي تم شراؤها بعشرين وثلاثين ألف فرنك، ويعتبر النقش البارز والتابوت من أروع القطع الأثرية المصرية التي تم إرسالها إلى أوروبا حتى يومنا هذا وسيكون من الإنصاف أن تستأثر بهما باريس كتذكاري لنجاح بعثتي إلى مصر، وهم هدية أخص بها متحف اللوفر حيث ستبقىان تخليداً لذكراي دون أن يكلفه ذلك مليماً واحداً^(٣٩٨).

ثم يكتب إليه في ٩ نوفمبر ١٨٢٩م (١٢ جمادى الأول ١٢٤٥هـ) مؤكداً عليه بضرورة إرسال خطابات رسمية إلى مدير الجمارك [الفرنسية] حتى أتفادي الشجار مع هؤلاء الناس بشأن الصناديق التي تحتوى على قطع أثرية مخصصة للمتحف الملكي... لذلك فعند بلوغي تولون... سيكون من المستحسن أن أجد تعليمات وثيقة بهذا الشأن وأوراق رسمية لتذليل كافة العقبات^(٣٩٩) ثم يذكره مرة أخرى: "سأصل ومعى التابوت ونحو عشرين صندوقاً... أستحلفك بالله أن تحصل من الوزراء المعنيين... على كافة التسهيلات التي يمكن تخيلها، لاسيما أن الأشياء التي أحملها تعتبر من ممتلكات الحكومة"^(٤٠٠).

والمتفحص للمراسلات التي دارت بين شامبليون في مصر وبين أخيه وأصدقائه ورعاته في وطنه فرنسا، يدرك بوضوح هذا العدد الضخم من القطع الأثرية القديمة التي نقلتها بعثة شامبليون - روزليني من مصر والتي تقدر بالآلاف القطع، حيث تتضمن تلك المراسلات إشارات واضحة إلى هذا الأمر. كتب جان فرانسوا إلى البارون دي لا بويري المسئول العام عن شئون البلاط الملكي قائلاً: "وقد التزمت بتكريس كل ما أمكنني ادخاره لتنفيذ حفائر في منف وطيبة... إلخ بغية إثراء متحف شارل العاشر بمزيد من القطع الأثرية الجديدة، وقد أسعدني الحظ بجمع العديد من القطع التي متكمل مجموعات مختلفة في متحف اللوفر، كما نجحت أخيراً... في اقتناء أروع وأنفس تابوت اكتشف حتى الآن في المقابر الفرعونية، فما من متحف أوروبي يمتلك قطعة فنية مصرية يمثل هذا القدر من الجمال، كما كانت مجموعة من القطع الأثرية الهامة من بينها تماثيل صغير من البرونز، رائع ومطعم كله بالذهب... ويعتبر من أعظم وأجمل القطع المعروفة"^(٤٠١).

وكتب إلى سوستان دي لاروشفوكو مدير قسم الفنون الجميلة في البلاط الملكي قائلاً: "كان من واجبي أن أفعل ما في وسعي لكي أثري القسم المصري بالمتحف الملكي بمختلف أنواع الآثار التي تنقصه... لم ألو جهداً للوصول إلى هذا الهدف، كل ما أمكنني ادخاره من أموال تفضل بها على بلاط الملك ومختلف الوزارات من أجل القيام بالرحلة استخدم في التنقيب والحصول على آثار مصرية من كل نوع من أجل متحف شارل العاشر"^(٤٠٢) وأضاف: "شجنت كافة القطع المخصصة

للمتحف على متن الاسترولاب ووصلت إلى تولون في صبحتي ولم يتبق الآن سوى نقلها إلى المتحف الملكي... ومن ناحية أخرى فسأشحن إلى باريس عن طريق شركة النقل نحو عشرة صناديق تحتوي على قطع أثرية مختلفة صغيرة الحجم يمكن أن تتحمل عملية النقل البرى دون ضرر، بينما ستصل القطع الأخرى عن طريق البحر مع باقي القطع الكبيرة^(١٠٣).

كان من الواضح أن حصيلة شامبليون من الآثار المصرية قد ارتفعت كثيراً خلال الأيام الأخيرة التي قضاها بالإسكندرية قبل رحيله، حيث كانت القطع الأثرية التي عرضها عليه وعلى رفاقه تجار الآثار بالإسكندرية تفوق من حيث الأهمية كل ما عرض عليهم في القاهرة، مما أتاح له فرصة واسعة للاختيار والمقارنة، ها هو ذا يعدد لصديقه دييوا أجمل هذه القطع التي قام بجلبها معه من مصر: "أحضرت معى أربع موميאות... كما جلبت معى العديد من الآنية الجميلة من المرمر وغيره من المواد العجيبة... وقلادة كبيرة مجذولة من لؤلؤ فينيقيا... والعديد من الآنية البرونزية الجميلة، ومركب جنائزية رائعة الشكل، وصنعتين معدنيتين... وكمية كبيرة من مختلف القطع الصغيرة والنقيصة... وقطع عديدة من العاج القديم، وأروع إناءين كبيرين من البرونز، ولوحات كثيرة، صغيرة من حيث الحجم ولكن فريدة من حيث دقة تنفيذها والنصوص التي تحملها... لقد دفعتنى الرغبة في خدمة الفن إلى استعمال منشار في نزع نقشي بارز من جدران مقبرة أوزيرى^(١٠٤) التي تعد بحق أروع مقبرة ملكية في طيبة... وقد أحضرت معى هذه الكتلة الكبيرة التي يتراوح ارتفاعها بين سبعة وثمانية أقدام، والتي تعد نموذجاً رائعاً للنحت، كما جلبت معى تابوتاً من حجر البازلت... وتعتبر الأشياء التي أحضرتها معى من حيث العدد والدقة المتناهية في نحتها من أروع ما نجده في المقابر المصرية... وأحضرت معى إلى متحف اللوفر أجمل تمثال صغير من البرونز اكتشف في مصر حتى الآن... وبعد تحفة فنية رائعة، وأية من حيث دقة نحته^(١٠٥) ولعلك قد استوقفتك طويلاً تلك العبارة التي يتحدث فيها شامبليون عن استخدامه للمنشار في قطع نقش بارز من مقبرة سبتى الأول بدافع الرغبة في خدمة العلم، وربما اندهشت لذلك كثيراً - كما فعلنا نحن - ويبدو أنه كان لصاحبنا طرقه ووسائله وأدواته الخاصة التي يخدم بها العلم والفن، ولعل من بين هذه الطرق إلقاء التحف الفنية النادرة في المياه أو تقطيعها بالمنشار، بل ربما كانت هذه هى الوسائل التعليمية الوحيدة المتاحة في ذلك الوقت. على أية حال فإن هذا السلوك من جانب شامبليون قد أثار عليه حفيظة الرسام الإنجليزي جوزيف بونومى الذى كتب إلى شامبليون محتجاً: "إذا كان صحيحاً أن هذا هو ما تعترمه، فإني أشعر أن من واجبي كإنجليزي وعاشق للآثار أن استخدم كل حجة لإثباتك عن هذه الغاية المفزعة، على الأقل إلى أن تحصل على إذن من القنصل العام الحال^(١٠٦) أو من محمد على^(١٠٧) فرد عليه شامبليون قائلاً: "إننى لا أعترف بأى سلطة في مصر إلا سلطة الباشا، وليس على أن أحصل على أى إذن آخر، وبالأحرى سلطة

القنصل البريطاني. تأكد يا سيدي أنك ذات يوم ستقوم برؤية بعض النقوش البارزة الجميلة من مقبرة أوزيرى في المتحف الفرنسى، فستكون هذه هى الطريقة الوحيدة لإنقاذها من الدمار العاجل، وأنا بقيامى بهذا المشروع أنصرف كعاشق حقيقى للآثار لأثنى إنما أنقلها بعيداً لأحافظ عليها لأبيعتها"^(٤٠٨).

وحين تسلم بونومى - هذا الإنجليزى النائر - رسالة شامبليون، وسمع أن روزيللى كان هو الآخر يقطع النقوش لصالح متحف فلورنسا، شارك بونومى بدوره واقتطع جزءاً للمتحف البريطانى"^(٤٠٩).

نعود إلى شامبليون الذى كان يواصل إرسال غنائمه الأثرية من ميناء الوصول إلى متحف اللوفر. حيث قام فى ٢٩ يناير ١٨٣٠ م (٤ شعبان ١٢٤٥هـ) بشحن خمسة صناديق متفاوتة الحجم تزن ثمانمائة كيلو جرام وتحتوى على قطع أثرية وبرونز"^(٤١٠). كما قام فى ٢ مارس ١٨٣٠ م (٧ رمضان ١٢٤٥هـ) بإرسال آخر أسلابه من الآثار المصرية القديمة إلى المتحف، وكانت الشحنة الثمينة تتألف هذه المرة من اثنى عشر صندوقاً مليئة بالقطع الأثرية"^(٤١١).

أما روزيللى الذى كان يزور على الدوام تجار الآثار فى القاهرة والإسكندرية فقد عاد إلى بلاده ومعه تسعة وسبعون صندوقاً مليئة بالآثار لمليكة ليوبولد الثانى الذى أقام معرضاً لهذا الكثر الثمين قبل أن يأمر بإيداعه متحف مدينة فلورنسا بهدف إثرائه"^(٤١٢).

لا جدال فى أن بعثة شامبليون - روزيللى قد حققت الكثير من النتائج على الصعيد العلمى، فللمرة الأولى يزور المعابد من يستطيع أن يقرأ نقوشها، ويفهم ويدرك قيمتها الحقيقية. كذلك أثبتت بحوث العلماء الميدانية أن نظريات شامبليون فى قراءة النصوص الهيروغليفية صحيحة ومهلة التطبيق عملياً. كما أبرزت البعثة أهمية نقوش مقابر بنى حسن فى دراسة تطور فن النحت فى مصر القديمة، رغم أنه لم يكن فى نية شامبليون أن يطيل مكثه هناك، إذ كان يعتقد أن جومار قد أوفى مقابرهما حقها من الوصف فى "وصف مصر" العظيم فإذا به يفاجأ بأن جومار لم يقدم عنها إلا فكرة واهية برسومه الموجزة البعيدة عن الدقة مما اضطر شامبليون إلى الإقامة هناك زهاء أسبوعين أنجز خلالها ما ينيف عن ثلاثمائة رسم فى غاية الدقة والإتقان حتى ليؤكد شامبليون: "إننى أتجرباً بالقول بأن ما أحرزته من نتائج هنا يكفى وحده لجعل رحلتى إلى مصر أكثر نفعاً وفائدة من كل ما دونه علماء الحملة الفرنسية باستثناء ما يتعلق بفن العمارة"^(٤١٣). كذلك عانت البعثة كثيراً فى النفاد إلى معبد أبى سمبل الذى كان مغطى بالرمال، وتمكنت من الدخول إلى القاعة الكبرى حيث أقامت خمسة عشر يوماً للنسخ النقوش الغائرة على جدران القاعة بمقاييس كبيرة وبالألوان الحقيقية"^(٤١٤). ووصلت البعثة فى تجوالها إلى أماكن لم يصل إليها أحد من قبل، كتب روزيللى عند زيارته لمقابر وادى الملوك: "هنا الكائنات البديعة الأنيقة الصنع، هنا غرائب

الفن، هنا الصورة العجيبة التي تملأ النفس عجباً ودهشة، هنا الأشياء التي تفوق كل الوصف، والتي أرى من الواجب على أن أنقل إليك صورها وأنا على يقين من أنه لم تصل إليها يد من قبل^(٤١٥) كما أضافت البعثة إلى علم المصريين إقليماً جديداً هو إقليم النوبة، إذ كانت البعثة أول من قام بدراسة علمية للمعابد المشيدة على ضيق النيل بين الشلالين الأول والثاني، فكان في إمتداد الساحة الأركيولوجية صوب الجنوب بعض العزاء في التخريب الذي لحق بالآثار المصرية في السنوات السابقة^(٤١٦).

غير أنه لا جدال كذلك في أن قدوم هذه البعثة إلى مصر كان وبالأعلى الآثار المصرية بسبب ما نقلته من هذه الآثار إلى كل من فرنسا وإيطاليا. وهكذا نرى أن شامبليون لم يجعل من صرخة الأسف الشديد الزائفة التي أطلقها قبل ذلك بتسعة أعوام بخصوص نزع رسم فلك البروج من سقف معبد دندره ونقله إلى باريس، لم يجعلها نبزاً له، فيها هو ذا يقوم هو وتلميذه باستخدام المنشار لانتزاع نقوش رائعة من إحدى المقابر، وهو عمل لا يقل فظاعة أو تخريباً أو تدميراً عن انتزاع رسم فلك البروج من سقف المعبد الذي كان موجوداً فيه، ثم هاهما يقومان بالحصول على هدايا أثرية وشراء قطع أثرية في صفقات مشبوهة لم يكن الهدف من ورائها سوى إثراء مجموعات المتاحف الأجنبية، ورغم ذلك فإنهما لم يعدما من يدافع عنهما من بنى وطنهما، قالوا: "إذا كان هذا التخريب مما يفزعنا اليوم فيجب أن نتذكر أنه كان شئ عادياً في ذلك الوقت" وقالوا: "لنا أن نتخيل ما يمكن لأفراد أقل تمسكاً بالتراث الثقافي المصري من شامبليون وروزيليني أن يأخذوه معهم من رحلة مثل هذه وفي ذلك الزمان... إن المصلح الكبير لا يلغى السلوك القديم برمته ولكنه يندد بمساوئه ويحدد فضائل جديدة"^(٤١٧)، وهو دفاع رغم بلاغته إلا أنه ينطوى على فساد في الاستدلال، ذلك أن الخطأ والسلوك السوى والعادة المرزولة لا تبرر بزمان أو مكان بل هو خطأ في كل زمان ومكان، ثم من قال إن ذلك كان شئ عادياً في ذلك الوقت؟ إن عدداً كبيراً من العلماء والرحالة والسائحين الأوروبيين ممن كانوا على حظ ولو ضئيل من راحة العقل ونفاذ البصيرة وإنكار الذات والبهت عن المصلحة الشخصية قد تعالت أصواتهم منددة بما كان يلحقه بنى جلدتهم من دمار وتخريب بالآثار المصرية القديمة، ولكنهم - على كثرتهم - كانوا قلة عند مقارنتهم بجعافل المغامرين والدخلاء على العلم وتجار الآثار والباحثين عن الثراء السريع وجامعي التحف، والذين وجدوا في نهب الآثار المصرية مهنة مجرية يمكن أن تصل بهم إلى الثراء الفاحش بسرعة كبيرة، ولا ننسى أن شامبليون نفسه كان في صف هؤلاء المنددين يوماً ما، ثم إن المصلح - أي مصلح كبيراً كان أو صغيراً - لا يقدم على ارتكاب ذات السلوك السوى الذي يسعى إلى تقويمه أو حتى محوه من الأساس، إنه إن فعل ذلك، يكون قد فقد وسيلة رئيسة - بل هي أهم وسيلة - من

وسائل الإقناع، ألا وهي الأسوة الحسنة وبالنظر إلى هذا الاعتبار فإن شامبليون لا يعد مصلحاً، إذا لا تتوافر فيه شروط المصلح.^(٤١٨)

بعثة ليسيوس (١٨٤٥-١٨٤٢م/١٢٥٨-١٢٦١هـ):

كان النجاح الذى أحرزته بعثة شامبليون^(٤١٩) - روزيللى دافعاً لكى تهتم الحكومات الأوروبية بالبحوث العلمية الجادة التى تتناول مصر القديمة ودراسة الآثار المصرية وتسجيل النقوش الهيروغليفية. وكان الملك فردريك وليم الرابع ملك بروسيا - الذى عرف عنه ميله الشديد إلى كل ما هو قديم وطريف - قد تبين الشهرة التى حققتها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا في ميدان الاستكشافات الأثرية المصرية التى كانت رائجة حينئذ، ولا حظ التقدير الدولى الذى كانت تحظى به المجموعات المصرية في متاحف اللوفر وتورينو وفلورنسا والمتحف البريطانى. وقرر فردريك أن الوقت قد حان لكى تقوم بلاده بدورها في دفع المعرفة الإنسانية وكذلك مكانتها الدولية إلى الأمام، وأنه قد حان الوقت كذلك ليكون لمتحف برلين مجموعته الخاصة من الآثار المصرية لكى تضاف إلى مجموعتي بسالاكوا ودروفهتي الثالثة واللتين سبق للمتحف الألماني شراءهما في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، ومن ثم فقد قرر الملك البروسى إرسال بعثة إلى مصر تكون من أكبر البعثات في تاريخ استكشافات البلاد المصرية وأكثرها تنظيماً.

اختار الملك شأباً في الثلاثينيات من عمره كان يعمل محاضراً في جامعة برلين ويدعى كارل ريتشارد ليسيوس ليرأس البعثة الكشفية المنتظرة إلى وادى النيل، وهى البعثة التى تقرر لها أن تكون مدتها ثلاث سنوات، وقام ليسيوس بالتحضير جيداً لهذه البعثة حيث قضى فترة طويلة في تفقد المجموعات الأثرية المصرية في المتاحف الأوروبية المختلفة مثل متاحف إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وغيرها، كما درس أجروميه شامبليون الهيروغليفية وتعلم الطباعة الحجرية والحفر على النحاس^(٤٢٠)، ثم رحل إلى إنجلترا حيث صحب معه الإنجليز جوزيف بونومى الرسام وجيمس وايلد المهندس، ومن إنجلترا سافرت البعثة إلى مصر حيث وصلت إلى الإسكندرية في سبتمبر من عام ١٨٤٢م (شعبان ١٢٥٨هـ)^(٤٢١).

عقب وصول البعثة إلى مصر قام القنصل السويدى العام الذى كان يقوم برعاية شئون بروسيا في مصر بترتيب مقابلة لهم مع محمد على الذى أبدى سروره بالزهرات الجميلة التى جاء بها ليسيوس هدية من ملك بروسيا فردريك الرابع، كما أظهر محمد على إعترازه بتلقية رسالة شخصية من الملك. ثم سأله ليسيوس عن حالة متحف القاهرة الذى كان قد تأسس بمقتضى قانون سنة ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) وردّ محمد على بأنه ليس مزدهراً بسبب المطالبات الكثيرة غير العادلة التى تأتيه من أوروبا^(٤٢٢). ثم حصل ليسيوس من محمد على على "أمر منه إلى مدير قبلى يقتضى عدم التعرض إلى المدعوا ليسيوس العالم والثمانية أنفار رفاقه الذين حضروا لهذا

الطرف بمأمورية من دولة بروسيا أثناء حفر بعض المحلات الباق بها آثار قديمة لمعاينتها^(٢٢٣). ويلاحظ أنه بمقتضى الأمر المذكور لم يكن مسموحاً للبعثة الألمانية إلا بإجراء حفائر علمية يقصد بها فقط الكشف عن الآثار التي قد تكون مدفونة تحت الرمال بقصد معاينتها ودراستها وتسجيلها فقط دون نقل هذه الآثار، وليس الأمر كما زعمه بيتر فرانس من أن الفرمان الذي أعطاه محمد على للبيسوس كان " يعطيه حقاً غير محدود في الحفر وفي تكوين المجموعات التي يريدها"^(٢٢٤) والدليل على ذلك أن محمد على قد أصدر أمراً آخر إلى مدير قبلي بعد يومين فقط من الأمر الأول يوضح له فيه " بأنه وإن كان صدر أمره في ٢٥ الجارى (شعبان ١٢٥٨هـ) بعدم التعرض إلى العالم [لبيسوس] والثمانية أنفار الذين معه، الحاضرين لهما من قبل دولة البروسيا لمعاينة بعض الآثار القديمة الباقية دفينّة، وحفر بعض مواقعها، فتأكيداً لذلك يلزم إرفاق مخصصين معهم لعدم أخذ شئ من تلك الآثار، ولو فرض ورغبوا أخذ شئ منها تعرض الكيفية لطرفه"^(٢٢٥) ويبدو أن محمد على كانت تفتابه في هذا الوقت نوبة عارضة من نوبات التقدير والاهتمام بالآثار المصرية القديمة من تلك النوبات العارضة التي كانت تفتابه بين الحين والآخر، أو أن محمد على في هذا الوقت لم يكن حريصاً على توطيد العلاقات المصرية البروسية بنفس القدر من الحرص على تدعيم علاقات مصر بالدول الأوروبية الأخرى مثل فرنسا وإنجلترا، أو أن زهریات الملك فردريك وليم الرابع لم تنل إعجاب محمد على بالدرجة الكافية.

قضت بعثة لبيسوس ثلاث سنوات في مصر، قامت خلالها بعمل مسح شامل ومستفيض للمواقع الأثرية الكبرى، فمكنت ستة أشهر في منف وسبعة في طيبة، كما وفقت إلى الكشف عن عدة مقابر في جنابات الجيزة وسقارة ومصر الوسطى، وقامت بنسخ نقوش بعثات التعدين التي أوفدها المصريون القدماء إلى مناجم شبه جزيرة سيناء^(٢٢٦)، وسجلت البعثة اكتشافاتها بدقة ومنهجية كما قامت بتنظيف معبد " أبو سمبل " من الرمال التي تسربت إليه^(٢٢٧)، ولم تبق بعثة لبيسوس على أثر مصرى قديم دون أن ترسمه وتصفه وصفاً علمياً دقيقاً مبتدئة من الدلتا شمالاً وحتى أقاصى السودان جنوباً، بل إنها قامت بإجراء دراسة استقصائية وعمل مسح أثرى شامل لمنطقة نباتا وجبل برقل حتى آخر حدود السودان^(٢٢٨).

ومن الغريب أن لبيسوس قد أحضر معه من هناك - رغم بعد المسافة - بعضاً من الآثار القديمة يقصد نقلها إلى بلاده، كان من بينها مائدتا قربان^(٢٢٩)، وتمثال على هيئة كبش يزن مائة وخمسين رطلاً وتمثال وقاعدة تمثال صغير^(٢٣٠). ولعل ذلك إنما كان تحقيقاً لأحد الأهداف التي حضرت البعثة إلى مصر من أجلها، فإن لبيسوس يسجل أن غايتها كانت: " بحثاً تاريخياً وأثرياً للآثار المصرية القديمة في وادى النيل وشبه جزيرة سيناء، وجمعها"^(٢٣١) ومما لاشك فيه أن ما أحضره لبيسوس من جبل برقل مما يندرج تحت هذا الجمع، كما قام لبيسوس بالاستيلاء على

ثلاث مقابر كاملة من منطقة الهرم الأكبر، أشرف على تقطيعها بعناية وشحنها أربعة عمال استدعوا خصيصاً من برلين لهذا الغرض^(٤٣٦)، بل إن ليسيوس كان ينوى نقل قاعة الأجداد من معبد الكرنك إلى برلين لولا أن سبقه إلى ذلك بريس دافين ونقلها إلى باريس^(٤٣٧).

أرسل ليسيوس وزملاؤه إلى الوطن ما مجموعة خمس عشرة ألف قطعة أثرية ما بين آثار أصلية ونماذج منسوخة^(٤٣٨)، وقد شكلت هذه المجموعة مع مجموعتي باسالاكوا ودروفيتي الثالثة نواة الجناح المصرى في متحف برلين، وساعدته الإدارة المصرية بأن قدمت له قوارب حكومية لشحن آثاره من جبل برقل والأقاليم الجنوبية حتى الإسكندرية، وهو الأمر الذى أثار احتكاكاً مع المنقبين الآخرين الذين كان القانون يحظر عليهم تصدير اكتشافاتهم أو حتى ادعاء ملكيتها، وكان التعبير الذى قدمه ليسيوس لهذا النهب الواسع غير العادى للآثار القديمة: "إننا لم نكن نختار الآثار لأثفنا، وإنما باعتبارنا وكلاء لحكومتنا للمتحف الملكى في برلين، ومن ثم لصالح العلم وجمهور الباحثين"^(٤٣٩) وهو تبرير قديم، لطالما سبق وأن رددته غيره من نهائى الآثار القديمة، ولم يكن ليسيوس صادقاً في ادعائه بأنه يخدم العلم والباحثين، ويعمل لصالح رفعة وطنه، بدليل أنه باع بعضاً من الآثار للمتحف البريطانى في لندن، وكان من رأيه أن الآثار مصرية الجنسية، أما المشترون فلا جنسية لهم^(٤٤٠).

تمادت الإدارة المصرية في تسهيلاتهما التى منحتها لبعثة ليسيوس من أجل تسهيل مهمتها في شحن الآثار التى جمعتها من كافة أنحاء القطر المصرى، فأمرت جمرك بولاق بعدم التعرض للآثار التى ترسلها البعثة من الصعيد إلى قنصل بروسيا العام بالإسكندرية^(٤٤١)، كما أصدرت أمراً آخر إلى جمرك الإسكندرية مفاده أن "قنصل جنرال دولة بروسيا قد استحصل على بعض أحجار وأشياء من الآثار القديمة [هذا البعض الذى تشير إليه الوثيقة لم يكن سوى خمس عشرة ألف قطعة فقط] بواسطة المسيو ليسيوس المؤرخ لتقديمها لصاحب الحشمة ملك بروسيا، وطلب منى التصريح له بمرورها، فإجابه لطلبه يلزم عدم التعرض له في ذلك عند تسفيرها"^(٤٤٢).

كوفئ ليسيوس بعد عودته إلى بلاده بقليل بتعيينه أستاذاً في جامعة برلين عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) ثم عيناً أميناً مساعداً لباسالاكوا بالقسم المصرى في متحف برلين عام ١٨٥٥م (١٢٧١-١٢٧٢هـ) ثم عين أميناً بعد موت هذا الأخير عام ١٨٦٥م (١٢٨٢-١٢٨١هـ)^(٤٤٣). ونشر ليسيوس نتائج رحلته في اثني عشر مجلداً تضم ثمانمائة وأربعاً وتسعين لوحة في طبعة فاخرة، ثم نشرت خمس مجلدات أخرى تحوى نصوصاً وصفية بعد وفاة ليسيوس عام ١٨٨٤م (١٣٠٢-١٣٠٣هـ)^(٤٤٤).

وبعد رحلة ليسيوس إلى مصر بأكثر من خمسين عاماً تذكر المسئولون في متحف برلين عام ١٨٩٩م (١٣١٧-١٣١٦هـ) أن مواطنهم ليسيوس قد ترك سهواً [كذا] بناحية سممه حجّرين من

مسلتين كان قد وهبهما إلى مصر - محمد على باشا - في عام ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) لجلالة ملك بروسيا وأن هذين الحجرين يمثلان جزأين مكملين لمسلتين سبق نقلهما إلى برلين وهم يطلبون من الحكومة المصرية الترخيص لهم بأخذ هذين الحجرين على أن يتحمل متحف الآثار ببرلين كافة مصاريف ونفقات النقل، وهو المطلب الذي حظى بموافقة مصلحة الآثار التاريخية المصرية ومجلس النظار المصري^(١١) على الرغم مما فيه من غرابة.

بعثة سكياباريللي:

أما إرنستو سكياباريللي فقد كان أميناً للجناح المصري بمتحف تورينو، وحضر إلى مصر في مطلع القرن العشرين^(١٢) رئيساً لبعثة علمية إيطالية، للتنقيب عن الآثار المصرية القديمة ودراستها، وقد قامت بعثة سكياباريللي بالحفر في أكثر من موقع، فحفرت في الجيزة وهليوبوليس، ووادي الملكات ودير المدينة في طيبة، ثم في أسوان. وقد كان حظ بعثة سكياباريللي عظيماً في منطقتي وادي الملكات ودير المدينة؛ إذ عثرت على مقبرة الملكة نفرتاري زوجة رمسيس الثاني، وهي تعتبر - بحق - أروع المقابر المحفورة في هذه المنطقة، كما تمتاز بنقوشها البارزة بألوان زاهية وبدقة في النقش لا مثيل لها. أما في دير المدينة فقد عثرت على مقبرة لم تمسسها يد وهي مقبرة المهندس المعماري (خا) Cha الذي كان يعمل رئيساً للبنائين في جبانة طيبة، وكانت حجرة الدفن في هذه المقبرة فقد تكدمت فيها القطع النادرة من كل نوع^(١٣)، ورغم أن قوانين الآثار المصرية في ذلك الوقت كانت تحظر نقل القطع النادرة التي ليس لها مثيل بالمتحف المصري إلى خارج القطر، إلا أن سكياباريللي قد نجح في تهريب هذه الكنوز إلى الخارج حيث أودعت في متحف تورينو. وتؤكد جريدة "المقتطف" أن "الذي يزور متحف تورينو بإيطاليا يرى الأشياء العجيبة التي أخرجت من هذا القبر، وبعضها فريد في بابه... أساساً بديع وتمثيل بالغة في الإتقان وجمال الفن" ورغم أن بعثة سكياباريللي ذات صبغة علمية إلا إنه "لم ينشر عن هذه الكنوز سوى جمل مقتضبة"^(١٤) وربما كان ذلك طلباً للسرية والكتمان بل وربما كان ذلك لأن اهتمام البعثة كان منصباً على التنقيب عن الآثار وجمعها وليس إلى دراستها ووصفها ونشرها كما هو المفترض في بعثة علمية كهذه. وبالإضافة على كنوز هذه المقبرة قام سكياباريللي بنقل مجموعة كبيرة من أوراق البردي المصرية إلى متحف تورينو الإيطالي^(١٥).

كانت هذه أمثلة لما كانت تقوم به البعثات العلمية من نهب واسع النطاق لآثار مصر في القرن التاسع عشر تحت مسمى الاستكشافات وإجراء البحوث العلمية والأثرية وخدمة العلم والبحث العلمي. بينما هدف هذه البعثات الحقيقي يتمثل أولاً وقبل كل شيء في الاستيلاء على كل ما تصل إليه يدها من نفائس التحف والآثار المصرية بغية إثراء متاحف الدول الأجنبية التي - قامت

بتمويل وإرسال هذه البعثات على نفقة حكوماتها. وهذا يدل على أن خدمة العلم لوجه العلم والمعرفة وليس لشيء آخر من تحقيق منفعة خاصة أو غيرها، لم تكن أبداً في حساب هؤلاء القوم. رابعاً: دور أمتاء المتاحف الأجنبية:

كانت مصر خلال القرن التاسع عشر أرضاً مباحة لجامعي الآثار الأوروبيين ومندوبي متاحف الأوروبية المتنافسة، وكان هؤلاء وهؤلاء يساومون الأهالي والتجار في منافسة صريحة مع بعضهم البعض لكي يبتاعوا منهم الآثار التي بحوزتهم، وكثيراً ما حرضوا الأهالي على القيام بعمليات الحفر والتنقيب غير المشروعة بعد أن يبدلوا لهم الوعود المؤكدة بأنهم سوف يشترون منهم القطع الأثرية التي يعثرون عليها بأسعار مجزية، وقد كانت أساليب هؤلاء جميعاً في جمع الآثار ملتوية وغير مقبولة، وسوف نضرب لذلك مثلاً باثنين من مندوبي متاحف الأوروبية كانا قد زارا مصر خلال القرن التاسع عشر وأسهما في نقل مجموعات ضخمة من الآثار المصرية إلى متحفى بلاديهما، وهذان المندوبان هما: الفرنسي أوجوست ماريث الذي حضر مندوباً عن متحف اللوفر، والإنجليزي واليس بدج الذي كان مبعوثاً من قبل المتحف البريطاني.

أما ماريث فهو فرانسوا أوجست فرديناند ماريث، ولد في بولوني سير مير بفرنسا في ١١ فبراير ١٨٢١م^(٤٤٦)، وحتى سن الثامنة والعشرين لم يكن لماريث أى صلة بمصر أو بعلوم المصريات، وفي سنة ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) توفي الرسام الشهير نستور لوت الذي كان عضواً في بعثة شامبليون العلمية التي زارت مصر عامي ١٨٢٨، ١٨٢٩م. وقد ترك لوت هذا بعد وفاته كفاً ضخماً من الأبحاث والمذونات والرسوم الهيروغليفية كانت في حاجة إلى التنظيم والترتيب والتبويب والنشر، ولما كان لوت قريباً لماريث فقد طلب من هذا الأخير فحص هذه الأوراق، وسرعان ما أصبح ماريث مستغرقاً تماماً في الاهتمام بالنقوش الهيروغليفية المعقدة ومحاولة قراءتها^(٤٤٧).

زاد تعلق ماريث بالمصريات إلى حد أنه قام في عام ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) بوضع وصف تحليلي للآثار والمقتنيات المصرية التي تشكل الجناح المصري في متحف مدينة بولوني^(٤٤٨) - مسقط رأسه - وكان المقال ناجحاً حتى إنه تمكن من كسب تأييد مدينته ومساندتها في مطالبة الجهات الرسمية بإرساله لبعثة كشفية إلى مصر، ولما كان ماريث يعمل في هذا الوقت في مجال التعليم فقد طلب من وزارة المعارف الفرنسية أن تعينه على القيام ببعثته الكشفية إلى وادي النيل للبحث عن الآثار المصرية ودراستها، ولكن طلبه هذا قوبل بالرفض من جانب الوزارة المذكورة فالتمس منها مرة أخرى أن تأذن له بالذهاب إلى مصر على ألا يكلفها إلا نفقة السفر، ولكن وزارة المعارف رفضت ذلك أيضاً، فما كان من ماريث إلا أن أستقال من وظيفته وسافر إلى باريس^(٤٤٩).

وفي باريس أخذ ماريث يتردد على متحف اللوفر حيث درس قائمة الملوك التي نقلت من مصر إلى هناك بواسطة برنس دافين، وكتب عنها مقالاً مستفيضاً في سبعين صفحة تحدث فيه عن

نقوشها، وكان المقال من الجودة بحيث لفت إليه نظر عالم المصريات الفرنسي شارل لونورمان - الذى كان هو الآخر عضواً في بعثة شامبليون - فتوسط له لونورمان لدى إدارة متحف اللوفر حتى أسندت إليه وظيفة صغيرة بالمتحف الكبير تمكن بواسطتها من التبحر في اللغة الهيروغليفية وإجادة اللغة القبطية^(٤٥٠).

وفي حلقة جديدة من حلقات الصراع بين الإنجليز والفرنسيين في ميدان البحث العلمى بغية الوقوف على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان وحضارته، قام رحالة إنجليزى يدعى روبرت كيرزون بزيارة أحد الإدارىة القبطية في مصر بقصد البحث عن المخطوطات اليونانية في مكتبات الأديرة، وقدم كيرزون إلى الرهبان شرباً مسكراً وأخذ معه مجموعة كبيرة من المخطوطات بعد أن ترك مضيقه سكارى. وبعد خمس سنوات قام إنجليزى آخر يدعى هنرى تانام بزيارة نفس الدير مستخدماً الأسلوب نفسه في تخدير الرهبان ورحل ببقية المكتبة. وإذ أدرك الفرنسيون قيمة السبق الذى أحرزه غرماؤهم في هذا المجال فقد قرروا إيفاد شخص من جانبهم للبحث عن مخطوطات في الأماكن نفسها، وإن لم يكن بنفس الأسلوب، فلربما أسكر المال كذلك، وتقرر تخصيص ست آلاف فرنك لتمويل بعثة مقترحة لجمع المخطوطات، ولما كان ماريت على معرفة باللغة القبطية، فضلاً على أنه لا يزال يحظى بتركية وتعضيد لونورمان له فقد تقرر تكليفه بتلك المهمة، واقترح ماريت أن يقوم - كهدف ثانوى - بقليل من أعمال الحفر والتنقيب لإثراء متحف اللوفر، وتمت الموافقة على ذلك^(٤٥١).

وصل ماريت إلى مصر في سبتمبر من عام ١٨٥٠م (ذو القعدة ١٢٦٦هـ)، وعندما قابل بطريرك الأقباط وجده موغر الصدر غيضاً من جامى المخطوطات الأجانب بسبب تصرفات الرحالة الإنجليز، وكان يعارض بشدة تسرب مزيد من الوثائق والمخطوطات الموجودة بمكتبات الأديرة حتى إنه أمر بإرسال كل المخطوطات التى كانت في الأديرة القبطية إلى القاهرة، حيث وضعت في قاعة كبيرة محكمة الإغلاق بعيداً عن المغامرين الأجانب، وبذا فقد ماريت كل أمل في الحصول على مخطوطات قبطية^(٤٥٢).

فكر ماريت في توجيه نشاطه إلى الكشوف الأثرية اعتماداً على نص إضافى في أمر تكليفه بالبعثة يسمح له بإمكانيته الحفر في المواقع الأثرية لجمع ما يثرى به المجموعة المصرية الموجودة في متحف اللوفر، واختار ماريت أن يبدأ حفائره في منطقةسقارة، وذلك بعد أن لاحظ أن عدداً كبيراً من الأجانب المقيمين في القاهرة والإسكندرية يضعون في حدائق منازلهم تماثيل لأبى الهول ذات طرز متشابهة، وحين سأل عن ذلك قيل له بأن كل هذه التماثيل تأتى من مكان واحد هو سقارة، وعندما ذهب إلى هناك وجد إحدى رؤوس أبى الهول ظاهرة بين الرمال وتشبه ما رآه منها قبل ذلك في القاهرة والإسكندرية، وأسعفته سعة إطلاعه فاسترجع في ذهنه عبارة كان قد قرأها

في كتابات استرابون عن آثار منف، وكان استرابون قد زار هذه المدينة في القرن الأول قبل الميلاد وكتب عنها ما ترجمته: " ورأينا هناك هيكل سيرابيوم Serapium^(٥٣) فإذا هو قائم في بقعة مغمورة برمال تغدقها الرياح عن أكمام هناك، ورأينا تماثيل أبي الهول عند زيارتنا هذه مغطاة بالرمال إلا بعضها لا تزال رؤوسها ظاهرة، وبعضها الآخر رأينا نصف أبدانها مكشوفة، فتمثل لنا المشقة التي كان المصريون القدماء يقاسونها في طريقهم إلى هذا الهيكل من شدة العواصف"^(٥٤).

قرر ماريث أن يبدأ حفائره من هناك أملاً في الكشف عن السيرابيوم فاستأجر ثلاثين عاملاً وأمرهم بالحفر عند رأس أبي الهول الظاهرة، وكان نجاحه فورياً، وسرعان ما أخذت تماثيل أبي الهول تظهر الواحد تلو الآخر محددة الطريق، وبحلول منتصف شهر ديسمبر عام ١٨٥٠ م (صفر ١٢٦٧ هـ) كان قد كشف عن مائة وأربعة وثلاثين تمثالاً منها في طريق يتجه غرباً ثم ينحدر نحو الجنوب حيث ينتهي بالتمثال المائة والحادي والأربعين^(٥٥)، وبعد هذا التمثال كشف ماريث عن معبدتين أحدهما فرعونى والآخر إغريقى، وعند هذا الحد كانت الأموال التي خصصتها له الحكومة الفرنسية قد أوشكت على النفاذ، فقام ماريث بالاقتراض من تجار الإسكندرية، كما باع عدة مجوهرات عثر عليها في المعبدتين^(٥٦)، وأعاناه القنصل الفرنسى آرئولد لومويان الذى كان معجباً بنشاطه ببعض المال لكي يستأنف حفائره^(٥٧)، وفي الوقت نفسه تقدم ماريث بطلب إلى رؤسائه لكي يمدوه بالمال، وأرفق بطلبه تقريراً عن اكتشافاته، ورسماً دقيقاً للحفائر، وأكد ماريث في تقريره أن وقف الحفائر التي أجريت بكل هذا القدر من النجاح إنما يعنى: " أن نسلم إلى المتاحف المنافسة ما ينبغى أن تحتفظ به للمجموعة الوطنية"^(٥٨) وأرسل ماريث كل ذلك إلى باريس مع القنصل الفرنسى في الإسكندرية والذي كان متوجهاً في أجازة إلى فرنسا.

اجتمعت لجنة المتاحف الوطنية في باريس لدراسة تقرير ماريث عن نشاطه وطلبه مزيداً من الأموال، وأقرت اللجنة بعد دراسة التقرير منح ماريث اعتماداً إضافياً قدره ثلاثون ألف فرنك، وأبلغ ماريث والقنصل الفرنسى في القاهرة بالأفراض المحددة التي سيستخدم فيها الاعتماد الجديد وهي: " التنقيب عن معبد سيرابيس الذى اكتشف بين أنقاض ممفيس ونقل القطع الفنية التي تستخرج منه إلى فرنسا"^(٥٩)، وهو الأمر الذى أثار قلق ماريث لأن القطع النفيسة التي تلقى مقابلاً لإرسالها إلى فرنسا تنتمى للحكومة المصرية بمقتضى القانون المصرى.

أثار النجاح الذى أحرزه ماريث غيرة المنقبين الآخرين، وحقد تجار الآثار، وبلغت أنباء استكشافاته إلى أسماع مدير الجيزة، فأوعز إلى العمال الذين يعملون في حفائره بالامتناع عن العمل معه، كما أبلغ أمره إلى عباس باشا الذى كان معروفاً بنفوره وتحفظه إزاء الأجانب^(٦٠)، فأصدر أمراً مشدداً إلى مدير الجيزة يؤكد عليه فيه بضرورة تشديد الرقابة على كل الحفائر التي يجريها منقبون فرنسيون في منطقة سقارة " حيث إنه يوجد آثار قديمة في تقط مختلفة ببلدة

مسقارة التابعة لمديريتك، كنت قد أعطيت رخصة حفر فيها قبل ثلاث سنين لأشخاص فرنسيين لاستكشاف هذه الآثار بشرط ألا ينقلوا منها شيئاً للخارج. وبعد الكشف والفحص يتركونها في محلها، ولكن سمعنا أخيراً أن هؤلاء المرخص لهم كلما تصل أيديهم إلى آثار قديمة معدنية أو فخارية يخفونها وينقلونها للخارج سرّاً، وحيث إن نقل الآثار والمومياة للخارج ممنوع جداً، فيجب بعد الآن الاهتمام بها ومنع إخراجها كلما ظهرت، ولأجل منع الأهالي من انتهاز فرصة بيعها وإخفائها، يلزم أن تعينوا شخصاً مؤتمناً بواسطكم يكون حائزاً لثقتكم واعتمادكم الكلي، وتقييمه في محل الاستكشاف ليراقب الحفر بدقة عظيمة، ويمنع تسرب الآثار المستكشفة للخارج، ويعتني بجمعها وإرسالها إلى ديوان المدارس تحت يد شخص أمين لتحفظ هناك وتبقى سليمة من التلف والضياع على حسب رغبتنا، ومن بعد إذا سمعت أو أخبرت أن أحداً من الأهالي أو الأجانب استحوذ على شيء من هذه الآثار أو أخفاها أو تجرأ على نقلها وإرسالها إلى الخارج، وتحققت من ذلك، أو وقفت لضبطها، تأكد أني لا أنظر في وجهك ثانية، وسأصدر أمري حالاً بعزلك وفصلك من المديرية، فلكي تعي الأمر وتكون على بصيرة، قد حررنا لك هذا لاتباعه" (٤٦١) ويبدو أن تحريضاً إنجليزياً كان يقف وراء هذا الموقف المتشدد للغاية الذي انتهجه عباس في معالجة هذه المسألة.

لم يكن ماريت حتى هذا الوقت قد حصل على تصريح بالحفر من السلطات المصرية، ووجد القنصل الفرنسي أن من الأفضل التقدم بطلب تصريح رسمي وإن يكن متأخراً، وقام القنصل بذلك بطريقة تُلطف الأجواء المتوترة أصلاً حيث أكد على أن "السيد ماريت لا ينازع بأي حال حقوق ملكية الوالي لكل الآثار المصرية الموجودة في التربة المصرية، ويتعهد مقدماً بالأخذ شيئاً مما اكتشفه بالفعل أو مما سيكتشفه" (٤٦٢) وأصدر عباس تصريح التنقيب مشروطاً بشرطين: أن تسلم كل الأشياء المنقولة التي يكتشفها ماريت إلى الحكومة المصرية، وأن يعين خمسة حراس في مواقع الحفر للإشراف على الحفائر: "لما كانت أعمال الحفر الدائرة بواسطة مسيو ماري [ماريت] الفرنسي ساوى عبارة عن خمس نقاط مختلفة فيجب لحفظه وحراسته إرسال خمسة أشخاص برتبة بكباشي وصاغ قول أغامسي، وحيث إن حفظ وصيانة الأنتيكات من مقتضى إرداتي، فبادروا بإرسال خمسة أشخاص من أصحاب الرتب المذكورة الموجودين بالاستيداع لطرف المدير [مدير الجيزة] بشرط أن تستعديدهم عند انتهاء الأشغال" (٤٦٣) غير أنه عندما قامت الحكومة المصرية بمطالبة ماريت بتسليم المكتشفات التي عثر عليها طبقاً لشروط التصريح الصادر له - وكانت هذه المكتشفات قد وصلت إلى خمسمائة وثلاث عشرة قطعة أثرية ما بين حلى وتماثيل وغيرها، رفض ماريت تسليمها إلا بأمر من حكومته، وفتت الإدارة المصرية نظر ماريت إلى "أن الحكومة المصرية لم تسكت عما أجراه من الحفر والتنقيب إلا لاتفاقها مع قنصل فرنسا بأن تبقى التحف

المكتشفة ملكاً لها^(٤٦٤) ولكن ماريت أصبر على موقفه في الرفض، وبدأت المفاوضات بهذا الشأن بين الحكومتين المصرية والفرنسية من جديد، وانتهت إلى الشروط الآتية:

١. أن تنازل الحكومة المصرية عما اكتشف من الآثار حتى ذلك الحين إلى فرنسا.
٢. وقف عمليات التنقيب بصفة مؤقتة.
٣. أن يسمح لماريت بالعودة إلى حفائره على أن يصبح ما يكتشفه بعد ذلك ملكاً للحكومة المصرية^(٤٦٥).

شعر ماريت بالإحباط من هذا الوضع، فتصرح بالتنقيب الممنوح له يمكنه من مواصلة حفائره قانوناً، ولكنه لم يكن ينظر بعين الرضا إلى إنفاق وقته وجهده وثلاثين ألف فرنك من أموال وطنه لكي يكتشف كنوزاً للحكومة المصرية، وازداد الوضع تعقيداً عندما عثر أثناء سير المفاوضات على مقبرة العجول المقدسة بعينها، وفي مدفن مشترك دفنت فيه الثيران المقدسة التي كانت تجسداً لأبيس. وفاق هذا الاكتشاف كل التوقعات، فخلف باب رائع منحوت من كتلة صخرية واحدة من الحجر الرملي عثر ماريت على أربعة وعشرين تابوتاً ضخماً من الجرانيت في رواق طويل تتفرع منه ممرات وقاعات من الجانبين، وكان الممر غاصاً بالتحف والتماثيل والكنوز من كل نوع، وساعده الحظ في أن مفتشى الحكومة المصرية كانوا بعينين عن الموقع عند اكتشاف المدخل، وأمر ماريت بأن يدفن المدخل، وأن يظل سراً، فقد قرر ماريت أن يجري ترتيباته بعيداً عن الاتفاق الرسمي النهائي بين الحكومة الفرنسية والمصرية^(٤٦٦).

جمع ماريت الأشياء التي أراد أن يستولى عليها في صناديق أخفاها في إحدى قاعات المقبرة، وأقام ممراً سرياً من هذه القاعة إلى غرفه أعلاها، وفي الليل كانت هذه الصناديق المليئة بالكنوز تنقل عبر هذا الممر إلى الخارج، ثم إلى الإسكندرية على ظهور الجمال حيث يتم شحنها من هناك إلى باريس، وعندما يتم تطهير كل مدفن كان ماريت يقدم تقريراً رسمياً عن اكتشافه، ويقود المفتشين الحكوميين عبر غرفة الفارغة^(٤٦٧)، واستمرت هذه الخدعة شهوراً، وظل ماريت يتلاعب بالمسؤولين المصريين ويطلعهم على المقابر المكتشفة فارغة، وابتسمت له الأقدار عندما عثر على مومياء لأحد عجول أبيس سليمة تماماً، حتى إن آثار أقدام العمال الذين دفنوا العجل كانت واضحة على تراب المقبرة^(٤٦٨)، وكان التابوت الذي فيه الجثة سليماً أيضاً، كما كان العجل نفسه محاطاً بالذهب والمجوهرات^(٤٦٩)، كما عثر كذلك على مجوهرات وحلى خاصة بأحد أبناء رمسيس الثاني كان مشاركاً له في الحكم، ولا يُعرف إلى الآن سبب لوجود متعلقات هذا الأمير في هذا المدفن العجيب، وقد وصفت تلك المجوهرات بأنها "تعد - بحق - من أنفس ما تركه لنا قدماء المصريين وتعد بالآلاف القطع"^(٤٧٠).

أدرك ماريت أنه من غير المعقول مواصلة الادعاء بأن كل المقابر خالية تماماً، ومن ثم فقد استخدم ماريت أحد مواطنيه ليصنع له نسخاً مقلدة من الآثار التي وجدت في السرابيوم ونقش عليها ماريت بعض الهيروغليفيات بنفسه، كما اشترى - في تكتم - عدداً من الآثار الزائفة التي كانت صناعتها منتشرة في مصر في ذلك الوقت، وقدم هذه وتلك جميعاً إلى الحكومة المصرية، ولما كان المسئولون المصريون من الجهل بمكان بالآثار القديمة المصرية فقد انطلت عليهم الخدعة، وطالما بقيت المظاهر مصانة، كانت الجهات الرسمية راضية وكان المفتشون متعاونين^(١٧١).

وتروى السيدة إميلي إدواردز حكاية ذكرها الدكتور أبوت ومفادها أن ماريت قد استدعى فجأة إلى باريس بعد عدة شهور من اكتشافه للسرابيوم، ولما وجد نفسه يفتقر إلى وسائل نقل الآثار التي اكتشفها حديثاً، قام بدفن أربع عشرة دفنة في الصحراء انتظاراً لعودته، ومن بين هذه الحالات تابوت حجري احتوى على أحد عجول أبيس، ولما رحل ماريت إلى باريس حاملاً معه كل ما يمكن حمله من الكنوز، جاء إلى منف بقصد السياحة أرشيدوق النمساوى، وتحت إغراء الأموال كشف له الإعراب عن سر الدفقات الأربع عشرة المخفية، فأخرجها الأرشيدوق النمساوى وحملها معه إلى الإسكندرية، ومن هناك نقلها بحراً إلى ترستا ومنها إلى فينا حيث عرفت هذه المجموعة الأثرية باسم مجموعة ميرمار وقد أكد الدكتور أبوت أنه عرف هذه القصة من ماريت مباشرة^(١٧٢).

وبعد أن أقام ماريت بشحن أكثر من سبعة آلاف قطعة من الآثار المصرية على اختلاف الأشكال والأنواع، أسهمت إلى حد كبير في إثراء متحف اللوفر، قرر أن يمضى في أثرها إلى باريس ويستمتع بالشهرة التي حققها له اكتشافاته وعمليات التهريب الناجحة التي قام بها، وكان قد حظى في ١٦ أغسطس ١٨٥٢م (٢٩ شوال ١٢٦٨هـ) بوسام الليجون دوتير برتبة فارس، وبعد عودته عين أميناً مساعداً بالقسم المصري في متحف اللوفر وسمع له بزيارة المتاحف الأوروبية الأخرى لكي يقوم بتصنيف اكتشافاته على نحو ملائم، وبدأ بالمانيا حيث قام الملك فردريك وليم الرابع - الذي كان قد أرسل دون علم ماريت إسهاماً مجهول المصدر للمساعدة في اكتشاف السرابيوم - بمنحه وسام النسر الأحمر من الدرجة الثالثة، كما زار متحف تورينو ليفحص المجموعة المصرية الموجودة هناك، وفي تورينو منح ماريت وساماً حكومياً، واختارته أكاديمية العلوم في تورينو مراسلاً، وكان ماريت بالفعل مراسلاً لأكاديمية الفنون الجميلة في ربودي جانيرو، كما انتخب عضواً في جمعية الآثار في لندن وأصبح من أشهر علماء الآثار المصرية^(١٧٣).

هذه الألاعيب والحيل التي كان يقوم بها أمثال ماريت بكل بساطة وبرود، كانت شيئاً عادياً ومقبولاً بين الأثريين في ذلك الوقت؛ إذ لم يكن ثمة وازع من رقيب أو ضمير يضع حداً لتصرفات ماريت وأمثاله، وكان الطمع والنظرة القومية الضيقة أو ما كانوا يطلقون عليه "العزة الوطنية"

تحكم تصرفات هؤلاء الأثريين، وكما يقول جرجى زيدان: "إن سرقة آثار المشرق خلال في شرع أهل المغرب" (٤٧٤). وفضلاً عن ذلك فإن بعض الأمم الأوروبية التي كانت متقدمة علمياً وثقافياً في ذلك الوقت كانت ترى لنفسها نوعاً من القوامة على الأمم والشعوب الأخرى الأقل منها تحضراً، وأن هذه القوامة تبيح لها فرض سيطرتها وهيمنتها على هذه الدول الأضعف من منطلق التفوق الثقافي والحضاري، نلمح ذلك جيداً من خلال تلك العبارات التي رفعتها أكاديمية فرنسا للنقوش والآداب إلى الحكومة الفرنسية تعضد بها طلب ماريت منحه اعتمادات مالية إضافية لاستكمال استكشافاته في سراييوم منف، فقد ألححت الأكاديمية للحكومة أنها تشعر بالقلق الشديد إذ تدرك "أى كنوز من كنوز العصر القديم تتعرض لفرنسا لخسارتها للافتقار إلى قدر قليل من المال، وكم سنأسف لو أن هذا المنجم الذهبي - الذى هو من حق فرنسا بحكم قانون أنها أول من اكتشفه - أصبح مملوكاً لدول أخرى لن تتردد في أن تملكه وتستغله لصالحها" (٤٧٥) وفي خطابه أمام هذه الأكاديمية بعد مضي عدة سنوات أكد ماريت أنه قد أدى ما عليه على أحسن ما يكون الأداء، وأنه قام برد الجميل للأكاديمية التي ساندته في مهمته: "لم أجد مخطوطات، ولم أقم بمراجعة الموجودات في أى مكتبة من المكتبات. لكننى أحضرت معبداً، حجراً بعد حجر" (٤٧٦) فهو لم يترك أية وسيلة ولم يتوان عن أية حيلة لتصدير كنوزه.

كانت أساليب ماريت في حفائره للكشف عن السراييوم عنيفة ومغرية حتى إنه قد لجأ إلى استعمال الديناميت لكسر أحد التوابيت التي وجدها مغلقة (٤٧٧) عن طريق القيام بعمل تفجير معكوم بالبارود، وكانت النتيجة المترتبة على هذه التصرفات أن المعلومات التي وصلت إلينا من هذا المصدر الغني بمقاييره ومقاصيره تعتبر ضئيلة بالنسبة لما كان ينتظر من مثل هذا الموقع الغني، ويرجع السبب في قلة هذه المادة - على الرغم مما خرج من جوف معبد السراييوم من آثار كثيرة جداً - إلى أنها لم تلق العناية الكافية للمحافظة عليها عند الكشف عنها والحقيقة أن ما ضاع أو تلف من آثار السراييوم كان عظيماً جداً (٤٧٨).

ويؤكد الدكتور سليم حسن - رحمه الله - أن "جهلنا بالأشياء التي وجدها ماريت شئ يؤسف له كثيراً، فمن بين الأشياء التي أشار إليها في كتابه عن السرييوم - والتي لم تذكر في فهرسه الخطي المحفوظ باللوفر - الكثير الذي كان يعتبر غير جدير بالمحافظة عليه، ومن المحتمل أنه إذا أعيد فحص أترية الحفائر التي قام بها في منطقة سقارة، وكذلك لو حفرت المقابر التي حفرها من جديد وبخاصة تلك التي ليست معروضة للجمهور لأتت بنتائج مفيدة لعلم الآثار. ولا أدل على ذلك من الحفائر التي قمت بها في منطقة سقارة ووُجِدَت فيها أشياء جديدة لم يكن ماريت قد كشف عنها، وكذلك وجدت نقوش لم يكن قد نقلها، وفضلاً عن ذلك نجده قد ترك ثلاث دفنات من عهد الرعامسة لم تنظف تماماً... ومن المحتمل أن القيام بمثل هذه الحفائر يمكن أن يأتي

بمحصل كبير، وبلا شك سيكون لدينا بذلك بيانات أكثر من تلك التي نشرها ماريت عن حفائره في سقارة^(٤٧٩).

أما وليس بدج فقد كان واحداً من أكثر الوكلاء الذين كلفهم المتحف البريطاني بجمع الآثار لزيادة مجموعته من المصريات جشعاً وأشدّهم عدوانية، وقد نجح بتمويل وتشجيع من المتحف البريطاني في خداع مسئولى مصلحة الآثار المصرية، وأرسل إلى بلاده شحنات مليئة بالأسلاب والفنائم من الآثار المصرية بمباركة ومساعدة من رجال الاحتلال الإنجليزي في مصر.

بدأ بدج حياته الوظيفية مساعداً لأمين الجناح المصرى بالمتحف البريطاني، وكان دائم السفر إلى مصر والسودان والعراق لشراء آثار لصالح المتحف البريطاني، وكانت وسائله في جمع الآثار فجة وغير مستساغة، وهو الأمر الذى أسخط عليه الكثيرون، ولكن بدج لم يعبا بذلك بدعوى ولائه للمتحف البريطاني وأهدافه الكبيرة^(٤٨٠).

حضر بدج إلى مصر للمرة الأولى في سنة ١٨٨٦ م (١٣٠٤-١٣٠٣ هـ) في رحلة هدفها جمع الآثار لمتحفه، فقد اعتاد السير فرنسيس جرينفيل قائد الحامية البريطانية المتمركزة في أسوان أن يشغل أوقات فراغه بالحفر في المنطقة بحثاً عن الآثار، وحقق في هذا السبيل عدداً من الاكتشافات الأثرية الهامة، حتى إنه قد كشف عن خمس مقابر بالقرب من أسوان^(٤٨١)، وكان يتطلع إلى معرفة قيمة هذه الاكتشافات، فعرض على المسئولين في المتحف البريطاني أن يتنازل لهم عما اكتشفه من آثار لو أنهم أرسلوا إليه أحد يقيمها لمعرفة ما إذا كانت تستحق الإهداء من عدمه، وأغرى الاقتراح أمناء المتحف، ومن ثم فقد عرضوا الأمر على المسئولين في الحكومة البريطانية، واستشارت الحكومة وزارة الخارجية، واستشارت الخارجية رجلها المسئول في مصر السير إيفلين بارنج المعتمد البريطاني في مصر الذى أحال بدوره هذا الاقتراح إلى ممثله في أسوان السير جرينفيل لإبداء الرأي، وقد أوضح هذا الأخير في رده أن للمتاحف الكبرى في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا رجالها في مصر، ويتردد انهم يحققون لبلادهم الكثير، ومن ثم فإنه من غير المتصور أن يترك المتحف البريطاني متخلفاً عنها، وفضلاً عن ذلك فإن الحفائر لم تكلف الحكومة المصرية شيئاً لأنه هو الذى مولها بنفسه، وهو على استعداد لى يواصل تمويلها^(٤٨٢).

وافق بارنج على البعثة، ومُنح بدج إجازة لمدة أربعة أشهر، ومائة وخمسون جنياً إنجليزياً، وصدرت له تعليمات بإجراء صفقات لشراء الآثار المصرية لصالح المتحف البريطاني، وحين سمع نائب مدير جامعة كامبردج بالمشروع قام بتقديم مائة جنية أخرى لبدج لشراء آثار لمتحف فيتروليم^(٤٨٣).

وصل بدج إلى القاهرة، وكان أول اجتماع رسمى له مع السير بارنج غير مباشر على الإطلاق، فقد استقبله هذا الأخير بفتور ملحوظ، لأنه كان غاضباً من أساليب الأثريين الإنجليز المتتوية في

جمع الآثار رغم أن بدج كان يحمل إليه خطابات تقديم من المتحف البريطاني، وأخبره بارنج بأنه لأن يؤيد أى مشروع للتنقيب من أى وكيل لأمناء المتحف البريطانى سواء أكان يعمل لحسابهم أو لحساب شخص آخر، إذ " ينبغي ألا يكون احتلال البريطانيين لمصر عدراً لاختلاس الآثار من البلاد سواء لإيجلترا أو لأى مكان آخر" (٤٨٤).

وهذا موقف غريب من جانب بارنج فإذا لم يكن راضياً عن بدج ورحلته فلماذا وافق على حضوره منذ البداية ؟ ولماذا لم يعارض فكرة إرسال مندوب من المتحف البريطانى إلى مصر لتقييم مجموعة جرينفل وشراء مجموعات أثرية أخرى للمتحف عندما استشارته وزارة الخارجية في هذه المسألة ؟ ولماذا أحال الأمر برمته إلى جرينفل وهو يعلم علم اليقين أن بدج إنما حضر بدعوة منه ؟ فهل كان يقصد بوقوفه هذا الموقف أن ينأى بنفسه عن شبهة اتهامه باستغلال منصبه في تمكين المتحف البريطانى وتسهيل مهمة أمنائه في السطو على آثار مصر القديمة، بحيث يبدو للمراقبين أن هذه السرقات الأثرية التى قام بها بدج إنما تمت من دون رضائه ومخالفة إرادته ؟ ربما كان كذلك.

المهم أن بدج كان عتيداً فصمم على تحقيق أغراضه بأية وسيلة ممكنة ولو عن طريق خداع الإدارة القائمة، وكان عليه أن يسافر أولاً إلى أسوان ليرى مجموعة الآثار الموجودة لدى السير جرينفل، وهناك كان تنتظره مفاجئة لم يكن يتوقعها، فقد قيل له أنه لم يتبق منها سوى بضعة أشياء صغيرة ليست ذات أهمية، بينما اختفى الباقي دون حساب، حتى هذه الأشياء القليلة قد استولى عليها ممثل متحف بولاق باسم الحكومة المصرية وأرسلت إلى مصلحة الآثار المصرية في القاهرة، ولما وجد بدج أن المجموعة التى كان ينتظر الفوز بها قد ذهبت أدراج الرياح قرر أن يقوم بالحفر لحسابه، وتمكن عماله من الكشف عن ثمان عشرة مقبرة في منطقة أسوان، ولما نفدت أمواله نجح في إقناع قائد القوات البريطانية في أسوان الجنرال مونت موريسى الذى خلف جرينفل أن من مهام الجيش البريطانى أن يمد يد العون للمتحف البريطانى، وقامت القوات المسلحة البريطانية بتوفير الأدوات اللازمة ومعدات السكك الحديدية وجنود حفر الخنادق للإشراف على العمال الذين يقومون بالحفر، ولكنهم لم يعثروا على شيء ذى قيمة، ذلك أن كل المقابر التى كشفوها كانت قد نهبت بالفعل (٤٨٥).

أسقط في يدى بدج، ولكن من حسن حظه أنه كانت هناك أساليب أخرى أقل إجهاداً من الحفر كانت مفتوحة أمامه لجمع الآثار، فقد كان يمشى في أعقابهِ دائماً ممثل لمتحف بولاق لديه تعليمات بأن يراقب تحركاته ويمنعه من أن يشتري الآثار من التجار والأهالي، وكان هذا الرجل يحذر الأهالي منه دائماً باعتباره عميلاً ثرياً ذا أساليب ملتوية (٤٨٦)، وأنه وكيل عديم الضمير لمؤسسة أجنبية، وأنه تلقى أموالاً لا تنتهى لتجريد مصر من كنوزها، وكان أن أفاده من حيث أراد

أن يضره، فما أن عُرف أن بدج لا يبالي بالقانون ولديه مال ينفقه لم يعد بحالة إلى أن يبحث عن الآثار، فقد كان التجار يعرضون عليه الآثار من كل لون سراً تحت جنح الظلام، ونجح بدج أثناء إقامته في الأقصر في تكوين مجموعة أثرية ضخمة عن طريق الشراء من تجار الآثار، ولاسيما أفراد أسرة عبد الرسول الذين اشتهروا في التاريخ المصري باكتشافهم خبينة الدبر البحري^(٤٨٧).

في هذا الوقت كان بدج قد تلقى تكليفاً من أحد الأساتذة بجامعة كامبردج كان يبحث في تاريخ الجنس البشري ويدعى الكسندر ماكليستر، هذا الرجل كان بحاجة إلى عددٍ من جماجم المصريين القدماء، وتساءل عما إذا كان بوسع بدج أن يزوده بقليل منها وحدث أن اكتشفت مقبرة تضم عدة موميאות للكهنة لم يكن تحنيطهم جيداً، وأمر بدج بأن توضع كومة من الموميאות في صناديق وأن ترسل إلى الإسكندرية لتصديرها، وهناك واجهته مشكلة فقد كان تصدير بقايا الموميאות البشرية محظوراً بحكم القانون، فحجزت الصناديق في جمرك الإسكندرية، ورفض موظفو الجمارك قبول إدعاء بدج بأن للجماجم قيمة علمية، فكل قيمة يمكن أن تكون لها في نظرهم هي قيمتها كسماد عضوي، وقاموا - من باب إساءة النصح - إلى لفت نظر بدج إلى ضرورة تصنيفها على هذا النوع "فتات عظام للتسميد" ويقول بدج: "عندما تعاملت مع الجمارك وجدت مساومتهم سهلة باستخدام هذه التسمية"^(٤٨٨) وهكذا غادرت عينات ماكليستر مصر تحت مسمى "سماد عضوي" بعد دفع الرسوم المستحقة على الأسمدة وهي واحد بالمائة^(٤٨٩).

واجه بدج صعوبات أكبر في نقل كنوزه الأخرى إلى الإسكندرية، ولكن صديقه الجنرال مونتورنيمى كان لا يزال مصمماً على مساعدة المتحف البريطاني، فأخذ صناديق بدج وشحنها على قوارب رسمية مع المعدات العسكرية البريطانية إلى الإسكندرية وهو الأمر الذي أغضب بارنج فكتب إلى بدج يذكره بأن تصدير الآثار محظور بحكم القانون وبأمره أن يعيد للتجار القطع التي اشتراها منهم، مع أنه كان من الأجدي - إن كان صادقاً في غضبته هذه - أن يأمر بما لديه من سلطة بمصادرة هذه القطع المهربة لصالح المتحف المصري، وهو أسلوب كان متبعاً في ذلك الوقت لردع الإتجار غير المشروع في الآثار المصرية القديمة ولكنه لم يفعل، أما بدج فقد رد بأنه إنما أرسل إلى مصر على حساب الدولة البريطانية، وأن المجموعة التي كان من المفترض أن يتسلمها من جرينقل قد اختفت دون حساب ومن ثم فقد شعر بأن من واجبه أن يجلب بدلاً منها قطعاً أخرى من مصدر آخر، وقال بدج إنه ليس موظفاً لدى بارنج، ومن ثم فلا يخضع لأوامره، وأضاف أنه سيستمر في بذل أقصى جهده لزيادة المجموعات المصرية في المتحف البريطاني الذي يواجه المنافسة ليس من الدول الكبرى الأخرى فحسب، بل وكذلك من كثير من الدول الصغيرة التي لديها وكلاء في مصر لشراء مجموعاتها الأثرية^(٤٩٠).

في الإسكندرية حالف الحظ بدج مرة ثانية فقد كان صديقه الجنرال مونتوريمنى قد نقل من أسوان إلى الإسكندرية، فاستطاع أن يتغلب على كل معارضه، وكتب بدج: " ذات يوم وقفت أنا وهو نرقب أربعة وعشرين صندوقاً تغادر الميناء "(٩١)، وبعد يومين سار بدج في أثرها إلى إنجلترا حيث حظى بتقريظ المتحف البريطاني.

عاد بدج إلى مصر مرة أخرى في ديسمبر من عام ١٨٨٧ (١٣٠٤/١٣٠٥ هـ) بعد أن سمع أن خبيثة كبيرة من البرديات قد اكتشفت في البر الغربي من الأقصر، ورأى بدج ضرورة شرائها قبل أن تعرف طريقها إلى المتاحف الأخرى، وفي هذه المرة طلبت مصلحة الآثار المصرية وضعه تحت رقابة الشرطة. ولكن بدج كان يتقن أساليب الإفلات من الرقابة، ومما يحكى في هذا الصدد أن بدج قد اشترى من رجل فرنسي في إخميم برديات قبطية، وتمت الصفقة في هدوء بعد أن أولم الرجل القرنى وليمته للرقباء أنفسهم تحين الرجلان في أثناءها فرصة، فانفردا معاً وأتما الصفقة. وفي الأقصر صحبه بعض التجار في ظلام الليل إلى مقبرة بالبر الغربي وجدها بدج تحتوى على برديات مهمة، منها واحدة هائلة طولها ثمانية وسبعون قدماً وتحتوى على النص الكامل لكتاب الموتى^(٩٢)، مكتوباً ومصوراً بطريقة باهرة حتى ليقول بدج: " لقد ذهلت لروعة الصور البشرية والحيوانية المصورة وجمال ألوانها حتى بدت لي كأنها حية "(٩٣) وتحفظ بدج على ذلك كله وأخفاه في مكان أمين، وعندما عرف رجال القوات المسلحة البريطانية أن محتويات الصناديق قد اشترت بأموال المتحف البريطاني التي قدمتها الخزانة البريطانية، أدركوا أنها ممتلكات عامة تجب حمايتها، فنقلوا الشحنة الأثرية إلى إنجلترا وشحنوها ضمن الحمولات الحربية الرسمية^(٩٤).

وقد شكوا مواطنه عالم المصريات الإنجليزي ويليام فلندرز بيترى الذى كان معارضاً لنقل الآثار المصرية إلى الخارج، شكاً إلى إميليا إدواردز من أن بدج: " قد أخذ منه صناديق وقدمها لـ [متحف] بولاق، لكنه ترك ١٧ صندوقاً أخرى لى تعامل باعتبارها عتاداً عسكرياً... جاءت هذه الصناديق السبعة عشر عبر النيل، وكان لابد من إرسالها، وكان أحدها كتلة تزن ثلاثة أرباع الطن، وإذا لم يمكن العثور على غلاف لها، فقد شحنوها من أسوان في عربات النوم في القطار بعد أن سمرت بمسامير طول كل منها ست بوصات، وإتيا لقطعة غريبة الشكل من العتاد العسكري "(٩٥).

كانت أساليب بدج الفظة في جمع الآثار مدعاة لانتقاد مجلة إيجبشين جازيت له، وذلك لأنه - على حد قولها - " معروف بطرقه الملتوية في الحصول على الآثار لمتحفه " ونفسه بدج يعترف بأنه قد حصل على المخطوطات القبطية " بعد مداولات كثيرة أثناء القهوة والمسكرات " وقد كان بدج سبباً في ثراء المتحف البريطاني بالتراث القبطى بشكل يحسده عليه غيره من المتاحف الأوروبية الأخرى^(٩٦).

لم يكن بدج بتصرفاته الطائشة وأساليبه المتهورة في جمع الآثار شاذاً عن روح العصر الذي كان يعيش فيه، فقد كان أمناء المتاحف الذين زاروا مصر في القرن التاسع عشر على شاكلة بدج، لا هم لهم سوى إثراء متاحفهم بأية وسيلة غير ناظرين إلى ما يمكن أن يسببه ذلك من خسائر علمية، أو ما يمكن أن يلحقه من خراب أو تدمير بالتراث الحضارى الذى تملكه الشعوب والأمم الأخرى، حتى وصل بهم الأمر إلى أنهم كانوا يستخدمون المتفجرات يفتحون بها ما استحكم غلقه من المقابر والمعابد والأهرام، وحتى هذه كان الجبرتي شاهد صدق عليها، فهو يحدثنا عن " بعض الإفرنج الذين رخص لهم الباشا [محمد على] بالسياحة والغوص بأراضى الصعيد، والفحص وحفر الأراضى والكهوف والبرابي، واستخراج الآثار القديمة للأمم السالفة من التماثيل والتماوير ونواويس الموتى، وقطع الصخور بالبارود "(١١٧).

على أن ذلك لا يعنى أن كل الأجانب الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر وأظهروا اهتماماً واسعاً بآثار مصر القديمة، كانوا على شاكلة بدج وأضرابه من أمناء المتاحف الذين لا هم لهم سوى جمع أكبر قدر من التحف الفنية بالوسائل المشروعة وغير المشروعة بغية إثراء المتاحف التى كانوا يعملون بها والتى أوفدتهم إلى مصر خصيصاً لهذا الغرض، إذا الواقع أنه كان هناك عدد آخر من المنقبين الأجانب كانوا أكثر اهتماماً بالعلم والمعرفة من سرقة الآثار وتهريبها، ولا يبتغون سوى مصلحة العلوم هؤلاء كانوا يعملون غالباً في صمت وبعبدين عن العالم، دفعهم حيم للعلم والمعرفة إلى الابتعاد عن زخرف الحياة الصافية في القاهرة والإسكندرية واختاروا الإقامة في صحراء الصعيد المقفرة لدراسة الآثار القديمة، وضربوا أروع الأمثلة في النزاهة والترفع والبعد عن المصلحة الشخصية.

من هؤلاء جون جاردنر ويلكنسون أحد رواد علوم المصريات في إنجلترا، زار مصر لأول مرة عام ١٨١٢م (١٢٢٧هـ) وأقام فيها اثني عشر عاماً اهتم فيها باستجيل الآثار، فزار كل موقع أثري هام، ووضع عنه رسومات دقيقة وماهرة، وأنهى زيارته الأولى سنة ١٨٢٣م (١٢٣٨/١٢٣٩هـ) بعد أن فرغ من أول مسح أسلوبى منظم لأهم المواقع الأثرية في مصر والنوبة(١١٨).

أتقن ويلكنسون العربية والقبطية، كما درس اللغة الهيروغليفية، وتمكن من تحديد كثير من الأسماء الملكية، ووضع أول ترتيب زمنى موثوق به للملوك والأسر(١١٩)، كما قام بنسخ النقوش واللوحات التى تزين جدران مقابر بنى حسن بوضوح ودقة، ولم يكن شامليون وروزيليني قد زارها بعد(١٢٠)، وأنتج ثروة لا يضارعها شئ من الرسوم واللوحات من المقابر.

وفي طيبة أقام ويلكنسون خلال الفترة ما بين عامى ١٨٢٤-١٨٢٨م (١٢٤٠-١٢٤٤هـ) وهو ينقب عن المزيد من المقابر، عاكفاً على إعداد الرسوم وتصنيف المقتنيات في سجلات وصفية، كما رسم أول خريطة شاملة لطيبة القديمة، ووضع تتابعاً صحيحاً لملوك الأسرة الثامنة

عشرة، كما حاول أن يضع نظاماً لتحديد المقابر الملكية والمقابر الخاصة، ولا تزال أرقامه العشرون الأولى في مقابر وادي الملوك هي المستخدمة حتى اليوم باستثناء حالة واحدة فقط^(٥٠١)، وقد كان ذلك كله على الرغم من صعوبة الحياة والمعيشة في مثل هذا الوادي المقفر، حيث يذكر أحد الرحالة أنه رأى ويلكنسون وهو يسكن في إحدى المقابر التي يلزم المرء للوصول إليها أن يسير على قدميه لمدة ساعة ونصف الساعة في طرق وعرة، وهو يؤكد أن هذه المقبرة كانت مزدانة حوائطها بلوحات الآثار القديمة^(٥٠٢).

وفي عام ١٨٢٢م تعين ويلكنسون بتكليف من محمد علي باشا للقيام برحلة كشفية في صحراء مصر الشرقية، فاستدل خلال هذه الرحلة على آثار قديمة كثيرة، وعين مواضع لم تكن قبل ذلك معينة على وجه أكيد، كما استكشف بقايا مدينتين عتيقتين وأثر معبد قديم^(٥٠٣).

تمخض هذا النشاط الأثري الواسع لهذا العالم الإنجليزي الكبير عن صدور مؤلفين عظمين له: الأول بعنوان "طبوغرافية طيبة والمسح العام للقطر المصري" والذي نشره ويلكنسون عام ١٨٣٧م (١٢٤٩/١٢٥٠هـ) ويعتبر هذا المؤلف أول تنقيح لما ورد في كتاب علماء الحملة الفرنسية الشهير "وصف مصر"^(٥٠٤) وفي عام ١٨٣٧م (١٢٥٢/١٢٥٣هـ) نشر ويلكنسون عمله الثاني الضخم واسع النجاح "ملوك وعادات المصريين القدماء بما في ذلك حياتهم الخاصة وحكوماتهم وقوانينهم وفنونهم وصناعاتهم ودينهم وتاريخهم الأول، مستمد من مقارنة اللوحات والتمائيل والآثار التي مازالت قائمة بعروض المؤلفين القدامى" والذي ظهر في ثلاثة أجزاء^(٥٠٥). ويعتبر ما قام به ويلكنسون إنجازاً بكل المقاييس، إذ لم يكن يتلقى أي دعم مادي من حكومته بخلاف البعثات العلمية الأخرى التي كانت تعتمد على تمويل حكوماتها، ورغم ذلك ظل ويلكنسون من رجال الظل، ولم ينل ما يستحقه من التقدير؛ فالجانب الأكبر من بحوثه لم ينشر، ولم يقم أحد بكتابة سيرته رغم تأثيره العميق على علوم المصريات في القرن التاسع عشر^(٥٠٦).

ومتهم كذلك روبرت هاى، وهو رحالة اسكتلندي من الثراء، كان يهوى السياحة، ويعشق مصر، زارها لأول مرة عام ١٨٢٤م وقضى فيها السنوات الاثنتي عشرة التالية يساعد أبحاث الدارسين الزائرين^(٥٠٧)، وكان ويلكنسون من الذين استفادوا من رعاية هاى لهم وقد عكف خلال إقامته في مصر على تسجيل الأطلال الأثرية في وادي النيل، واستعان في عمله هذا بعدد من الفنانين العظام كان من بينهم الفنان الإنجليزي جوزيف بونومي الذي يعد من خبراء نسخ الهيروغليفيات، واستمر بوصفه أروع رساميها^(٥٠٨)، كما استعان بجهود مهندس إنجليزي يدعى أوين كارتير كانت مهمته رسم المساقط التخطيطية للمواقع. وقد بدأت المجموعة نشاطها في منف، وتمكنت من جمع كم هائل من المعلومات، وتعتبر الرسوم واللوحات والوصف المسجل بواسطة

هذه المجموعة المصدر الأسامي عن آثار هذه المنطقة التي أصابها التخريب والدمار الشديد منذ أن زارها هاى ورفاقه^(٥٠٩).

وممنهم أيضاً الفرنسى جان جاك أمبير الذى وفد إلى مصر عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) في بعثة من وزارة التربية والتعليم الفرنسية لدراسة الآثار القديمة المصرية، وقد ألزم أمبير نفسه بزيارة كافة الآثار، وسجل: "اطلعت على ما سجله المصريون القدماء على جدران معابدهم... وبدأت لى الآثار كتباً ومخطوطات على قراءتها وفهمها"^(٥١٠) ويعتبر أمبير من أعظم من كتب عن الآثار المصرية حتى إن كاريه يقدمه على مارييت ويضعه بعد شامبليون مباشرة^(٥١١).

ونود أن نشير كذلك إلى الاسكتلندى اسكندر هنرى ريند الذى جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨٥٦م (١٢٧٢/١٢٧٣هـ) وراعه ما كان يقوم به سولت ودروفيتى من حفر عشوائى عنيف غير مسئول، واحتج على هذا النهب الأثرى الواسع لثروات مصر القديمة، وكان ريند يرى ضرورة الحاجة إلى البحث الدقيق والتنقيب العلمى المنظم، وتوفير الحماية لكل الأشياء التى يعثر عليها مع تسجيل مواقعها بالضبط حين اكتشافها، وهاجم بعنف العادة السائدة بتدمير كل الآثار للعثور على أثر واحد، والتنقيب لمجرد البحث عن الكنوز^(٥١٢)، وأمضى ريند موسمين كاملين باحثاً عن مقبرة سليمة لى يعاينها ويسجلها بأسلوب منظم لأنه لاحظ أن عناية المستكشفين في ذلك الوقت كانت تتجه دائماً إلى الاستحواذ على الآثار، فلم يعينوا بالظروف التى اكتشفت فيها تلك الآثار، وبعد طول عناء وجد ريند مقبرة مناسبة، فرصد الموقع بدقة، وسجل خطوات الحفر أولاً بأول، كما سجل محتويات المقبرة، وموضع كل شئ وجده فيها، وأصدر في النهاية كتاباً عنها تحت عنوان: "طيبة، مقابرها وسكانها" والذى صدر عام ١٨٦٢م (١٢٧٨/١٢٧٩هـ)^(٥١٣).

ومما يؤسف له أن ريند قد مات في ريعان شبابه وهو في الثلاثين من عمره، ولو عاش لأفاد المصريات كثيراً لأنه كان يتسم في عمله بالصبر والدقة، كما كان أول من اعتنى بالتسجيل والحفر السليم^(٥١٤).

وتنبهى الإشارة أيضاً إلى الرسام الإنجليزى دافيد روبرتس الذى كانت رسومه عن الآثار المصرية خلال عامى ١٨٣٨، ١٨٣٩م (١٢٥٤، ١٢٥٥هـ) من أهم العوامل التى أثارت الانتباه في أوروبا إلى هذه الآثار، وادت إلى زيادة أعداد الزوار الأوروبيين الذين وفدوا إلى مصر لمشاهدتها على الطبيعة، كما كانت هذه الرسوم - ولا زالت - سجلاً للحالة التى كانت عليها المعابد والآثار المصرية خلال فترة الثلاثينات من القرن التاسع عشر^(٥١٥).

كما تنبى الإشارة كذلك إلى الفرنسى ماكسيم دوكان الذى قدم إلى مصر عام ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ) بوصفه موفداً من وزارة التربية والتعليم الفرنسية لتصوير الآثار فوتوغرافياً، وقام بالتقاط صور فوتوغرافية للعديد من المعابد، فكان أول تسجيل فوتوغرافى للآثار المصرية قبل أن

تزاح عنها الرمال فيما بعد، وعاد مكسيم إلى باريس ممتلئ الوفاض بالملاحظات والصور الفوتوغرافية التي أفاد منها في نشر موسوعته الحافلة " مصر والنوبة وفلسطين وسوريا " والتي تضم مائة وخمسين لوحة فوتوغرافية مصحوبة بنص شارح ومسبق بمقدمة، وتعد أولى النماذج المبكرة التي تجمع بين الصورة الفوتوغرافية والكلمة المطبوعة، وقد لاقت هذه الصور المأخوذة في مصر نجاحاً منقطع النظير.^(٥١٦)

ومما هو جدير بالذكر أنه قد أصبح لآلة التصوير أهمية بالغة في نقل ونسخ العديد من الهيروغليفيات التي تكسو الآثار القديمة المصرية بدقة متناهية، وخاصة تلك المواقع الشاهقة الارتفاع التي يصعب الوصول إليها فتفوق رسوم أمهر المصورين أمانة وصدقاً، وذلك على يد رجل واحد بعد أن كان الأمر يتطلب جحافل لا حصر لها من الرسامين تعكف عشرات السنين على تدوين النقوش، وقد نالت مصر من بين كل دول المنطقة السبق الأول في ميدان التصوير الأركيولوجي خلال العشرين عاماً الأولى من عمر التصوير الفوتوغرافي، إذ ظفرت باهتمام لم تظفر به دول أخرى ذات حضارات عريقة كالحضارة المصرية.^(٥١٧)

ويذكر أن أول خمس صور فوتوغرافية التقطت في مصر بل في القارة الأفريقية بأسرها بواسطة المصور الفرنسي هوراس فيرنيه كان من بينها أربع للآثار المصرية القديمة: إحداها لعمود بومي أو عمود السوارى والثانية للأقصر القديمة، والثالثة لوادى الملوك والرابعة للهرم الأكبر.^(٥١٨)

ونود أن نشير أخيراً إلى أحد العلماء الذين سجلوا لأنفسهم صفحات خالدة في تاريخ الدراسات المصرية القديمة خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وذلك هو الإنجليزي وليم فلندرز بيتري الذي ينظر إليه باعتباره باحث حضارة مصر القديمة، بدأ بيتري عصباً جديداً في طريقة البحث عن الآثار؛ إذ وضع لنفسه مبدأ لا يحيد عنه وهو الحرص البالغ حين الكشف وحين التجميع، وإعطاء أهمية كبرى لكل شئ يكتشف دون تفرقة بين ما هو نفيس براق وبين ما هو عادي، ونادى بيتري بوصف كل شئ وأن يُنشر بأسرع ما يمكن، ولقد ارتأى في هذه المبادئ وحدهما وسيلة الأثرى إلى كتابة التاريخ.^(٥١٩)

كان بيتري يوقن أن الشهرة آتية لا ريب فيها، ومن ثم فلم يتعجلها، كتب إلى صديق له قائلاً: " أعظم ما يسعدني أن أتمكن من إصدار سلسلة من الكتب تظل أجيالاً وقروناً مرجعاً للحقائق في موضوعها " ^(٥٢٠) وهذا الاتجاه من جانب بيتري يتعارض تماماً مع اتجاهات من سبقه من المنقبين الآخرين الذين لم يهتموا إلا نادراً بنشر شئ عن أعمالهم واكتشافاتهم. ومع ذلك فإن عمل بيتري في مجال الكشف الأثري في مصر لم يغل من ميثات، فقد أرسل إلى بلاده كثيراً من الآثار المصرية التي اكتشفها في منطقة العراة المدفونة، وعرضها في معهد الآثار الملكية بلندن، وقد انتقدته من

أجل ذلك مجلة "المقتطف" التي تساءلت في دهشة: "ولا ندرى كيف جاز له أن يأخذها من هذا القطر وهي فريدة في نوعها !!! ؟" (٥٢١) كما كان بىترى يقوم ببيع بعض الآثار التي يعثر عليها أثناء حفرياته إلى المتاحف الأجنبية بهدف تمويل ومواصلة اكتشافاته وبحوثه، ومن ذلك أنه قام ببيع خيينة ثمينة كان قد اكتشفها في مقبرة بمنطقة اللاهون في الفيوم إلى متحف المتروبوليتان بنيويورك بعد مفاوضات طويلة لم تنجح لبيع هذا الكثر الذهبى الفريد للمتحف البريطانى (٥٢٢)

وهكذا غدت مصر خلال القرن التاسع عشر ميداناً شاسعاً لعمليات الحفر والتنقيب بحثاً عن الآثار المصرية القديمة، تلك العمليات التي كان يقوم بها إما علماء جادون وإما رحالة يجوبون الأرض، وإما إثرياء مولعون بالفنون الجميلة، وإما تجار آثار يبيعون الربح وإما أمناء متاحف مغالون في جشعهم الشخصي، وكان حكام مصر من ناحيتهم يتوددون إلى الأجانب ويحرصون على إرضائهم نظراً لحاجتهم إلى الأموال الأجنبية إما لتنفيذ مشروعاتهم أو لإرضاء طموحاتهم ونزواتهم، ومن ثم فقد فتحو البلاد في وجه الأجانب - دبلوماسيين وتجاراً وسائحين - ولم يهتموا بآثار مصر إلا في حدود استخدامها كوسيلة لجذب انتباه الشخصيات العالمية المؤثرة في مجريات السياسة على الصعيد الدولي. وقد أدى ذلك كله إلى قيام سوق عظيمة للآثار المصرية القديمة لتلبية حاجات المتاحف وجامعي الآثار، وتسربت مئات الآلاف من القطع الأثرية الصغيرة بل والكبيرة من مصر عن طريق هواة جمع الآثار والتحف، وتجارها، وعن طريق السائحين، وكل من لاهم له إلا الثراء السريع من تجار التحف والآثار، كما قام كثير من الأوروبيين المقيمين بمصر - ومن بينهم قناصل الدول المختلفة - بتكوين مجموعاتهم الخاصة وتمويل هذه السوق، ولولا القدر الكبير من الآثار المدفونة في باطن التربة المصرية والذي بلغ ضخامة هائلة لتحولت المناطق الأثرية إلى خرائب وأطلال. لقد كانت هناك فوضى شاملة فيما يتعلق بالبحث عن الآثار، يقول بىترى: "إنه بعد سنة من وجودى في مصر أحسست أنها تمثل البيت المشتعل بالنار... فقد كان التخريب يجرى بسرعة مذهلة، وكان يتعين علىّ جمع ما أستطيع جمعه بسرعة كي أحفظه حتى أبلغ الستين من عمرى فأتفرغ له، ولم يكن هناك أى اهتمام بالدقة والالتقان... أما النهب والسلب فكانا على أشدهما" (٥٢٣) ولعل من أطرف ما قيل في هذا الصدد إن مصر قد أقامت من نفسها مكاناً تباع فيه آثارها بالمزايدة (٥٢٤)، تلك الآثار التي كان يسميها أحد الفرنسيين - ساخرًا - "غنائم مصر" (٥٢٥).

وبعد، فإن تراث مصر القديم يوجد الآن مبعثراً بين كثير من متاحف الدول المختلفة، وكان جزء كبير من هذه الآثار - أصلاً - من مقتنيات هواة جمع الآثار، ثم تنازلوا عنها بعد ذلك للمتاحف، وقد تكونت هذه الآثار نتيجة تكثيف الحفائر في مواسم قصيرة يقوم هواة الآثار بتمويلها، ثم نتيجة الاتجار في الآثار بطرق غير قانونية لاستيفاء رغبات المتاحف والعملاء الأثرياء.

ولعل من نافلة القول أن نذكر أنه من الصعب - بل من المستحيل - عمل إحصاء بجميع القطع الأثرية التي خرجت من مصر خلال القرن التاسع عشر، غير أنه يمكن التأكيد بأن هذه الآثار كانت من الكثرة بحيث تطلب الأمر إنشاء متحف خاص لها في لندن، فأقيمت القاعة المصرية في ميدان بيكاديللي في قلب لندن سنة ١٨١٢م (١٢٢٧هـ) واستمرت هذه القاعة التي شيدت على نظام المعابد المصرية القديمة قائمة إلى سنة ١٨٢٤م (١٢٣٩/١٢٤٠هـ) تعرض الآثار الفرعونية، ويغد إليها الناس من جميع أنحاء بريطانيا، في حين كان المتحف البريطاني يخصص بمجموعة الآثار التي كان يرسلها إليه عملاؤه من الإنجليز وغير الإنجليز في مصر، وكانت كل شحنة جديدة من الآثار تنقل إلى لندن تثير اهتمام العامة والخاصة حتى باتت جميع المجلات الأدبية والفنية تتنافس في أن تنشر آخر أنباء الاستكشافات المصرية^(٥٢٦). ومع نهايات القرن التاسع عشر كان المتحف البريطاني يضم نحو خمسين ألفاً من الآثار الفرعونية تمثل الأدوار المختلفة لتاريخ مصر القديم وحضارتها، ابتداء من العهد السابق على توحيد القطر المصري شماله وجنوبه تحت حكم ملك واحد منذ حوالي ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وحتى سقوط ملك آخر مملكة مصرية في السودان المصري وهي مملكة مروى في القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد، بل وفيه أيضاً كثير من الآثار القبطية^(٥٢٧) حتى لتؤكد جريدة "المقتطف" أن: "في دار التحف البريطانية من الآثار المصرية أكثر مما في غيرها ما عدا المتحف المصري" بل "وفيها ما ليس فيه من الآثار التي أخذت من هذا القطر قبل أن صار فيه حكومة تهتم بحفظ آثاره"^(٥٢٨).

كان ذلك خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، ولعل ذلك مما يثير الدهشة، فإن من الشهرة بمكان بين الأثريين أن متحف اللوفر الفرنسي هو أكبر متحف يحتوي على الآثار المصرية بعد المتحف المصري^(٥٢٩)، وغناؤه بهذا النوع من الآثار أمر لا ريب فيه، وإن كان من المعلوم لكل عاقل أن المجموعات الأثرية الضخمة التي خرجت من مصر إنما تم تهريبها خلال القرن التاسع عشر، وأن قوانين المحافظة على الآثار المصرية - تلك القوانين التي تم تشريع أكثرها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر كما سيتضح لك من الفصل التالي - قد أسهمت إلى مدى بعيد في الحد من ظاهرة تهريب الآثار المصرية، فهل يعني ذلك أن متحف اللوفر كانت له طرقه الخاصة به في الحصول على تلك الآثار خلال القرن العشرين إلى الحد الذي مكنه من اللحاق بالمتحف البريطاني بل وسبقه من حيث عدد القطع الأثرية المصرية التي يمتلكها كل منهما خلال القرن المذكور؟!.

على أية حال فإنه بالإضافة إلى المتحف البريطاني توجد العديد من القطع الأثرية المصرية موزعة بين المتاحف الإنجليزية الأخرى، ومن بينها متحف جامعة كامبردج الذي كان يحتوي في تسعينيات القرن التاسع عشر على خمسمائة وسبعة وسبعين أثراً "مهداة إليه من أهل السيادة

والفضل، وفي جملتها ناووس الملك رمسيس الثالث^(٥٣٠) وهذا بالإضافة إلى المجموعات المصرية التي كانت موجودة لدى هواة جمع الآثار من أمثال الليدي ميوكس التي سبق وأن أشرنا إلى أنها كانت تمتلك مائتين وأحد عشر أثراً.

أما في فرنسا فإن العدد الإجمالي للمتحف المصرية الموجودة في المتاحف الفرنسية غير معروف، ويعود انعدام هذا الإحصاء العام إلى حقيقة أنه بالإضافة إلى وجود ألف متحف رسمى قومي موضوعة تحت إشراف الدولة أو الجمعيات المحلية أو معترفاً بها من إدارة متاحف فرنسا يوجد كذلك نحو ثمانية آلاف متحف أو مجموعات أثرية لا تخضع للإشراف، ويمكن لها أن تشمل على قطع مصرية، ومن البديهي أن هذا باستثناء ما يقتنيه الأفراد وتجار العاديات^(٥٣١).

ويعتوى اللوفر شيخ المتاحف الفرنسية على عدد كبير من الآثار المصرية غالبيتها ذات قيمة كبيرة، هذا وتختلف المراجع فيما بينها في تقدير عدد القطع الأثرية الفرعونية والقبطية في متحف اللوفر، فتذكر بعض هذه المراجع أن قسم الآثار المصرية في متحف اللوفر يضم حوالى خمسة آلاف قطعة ثم تضيف " ويمثل هذا حصيلة قرنين من الحفريات في مصر، ونتيجة للاقتناء أو الحصول على هبات "^(٥٣٢) بينما تؤكد مراجع أخرى أن " عدد القطع الأثرية المصرية في اللوفر ٥٦٩٤ قطعة "^(٥٣٣) ومما لاشك فيه أن كلا الرقمين هزيل جداً، بل إن من الغريب أن روبر سوليه بعد أن أشار إلى الرقم الذى يدور حول خمسة آلاف قطعة، بدأ في تنفيذ المجموعات الأثرية الضخمة التى دخلت متحف اللوفر فذكر ما مجموعه تسع عشرة ألف قطعة^(٥٣٤)، فهل كانت هذه المراجع تقصد بالرقم الذى حددته كل منها أن هذا هو عدد القطع الأثرية التى يعرضها المتحف الكبير بالفعل لآثاره، بينما توجد آلاف مؤلفة أخرى في خزائن المتحف ومغازنه ؛ ربما كان كذلك، ولو أن ظاهر كلام هذه المراجع والذى نقلناه إليك بنصه - لتشاركنا الحكم - لا يوحى بشئ من ذلك.

والواقع أن سوليه - بالذات - حين تحدث عن الآثار المصرية التى نقلت إلى فرنسا قد وقع في كثير من الخلط والارتباك، فهو يذكر مثلاً أن متحف اللوفر كان يضم حوالى ستة آلاف قطعة من الآثار القديمة المصرية خلال العامين ١٨٥٢م، ١٨٥٣م^(٥٣٥) (١٢٦٨، ١٢٦٩هـ) ثم يعود فيحدث مرة أخرى عن التسعة آلاف قطعة من الآثار المصرية التى كان المتحف الشهير يضمها عند وفاة شامليون عام ١٨٢٣م^(٥٣٦) (١٢٤٧/١٢٤٨هـ) ومن ناحية أخرى فإنه يقدر عدد الآثار المصرية التى أخذها ماريت من السرابيوم بحوالى ٢٥٠٠ قطعة فنية^(٥٣٧)، بينما قدرها في موضع آخر بحوالى ستة آلاف قطعة^(٥٣٨)، مع أن من الثابت على كل حال أنها تجاوزت السبعة آلاف.

على أية حال فإننا لسنا في حاجة إلى الدخول في حسابات معقدة من أجل معرفة العدد التقديرى لقطع الآثار المصرية الموجودة في متحف اللوفر، فإن بإمكاننا أن نجرى استدلالاً بسيطاً

تكون مقدمته على النحو التالي: إذا كان من الثابت أن متحف اللوفر يفوق المتحف البريطاني في عدد الآثار المصرية القديمة التي يمتلكها كل منهما، وإذا كان المتحف البريطاني يضم نحو خمسين ألفاً من هذه الآثار، فإن النتيجة المنطقية لهذا الاستدلال البسيط هي أن عدد الآثار المصرية التي يضمها متحف اللوفر يزيد على الخمسين ألفاً منها.

وبالإضافة إلى متحف اللوفر فإن متاحف فرنسية أخرى قد جمعت على مر السنين مجموعات مصرية هامة. من أمثال متحف مارسيليا الذي يضم ما يقرب من ألفى قطعة تقدم نظرة شاملة وكاملة عن الحضارة المصرية منذ ما قبل التاريخ وحتى العصر القبطي^(٥٣٦). ومتحف أورليان الذي يمتلك حوالى ألف وسبعمائة قطعة من العصرين الفرعوني والقبطي^(٥٣٧). وكذلك متحف رين الذي يحتوى على أكثر من أربعمائة وخمسين قطعة من عصر ما قبل الأسرات والعصر الفرعوني، بالإضافة إلى أكثر من مائتى قطعة من العصرين الأغريقى والقبطي^(٥٣٨). وكنا قد أشرنا قبلاً إلى مجموعة متحف ليموج التي تضم ما يقرب من ألف ومائتى قطعة.

والى جانب المتاحف الإنجليزية والفرنسية تضم متاحف أجنبية أخرى مثل برلين وتورينو وفلورنسا وفيينا ولندن وبروكسل وكوبنهاجن وبوسطن ونيويورك وموسكو مجموعات قيمة من الآثار المصرية القديمة، والأمر ليس مقصوراً على الكم، فإن بعض هذه المتاحف يمتلك روائع فريدة قد لا نجد لها مثيلاً في المتحف المصرى نفسه، ولعل هذا ما دفع جيمس بيكى إلى القول بأنه على الرغم من أن المتحف المصرى يضم كثرًا من الفن والصناعة المصرية لا يقدر بثمن، وليس له مثيل في أى مكان من العالم، وعلى الرغم من أجمل الأمثلة لأعظم عصور الفن المصرى محفوظة فيه : إلا أن بعض المتاحف الكبيرة في أوروبا وأمريكا قد تضم بين محتوياتها أمثلة فريدة تنافس ما يفاخر به متحف القاهرة^(٥٣٩) فأقدم مومياء مصرية – على سبيل المثال – عثر عليها حتى الآن موجودة في المتحف البريطانى^(٥٤٠) وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من المواد العلمية الأولية التي يعتمد عليها في دراسة حضارة مصر القديمة وكتابة تاريخها توجد الآن مبعثرة في أماكن متفرقة خارج القطر المصرى، وليس أدل على ذلك من أن حجر رشيد الشهير مفتاح فك رموز اللغة الهيروغليفية يقبع الآن في إحدى قاعات المتحف البريطانى، ومسلة فيله التي تلى حجر رشيد في الأهمية اللغوية^(٥٤١) والتي أمدت نقوشها شامبليون بكثير من العون على حل معضلته تقوم الآن في ضيعة ويليام بانكس في كنجستون هول بلندن بعد أن أثاربت منافسات قوية بين قراصنة الآثار في عام ١٨٢١ م (١٢٣٦/١٢٣٧هـ)^(٥٤٢) وبردية تورينو التي وصفها مارت بأنها " أنفـس شئ يؤثـر وأفضل أثر يدخر لما أنها تحتوى على قائمة ببيان أسماء جميع الملوك وولادة الأمور الذين جلسوا على سرير الملك بالديار المصرية منذ الأعصر الخالية جداً "^(٥٤٣) ووصفها عبد الله أبو السعود أفندى بأنها " أنفـس أثر يوجد لعلم الآثار القديمة المصرية " ^(٥٤٤) إذ لم يكتف فيها كأنها يذكر

أسماء الملوك بل ذكر كذلك السنين والشهور والأيام التي حكمها كل ملك^(٥٤٨)، وقال عنها أحمد كمال إنها " جليلة الفائدة يستعان بها على تحقيق مسائل مهمة "^(٥٤٩). هذه البردية الهامة موجودة الآن في متحف مدينة تورينو الإيطالية، إذ كانت ضمن مجموعة دروفيتي الأولى التي اشتراها المتحف المذكور عام ١٨٢٤م. وفي متحف بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية تمثال رائع من حجر الشيبست للملك منقرع وزوجته، عثر عليه الأمريكي ريزنر في معبد الهرم الثالث بالجيزة، ويمتاز هذا التمثال بالدقة المتناهية في الصنع، وهو يعد من أهم قطع الفن في الدولة القديمة، ولأهمية هذا التمثال قام المتحف المصري بأخذ قالب له ليعرضه على زواره^(٥٥٠)، وهكذا كان دأب المتحف المصري مع القطع الأثرية المصرية الفريدة الأخرى التي تمتلكها متاحف البلدان المختلفة، حيث كان المتحف المصري يقوم بأخذ نسخ جصية منها مكتفياً بتلك النسخ عن الأصل - مع ما في ذلك من قلب للحقائق - وهو عين ما فعله المتحف المذكور عام ١٨٩٥م (١٣١٣/١٣١٢هـ) مع الآثار المصرية الهامة الموجودة بالمتحف البريطاني وليس لها مثل في دار التحف المصرية ومن الغريب أن جريدة " المقتطف " قد أثنت على المتحف البريطاني لتقدمه هذه المنحة السخية إلى نظيره المصري، فوجبت له ولأمينه " وللحكومة الإنجليزية جزيل الشكر "^(٥٥١) ومن الأغرب أن يكون هذا الأمين الذي تلقى تقرير " المقتطف " هو وليس بدج.

ويقودنا الحديث عن بردية تورينو إلى الحديث عن بقية أوراق البردي التي تم تهريبها من مصر خلال القرن التاسع عشر، والحق أن لوثائق البردي - ولا سيما ما كتب منها باللغة الديموطيقية أعنى الكتابة الشعبية العامة الدراجة - أثر كبير في تفهم حياة الشعب المصري، حيث تحتوى هذه الوثائق على قصص شيقة تعد من روائع الأدب، كما تحتوى على متون دينية ومتون سحرية ووثائق خاصة بالنجوم ومتون قضائية تشمل عقود بيع وشراء ورهن ووصايا وزواج وطلاق وقوانين دينية ودينية وإيجارات أطيان وبيوت ووظائف وغير ذلك مما كان يجرى في تلك الفترة من معاملات، ولا نزاع في أن كل هذه المعاملات تعكس ضوء ساطعاً على سير الحياة خلال العصور المختلفة من تاريخ مصر القديم، وما كان للشعب المصري من تقاليد وعادات خاصة به خلال الفترة التي دونت فيها هذه الوثائق^(٥٥٢). ونظراً لهذه الأهمية البالغة لوثائق البردي كان ماريت ينصح الأجانب الزائرين لمصر ألا يدخروا جهداً في الحصول على أوراق البردي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فكان يقول: " أوصيكم أنها السائحون الزائرون للآثار المصرية أنكم لا تضيعون فرصة بدت لكم في شراء الورق البردي لأنه أنفس آثار تفتنى، فإن مجموعة الرقاع التي جمعها المعلم هاريس بالإسكندرية كانت بهذه الصفة، وأعلموا أن السيدة أوربيني ما وصلت إلى هذه السمعة التي دوت شهرتها ببلاد الإنكليز إلا بواسطة ورقة اشترتها صدفة من يد فلاح بمصر، وهي

الآن بمتحف لندرة، وبالجمل لا يمكن خدمة العلم بأكثر من المحافظة على هذا الورق ونزعه من يد الفلاح الذى لهاونه به وجهله بحقيقته ينتهى إلى التلف عاجلاً أو آجلاً" (٥٥٣).

والحق إن العامة من المصريين كانوا لا يدركون قيمة هذه الأوراق لجهلهم بما فيها، فكانوا يقومون بإتلافها أو يتخلصون منها ببيعها إلى الأجانب بثمن بخس، " وطالما وجدت أوراق من هذا النوع، وباعها الجاهل ببعض درهيمات فرح بها، ثم صارت تعلق قيمتها في يد كل بائع من الإفرنج حتى وصلت إلى حد لا يتصور، وانتفع بها العلماء وغيرهم، وأحرزتها الدول في دار تحفها، وترجمت إلى عدة لغات (٥٥٤) وكانت النتيجة المترتبة على ذلك أن عدداً كبيراً من هذه الوثائق الهامة قد تسرب إلى خارج القطر المصرى، والذي يزور المتاحف الأجنبية يجد بها " أروقة برمتها مشحونة بهذه الرقاع المتفاوتة في الطول والعرض، محفوظة في دواليب من الزجاج، أو في ألواح معلقة على الجدار، وعليه من الرسم والنقش والأشكال والألوان والبهجة والنضارة ما يهر العقل ويحير الفكر" (٥٥٥).

هذا وقد نسبت أوراق البردى الموجودة بالمتاحف الأوروبية إلى أسماء أصحابها الذين قاموا بالعنور عليها أو شرائها في مصر، ثم نقلوها بعد ذلك إلى الخارج حيث تنازلوا عنها فيما بعد إلى متاحف دولهم أو باعوها إلى تلك المتاحف أو لغيرها من متاحف البلدان الأخرى ممن كانت تؤهلها قدراتها وإمكاناتها المادية لى تدفع أكثر. فقد أضفت تلك الأوراق على أصحابها شهرة تاريخية واسعة النطاق، حيث لا زالت أوراق البردى الهامة تدعى إلى اليوم لأصحابها الأول، فأصبحنا نسمع - مثلاً - عن بردية هاريس الأولى التى تعد من أغرب أوراق البردى المصرية حيث يصل طولها إلى مائة وثلاثة عشر قدماً إنجليزية (٥٥٦) - أربعون متراً وخمسة سنتيمترات - بينما يبلغ عرضها اثنين وأربعين سنتيمتراً ونصف سنتيمتر، وقد عثر على هذه الورقة مع أربع إضمامات أخرى من البردى في مكان ما بالقرب من معبد الدير البحرى حيث وصلت إلى يد أحد تجار الآثار ثم اشتراها منه المستر هاريس الإنجليزي والذي قام بتقطيعها إلى تسع وسبعين صحيفة، وهذه الورقة تعد من أهم المصادر التاريخية عن عصر الأسرة العشرين، إذ أنها - في الواقع - تلقى كثيراً من الضوء على المسائل الاقتصادية والدينية الخاصة بهذا العصر، وتوضح كذلك الأحداث التاريخية بصورة جلية، وقد كتب عنها واعتمد عليها الباحثون على مختلف أنواعهم، وهى محفوظة الآن في المتحف البريطاني (٥٥٧).

وهناك أيضاً بردية هاريس الثانية والتي يبلغ طولها مائتين وخمسة عشر سنتيمتراً وعرضها اثنين وأربعين سنتيمتراً، وكانت هذه الورقة سليمة في الأصل، ثم أصابها عطب من جرّاء انفجار وقع في بيت المستر هاريس بالإسكندرية، وكان هاريس قد اشتراها - على ما يظهر - سنة ١٨٦٠م

(١٢٧٦/١٢٧٧هـ) ويقال إنه عثر عليها بالقرب من مدينة هابو. وفي عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ) اشتراها منه المتحف البريطاني^(٥٥٨).

وهناك كذلك ورقة ماير المكتوبة بالخط الهيراطيقى، وهذه الورقة محفوظة الآن في متحف مدينة ليفربول حيث أهداها السيد ماير عام ١٨٦٧م (١٢٨٣/١٢٨٤هـ) لهذا المتحف مع مجموعة أخرى كبيرة من الآثار المصرية^(٥٥٩). وهناك ورقة رند الرياضية التي اشتراها السيد رند من أحد المباني الأثرية الواقعة بجوار معبد الرمسوم بالأقصر^(٥٦٠). ثم ورقة أبوت التي تعد من ذخائر المتحف البريطاني، ويبلغ طول هذه الورقة مائتين وثمانية عشر سنتيمترا، وعرضها اثنين وأربعين سنتيمتراً ونصف السنتيمتر، وقد نشرت هذه الورقة للمرة الأولى عام ١٨٦٠م وقد ذكر أنها اشترت عام ١٨٥٧م (١٢٧٣/١٢٧٤هـ) من الدكتور أبوت في مصر وذلك بإرشاد السير جاردنر ويلكنسون^(٥٦١)، ثم ورقة مالت التي اشتراها البارون مالت من مزاد علي لبيع آثار القنصل السويدي أنستازي عام ١٨٥٧م^(٥٦٢).

ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة في هذا المقام إلى بردية أبيدوس التي نقلها من مصر القنصل الفرنسي ميمو، وهذه البردية موجودة الآن بالمتحف البريطاني^(٥٦٣). ومما ذكره شامبليون عن أوراق البردي الهامة التي رآها في بلاده ما نصه: "رأيت ببلاط فرنسا درجاً من الورق البردي تشتمل على مدح رمسيس الأكبر وغزواته البعيدة... وهو في غاية الأهمية لما فيه من الفوائد التاريخية الجمة، وقد سمح لي الزمن القصير الذي خصصته لمطالعة أنه أتيقن من أنه أحد كنوز التاريخ المصري... إن وجود هذه الورقة غنيمة عظيمة بل لقية ثمينة"^(٥٦٤).

هذا وقد قام الأستاذ الدكتور سليم حسن - رحمه الله - بعمل إحصاء للمتاحف والمجموعات الخاصة التي تحتوى على أوراق بردي مكتوبة بالخط الديموطيقى أو الهيراطيقى، ويتضح من هذا الإحصاء أن المتاحف المصرية تكاد تكون خلواً من هذا النوع من الوثائق، حيث يظهر توزيع هذه الأوراق أن متحف اللوفر يحتوى على أكبر مجموعة منها وتشمل خمسين بردية، ويلى متحف اللوفر من حيث عدد الأوراق متحف تورينو الإيطالي الذي يحتوى على إحدى عشرة بردية، ثم مجموعة جون ريلندز التي تحتوى على تسع برديات، أما المتحف البريطاني ومتحف برلين ومتحف القاهرة ومكتبة جامعة ستراسبورج ومكتبة باريس الأهلية فتحتوى على عدة برديات، هذا إلى وجود أمثلة فردية في متحف الفاتيكان ومتحف فينا ومجموعة جولنشياف في ليننجراد. وبالرغم من أن عدد إضمادات البردي التي في مجموعة ريلندز يظهر صغيراً بجانب ما وجد في متحف اللوفر فإنه يوجد من بينها ثلاث كبيرة الحجم أكثر من المعتاد، كما إنه توجد أربعة كبيرة جداً مكتوبة بخط صغير لدرجة أنه يمكن القول إن المتون التي تحتويها مجموعة ريلندز

التسعة قدر كل ما في إضمادات البردى الديموطيقية التي ترجع إلى العهد المبكر الموجودة في متحف اللوفر^(٥١٥).

وهكذا أقدم الأجانب على تهريب الكنوز الأثرية من كل نوع، وكانت حجهم في ذلك إنهم إنما ينقلونها إلى الخارج بدافع المحافظة عليها من تدمير الأهالي ومن نزوات التجار المحليين ومن تعرية الرياح وطفیان الرمال. كذلك فإنه لما كانت مصر هي مهد الحضارة فإن آثارها هي آثار العالم المتحضر، فالمتاحف الأجنبية - إذن - هي الوطن الملائم للآثار المصرية القديمة حيث تحفظ هناك في أمان، وكانوا يدعون أنهم بذلك إنما يحاولون حماية مصر القديمة، ولعل أبرز داعية لفكرة حفظ الآثار المصرية عن طريق نقلها إلى المتاحف الأجنبية هو واليس بدج أمين المتحف البريطاني، فقد كان بدج يردد أن الآثار المصرية القديمة لم تكن تلقى الحماية الكافية في مصر، أما في المتحف البريطاني فإن البردية سوف تفض بعناية، وتتجو من التلف تحت رعاية أعظم متاحف العالم، وأن أي مومياء تعرض في المتحف البريطاني تكون في وضع أفضل كثيراً من نظيرتها في مقابر طيبة المعرضة للنهب وأن صاحب المومياء سوف يعلو ذكره في المتحف البريطاني، ويشتهر أمره، حيث ستوفر له الحراسة وبطاقات التعريف، وسيسهل تصويره، وإصدار بطاقات بريدية عليها صورته، وكان يقول: " مهما وجه اللاثمون اللوم لمن يخرج آثاراً من مصر، فإن العقلاء لابد أن يعترفوا بأن المومياء في المتحف البريطاني ستكون فرصتها من العناية والصيانة أضعاف فرصتها فيما لو تركت في مقبرتها ملكية كانت أو عادية " كان بدج يفاخر بأنه يدعم المصريين القدماء أنفسهم، وببهاى بنفسه مدعياً أن القانون الأخلاقي في صفه، وأن نهب الآثار المصرية عمل مشروع تماماً وحضارى بشرط ترك بعض الآثار للمصريين للمشاهدة والبحث^(٥١٦) انطلاقاً من مبدأ أن الآثار المصرية في المتاحف الأجنبية - ومن بينها المتحف البريطاني بالطبع - هي في الحفظ والصون^(٥١٧).

وسوف نقوم بتنفيذ مزاعم بدج وادعاءاته والرد عليها مع الإشارة في نفس الوقت إلى الأضرار التي ترتبت على نقل الآثار المصرية من القطر المصرى إلى البلاد الأجنبية. فمن ناحية أدى قيام الأجانب بتشجيع لصوص وتجار الآثار القديمة على الاستمرار في سرقة الآثار إلى إتلاف العديد من القطع الأثرية الهامة، نظراً لأن لصوص المقابر الذين كانوا يقومون بعمليات الحفر والتنقيب غير المشروعة عن الآثار كانوا يفتقرون إلى الخبرات الفنية اللازمة التي تجعلهم مؤهلين للقيام بمثل هذا العمل، إذ كانوا يهدفون إلى العثور على التحف في أقصر وقت وبأقل التكاليف، فضلاً عن أنهم كثيراً ما كانوا يقومون بتدمير وإتلاف القطع الأثرية المتشابهة التي كانوا يعثرون عليها بغية إكساب صفة التفرد للقطع التي بحوزتهم، بحيث يؤدي ذلك إلى ارتفاع سعرها في سوق الآثار، ومما لا شك فيه أن التحريض الأجنبي على مثل هذه الأعمال يتحمل قدراً كبيراً من مسئولية

ضياح وإتلاف نصيب عظيم من التراث المصرى القديم، وهناك الكثير من الأمثلة التى تؤكد تدمير العديد من الكنوز الأثرية القديمة بهذه الطريقة، منها مثلاً ذلك النقش الهام من عهد الملك نختنبو الثانى والذى كان محفوراً فى صخرة فى الجبل الواقع جنوبى العرابة المدفونة، فقد قام تجار الآثار بقطع هذا النقش وبيعه لمتحف برلين، ولكن مما يؤسف أنه قد أصابته أضرار عند القطع وضاع منه جزء كبير (٥٦٨).

وبالإضافة إلى ذلك فإن تجار ولصوص الآثار كانوا يحرصون على إخفاء الأماكن التى عثروا فيها على التحف الأثرية التى يقومون ببيعها حتى لا يصبح ذلك دليلاً لإدانتهم وإدانة من ينقبون لصالحهم (٥٦٩)، وذلك مما يجعل قيمتها الأثرية تضيق، وقد ندد الدكتور سليم حسن - رحمه الله - بهؤلاء التجار "الذين تعودوا تضليل الأثريين فيما يتعلق بالأماكن التى عُثِر فيها على الآثار المعروضة للبيع، وعلى ذلك فإن معرفة مصدر أى قطعة أثرية مسروقة كان فى معظم الأحيان من أصعب الأمور وأخفاهما، وربما كان الملجأ الوحيد لمعرفة قيمة الأثر هو ما عليه من نقوش، وحتى فى هذه الحالة قد لا يتوصل الإنسان إلى المكان الذى كشف فيه الأثر "ويضرب العالم الكبير - رحمه الله - مثلاً لذلك بصورة الملكة (تى) زوجة أمنحوتب الثالث التى تعد أحسن صورة عرفت فى كل الآثار المصرية، وقد صورت هذه الصورة عند الكشف عن مقبرة زوجها ثم ردم القبر ثانية لعدم أهميته، غير أنه حفر من جديد بعد عدة سنين، ولكن كان لصوص الآثار قد سبقوا إلى حفر المقبرة وقطعوا صورة الملكة من الجدار الذى كانت عليه، وكان من جراء هذا العمل الشائب أن محيت بعض النقوش الخاصة بها حتى لا يعلم من أين أتت هذه الصورة، وعلى أية حال فقد تسربت هذه الصورة منقطعة النظير إلى متحف متحف بروكسل مجردة من كل نقش يدل على شخصيتها، ولكن بالبحث وجد أنها هى الصورة الأصلية، ثم نعى الأستاذ الكبير على بعض علماء الآثار الأجانب الذين أباحوا لأنفسهم "أن يشتروا مثل هذه القطع المسروقة من المقابر دون أن يسعوا حتى فى ردها بعد تأكدهم من مرقمتها إلى مكانها الأصلية حتى تكون تحفة لكل المتفرجين ودرساً لأولئك الذين يعبثون بالآثار وتشويهها من أجل بضعة درهما لا تسد حاجة ولا تشفى غليلاً".

ومن ناحية أخرى فإن إهمال الأجانب فى حفظ وصيانة الآثار التى يقومون بشرائها من تجار الآثار قد أضاع على العلم والمعرفة فى كثير من الأحيان فوائد جمة، فبردية تورينو - على سبيل المثال - والى أطيب المطبوعين فى مدحها والإشادة بأهميتها الكبيرة لم تصل إلينا سالمة، ولو أنها وصلت كذلك لكانت تعد أهم وثيقة وصلت إلينا فى هذه الناحية، بل حدث أنها قطعت إلى قطع عديدة ومزقت شر ممزق، ولم يستطع العلماء إلى الآن وضع كثير من قطعها فى مكانها الأصلية من الورقة، وسبب ذلك أن من نقلها من الأوروبيين بعد شرائها من القلاح الذى عثر عليها، وضعها فى

قارورة وامتلأ حصانه وهي بجانبه فسقطت منه أثناء السير، فأورثت غاية التلف، وتمزقت إلى مائة وأربع وستين قطعة، وأصبحت لا ينتفع بها ولا يعتمد عليها، ومن ثم ندر الاستناد إليها في الكتب المؤلفة في أصول مصر^(٥٧٠)، وفي ذلك يقول مارت: "لو لم يصب ورقة تورينو ما أصابها إلى أن صارت في أمساو حال يرى لها، لما كنا كعاطب ليل أو راكب العشواء لا يهتدى إلى سواء السبيل، وكنا اكتفينا بها عن جدول مانيتون الكاهن المصري الذي لعبت به يد التحريف والمسخ في الكتابة... لأنها كانت قائمة للملوك الذين تعاقبوا على سرير الملك من أول الملك ميناء لآخر ملك ذكر بها... فانتظر كم كانت فائدة هذه الورقة واحكم بمقدار ما نجم عن تكسيرها من الأسف والحرمان من الفوائد الجمّة، فإنها تمزقت كل ممزق، وضاع منها أربع أو خمس قطع، وما بقى صار هشياً حتى بلغ مائة وأربعاً وستين قطعة، ولا يمكن ترتيبها وإحكام وضعها كما كانت، وبذلك ضاعت فائدتها وسقطت أهميتها"^(٥٧١).

ومن ناحية ثالثة فإن عدم اتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على سلامة الآثار المصرية المنقولة إلى الخارج قد أورثها هي الأخرى غاية التلف، فالتمائيل التي كانت موجودة ضمن مجموعة دروفيتي الأولى التي اشتراها متحف تورينو قد تهمشت بعض أطرافها أثناء عملية النقل مما جعل شامبليون يوصى بسرعة ترميمها^(٥٧٢)، كما أن البرديات التي تضمنتها نفس المجموعة كان نصفها على الأقل بعد وصولها إلى تورينو في حالة تحلل كامل لا تسمح حتى بلمسها، ويبدو أن الفترة التي أمضتها داخل الصناديق في ميتا ليفورنو لمدة ثلاث أو أربع سنوات قد أثر عليها تأثيراً سلبياً للغاية، وهو ما جعل شامبليون يكتب إلى أخيه شاكيّاً: "قررت منذ ثلاثة أيام أن اتفحص ما أطلقت عليه اسم (كوم السامد) أي حوالي عشرين لفافة من البرديات أغلها في حالة يرثى لها، وهو ما جعلني أقرر أن أضعبها جانباً على أنها من المخطوطات صعبة التداول... ما أمكنني إنقاذه... يجعلني أسف إلى الأبد على ضياع مستندات لعلها تكون في غاية الأهمية بشكل لا يقبل التعويض" ويؤكد شامبليون على قصور إجراءات الأمن والسلامة التي صاحبت عملية نقل هذه المجموعة الأثرية المضخمة من الإسكندرية إلى ليفورنو ومنها إلى تورينو حيث يشير إلى "أن التجار كان بإمكانهم بثي من العناية والذكاء المحافظة عليها سليمة تماماً لبضعة قرون تالية"^(٥٧٣) ثم هاهو ذا يكتب إلى أخيه مرة أخرى في ٦ نوفمبر ١٨٢٤ م (١٤ ربيع الأول ١٢٤٠ هـ) قائلاً: "بعدما انتهيت من فرد البرديات التاريخية التي سبق أن حدثتك عنها، علمت بالصدفة بوجود بعض بقايا من مخطوطات مصرية في المخازن، ولكنهم أفادوني أن الاطلاع عليها لن يفيد: ولكني صممت على رؤيتها، وتم الاتفاق على وضعها فوق منضدة حيث أتمكن من مراجعتها... وعند دخولي هذه الحجرة... رأيت منضدة طولها عشرة أقدام تعلوها طبقة من فتات البردي ارتفاعها نصف قدم على الأقل [ليست] سوى بقايا أربع مائة أو خمسمائة مخطوط جنائزى"^(٥٧٤) وهذا ما دفع شامبليون إلى أن يكتب

ساخراً: " حشرات باريس تحصد الحشرات الدودية في تورينو التي تلهم بهدوء برديات دروفيتي"^(٥٧٥).

ومن ناحية رابعة فإن تكالب الأوروبيين على جمع ما تيسر جمعه من الآثار المصرية المختلفة دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى قد أدى إلى تشتيت أجزاء الأثر الواحد ذى الطبيعة الواحدة بين عدة متاحف متباعدة في بلدان مختلفة، بحيث يؤدي ذلك إلى صعوبة درس هذا الأثر دراسة علمية جادة ومتكاملة، كما يجعل من مسألة إصدار حكم ناقد على هذا الأثر من أجل تحديد قيمته الفنية والجمالية أمراً لا يقوم على أساس سليم، بحيث يؤدي ذلك جميعه في نهاية الأمر إلى تعويق المحاولات الجادة التي إلى النهوض بعلم الآثار المصرية ليتبوأ مكانته التي يستحقها بين العلوم التاريخية والإنسانية الأخرى ولنضرب مثلاً لذلك بمقبرة حور محب التي مزق شملها المخربون، ولذلك توجد أجزاءها في مختلف متاحف العالم^(٥٧٦)، وتابوت الملك رمسيس الثالث وحوض التابوت الحجري وغطاؤه موزعة أجزاءه بين متحف اللوفر ومتحف فيتر ويليام بإنجلترا، إذ يوجد التابوت والحوض في المتحف الأول بينما يوجد الغطاء في الثاني^(٥٧٧) في حين توجد مومياء الملك في متحف القاهرة، وهناك بردية مصرية مطولة قطعت أوصالها ثم بيعت أجزاءها على ثلاث مرات بحيث استقر الجزء الأول في متحف اللوفر، وعرف الجزء الثاني طريقه إلى المتحف البريطاني، بينما انتهى المطاف بالجزء الثالث إلى متحف مدينة بافاريا الألمانية^(٥٧٨).

ومن ناحية خامسة فإنه كثيراً ما وجه الأجانب انتقادات عنيفة لطرق عرض الآثار في المتحف المصري ببولاق، ورأوا في بعض هذه الطرق ما يلحق أضراراً بالغة بالآثار القديمة ويسبب لها تلفيات كبيرة كما اتهموا - صراحة - القائمين على إدارة مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري بالفساد وعدم طهارة اليد، كما رموهم كذلك بالجهل وسوء الإدارة وجعلوا كل ذلك من المبررات التي تبجح لهم نقل تلك الآثار إلى أوطانهم بحجة المحافظة عليها، ولا ينكر أن بعضاً مما رده هؤلاء ينطوى على قدر كبير من الصحة، غير أنه لا ينكر كذلك أن المتحف المصري لم يكن بدعاً في ذلك بين المتاحف الأخرى المماثلة، بل إن متاحف أجنبية أخرى أعرق بكثير من المتحف المصري كانت تستخدم هي الأخرى في صيانة الآثار القديمة التي تملكها طرقاً ثبتت بالأبحاث العلمية فيما بعد أنها تلحق بتلك الآثار أضرار كبيرة ومما يذكر في هذا الصدد أن شامبليون - وهو الخبير بالآثار المصرية القديمة - كان قد جاهد مراراً أثناء إقامته في مدينة تورينو لفحص مجموعة دروفيتي الأولى، جاهد من أجل حث المسؤولين بمتحف المدينة المذكورة على معالجة البرديات المصرية التي كانت تحويها تلك المجموعة طبقاً للتقنية المعتمدة من مكتب الآثار بباريس وذلك بواسطة لصقها على ورق مقوى، وهي نفس الطريقة التي استخدمها شامبليون فيما بعد أثناء قيامه بترميم البرديات المصرية التي ضمها مجموعة دروفيتي الثانية وسولت الثانية، وهو أسلوب قد ثبت عدم

ملائمته فيما بعد من الناحية الفنية، وهو الأمر الذى جعل المختصين في متحف تورينو يفضلون عليه طريقة اللصق على قماش ناعم من الحرير^(٥٧١).

ثم نجح المسئولون في المتحف المسالف الذكر في أن يسجلوا نقطة أخرى ضد عالم المصريات الكبير عندما اعترضوا على استخدام تقنية نسخ الآثار والنقوش بطريق البصمة الرطبة - كما طالب بذلك شامبليون - لما في ذلك من خطورة على ألوان الآثار^(٥٨٠). والحق أن التقنيات المتعلقة بطرق عرض الآثار في المتاحف العامة وحفظها وصيانتها كانت لا تزال في مراحلها الأولى، إذ لم يكن فن تنظيم المتاحف وعرض الآثار للجمهور قد استقرت أركانها - بعد - على أسس ثابتة، كما أن الأساليب الحديثة لترميم ومعالجة الآثار القديمة لم تكن قد تطورت بالكيفية التي هي عليها الآن يستوى في ذلك المتحف المصرى مع غيره من متاحف البلدان الأجنبية الأخرى. أما عن جهل المسئولين وفساد الإدارة في المتحف المصرى فإنه ينبغى الإشارة إلى أن متحف اللوفر - درة المتاحف الفرنسية - قد شهد هو الآخر حالات مشابهة تعرضت فيها الآثار المصرية الموجودة بالمتحف لجهل الجاهلين وطمع الطامعين، وخير شاهد على ذلك مجموعة الآثار المصرية التي وجدها مارييت بالسرييوم ونقلها إلى اللوفر، فقد ضاع وتلف من هذه الآثار جزء كبير جداً، كما مرت بها في هذا المتحف تقلبات عدة محزنة، ويعلق الأستاذ سليم حسن على ذلك بقوله: "إن اللوم كل اللوم يقع على أولئك الذين أخذوا على عاتقهم رعاية هذه الآثار، فالآثار التي أودعت متحف اللوفر قد فقدت الأرقام التي وضعها مارييت عليها، وبذلك أصبحت العلاقة بين هذه الآثار وبين السجلات التي وضعها مارييت من العسير تتبعها، يضاف إلى ذلك أن الجزء الأكبر من الأشياء الأثرية خلافاً للوحات والمجوهرات ظهر أنه قد فقد^(٥٨١) ولنضرب لذلك مثلاً آخر: ففي عام ١٨٨٤م (١٣٠١/٢/١٣هـ) قام فرنسى آخر يدعى كليرمون جانو بحفائه أثرية في منطقة السرابيوم بالإسماعلية عثر خلالها على قطع صغيرة من لوحة عليها نقوش مصرية قديمة، وقد نقل جانو حوالى ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين قطعة منها في عام ١٨٨٦م إلى متحف اللوفر، غير أنها اختفت بعد هذا التاريخ بعامين^(٥٨٢)، ولم يكشف عن مكانها إلى الآن.

ومن ناحية سادسة وأخيرة فإنه مهما جاهد الأجانب من أجل جعل متاحفهم بمنأى عن غائلة الحريق وخطر السرقة وعبث العابثين، فإنها لا بد متأثرة بالأخطار الطبيعية التي يمكن أن تتعرض لها البلدان المختلفة من زلازل وبراكين وكوارث طبيعية وما إلى ذلك، ثم هي متأثرة كذلك بما يحتاج تلك البلدان من فتن وثورات وحروب واضطرابات من صنع بنى البشر، هذا فضلاً عن تأثرها بتزعجات الحكام وتقلبات السياسة، بحيث يستحيل - بعد هذا كله - ضمان السلامة المطلقة لهذه المنشآت، ففي صبيحة يوم ٢٣ يوليو ١٨٣٠م (٢٨ المحرم ١٢٤٥هـ) قام المتمردون الفرنسيون باقتحام أبواب متحف اللوفر، وحطموا واجهات العرض، واستولوا على عدد كبير من القطع

الأثرية المعروضة، وفقدت مئات التحف الفنية من قسم الآثار المصرية بالمتحف العريق^(٥٨٣) وفي يونيو من عام ١٩٤٠ م (١٣٥٩ هـ) تعرض متحف مدينة أورليان الفرنسية بقصف بالقنابل أثناء الحرب العالمية الثانية مما أدى إلى تحطيم عدة مئات من القطع الأثرية المصرية^(٥٨٤) بل إن متحف المتروبوليتان فخر المتاحف الأمريكية قام في ستينات القرن العشرين عندما كان اهتمام الرأي العام العالى بالآثار المصرية القديمة قد وصل إلى قمته عقب النداء الذى وجهته مصر عبر منظمة اليونسكو إلى دول العالم المختلفة من أجل إنقاذ آثار منطقة النوبة التى كانت مهددة بالغرق بسبب مشروع السد العالى الذى كان مزعماً لإنشاؤه، قام ذلك المتحف ببيع آثار مصرية تضم موميאות وجعلان وخرز وفخار من نتاج حفائر سابقة^(٥٨٥)، وهو الأمر الذى أثار انزعاجاً شديداً بين الأوساط المصرية المعنية، ومما لا شك فيه أنه كان للسياسة دورها الواضح فى ذلك. فهل يمكن القول بعد كل ذلك بأن الآثار المصرية فى المتاحف الأجنبية فى الحفظ والصون !!! ؟.

الهوامش

(١) كان هذا الفرمان يسمى " تصريح مرور " أو " تذكرة مرور " وكان بإمكان السائح أن يحصل عليه بسهولة من خلال قنصل الدولة التي يلتقي إليها، وقد أورد كلوت نموذجاً لهذا الفرمان على النحو التالي:

" من ديواننا في سنة..... من الهجرة "

إن صديقنا الجميم المسبوق... [يذكرها هنا اسم السائح وجلسيته]... جاء إلى أملاكنا ليزور المعاهد الأثرية وغيرها من الأماكن المفيدة له في أبحاثه، وقد قدمه إلينا جناب قنصله، وبناء عليه فقد سلمناه فرماننا هذا لينتفع به ويستظهر به أثناء رحلته في طول أملاكنا وعرضها. فعلى المديرين والمأمورين وأرباب الحل والعقد ملكيين وعسكريين، وبالجملية كل من يقدم إليهم هذا الفرمان أن يعنوا بأمره، ويهتموا بأداء الخدم التي يروم منهم قضاءها حتى لا ترجع إلينا منه شكوى فيما بعد.

ونوصيكم بعمل ما يلزم كيلا يلحقه حيف أو يوجه إليه شتم من الفلاحين أو غيرهم، وأن تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج إليه، ولا يدفع ثمناً عنه إلا ما يطابق السعر الجاري في البلاد، وذلك فيما يهتم بأجر ركوب الدواب أو المراكب وثمان ألفنية إلى آخره وإلى اعتبار الخدمات التي ستؤدونها إليه كأنما أدبت إلينا بالذات "

انتظر: كلوت بك: "لمحة عامة إلى مصر" ترجمة محمد مسعود" دار الموقف العربي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤٢١/٥، ص ٢٠٠، ص ٤٥٣ هذا والوثائق مفعمة بالكثير من تصاريح أو تذاكر المرور الممنوحة للأجانب، غير أنها تتخذ - عادة - شكلاً أكثر اختصاراً من ذلك، وإن كانت تحتوي - في بعض الأحيان - على مزايا وتسهيلات أكثر من تلك التي وردت في نموذج الفرمان التي أوردته كلوت بك.

(٢) " الأوامر والمكتابات الصادرة من محمد علي باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته " نسخة مودعة بدار الوثائق القومية، مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤٨٤) تاريخ تيمور. ج١، ص ٢١١، ٢٩٤، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٨٧ وانتظر كذلك ج٢، ص ٤٤٨.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٢٧، ٤٥، ٥٨، ٣٣٢، ٣٧٩، ٤٠٨، ٤٣٨، ٤٤٢.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٩.

(٥) " الأوامر والمكتابات الصادرة من محمد علي باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته " نفس الجزء، ص ٣٨٨.

(٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٤٤، ٣٨٤، ٤٦٩، ٥٠٢ وانتظر كذلك: محافظ معية سنه (تركي) ملخصات الأوامر العلوية المستخرجة من الدفاتر، محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٠)، ص ٩ بتاريخ ٢٤ شعبان ١٢٥٨ هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٤٢م).

(٧) " الأوامر والمكتابات " ج١، ص ٢٩٦، ٣٧٩، ٥٠٢.

(٨) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٥٨، ١١٣، ٣٤٣، ٣٥٧، ٣٧٩، ٣٨٥.

(٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٥٨.

(١٠) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١١٣، ٤٣٩، ٤٦١.

(١١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١١٣.

(١٢) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٤٥، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٧، ٤٦٩، ٤٧٥.

(١٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٨.

(١٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤١٦.

(١٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٨، ٤٦٩.

(١٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤١٧.

(١٧) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤١٦.

(١٨) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٩.

(١٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤١٦.

(٢٠) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٩.

(٢١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٩.

(٢٢) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٩.

- (٢٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٩، وانظر كذلك: محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفظة رقم (٦٤) وثيقة رقم (٥١٧) بتاريخ ٢٣ شوال ١٢٤٩هـ (٥ مارس ١٨٣٤م).
- (٢٤) "الأوامر والمكتوبات" ج١، ص ٢٦٩.
- (٢٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٧١، ٢٩٦، ٣٧٩.
- (٢٦) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة مصر محمد علي، السياسة الداخلية"، ص ٣٥٦.
- (٢٧) الأوامر والمكتوبات "ج١، ص ٢٧، ٤٥، ٤٦، ٥٨، ١١٣، ١٩٥، ٢١١، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٧١، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٨، ٤١٦، ٤٣٣، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٥٧، ٤٦١، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٥، ٤٩٧، وانظر: ج٢، ص ٧٠، ٢١٦، ٤٤٨ وانظر كذلك: فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار: سجلات ديوان غديوى (تركي) سجل رقم (٧٣٣) ص (١٢٥) وثيقة رقم (١١٦) بتاريخ ٢٧ ذو القعدة ١٢٤٢هـ (٢٢ يوليو ١٨٢٧م) وانظر أيضاً: محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الأوامر العلمية المستخرجة من الدفاتر، محفظة رقم (١) كراسة رقم (١٠) ص (١١) بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٤٥هـ (١٩ يناير ١٨٣٠م).
- (٢٨) "الأوامر المكتوبات" ج١، ص ٢٧، ٥٨، ٢٧٣، ٢٨٧، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٤، ٤٥٠، ٥٠٢ وانظر ج٢، ص ٤٧٣.
- (٢٩) المصدر السابق: ج١، ص ٣٢٨ وانظر كذلك: محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفظة رقم (٢) وثيقة رقم (٨١٧) بتاريخ ٢٥ ذو الحجة ١٢٣٧هـ (١٢ أكتوبر ١٨٢٢م).
- (٣٠) "الأوامر والمكتوبات" ج١، ص ٣٩٣.
- (٣١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٠٥ وانظر كذلك: محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الأوامر العلمية المستخرجة من الدفاتر، محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٥) ص (٩) بتاريخ ٢٤ شعبان ١٢٥٨هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٤٢م).
- (٣٢) "الأوامر والمكتوبات" ج١، ص ٥٩، ٣٥٢.
- (٣٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٩٧.
- (٣٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٣٣، ٣٨٠، ٤٧٢، ٤٩٣.
- (٣٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٥٦.
- (٣٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٧ وانظر كذلك: سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات ص ٢/٥ سجل رقم (٢١٤) بدون ذكر رقم الصفحة، بتاريخ ٤ جمادى الآخر ١٢٣٦هـ (٩ مارس ١٨٢١م).
- (٣٧) "الأوامر والمكتوبات" ج١، ص ٤٥، ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٩٣، ٤٠٥، ٤٥٣ وانظر ج٢، ص ٤٤٨.
- (٣٨) المصدر السابق ج١، ص ٤٦، ٣٩٢، ٣٩٧.
- (٣٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٩٥، ٣٣٣.
- (٤٠) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٤٤، ٥٩٠.
- (٤١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٧٩.
- (٤٢) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٨٠.
- (٤٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٩٧.
- (٤٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٦.
- (٤٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٧٢.
- (٤٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١١٣.
- (٤٧) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٠٥.
- (٤٨) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٥١.
- (٤٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٥٧، وانظر كذلك: محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلمية المستخرجة من الدفاتر، محفظة رقم (١) كراسة رقم (١٠) ص (١١) بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٤٥هـ (١٩ يناير ١٨٣٠م).
- (٥٠) "الأوامر والمكتوبات" ج١، ص ٣٧٩.
- (٥١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٩) وثيقة رقم (٢٩٣) بتاريخ ٢٢ ربيع الآخر ١٢٣٧هـ (١٦ يناير ١٨٢٢م). وانظر كذلك: محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلمية المستخرجة من الدفاتر، محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٥) ص (٩) بتاريخ ٢٤ شعبان ١٢٨٥هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٤٢م).

- (٥٢) سجلات ديوان خديوى (تركي) سجل رقم (٧٣٣) من (١٢٥) وثيقة رقم (٦١٦) بتاريخ ٢٧ ذو القعدة ١٢٤٢ هـ (٢٢ يوليو ١٨٢٧ م).
- (٥٣) "الأوامر والمكتابات" ج ١، ص ٢١٦.
- (٥٤) محافظ ممينة سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفوظ رقم (٧٨) وثيقة رقم (٥٧٨) بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢٥٢ هـ (٧ يوليو ١٨٣٦ م).
- (٥٥) "عجائب الآثار" ج ٢، ص ٥٧١.
- (٥٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادى النيل"، ص ١٠٨.
- (٥٧) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات من ٢/٥ سجل رقم (١) حديث، وثيقة رقم (٥٧) بتاريخ ١٢ صفر ١٢٣٦ هـ (١٩ نوفمبر ١٨٢٠ م) وانظر كذلك فيه وثيقة رقم (٨٦) بتاريخ أول ربيع الأول ١٢٣٦ هـ (٣ ديسمبر ١٨٢٠ م).
- (٥٨) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات من ٢/٥ سجل رقم (١) حديث، وثيقة رقم (٣٤٣) بتاريخ ١٢ رجب ١٢٣٦ هـ (١٥ أبريل ١٨٢١ م).
- (٥٩) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجلات ممينة سنية (تركي) سجل رقم (٥) ص (٣١) وثيقة رقم (٣٢٥) بتاريخ ٩ ذو القعدة ١٢٣٥ هـ (١٨ أغسطس ١٨٢٠ م).
- (٦٠) محافظ ممينة سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظ رقم (١٠) وثيقة رقم (٧٨٢) بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٣٧ هـ (٦ أكتوبر ١٨٢٢ م).
- (٦١) محافظ ممينة سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظ رقم (١٧) وثيقة رقم (٦٦١) بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٣٩ هـ (١٦ ديسمبر ١٨٢٣ م).
- (٦٢) Wiet: op. cit., p. 21.
- (٦٣) محافظ ممينة سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظ رقم (١٠) وثيقة رقم (٢٢٢) بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٢٣٧ هـ (١٥ ديسمبر ١٨٢١ م).
- (٦٤) "الأوامر والمكتابات" ج ١، ص ٣٤٩.
- (٦٥) محافظ ممينة سنية (تركي) ملخصات الدفاتر، محفوظ رقم (٦٤) وثيقة رقم (٣٩٠) بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٤٩ هـ (١ يناير ١٨٣٤ م).
- (٦٦) برناردينو دروفيتي (١٨٥٣-١٧٧٦ م/١١٩٠-١٢٦٩ هـ) دبلوماسي فرنسي من أصل إيطالي، كان يهوى جمع الآثار، شارك في الحملة الفرنسية على مصر، ثم شغل منصب قنصل عام فرنسا في مصر حتى عام ١٨١٤ م (١٢٢٩ هـ) ثم من جديد بين عامي ١٨٢٠، ١٨٢٩ (١٢٣٥، ١٢٤٤ هـ) وقد كان شغوفاً بجمع الآثار حتى إنه لعب دوراً هاماً في تكوين ثلاث مجموعات أثرية ضخمة، وقد تولت هذه المجموعات الثلاثة بين مباحث تورينو واللوفر وبرلين. انظر: عماد عدلي: "شامبلون في مصر" ملحق رقم (٢)، ص ٣٧.
- (٦٧) هنري سولت (١٨٢٧-١٧٨٠ م/١١٩٥-١٢٤٢ هـ) دبلوماسي إنجليزي ودخالة ومن هواة جمع الآثار قام بزيارات عديدة إلى الهند والحبشة وادى النيل، حيث عين قنصلاً عاماً في سنة ١٨١٥ م (١٢٣٠ هـ) وقد استغل منصبه في القيام بالعفائر حتى أصبح من أكبر الجامعين للآثار المصرية، وتحتل القطع الأثرية التي قام بالتنقيب عنها مكانة بارزة في المتحف البريطاني، كما قام متحف اللوفر باقتناء مجموعته الأثرية. انظر: المرجع السابق، ص ٣٩.
- (٦٨) جيوفاني أنستازي (١٨٥٧-١٧٨٠ م/١١٩٥-١٢٧٣ هـ) قنصل عام السويد والنرويج في مصر بين عامي ١٨٢٨، ١٨٥٧ (١٢٤٣-١٢٧٣ هـ) اقرن نشاطه الدبلوماسي بمشاريع تجارية واسعة إذ كان واحداً من أهم تجار الماديات المشهورين في ذلك الحين، وقد ظل اسمه حتى يومنا هذا مرتبطاً بمجموعة هامة من البرديات المعروفة باسم "برديات أنستازي" أو Papyrus Anastasy التي تفرقت بين كل من لندن وباريس وبرلين. انظر: المرجع السابق، ص ٣٧، ٣٨.
- (٦٩) هو الإيطالي جيوفاني باتيستا كافيجليا Giovanni Battista Caviglia (١٨٤٥-١٧٧٠ م/١٢٦١-١٢٨٣ هـ) ولد في جنوة عام ١٧٧٠ م، وكان في شبابه بحاراً، إلا أنه حظ رحلته آخر الأمر في مصر حيث تعرف على القنصل البريطاني سولت وأخذ يعمل لحسابه، وكشف عن كثير من المقابر في الجزيرة، كما كشف عن جزء من تمثال "أبو الهول" وكان ذلك بين عامي ١٨١٦-١٨١٩ م (١٢٣٤-١٢٣٦ هـ) إلا أنه أخذ يعمل - فيما بعد - لحسابه الخاص، وكان عمله هذه المرة في منطقة ميت رهينة في أطلال منف القديمة، واكتشف هناك تمثال رئيسي الثاني الشهير، واستطاع أن يجمع آثار مختلفة باع معظمها إلى المتحف البريطاني. انظر: عبد المنعم أبو بكر: "مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٨.

- (٧٠) محافظ معية سلبية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محافظة رقم (٢) وثيقة رقم (٢) بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٢٣٧هـ وانظر كذلك: "الأوامر والمكاتبات" ج١، ص ٤٢.
- (٧١) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٥٧، ٥٨.
- (٧٢) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٦٥.
- (٧٣) "لمحة عامة إلى مصر"، ص ٥٩.
- (٧٤) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٧٣.
- (٧٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٧٦) "الأوامر والمكاتبات" ج١، ص ٢٠٧ وانظر كذلك: أمين سامي: "تقويم النيل، عصر محمد علي"، ص ٣٨٢.
- (٧٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات ديوان خديوي (تركي) سجل رقم (٧٣١) ص (٦٢) وثيقة رقم (٧٢٧) بتاريخ ٣ شوال ١٢٤٢هـ (٢٠ أبريل ١٨٢٧م).
- (٧٨) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات من ٢/٥ سجل رقم (١) حديث وثيقة رقم (٧٠٦) بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٢٣٦هـ (٢٥ سبتمبر ١٨٢١م).
- (٧٩) "الأوامر والمكاتبات" ج١، ص ٣٩٧ وانظر كذلك: أمين سامي: "تقويم النيل، عصر محمد علي"، ص ٣٨٢.
- (٨٠) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر" مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة: "مصر النهضة" عدد رقم (٥١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٢٨١.
- (٨١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات معية سينة (تركي) سجل رقم (١٧) وثيقة رقم (٥٢) بتاريخ ١٩ محرم ١٢٣٩هـ (٢٧ يوليو ١٨٢٧م).
- (٨٢) "شامبوليون"، ص ٤٤٤.
- (٨٣) Tagher: "fouilleurs et antiquaires en Egypte au XIX^e siècle" cahiers D'Histoire Egyptienne , serie III , face 1 novembre 1950 , p.77. Also: Wiet op. cit., p. 26
- (٨٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) سجل رقم (٧٢٩) وثيقة رقم (٦٧٧) بتاريخ ١٣ صفر ١٢٤٢هـ (١٦ سبتمبر ١٨٢٦م).
- (٨٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات ديوان خديوي (تركي) سجل رقم (٧٣٣) ص (٥) وثيقة رقم (٦١٦) بتاريخ ٢٠ جمادى الأول ١٢٤٣هـ (٩ ديسمبر ١٨٢٧م).
- (٨٦) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات، من ٢/٥ سجل رقم (١) حديث وثيقة رقم (٢٠٣) بتاريخ ٢٦ جمادى الأول ١٢٣٦هـ (١ مارس ١٨٢١م).
- (٨٧) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٧٦.
- (٨٨) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٥٠.
- (٨٩) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٨.
- (٩٠) المرجع السابق، ص ٨٦.
- (٩١) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٤٥.
- (٩٢) Tagher: "Fouilleurs et antiquaires en Egypte", p.77
- (٩٣) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٨٦.
- (٩٤) عبد المنعم أبو بكر: "مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٨.
- (٩٥) رحالة فرنسي زار مصر في أواخر عام ١٨١٧م (١٢٣٤هـ) وكان مكلماً بشراء الآثار لمتحف اللوفر للملك لويس الثامن عشر. وضع مؤلفاً عن مصر بعنوان "رحلة إلى الشرق" وقد أهدت رسوماته ضجة كبيرة في فرنسا، وتنتقل في العديد من الوظائف حتى عين مديراً للمتاحف الفرنسية. انظر: إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٧٢، ٧٣.
- (٩٦) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٥٨.
- (٩٧) Tagher: "Fouilleurs et antiquaires en Egypte", p. 81.
- (٩٨) روبير سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٦.
- (٩٩) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٤٦.
- (١٠٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٩.

(١٠١) من المدهش أن تسمى فرنسا في استرداد الآثار المصرية التي سلبها الإنجليز إياها بينما لا تفعل مصر مع أنها صاحبة الحق الأكيد في ذلك.

(١٠٢) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٤٦.

(١٠٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٠٤) بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٨٣.

(١٠٥) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٤٦.

(١٠٦) المرجع السابق، ص ٤٤٧.

(١٠٧) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٠٨) المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(١٠٩) عماد عدل: شامبوليون في مصر، ص ١٧.

(١١٠) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٥٠.

(١١١) عماد عدل: شامبوليون في مصر، ص ١٧.

(١١٢) أتيلية Aletier: محل عمل المصور أو المثال.

(١١٣) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٥٠.

(١١٤) المرجع السابق، ص ٤٦١.

(١١٥) المرجع السابق، ص ٥٢٣.

(١١٦) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٨٦.

(١١٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٩ وانظر كذلك: بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٨٣ وإن كان جان لاكوثير يذكر أن هذه المجموعة الثانية قد بيعت للمتحف اللوفر بمبلغ مائة وثمانين ألف فرنك فقط. انظر: "شامبوليون"، ص ٢٩٥ كذلك يذكر روبرت سوليه أنها بيعت بمائة وخمسين ألف فرنك. انظر: "مصر ولع فرنسي"، ص ٨٦.

(١١٨) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٥٢٩.

(١١٩) المرجع السابق، ص ٥٣٥.

(١٢٠) المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(١٢١) بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٨٣.

(١٢٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٥٠.

(١٢٣) بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٨٣.

(١٢٤) محسن محمد: سرقة ملك مصر، ص ٨٣.

(١٢٥) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٢٩.

(١٢٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٥٦.

(١٢٧) بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٣٨.

(١٢٨) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٨٣) وثيقة رقم (١٠٠) بتاريخ ١٢ رجب ١٢٥٢ هـ.

(١٢٩) بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٩٥.

(١٣٠) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات ديوان غديوى (تركي) سجل رقم (٧٣٣) ص (٥٢) وثيقة رقم (٢٥٠) بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٤٢ هـ (٢١ مايو ١٨٢٧ م).

(١٣١) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلوية المستخرجة من الدفاتر، محفوظة رقم (١) كراسة رقم (٦) ص (٢) بتاريخ ٢٦ شوال ١٢٤٢ هـ (٢٣ مايو ١٨٢٧ م) وانظر كذلك: "الأوامر والمكتوبات"، ج ١، ص ٢٠٧.

(١٣٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (١) وثيقة رقم (١٩٨) بتاريخ ٢٦ شوال ١٢٤٢ هـ وانظر كذلك: Jacques Tagher: "ordres superieurs relatifs a la conservation des antiquités et a la creation d'un musée au caire" cahiers d'Histoire Egyptienne, Egyotian history

apers, serie 4 Face 2 december 1950. p. 15 , 16

(١٣٣) بيتر فرانز: "اغتيصاب مصر"، ص ٩٦.

(١٣٤) المرجع السابق، ص ٣٩.

(١٣٥) محسن محمد: سرقة ملك مصر، ص ٣٢.

- (١٣٦) (١٣٦) "Fouilleurs et antiquaires en Egypte", p. 76. Tagher.
- (١٣٧) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٣٩، ٤٠.
- (١٣٨) محسن محمد: سرقة ملك مصر"، ص ٣٢.
- (١٣٩) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٤٠.
- (١٤٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٤١) "الأوامر والمكاتبات" ج ٢، ص ٣٩٤.
- (١٤٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) سجل رقم (٢٣) وثيقة رقم (٨٦) بتاريخ ٣ ذو الحجة ١٢٣٣هـ (٤ أكتوبر ١٨١٨م).
- (١٤٣) محافظ معية سلبية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (٢) وثيقة رقم (٧٢١) بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٢٣٧هـ (٢٠ أغسطس ١٨٢٢م) وانظر: فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) سجل رقم (٢٤) وثيقة رقم (٤٦٠) بتاريخ ٢١ ذو القعدة ١٢٤١هـ (٢٧ يونيو ١٨٢٦م) وانظر كذلك: سجل رقم (٢٥) وثيقة رقم (٢٣٢) بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٤٢هـ (٣١ أغسطس ١٨٢٦م).
- (١٤٤) محافظ معية سلبية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (٢) وثيقة رقم (٧٨٣) بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٣٧هـ (٦ سبتمبر ١٨٢٢م) وانظر: فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) سجل رقم (٩) وثيقة رقم (٥٨٠) بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٧هـ (٣٠ مايو ١٨٢٢م) وانظر كذلك: نفس السجل وثيقة رقم (٧١٩) بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٢٣٧هـ (٢٠ أغسطس ١٨٢٢م) وانظر: سجل رقم (٣٣) وثيقة رقم (٢٧١) بتاريخ ٦ رجب ١٢٤٣هـ (٢٣ يناير ١٨٢٧م).
- (١٤٥) محافظ معية سلبية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (١٧) وثيقة رقم (٤٢٨) بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٣٧هـ (١٥ أغسطس ١٨٢٢م).
- (١٤٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) سجل رقم (٥) وثيقة رقم (٥٥) بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر ١٢٣٥هـ (٨ فبراير ١٨٢٠م).
- (١٤٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) وثيقة رقم (٢٢٥) بتاريخ ١٣ رجب ١٢٣٥هـ (٢٦ أبريل ١٨٢٠م).
- (١٤٨) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سلبية (تركي) وثيقة رقم (٥٤) بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر ١٢٣٥هـ (٨ فبراير ١٨٢٠م) وجدير بالذكر أننا قد اقتصرنا هنا على إيراد ونماذج لهذه الأوامر فقط، ولكن من يتطلع وثائق هذه الفترة يجد أمثله كثيرة لأوامر عالية تقدم تسهيلات من كل نوع لهذا القنصل.
- (١٤٩) "شامبلون"، ص ٥٥٦.
- (١٥٠) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٠٠.
- (١٥١) الزلافة: طريق منزلي يصل إلى غرفة الدفن.
- (١٥٢) "عجائب الآثار" ج ٢، ص ٥٧٢.
- (١٥٣) سليم حسن: "أبو الهول"، ص ٣٤.
- (١٥٤) كان الناس يطلقون على الكتابة الهيروغليفية "قلم الطير وذلك لكثرة رسوم الطيور والحيوانات التي تمثل حروفها والتي تظهر بكثرة أثناء كتابتها.
- (١٥٥) "عجائب الآثار" ج ٢، ص ٥٧٢.
- (١٥٦) سليم حسن: "أبو الهول"، ص ٣٦ وانظر كذلك، ص ٢٠٤.
- (١٥٧) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ١٤٠.
- (١٥٨) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٠٤.
- (١٥٩) سليم حسن: "أبو الهول"، ص ٣٤.
- (١٦٠) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٢٠٦.
- (١٦١) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٧٣ وانظر كذلك، ص ١١٧ وكان شامبلون قد وصف هذا التمثال بأنه: "تمثال زالح من الحجر الجيري المتبلور الجميل" وإن كان قد نسبته خطأ إلى الملك ستوسرت.
- (١٦٢) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٢٠٦.
- (١٦٣) "رحلة الألف ميل" ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: محمود ماهر طه، سلسلة الألف كتاب (الثاني) عدد رقم (٢٨٠)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٣/١٩٩٧م، ص ٨٩، ٩٠.

- (١٦٤) انظر بخصوص مسيرة جون لويس بوركهات وأعماله ورحلاته ومؤلفاته تلك الترجمة الرائعة التي وضعها له ناشرو كتابه "رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان" والذي ترجمه: فؤاد أندرواس، وقدم له: محمد محمود الصباد، وحقق أعلامه: الشاطر بصبلى، وأشرف على نشره: محمد شفيق غريال، وطبعته مطبعة المعرفة بمناية الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ص ١١-٣٥.
- (١٦٥) المرجع السابق، ص ٣٤ مقدمة الناشرين.
- (١٦٦) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات، ص ٢/٥ سجل رقم (١) حديث وثيقة رقم (٧١٠).
- بتاريخ ٩ ذو الحجة ١٢٣٦هـ (٧ سبتمبر ١٨٢١م).
- (١٦٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دمج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (١٩) وثيقة رقم (٢١٢) بتاريخ ١٩ محرم ١٨٤١م (٤ سبتمبر ١٨٢٥م).
- (١٦٨) بريس دافين: "إدريس أفندي في مصر" مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين في مصر ١٨٠٧-١٨٧٩ " جمع وترجمة أنور لوقا، سلسلة: "كتاب اليوم" عدد رقم (٣٢٣) القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٦٤ وانظر كذلك: إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٢٩١.
- (١٦٩) Tagher: " fouilleurs et antiquaires en Egypte "، P. 83.
- (١٧٠) بريس دافين: "إدريس أفندي في مصر"، ص ٦٤.
- (١٧١) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (٢) وثيقة رقم (٧٨٨) بتاريخ ٢١ ذو الحجة ١٢٣٧هـ (٨ سبتمبر ١٨٢٢م).
- (١٧٢) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٦.
- (١٧٣) نشارلز نهمس: "طبعة"، ص ٦١.
- (١٧٤) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٦٤.
- (١٧٥) المرجع السابق، ص ٦٤-٦٧ باختصار.
- (١٧٦) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ٤١.
- (١٧٧) ج١٦ وصف اللوحة رقم (٢٦).
- (١٧٨) المصدر السابق، نفس الجزء، وصف اللوحة رقم (٣٢) شكل رقم (٦) ورقم (٧).
- (١٧٩) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ٤٢.
- (١٨٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٧٦.
- (١٨١) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ٤٢.
- (١٨٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٧٧.
- (١٨٣) المرجع السابق، ص ٨١-٨٥ باختصار.
- (١٨٤) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ٤٩-٥١ باختصار.
- (١٨٥) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٨٧.
- (١٨٦) المرجع السابق، ص ٨٨، ٨٩.
- (١٨٧) المرجع السابق، ص ٩٠.
- (١٨٨) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٨٩) الكيس: حافظة نفوذ تحتوى على عدد خمسمائة قرش. انظر: هيلين آن ريفلين: "الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر" ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسني، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٤٣٢ وبذلك يلهم من كلام الجبرتي أن أجرة النقل كانت ثمانية آلاف قرش أى ٣٢٠٠٠ نصف فضة أو بارة على اعتبار أن القرش ينقسم إلى أربعين بارة أو نصفاً وهذا خطأ من الجبرتي ربما كان مرده إلى مبالغة الناس في قيمة هذه الأجرة، فقد مترك سلفاً أن أصحاب القارب قد نقاضوا من بلزوني ثلاثة آلاف قرش فقط نظير نقل تلك الرأس الأثيرة.
- (١٩٠) ج٢، ص ٥٧٢.
- (١٩١) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ٥٢.
- (١٩٢) المرجع السابق، ص ٥٤.
- (١٩٣) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٩٦.
- (١٩٤) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ٥٥.
- (١٩٥) المرجع السابق، ص ٥٧.

- (١٩٦) تشارلز نيمس: "طيبة"، ص ٦٢.
- (١٩٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٠٤.
- (١٩٨) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٥٩.
- (١٩٩) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٠٧.
- (٢٠٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٢٠١) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٦١، ٦٠.
- (٢٠٢) المرجع السابق، ص ٦١، ٦٢.
- (٢٠٣) المرجع السابق، ص ٦١.
- (٢٠٤) لويجي رينالدي: "الآثار المصرية وأبحاث السائحين الإيطاليين" مجلة "المقتطف" عدد أبريل ١٩٢٣ م، مجلد (٦٢)، ص ٣٦٥.
- (٢٠٥) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١١٦.
- (٢٠٦) المرجع السابق، ص ١١٥.
- (٢٠٧) المرجع السابق، ص ١١٧، ١٣٥.
- (٢٠٨) المرجع السابق، ص ١٤٣، ١٤٤.
- (٢٠٩) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٧٠، ٧١.
- (٢١٠) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٧.
- (٢١١) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٧٣.
- (٢١٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٥.
- (٢١٣) محسن محمد: "سرقه ملك مصر"، ص ٣٤.
- (٢١٤) جون لويس بوركهارت: "رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان"، ص ٣٠ (مقدمة الناشر).
- (٢١٥) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١١.
- (٢١٦) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء" ج٢، ص ٢٩٨.
- (٢١٧) منى يوسف نغلة: "علم الآثار في الوطن العربي، مدخل" منشورات جروس برس، لبنان، بدون تاريخ، ص ١٠.
- (٢١٨) "الآثار المصرية في وادي النيل" ج٣، ص ١٥٨.
- (٢١٩) لويجي رينالدي: "الآثار المصرية وأبحاث الإيطاليين" مجلة "المقتطف" مجلد (٦٢)، ص ٣٦٤.
- (٢٢٠) عدد رقم (٢) رجب ١٣٧٦ هـ / فبراير ١٩٥٧ م، ص ١٢٨.
- (٢٢١) هو مفتاح النعنع أو رمز الحياة الأبدية وكان يرمز له بهذه العلامة (♀)
- (٢٢٢) والمسند إبراهيم المهدي هذا الذي يذكره الجبرتي لم يكن سوى المستشرق السويسري جون لويس بوركهارت وكان قد تلقب بذلك على عادة الرحالة في ذلك العصر، إذ كانوا يحرصون على أن يتسموا بأسماء ويتلقبوا بألقاب ويتبرعوا بأزياء إسلامية، وذلك رغبة منهم في تحقيق مزيد من الاندماج في المجتمع الذي يقومون بدراسته، فيتمكنون بالتالي من جمع معلومات دقيقة عن نظم هذا المجتمع وعاداته وتقاليده.
- (٢٢٣) "عجائب الآثار" ج٢، ص ٥٧١، ٥٧٢.
- (٢٢٤) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١١٣.
- (٢٢٥) "P. 76 Tagher: fouilleurs et antiquaires en Egypte", Ibid, p. 82 (٢٢٦).
- (٢٢٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٨.
- (٢٢٨) المرجع السابق، ص ١١٦.
- (٢٢٩) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٦٦، ٦٧ باختصار.
- (٢٣٠) المرجع السابق، ص ٦٧.
- (٢٣١) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٦.
- (٢٣٢) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ٦٩، ٧٠.
- (٢٣٣) المرجع السابق، ص ٧٧.
- (٢٣٤) المرجع السابق، ص ٧٨، ٧٩.
- (٢٣٥) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٧.

- (٢٣٦) بيتر فرانكن: "اغتنصاب مصر"، ص ٨٠.
 (٢٣٧) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٤٦١.
 (٢٣٨) المرجع السابق، ص ٤٨١.
 (٢٣٩) المرجع السابق، ص ٤٨٣.
 (٢٤٠) بيتر فرانكن: "اغتنصاب مصر"، ص ٨٠، ٨١.
 (٢٤١) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٥٠٥.
 (٢٤٢) المرجع السابق، ص ٥٠٦.
 (٢٤٣) المرجع السابق، ص ٥٠٩.
 (٢٤٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.
 (٢٤٥) عماد عدلي: "شامبوليون في مصر"، ص ١٧.
 (٢٤٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٤٩.
 (٢٤٧) بيتر فرانكن: "اغتنصاب مصر"، ص ٨٣.
 (٢٤٨) المرجع السابق، ص ٦٦.
 (٢٤٩) محمد رشاد رشدي: "مصر في الشبعر الإنجليزي إبان الحركة الرومانتيكية" مجلة "المجلة" عدد رجب ١٣٧٦هـ/ فيراير ١٩٥٧م، ص ١١١.
 (٢٥٠) المرجع السابق، ص ١١١، ١١٢.
 (٢٥١) "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٥٠.
 (٢٥٢) بيتر فرانكن: "اغتنصاب مصر"، ص ٩٠.
 (٢٥٣) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٣٩.
 (٢٥٤) عماد عدلي: "شامبوليون في مصر"، ص ٦٢.
 (٢٥٥) محافظ معية سنه (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفظة رقم (١٠) وثيقة رقم (٢٩٥) بتاريخ ٢٧ مضان ١٢٣٧هـ.
 (٢٥٦) محافظ معية سنه (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفظة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٨٢) بتاريخ ٢٠ صفر ١٢٣٧هـ.
 (٢٥٧) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات، ص ٦/٥ سجل رقم (١) حديث وثيقة رقم (٣٤٣) بتاريخ ١٢ رجب ١٢٣٦هـ (١٥ أبريل ١٨٢١م).
 (٢٥٨) محافظ الأبحاث، موضوع التعليم. محفظة رقم (٥٨) وثيقة بتاريخ ٢٠ ذو الحجة ١٢٤٣هـ (٣ يوليو ١٨٢٨م).
 (٢٥٩) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. درج رقم (١) آثار سجلات معية سنه (تركي) سجل رقم (٢٥) ص (١٠٦) وثيقة رقم (٣١١) بتاريخ ٢٠ ذو الحجة ١٢٤٣هـ.
 (٢٦٠) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. درج رقم (١) آثار سجلات معية سنه (تركي) سجل رقم (١٧) وثيقة رقم (٥٧١) بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٢٤٠هـ (٢١ ديسمبر ١٨٢٤م).
 (٢٦١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. درج رقم (١) آثار سجلات معية سنه (تركي) سجل رقم (٣٣) وثيقة رقم (١٤٢) بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢٣٣هـ (١٤ أكتوبر ١٨٢٧م).
 (٢٦٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. درج رقم (١) آثار سجلات معية سنه (تركي) سجل رقم (٣٣) وثيقة رقم (٣٨) بتاريخ ٢٨ صفر ١٢٤٣هـ (٢٤ أغسطس ١٨٢٧م).
 (٢٦٣) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. درج رقم (١) آثار سجلات معية سنه (تركي) سجل رقم (٣٣) وثيقة رقم (٢٣٥) بتاريخ ٩ جماد الآخر ١٢٤٣هـ (٢٨ ديسمبر ١٨٢٧م).
 (٢٦٤) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٣٩.
 (٢٦٥) Louis Keimer: "Le musée égyptologique de Berlin" cahiers D'Histoire Egyptienne, Egyptian history papers, serie 111, face 1 novembre 1950, p. 30.
 (٢٦٦) Tagher: "Fouilleurs et antiquaires en Egypte", p. 83.
 (٢٦٧) مختار السويدي: "مصر القديمة"، ص ٣٢٠.
 (٢٦٨) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٣٩.
 (٢٦٩) عماد عدلي: "شامبوليون في مصر"، ص ٦٢.
 (٢٧٠) المرجع السابق، ص ٩٣.
 (٢٧١) المرجع السابق، ص ١٠٧.

- (٢٧٢) "الأوامر والمكتاتبات" ج١، ص ٢٩٥.
- (٢٧٣) سجلات معية سنية (عربي) صادر الأوامر العليا، سجل رقم (١٨٩٨ ج١) قديم ص (١٠٧) وثيقة رقم (٦٠) بتاريخ ٨ جمادى الأول ١٢٧١ هـ (٢٧ يناير ١٨٥٥ م) ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية (عربي).
- Keimer: op.cit., p. 39 (٢٧٤)
- Ibid, p. 39. (٢٧٥)
- Ibid., p. 40. (٢٧٦)
- (٢٧٧) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٤٧.
- (٢٧٨) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٣٩.
- (٢٧٩) لبنوار تشامبرز رابت: "سياسة بالولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٣٠-١٩١٤ م" ترجمة فاطمة لم الدين عبد الواحد، مراجعة: يونان لبيب رزق، سلسلة الألف كتاب (الثاني) عدد رقم (٤٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٧/١٩٨٧ م، ص ١٩٠.
- (٢٨٠) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٨٩٩) وثيقة رقم (١٣٠) بتاريخ ١٥ شوال ١٢٧٨ هـ (١٥ أبريل ١٨٦٢ م).
- (٢٨١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٨٩٤) أوامر ص (٣١) وثيقة رقم (٦) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٧٧ هـ (٢٧ سبتمبر ١٨٦٠ م).
- (٢٨٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٨٩٨) أوامر ص (٢) وثيقة رقم (٣) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٧٨ هـ (١٢ أكتوبر ١٨٦١ م).
- (٢٨٣) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٥٢٣.
- (٢٨٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) محفوظة رقم (٥) ورقة رقم (١٧) وثيقة رقم (٥٢٨) بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٢٧١ هـ (١١ يناير ١٨٥٥ م).
- (٢٨٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، محافظ معية سنية (تركي) محفوظة رقم (٦) وثيقة رقم (٣٠٧) بتاريخ ١ جمادى الآخر ١٢٧١ هـ (١٩ فبراير ١٨٥٥ م).
- (٢٨٦) Guillemette Andreu, Marie – Hélène Rutschowscaya, christian zieglér : L' Egypte ancienne au Louvre " Hachette Littératures , Paris 1997 . P : 21 .
- Wiet: op. Cit., P. 27. (٢٨٧)
- (٢٨٨) "الأوامر والمكتاتبات" ج١، ص ٣٤٩.
- (٢٨٩) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٨.
- (٢٩٠) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (١٠) وثيقة رقم (٢٢٢) بتاريخ ١٥ جمادى الأول ١٢٣٧ هـ (٧ فبراير ١٨٢٢ م)
- (٢٩١) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٧، ١٨.
- (٢٩٢) جامعة القاهرة: "الكتاب الذهبي للاحتفال بالدراسات الأثرية بجامعة القاهرة" عدد خاص من مجلة كلية الآثار، عدد سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٨٧ م، ج٢، ص ٣٢.
- Guillemette Andreu, others: op.Cit., P. 21 (٢٩٣)
- Tagher: " Fouilleurs et antiquaires en Egypte ", p. 75. (٢٩٤)
- (٢٩٥) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٠٩.
- Tagher: " Fouilleurs et antiquaires en Egypte ", p. 75. (٢٩٦)
- (٢٩٧) بيتر فرانمن: "اغتناب مصر"، ص ٤٣.
- (٢٩٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٩٢.
- (٢٩٩) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤١٣.
- (٣٠٠) فابريكة بولاق: مصنع غزل ونسج القطن كان يديره المسيو جومل، وكان هذا المصنع يعرف كذلك بفابريكة مألطة نسبة إلى العدد الكبير من المألطين الذين كانوا يشتغلون به. انظر: عبد الرحمن الراهقي: "عصر محمد علي"، ص ٥٠٠.
- (٣٠١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٩) وثيقة رقم (٢٦٠) بتاريخ اربع ربيع الآخر ١٢٣٧ هـ (٢ يناير ١٨٢٢ م).

- (٣٠٢) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات، من ٢/٥ سجل رقم (١) حديث وثيقة رقم (٨٦) بتاريخ أول ربيع الآخر ١٢٣٧هـ (٢٦ ديسمبر ١٨٢١م).
- (٣٠٣) بيتر فرانس: "اغتنصاب مصر"، ص ١٣٢.
- (٣٠٤) المرجع السابق، ص ١٣١.
- (٣٠٥) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٣٨٤.
- (٣٠٦) بيتر فرانس: "اغتنصاب مصر"، ص ١٧٣.
- (٣٠٧) السيد السيد توفيق أحمد دياب: "السباحة في مصر خلال القرن التاسع عشر، دراسة في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي" مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة: "مصر النهضة" عدد رقم (٤٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٥٠.
- (٣٠٨) عدد مايو ١٨٩٥م، مجلد (١٩) ج١، ص ٣٩٨.
- (٣٠٩) "الأثر الجليل"، ص ٦٩.
- (٣١٠) السيد دياب: "السباحة في مصر خلال القرن التاسع عشر"، ص ٥٣.
- (٣١١) Tagher: "Fouilleurs et antiquaires en Egypte", p. 72.
- (٣١٢) انظر أمثله لتلك في: "الأوامر والمكتاتبات" ج١، ص ١٥، ١١٢، ٢٣٥، ٢٨٥، وانظر ج٢، ص ٤٧٣ وانظر كذلك محافظ ممعة سنبة (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفظة رقم (١٧) وثيقة رقم (٦١١) بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٣٩هـ (١٦ ديسمبر ١٨٢٣م)، ثم انظر فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار سجلات ممعة سنبة (تركي) سجل رقم (٥) وثيقة رقم (١٨) بتاريخ ٢٧ جمادى الآخر (١١ أبريل ١٨٢٠م) وانظر كذلك ذات السجل، وثيقة رقم (١٣٥) بتاريخ ١٣ رجب ١٢٣٥هـ (٢٦ أبريل ١٨٢٠م).
- (٣١٣) إميليا إدواردز: "رحلة الألف ميل"، ص ٣٨٢.
- (٣١٤) ثروت مكاشة: "مصر في عيون الغرباء" ج٢، ص ٣٤٧.
- (٣١٥) لينوار تشامبرز رابت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ٢٨٩.
- (٣١٦) "رحلة الألف ميل"، ص ٧٥.
- (٣١٧) المرجع السابق، ص ٧٦.
- (٣١٨) المرجع السابق، ص ٤٨٣.
- (٣١٩) سجلات محافظة مصر، صادر عربي، صادر الدواوين، سجل رقم (١٨٠٥) قديم، ص (٧٠) وثيقة رقم (٢٢٩) بتاريخ غاية شعبان ١٢٩٥هـ (٢٨ أغسطس ١٨٧٨م).
- (٣٢٠) بريان فاجان: "جيب آثار وادي النيل، ص ١٥٤.
- (٣٢١) عبد القادر حمزة: "على هامش التاريخ القديم"، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م
- (٣٢٢) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٧٢-٧٥ باختصار. وما هو جدير بالذكر أن شامبليون قد تدخل لحسم هذا النزاع عندما أكد أن رسم فلك البروج أو بالأحرى أن معبد دندره بأكمله قد بنى على عهد البطلمة - وقد مر ذكر ذلك - وأقيد أسهم ذلك إلى حد كبير في التقليل من حدة الخلاف الذي كان مشتعلاً أصلاً بينه وبين أنصار الكنييسة، حيث ينظر إليه على أنه المدافع عن التسلسل التاريخي للتوراة (انظر: جان لاکوتير: "شامبليون"، ص ٤٤٨) غير أن شامبليون لم يلبث أن اصطدم مرة أخرى بمسألة قدم الآثار المصرية عندما قام برحلته إلى مصر حيث تأكد له من خلال تلك الرحلة أن هناك آثار أخرى أقدم بكثير من معبد دندره وفلك البروج، ولذا نراه يكتب لأخيه: "قد توصلت إلى نتائج محيرة للغاية - لاحتفظ بهذا السر بيننا - من العديد من النواص: بيد أنه يتعين علينا تكتمها في الوقت الراهن، لم يغب انتظاري، واتضح لي العديد من الأمور التي كنت أشكك فيها بغير وضوح، واكتسبت يقيناً لا يتزعزع" (انظر: عماد علي: "شامبليون في مصر"، ص ٢٥٠) وهكذا انفجرت القضية مرة أخرى، وعلى أية حال فقد أمكن التوصل إلى حل وسط، ابتكره رجال الكنييسة واقتنعوا به كوسيلة ملائمة للخروج من هذا المأزق، والتخلص من هذه المشكلة، فإذا كانت التوراة قد ذكرت سلسلة من الأجيال المتعاقبة مع أعمارهم، فإن هذا لا يعنى بالضرورة عدم وجود أجيال أخرى لم تذكرها التوراة. إذ يحتمل أن يكون هناك أناس آخرون يخللون سلسلة الأجيال السابقة وأغفلت التوراة ذكرهم، وهذا يعنى أن خلق الإنسان ربما يعود إلى عهود أقدم من تلك الفترة الزمنية التي أمكن استنتاجها من حساب سلسلة الأعمار التي ورد ذكرها في التوراة.
- (٣٢٣) بيتر فرانس: "اغتنصاب مصر"، ص ١١٠.

- (٢٢٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دمج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٦) وثيقة رقم (١٥٧) بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر ١٢٣٦هـ (٢٥ يناير أغسطس ١٨٢١م).
- (٢٢٥) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١١٠، وانظر كذلك: بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل، ص ١٥٦، ١٥٧ وكلاهما باختصار.
- (٢٢٦) مختار السويدي: "مصر القديمة"، ص ٤٩.
- (٢٢٧) عبد القادر حمزة: "على هامش التاريخ القديم"، ج ١، ص ٧٦.
- (٢٢٨) المرجع السابق، نفس الجزء، ورقم الصفحة.
- (٢٢٩) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل، ص ١٥٧.
- (٢٣٠) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١١٠، ١١١.
- (٢٣١) بقصد أن النقل كان إلى فرنسا وليمن إلى إنجلترا.
- (٢٣٢) انظر نصاً كاملاً لهذه الرسالة في: عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ١٦٩-١٧٢.
- (٢٣٣) قاعة الأجداد أو حجرة الأجداد أو غرفة الملوك: هي حجرة كان تحتضن الثالث قد أمر بأن ينقش على جدرانها نغمة من صور الوجوه والأسماء لعدد كبير من أجداده الملوك الفرعنة الذين حكموا مصر، وهذه الأسماء الملكية من المصادر التي يعتمد عليها في التاريخ الملوك مصر القديمة. انظر: سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ٤، ص ٤٢٢.
- (٢٣٤) "الخطط التوفيقية" ج ١٣، ص ٧٨ طبعة: بولاق، القاهرة ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م.
- (٢٣٥) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل، ص ١٦٨.
- (٢٣٦) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٧١.
- (٢٣٧) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ٤، ص ٤٧٧.
- (٢٣٨) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٤٨.
- (٢٣٩) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٧٣، ٧٤.
- (٢٤٠) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١١١.
- (٢٤١) جان لاکوتير: "شامبلون"، ص ٤٧١.
- (٢٤٢) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١١١.
- (٢٤٣) لهنوار تشامبرز رابت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ١٨٩، ١٩٠.
- (٢٤٤) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١١١.
- (٢٤٥) عدد مايو ١٨٩٣م، مجلد (١٧)، ص ٥٥٨.
- (٢٤٦) "رحلة الألف ميل"، ص ١٨٢، ١٨٣.
- (٢٤٧) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٥٧.
- (٢٤٨) لادی دف جوردون: "رسائل من مصر" ترجمة على الكاتب، بدون مكان أو سنة الطبع، ص ١٠٢.
- (٢٤٩) القنطار يساوي ٤٤,٥ كيلو جرام تقريباً.
- (٢٥٠) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دمج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) محفظة رقم (٦) وثيقة رقم (٤٦٦) بتاريخ ٣ جمادى الثاني ١٢٧١هـ (٢١ فبراير ١٨٥٥م).
- (٢٥١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دمج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) محفظة رقم (٦) وثيقة رقم (٣٠٦) بتاريخ ١٤ جمادى الثاني ١٢٧١هـ (٤ مارس ١٨٥٥م).
- (٢٥٢) لهنوار تشامبرز رابت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ٨٩ وانظر كذلك: مالك أحمد محمد رشوان: "مصالح الولايات المتحدة في مصر وتوابعها في النصف الأول من القرن التاسع عشر" بدون زمان أو مكان الطبع، ص ١١٧.
- (٢٥٣) لهنوار تشامبرز رابت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ٢٢٣.
- (٢٥٤) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٦٦، ٦٧.
- (٢٥٥) لهنوار تشامبرز رابت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ١٩٠.
- (٢٥٦) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٤١ وانظر كذلك: مختار السويدي: "مصر القديمة" ص ٣٢١.
- (٢٥٧) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٧.
- (٢٥٨) جان لاکوتير: "شامبلون"، ص ٥٢٧، ٥٢٨.
- (٢٥٩) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٧.

- (٣٦٠) له ترجمة مختصرة في: نجيب العقيقى: "المستشرقون" ج١، ص ٢٠٧.
- (٣٦١) ميريل ألدريد: "ال حضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة" ترجمة: مختار الموسيقى، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ٢٢ مقدمة المترجم.
- (٣٦٢) جيمس بيكى: "الآثار المصرية في وادى النيل" ج٢، ص ١٥٥.
- (٣٦٣) سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة الصادرة إلى جهات، ص ٢/٥ سجل رقم (١) حديث وثيقة رقم (٥٧) بتاريخ ١٢ صفر ١٢٣٦هـ (١٩ نوفمبر ١٨٢٠م).
- (٣٦٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) وثيقة رقم (٤٨٧) بتاريخ ٢٣ ذو الحجة ١٢٣٥هـ (١ نوفمبر ١٨٢٠م).
- (٣٦٥) Louis Keimer, op. cit., P: 28
- (٣٦٦) الأمير رودلف: "رحلة الأمير رودلف إلى الشرق" ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، سلسلة الألف كتاب (الثاني) عدد رقم (١٩٧)، (٢٠٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٢، ص ١٨.
- (٣٦٧) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٣٤ وانظر كذلك، ص ٦٠.
- (٣٦٨) جيمس بيكى: "الآثار المصرية في وادى النيل" ج٢، ص ٥٥.
- (٣٦٩) عبد القادر حمزة: "على هامش التاريخ القديم" ج١، ص ١٩٥ وانظر كذلك: سليم حسن: "مصر القديم" ج٨، ص ٥٥٣.
- (٣٧٠) بافلون: "دراسة الآثار المصرية في الاتحاد السوفيتى" مجلة "المجلة" عدد رقم (١٨) ذو القعدة ١٣٧٧هـ / يونيو ١٩٥٨م، ص ٩٧.
- (٣٧١) له ترجمة موجزة في: على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٩، ص ١٦٥ وهو فيه "جانبوليون" وله ترجمة مختصرة كذلك في: نجيب العقيقى: "المستشرقون" ج١ ص ٣٨٨. وانظر سيرته المطولة التى وضعها له مواطنه جان لاکوتير والمعنونة "شامبوليون، سيرة من نور" وقد اعتمدنا عليها كثيراً وأشرنا إليها غير مرة.
- (٣٧٢) له ترجمة صغيرة في: نجيب العقيقى: "المستشرقون" ج١، ص ٤١٩.
- (٣٧٣) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء" ج١، ص ١٧٥، ١٧٦.
- (٣٧٤) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٥٢٩، ٥٣٠.
- (٣٧٥) المرجع السابق، ص ٥٣٨.
- (٣٧٦) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ٩٥.
- (٣٧٧) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٥٣٨، ٥٣٩.
- (٣٧٨) المرجع السابق، ص ٥٣٩، ٥٤٠.
- (٣٧٩) المرجع السابق، ص ٥٤١، ٥٤٢.
- (٣٨٠) انظر هذه الواقعة بالتفصيل في: عبد الرحمن الرافعى: "عصر محمد على"، ص ٢٠٨ وما بعدها.
- (٣٨١) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٥٣٥.
- (٣٨٢) المرجع السابق، ص ٥٤٢.
- (٣٨٣) عماد على: "شامبوليون في مصر"، ص ٧٨، ٧٩.
- (٣٨٤) يقصد إلى نهاية الحدود المصرية من ناحية الجنوب.
- (٣٨٥) محافظ الأبحاث: موضوع التعليم، محفظة رقم (٥٨) دفتر رقم (٢٦) معية سنية (تركي) وثيقة رقم (٣٤٩) بتاريخ غاية صفر ١٢٤٤هـ.
- (٣٨٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار محافظ ديوان خديوى (تركي) سجل رقم (٦) وثيقة رقم (٣٥٠) بتاريخ غاية صفر ١٢٤٤هـ.
- (٣٨٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار سجلات معية سنية (تركي) وثيقة رقم (٢٦٥) ودرج رقم (٢٦٦) بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٢٤٤هـ (١٣ سبتمبر ١٨٢٨م).
- (٣٨٨) عماد على: "شامبوليون في مصر"، ص ١١١.
- (٣٨٩) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٥٥٩.
- (٣٩٠) عماد على: "شامبوليون في مصر"، ص ١٥٨.
- (٣٩١) المرجع السابق، ص ٢٤٨، ٢٤٩.
- (٣٩٢) المرجع السابق، ص ٣٨٢.

- (٣٩٣) المرجع السابق، ص ٣٨٤.
- (٣٩٤) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١٦، ص ٥٧٠.
- (٣٩٥) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٥٦٥.
- (٣٩٦) عماد علي: "شامبوليون في مصر"، ص ٣٨٢.
- (٣٩٧) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٥٩٧ هامش رقم (١).
- (٣٩٨) عماد علي: "شامبوليون في مصر"، ص ٣٨٢، ٣٨٣.
- (٣٩٩) المرجع السابق، ص ٣٩١.
- (٤٠٠) المرجع السابق، ص ٣٩٣.
- (٤٠١) المرجع السابق، ص ٤٢٣.
- (٤٠٢) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٦٠٢.
- (٤٠٣) عماد علي: "شامبوليون في مصر"، ص ٤٢٥.
- (٤٠٤) هي مقبرة سيني الأول التي اكتشفها بلزوني.
- (٤٠٥) المرجع السابق، ص ٤٢٧، ٤٢٨.
- (٤٠٦) يقصد القنصل البريطاني، إذ كان بولوني يعتقد هو الآخر - بإعتباره إنجليزياً - أن مقبرة سيني الأول هي ملك للإنجليز ما دام أن الذي اكتشفها هو بلزوني بتمويل من القنصل البريطاني سولت.
- (٤٠٧) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ٩٦.
- (٤٠٨) المرجع السابق، ص ٩٦، ٩٧.
- (٤٠٩) المرجع السابق، ص ٩٧.
- (٤١٠) عماد علي: "شامبوليون في مصر"، ص ٤٤٠.
- (٤١١) المرجع السابق، ص ٤٤٤.
- (٤١٢) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٦١٨.
- (٤١٣) عماد علي: "شامبوليون في مصر"، ص ١٥١.
- (٤١٤) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء" ج١، ص ١٧٧.
- (٤١٥) لوي رينالدي: "الأثار المصرية في أبحاث الماسلحين الإيطاليين"، ص ٣٦٥.
- (٤١٦) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء" ج١، ص ١٧٩.
- (٤١٧) جان لاكوثير: "شامبوليون"، ص ٥٨٣.
- (٤١٨) المرجع السابق، ص ٦٠٠.
- (٤١٩) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٢٣.
- (٤٢٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٥.
- (٤٢١) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٢٣.
- (٤٢٢) المرجع السابق، ص ١٢٤، ١٢٥.
- (٤٢٣) محافظ مية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٥) ص (٩) بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٥٨ هـ (١ أكتوبر ١٨٤٢ م)، وانظر كذلك: "الأوامر والمكتوبات" ج٢، ص ٤٧٣.
- (٤٢٤) "اغتصاب مصر"، ص ١٢٥.
- (٤٢٥) محافظ مية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٥) ص (٩) بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٥٨ هـ (١ أكتوبر ١٨٤٢ م) وانظر كذلك: "الأوامر والمكتوبات" ج٢، ص ٤٧٣.
- (٤٢٦) عبد المنعم أبو بكر: "الكشوف الأثرية وأثرها في كتابة التاريخ القديم"، ص ١١.
- (٤٢٧) نجيب ميخائيل: "أبو سبيل" معاصرة عامة ألهمت بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية في ١٠ نوفمبر ١٩٦٠ م بمناسبة أسبوع إنفاذ آثار النوبة، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م، ص ١٥.
- (٤٢٨) جيمس بيكي: "الأثار المصرية في وادي النيل" ج٥، ص ٢٨٢.
- (٤٢٩) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١٢، ص ٤٧٩، ٤٨١.
- (٤٣٠) المرجع السابق، ج١١، ص ٤.
- (٤٣١) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٢٥.
- (٤٣٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

- (٤٣٣) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ١٣، ص ٧٨.
- (٤٣٤) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٥.
- (٤٣٥) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٢٦.
- (٤٣٦) محسن محمد: "سرقه ملك مصر"، ص ٤١.
- (٤٣٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، محافظ المالية، محفظة رقم (٣) أوامر، وثيقة رقم (١١٢) بتاريخ ٢٠ جمادى الأول ١٢٦١هـ (٢٧ مايو ١٨٤٥م).
- (٤٣٨) محافظ معية سنية (تبركي) ملخصات الأوامر العلوية المستخرجة من الدفاتر، محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٧) ص (١٣) بتاريخ ١٠ رمضان ١٢٦١هـ (١٢ سبتمبر ١٨٤٥م) وانظر: "الأوامر والمكاتبات" ج ٢، ص ٥٣٧.
- (٤٣٩) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٧.
- (٤٤٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٥.
- (٤٤١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم ٢/٤ ب مجموعة (٤٩) أشغال ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال إلى مجلس الوزراء بتاريخ ٢٦ أبريل ١٨٩٩م (١٥ ذو الحجة ١٣١٦هـ) بطلب الترخيص لمصلحة الآثار التاريخية بإعطاء حجرين من مسلين سبق أن وهبهما إلى مصر لملك بروميا عام ١٨٤٢م، وقد وافق عليها مجلس النظارة بتاريخ ٥ محرم ١٣١٧هـ/١٥ مايو ١٨٩٩م.
- (٤٤٢) حضرت بعثة سيكسبارنلي إلى مصر عام ١٩٠٣م وظلت تنقب عن الآثار في مصر سبع عشرة سنة، ورغم أن فترتها تبعد قليلاً عن النطاق الزمني لموضوع بحثنا؛ إلا أن أسلوبها وطريقتها في جمع الآثار المصرية ونقلها إلى الخارج - أعنى القيام بذلك تحت ستار البحث العلمي - يعد امتداداً للأساليب والطرق التي كانت تلتجها البعثات الأجنبية التي وفدت على مصر في القرن التاسع عشر بقصد البحث عن الآثار القديمة المصرية، وهذا يجعل من الضروري أن نشير إلى هذه البعثة وأعمالها في مصر ولو على سبيل الإجمال.
- (٤٤٣) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ٢٢، ٢١ باختصار.
- (٤٤٤) عدد أبريل ١٩٢٣م، مجلد (٦٢)، ص ٣٧٢.
- (٤٤٥) محسن محمد: "سرقه ملك مصر"، ص ٤٢.
- (٤٤٦) جرجي زيدان: "تاريخ مصر من الفتح الإسلامي إلى الآن مع فلكة في تاريخ مصر القديم" مطبعة الهلال، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م ج ٢، ص ٢١٨.
- (٤٤٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٩.
- (٤٤٨) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٢٨.
- (٤٤٩) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق" ج ٢، ص ١٨٩.
- (٤٥٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٩.
- (٤٥١) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٢٩، ١٣٠.
- (٤٥٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.
- (٤٥٣) السراييوم أو السراييوم: سراديب منقورة تحت الأرض تحتوى على عجول أبيس المدفونة. انظر: جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة"، ص ١٩٥.
- (٤٥٤) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق" ج ٢، ص ١٩٠.
- (٤٥٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٠، ١٩١.
- (٤٥٦) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٣٢.
- (٤٥٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٧١.
- (٤٥٨) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٣٢.
- (٤٥٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٤٦٠) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق" ج ٢، ص ١٩١.
- (٤٦١) الأمير محمد علي: "مجموعة خطابات وأوامر خاصة بالمغفور له عباس باشا الأول"، ص ٨٠.
- (٤٦٢) بيتر فرانسن: "اغتصاب مصر"، ص ١٣٣.
- (٤٦٣) أمين سامي: "تقوم النيل" المجلد الأول من الجزء الثالث "عصر عباس وسعيد"، ص ٤١.
- (٤٦٤) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق" ج ٢، ص ١٩١.
- (٤٦٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ورقم الصفحة.

- (٤٦٦) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٣٤.
- (٤٦٧) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٤٦٨) Charles Blanc: " Voyage de La Haut Egypte " Librairie renouard , paris , 1876 , p. 30.
- (٤٦٩) بريان فاجان: " نهب آثار وادي النيل "، ص ١٧٢.
- (٤٧٠) سليم حسن: "مصر القديمة" ج٢، ص ٤٤٧.
- (٤٧١) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٣٤.
- (٤٧٢) "رحلة الألف ميل"، ص ٨٢، ٨٣.
- (٤٧٣) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٣٥ - ١٣٧ باختصار.
- (٤٧٤) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق" ج٢، ص ١٩٢.
- (٤٧٥) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٣٦.
- (٤٧٦) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ١٥١.
- (٤٧٧) مثير بسمط: "أهم المعالم الأثرية بمنطقة سفارة وميت رهينة"، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص ١١٧.
- (٤٧٨) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١، ص ٧٥١.
- (٤٧٩) المرجع السابق، ص ٧٧٢.
- (٤٨٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٨٤.
- (٤٨١) مجلة "المقتطف" عدد مارس ١٨٨٦م، مجلد (١٠)، ص ٣٧٩.
- (٤٨٢) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٧٢.
- (٤٨٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٤٨٤) المرجع السابق، ص ١٦٨.
- (٤٨٥) المرجع السابق، ص ١٧٣، ١٧٤.
- (٤٨٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٨٥.
- (٤٨٧) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٧٤، ١٧٥ باختصار.
- (٤٨٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٥٨.
- (٤٨٩) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٧٦.
- (٤٩٠) المرجع السابق، ص ١٧٦، ١٧٧.
- (٤٩١) المرجع السابق، ص ١٧٧.
- (٤٩٢) كتاب الموتى: كتاب مقدس لدى المصريين القدماء، يتضمن جملة فصول وأبواب تذكر سفر الروح بعد فراقها جسم صاحبها، وما تكاذه من العقبات والمهلكات والمخاوف في مدة هذا السفر الطويل حتى تتصل بهاليم الأرواح الطاهرة إن كانت أملاً لذلك وإلا فالعذاب والعقاب إن كانت بخلاف ذلك. وكثيراً من هذه الكتب عليه نقوش وألوان محكمة الصنعة، وقد نقل الأوروبيون عدداً كبيراً منها إلى بلادهم، وزينوا به متاحفهم. انظر: أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ٢١٦، ٢١٧.
- (٤٩٣) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٨٦.
- (٤٩٤) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١٧٩.
- (٤٩٥) المرجع السابق، ص ١٩٥.
- (٤٩٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٨٨.
- (٤٩٧) "عجائب الآثار" ج٢، ص ٦١٧ ملخص حوادث سنة ١٣٣٥هـ.
- (٤٩٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٣.
- (٤٩٩) بيتر فرانسن: "اغتنصاب مصر"، ص ١١٥.
- (٥٠٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٣.
- (٥٠١) تشارلز نيمس: "طبعة"، ص ٦٣ وانظر: (إميليا إدواردز): "رحلة الألف ميل"، ص ٤٤٨.
- (٥٠٢) Tagher: " Fouilleurs et antiquaires en Egypte " , p. 82.
- (٥٠٣) علي مبارك: "الخطوط التوفيقية" ج١، ص ٥٠.
- (٥٠٤) ثروت عكاشة: "مصر في عبون الغرباء" ج٢، ص ٢٩٩ وانظر كذلك: إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ١٢٣.

- (٥٠٥) بيتر فرانك: "اغتناب مصر"، ص ١١٥.
- (٥٠٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٤.
- (٥٠٧) بيتر فرانك: "اغتناب مصر"، ص ١١٥.
- (٥٠٨) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الفرياء"، ج ٢، ص ٢٩٩.
- (٥٠٩) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٤، ١٦٥.
- (٥١٠) إلهام ذهني: "مصر في كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٩٧.
- (٥١١) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الفرياء"، ج ١، ص ٢٩٩.
- (٥١٢) تشارلز نهمن: "طبعة"، ص ٦٥.
- (٥١٣) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٠١.
- (٥١٤) المرجع السابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.
- (٥١٥) مفتار السويقي: "مصر القديمة"، ص ٤٧.
- (٥١٦) ثروت عكاشة: "مصر في عهون الفرياء"، ج ١، ص ٢٤٧.
- (٥١٧) المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٣٤.
- (٥١٨) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٥٣٦.
- (٥١٩) عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ٢٠، ٢١.
- (٥٢٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢١٥.
- (٥٢١) عند مارس ١٩٠١ م، مجلد (٢٦)، ص ٢٨٣.
- (٥٢٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٢٠.
- (٥٢٣) المرجع السابق، ص ٢٠٨.
- (٥٢٤) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري" مجلة "المجلة" عدد رقم (٢٤) جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ / ديسمبر ١٩٥٨ م، ص ٢٨.
- (٥٢٥) جان لوكوير: "شامبوليون"، ص ٥٢٨.
- (٥٢٦) محمد رشاد رشدي: "مصر في الشعر الإنجليزي"، ص ١٠٩.
- (٥٢٧) Wallace Budge: "A Guide To the Egypt collections in the British museum" British museum press, London, p. (A) preface.
- (٥٢٨) عند مايو ١٩٠٩ م، مجلد (٢٤)، ص ٥٠٨.
- (٥٢٩) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٠٩.
- (٥٣٠) مجلة "المقتطف" عدد ديسمبر ١٨٩٣ م، مجلد (١٨)، ص ٢٠٧ وطبعة الحال لم تكن جميع هذه الآثار الموجودة في متحف فينوليام بجامعة كامبريدج قد حصل عليها المتحف بطريق الهبة، بل إن من هذه الآثار ما قام المتحف المذكور بشرائه من هواة جمع التحف، ثم إن الذي يوجد في هذا المتحف من آثار رمسيس الثالث هو غطاء التابوت وليس التابوت نفسه كما تذكر المجلة، ومما يذكّر ذلك بعد قليل.
- (٥٣١) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٠٩.
- (٥٣٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٥٣٣) محمد المنسي قنديل: "اللوهر"، ص ٨٩.
- (٥٣٤) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٠٩.
- (٥٣٥) المرجع السابق، ص ١٥٤.
- (٥٣٦) المرجع السابق، ص ٤٠٩.
- (٥٣٧) المرجع السابق، ص ١٥٤.
- (٥٣٨) المرجع السابق، ص ٤٠٩.
- (٥٣٩) المرجع السابق، ص ٤١٣.
- (٥٤٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٥٤١) المرجع السابق، ص ٤١٤.
- (٥٤٢) "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٨٧.
- (٥٤٣) مجلة "المقتطف" عند مارس ١٩٠١ م، مجلد (٢٦)، ص ٢٨٧.

- (٥٤٤) إميلي إدواردز "رحلة الألف ميل"، ص ٢٥١.
- (٥٤٥) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٣٩٩.
- (٥٤٦) "تاريخ قدماء المصريين" المصنف "قناصة أهل العصر من خلاصة تاريخ مصر" ترجمة: عبد الله أبو المسعود أفندي، طبعة: بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، ص ٣٣.
- (٥٤٧) "الدرس التام في التاريخ العام"، ص ١٥١.
- (٥٤٨) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١، ص ١٦٠.
- (٥٤٩) "بغية الطالبين في علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين" مطبعة: مدرسة الفنون والصنائع الخديوية ببولاق، القاهرة ١٢٠٩هـ/١٨٩١م، ص ١٨.
- (٥٥٠) معزم كمال: "الأثار المصرية في الخارج" مجلة "تقويم الهلال" عدد سنة ١٩٣٨م، ص ١٢١.
- (٥٥١) عدد مارس ١٨٩٥م، مجلد (١٩) ج١، ص ٢٢٧.
- (٥٥٢) سليم حسن: "مصر القديمة" ج٢، ص ٥٥٨.
- (٥٥٣) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ١٩٥.
- (٥٥٤) المرجع السابق، ص ١٩٦.
- (٥٥٥) المرجع السابق، ص ١٩٧.
- (٥٥٦) المتر يعادل ثلاثة أقدام إنجليزية وثلاث بوصات وسبعة وثلاثين جزءاً من البوصة.
- (٥٥٧) أحمد كمال: "ترويض النفس في مدينة الشمس المعروفة الآن بعين شمس" طبعة بولاق، الطبعة الأولى القاهرة ١٢١٤هـ/١٨٩٦م، ص ٢٨ وانظر كذلك: سليم حسن: "مصر القديمة" ج٧، ص ٣٤٠، ٣٤١ باختصار.
- (٥٥٨) سليم حسن: "مصر القديمة" ج٨، ص ٣٧٩.
- (٥٥٩) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٤٨٣.
- (٥٦٠) المرجع السابق، ج٢، ص ٣٥٧.
- (٥٦١) المرجع السابق، ج٨، ص ٣٢٥.
- (٥٦٢) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٨٠.
- (٥٦٣) مارت: "تاريخ قدماء المصريين"، ص ١٣٦.
- (٥٦٤) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ١٩٧.
- (٥٦٥) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١٥، ص ٥٦٥، ٥٦٦.
- (٥٦٦) بريان فاجان: "تعب آثار وادي النيل"، ص ١٨٨، ١٨٩.
- (٥٦٧) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١٣، ص ٣٥٤.
- (٥٦٨) المرجع السابق، ج١٥، ص ٥٧١.
- (٥٦٩) سليم حسن: "مصر القديمة" ج٥، ص ١٣٩.
- (٥٧٠) أحمد كمال: "بغية الطالبين"، ص ١٨.
- (٥٧١) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ١٩٥.
- (٥٧٢) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٥١.
- (٥٧٣) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٥٧، ٤٥٨.
- (٥٧٤) المرجع السابق، ص ٤٥٨.
- (٥٧٥) المرجع السابق، ص ٥٢٥.
- (٥٧٦) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١٣، ص ٣٥٤.
- (٥٧٧) المرجع السابق، ج١٥، ص ٥٧١.
- (٥٧٨) المرجع السابق، ج٥، ص ١٣٩.
- (٥٧٩) جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٤٥١ وانظر كذلك، ص ٥٢٥.
- (٥٨٠) المرجع السابق، ص ٤٥١، ٤٥٢.
- (٥٨١) سليم حسن: "مصر القديمة" ج١٦، ص ٧٥٢.
- (٥٨٢) المرجع السابق، ج١٣، ص ٧٢١.
- (٥٨٣) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٩٠ وانظر كذلك: جان لاکوتير: "شامبوليون"، ص ٦١٣.
- (٥٨٤) روبرت سوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤١٣.
- (٥٨٥) بريان فاجان: "تعب آثار وادي النيل"، ص ٢٣٢.

الفصل الثالث

تطور الأوامر واللوائح والقرارات والقوانين والتشريعات المتعلقة بالآثار المصرية في مصر في القرن التاسع عشر

أولاً: الآثار الثابتة والمنقولة :

أ - عصر محمد علي :

كان لا بد من إيجاد حل لوقف هذه الهجمات الأوروبية الشرسة التي كانت تستهدف انهباب ثروات مصر القديمة، ووضع حد لهذه الفوضى العارمة التي اجتاحت عملية منح تصاريح الحفر والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر حيث كانت تمنح تلك التصاريح للمؤهلين ولغير المؤهلين للقيام بمثل تلك الأعمال، كل على حد سواء.

ولسنتين عديدة لم تضع الحكومة المصرية أية عقبات في وجه هؤلاء الأوروبيين الذين كانوا يفعلون ما يحلو لهم بهذه الآثار، بما في ذلك حملها معهم إلى خارج القطر المصري، بيد أن الالتباسات المتعددة والصرخات المتكررة من بعض علماء الآثار الذين ساءتهم عمليات التخريب التي كانت تلحق بالآثار المصرية القديمة قد أدت - على نحو ما - إلى الحد من تلك الفوضى التي كانت تميز تصاريح الآثار خلال الفترات الأولى من حكم محمد علي، ولعل أقوى تلك الصبغات وأشدّها تأثيراً إنما جاءت من العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون الذي زار مصر خلال عامي ١٨٢٨ - ١٨٢٩ م (١٢٤٤ - ١٢٤٥ هـ) رفع في نهايتها مذكرة إلى الحكومة المصرية يشجب فيها التخريب الواسع النطاق الذي كانت تتعرض له المواقع الأثرية ويطلب فيها ضرورة الحفاظ على آثار وادي النيل، وقد سُلِّمت هذه المذكرة " حول حفظ وصيانة الآثار المصرية القديمة " إلى محمد علي خلال شهر أكتوبر من عام ١٨٢٩ م (جماد الآخر ١٢٤٥ هـ) حيث بدأها شامبليون بتملق واضح وصريح لمحمد علي : " من بين الأوروبيين الذين يزورون مصر كل عام يوجد عدد غفير منهم لا يأتون سعياً وراء أي مصلحة تجارية وإنما لمجرد الرغبة في التعرف بأنفسهم على آثار الحضارة المصرية القديمة المتناثرة على ضفة النيل، والتي يستطيع المرء حالياً تأملها ودراستها في أمان وسلام بفضل الإجراءات الحكيمة التي اتخذتها حكومة جلالة الملك " (١).

وإذ يدرك شامبليون أن لغة المادة هي اللغة الوحيدة التي يتقنها ويفهمها محمد علي ؛ نجده ينتقل إلى معالجة الموضوع من هذه الزاوية : " إن فترة الإقامة الطويلة إلى حد ما والتي يضطر

الرحالة لقضائهما في مختلف أقاليم مصر والنوبة، تعود بالنفع على العلم الذى يثرونه بملاحظاتهم، وكذلك على مصر نفسها نظراً لما ينفقونه من أموال لتنفيذ أعمالهم أو لإشباع فضولهم ولاقتناء مختلف منتجات الفن القديم؛ لذلك يصبح من الأهمية بمكان أن تعنى حكومة سمو الملك بحفظ وصيانة الأبنية والآثار القديمة التى تمثل الهدف الرئيسى وراء قدوم أفواج الأوروبيين الذين يلتزمون إلى أرفع وأغنى الطبقات الاجتماعية^(١).

وأوضح شامبليون أن أوروبا التى تبدو في نظره دائماً "متحضرة" : "تدين بشدة تدمير عدد كبير من الآثار العتيقة تدميراً تاماً وشاملاً منذ بضعة سنوات دون أن يبقى منها أدنى أثر"^(٢) ولم ينس شامبليون وهو في غمرة حماسه وتملقه لمحمد على أن ينفى عنه أية مسؤوليات تتعلق بذلك التدمير الذى لحق بالآثار المصرية على عهده "ومن المعلوم جيداً أن تلك العمليات التخريبية الهمجية تتناق مع نوايا سمو الملك وأرائه المستنيرة التى لا تخفى على أحد"^(٣) فإذا لم تكن أوروبا المتحضرة مسئولة، وإذا لم يكن محمد على المستنير مسئولاً عما أصاب الآثار المصرية من خراب وتدمير فمن ذا الذى يُسأل عن ذلك إذن؟ لا بد أنه الشعب المصرى الهمجى المتخلف!!!

وكان شامبليون قد عقد مقارنة بين الآثار المصرية التى كانت موجودة على عهد الحملة الفرنسية والتى تضمها كتاب "وصف مصر" وبين الآثار التى ظلت باقية عندما قام برحلته الشهيرة إلى مصر سنق ١٨٢٨، ١٨٢٩ م وانتهى من خلالها إلى وضع قائمة بأسماء ثلاثة عشر أو أربعة عشر موقعاً أثرياً مصرياً ثم تدميرها بالكامل وانمحت تقريباً من الوجود خلال تلك الفترة مع أنه "كان من بينها ثلاثة مواقع على وجه الخصوص كانت في غاية الأهمية بالنسبة للرحالة والعلماء"^(٤) وقد ضمت تلك القائمة للآثار المدمرة والمختفية كل آثار الشيخ عبادة ومعبد الأشمونين ومعبد قاو الكبير ومعبدتين في إتنا وثلاثة معابد في الكاب ومعبدتين في أسوان.

وأوصى شامبليون بعدم اقتلاع أية أحجار - بأى حال من الأحوال - من الأبنية والآثار القديمة التى كانت لا تزال قائمة فيما يقرب من ثلاثة وأربعين موقعاً أثرياً حددها شامبلين في مذكرته، وهذه المواقع تنتشر على طول الأراضى المصرية من الدلتا شمالاً وحتى حدود ستار جنوباً حيث لا توجد آثار مصرية فيما يلى ذلك نحو الجنوب.

وبعد أن أوضح شامبليون أن "الآثار العتيقة المنحوتة في الجبال تضارع من حيث أهمية المحافظة عليها الآثار المشيدة من الأحجار التى تم اقتلاعها من نفس تلك الجبال"^(٥) انبرى للدفاع عن حماية مقابر منف وبني حسن والقرنة ووادى الملوك وغيرها من المقابر.

ثم ندد شامبليون بمن وصفهم "بالمضاربين الأوروبيين" الذين دمروا الأبنية أملاً في اكتشاف بعض القطع الأثرية الفريدة في أساساتها، كما تئذ بجهل وطمع وشراهة المنقبين عن الآثار

والأشخاص الذين يستخدمونهم قبل أن يوصى في النهاية بأن تخضع أعمال التنقيب عن الآثار للسيطرة الحكومية، وبضرورة تنظيم تصدير الآثار تنظيماً دقيقاً صارماً.

ويذكر جان ماري كاربه أنه : " تملكنا الدهشة والأسف عند قراءة المذكرة التي سلمها شامبليون للبasha حول حماية الآثار المصرية للسرعة الفائقة التي تم بها تدمير وحدات معمارية ضخمة مثل الشيخ عبادة والأثمنونين وقاو الكبير في بداية عهد محمد علي ^(٧)، ونحن بدورنا تملكنا دهشة أكبر حين ندرك أن شامبليون وهو يدبج مذكرته السابقة هذه كان قد فرغ لثوره من الحصول على تأكيد من محمد علي بإهداء مسلق الأقصر إلى فرنسا ^(٨)، كما كان قد انتهى بالكاد من الإعداد لشحن عشرين صندوقاً مملئة بالآثار المصرية ^(٩) كان قد جمعها خلال رحلته، كان بعضها في طريقه إلى متحف اللوفر، والبعض الآخر كان يعتبره ملكية شخصية له، وهو بذلك يقرر قاعدة انتشرت كثيراً بين الرحالة وعلماء الآثار الذين زاروا أرض وادي النيل خلال القرن التاسع عشر حتى غدت تلك القاعدة سمة مشتركة بين هؤلاء جميعاً، وتتلخص هذه القاعدة الغربية في أنه من الممكن - بعد أن تستوفى نصيبك من الآثار المصرية - أن تندد كما شئت بطمع وشراهة المنقبين عن الآثار، وأن تطالب بوقف عمليات السطو والتخريب التي تتعرض لها الآثار المصرية، وأن تطالب - كذلك - بمنع تصدير تلك الآثار في المستقبل بعد أن تكون قد انتهت من نقل ما يحلو لك منها، ولا بأس كذلك من التعرّيج على همجية الشعب المصري الذي لا يفتأ يسعى إلى تلك الآثار بأعماله المخزية، وأن بلدك المتحضرة تدّين بشدة مثل تلك الأعمال.

على أية حال فإنه على الرغم من تقدير واهتمام محمد علي بأبحاث واكتشافات شامبليون الأثرية، وقيامه باستقباله في عديد من المرات، واستمرار نقاشاتها معاً لساعات طوال، وإهدائه لشامبليون سيفاً مُحلّئ بالذهب " دليلاً على الرضا والسرور الذي غمره [محمد علي] عندما رأى الرسومات الرائعة الجميلة للنقوش القديمة التي كانت تملأ حافظاته " ^(١٠) وعلى الرغم من انه طلب من شامبليون أن يكتب له موجزاً عن تاريخ مصر القديمة أنجزه شامبليون بالفعل وسلمه لمحمد علي في ٢٩ نوفمبر ١٨٢٩ م / ٢ جماد الآخر ١٢٤٥ هـ قبل مغادرته لمصر ^(١١)، وعلى الرغم مما يروى من أن محمد علي قال لشامبليون ذات مرة : " من بين كل المذاهب الأوروبية لا أطلب لي ولشعبي إلا بمذهب فك الرموز البيروغليفيه " ^(١٢) وما يروى كذلك من أن محمد علي قال عن الطبيب الفرنسي باريزيت Pariset وعن شامبليون " إن أحدهما قد بعث ابني إلى الحياة من جديد، بينما قام الآخر بإحياء مجد وعزة بلادي الذي اندثر منذ زمن سحيق " ^(١٣) على الرغم من كل ذلك فإن محمد علي لم يهتم بتنفيذ ما اقترحه عليه شامبليون في مذكرته التي رفعها له عن حفظ وصيانة الآثار المصرية، مما يؤكد على غياب القناعة لدى محمد علي بأهمية ما كان يوافق عليه في حينه، وكان موافقته هذه لا تخرج عن كونها مجاملات دبلوماسية ^(١٤).

وإن نظرة واحدة في الأوامر التي تتعلق بالآثار المصرية والتي أصدرها محمد على خلال الفترة التي أعقبت تسلمه لمذكرة شامبليون تكفى للدلالة على أن تلك المذكرة لم تغير من الأمر شيئاً. وإن صيحات شامبليون - التي يجوز لنا أن نعتبرها زائفة - قد ذهبت كلها أدراج الرياح، ربما لأن صاحبها كان هو أول من قام بخرقها، وتدل المراجعة التي قمنا بها لأوامر محمد على في الفترة المشار إليها آنفاً على أنه قد أصدر بعد أقل من شهرين من تاريخ تقديم المذكرة مאלفة الذكر ستة أوامر^(١٥) - في مدة أقل من خمسة وعشرين يوماً - تقدم كلها تسهيلات للتنقيب عن الآثار القديمة وتسهيل إجراءات نقلها من مختلف أنحاء القطر المصري إلى الإسكندرية تمهيداً لنقلها إلى الخارج. وقد خص القنصل البريطاني وحده منها خمسة تصاريح وقد ظهر من خلال تلك التصاريح أن هذا القنصل كان يستخدم المغازن الحكومية في وادي حلغا كمكان أمين لحفظ الآثار التي يعثر عليها أثناء حفرياته المتكررة^(١٦).

ولما كانت مذكرة شامبليون لم تؤد إلى نتيجة فقد تعالت مرة أخرى صيحات الأوروبيين مطالبة محمد على بحماية الآثار المصرية القديمة. وها هو ذا الفرنسي الآخر جان جاك ريفو يصرخ قائلاً: "لم يفهم بعد سادة الأرض المصرية أية فائدة تتعلق بالآثار القديمة وبالانقراض التي تغطي الأرض المصرية، إن مصر المركزية، القاهرة أو الجيزة، قد حرمت من وجود الجمعيات العلمية"^(١٧). هذا على الرغم من أن ريفو نفسه كان غارقاً حتى أذنيه في تجارة الآثار حتى كان محمد على يلقيه دائماً "أبو أنتيك"^(١٨) أى المهتم بالآثار القديمة، ويحكي لبنان دى بلفون إلى دى ستورميل D'Stourmel أنه حاول بلا جدوى الحصول من الباشا على ثلاث فرمانات تعمل على إيقاف الدمار العجيب والإبادة الشاملة للآثار الرائعة لمدينة الشيخ عبادة ولكنه فشل، ونفسه دى ستورميل اشتكى لمحمد على في اجتماع له معه عام ١٨٣٣ م (١٢٤٨ / ١٢٤٩ هـ) من خراب الآثار القديمة، ووعد الباشا بأن سوف يشدد على تنفيذ تعليماته في هذا الإطار^(١٩).

كما جاء في تقرير وضعه البارون الفرنسي شارل جوزيف إدمون دى بوالكمت - Charles Joseph Edmond De Boisilecomte في ٢٩ يونيو ١٨٣٣ م / ١٠ صفر ١٢٤٩ هـ) أنه قال لمحمد على: "إنه على الرغم من الأوامر التي أصدرتموها حضرتكم فإنه في كل يوم تتعرض الآثار المصرية للتلف وتتخذ منها الحجارة المغطاة بالنقوش والرخام الثمين لعمل الجير والرحى، وإن الدمار يسير بسرعة لدرجة أن أربعة عشر موقعاً من المواقع الأثرية الرئيسية الموصوفة في (وصف مصر) قد اختفت، مع أنه كان من الواجب المحافظة عليها"، ولكن محمد على ردَّ عليه رداً مفجعاً بقوله: "إن الأوروبيين أنفسهم هم الذين يعملون أكثر من أبناء البلد على تدمير وتخريب الآثار، لأنهم هم الذين يبيعون ويصدرون هذه الآثار"^(٢٠).

كذلك قدم القنصل الفرنسي ميمو Mimou مذكرة إلى محمد على في ٢٤ فبراير ١٨٣١ م (١٢ رمضان ١٢٤٦ هـ) يطالبه فيها بأن يأمر بمنع العمال من القيام بهدم معبد دندرة من أجل بناء مصنع لنسيج القطن في قنا، وأكد ميمو في هذه المذكرة أن "العمال الهمجيين المرسلين بواسطة بعض البكوات الجهلة والمأمور القبي شرعوا في هدم وتخريب معبد دندرة الذي كان يعد بحق أجمل آثار صعيد مصر" كما أكد ميمو أنه توصل لمحمد على لكي يعمل على إيقاف هذا التخريب الفظيع والتدمير الشامل للآثار، كما طالبه بسرعة تنفيذ التوصيات التي تضمنتها مذكرة مواطنه شامبليون بشأن حفظ وصيانة الآثار المصرية القديمة وأوضح ميمو أن محمد على قد أخذ المسألة هذه المرة باهتمام ورعاية زائدة، وأعرب ميمو عن أمله في أن لا تنشأ مرة أخرى مصانع متواضعة باستخدام ما تبقى من روائع الفن المصري^(٢١).

ورغم هذه الغيرة التي أبداهها ميمو على الآثار المصرية القديمة إلا أنه هو نفسه لم يكن بعيداً عن الإنغماس في تجارتها غير المشروعة بعد أن نصحه شامبليون بممارسة تلك المهنة مع أنه كان ينوي حين وصوله إلى مصر في ٢٣ يونيو ١٨٢٩ م (١٩ ذو الحجة ١٢٤٤ هـ) أن يكتفى بمهام منصبه الدبلوماسي وألا يقوم بتقليد زملائه الذين كانوا يشتغلون أيضاً بالتنقيب عن الآثار، غير أنه بعد نصيحة شامبليون المخلصة له بدأ يحذو حذو الآخرين وأصبح منقياً شديداً للحمامسة^(٢٢)، وكان ميمو قبل رفعه تلك المذكرة لمحمد على بفترة وجيزة قد حصل على وعد من محمد على - بناء على طلب منه - بالحصول على إحدى القطع الأثرية الضخمة التي كانت الحكومة المصرية قد عثرت عليها وأرسلتها إلى الترسانة وتركت فيها^(٢٣) ويبدو أن ميمو كان يطالب بالمحافظة على الآثار المصرية لكي يستنزف منها هو وأمثاله بعد ذلك ما يشاءون، وكان كل واحد من هؤلاء كان يريد أن يمنع الآخرين من إطلاق أيديهم في آثار وادي النيل.

والحق - كما يقول جاستون فيت - إنه على الرغم من أن الهيئة القنصلية الأوروبية لم تكن لتكف عن الجهر بصوتها من أجل حماية الآثار القديمة، إلا إنها مع ذلك لم تكن تعطي المثل الجيد والقوة الحسنه^(٢٤)، على أية حال فإن ما يهمنا في هذا المقام هو أن أوروبياً آخر هو الأمير الروسي بوكسر موسكو Puchler Moshou قد تضامن هو الآخر مع ميمو في مطالبته لمحمد على بحماية الآثار القديمة باعتباره حامياً ومدافعاً عن العلوم والفنون، وأبدى الأمير الروسي رغبته في أن يجعل محمد على من مصر متحفاً ضخماً وشامعاً، إلا أنه في إمبراطورية محمد على لا يوجد مكان يتسع لشيء آخر غير المعسكرات والمصانع والمدارس الفنية^(٢٥).

وإذ أحسست منك تعاطفاً مع هذا الأمير الروسي الذي نصّب من نفسه حامياً للآثار المصرية القديمة؛ فإني أجد لزاماً عليّ أن أذكر لك أن هذا الأمير نفسه قد قام بحفر اسمه بحروف ضخمة ومقروناً بصليب كبير على صدر أحد التماثيل الكبيرة التي تتصدر معبد "أبو سمبل" في

تشويه واضح لأحد أكثر الآثار المصرية شهرة وذيوياً على مستوى العالم، وقد علقت الرحالة البريطانية السيدة دف جوردون على ذلك بمسخرية لاذعة قائلة: "كم أتمنى أن يركله بعضهم لهذا التدنيس الذي ارتكبه" (٣٦).

كان للنداءات المتكررة التي وجهها الأوروبيون المطالبون بحفظ وصيانة الآثار إلى الحكومة المصرية أثرها في أن بدأ محمد على يولى بعضاً من اهتماماته لهذه المسألة، حيث نراه في شهر أكتوبر من عام ١٨٣٣م (جماد الآخر ١٢٤٩ هـ) يأمر بعمل بعض الحفائر الأثرية له بصفة شخصية (٣٧)، وبطبيعة الحال لم تكن الرغبة في خدمة العلم هي مقصده، ولا الكشف عن حضارة مصر القديمة هو مطلبه، ولكنه يبدو أن محمد على قد سال لعبه عندما رأى ما كان يستخرجه المنقبون عن الآثار من كنوز وثروات، فعنَّ له أن يجرب هو الآخر حظه في هذا المجال، لا سيما وأنه كان يشعر في قرارة نفسه بالضرورة أنه الأحق بهذه الثروات والكنوز من هؤلاء الغرباء، أو أن محمد على بعد أن فرغ من استنزاف ثروات مصر الظاهرة على سطح الأرض بدأ يفكر في الاستيلاء على ما في باطنها لاسيما وقد كان الطمع سجيته، والجشع أبرز خصاله، ولكن حظ محمد على في مجال الاستكشافات الأثرية - ولحسن حظ العلم والمعرفة - كان أقل كثيراً من حظه في مجال السياسة، حيث نجده يأمر بوقف هذه الحفائر بعد فترة تقترب من الشهرين لأنه: "لم يُعثر في المنطقة التي جرى فيها الحفر إلا على بعض الأحجار الأثرية، ولم يُعثر على شيء خلافاً من الآثار القديمة" (٣٨) ومن المدهش أننا نجد محمد على يصير في أمر الحفر على ضرورة تعيين أحد معاوني لمراقبة عملية الحفر، والعمل على عدم تسريب الآثار من أيدي العمال إلى الإفرنج، وكان العمال هم المسئولون وحدهم عن تسريب الآثار إلى الأجانب، أما المثات من تصاريح البحث عن الآثار والتي أعطاها هو للأجانب بدون قيد أو شرط لا تؤدي إلى ذلك، وكأنه:

حرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس (٣٩)

كذلك نراه في شهر مارس من عام ١٨٣٤م (ذو القعدة ١٢٤٩ هـ) يتشاور مع وزيره بوغوص بك بشأن بعض الآثار التي عُثر عليها في مصر الوسطى (٣٠)، كما يبدي اهتماماً ببعض التوابيت الأثرية التي عُثر عليها في سقارة في مايو عام ١٨٣٥م (المحرم ١٢٥١ هـ) (٣١).

كانت هذه الإرهاصات بشيراً بالقانون الذي صدر في ١٥ أغسطس ١٨٣٥م (٢٠ ربيع الآخر ١٢٥١ هـ) ونشرته جريدة "الوقائع" الرسمية، والذي يعد أول تشريع خاص بالآثار صدر بالديار المصرية في عصرها الحديث ويكتسب صفة القانون، ويعد هذا القانون - في زمنه - طفرة حقيقية في هذا المجال، ويقول أنصار رفاة الطهطاوى ومؤيدوه (٣٢): إن القانون قد خرج بدعوة وطلب وتأييد وصياغة منه. بينما يقول آخرون: إن خلافاً شخصياً نشب بين محمد على والقنصل الفرنسي ميمو كان هو السبب في ظهوره؛ ذلك أن محمد على كان يعرف عن القنصل الفرنسي

دأبه على جمع الآثار وتهريبها إلى فرنسا للاتجار فيها، وإذا أدرك محمد على أهمية هذه التجارة بالنسبة له فقد أخرج مذكرة شامليون القديمة واتخذها ذريعة لوضع هذا القانون بينما كان غرضه الحقيقي هو وضع العراقيل الرسمية أمام ميمو^(٣٣).

أما أن يكون رفاعة الطهطاوى معجباً بآثار مصر القديمة ومدافعاً عن هدمها ومسرقتها وداعياً إلى صيانتها فذلك ليس ببعيد، فقد أقام الرجل في فرنسا خمس سنوات، أيقظ فيه خلالها حنينه إلى وطنه وإطلاعه على أوجه الحضارة الجديدة وعياً وطنياً متأججاً، كما اطلع على علم المصريات القديمة، واتصل بالمستشرقين، وكان يملؤه الزهو والفخر عندما يجد الأوروبيين مهتمين بدراسة تاريخ بلاده القديم، وشاهد في باريس مسلة الكونكوردي التي أهداها محمد على لفرنسا فغاضه ذلك، وانتقد بشدة تفریط محمد على وتبديده لآثار مصر، إذ هي "زينة مصر، ولا يجوز تجريد مصر من حليتها التي تجلب إليها المتفرجين من سائر بلاد الدنيا"^(٣٤) ومؤلقاته وكتبه شاهدة على موقفه هذا، وإن يقوم رفاعة بصياغة القانون فذلك ليس ببعيد أيضاً، فقد كان رفاعة مؤهلاً للقيام بذلك بحكم صلاته الوثيقة وعلاقاته الطيبة بمحمد على، وبحكم أن الرجل كان يأتي على رأس الجيل الناشئ من المثقفين المصريين الجدد الذين كان يُنتظر منهم أن يقودوا مسيرة نهضة البلاد الشاملة التي كان الجميع يتوقون إلى تحقيقها، ثم بحكم إجادته التامة للغة الفرنسية التي صيغ بها القانون، ثم بحكم كونه على رأس ديوان المدارس الذي أسندت إليه - بمقتضى القانون الجديد - مهمة تجميع الآثار المصرية المتفرقة في مختلف أنحاء مصر، والمصادرة من عمليات التهريب، والنااتجة من حفائر التنقيب ووضعها فيه، فقد كان ديوان المدارس ديواناً عاماً وشاملاً لا يقتصر فقط على إدارة شئون الحركة التعليمية في ذلك الوقت، بل كان يقوم كذلك بأعمال دواوين ونظارات مختلفة انفصلت عنه فيما بعد مثل الأوقاف والرى والزراعة والأشغال التي انضمت إليها مصلحة الآثار بعد ذلك، بحيث يمكن القول بأن ديوان المدارس كان مسئولاً عن تنظيم وإدارة حركة دولاى العمل الحكومى في ذلك الوقت، أقول إن ذلك كله ليس ببعيد، ولكن الذى نستبعده أن يطلب رفاعة بشكل مباشر من محمد على حماية آثار مصر القديمة بصورة تتمخض عن إصدار قانون يكون رفاعة سبباً في ظهوره، ذلك أن رفاعة لم يشر من قريب أو بعيد - في كتبه - إلى أى دور له في ذلك، ولو كان فضل إصدار القانون يرجع إليه حقيقة لكان قد ملأ الدنيا صراخاً وإشادة بمثل هذا العمل، أو حتى أشار إلى ذلك إشارة عابرة، فتلك طبيعة متأصلة في النفس البشرية : أن تترع دائماً إلى ذكر مآثرها وما تحمد به سيرتها بين الناس، بل إننا نجد أن رفاعة قد أعطى في كتابه "أنوار توفيق الجليل" تاريخاً تقريباً بل وخاطناً لصدور هذا القانون : "كان صدر من المرحوم محمد على باشا أوامر سنبة في نحو سنة ١٢٥٢ هـ بحفظها [الآثار القديمة

[وأن ما يحتفر منها في مواضعها يحفظ في مخزن أنتيكات بالمحروسة، وأنه لا يسوغ إخراج شيء منها إلى البلاد الأجنبية " (٣٥).

هذا فضلاً عن أن رفاة لا بد وأنه كان يعرف تماماً شخصية محمد على متقلبة الأهواء والأمزجة، كما كان يعرف كذلك أن قضية الآثار المصرية من القضايا الشائكة المحفوفة بالمخاطر بسبب مداخله القناصل والدبلوماسيين الأجانب العاملين بمصر في البحث عنها وتجارتها، ويدرك أن التدخل في هذه القضية الشائكة على غير هوى من محمد على من شأنه أن يؤدي إلى عواقب وخيمة قد تكون نتيجة الإساءة إلى العلاقة بينه وبين محمد على، ومما لا شك فيه أن رفاة كان يحرص على استمرار هذه العلاقة وتوطيدها بقدر الإمكان، فقد كان في ذهن رفاة الكثير من المشروعات الإصلاحية التي كان يتطلع إلى تحقيقها، وهي مشروعات ما كان لها أن تصادف النجاح أو أن ترى النور ما لم تحظ بتأييد ورعاية من محمد على، بحيث يبدو من غير المقبول أن يجازف رفاة بتدخله في قضايا ذات طبيعة خاصة كهذه تدخلاً قد يؤدي به إلى القضاء على مشروعاته وطموحاته بضربة واحدة في ظل نظام حكم كل يوم هو في شأن، تحركه الأهواء والأمزجة، وتحكمه المصالح والأطماع.

على أية حال فإن أحسن ما في هذا القانون - أياً كان الباعث على نشره وإصداره - أنه أدرك منذ البداية المسئولين الحقيقيين عن نهب وتدمير الآثار المصرية : " الأجانب الذين يهدمون الأبنية القديمة ويأخذون منها الأحجار والأشياء الأخرى المصنوعة ويصدرونها إلى البلاد الأجنبية " (٣٦)، ويؤكد القانون أنه " لو استمرت هذه التصرفات فإنه مما لا شك فيه أنه في زمن قصير جداً سوف لن يبقى في مصر شيء من الآثار القديمة إذ أن كل شيء سوف ينقل إلى الخارج " (٣٧).

ويشير القانون في ديباجته كذلك إلى أن " من المعروف أن الأوروبيين يمتلكون أبنية [متاحف] يخصصونها لحفظ وصيانة الآثار القديمة والأحجار المقطاة بالرسومات والنقوش والأشياء الأخرى الثمينة، حيث تحفظ بعناية وتعرض على سكان البلاد وعلى الرحالة والمسافرين الذين يرغبون في رؤيتها ودراستها، وهذه المباني تعطى البلاد التي تملكها شهرة عظيمة " (٣٨).

لذلك فقد قررت الحكومة اعتباراً من تاريخ نشر هذا القانون ما يلي :

١. منع تصدير الآثار المصرية التي توجد في المباني القديمة المصرية منعاً باتاً.
٢. إنشاء دار للآثار في العاصمة تودع فيها الآثار التي عثر عليها، أو سيعثَر عليها عقب التنقيبات التي تقوم بها النولة في المستقبل، وتعرض فيها على الزوار.
٣. منع هدم وتخريب وتدمير الأبنية القديمة التي توجد في مصر العليا، واتخاذ الوسائل اللازمة والتدابير الكفيلة بالمحافظة عليها وصيانتها بكل العناية الممكنة (٣٩).

كان القانون خطوة هامة في الاتجاه الصحيح، لاسيما وقد دعمته خلاصات عمومية صدرت من مجلس الأحكام الملكية تؤكد وتشدد على "عدم إخراج الأحجار القديمة وما يماثلها من الآثار وعدم هدم المباني العتيقة الكائنة بالأقاليم الصعيدية من الآن فصاعداً، وإحالة دقة النظر والالتفات بهذا الخصوص على النظار والمديرين"^(٤٠) كما تقرر تعيين أحد المفتشين وتزويده بدهبية للمرور بها على الآثار مرة في كل سنة، والطواف بكل المواقع الهامة للإشراف على تنفيذ أحكام المجلس، بل إن محمد على الذي بارك قرارات مجلس الأحكام السابقة قد تشدد في بعض بنودها ربما لقناعته أخيراً بخطورة الأمر، إذ رأى من جانبه: "أن التفتيش دفعة واحدة في السنة لا يكفي، ولا سيما أن بعض الأهالي يستخرجون الأحجار القديمة والتوابيت وما يشابهها من المباني العتيقة، وجارى إرسالها من قبلهم إلى إسكندرية وبيعها على الإفرنج، وأنهم بذلك يتلفون الأشياء القديمة، وإن هذا الخصوص مما يجب الاعتناء به بمزيد الالتفات" ومن ثم فإنه يتعين على المفتش المذكور "المرور دائماً لحصول المنفعة" كما يتعين عليه كذلك ضرورة "السعى والاجتهاد في منع إخراج تلك الأحجار وعدم هدم المباني القديمة"، وأكد محمد على أنه لا يقصد بتعليماته هذه ضرب الحركة السياحية في مصر، إذ "لا بأس من مرور السواحين فقط بدون من شيء من ذلك"^(٤١).

لقد كان تشريع عام ١٨٣٥ م والقرارات التالية له كافية - لو طُبِّقت بدقة وحزم ودون استثناءات - لوضع حد للصراع الدولي على سلب آثار وادي النيل، وقد أصبح ذلك مفهوماً لدى الأوروبيين الذين كانوا يظهرون أنفسهم بمظهر المدافعين عن الآثار المصرية القديمة وحامئي حماها، ومن ثم فقد نال القانون الجديد استحسانهم وتقريظهم، ورأتى في مقدمة هؤلاء كلوت بك - أحد أبرز حملة المباحرة في بطانة محمد على - الذي هاجم بشدة طمع وجشع بنى جلده من الأوروبيين، وسعهم إلى انتهاب كنوز مصر القديمة وثرواتها، وأشاد بقرار محمد على بمنع التصدير غير المنظم للآثار المصرية، كما أبدى كلوت بك رغبته في أن يقيم محمد على في مصر متحفاً للآثار القديمة تُجمع فيه بعناية وبأسلوب منظم كل آثار مصر القديمة، ولكن محمد على لم يكن بالرجل الذي يلتزم بتطبيق قوانين وتشريعات قد تحد بعض الشيء من سلطته المطلقة، وليس الأمر قاصراً على قانون الآثار الذي نحن بصددده، وإنما يشمل كذلك كافة القوانين والتشريعات والأوامر التي أصدرها محمد على خلال فترة حكمه، فقد لاحظ بريس دافين أن القوانين التي أذاعها محمد على، والتي أطلب المطلبون في الإشادة بحكمتها، وتمشياً مع روح الحرية لم توضع يوماً موضع التنفيذ، ولذا سرعان ما أهملت هذه القوانين بعد تشريعها، وإذا كانت بعض اتجاهاتها قد طبقت فإن ذلك لم يكن إلا في مناسبات نادرة، وفي الأحوال التي لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع طائلة نصوصها^(٤٢). والمراجعة الشاملة لأوامر

محمد على الصادرة خلال الفترة التي أعقبت صدور قانون سنة ١٨٣٥م تثبت أن بريس دافين قد حالفه الصواب فيما ذهب إليه بخصوص قوانين محمد على وأن كلامه في هذا الإطار إنما ينطوى على قدر كبير من الصدق والواقعية، فقيما يتعلق بقانون الآثار الذي نحن بصدده نجد ان محمد على قد أصدر بعد ثلاثة أيام فقط من صدور القانون - ولم يكن المداد الذي كتب به القانون قد جف بعد - أمراً بتسليم القنصل الفرنسى بمصر [ميمو] الآثار التي أودعها بالترسانة^(٤٣)، مع أنه كان يعلم علم اليقين - كما مر بك سلفاً - أن ميمو كان من كبار المتورطين في تجارة الآثار غير المشروعة، كذلك نجده بعد ذلك يأذن لأحد القناصل بتمرير عشرة صناديق من جمرك الإسكندرية، خمسة منها تحتوى على آثار قديمة بينما يضم السادس إحدى المومياءات^(٤٤)، وعقب قيام الحكومة الفرنسية باستدعاء القنصل الفرنسى ميمو من مصر بعد عزله من منصبه : كافاه محمد على بأن أصدر أمراً إلى جمرك الإسكندرية بعدم التعرض لحقائبه وأمتعته ومتعلقات أتباعه وعدم فتحها بالجمرك^(٤٥)، مع أنه لا يخفى على أحد أن تلك الحقائب كانت غاصة بما تنوء بحمله العصبة أولوا القوة من الآثار المصرية على حد قول بعضهم :

يمرون بالدهنا خفافاً عبابهم ويخرجون من دارين بجر الحقائب^(٤٦)

ومن ناحيتهم لم يأل الأجانب جهداً في ابتكار الأساليب والحيل التي تجعلهم لا يقعون تحت طائلة هذا القانون الجديد، كما تجعلهم يتخلصون من تطبيق بنوده عليهم، وكثيراً ما كانوا ينجحون في ذلك كما هو الحال والشأن دائماً مع كل قانون وضى مهما أوتى القائمون على تشريعه من حكمة وحصافة وموهبة في سن وتشريع القوانين، ومهما تفنن واضعوه في إحكام صياغة مواده وبتوده، ومما لاشك فيه أن فرص النجاح تزداد كثيراً إذا كان المكلفون بتنفيذ القوانين أشخاصاً على شاكلة محمد على يتمتعون بقسط وافر من المرونة التي تجعله يأمر بالإفراج عن صندوقين مليونين " بأثار كثيرة على أشكال مختلفة " تم ضبطها في جمرك بولاق حال شروع أحد الإنجليز في نقلها إلى الإسكندرية ومنها إلى الخارج بدعوى : " أن العاديات المذكورة كانت مشتراه قبل ستة أشهر، أى قبل صدور الأمر بمنع إخراجها "^(٤٧).

كذلك لجأ بعض الأجانب إلى حيلة أخرى للتملص من القانون تتلخص في عدم إدراج الآثار الثمينة التي كانوا يريدون نقلها خارج القطر المصرى ضمن قائمة الأشياء التي كانوا يتقدمون بها إلى محمد على للحصول على الإذن والموافقة بتصديرها، حيث كانوا يقصرون تلك القائمة عادة على أشياء أخرى تافهة وبسيطة لا يرى محمد على وحكومته بأساً من الموافقة على تصديرها، وبعد الحصول على تلك الموافقة كانوا يضيّقون بعد ذلك إلى القائمة ما يحلو لهم من آثار ثمينة يريدون نقلها إلى الخارج، أو حتى ينقلونها دون إضافة مستترين وراء تلك الموافقة الرمزية التي حصلوا عليها، ومستغلين ضعف الضمان وغياب الرقابة في العديد من المنافذ الجمركية المصرية

في ذلك الوقت، ومن ذلك ما فعله الكولونيل ريتشارد ويليام هاوارد وايز Wyse Richard William Heward الذي قام بفتح الهرم الثالث (الأصغر) واستخرج منه تابوتاً بدون غطاء وزن ثلاثة أطنان، قام وايز بتغليفه في خشب سميك وشحنه في سفينة تجارية إلى لندن، ويذكر بيتر فرانس أن العرض التفصيلي الذي نشره وايز بعد ذلك عن حفائره في منطقة الأهرام لا يحوى أى ذكر لحصوله على إذن بتصدير التابوت، وأنه أوضح فقط في هذا العرض أن كل الآثار التي وجدت في المنطقة مملوكة للباشا [محمد علي]، وأن كل شيء قد أرسل إلى القنصلية البريطانية مع تعليمات إلى القنصل البريطاني كامبل بالتقدم بطلبات إلى بوغوص بك وزير محمد علي للحصول على تصريح بنقل كل القطع التي يريد ريز أن يأخذها إلى إنجلترا، ويؤكد بيتر فرانس أن القائمة لم تتضمن التابوت، وإنما أشياء أخرى بسيطة مثل ثلاث أواني فخارية مهشمة، وخمس زجاجات صغيرة، وثلاثة طيور خشبية، وتسع قطع مهشمة... إلخ^(٤٨).

غير أنه - إحقاقاً للحق - ينبغي لنا أن نذكر أن المراجعة الشاملة الدقيقة التي قمنا بها لأوامر محمد علي قد أدت إلى العثور على التصريح الذي منحه محمد علي للقنصل البريطاني كامبل وللكولونيل ريز بنقل هذا التابوت إلى إنجلترا، ولكن بنية تقديمه كهدية إلى ملكة إنجلترا، وليس بقصد إرساله إلى المتحف البريطاني كما كان ينوى ريز وكامبل، وهذا التصريح مؤرخ بتاريخ ١٤ محرم ١٢٥٤ هـ (١٠ أبريل ١٨٣٨ م) ومضمونه: "قد تطلب صديقنا قونصل الإنكليز التصريح بإعطائه التابوت الذي أخرجه من تلؤل الجزيرة القولونيل ريز لإرساله برسم الملكة، ولكون من المعلوم أن إخراج مثل هذا والآثار القديمة إلى بحريرا^(٤٩) ممنوع، لكن من حيث إن هذا التابوت إرساله إلى إنكلترة يكون بصفة هدية إلى الملكة فلذلك يلزم عدم المعارضة إلى القولونيل في نقل هذا التابوت"^(٥٠) مما يدل دلالة قاطعة على أن الاثنين قد تقدما بالفعل بطلب لنيل التصريح بالحصول على ذلك التابوت وإرساله إلى إنجلترا وربما كان ذلك في طلب مستقل عن الطلب الآخر الذي تقدموا به لنقل المجموعات الأخرى، وهو الأمر الذي لم يتنبه له بيتر فرانس.

على أنه لا المتحف البريطاني ولا ملكة إنجلترا ولا ريز ولا مصر قد استفادوا من التابوت، حيث تعرضت السفينة التي كانت تقله إلى إنجلترا للغرق، واستقرت بحملها الثمين في قاع البحر إلى الأبد، بينما وصلت الآثار الأخرى التي جمعها ريز من تنقيباته في مصر سالمة إلى إنجلترا بعد أن قام بشحنها في سفينة أخرى، واستقرت في المتحف البريطاني كذلك إلى الأبد.

بيد أن قانون سنة ١٨٣٥ م قد اكتسب قوة وأرضاً جديتين بصدور خلاصة عمومية أخرى من مجلس الأحكام الملكية بتاريخ ١٠ رجب ١٢٥١ هـ (٢٦ أكتوبر ١٨٣٥ م) بناءً على تقرير مرفوع إلى المجلس من يوسف ضيا أفندي الذي كان قد تم تعيينه مأموراً ومفتشاً للآثار عقب صدور القانون المذكور، اشتكى فيه من تقصير المسؤولين وعدم قيامهم بالتطبيق الكامل لأحكام قانون

الأثار، ولاحظ يوسف ضيا أن الحفائر الأثرية الفردية غير المصرح بها لاتزال منتشرة على نطاق واسع، وأن بعض الأهالي قد اتخذوا من البحث عن الأثار والتجارة فيها مهنة تدر عليهم مكسباً وربحاً وفيراً، وحذر يوسف ضيا في تقريره من الاستمرار في فوضى إعطاء تصاريح الحفر للبحث عن الأثار للقناصل الأوروبيين، وأوضح أن هؤلاء القناصل يستأجرون مندوبين من طرفهم ويزودونهم بتصاريح رسمية تخول لهم حق البحث عن الأثار ويرسلونهم إلى مختلف الجهات لأجل جمعها وجلبها إليهم. وأرق يوسف ضيا بتقريره تصريحاً من هذا النوع كان القنصل الفرنسي بمصر قد أعطاه لأحد المصريين الذين كان قد استأجرهم خصيصاً لمهمة البحث عن الأثار ويدعى الحاج محمد هدية، وبعد بحث التقرير المذكور انتهى المجلس إلى إصدار خلاصة تتضمن التأكيد على منع إعطاء تصاريح الحفر الفردية في المستقبل، وإلغاء كافة التصاريح التي تكون بيد القناصل وغيرهم الآن، وكذلك ضبط ومصادرة المكتشفات الأثرية التي في حوزة هؤلاء وإرسالها إلى رفاعة الطهطاوى الذى كان قد تعين هو الآخر " مأموراً لمحافظة [حفظ] الأثنية بالمحروسة " أى مديراً للمتحف المصرى الناشئ، كما نصت الخلاصة على ضرورة معاينة الباحثين عن الأثار بدون تصريح قانونى.

كما تطرق المجلس إلى مشكلة أخذ السباخ^(١) حيث أوصى بعدم منع المزارعين من حفر الأراضى التي بجوار الأبنية القديمة لأخذ السباخ المستخدم في تسميد الأراضى الزراعية، وإنما اشترط المجلس ألا يؤدي هذا الحفر إلى إحداث خلل بالأبنية القائمة، وأن يسلم الأهالي ما يعثرون عليه من الأثار أثناء الحفر إلى ناظر القسم التابعين له، والذي يقوم بدوره بإرسالها إلى المتحف لحفظها، وأن المخالفين لهذه التعليمات " يصير لهم التأديب والتعزير " كما أكد المجلس على ضرورة نشر هذه القرارات وإعلانها إلى مديرى ومفتشى الأقاليم ونظار المديرىات وأقسامها بقصد إطلاع الأهالي عليها، كما أوصى المجلس بأن يقوم بوغوص بك بمخاطبة ممثلى وقناصل الدول الأوروبية في مصر لى يعمموا ذلك على رعاياهم، ويكفلوا تعاون دولهم في هذا الخصوص.

وإدراكاً من المجلس لأهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه المسئولون عن الموانئ المصرية في الحد من ظاهرة تهريب الأثار، نه المجلس على سرعة إرسال تعليمات إلى أمناء وملمترى جمارك الإسكندرية ودمياط والسويس وبولاق ومصر القديمة والقصير بضرورة التفتيش الدقيق لكافة الأمتعة والمتعلقات لمنع تهريب الأثار، والقيام بمصادرة الأثار القديمة المهربة وإرسالها إلى المتحف، كما أمر المجلس يوسف ضيا بالقيام بجولة تفتيشية مفاجئة على آثار الهنسا والقبوم بالأقاليم الوسطى، وإعداد تقرير عن هذه الجولة تمهيداً لعرضه على المجلس.

وفى ختام قراراته تطرق المجلس إلى قضية تتسم بأهميتها البالغة : فقد لاحظ المجلس أن بلاد السودان تحتوى كذلك على أثار قديمة، ومن ثم فقد رأى المجلس أنه لا بد من تطبيق أحكام

قانون سنة ١٨٣٥ م على السودان كذلك، وأن يتحرر إلى " مدير الممالك السودانية وإلى المأمورين والنظار الذين تحت إدارته بالألا يصير هدم المحلات القديمة، ولا تُغطى رخصة بحفر محل لإخراج الأنتيقة " والحق إن أعضاء المجلس بإدراكهم لأهمية هذه المسألة وكذلك لتصوراتهم السابقة التي وضعوها لضمان تنفيذ أحكام قانون الآثار على أكمل وجه قد أثبتوا أنهم يتمتعون بدرجة عالية من الكفاءة وسداد الرأي وبعد النظر. ولم ينس المجلس أخيراً أن يأمر بتجميع بعض الآثار التي نما علمه ومعرفته وجودها متفرقة في بعض الأماكن، بما فيها تلك كانت بحوزة الحاج محمد هدية تابع القنصل الفرنسي وإرسال تلك الآثار إلى المتحف المصري^(٥١). ثم صدرت خلاصة جديدة من مجلس ديوان خديوى بتاريخ ١٨ رجب ١٢٥١ هـ (٩ نوفمبر ١٨٣٥ م) تعد تأكيداً لما ورد في خلاصة مجلس الأحكام السابقة، حيث نصت على أنه : " من الآن وصاعداً لا يصير إخراج الأصناف الأنتيقة التي هي الصور القديمة من الأحجار وخلافها التي توجد بالأقاليم القبلية إلى بحريرا، ولا يصير إعطاء رخصة إلى أحد بالبحث عن ذلك، وإذا وجد منها شيء في يد أحد تضبط منه وترسل لطرف رقاعه أفندى المأمور لحفظ الأنتيقة لأجل حفظها بالمحل الذى تخصص لها "^(٥٢).

ثم تبعها خلاصة رابعة صدرت من مجلس الأحكام في نفس العام كذلك، وكانت رداً على اقتراح عرضه على المجلس محرم أغا مدير نصف ثانى وجه قبلى، ويقضى هذا الاقتراح بتعيين اثنين من انحراس في كل موقع من المواقع الأثرية في مديريته، وقد حدد محرم أغا في اقتراحه الذى تقدم به إلى المجلس هذه المواقع التى تحتاج إلى تعيين حراسة لها " لأجل المحافظة على الأنتيكات التى بداخل وخارج المحلات المذكورة وضبطها كلياً ومنع إرسالها إلى الخارج " وكان ذلك بعد أن لاحظ محرم أغا أن السانحين لازالوا يقومون - أثناء جولاتهم السياحية - بالتنقيب عن الآثار وبأخذون معهم ما يجدونه منها، واستفسر محرم أغا من المجلس أخيراً عما يجب عمله إزاء السانحين الذين يقومون برسم الآثار المصرية وأخذ أشكالها بالطرق المختلفة سواء بالرسم أو الشف أو البصم، هل يسمح لهم بذلك أم يتوجب عليه منعهم خشية إتلاف الآثار ؟.

وبعد أن بحث المجلس اقتراح محرم أغا وتساؤله أوضح له بأنه قد " صار الإعلان والإشاعة إلى الأوروبيين بمعرفة جناب بوغوص بك بأنه ممنوع إرسال الأنتيكات إلى بلاد آخر، وإذا وُجد أن أحداً خالف ذلك ومتوجه بأنتيقة، لم يُخط له رخصة بتوجهه من طرف المأمورين والمحافظين وأمناء الجمارك وليجرى أخذها للميرى " ونبه المجلس على ضرورة تعاون الدلاء [الأدلاء أو المرشدين السياحيين] وسائر الخدم الذين يصحبون السانحين وقيامهم بأداء واجهم في المحافظة على الآثار المصرية بمراقبة السانحين ومنعهم من التنقيب عن الآثار وسرقتها، ورأى المجلس أنه - بناء على ما تقدم - ليس هناك ما يدعو إلى ترتيب حراسة لمواقع الآثار، ويبدو أن المجلس لم يكن مستعداً بعد لتقبل فكرة تخصيص مبالغ كبيرة للمحافظة على الآثار القديمة

وصيانتها، وأنه كان يرى أن من الواجب أن يتحقق ذلك في الفترة الحالية على الأقل عن طريق سن القوانين والتشريعات الكفيلة بتحقيق هذا الغرض، والالتزام الكامل بتطبيق هذه التشريعات والقوانين، ورداً على استفسار محرم أغا حول السماح للسائحين برسم الآثار فقد أوصاه المجلس بعدم الممانعة في ذلك متى "لم يحصل مضرة في أخذ أشكال الأبنية العتيقة وسائر أنواع الأنتيكة" حيث إن "أخذ الأشكال المذكورة يصير وسيلة لشأن وشهرة مصر نادرة العصر في أوروبا" (٥٤).

بعد الخلاصات السابقة الصادرة من مجلس الأحكام ومجلس ديوان خديوى أخذت الأوامر التي كان يصدرها محمد على تلزم إلى حد كبير بما جاء في تلك الخلاصات، حيث أصبح يُنصُّ فيها صراحة على ضرورة احترام قرارات المجلسين مالم يأتوا بالذکر، كما جاء في أمره الصادر إلى مديرية الجيزة بالسماح للكنصل البريطاني وأحد السائحين الإنجليز: "بفتح أحد الأهرام الواقعة بجوار قرية سقارة ومعاينته بدون أن يأخذ منه شيئاً من الآثار، فيلزم مراعاة منطوق خلاصة المجلس الصادرة في حق الأنتيقات وألا يؤخذ منه شيء" (٥٥) بل إن هذا القيد أصبح مرعباً كذلك أثناء إعطائه تصاريح التنقيب عن الآثار واستكشافها، بل إن محمد على صار يأمر - زيادة في الحيلة والحذر - بإرسال من يرافق صاحب التصريح لمتابعة تنفيذ القوانين، كما جاء في أمره الذي أصدره إلى محافظ دمياط والذي يقضى "بأن حامله المسئول لاف التمس إعطاء أمراً بالتصريح له باستكشاف آثار قديمة بناحية مدينة صان بالقرب من ترعة مويس شرط ألا يستخرج منها شيئاً من موضعه، فيلزم بوصوله إرفاق شخص معه وإرساله للمدينة المذكورة للتجول فيها، والاستكشاف على وجه ما ذُكر" (٥٦) وكذلك أمره إلى مدير القليوبية بخصوص نفس السائح وتمكينه من "معاينة الأراضي الواقعة بجوار قرية أتريب من ظاهرها بدون أن يخرج منها شيئاً من الآثار، وأن يُزفَّق به شخصاً ويرسلهما إلى المكان المذكور" (٥٧).

أصبح محمد على الآن أكثر اهتماماً بموضوع الآثار المصرية من ذي قبل، بل إن زيارة تلك الآثار أخذت تحتل موقفاً ضمن أولوياته أثناء جولاته الميدانية، فهاهو ذا يكتب إلى مدير قنا في ٩ رجب ١٢٥٣ هـ (٩ أكتوبر ١٨٣٧ م): "سبق أن نهيت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة على المباني القديمة الموجودة بدندرة تجاه قنا، وبناء سور بأطرافها والآن سمعت بإخراج أحجار من داخل البناء المذكور وجارى أعمالها جيئاً، ومن الضروري معرفة صحة ذلك وعدمه، فإن كان صحيحاً ينبغي إيضاح الأسباب المبني عليها مخالفة التنبيهات" (٥٨) ويبدو أن حملة الاحتجاجات الضخمة التي قادها عدد من الأوروبيين بشأن معهد دنندرة الذي استخدم كمحجر لبناء مصنع لنسيج القطن قد كان لها أثرها في ذلك، ولكن أمره الصادر إلى مديرية بني سويف في ٢٣ صفر ١٢٥٨ هـ (٥ أبريل ١٨٤٢ م) بأنه سمع بوجود آثار قديمة داخل مغارة بالجبل تجاه قرية سمالوط، ووجود غيرها أيضاً بالجهة المذكورة بكثرة، وجارى هدمها بمعرفة الأهالي بمقولة البحث على

أحجار، وحيث إن التصريح يهدم ما ذكر لأجل لزوم الأحجار قد أوجب اضطرابه، فيقضى التنبيه والتأكيد على من يلزم بمنع المذكورين وعدم تخريب الآثار القديمة المماثلة لذلك بعد الآن^(٥٩) لا نلمح فيه أثراً لهؤلاء الأجانب، بل ربما كانت الرغبة في المحافظة على الآثار وصيانتها هي الدافع الوحيد لمحمد على هذه المرة إلى إصدار مثل هذا الأمر المتشدد.

كان لا بد من من تشريع جديد لمعاقبة أولئك الذين يسيئون إلى الآثار المصرية بالهدم والتخريب، كما حدث لمغارة سمالوط الأثرية هذه، وهو القانون الذي لم يظهر إلا في عام ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م والذي قضى بأن "كل من يحصل منه هدم وتخريب أو إتلاف وتشويه للأبنية العتيقة والتماثيل الموجبة لزينة البلاد وشهرتها، وسائر المنافع العامة، والآثار القديمة والجديدة سواء عُمِلت من طرف الملة والحكومة أو حصل إيجادها بإذن من طرفها فيجوز مجازاته بالحبس من شهر واحد إلى سنتين، وبالتغريم من أربعمائة قرش إلى ألفى قرش لأجل صرفه للاستيالية الملكية"^(٦٠).

ورغم أن مصطلح " الآثار القديمة " الذي ورد في هذا القانون والقوانين والقرارات والأوامر والخلاصات الأخرى السابقة له إنما يعنى كل ما أثر عن المصريين القدماء من ثابت أو منقول إلا أن محمد على قد رأى رأياً غريباً بهذا الخصوص، ويتلخص هذا الرأي في أن المومياءات لا تدخل ضمن الآثار القديمة التي تنطبق عليها أحكام قانون سنة ١٨٣٥ م والقوانين الأخرى المعدلة أو المكملة له مادام لم ينص عليها صراحة في هذه القوانين، وكان محافظ القصير قد كتب إلى المعية السنية في ٥ رجب ١٢٥١ هـ (٢٧ أكتوبر ١٨٣٥ م) يستعلم منها " عما يجب تدبيره إزاء ذلك الناووس [التابوت] الخشبي الذي يشتمل على جيفة (مومياء) من جثث الكفار الأقدمين، والذي حمله أحد جواي الإنجليز... وأنزله في سفينة راسية بميناء القصير ابتغاء نقله بجثته، وذلك لأن القرار الصادر بشأن العاديات لم يرد فيه قول عن جثث الكفرة " فأمر محمد على موظفى ديوانه " بأن يشعروا المحافظ المذكور بأن يتبع قرار المجلس فلا يمانع في أمر هذه الجثث حيث منعها ليس ضرورياً، إذ أن الخلاصة السابق صدورها من المجلس لا تشتمل على ذكر شيء من الجثث المذكورة"^(٦١) وهكذا قام محمد على بتغيير قرارات مجلس الأحكام والمجلس الخديوى وفقاً لميوله وأهوائه، وبما لا يتفق مع حقيقة هذه القرارات، غير أنه لا ينبغي أن يفوتنا أن نشهد هنا بيقظة محافظ القصير وأعدائه من الموظفين، وحرصهم على التطبيق التام والكامل لما تصدره إليهم حكومتهم من قرارات.

ومنذ هذا التاريخ لم تعد المومياءات من الآثار المحظورة نقلها خارج القطر المصرى باعتبار أنها لا تنطبق عليها أحكام قانون سنة ١٨٣٥ م، وأصبحت أوامر محمد على الصادرة في حقها تستند على هذا الأساس، فعند ما طلب منه أحد السانحين الإنجليز السماح له بنقل بعض القطع

الأثرية بالإضافة إلى إحدى المومياوات التي يمتلكها خارج القطر المصري أجاب محمد على بأنه قد " سبق صدور قرار من المجلس بشأن الأنتيقات ولا يجوز الخروج عنه فيلزم عدم معارضة المذكور في نقل المومية فقط دون الأنتيقة لمنطوق القرار المحكى عنه في حق الأنتيقات " (١٦) وأنه " لا يريد فسخ القرار الصادر بخصوص الآثار " (١٧) مع أن طلب هذا السائح كان مشفوعاً بتزكية من القنصل البريطاني، ومن ذلك أيضاً تصريحه لسائح إنجليزي آخر بنقل خمسة صناديق داخلها مومياوات وغيرها " متى لم يكن بها أنتيقة " (١٨) وتصرّحه لطبيب نمساوى : " بأشترائه أربعة من المومياوات وإرسالها إلى بلاد الإفرنج " (١٩) وذلك بناء على طلب من قنصل النمسا العام، وأمره لمدير قنا بالسماح لأحد السائحين " بمروره بالمومياوات التي معه " (٢٠) وهكذا فقدت مصر بسبب هذا الاستثناء الذي أدخله محمد على على قانون سنة ١٨٣٥ م بدون مبرر عدداً كبيراً من المومياوات القديمة خلال أكثر من عقد كامل من السنوات، حيث إن إدراج المومياوات على قائمة الآثار المصرية المتنوع نقلها إلى خارج البلاد لم يحدث قبل سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م حين بدأت الجمارك المصرية في مصادرة المومياوات المهربة " لمخالفة ذلك للأمر الصادر بعدم تصدير الآثار المصرية إلى البلاد الأجنبية " (٢١) والمثير أنه كان هناك تعاون تام بين الجمارك وبين مصلحة الآثار المصرية في هذا الإطار، فقد حدث في شهر ذى القعدة من عام ١٢٦٢ هـ / أكتوبر ١٨٤٦ م أن " حجزت الجمارك صندوقاً شكت أن تكون فيه أنتيكات، فطلبت رفاعة أفندي لمشاهدتها، فذهب وشاهدها وحجزت " (٢٢). ولكن محمد على سرعان ما أثار أن يتجاوز القوانين التي تمنعه من إرضاء نزوات أولئك الذين يسعى للسيطرة عليهم وكسب تأييدهم ومعاونتهم، وضمهم إلى جانبه في صراعاته التي كانت لا تنتهى، ففي نفس العام الذي حظر فيه محمد على تصدير المومياوات إلى الخارج نجده يسمح لقنصل النمسا بإرسال عدد من المومياوات إلى أحد أصدقائه العظماء في الخارج، ويؤكد محمد على أنه " لا بأس من ذلك في هذه الدفعة فقط " (٢٣) ولكنها لم تكن المرة الوحيدة كما وعد محمد على، حيث نجده - في نفس العام كذلك - يصدر أوامره إلى مدير الوجه القبلى بأنه قد صمم على " تقديم اثنتين موميه هديه إلى حضرة ملك الإنكليز، فمقصودى أن ذلك يكون في غاية الاعتناء، فيلزم بمجرد وصوله إلى مصر تدارك الهيكلين، ويكون توابيتهما بدون كسر، وإرسالهما لطرفى سريعاً " (٢٤).

والحق أن استثناءات محمد على فيما يتعلق بالسماح بتصدير الآثار المصرية إلى الخارج كانت متكررة، سواء بالنسبة للمومياوات أو لغيرها من الآثار، ويبدو أن محمد على قد حاول أن يستغل الآثار القديمة كما استغل كل الموارد المتاحة حتى يحقق بها أقصى ما يمكن تحقيقه من نتائج تنصب جميعها في تحقيق مأربه وأطماعه، كما يبدو أنه كان للدواعي السياسية والدبلوماسية أثرها الكبير في منح تلك الاستثناءات التي كانت تعطى في الغالب لأشخاص يتمتعون - هم أو

دولهم التي ينتسبون إليها - بثقل سياسى يؤهلهم للقيام بدور فعال في توجيه دفة السياسة الدولية في ذلك الوقت، مثل قنصل إنجلترا الذي طلب " التصريح له بإرسال الحوضين الحجر من الآثار القديمة التي صار استخراجها من تلول أهرام الجيزة بمصاريف من طرفه لإرسالهما إلى لوندرة، وأنه لمناسبة صفاء المودة الحاصلة بيننا يلزم التصريح له بإرسال الحوضين المذكورين إلى لوندرة بدون معارضة" (٧١) ولعل صفاء المودة الذي يشير إليه محمد على لم يكن إلا القناع الذي يخفى أهمية إنجلترا على الساحة الدولية كدولة عظمى لخدمة مشاريع محمد على الشخصية (٧٢).

ومثلما حصلت إنجلترا على بعض الاستثناءات من قوانين منع تهريب الآثار؛ فقد حصل بابا الفاتيكان كذلك على استثناءات مماثلة تتضمن منحه أربعة مومياءات كاملة (٧٣)، ثم مُنح في مرة أخرى ثمانية أعمدة من المرمر جُلبت له من آثار إسنا، وعندما تعرضت السفن التوسكانية التي كانت تحمل هذه الأعمدة للغرق عند رشيد أمر محمد على بانتشال الأعمدة الغارقة، وترميم سفن البابا التي تعرضت للتلف، وكل ذلك " بمصروفات على جانب الميرى" (٧٤).

كما اتبع ذات الإجراء لدواعٍ دبلوماسية مع الموسيو سيروسون كاتب سر حكمدارية سيلان الذي " اشترى اثنين مومية، وقطعة حجر من الآثار القديمة في أثناء سياحته بجبهات الصعيد، وطلب التصريح له بمرور ذلك من الكمرك، فيلزم عدم المعارضة له فيما ذكر إجابة لالتماسه" (٧٥) كما اتبع كذلك مع جناب بورفاسترى " من العائلات الشهيرة الإنكليزية الذي التمس التوصية بعدم معارضته بالكمارك حال إمرار قطعة الأنتيقة الراغب إيصالها إلى لوندرة... فينبغى إفادة كمارك الإسكندرية ومصر بعدم معارضته حال تفسير الأنتيقة المذكورة" (٧٦) كذلك مُنح قنصل النمسا العام تصريحاً بإرسال خمس عشرة قطعة أثرية إلى بلاده (٧٧).

أدت هذه الاستثناءات التي كان يقدحها محمد على ذات اليمين وذات اليسار إلى عودة الاحتجاجات الأوروبية مرة أخرى منددة بأعمال التخريب واسعة النطاق التي تتعرض لها الآثار المصرية القديمة، وإن كانت هذه الاحتجاجات قد اتخذت في هذه المرة شكلاً فردياً وباهتاً : ذلك أن المتاحف الأوروبية والقنصليات الأجنبية كانت ضالعة في عمليات البحث المحمومة عن الآثار القديمة، وكان مهمها أن يظل قانون سنة ١٨٣٥ م معاملاً باعتباره حلية غير فعالة، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير، ففي سقارة وحدها كانت هناك حفائر موزعة بين عشرة من الأوروبيين كان على رأسهم قنصل النمسا العام، وما من أحد من هؤلاء قد حصل على تصريح بالحفر (٧٨)، ولعل من العجيب أن تأتي أولى هذه الاحتجاجات من جانب القنصل الفرنسى ميمو إبان مغادرته مصر بعد نقله منها عام ١٨٣٩ (٧٩) (١٢٥٥ هـ) على الرغم مما كان معروفاً عنه من أنه كان ضالعا في تجارة الآثار غير المشروعة في ذلك الوقت، بل إن قانون سنة ١٨٣٥ م إنما صدر خصيصاً من أجله كما مر بك سلفاً.

وفي نفس العام انتقد نستور لوت Nestor L'Hote طمع وجشع العرب الذين يحطمون الآثار من أجل الحصول على قطعة صغيرة من النقش، كما هاجم الحكام الأتراك الذين تسببوا في خراب الآثار المصرية خراباً يؤسف له، وأكد لوت أنه حتى المقابر المدفونة تحت الأرض لم تسلم من عمليات النهب من أجل الحصول على بعض القطع الفنية الصغيرة إرضاءً للغرور والجشع والأثنية، كما هاجم لوت ضعف قانون سنة ١٨٣٥ م وعجزه عن توفير الحماية الكافية للآثار المصرية^(٨٠).

وفي نفس العام - كذلك - كتب القنصل البريطاني جون بورنج تقريراً رفعه إلى حكومته عن الحالة العامة في مصر أوضح فيه أن "الاهتمام الذي تلقاه مصر حتى اليوم إنما يرجع في جوهره إلى ما خلفته أقدم العصور من آثار رائعة ما برحت مصر مستودعاً لها، ولما كانت مصر قديمة حتى في نظر القدماء أنفسهم وما تزال إلى وقتنا الحاضر تحوي آثاراً يعتبرها المؤرخون الأوائل أقدم ما بقى من تذكارات الجنس البشري فقد هيأت مجالاً واسعاً للتساؤل واستحياء الخيال. كما قدمت من المواد ما يعرض جهود العلماء في البحث، ويثير طبيعة المولعين بالاستطلاع"^(٨١) وانطلاقاً من هذا الأساس فقد قام بورنج بلفت نظر الحكومة المصرية إلى أن من المرغوب فيه أن تتخذ من الوسائل ما يحول دون هدم الآثار القديمة ويكفل المحافظة عليها واستنكر بورنج بشدة عمليات الهدم والنهب والتخريب التي تعرض لها عدد كبير من الآثار المصرية "بعد أن ظلت رداً طويلاً من الزمن معروضة لكل من يريد استكناه مرها واستطلاع خبرها"^(٨٢)، وقد حمل بورنج مسئولية هذا التخريب للحكومة المصرية وللسائحين الأوروبيين معاً، وأكد في تقريره أنه أوضح لمحمد علي: "أن تلك الآثار من أنفس مقتنيات بلاده"^(٨٣) التي تجب العناية بها، فكان أن كلفه هذا الأخير بوضع مشروع للمحافظة على الآثار المصرية بحالتها الراهنة قام بورنج بإعداده بالفعل وتقديمه لمحمد علي في فترة وجيزة.

طالب بورنج في هذا المشروع الذي أعده بتكليف من محمد علي بإنشاء هيئة تتعهد القديم من الآثار المصرية بحيث تؤلف هذه الهيئة "من أفراد لهم من مركزهم الاجتماعي ومن غيرهم واستنارتهم ما يكفل أداءهم هذه المهمة النبيلة التي وكلت إليهم أداء حسناً" واقترح بورنج أن تتألف هذه اللجنة من محافظ القاهرة، وناظر المعارف، وكبير المهندسين، والقناصل العاملين للدول الأربع العظمى، ومن رئيس الجمعية المصرية وسكرتيرها، ومدير الأشغال العمومية، وناظر مدرسة الفنون والصناعات، على أن يزداد في عدد أعضائها بالقدر الذي تتطلبه الظروف، وبنات بهذه اللجنة مهمة المحافظة على الآثار القديمة الموجودة، والتنقيب والاستكشاف عن آثار أخرى جديدة، واتخاذ الوسائل الكفيلة بالمساعدة على تسهيل إجراء البحوث العلمية المتعلقة بالآثار^(٨٤)، وقد وضع بورنج ميزانية سنوية لهذه اللجنة تتراوح بين أربعمائة وخمسمائة كيس^(٨٥).

وجعل بورنج من اختصاصات اللجنة أن تعين مندوباً فطناً عنها للقيام بجولات سنوية تفقدية للآثار المصرية، وكتابة تقرير يرفعه للجنة عن هذه الجولات يتضمن معلومات عن حالة هذه الآثار ووسائل صيانتها، كذلك أوجب بورنج أن تمنع أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار إلا بإذن خاص من هذه اللجنة، على أن يكون من حقها تعيين مندوبين خاصين عنها لمراقبة عمليات الحفر، وألا يحطم أى أثر من الآثار القديمة أو يهدم أو ينقل من مكانه إلا بعد الحصول على موافقة اللجنة المقترحة^(٨٦).

وأوصى بورنج في نهاية تقريره بضرورة إنشاء متحف وطنى تجمع فيه نفائس الآثار القديمة ويديره شخص براتب سنوى معلوم، كما أوصى ألا يسمح بتصدير العاديات إلا بعد استئذان محمد على مباشرة^(٨٧).

ومما لاشك فيه أن توصيات بورنج هذه لو كانت قد طبقت بدقة وحزم لكانت قد أفلحت في وضع حد للتخريب والإهمال الذى أصاب الآثار المصرية في ذلك الوقت، ومما لا شك فيه كذلك أن جزءاً كبيراً من هذه التوصيات قد تضمنه قانون سنة ١٨٣٥ م السابق على تقرير بورنج، ولكن المشكلة ليست في القانون، وإنما في الالتزام بتطبيق القانون على نحو حازم حاسم لا يترك مدخلاً للاستثناءات وتحكم الأهواء والمصالح، وهو الأمر الذى كان يصعب وجوده في ظل إدارة متذبذبة تجد من أشق الأمور على نفسها أن تلتزم بتطبيق القوانين والتشريعات التى سنتها بنفسها مثل إدارة محمد على. على أن أهم ما يلاحظ على هذا التقرير هو عدم مسارعته بإلقاء مسئولية تخريب الآثار على الشعب المصرى جرباً على عادة غيره من الأوروبيين في ذلك الوقت، وإنما تعامل بورنج مع المسألة بصدق وواقعية حين أدان صراحة السلطة المصرية والسائحين الأوروبيين، أما إن كان ثمة تحفظات على توصيات بورنج فإنها لن تخرج عن ذلك الجزء الذى أوصى فيه باختيار قناصل الدول الأربع العظمى الأوروبية ضمن أعضاء لجنة الآثار العامة التى كان قد اقترح تشكيلها لكى توكل إليها مهمة المحافظة على الآثار المصرية وصيانتها، مع أنه قد ثبت بالفعل أن نشاط هؤلاء القناصل في مجال تجارة الآثار كان من أهم العوامل المؤدية إلى ذلك التخريب المأساوى للآثار المصرية.

واعتماداً على هذا التقرير الذى رفعه بورنج إلى حكومته قامت الحكومة البريطانية خلال سنتى ١٨٣٩، ١٨٤٠ م (١٢٥٥ - ١٢٥٦ هـ) بإعداد بيان عن عمليات التدمير والتخريب التى كانت تلحق بالآثار المصرية رفعته لمحمد على، وناشدت فيه الحكومة المصرية بالعمل بسرعة على معالجة هذا الوضع^(٨٨).

كذلك حاول جورج جليدون - أول كاتب أمريكى عن مصر القديمة - أن يوقظ رأى العام الأثرى؛ فنشر في عام ١٨٤٤ م / ١٢٦٠ هـ رسالة بعنوان "نداء إلى الأثرين الأوروبيين حول تخريب

وتدمير آثار مصر " معّص فيها المسألة بعناية وطلب من الجميع الاهتمام بالآثار المصرية وصونها من الهدم والسرقة، ولكن نداءاته لم تجد أذناً صاغية في ذلك الوقت^(٨٩).

كان نداء جليدون طويلاً ومفصلاً وموثقاً سجل فيه التخريب الذي حل بالآثار المصرية منذ حملة نابليون، ولكنه خص بالذكر دور محمد علي باشا وحكومته في هذا الخصوص، وأشار إلى أن معبد فيلة لم ينقذه من التدمير سوى دوامات الشلال الأول - يقصد صعوبة الوصول إليه - وأبدى عميق أسفه على انتزاع سلالم مقياس النيل لبناء أحد القصور، ثم بين أن طيبة قد تعرضت لعمليات تخريب شاملة حيث استخدم البارود داخل معبد الكرنك، وكانت أية رشوة مهما قل مقدارها كفيّة للحصول من يقدمها على أعمدة من بهو الأساطين، وأن الباب الخشبي لمقبرة سوتى الأول قد استولى عليه الجنود الألبان، وأن ربع معبد دندرة قد استخدمت حجارتها في بناء أحد المصانع عام ١٨٣٥ م^(٩٠).

وفي نفس العام - ١٨٤٤ م - ندد أمريكى آخر يدعى كويل qu'il بالخراب الذي كان يحدثه الأجانب في مصر تحت مسمى " الأبحاث العلمية " ويبدو أنه قد لاحظ هذا النشاط المشبوه الذي كانت تقوم به البعثات الأوروبية الموفدة من الخارج من قبل الملوك والمتاحف الأوروبية إلى مصر بقصد التنقيب عن الآثار المصرية وتهريبها تحت ستار " البعثات العلمية "^(٩١).

ب - عصر عباس الأول :

كانت الأصوات قد علت، وأصبح الرأي العام العالمى مؤيداً لاتخاذ مزيد من الإجراءات لحماية الآثار المصرية، وإذا كانت فترة حكم إبراهيم من القصر [سبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً] بحيث لم تسمح باتخاذ مثل هذه الإجراءات ؛ فإن السنة الأولى من حكم عباس (٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ - ١٣ يوليو ١٨٥٤ م / ٢٧ ذو الحجة ١٢٦٤ - ١٧ شوال ١٢٧٠ هـ) قد شهدت ظهور تشريعين جديدين متعلقين بالمحافظة على الآثار المصرية القديمة وصيانتها، أما التشريع الأول والذي ظهر في عام ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م فقد تمثل في استبدال وتغيير نوع عقوبة من يتسبب في هدم وتخريب أو إتلاف وتشويه الآثار من عقوبتي الغرامة وتقييد الحرية اللتين نص عليهما قانون سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م " بالحبس من شهر واحد إلى سنتين، وبالتفريم من أربع مائة قرش إلى ألفى قرش " إلى العقوبة الجسدية فقد نص القانون الجديد على أنه : " إذا كان أحد الكبار يهدم أبنية عتيقة أو يخرّبها أو يتعرض لها بتعمير أو إتلاف، وكذا ما يماثل مما يستوجب زينة البلاد وشهرتها، وما يستوجب المنافع العامة، وكذا الآثار القديمة والجديدة المعمولة من طرف الحكومة والملة أو بإذن الحكومة ؛ فيؤمر المثلّف المذكور بإعمالها ثانياً بمعرفة المدير، وإن كان الفاعل من الصغار فيجازى بضربه من مائة قرياج إلى خمسمائة "^(٩٢). والنظرة الفاحصة لهذا القانون تدل على أنه قد بنى على أسس خاطئة منذ البداية، فمنذ متى والتشريعات والقوانين العادلة تفرق في أحكامها بين كبير وصغير،

وشريف وحقير، ورفيع ووضع ؟ ولكنها مصر القرن التاسع عشر بغرائها وعجائنها وتناقضاتها التي لا تنتهي، ثم كيف يمكن إعادة الأثر ثانية بعد إتلافه إلى حالته الأولى التي كان عليها من قبل ؟ اللهم إلا إذا كان المشرع يقصد بالآثار التي يتعين على متلفها إعادتها إلى حالتها الأصلية هي تلك " الجديدة المعمولة من طرف الحكومة والملة أو بإذن الحكومة " إذا كان كذلك فلا بأس إذن، غير أنها في هذه الحالة لا ينطبق عليها حد الآثار، ولا تسمى آثاراً كما سماها بذلك هذا القانون الغريب. كانت بدايته مهزوزة - إذن - قانون سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م سالف الذكر، غير أن خلاصة رابعة أخرى صدرت من مجلس الأحكام في نفس العام وتحديداً في ١٧ جماد الآخر (١٠ مايو) قد أزالته إلى حد كبير ما تركه هذا القانون البغيض في الحلق من مرارة، وتبدأ تلك الخلاصة بمقدمة معتادة : " إن الآثار القديمة الموجودة بالأراضي المصرية توجب افتخار وتزيين البلاد، وسبباً للاستكشاف والاطلاع على الأحوال الماضية، ولزوماً لحفظهم ووقايتهم " ثم تطرقت الخلاصة إلى الغرض الأصلي من إصدارها وهو أنه لما كانت الآثار المصرية القديمة تنتشر على مساحة شاسعة من أرض مصر، وتفصل بينها مسافات كبيرة بحيث لا يمكن لمفتش واحد أن يحيط بها جميعاً ويقف على أحوالها بمفرده، ولما كان بعض السائحين من معدومي الضمائر لا يزالون يتقبون بحثاً عن الآثار ويأخذون ما يجدونه منها إلى بلادهم، مع أن نفرأ آخر من هؤلاء السائحين ممن كان هدفهم أكثر نهلاً بحيث لا يتطلعون إلا إلى التمتع بآثار مصر القديمة ومشاهدتها ونسخ النقوش واللوحات التي على جدران المعابد دون الالتفات إلى أي شيء آخر، وهم يتحملون في سبيل ذلك مشقة بالغة، ويحضرون من بلاد بعيدة لهذا الغرض، ولما كان الأهالي مستمرين في تخريبهم للآثار القديمة وهدمها بغية استخدام أحجارها في منشآتهم الخاصة : فقد قرر المجلس " أن محافظة الآثار القديمة لا تكون بتفتيش رجل واحد " بعد الآن، وحسماً لهذه المشكلة فقد قرر المجلس إيفاد مهندسين من ديوان المدارس للطواف بالأقاليم القبلية وضبط وقيد وإحصاء الآثار والأبنية القديمة في قائمة من نسختين ترسل إحداها إلى مجلس الأحكام بينما ترسل الأخرى إلى مدير الأقاليم القبلية الذي يقوم بدوره - بناء على هذا البيان - بإحالة : " حفظ وغفارة الآثار القديمة على عهدة مشايخ القرى الذين بالقرب منها " (٩٣) على أن يرسل مهندس من ديوان المدارس سنوياً إلى الأقاليم القبلية في جولة تفتيشية للتحقق من مدى قيام مديريها ومشايخ قراها بواجبهم في المحافظة على تلك الآثار.

وبناء على هذه الخلاصة الصادرة من مجلس الأحكام قام ديوان المدارس بتكليف اثنين من مهندسيه بعمل إحصاء بالآثار والأبنية القديمة بالوجه القبلي، وتم ذلك تحت إشراف من لبنان بك (٩٤) حيث استغرق عمل هذا الإحصاء ما يزيد على السنة قرر بعدها مجلس الأحكام " أن كل مدير ويلزم النواحي القريبة من الآثار الموجودة بمديريته بحفظ وصيانة الآثار المذكورة ويؤكد

ويشدد عليهم بذلك، وفي كل سنة يصير الاستكشاف عن ذلك بمعرفة المدارس بإرسال مهندس، ومن كون أنه إذا وجد قلق أو نقصان بذلك من نوع ما فالمسئولية عائدة على تلك المديرية^(١٥).

ولا يسمع المرء إلا أن يبدى إعجابه بين الحين والآخر بما كان عليه أعضاء هذا المجلس من حصافة رأي ودقة نظر رغم أن هؤلاء الأعضاء الذين أصدروا هذه الخلاصة لابد وأنهم قد تغيروا - أو تغير بعضهم على الأقل - عن الأعضاء الآخرين الذين أصدروا الخلاصات التي تبعت صدور قانون ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م مما يدل دلالة قاطعة على سلامة المعايير التي كان ينبى عليها اختيار هؤلاء الأعضاء بغض النظر عن طريقة هذا الاختيار.

ويذكر لعباس حرصه على دعم وتأكيد الدور الذي تلعبه الجمارك المصرية في الحد من تهريب الآثار المصرية إلى الخارج، فقد كتب جمرک الإسكندرية إلى معيته السنوية يستفسر منها عما يجب اتباعه إزاء صندوقين مرسلين إلى الخارج من طرف قنصل دولة بروسيا، وكان هذا القنصل قد أخبر موظفي الجمارك بأن الصندوقين يحتويان على كتب وأشياء أخرى تخص علم الطبيعة، وطلب عدم فتحهم وتفتيشهم بالجمرك، وكان أمين الجمرك قد أوضح لمعية عباس: "أن الأصول إجراء الكشف خصوصاً في مثل هذا لئلا يكون به أشياء من الممنوع توجيهها بحرياً مثل مومية وأنتيكة" وأنه يستعلم عما يجب فعله تجاه الصندوقين من ناحية تفتيشهما من عدمه، فما كان جواب عباس إلا أن قال: "مادام الأصول الجارية، والعادة بالجمارك هو إجراء الكشف على مثل هذا وخلافه فكالسابق إجراه، والجاري بالجمارك يكون الإجراء كالأصول"^(١٦).

ويذكر له كذلك إدراكه لأهمية السياحة كأحد أفضل وسائل الدعاية لمصر في الخارج، وحرصه على اتخاذ الخطوات التي تساعد على تحقيق هذه الغاية، يقول في أمر فريد له إلى سليم بك حمدي - قائد أحد ألوية الجيش المصري - إنه: "بالنسبة لجسمامة بندر السيويس واتساعه يوماً فيوماً، وبالنسبة أيضاً لمرور السياح الإفرنج عليه وخصوصاً الإنجليز، فلهذا السبب صار من المحتم وجود أحد النوات من الملمين باللغة بهذا البندر لمقابلة السياح الأجانب والترحيب بهم وتحيتهم بما يليق بهم أثناء مرورهم على تلك المدينة، وبالنسبة لمعرفتكم اللغة ولما هو مشهود فيكم من حسن الإدارة، وهمتكم في إنفاذ كل ما عهد إليكم فقد عيناكم محافظاً للبندر المذكور"^(١٧).

ومع ذلك فقد كان عباس - كجده - كريماً وجواداً مع الأوروبيين عندما يتعلق الأمر بالآثار القديمة رغم كل ما يقال عن توتر العلاقات بينه وبين الأوروبيين وسوء ظنه بهم، حيث نجده يقوم بالإنعام على قنصل النمسا بمصر بسبع عشرة قطعة أثرية قام القنصل بنقل أربع عشرة منها، ويبدو أن القنصل المذكور أراد استبدال القطع الثلاث الباقية المسموح له بنقلها بثلاث قطع أخرى أكثر أهمية كعادتهم في مثل ذلك، وهو الأمر الذي رفضه المسئولون عن جمرک الإسكندرية

على اعتبار أن القطع الأثرية الثلاثة التي يريد القنصل إخراجها من مصر ليست هي نفس القطع المسموح له بإخراجها مما جعل قنصل النمسا يستجد ثانية بعباس ويرجوه السماح بإخراج القطع الباقية، فأصدر عباس أوامره إلى الجمرک المذكور بأنه : " إذا كانت القطع الثلاث المطلوب إخراجها هي من ضمن السبع عشرة قطعة التي صدر أمره بإخراجها... فأمرعوا بتنفيذ إرادتنا" (٩٨) وبطبيعة الحال فإن القنصل الإنجليزي ليس بأقل من قنصل النمسا، ومن ثم فإننا نجد عباس يسمح له - بناء على التماسه - بنقل موميائتين مصريتين باسم أحد السائحين الإنجليزي الأثرياء (٩٩).

أما فرنسا فنصيبها دائماً الأكبر، على الأقل بحكم العلاقات التاريخية بين جده محمد علي وبين الفرنسيين، ومن ثم فإننا نجد عباس يسبق عليها بسخاء خمسمائة وخمسة عشرة قطعة من الآثار المصرية (١٠٠)، ولا ينسى عباس في غمرة ثوبات الكرم الأثرى التي كانت تنتابه أحياناً قنصل بروسيا فيسمح له " بنقل عمود أثرى من الجرانيت منقوش عليه كتابات هيروغليفية " (١٠١) ومما لا شك فيه أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على إحدى المسلات، كما نجده يتوعد مرة أخرى إلى قنصل النمسا فيأمر جمرک الإسكندرية " بعدم التعرض لقطعة الأنتيكة المرسله من جانب قنصل النمسا بمصر" (١٠٢) وعلى الرغم من كل ذلك يقوم عباس بالتشديد على المسؤولين في مديرية قنا وإسنا بضرورة العمل على " إزالة الموانع في ضبط الأنتيكاات وتوريدها لجانب الميرى" (١٠٣).

أما عن تصاريح الحفر والتنقيب التي أصدرها عباس فقد كانت قليلة جداً، بل تكاد تكون معدومة، حيث لم نثر له إلا على تصريح واحد فقط كان عباس قد منحه لأحد الأمراء الألمان في ١١ جمادى الأولى ١٢٦٩ هـ (٢٠ فبراير ١٨٥٣ م) وكان هذا الأمير قد قدم مصر خصيصاً لأجل البحث عن الآثار كما يدعى، ولكنه لم يستفد من التصريح، فقد مرض هذا الأمير مرضاً اضطر معه إلى العودة إلى بلده بدون أن يظفر بأمنيته في البحث عن الآثار القديمة، وبعد سنوات عاد هذا الأمير مرة أخرى إلى مصر بعد شفائه من مرضه، وكان ذلك في سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٥ - ١٨٥٦ م) على عهد سعيد، وأراد أن يسمح له بالحفر والتنقيب عن الآثار اعتماداً على التصريح الذي سبق أن مُنحه أيام عباس، أو حتى السماح له بتجديد هذا التصريح على نحو يمكنه من البحث عن الآثار المصرية كمرغويه، ويستفاد من التصريح الذي أعطاه له عباس أنه كان مشروطاً " بإبقاء الآثار الكبيرة في نفس المكان الذي يعثر عليه فيها ونقل الآثار الصغيرة إلى ديوان المدارس بمعرفة مأمور الآثار " (١٠٤) كما يفهم منه كذلك أن المناطق التي صُرح له بالبحث فيها هي سقارة وعين شمس وإدفو والأقصر، وهي - كما ترى - مناطق متباعدة، وتفصل بينها مسافات كبيرة مما يدل على أن هذا الأمير الألماني كان لا ينوى التنقيب عن الآثار القديمة لمجرد الرغبة في

العلم والمعرفة، إذ لو كان ذلك هو مقصده لكان قد قصر حفائره على منطقة واحدة يقضى فيها فترة طويلة تمكنه من إجراء حفائره على أساس على منظم، وأكبر الظن أنه كان كإخوانه من بنى جلدته الأوربيين لا ينوى سوى القيام بحفائره سريعة على نطاق واسع يتيح له جمع أكبر قدر ممكن من الآثار المصرية القديمة دون توجيه أدنى اهتمام للدراسة أو التسجيل، مع أن الشروط الواردة في تصريح الحفر الممنوح له لا تمكنه من الحصول على أى من الآثار الكبيرة أو الصغيرة حيث يتحتم عليه ترك الأولى في مكانها ونقل الأخرى إلى المتحف المصرى، ولكن كان لهؤلاء الأوربيين أساليبهم وحيلهم الملتوية للتخلص من مثل هذه الشروط، وقد ألحنا إلى بعض منها قبل ذلك.

عصر سعيد :

وامسئله سعيد (١٣ يوليو ١٨٥٤ - ١٨ يناير ١٨٦٣ م / ١٧ شوال ١٢٧٠ - ٢٧ رجب ١٢٧٩ هـ) حكمه - كعباس - بمن قانون جديد للعقوبات ظهر في عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ - ١٨٥٥ م) وينص على أنه : " إذا تعرض شخص بهدم أو تخريب أو إتلاف لشيء من الآثار القديمة والجديدة أو من التماثيل الموجبة للمنافع العامة أو المستوجبة لزينة المملكة وشهرتها أو من سائر الأبنية العتيقة ؛ فإن كان ذلك الشخص من الأكابر لزم عمل ذلك الشيء الذى أظفاه بمعرفته مع اطلاع المدير، وإن كان من الأصاغر لزم بمقتضى النظام ضربه من خمسين جلدة إلى مائة وخمسين" (١٠٥).

وينبى هذا التشريع الجديد على نفس الأسس التى بنى عليها قانون عباس الصادر سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) والى سبق لنا انتقاده بسببها مما يغنى عن إعادتها هنا، وواضح أن هذا القانون إنما هو صورة طبق الأصل من المادة الثانية من الفصل الخامس من قانون نامه السلطانى (١٠٦) الذى كان سارياً فى الدولة العثمانية ذاتها، وأن المشرعين المصريين قد أخذوا هذا القانون بنصه من القانون السلطانى وأرادوا تطبيقه فى مصر غير ناظرين إلى الطفرة التشريعية التى تحققت فى مصر فى مجال التشريعات المتعلقة بالآثار قبل صدور هذا القانون، بحيث بدأ قانون سعيد الصادر سنة ١٢٧١ هـ وكأنه نكوص وارتداد لا مبرر له عن الذى تحقق فى قانون سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) فبينما كانت العقوبة فى هذا القانون الأخير من مائة جلدة إلى خمسمائة، أصبحت فى القانون الجديد من خمسين إلى مائة وخمسين جلدة دون سبب يدعو إلى هذا التخفيف، إذ لم يكن نشاط الأهالى فى السطو على الأبنية الأثرية القديمة وإتلافها من أجل البحث عن الآثار قد توقف بعد، كذلك كانت تجارة الآثار المسروقة لا تزال تجد سوقاً رائجة فى مصر، وما هو ذا سعيد نفسه يأمر موظفيه : " بالتنبيه على الأهالى بعدم سرقة الآثار من أماكنها وتحريم بيعها فى أسواق المحروسة" (١٠٧) ثم يؤكد عليهم مرة أخرى : " باتخاذ الشدة والعنف مع الأهالى حيث إنهم مازالوا يسرقون الآثار من أماكنها" (١٠٨).

ومما لا شك فيه أن الحكومة المصرية قد أخطأت بمحاولتها تطبيق قوانين الدولة العثمانية في مصر لأنها لم تراعى ظروف تطبيق القانون على أرض الواقع، إذ من المعلوم أن الدولة العثمانية ليست كمصر في غزارة الآثار القديمة على أرضها، وازدهار تجارة الآثار غير المشروعة بها، وكثرة تعدى الأهالي على أبنيتها ومنشآتها القديمة وهو الأمر الذى يستلزم مزيداً من التشدد فى العقوبة وليس تخفيفها، بحيث إذا كان يمكن قبول الظروف المخففة للعقوبة فى الدولة العثمانية فلا يمكن قبولها فى مصر مادامت الجرائم والعلات التى وضع القانون لمواجهة ومجابهتها لم تختف بعد من على أرض الواقع، بل لاتزال موجودة بل وأخذت فى الازدياد، بحيث يبدو تشديد عقوبة هذه المخالفات أدعى من تخفيفها، ونحن حين ننتقل إلى التطبيق العملى لهذا القانون الجديد على عهد سعيد نجد أنه قد تشدد أحياناً فى معاقبة المتلفين للآثار المصرية تشدداً فاق به العقوبة الواردة فى هذا القانون بل والواردة فى قانون سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) بمراحل كثيرة، حيث نجده يأمر مدير الجيزة: " بأن يصير تحقيق تهمة سرقة سيد أحمد الحمزاوى عمدة سقارة مقداراً من الأحجار الأثرية وبنائه بها حائطاً فى منزله، فإذا تحقق ذلك يهدم الحائط وتؤخذ الأحجار ويؤخذ منه مبلغ خمسة عشر ألف قرش جزاء له " (١٠٩) وهكذا رجعنا مرة أخرى إلى عقوبة الغرامة، مما يدل على أننا فى بلد لا يابه كثيراً بتطبيق القوانين التى يشرعها، سواء تلك التى تفنن مشرعوه فى وضعها مطابقة وملائمة لأحوال وظروف بلادهم، أو حتى تلك التى أحضرها جاهزة من الخارج.

أما عن تصاريح الحفر والتنقيب التى أصدرها سعيد فإنه يمكن تقسيم مدة حكمه باعتبار هذه الناحية إلى مرحلتين متميزتين : المرحلة الأولى : هى التى سبقت تعيين مارت مديراً لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى فى يونيو من عام ١٨٥٨ م (نو القعدة ١٢٧٤ هـ) وتفعيل دور المصلحة والمتحف فى خدمة قضية الآثار المصرية القديمة، والمرحلة الثانية : وهى التى أعقبت ذلك الحدث وحتى نهاية حكم سعيد.

أما المرحلة الأولى فقد اتسمت بالتساهل التام فى إعطاء تلك التصاريح، حيث كانت تمنح حتى لوكلاء القناصل الأوروبيين من المصريين وغيرهم مثل تصريحه لعريان بن حنا الطويل وكيل قنصل النمسا " بالبحث والتنقيب عن الآثار القديمة بعد إثبات تبعيته للدولة المذكورة " (١١٠) كما كانت تلك التصاريح تصدر مطلقة بدون شروط ولا تقيد بفترة زمنية معينة (١١١)، كما كانت تشمل مناطق متعددة مثل تصريحه لقنصل بروسيا " بإجراء الحفريات فى جهات إدفو والكرنك وجرنه [القرنه] وخرابة مدفونة [العرابه المدفونه] فى الوجه القبلى للبحث عن الآثار القديمة واستخراجها " (١١٢) بل وربما شملت كذلك مناطق سودانية، مثل تصريحه لوكيل قنصل النمسا بالخرطوم " بالتنقيب فى جهات النوبة والسودان لكشف الآثار القديمة " (١١٣)، بل وكانت هناك إمكانية لتنازل صاحب التصريح عن تصريحه لأى شخص يختاره، أو حتى توريثه بعد وفاته.

مثلما طالب القنصل الأمريكي بأن يسمح له بما كان يسمح لأحد رعاياه المتوفين من " الحفر في أراضي الصعيد بقصد البحث عن آثار قديمة" (١١٤) غير أنه ينبغي الإشارة إلى أن الجمارك المصرية كانت في تلك الفترة لا تزال تواصل عملها بدقة في ضبط الآثار المهربة وعرض أمرها على المسؤولين لاتخاذ ما يروونه بشأنها (١١٥).

أما المرحلة الثانية التي أعقبت تعيين ماريث مديراً لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري، وتحويله سلطات واسعة لتنظيم أعمال هاتين المؤسساتين على نحو ملائم، فقد شهدت تلك المرحلة انضباطاً تاماً في عمليات إعطاء تصاريح التنقيب بعد أن قرر ماريث وضع مسألة منح التصاريح تحت إدارته المباشرة ومراقبته الشخصية، فكان أن طلب من سعيد بعد تعيينه في وظيفته أن يصدر أمراً: " بإلغاء عمليات البحث والتنقيب عن الآثار القديمة بالجهات" (١١٦) تمهيداً لتنظيم هذه العمليات تنظيماً دقيقاً، وبعد هذا الأمر أصبح الحصول على موافقة ماريث شرطاً أساسياً لمنح تصاريح الحفر والتنقيب عن الآثار (١١٧) حيث باتت الأولوية الكاملة للحفائر الرسمية التي تجريها الحكومة المصرية على غيرها من الحفائر الخاصة، وبات من المحظور تماماً منح التصاريح للتنقيبات الأثرية الخاصة في الأماكن التي تجري فيها حفائر حكومية (١١٨)، وأكثر من ذلك أن تصاريح الحفر الخاصة لم تعد مطلقة كما كانت من قبل ذلك، فالتصريح الذي أعطى لقنصل دولة روسيا بالإسكندرية قد حُدِّد " بمدة سنتين فقط بحيث بعد مضي هذه المدة يَطل عمل هذه الرخصة" (١١٩)، كذلك قيد التصريح الذي أعطى لقنصل اليونان " بشرط عدم التنقيب بأراضي المزارع" (١٢٠) حقاً إنه قيد قديم، ولكنه كان مختلفاً من تصاريح الحفر التي كانت تعطى قبل ذلك.

كما نشطت الأجهزة المعنية بمتابعة وضبط المنقبين عن الآثار بدون تصريح (١٢١)، وأصدر سعيد إرادة سنية تقضى بضرورة اتخاذ كافة الضوابط والاجراءات التي تؤدي إلى: " عدم تمكين الغير من الاستفادة من تراخيص الحفر فيما لو تنازل عنها أصحابها للغير كمضمون الإرادة الصادرة في هذا الخصوص" (١٢٢).

كذلك حظيت المناطق السياحية الأثرية بعناية واهتمام سعيد - وقد كان ذلك بتوجيه من ماريث بطبيعة الحال - حيث نجده مثلاً يأمر المسؤولين بمحافظة الإسكندرية: " بنقل المهمات والأخشاب الموضوعة أمام المسلة نظراً لأنها من الآثار القديمة، ومنعاً من مضايقة زوارها" (١٢٣).

وفي عهد سعيد اعتبر العمل في أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار من الأشغال العامة التي يجوز قانوناً جمع الناس لها بطريق السخرة (١٢٤)، وقد كان ذلك في إطار الامتيازات المتعددة والصلاحيات واسعة النطاق التي حصل عليها ماريث عند تعيينه، ولكن الأهالي لم يكونوا مؤهلين بعد فكرياً وثقافياً للقيام بمثل هذه الأعمال، ومن ثم فقد كثُر هروبهم من مواقع العمل، وهو

الأمر الذي اضطر معه سعيد إلى إصدار أوامره إلى مدير الجيزة " بالبحث عن الأنفار الهارين من أشغال الآثار وردهم ثانياً إلى عملهم " (١٢٥) هذا على الرغم من أن العمل في الحفائر الأثرية كان أخف وطأة على الأهالي من العمل في أشغال أخرى مرهقة مثل أعمال التطهير وأشغال حفظ النيل وشق الترع والقنوات وبناء القناطر ومد الجسور وغيرها، ولكن الأهالي كانوا يعلمون جيداً أن هذا النوع الأخير من الأعمال رغم مشقتها وصعوبتها إلا إنها تعود عليهم بالنفع المباشر بحيث يسهم ذلك في تحسين أحوالهم الاقتصادية، وذلك بخلاف العمل في الحفائر الأثرية الذي لا بد وأن الأهالي كانوا ينظرون إليه باعتباره مضبحة للوقت والجهد.

عصر إسماعيل:

واختار إسماعيل أن يبدأ فترة حكمه (٢٧ رجب ١٢٧٩ - ٦ رجب ١٢٩٦ / ١٨ يناير ١٨٦٣ - ٢٦ يونيو ١٨٧٩ م) من الناحية الأثرية بالقيام بمراجعة شاملة لكافة تصاريح الحفر والتنقيب التي صدرت في عهد سابقيه من الحكام، حيث أصدر إسماعيل في ٢٠ ذو القعدة ١٢٧٩ هـ / ٢١ أبريل ١٨٦٣ م عدة أوامر وقرارات تتعلق بقضية الآثار المصرية، وقد كانت هذه الأوامر على جانب كبير من الأهمية، وقد وجه الأمر الأول منها إلى مفتشى أقاليم الوجه القبلى وجاء فيه: " حيث إن أهالي بلاد الأقصر والكرنك والقورنة ميالون للتحرى والعثور على الآثار القديمة ولاستخدام حجارة الآثار في بناء منازلهم وسائر الأبنية فبناء عليه يجب منعهم فيما بعد، وبذل الدقة والعناية لعدم حصول شيء من هذا القبيل، وحيث أعطي في عهد أسلافنا لهذا وذاك رخص شاملة للتنقيب عن الآثار، فبناء عليه يجب أن تبلغوا المديرين مع التأكيد من طرفكم أنه إذا طلب أحد من هؤلاء الأشخاص التنقيب والتحرى عن آثار بموجب الرخصة الموجودة في يده يجب أن يكلفوا بالانتظار، وأن تؤخذ صورة الأمر الشامل على الرخصة حرفياً، وترسل إلى طرفنا لنبدى رأينا في هذا الباب، وقد حررنا أمرنا هذا وأرسلناه إليكم " ويبدو أن إسماعيل قد استشعر في قرارة نفسه ما سوف يثيره هذا القرار من غضب واحتجاجات المنقبين وتجار الآثار الذين كانوا يعتمدون على هذه التجارة في تحقيق أرباح طائلة؛ حيث نجده يعقب على هذا القرار بحاشية تنص على أنه " تجب الدقة والعناية بدرجة بالغة في أثناء هذه الإجراءات لئلا تحصل مشاكل وعقبات " (١٢٦).

ويوضح إسماعيل للكافة سياسته التي سوف يسير عليها في معالجته لقضية نهب وإتلاف الآثار المصرية القديمة، وأنه لن يسمح لأحد بالإساءة لهذه الآثار: " بما أن الآثار الموجودة في القطر المصري تساعد على تنوير تاريخ البلاد العام وتخليد ذكرها، بحيث إن رغبتنا العمل على أن تكون جميع هذه الآثار محفوظة في عهدنا، فإن من مقتضى إرادتنا أن تكتبوا بدوركم إلى المديرين وتنهوا عنهم تنبيهات مؤكدة لمنع أى شخص منعاً باتاً من تحطيم هذه الآثار أو أخذ أحجار منها، سواء لاستعمالها في منشآتهم الخاصة، أم في المباني الأميرية، ولترتيب الغفراء اللازمين بالأجرة في

حالة طلب مصلحة الآثار ذلك^(١٢٧)، كذلك يشدد إسماعيل على ضرورة مراقبة الأهالي ومنعهم من التصرف في القطع الأثرية التي يعثرون عليها بطريق المصادفة " ووجوب إبلاغ مصلحة الآثار عن كل ما يعثر عليه من بعد الآن للنظر فيما يستلزمه الأمر، على أن يترك الأثر في مكانه إن كان ضخماً، أو يرسل إلى المصلحة في بولاق إن كان صغيراً^(١٢٨)، ثم يؤكد مرة أخرى على رغبته في المحافظة على الآثار المصرية التي " هي الواسطة لنوام السيرة والتاريخ " ومن ثم فإنه " يجب منع الأشخاص من التجارى^(١٢٩) على الأنتيكات، وإرسال التي يعثر عليها من ذلك إلى دار الآثار " كما يؤكد عزمه على القيام بما نواه سابقاً من إعادة النظر في تراخيص الحفر الممنوحة قبل عهده، حيث يأمر موظفيه : " بإرسال ما يكون موجوداً من الرخص بيد البعض لاستخراج الأنتيكات لأجل إصدار التعليمات اللازمة بشأنها فيما بعد^(١٣٠).

على أن قرارات إسماعيل العديدة هذه لم تفلح في وضع حد لموجة نهب وتخريب الآثار المصرية التي كانت تجتاح مصر في القرن التاسع عشر بقوة عاتية، وقد لخص المستشرق الفرنسي أرنيست رينان Ernest Renan الوضع في سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) بقوله : " أخذ متعهدو تزويد المتاحف بالآثار يجتاحون البلاد كالواندال للحصول على بقية رأس أو قطعة من نقش، وعمد البعض إلى فك الآثار الثمينة إلى أجزاء صغيرة، وكان هؤلاء المخربون الجشعون الذين كانوا يحصلون بصفة دائمة تقريباً على تأييد قناصلهم يعاملون مصر كما لو كانت ملكيتهم الخاصة^(١٣١) " وأمام هذا الوضع المأساوي والغريب اضطر إسماعيل - بناء على طلب من ماريت - إلى تعيين ضباط لحراسة الآثار الموجودة في بعض الجهات التي كانت تتعرض للخراب والتدمير أكثر من غيرها مثل القرنة وجزيرة فيلة التي قام سكانها بهدم حائط من معبدها الشهير لاستخدام أحجاره في منشآت خاصة، بل إن إسماعيل أصدر أمراً " بالتنبيه على أهالي قرنة بعدم سكنتهم في المغارات الموجودة بها آثار توجد عليها كتابة أو نقش، ونقلهم إلى جهات أخرى^(١٣٢)، وذلك بعد أن نما إلى علمه ما كان يحدثه هؤلاء السكان المتطفلون من آثار سينة في المقابر الأثرية التي يتخذونها مسكناً ومأوى لهم، كما أمر إسماعيل باتخاذ الإجراءات اللازمة للمحافظة على المواقع الأثرية الكبيرة منعاً من إتلافها بواسطة الأمالي مثل صا الحجر وغيرها من المدن ذات الآثار القديمة^(١٣٣) كما أصدر في ٩ ربيع الثاني من سنة ١٢٨٨ هـ (٢٨ يونيو ١٨٧١ م) أوامر عالية إلى جميع مديري عموم الوجهين : القبلى، والبحرى، وإلى مديري مديريات الدقهلية والمنوفية والغربية والشرقية والبحيرة والقليوبية والجيزة وأطفيح والفيوم وبني سويف وأسيوط وقنا يؤكد عليهم بضرورة إرسال القطع الأثرية التي يعثر عليها الأهالي، والتي توجد في الحفائر والتلول والكيمان في المديريات المختلفة إلى المتحف المصرى^(١٣٤).

كما اهتم إسماعيل بإصلاح المزارات السياحية الشهيرة، وتحسين أوضاعها بكيفية تجعلها مهيأة لاستقبال أفواج السائحين، فأصدر إلى ماريث بك أمراً " بتصليح المقبرة الموجودة بسقارة المعدة لزيارة السياح " (١٣٥) كما حاول إسماعيل وضع حلول جذرية لمسألة تهريب الأهالي من العمل في الحفائر الأثرية التي يقوم بها ماريث عن طريق " النظر في تغييرهم شهراً " (١٣٦).

وتشير الوثائق الخاصة بعصر إسماعيل إلى وجود تشريع يشترط في الأراضي الحكومية المباعية من طرف الحكومة إلى الأفراد ألا تكون تلك الأراضي " من الكيمان الكفري الممنوع بيعها " (١٣٧) وقد كان العالم الأثري محمود باشا الفلكي - رحمه الله - أول من لفت الأنظار إلى مسألة وجوب امتناع الحكومة عن القيام ببيع الأراضي الأثرية، فقد لاحظ - رحمه الله - عندما كان يقوم بحفائره في مدينة الإسكندرية تمهيداً لوضع خريطة عن مدينة الإسكندرية القديمة أن كثيراً من الأماكن التي بدا له أن يقوم بالحفر فيها قد أصبحت ممتلكات خاصة، وأنه لم يستطع في بعض الأحيان أن يتابع بحوثه إلا بعد القيام بإجراءات عديدة (١٣٨).

وتشير وثائق عصر إسماعيل كذلك إلى أن الحكومة كانت تشترط حصول الدولة على كافة الآثار المصرية المكتشفة بطريق المصادفة أثناء القيام بتنفيذ المشروعات القومية الكبيرة مثل حفر الترع وشق القنوات ومد خطوط السكك الحديدية وما إلى ذلك، فقد تضمن عقد الحكومة مع المقاتلين الأوروبيين المكلفين بحفر ترعة الإسماعيلية بنداً ينص على أن : " كل ما صار وجوده واستخراجه من الأصناف ذات القيمة أو المواد والأصناف الصناعية مهما كانت قيمته فإنه يكون من تعلقات الحكومة، وعلى المقاتل تسليمه إلى المأمور المنتدب من طرف الديوان " (١٣٩) واعتبرت الحكومة أن الآثار القديمة تأتي على رأس قائمة المكتشفات ذات القيمة التي تعد ملكاً للحكومة المصرية، وأن من حقها مصادرتها والاستيلاء عليها، وقد تمسكت الحكومة بتنفيذ هذا البند من العقد خلال جميع مراحل تنفيذ المشروع المذكور.

على أن السياسة الحازمة التي اتبعها إسماعيل في سبيل الحفاظ على الآثار المصرية القديمة وصيانتها لم تلبث أن اصطدمت بنظام الاستثناءات الذي سار عليه أسلافه من قبل، حيث لم يجد إسماعيل مفرأ من الامتنان بسنة أجداده في هذا الإطار، فنجدته يسمح لمدير الإسطبلات الخديوية الموسو سنموريس باقتلاع عامودين من الآثار المصرية القديمة من رشيد وإحضارهما إلى مصر واستعماله لهما في تشييد منزله، ولعل إسماعيل قد شعر بالتناقض بين ما ينطوي عليه هذا الإذن من تفاض ومسامحة وبين أوامره المشددة السابقة بخصوص صون الآثار المصرية وعدم إتلافها، ولكنه مع ذلك يعجز عن إيجاد تبرير مقنع لدفع هذا التناقض، فلا يجد أمامه مفرأ سوى الاعتراف بسياسة الاستثناء : " إنه وإن كان مسبوق ممنوعة إخراج شيء من مخلفات أماكن جهة رشيد بمقتضى الأمر العالي الصادر قبلاً : لكن الآن تعلقت الإرادة السنية بإجابة

التماس المومى إليه والتسليم في إحضار العامودين لوضعهم بمثله بحيث يكون هذا بنوع الاستثناء في حقه" (١٤٠). كذلك نجده يسمح لأحد الأشخاص بإخراج خمسة صناديق تحتوى على جماجم رموس بشرية وأشياء أخرى من بقايا المومياوات المصرية القديمة (١٤١). كما ينعم على قنصل النمسا والمجر بأربعة من الأعمدة الأثرية المنحوتة من الجرانيت لى توضع في متحف مدينة فينا بالنمسا (١٤٢).

ومن ناحيتهم لم يكف الأجانب عن التفتن في ابتكار الأساليب والحيل التى يستطيعون بواسطتها تهريب ما يشاءون من آثار مصر إلى بلادهم في غفلة من أعين رجال مصلحة الآثار المصرية. وكان يعاونهم في ذلك موظفون إما مرتشون ومعنومو الضمير وأما غافلون عن أداء أعمالهم بيقظة ودقة، وأما جاهلون لا يقدرّون الآثار المصرية القديمة حق قدرها، وأقل ما يمكن أن توصف به تلك الأساليب والحيل بأنها خادعة ودنيئة، وقد ضرب لنا إلياس الأيوبي (١٤٣) مثلاً صارخاً لهذه الألعاب القذرة عندما قام أحد الفرنسيين بشراء مومياء كاملة

بتابوتها من أحد المصريين العاملين في تجارة الآثار بالأقصر بمبلغ عشرين ألف فرنك، وكان أن نما خبر هذه الصفقة المشهورة إلى علم رجال مصلحة الآثار في مصر، فأصدر ماريت أوامره إلى المسئولين في مديرية قنا بسرعة ضبط المومياء مع تابوتها وإرسالها إلى المتحف المصرى مع إعادة العشرين ألف فرنك التى دفعها الأجنبى له، وقد تظاهر هذا الرجل بالامتنال، ولكنه عمد سراً إلى صنع له تابوتاً خشبياً مماثلاً لتابوت المومياء ووضع فيه جذع شجرة وأحكم إغلاقه ثم سلمه إلى المسئولين على أنه هو التابوت المنشود، ولما كان هؤلاء المسئولون على قدر كبير من الجهل والغفلة فقد انطلت عليهم الحيلة، وكان الرجل الفرنسى قد طلب منهم ألا يقوموا بإرسال التابوت المزيف إلى القاهرة إلا في صحبته لأن في نيته أن يبذل محاولاته لدى الحكومة المصرية عساه أن يتمكن من نيل تصريح منها بتصدير التابوت إلى فرنسا فوعده بذلك، أما هو فقد قام بنقل التابوت الأصلي بموميائه سراً إلى القصر عن طريق البر ومنها إلى السويس عن طريق البحر ثم إلى بورسعيد ومنها إلى فرنسا، ولما تأكد من أن غنيمة قد وصلت سالمة إلى فرنسا سافر من الأقصر ومعه التابوت المزيف، وما إن وقعت عليه عينا ماريت حتى أدرك في الحال أنه وقع ضحية لعبة حقيرة، ولما كان يدرك جيداً أنه في بلاد يتمتع فيها الأجانب بوضعية خاصة، وأن أية إجراءات عقابية ستتخذ في هذا الشأن سوف لا تنفذ ولن تؤدي إلى نتيجة بل وستزيد الأمور تعقيداً فقد أثر الصمت والتسليم بالأمر الواقع. ويلاحظ أن إسماعيل قد تسامح في مسألة امتلاك الأجانب لبعض القطع الأثرية المصرية كالمومياوات وغيرها مادامت هذه القطع "غير مزعم تسفيرها خارج القطر المصرى" (١٤٤) كذلك توسع إسماعيل في منح تصاريح الحفر والتنقيب لمن كانوا يرغبون في البحث عن الآثار في مناطق تقع خارج الحدود المصرية، ولكنها تخضع من الناحية الإدارية لسيطرة

الحكومة المصرية، كما في الأمر الذى أصدره لمحمد باشا مدير جزيرة طاشيوز والذى يتضمن " إجراء التسهيلات اللازمة في إنهاء مأمورية المسيو بلير... المنتدب من طرف إمبراطور فرنسا للبحث عن الأنتيكات بالجزيرة... وأن يوافق المدير على الحفريات التى يقوم بها الخواجة المذكور بالمحلات التى يريدتها وبأن لا يعارضه في أخذ الأنتيكات التى يستخرجها مع مداركة الأنفار الشغالة له والقيام بالمساعدات اللازمة" (١٤٥).

ومن ناحية أخرى فقد حاولت الإدارة المصرية في عهد إسماعيل أن تجد حلاً لمشكلة أخذ السباخ على نحو يسمح بتمكين الأهالي من الحصول على اللازم منه لزراعتهم، ويحفظ للحكومة حقها في الاستحواذ على الآثار المكتشفة في السباخ، فقضت في عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) بعدم منع الأهالي من أخذ السباخ من المكان الذى يريدون أخذه منه، وأن يصرح لهم بذلك ولكن بعد أن ينبه عليهم بأنه: " كلما وجد شيء من اللقايا سواء أكان مسكة ذهب [نقود أثرية] أو أنتيكات أخر يجرى توريدها لمجل الحكومة التابع إليه بلد من يوجد على يده أشياء من هذا القبيل حسب المنشورات السابق صدورها في هذا الخصوص" (١٤٦).

وقبل عزل إسماعيل بشهور اشتكى ماريت في مذكرة رفعها إلى نظارة الأشغال العمومية التى كانت تتبعها مصلحة الآثار المصرية في ذلك الوقت، والتى رفعها بدورها إلى نظارة الداخلية بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٩٦ هـ (٩ مارس ١٨٧٩ م) لاتخاذ القرار المناسب، اشتكى " من حصول مخالفات عديدة للوائح الجارى عليها العمل بخصوص الحفر على الآثار القديمة بقصد التجارة، وأن من الضروري لمنفعة ذلك للعلم والتاريخ المصرى أن يجرى اتباع تلك اللوائح مع الدقة " وأهاب ماريت والأشغال بنظارة الداخلية سرعة " تحرير الأوامر اللازمة للمديرين ليتذكروا أنه غير مباح لأحد مطلقاً الحفر عن تلك الآثار إلا لمن يكون بيده فرمان مخصوص لذلك، وأن الأنتيكات التى تظهر بالدقة من الحفر يلزم إرسالها إلى أنتيخانة بولاى وعند ظهور شيء منها لابد من تبليغه إلى المديرية، والمديرية تفيد الأشغال سريعاً " وحثت الداخلية كذلك على لزوم إصدار الأوامر لهؤلاء المديرين " بأن يجروا الملاحظة على الآثار القديمة مهما كانت حتى يقوموا بمنع ما يوجب إتلافها، وكذلك منع ما يحصل منه الضرر في هذا الخصوص " وطالب ماريت في مذكرته بضرورة تركيز الاهتمام بصفة خاصة " والالتفات كل الالتفات إلى مدينة منف القديمة التى بمديرية الجيزة ومدينة الكرنك التى بمديرية قنا" (١٤٧)، وذلك على وجه الخصوص نظراً لأهميتهما التاريخية ولأن الدمار الذى لحق بهما كان أكبر مما لحق بغيرهما من المناطق الأثرية الأخرى.

استجابت الداخلية لما ورد في مذكرتى ماريت والأشغال، فقامت بتحرير مكاتبات إلى جهات الاقتضاء في ١٦ مارس ١٨٧٩ م (٢٢ ربيع الأول ١٢٩٦ هـ) جاء فيها: " حيث إن المحافظة على الآثار القديمة وصيانتها من التلف والضياع هو من الأمور الضرورى مراعاتها والاعتناء بها : اقتضى

تحريره ليتأكد بدقة الملاحظة لذلك بكمال الدقة التامة والإجراء فيها حسب طلب ديوان الأشغال كما هو من مقتضى المنشورات السابق صدورها^(١٤٨).

ج- عصر توفيق :

ويبدو أن الأزمة السياسية التي واكبت نهاية عصر الخديوى إسماعيل والتي انتهت بعزله ثم نفيه قد ألقت بظلالها على قضية الآثار المصرية القديمة، حيث لا نجد أثراً لتلك القضية بين أولويات الحكومة المصرية لمدة عام كامل من تاريخ مذكرتى مارت والأشغال سالفى الذكر، وأول ما وصلنا بهذا الخصوص من عهد الخديوى توفيق (١٢٩٦ - ١٣٠٩ هـ / ١٨٧٩ - ١٨٩٢ م) صورة محضر لجلسة من جلسات مجلس النظار عقدت بتاريخ الثلاثاء ٢٠ أبريل ١٨٨٠ م (١١ جمادى الأولى ١٢٩٧ م) وتم خلالها بحث مسألة تصدير الآثار والمصنوعات المصرية القديمة بناء على مذكرة من مدير عموم الجمارك المصرية مدعمة بطلب من نظارة المالية التي كانت الجمارك المصرية تابعة لها من الناحية الإدارية، وذلك بقصد وضع ضوابط عامة تحكم عملية تصدير الآثار، ويمكن لموظفى الجمارك الاسترشاد بها خلال قيامهم بأداء أعمالهم الجمركية.

وقد شاء الحظ الحسن ودقة العاملين بديوان نظارة الأشغال أن يصل إلينا ملخص لوقائع هذه الجلسة التي تكمن أهميتها الرئيسية في أنها تتيح الفرصة لإلقاء الضوء على طبيعة الوعى الأثرى عند طائفة من خلاصة المجتمع المصرى في ذلك الوقت.

وأول ما يلاحظ على محضر هذا الاجتماع هو حرص إيفلين بارنج^(١٤٩) الشديد على تأكيد استقلالية مصر عن الدولة العثمانية فيما يتم اتخاذه من إجراءات وتشريع من قوانين تتعلق بمسألة الآثار المصرية القديمة، وكان مدير عموم الجمارك المصرية قد أرفق بمذكرته التي رفعها إلى نظارة المالية - ضمن ما أرفقه من أوراق - منشوراً عمومياً صادراً من أمانة الرسومات الجلييلة بالأستانة^(١٥٠) بخصوص تصدير الآثار، وقد عرض هذا المنشور مع المذكرة وبقيّة الأوراق على المجلس، ولكن بارنج أكد أنه " لا يرى مدخلاً للأمانة المشار إليها، ولا حاجة لإخطارها بما يصير توقيفه في الكمارك المصرية عن التصدير من مصر " وهو رأى له مغزاه السياسى كما هو واضح، والذي يتمثل في عزل مصر عن الدولة العثمانية بقدر الإمكان، وإعطائها وضعية استقلالية خاصة من دون سائر الولايات العثمانية الأخرى، مما يتيح الفرصة للتدخل الأجنبى في شئوننا ثم احتلالها بعد ذلك وهو ما تحقق بالفعل.

وقد رد مصطفى رياض^(١٥١) على بارنج بأن " هذا كان منشوراً عمومياً صادراً لكافة جمارك الدولة العلية : فاتخذته الحكومة المصرية أيضاً لموافقتها مصلحتها " ولكن رياض لم يشأ أن يخالف بارنج الرأى فأضاف قائلاً : " الواقع أنه لا حاجة لإخطار أمانة الرسومات الجلييلة بما يصير توقيفه في الجمارك المصرية من الأتليكات ".

عاد بارنج إلى الحديث عارضاً رأيه في مسألة منع تصدير الآثار حيث رأى : " أن يكون المنع والحجز قاصراً على الأشياء المعروفة عند أهل العلم أنها أنتيكة " وأنه لا مانع من تصدير الأشياء غير المتعلقة بالأبنية الأثرية مثل المشربيات والأبواب ونحوها من الأشياء التي صنعت حديثاً والتي يجرى تداولها وبيعها بين الناس بكثرة، وأضاف بارنج أنه إذا شكّت الجمارك المصرية والتبست في بعض الأشياء المرغوب تصديرها " تصير المخابرة عن هذه الأشياء من الكمرك لنظارة الداخلية، ويطلب الإذن من هذه النظارة عما يصير إجراؤه " وذلك نظراً لاستحالة وضع قائمة معصورة بجميع الآثار المصرية القديمة التي يحظر نقلها إلى الخارج.

وإذا كان بارنج لم ير - قبلاً - مدخلاً لأمانة الرسومات الجليلة بالأستانة ولم ير حاجة لإخطارها بما يصير توقيفه في الجمارك المصرية من الأنتيكات ؛ فنحن بدورنا لا نرى هنا مدخلاً لنظارة الداخلية المصرية، ولا نرى حاجة لإخطارها أو أخذ رأيها فيما تلتبس فيه الجمارك من الأشياء التي تشك في طبيعتها الأثرية، وأن الجهة الوحيدة التي ينبغي الرجوع إلى رأيها والتزول عنه في مثل هذه الأمور إنما هي مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري، وهو الأمر الذي تنبه له على مبارك^(١٥٢) : " الأوفق عند توقيف أى شيء أن تصير المخابرة عنه من الكمرك للأنتيخانة فإذا أعطى القول منها أن الشيء الموقوف هو من ضمن الأنتيكات يصير ضبطه " وقد أيدته في ذلك مصطفى فهمي^(١٥٣) : " رأي كراى مساعدة ناظر الأشغال العمومية أى أنه لا يتصرح بخروج شيء إلا بعد أخذ رأى الأنتيخانة ".

ولكن الإنجليز لم يكونوا راضين عن السيطرة الفرنسية الكاملة على مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري، واللذين كانا يمثلان القلعة الأخيرة للنفوذ الفرنسى في مصر، ومن ثم فقد كانوا يعتمدون دائماً إلى تهميش دور القائمين على تلك المصلحة من الفرنسيين، ووضع العراقيين أمامهم حتى تظهر تلك المصلحة بمظهر العاجز عن حماية آثار مصر القديمة وصيانتها، متخذين من هذا العجز والفشل مبرراً وذريعة لتدخلهم في شئون المصلحة، وكانت الصحف الإنجليزية من جانبها لا تكف عن مهاجمة طريقة سير العمل في مصلحة الآثار والمتحف المصري، واتهام الفرنسيين القائمين على إدارة هاتين المؤسساتين بالجهل وسوء الإدارة، ولطالما حاولت الحكومة الإنجليزية خلق مكان لها في مصلحة الآثار عن طريق تعيين أحد الموظفين الإنجليز بها، ولكن محاولاتهم هذه قد باءت جميعها بالفشل بعد أن قولت بمواقف متشددة وصارمة من الجانب الفرنسى، وفضلاً عن ذلك فإن تفعيل دور المتحف المصري في الرقابة على الجمارك كإحدى أهم المنافذ التي يجرى عن طريقها تهريب الآثار المصرية من شأنه أن يقلل من فرص الإنجليز في إثراء متحفهم على حساب الآثار المصرية القديمة، ولعل هذا هو الذى حدا بهارنج إلى تحبيذ فكرة عدم الاستعانة بالمتحف المصري وعدم الرجوع إليه كحكم يمكن استشارته ووثق برأيه فيما يتم ضبطه وتلتبس

فيه الجمارك المصرية من الآثار المهرية، وتفضيل نظارة الداخلية عليه في هذا الإطار مع أن المتحف هو جهة الاختصاص الوحيدة في هذه المسألة، وقد علل بارنج رأيه هذا بـ «أهمية وأهمية وهي أنه : " إذا تعلم الأمر لمسيو ماريت مدير الأنتيكخانة فهو كجميع أهل العلم ذوى الولع بتاريخ مصر القديم يميل لمنع خروج كل شيء مصنوع بمصر ولو لم يكن حقيقة من الأنتيكات التاريخية، مع أن القصد هو حفظ الأنتيكات فقط " ومن الغريب أنه ما من أحد من أعضاء المجلس الموقر قد عَقب على كلام بارنج بعد ذلك، وكان رأى بارنج هذا - على خطئه - هو الذى اعتمده أعضاء المجلس كما سيتضح لك بعد قليل.

ثم انتقل المجلس بعد ذلك إلى قضية أخرى وهي قضية الآثار الإسلامية التى يستخرجها بعض الناس سرقة من المساجد وهذه - كما قال مصطفى فهمي - " لا يصح التسليم في تصديرها " وقد وافقه على ذلك بارنج.

ثم عرض المجلس لاستفسار إدارة عموم الجمارك المصرية والذى تسأل فيه " عما يُعقل في الأشياء التى تضبط بالجمارك هل تصدر أو ترد لأربابها ؟ " فرد بارنج بأنها " تصدر متى كانت بلا شبهة من الآثار القديمة المتعلقة بتاريخ المصريين الأقدمين، أى بمدّة الفراغة والبطالة، فإنها ملك للحكومة، وإذا باعها أحد فهو بائع لما لا يملكه " وزاد على مبارك الأمر توضيحاً فقال : " كل ما كان أنيقة قديمة أعنى كل ما كان مختصاً بالمدد السابقة لحد مبدأ الإسلام بمصر يمنع بالكلية ويضبط للميرى، ما لم يكن التصدير بإذن خصوصى من طرف الحكومة، وما يتعلق بالمدّة الإسلامية لا يصير تصديره إلا بإذن من محافظة الثغر وتعطى تعليمات للمحافظة بعدم التصريح بتصدير الأشياء التى لا يصح أن تكون ملكاً لأحد من الناس مثل المأخوذ من الأضرحة والمساجد، وإلا إذا أعطيت تسهيلات فيضيع الباقي في المساجد ".

وأشار مصطفى فهمي إلى مسألة لم يكن موفقاً في إثارتها وعرضها، وحاصل هذه المسألة " أن الأشياء الصغيرة إذا منعت ربما يحصل بشأنها تشكيات، فهذه لا بأس من التصريح بتصديرها " وقد رد عليه على مبارك بأن " قيمة الأنتيكات ليست بنسبة الحجم، ويتفق أن أنيقة صغيرة ذات قيمة جسيمة بالنسبة للتاريخ، فيلزم المنع مطلقاً " بغض النظر عن حجم الآثار المراد تصديرها.

وقد انتهى المجلس بعد هذه المداورات والمفاوضات إلى اتخاذ القرار التالى : " كل شيء يتعلق بعلم الآثار القديمة مثل الموميّة والحفر والنقش القديم وبوجه الإجمال كافة الأشياء التى نوعها من نوع المحفوظات بالأنتيكخانة ببولاى ممنوع تصديرها بالكلية، وكذلك الأشياء التى للمساجد والمعابد والأضرحة، أو المأخوذة منها، ممنوع تصديرها بالكلية، فجميع ما ذكر من هذه الأنواع يصير ضبطه ومصادرته لجهة الميرى، وأما الأشياء الصناعية مثل الأبواب والأسلحة والمصابيح وآلات الموسيقى، وبالإجمال جميع الأشياء التى يتيسر للأجانب مشتراها من أفراد الناس بمصر

فهذه لا يمنع تصديرها للخارج، وحيث إنه يتعذر الحصر بزيادة الدقة فإذا طرأ التباس في حالة من الأحوال على مصلحة الكمرك في النوع الذي تدخل فيه الأشياء المتقدمة للكمرك بقصد التصدير؛ يجب عند ذلك على مصلحة الكمرك المخابرة عنه مع نظارة الداخلية [طبقاً لرأى بارنج] واستحصال أوامر مخصوصة عما يلزم إجراؤه^(١٥٤)، وقد نشر هذا القرار في الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسية.

كان ماريث قد توفي في ١٨ يناير ١٨٨١م (١٦ صفر ١٢٩٨ هـ) وخلفه في إدارة مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري مواطنه جاستون ماسبيرو Gaston Maspero ومن المعروف عن هذا الأخير أنه كان متحمساً لفكرة تشجيع التنقيب عن الآثار المصرية والبحث عنها، وأنه كان متساهلاً في مسألة قيام الأجانب بالاشتراك في عمليات البحث والتنقيب، فقد كان يرى أنهم يقومون بعمل لا تستطيع المصلحة القيام به، ومن ثم فمن غير المقبول حرمان البلاد من جهود هؤلاء الأجانب في مجال التنقيبات الأثرية، بل إن ماسبيرو قد تمالى في تيسيراته لهؤلاء الأجانب فسمح لهم بالاحتفاظ بنصف الآثار المكتشفة والناجمة من عمليات التنقيب التي كانوا يقومون بها، وقد كانت هذه بداية سرقة آثار مصر تحت مظلة قانونية، وتصريح التنقيب الذي منحه ماسبيرو لأحد المنقبين السويسريين ولم يكن قد استكمل بعد عامه الأول في منصبه الجديد كمدير للمتحف المصري ومصلحة الآثار المصرية يلقي الضوء على هذه السياسة الأثرية الجديدة التي ابتدعتها ماسبيرو وسار عليها، وقد شرح ماسبيرو في مذكرته التي رفعها إلى نظارة الأشغال وأرفق بها التصريح المذكور الأسباب التي دعت إلى منح هذا الترخيص، والتي يأتي في مقدمتها أنه لم يكن في نية ماسبيرو ولا بإمكانه التنقيب في تلك المنطقة التي منح لهذا الأجنبي حق التنقيب فيها ومن ثم فإن السماح له بالتنقيب في هذه المنطقة مما يعود بالفائدة على مصلحة الآثار المصرية وقد شدد ماسبيرو على أن أعمال الحفر والتنقيب سوف تجري تحت ملاحظة موظفي مصلحة الآثار، وأن صاحب التصريح سوف يترك للمصلحة نصف ما يجده من الآثار بدون تحمل أية مصروفات من جهتها [لاحظ أن صاحب التصريح هو الذي سوف يترك النصف للمصلحة وليس العكس مما يعنى أن ماسبيرو كان يعتقد في قرارة نفسه أن المنقبين هم الملاك الفعليون للآثار التي يكتشفونها، وأن تنازلهم عن نصفها للمصلحة يعد كرمًا وتفضلاً منهم] وفضلاً عن ذلك سوف يكون للمصلحة الحق في اختيار ما تريد الحصول عليه من الآثار المكتشفة.

وقد جاء هذا التصريح الذي صادق عليه مجلس النظار في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٨٨١ م (٢٢ ذو الحجة ١٢٩٩ هـ) في صورة عقد يتضمن عشرة بنود عدا ديباجة وخاتمة: أما الديباجة فقد أشير فيها إلى أن طرفي العقد هما: الحكومة المصرية ويتوب عنها ماسبيرو، والطرف الثاني هو السيد ويلد وهو مويسرى الأصل تحت حماية ألمانية حسب تعبير وثائق العصر.

ونص في البند الأول من العقد على حدود المنطقة التي يسمح للطرف الثاني بالتنقيب فيها وهي : " ضواحي العاصمة، والجزء الموجود بالقرب من مدينة قلهوب^(١٥٥) على الشاطئ اليميني من قنال الإسماعيلية لغاية الخط المتجه من قرية المطرية لغاية حلوان " واشترط في الأماكن التي يجوز للطرف الثاني التنقيب فيها من هذه المنطقة أن تكون غير مبنية ولا مزروعة ولا داخلية ضمن دائرة الأراضي العسكرية ولا تحتوي على مدافن أو محاجر.

وأشير في البند الثاني إلى أن هذا التصريح إنما هو ممنوح للسيد وولد بصفة شخصية فلا يجوز له أن يتنازل عنه لأحد أو أن يورثه لغيره بعد وفاته.

ونُصَّ في البند الثالث على أن يقوم المستر وولد بدفع جميع النفقات اللازمة لأعمال الحفر والتنقيب، وأن تتم جميع هذه الأعمال تحت ملاحظة ماسبيرو أو من ينوب عنه.

أما البند الرابع فقد نُصَّ فيه على الحدود الزمنية لفترة التصريح، وقد قسمت تلك الفترة إلى ثلاث مراحل زمنية: المرحلة الأولى: من ابتداء تاريخ هذا الاتفاق لغاية ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ م.

المرحلة الثانية: من يناير ١٨٨٢ م إلى ٣١ مارس ١٨٨٢ م.

المرحلة الثالثة: من أبريل ١٨٨٢ م إلى ٣٠ يونيو ١٨٨٢ م.

بينما تضمن البند الخامس أن المسيو وولد له مطلق الحرية في مباشرة أو ترك أو استمرار أو انقطاع أعمال التنقيب.

ويعتبر البند السادس أهم بنود هذا العقد، حيث قضى بأن جميع الآثار المكتشفة تقسم بالتناصفة بين ماسبيرو باسم الحكومة والمسيو وولد على أن يكون للمتحف المصري الحقيقية في شراء أى قطعة أثرية يريد الحصول عليها من نصيب المستر وولد، وذلك بطريق الاستبدال أو بأى طريق آخر حسب القيمة المعطاة لهذه القطعة الأثرية في السجلات التي تم فيها تدوين الآثار المكتشفة.

ونُصَّ في البند السابع على أن قيمة الأشياء التي اختارها المتحف المصري بموجب البند السابق يصير تجميعها باتفاق يحصل بين وولد وماسبيرو أو من ينوب عنه، وإذا حدث خلاف بينهما فإن كلا من الطرفين يعين من جهته من يشاء لتجميعها، وما يصير الاتفاق عليه يجرى تنفيذه.

أما البند الثامن فقد أُشير فيه إلى أن : " جميع الأشياء التي تستكشف يصير نقلها أولاً بأول بمصاريف من طرف المستر وولد إلى الأنتيكخانة، أو إلى أى محل كان يختارونه المتعاقدان^(١٥٦) لأجل تخزينها لحين التقسيم، وهذه الأشياء يكون مسئولية حفظها عائدة على المستر وولد إلى أن يستولى كلا^(١٥٧) منهما على ما يخصه ".

واتفق الطرفان في البند التاسع على أن تكون قسمة الأشياء المكتشفة في آخر شهر ديسمبر^(١٥٨) من عام ١٨٨٢ م.

واختار الطرفان في البند العاشر قنصل بلجيكا في القاهرة ليكون حكماً إذا حدث خلاف بين الممثلين اللذين أُشير إليهما في البند السابع، وفي حالة غياب القنصل المذكور يقوم المجمع العلوي المصري بتعيين أحد القناصل الآخرين ليتولى الفصل في المسائل موضع الخلاف بين الطرفين. ونُص في الخاتمة على أن هذا الاتفاق لا يكون سبباً في التعدي على منطوق القوانين والأوامر واللوائح الصادرة بخصوص منع تصدير الأنتيكات المصرية إلى الخارج^(١٥٩).

هذا وقد عثرنا على نموذج آخر باللغة الفرنسية^(١٦٠) لتصريح خاص بالتنقيب عن الآثار كان معداً سلفاً ليكون بمثابة نموذج عقد جاهز للاعتماد بين مصلحة الآثار المصرية وبين من يرغبون من الأجانب في البحث والتنقيب عن الآثار المصرية، ولا تختلف بنود هذا العقد في مضمونها عن بنود عقد السيد ويلد سالف الذكر إلا في أمرين: أولهما: أن مدة التصريح في هذا النموذج الذي يرجع تاريخه إلى نهاية سنة ١٨٨٤ م (١٣٠١ هـ) تبلغ خمس سنوات، والثاني: أنه نُص في البند الثالث من هذا النموذج على تحديد مصروفات ونفقات من يتعين من مصلحة الآثار المصرية لمراقبة عمليات الحفر والتنقيب بواقع عشرة جنيهات مصرية يومياً يتحملها طالب التصريح، وفيما عدا ذلك فالشروط الواردة في كلا العقدين تكاد تكون متطابقة^(١٦١).

على أن أقوى التشريعات المتعلقة بالآثار المصرية والتي ظهرت خلال الفترة التي تولى فيها جاستون ماسبيرو إدارة مصلحة الآثار والمتحف المصري للمرة الأولى، فقد كان هذا التشريع الذي صدر في صورة أمر عال بتاريخ ١٦ مايو ١٨٨٣ م (٩ رجب ١٣٠٠ هـ) والذي قضى في مادته الأولى بأن "دار الأنتيكات المصرية السابقة على الفتوح الإسلامي، وهي الدار المعروفة بأنتيقيخانة بولاق وجميع الأشياء الموجودة فيها أو التي توجد فيها في المستقبل تعد من أملاك الحكومة ذات المنفعة العمومية وبناء على ذلك لا يجوز بيعها ولا حجزها ولا امتلاكها بوضع اليد عليها المدة الطويلة"، كما قضى في مادته الثانية بأن "جميع ما ينشأ في المستقبل من دور الأنتيكات والمخازن وجميع الأشياء التي توضع فيها تعد أيضاً من أملاك الحكومة ذات المنفعة العمومية" أما مادته الثالثة فقد نصت على أن "جميع الآثار القديمة والأنتيكات التي تعتبر بهذه الصفة بمقتضى اللائحة التي ستعمل عن هذا الشأن تعد كذلك من أملاك المنفعة العمومية"^(١٦٢) وهكذا نجح ماسبيرو في أن يجعل المتحف المصري بمنأى عن القرارات الانفعالية والتصرفات غير المبررة التي كانت تصدر أحياناً عن حكام مصر خلال القرن التاسع عشر.

وعلى عهد ماسبيرو ظلت موافقة مصلحة الآثار شرطاً أساسياً لسريان عقود بيع الأراضي الحكومية التي يُشكك في أنها تحوى آثار قديمة ففي ٢٥ يناير ١٨٨٦ م (١٩ ربيع آخر ١٣٠٣ هـ) بحث مجلس النظار ووافق على مذكرة رفعها إليه ماسبيرو عن طريق نظارة الأشغال يبدى فيها اعتراضه وعدم موافقته على الطلب الذي أحالته إليه الحكومة عن طريق نظارته، وتستعمل منه الرأي

حول نية الحكومة في بيع قطعة أرض بمنطقة أهرام الجيزة تبلغ مساحتها سبعة أفدنة ونصف فدان بسعر يبلغ عشرة فرنكات للفدان الواحد وذلك لأحد المستثمرين الإنجليز، وأوضح ماسبيرو للحكومة أن الأرض المرغوب بيعها داخلية في سطح الهضبة القائم عليها الهرم الأكبر بل هي قريبة جداً منه حيث لا تبعد عن إحدى زوايا الهرم إلا بمسافة سبعين متراً فقط، كما أوضح أنها تحتوى على مسطبة كبيرة لم تكتشف الآن وعدة مساطب أخرى لبعض الملوك الفرعنة كانت مصلحة الآثار قد كشفها قبل ذلك، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المقابر الظاهرة، مما يدل على وجود مقابر أخرى مجهولة لم تكشف حتى الآن، ولفت ماسبيرو نظر الحكومة إلى مسألة هامة حيث ذكرها بأن قيمة هذه الآثار التي تحتوى عليها هذه الأراضي بالنسبة للثمن المقدّر للأرض " يكفى للبرهان على مقدورية الحكومة في هذا الثمن، فضلاً عن أنه لا يجوز لأحد الأفراد أن يشتري من الحكومة كلاً أو بعضاً من أرض تاريخية مشحونة بالآثار التاريخية كأرض الأهرام " وحذر ماسبيرو الحكومة من العواقب التي يمكن أن يتسبب فيها عمل كهذا من شأنه أن يثير احتجاجات الجمعيات العلمية الأوروبية المعنية بالآثار القديمة. وفي نهاية مذكرته حدد ماسبيرو مطالبه التي وافق عليها المجلس بأمرين :

الأول : عدم إجابة طلب هذا المستثمر الإنجليزي أو خلافة من الطلبات التي تكون من هذا القبيل عن أراضي يكون موقعها مشابهاً لموقع قطعة الأرض هذه.

الثاني : أن تبحث الحكومة عما إذا كانت إحدى قطع الأراضي السابق بيعها لهذا الرجل بدون معلومية مصلحة الآثار تتضمن قبوراً ذات أهمية، وإذا تحققت ذلك فعليها أن تنظر في استبدالها بغيرها من الأراضي المساوية لها في القيمة^(١٦٣).

ويفهم من قول ماسبيرو " بدون معلومية مصلحة الآثار أن الحكومة كانت تتفاوض أحياناً عن الرجوع لرأى المصلحة في مثل هذه الأمور، وأنها كانت لا ترجع إليها إلا حينما يغلب على الظن بشدة أن الأراضي التي تنوى بيعها قد تضم آثاراً قديمة، كما في مثل هذه الحالة التي بين أيدينا، غير أنه بمضى الزمن تنوى هذا التشريع الذي كان قد ظهر في عهد الخديوى إسماعيل، وأضحت الحكومات المتعاقبة تقوم ببيع الأراضي الأثرية بدون أخذ رأى مصلحة الآثار في ذلك، فقد اشتمى الأثرى أحمد كمال قرب نهاية القرن التاسع عشر الميلادى من الإهمال الجسيم الذى نال خرائب مدينة عين شمس القديمة (هليوبوليس) حيث أدى عدم الاهتمام بأطلال هذه المدينة القديمة إلى حصول " التساهل في بيع أرضها القديمة، فانتقلت ملكية بعض تلك الأراضي إلى كثير من الخلق فابتنوها وغرسوها أشجاراً وبساتين وهي غاصة بمقابر لسنا بها الآن عالمين، وبذلك ضاعت فوائد تاريخها، ومزقت منا منافع آثارها مما كان موجوداً في سهولها زمن الملوك الصاويين، وفي عهد البطالسة واليونان والرومانيين، وما كان في جنوبها من مقابر العائلة السادسة، أصبح داخلًا عند

الأفراد في أملاكهم المستحدثة " وأهاب كمال بالحكومة المصرية أن تهتم بهذا المكان " وألا تبيع من أرضه إلا على شرط الاختبار بحيث أن كل ما يوجد فيه من الآثار يكون حقاً خالصاً لها، لتبقيه وتحفظه في متحفها، فإن امتصوبت ذلك وأنفذته بالأوامر، لعاد منه النفع على التاريخ بل واكتسب منه المتحف كل أثر سليم أو دامر^(١٦٤)، تكون فائدته بنسبة ما بلغت إليه المدنية والعرفان، في قديم العصر ومآلف الزمان^(١٦٥).

استقال ماسبيرو من منصبه كمدير لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري لأسباب شخصية، وخلفه في هذا المنصب فرنسي آخر هو إيوجين جريبو Eugne Grebaut في ١٣ يوليو ١٨٨٦ م (١٦ شوال ١٣٠٣ م)، ولم يكن جريبو راضياً عن سياسة التسامح والتساهل التي كان ينتهجها سلفه في مجال التنقيب عن الآثار المصرية ونقلها إلى الخارج، ومن ثم فقد قرر جريبو إصلاح حال مصلحة الآثار المصرية لتصبح هيئة تلتزم بقانون تأسيسها بدقة أكبر، ولطالما شكا جريبو في مرارٍ عديدة إلى نظارة الأشغال حالة مصلحة الآثار التاريخية، وطلب منها أن ترى لتلك المصلحة تدبيراً حسناً وإصلاحاً مفيداً، ومن ثم فقد قررت النظارة المذكورة تشكيل لجنة خاصة من كبار موظفي الحكومة للنظر في هذه المسألة، وقد شكلت هذه اللجنة من ستة أعضاء : إيوجين جريبو، والكولونيل مكوت منكريف وكيل نظارة الأشغال، وجول بارو سكرتير عموم النظارة، والجنرال جرينفل، ويعقوب أرئين، وتيجران باشا.

عقدت اللجنة المشكّلة أولى اجتماعاتها في ٢٩ أبريل ١٨٨٧ م (٥ شعبان ١٣٠٤ هـ) وتباحث أعضاؤها طويلاً في كثير من المسائل المتعلقة بالآثار المصرية القديمة، وعمد جريبو إلى التركيز - بصفة خاصة - على شرح سياسة سابقه ماسبيرو في إدارة مصلحة الآثار المصرية، منها على أن تلك السياسة قد أدت إلى نتائج خاطئة وثبت فشلها، فقال : " إنه قد مضى على مصلحة الآثار التاريخية زمن مديد وميزانيتها ضيقة لا يُمكن بالمبالغ المندرجة فيها من توسيع نطاق الحفر والبحث على أنثيكاك وأثار تاريخية ذات أهمية، وتعرض عليها منع الأفراد من احتفارها لأنفسهم والإتجار بها، فرأت لذلك أن من الأولى التصريح لهم بالحفر بشرط اقتسام ما يصيبونه من تلك الآثار مع تلك المصلحة مناصفة، أمله بذلك عدم انخرام^(١٦٦) الأثنيكخانة المصرية من جميع الآثار المحفورة، ومتوقعة الاكتشاف على كثير منها في أنحاء القطر المصري يكون ذا فائدة وأهمية عظمى، لكن لسوء الحظ قد مضى على ذلك عدة سنين ولم تتحقق آمالها من هذا القبيل، فإن من يُصرّح لهم بإجراء الحفر من الأفراد طالموا مكروا بالمصلحة وخانوها حقاً في تلك الآثار، فلم يسلموا منها إلا ما قلت قيمته وغابت أهميته، واتجروا بالجزء الثمين منها مع الأجانب والغرباء "

وقد أوضح جريبو للجنة أن تقديراته لقيمة ما يخرج من تلك الآثار من مدينة الأقصر سنوياً تبلغ نحو عشرين ألف جنيه مصري^(١٦٧) تغلها تجارة الآثار في تلك المدينة، وواصل جريبو حديثه

أمام أعضاء اللجنة شارحاً الأسباب التي أدت إلى فشل سياسة ماسبيرو والتي من أجلها يرفض انتهاج هذه السياسة : " إن المحترفين عند مباشرتهم أعمال الحفر يتلفون الكتابات القديمة، ويحطمون القبور، ويهدمون البنايات التاريخية العظيمة الأهمية حتى يستخرجوا منها بعض الحلى والأمتعة البرونزية ولو تكن لا قيمة لها حتى ظن القوم أجمع - لا بل موظفو الحكومة أيضاً - أن الحفر مباح أمره لكل فرد من الأفراد، فتفاضت السلطة المحلية عن أولئك المحترفين فصاروا يحفرون حيثما شاءوا، مع أنه ليس في أيديهم تصريح رسمي، ونخص بذلك صفار وكلاء القناصل في الأقاليم القصوى، فإن وظائفهم هذه تجرئهم وتسهل لهم إخفاء الأنتيكات الثمينة والتوسط في بيعها مع أنها تكون قد احتفرت اختلافاً " .

وبعد مباحثات ومداولات طويلة قامت بها اللجنة في سبيل التوصل إلى الوسائل المؤدية إلى إصلاح الخلل القائم بمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري، والذي يضر بمصالح هذه الهيئة ويمنع تقدمها ويبعث على التفریط في الآثار القديمة، رأت اللجنة أنه يجب على الحكومة المصرية - التي طالما اهتمت منذ زمن مديد إلى الآن بهذه المسألة فأصدرت عنها قرارات عديدة منذ زمن محمد على باشا - أن تساند بقية البلدان المماثلة لها من الدول ذوات الحضارات العتيقة والآثار القديمة الكثيرة في اتخاذ الاحتياطات الفعالة للمحافظة على ما تنطوي عليه أرضها من آثار تاريخية، وأوصت اللجنة - في هذا الإطار - بسرعة اتخاذ القرارات التالية :

أولاً : منع الأفراد منعاً حتمياً من احتفار الأنتيكات في كامل القطر المصري، وإصدار الأوامر المشددة إلى المديريات والبوليس بمراقبة ذلك وتنفيذه بغاية الدقة.

ثانياً : منع جميع خدمة إدارة عموم الأنتيكخانة والحفر من مشتري الأنتيكات لأنفسهم، وبيعها لمنفعتهم الخاصة، أو التوسط للغير في ذلك.

ثالثاً : الاتفاق مع الدول الأجنبية على منع وكلاء قناصلها في القطر المصري من الاتجار بالآنتيكات.

رابعاً : امتياز الحكومة المصرية فقط ببيع الأنتيكات فتمكن بذلك من بيع ما يكون لها غنى عنه منها، وتخصيص مدخوله لأعمال الحفر للبحث عن الآثار التاريخية.

وافقت نظارة الأشغال العمومية على توصيات اللجنة ورفعتها إلى مجلس النظار للمصادقة عليها وسرعة اعتماد الاقتراحين الأول والثاني لإجراء العمل بموجهما حالاً، ومخابرة نظارة الخارجية لتتفق مع نظارة الأشغال العمومية على طريقة حسنى لتنفيذ الاقتراحين الثالث والرابع إن لم يكن عاجلاً ففي زمن قريب المدى^(١٦٨).

عرضت هذه التوصيات على مجلس النظار في جلسته المنعقدة بتاريخ ٩ يونيو ١٨٨٧ م / ١٨ رمضان ١٣٠٤ هـ تحت رئاسة الخديوى محمد توفيق، وذلك لدراستها واتخاذ ما يراه المجلس

وأوضح القانون في مادته الثالثة أن " كل فرد غير المندوبين المذكورين اتضح أنه قد أمر بالحفر على أنثيكات أو اشتراك بذلك مأجوراً، وكل من توسط بالحفر للغير، أو أخفى شيئاً من الأنثيكات التي وجدت في المحل الذي حفر فيه يعاقب بالسجن من شهر إلى سنة وبغرامة من ألف إلى ألفي قرش، وتؤخذ منه الأنثيكات التي يكون قد التقاها " (١٧٢).

وتناول القانون في مادته الرابعة التجارة غير المشروعة في الآثار: " كل من يطف البلاد لمشتري الأنثيكات المخبأة عند الأفراد والإتجار فيها يعاقب بالسجن من ثلاثة [شهور] إلى خمسة عشر شهراً، وبغرامة من ثلثمائة إلى ألف وخمسمائة قرش، وتؤخذ منه الأنثيكات التي يكون قد اشتراها".

وتحدثت المادة الخامسة عن ذات الموضوع: " كل فرد تجارى على شراء أنثيكات مع علمه أن البائع لها قد حصلها بالوسائل المعاقب عليها في أمرنا هذا يعاقب هو أيضاً بدفع غرامة من مائة إلى ألف قرش، وتؤخذ منه الأنثيكات التي يكون قد اشتراها".

وعالج القانون في مواده السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشر والحادية عشرة مسألة أخذ السباح، حيث أكدت المادة السادسة على أن: " البحث عن السباح لا يعد بحثاً عن الأنثيكات متى كان بعد الشروق وقبل الغروب بحسب الأوقات المعتاد استعماله فيها في كل جهة، وكان منطبقاً على الأحكام الآتية :

- " لمدير عموم الأنثيقخانة ومصلحة الحفر الحق بمنع أخذ السباح من أى جهة يعينها، وله الحق أيضاً أن يعين بنفسه أو بواسطة مندوبيه النقاط التي يلزم أن يجتمع فيها الباحثون على السباح تسهيلاً لمراقبتهم " وذلك طبقاً لنص المادة السابعة من القانون المذكور.

- " يتوجب على الباحثين على السباح أن يسلموا إلى مندوب الأنثيقخانة ومصلحة الحفر جميع الأنثيكات التي تفصل من محلها مع السباح، ولا يجوز لهم إخراج الأنثيكات التي تبقى في أماكنها، ولا نقلها من موضع لآخر، ولا إتلاف أى أثر من آثار الأبنية، فإن لم يكن للأنثيقخانة مندوب في الجهة فتسلم تلك الأنثيكات إلى شيخ البلد، وهو يخبر إدارة عموم الآثار في مصر لتتخذ الوسائل اللازمة لنقلها، ويجوز لمدير عموم الأنثيقخانة أن يعطى من المبالغ المقررة في ميزانيته لمن يكون قد عثر على أنثيكات مكافأة بحسب أهمية تلك الأنثيكات " وذلك وفق نص المادة الثامنة من القانون.

- " أما المادة التاسعة فقد نصت على أن " السباح الذي يكون قد أخفى أنثيكات استخرجت مع السباح، وشيخ البلد أو مندوب الأنثيقخانة الذي يكون قد حفظ هذه الأنثيكات ولم يبلغ عنها إدارة عموم الآثار، يعاقبون بالسجن من ثمانية أيام إلى شهر،

وبغرامة من خمسة وعشرين إلى مائة قرش إذا كانت الأنتيكات التي وجدت ذات قيمة طفيفة وبالسجن من ثلاثة إلى ستة أشهر، وبغرامة من ثلاثمائة إلى ستمائة قرش إذا كانت قيمتها فوق المائتين قرشاً ودون الألف قرش، وبالسجن من ستة أشهر إلى سنة، وبغرامة من ستمائة إلى ألف قرش إذا كانت قيمتها فوق الألف قرش ودون الأربعة آلاف قرش، وبالسجن من سنة إلى خمسة عشر شهراً، وبغرامة من ألف إلى ألفي قرش إذا كانت قيمتها أكثر من الأربعين جنهاً، وإذا باع الأشخاص ذاتهم تلك الأنتيكات فيعاقبون بأكبر عقوبة من العقوبات المار ذكرها أنفاً، وأما مندوبو الأنتيخانة ومصلحة الحفر فمعاقبتهم يكون بأكبر عقوبة من تلك العقوبات إذا ارتكبوا أمراً من الأمور المذكورة، والقيمة التي يقدرها لتلك الأنتيكات مدير الأنتيخانة ومصلحة الحفر يعتمد عليها إلى أن يثبت عدم صحتها".

- "ونصت المادة العاشرة على أن " البحث عن السباخ في غير الأوقات المعتاد استعماله فيها في كل جهة أو قبل الشروق أو بعد الغروب، أو في غير النقط المعينة لسهولة المراقبة يعاقب عليه بالسجن من ثمانية أيام إلى شهر، وبغرامة من عشرين إلى مائة قرش إذا لم يخف الباحث شيئاً من الأنتيكات، وأما إذا أخفى فيعاقب بأكبر عقوبة من العقوبات المبينة في المادة التاسعة"
- " بينما نصت المادة الأخيرة التي عالجتها هذه المسألة من مواد القانون وهي المادة الحادية عشرة على أن " البحث على السباخ في المحلات المنهى عنها يعاقب عليه بالسجن من خمسة عشر يوماً إلى ثلاثة أشهر، وبغرامة من مائة إلى مائتين قرشاً، فإن أخفى الباحث أنتيكات فيعاقب بأكبر عقوبة بحسب أحكام المادة التاسعة."
- " ثم انتقل القانون إلى الحديث عن عقوبة من يتسببون في هدم وإتلاف وتخريب الآثار القديمة حيث عالج هذه المسألة في مادتيه الثانية عشرة والثالثة عشرة، وقد نصت الأولى منهما على أن " كل من تجارى على إتلاف شيء من الأبنية القديمة، أو على تشويه النقوش والتماثيل والخطوط، أو على كتابة أسماء أو غيرها على تلك الأبنية يعاقب بغرامة من مائة إلى ألفي قرش، وبالسجن من شهر إلى سنة، فضلاً عن محاكمته بطلب العطل والإضرار" (١٧٣)، بينما نصت المادة الأخرى على أن " هدم الأبنية العتيقة للحصول على أنقاضها أو لأجل عمل الجير أو الحمرة يعاقب عليه بالسجن من ثلاثة أشهر إلى سنتين وبغرامة من ألف إلى ألفي قرش، فضلاً عن محاكمة الفاعل بطلب العطل والإضرار، وإذا أنشئت مبان مثل قُمن لحرق الجير أو غير ذلك بالقرب من الخرائب التاريخية بقصد استخراج ما يكون موجوداً فيها يؤمر بهدمها ويضبط ما يوجد فيها من

• "وأخيراً فقد نصت المادة العشرون من مشروع هذا القانون على أنه " إذا ظهر ما يوجب رافة القضاة يجوز تخفيض العقوبات الموضحة آنفاً بالتطبيق للمادة ٣٥٢ من قانون العقوبات الأهلى "(١٧٥). ولا تشير الوثائق إلى أن هذا القانون قد حظى بموافقة مجلس النظار، ومن ثم فلم يصدر به أمرٌ عال يخرج به إلى حيز التنفيذ، وربما وقفت بنوده وعقوباته المتشددة حائلاً دون اعتماده، ومن ثم فقد قدر له أن يبقى مشروع قانون على الأبد، ويبدو أن الوقت كان لا يزال مبكراً جداً لمن تشريعات وفرض عقوبات بمثل تلك الدرجة من الصرامة والشدة بشأن مسألة ربما كانت لا تزال تحتل مرتبة ثانوية ضمن أولويات الحكومة المصرية والشعب المصرى.

ومما يؤكد عدم اعتماد مشروع قانون ١٨٨٨ م ونفاذه أن الإدارات المصرية المختلفة قد ظلت - خلال الفترة التى أعقبت اقتراح سن هذا القانون - تستند في إجراءاتها إلى تشريعات قديمة ومتقدمة عليه زمنياً، فقد حدث في شهر مارس من نفس العام أن قامت مديرية قنا بالقبض على شخصين من مدينة الأقصر - أحدهما يدعى محمد محسوب، والآخر يدعى عبد المجيد حسنين - بعد أن كان قد نما إلى علمها " نتيجة التحريات السرية " - كما تقول الوثائق - أنها يقومان بالإتجار في الآثار المصرية القديمة سواء تلك التى يقومان بالاحتفار عنها لأنفسهما أو تلك الأخرى التى يقومان فيها بدور الوساطة بين تجار آخرين وبين راغبي الشراء من مندوبي المتاحف الأوروبية والسائحين الأجانب، ويبدو أن المسؤولين عن أعمال الأمن بالمديرية المذكورة قد سلكوا مع الرجلين - كما هي العادة - حين داهموا منزلهما لضبط الآثار التى يقومان بالإتجار فيها، مسلك الشدة والعنف، حتى لتقول الوثائق إنهما قد أخرجاً من منزلهما " بدون أن يأخذوا معهم أشياء لا للملبوس ولا للقوت " وقد تزامت هذه التفاصيل كلها - بطريقة أو بأخرى - إلى أسماع أعضاء مجلس النظار الذين أزعجهم هذه الطريقة في معانجة القضية، مما دفع رئيس المجلس إلى القيام بتحرير إفادة إلى الداخلية يحذر فيها من الإجراءات التى اتخذت ضد الرجلين من حيث إخراجهما من منزلهما على هذه الصورة وهى " غير مناسبة " وأن الواجب كان يقتضى فقط " وضع الأشياء [الآثار المضبوطة] في محل لائق والتحفظ عليها لحين تسليمها بدون احتياج لإخراج المذكورين من منازلهم " كما طلب المجلس من الداخلية سرعة موافاته عن الأسباب التى دعت إلى ذلك، وإرسال صورة من القانون الذى كانت الداخلية قد أرسلته إلى مديرية قنا والذى عاملت المديرية المعهتين بمقتضاه.

واعترفت الداخلية في ردها على إفادة مجلس النظار بأن أوامرها الصادرة لمديرية قنا بشأن الحيابة غير القانونية للآثار القديمة ليس فيها ما يشير إلى أية إجراءات من هذا النوع، باستثناء التأكيد على مراعاة ما هو موجود بالمديرية من الأوامر والمنشورات المختصة بذلك والمنحصرة في

لفظة " الضبط قانوناً " وأوضحت الداخلية للمجلس بأنها قد حررت بالفعل إلى مديرية قنا تطلب منها " الإفادة عن الأسباب التى انبنى عليها الضبط بالكيفية السابقة " وأنها ستوافق المجلس برء مديرية قنا حالما يصل إليها من المديرية المذكورة، غير أن الداخلية قد شددت على أنه كان لا بد من اتخاذ إجراء قانونى ما ضد هذين الرجلين نظراً " لأن حصولهم على ما وجد بطرفهم كان بغير رخصة تمنحهم الحصول على هذه الأتنيقات " ومن ثم فإن المذكورين قد " تجاروا على مخالفة ما نص عليه بالأوامر والمنشورات المتعلقة بذلك، وهذه المخالفة موجود لها نصوص قانونية بمعاقبة من يتركها " وإن كان تنفيذ هذه النصوص القانونية قد شابه بعض تجاوزات. وأرفقت الداخلية مع ردها على إفادة المجلس صورة من القرارات والأوامر والمنشورات التى أرسلتها إلى مديرية قنا لتسير على هديها المديرية المذكورة فيما يختص بمسائل الأتنيكات ومنع حيازتها والتصرف فيها بدون رخصة، وضبط ما يوجد منها لصالح الميرى، وآخر هذه القرارات جميعاً هو ذلك القرار الصادر من مجلس النظار بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٠ أبريل ١٨٨٠ م (١١ جماد الأول ١٢٩٧ هـ) والذى قامت الداخلية بإبلاغه إلى مديرية قنا بتاريخ ٨ مايو ١٨٨٠ م (٢٨ جماد الأول ١٢٩٧ هـ) وكذلك ما تزامن مع هذا القرار من تعليمات أصدرتها نظارة الأشغال إلى الجهات والمديريات المختلفة - ومن بينها المديرية المذكورة - والتى تنص على " تكليف من يعثر على شئ من الآثار القديمة بإخطار الحكومة فى زمن لا يتجاوز الثمانية وأربعين ساعة، والتحفظ على ما يوجد لحين تسليمه لوكلاء الحكومة بالإيصالات اللازمة " (١٣٦) هذا بينما لم تشر إفادة الداخلية من قريب أو بعيد إلى أية تشريعات أخرى مستحدثة بخلاف قرار مجلس النظار سالف الذكر مما يدل دلالة قاطعة على أن مشروع قانون سنة ١٨٨٨ م لم يقدر له أن يصبح قانوناً.

رأى جريبو بعد أن تمكن من تثبيت أقدامه فى منصبه أن يكون أكثر تشدداً فى مسألة منح تصاريح الحفر والتنقيب، بحيث لا تمنح تلك التصاريح إلا للعلماء والمختصين فقط، وقدم بذلك المضمون مذكرة عن طريق نظارة الأشغال إلى مجلس النظار بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٨٩٠ (٣ جماد الأول ١٣٠٨ هـ) ثم ما لبث أن عززها بمذكرة أخرى معدلة للأولى بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٨٩٠ م (١٧ جماد الأول ١٣٠٨ هـ).

وقد تضمنت المذكرة الأولى المعدلة أنه لا يجوز قط لفرد من الأفراد الحفر على أتنيقات إلا للعلماء فقط، فقد يجوز لهم التصريح بذلك ولكن بشرطين :

الأول : أن كافة الأشياء التى يحكم مدير عموم الأتنيقخانة أنها فردة (١٣٧) عديمة المثل تكون حقاً لتلك الأتنيقخانة.

الثانى : أن باقى تلك الأشياء تقسم مناصفة بين الأتنيقخانة ومباشر الحفر، على أن النصف الآيل إلى مباشر الحفر لا يسلم به إليه إلا بعد مصادقة لجنة الآثار التاريخية على ذلك.

أما التعديلات التي أدخلت عليها بمقتضى المذكرة الثانية المعدلة فهي :

أولاً : يجب على الأفراد والجمعيات العلمية الذين يريدون الحفر على أنثيكات في القطر المصرى أن يقدموا طلباتهم عن ذلك إلى نظارة الأشغال العمومية، وهي تقرر إذا اقتضت الحال الترخيص بذلك بعد النظر في المسألة بحسب اللوائح المتبعة.

ثانياً : الأشياء التي يعثر عليها في الحفر تكون من حقوق الحكومة، وهي تقرر كيفية قسمة تلك الأشياء بين الأنتيقيخانة المصرية ومباشر الحفر، وتتخذ الطريقة الآتية أساساً لإجراء هذه القسمة، وهي أن نصف الأشياء المحتفزة يكون للأنتيقيخانة المصرية، والنصف الآخر لمباشر الحفر بقدر الإمكان، ويقدر ما يرى موافقاً لمصلحة الأنتيقيخانة ومرجع الحكم في ذلك يكون للحكومة وحدها، فإذا أرادت الحكومة بناء على رأى مدير عموم الأنتيقيخانة عدم إمكان القسمة مناصفة فلها وحدها الحكم في أمر تعيين الحصص التي تعطى لمباشر الحفر^(١٧٨).

قام مجلس النظائر ببحث هاتين المذكرتين : الأولى المعدلة، والثانية المعدلة بحثاً دقيقاً متأنياً، وتبين لأعضائه أثناء المداولة أن الشروط المطلوبة والواردة في المذكرتين ليست شروطاً يميل مباشرو الحفر إلى القبول بها ولا تشجعهم على مباشرة أشغال من هذا القبيل، ومن ثم فقد قرر المجلس بجلسته المنعقدة بتاريخ ٥ يناير ١٨٩١ م (٢٤ جماد الأول ١٣٠٨ هـ) شروطاً أخرى جديدة يمكن بموجبها التصريح بالحفر للبحث عن الآثار، مراعيًا في ذلك الصالح العلمى والفائدة التي تتحصل من الكشف عن الآثار المدفونة في الأراضى المصرية.

أما الشروط التي أقرها المجلس بجلسته سألقة الذكر فتتلخص فيما يلى :

المادة الأولى : يجب على الأفراد والجمعيات العلمية الذين يريدون الحفر على أنثيكات في القطر المصرى أن يقدموا طلباتهم عن ذلك إلى نظارة الأشغال العمومية، وهي تقرر إذا اقتضت الحال الترخيص بذلك بعد النظر في الطلب بحسب اللوائح المتبعة.

المادة الثانية : الأشياء التي يُعثر عليها في الحفر تكون من حقوق الحكومة ويجب أن توضع في الأنتيقيخانة.

المادة الثالثة : يحق للحكومة أن تأخذ من هذه الأشياء ما كان منها عديم المثل في الأنتيقيخانة وكل نزاع في ذلك يحكم فيه قطعياً قومسيون [لجنة] مشكل من ثلاثة أشخاص يعين أحدهم مباشر الحفر، والثانى يعينه مدير عموم الأنتيقيخانة، والثالث ناظر الأشغال العمومية، ويكون الحكم في ذلك بأغلبية الآراء.

المادة الرابعة : إذا تبقى شئ من بعد أخذ ما يلزم أخذه كما توضح أنفاً يترك ذلك الباقي لمباشر الحفر بشرط أن يتخلى عن معظمه للمتاحف العمومية في البلاد الأجنبية، وأن ينشر أوصاف هذه الأشياء في معاد قدره ستان على الأكثر، فإن أبى مباشر الحفر القبول بهذا الشرط،

فيقسم مدير عموم الأنتيقيخانة الأشياء الزائدة إلى قسمين متساويين في القيمة بقدر ما يمكن ويرتفع عليهما فيكون أحدهما لمباشر الحفر والثاني للحكومة.

المادة الخامسة: لا تسرى أحكام هذا القرار على الأشياء الذهبية والفضية، فهذه يحق للحكومة أخذ نصفها، وإعطاء النصف الآخر لمباشر الحفر، أما قسمة هذه الأشياء مناصفة فتكون على حسب القيمة الأصلية للذهب والفضة^(١٧٩).

هذا وقد كانت نظارة الأشغال قد اقترحت على المجلس إضافة مادة سادسة إلى هذه المواد الخمس، وتقضى هذه المادة بأن "يمتنع مباشر البحث امتناعاً كلياً عن التظلم لجهات القضاء لأي سبب كان" ولكن مجلس النظار رفض اعتماد هذه المادة السادسة الأخيرة، فصدرت اللائحة الجديدة بدونها^(١٨٠).

وقرر المجلس أن يعمل بهذا اللائحة الجديدة مدة سنتين على سبيل التجربة تستطيع خلالها الحكومة أن تقف على الفوائد التي يجنيها المتحف المصري من جراء تطبيق هذه اللائحة، ومن ثم تتمكن الحكومة من إصدار حكم بنجاح اللائحة أو فشلها بحيث تعدل من تلك اللائحة متى اقتضت الحال ذلك.

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً كبيراً من المتاحف الأجنبية، الأوروبية منها والأمريكية، قد استفادت من أحكام المادة الرابعة من هذه اللائحة استفادة كبيرة، حيث تحصلت هذه المتاحف على الكثير من الآثار المصرية بمقتضى أحكام هذه المادة، سواء بواسطة انتمائها إلى بعض الجمعيات العلمية الأجنبية العاملة في مجال التنقيب عن الآثار، أو حتى من خلال المنقبين الأفراد الذين حتم عليهم القانون أن يتخلوا عن معظم نصيبهم من نتاج الحفر لصالح المتاحف العمومية في البلاد الأجنبية.

ولكن لائحة ٥ يناير ١٨٩١ م لم يقدر لها أن تستمر طويلاً؛ إذ لم تصل حتى إلى منتصف المدة التي كانت محددة لسريانها، فقد نجح جريبو في أن يخطو بالتشريعات الأثرية المصرية خطوة أبعد نحو تشديد الرقابة وإحكام السيطرة على عمليات الحفر والتنقيب عن الآثار المصرية، وذلك بفرض قانون جديد للحفائر الأثرية من خلال مجلس الوزراء، وقد احتوى التشريع الجديد الذي صدر بمرسوم خديوي في ١٧ نوفمبر ١٨٩١ م (١٥ ربيع الثاني ١٣٠٩ هـ) على سبع مواد عدا أخرى ثامنة ذات صفة إجرائية.

وقد نصت المادة الأولى من هذا القانون على أنه "لا يجوز للأفراد الحفر إلا بمقتضى رخصة تعطى بناء على طلب مدير عموم دار التحف والحفر (الأنتيقيخانة) بعد النظر في ذلك بمعرفة اللجنة المستديمة المختصة بالآثار المصرية طبقاً للمادة السادسة من لائحة إجراءاتها الداخلية

الصادرة في ٩ مارس ١٨٨٩ م (٧ رجب ١٣٠٦) ولا تكون الرخصة صحيحة إلا بعد الإقرار عليها من ناظر الأشغال العمومية، ويكون إعطاؤها من مدير عموم دار التحف والحفر". ونصت المادة الثانية على أن "جميع الأشياء التي يصير العثور عليها بواسطة الحفر تكون ملكاً للحكومة بقوة القانون، وينبغى حفظها بدار التحف (الأنثيقاخانة) بالجيزة" (١٨١).

ثم جاءت المادة الثالثة لتكافئ القائمين بعملية التنقيب: "ومع ذلك فبالنظر للمصاريف التي يتكبدها مباشر الحفر: تنازل له الحكومة عن جزء من الآثار التي يصير العثور عليها مع مراعاة القواعد الآتية:

هذه القواعد نص عليها في مادتي القانون: الرابعة، والخامسة، حيث قضت أولاهما [الرابعة] بأن "مصلحة الآثار ومباشر الحفر يقسمان هذه الأشياء إلى قسمين متساويين في القيمة، ثم يقترعان عليهما إلا إذا فضلاً اقتسام هذه الأشياء مع بعضهما". بينما قضت المادة الأخرى [الخامسة] بأن: "للمصلحة الحق في شراء أى قطعة من القسم الذي يخص مباشر الحفر، فتقدم المصلحة عطاءها، وإذا لم يقبله مباشر الحفر فهو ضاح الثمن الذي يرغبه، وللمصلحة حينئذ الخيار في أخذ القطعة بالثمن الذي قدره مباشر الحفر أو ترك القطعة المذكورة له بعد أن تحصل منه الفرق بين الثمن المعطى منها، والثمن الذي يطلبه، وعلى كل حال يجوز للمصلحة أن تستولى على الأشياء التي تريد شراءها بعد مكافأة مباشر الحفر بمبلغ لا يجوز أن يتجاوز قط مصاريف الحفر التي صرفت لأجل العثور على هذه الأشياء".

وتنص المادة السادسة من قانون ١٧ نوفمبر ١٨٩١ م والذي صدر مُتهراً بتوقيع الخديوى محمد توفيق على الآتى: "لا تسرى المواد الثالثة والرابعة والخامسة من أمرنا هذا على ما يلى: أولاً: الآثار الثابتة على الأرض التي تحكم المصلحة بوجوب حفظها في محلها مهما كانت حالتها، وكذلك الأجزاء المفصولة التي ترغب إعادتها إلى موضعها.

ثانياً: الآثار المنقلبة انقلاباً تاماً والتي ترى المصلحة وجوب إقامتها أو حفظها في محلها.

ثالثاً: القطع الزائدة النقل التي لا يرضى مباشر الحفر بنقلها على نفقته".

أما المادة السابعة فقد تضمنت أمراً على درجة كبيرة من الأهمية: "يلغى ما كان مخالفاً لأمرنا هذا" (١٨٢)، وبذلك يكون قانون ١٧ نوفمبر ١٨٩١ م قد نسخ كل ما سبقه من قوانين وتشريعات تتعلق بالحفر والتنقيب عن الآثار المصرية.

واجه جريمو بسبب مسلكه المتشدد هذا صعوبات جمة، وكان أكثر هذه الصعوبات يأتيه من ناحية الإنجليز الذين كانوا لا يكفون عن الضغط عليه من أجل تغيير هذه السياسة المتشددة وهو الأمر الذي دفعه إلى تقديم استقالته والرحيل عن مصر في ٢٨ أغسطس ١٨٩٢ م (٤ صفر ١٣١٠ هـ) وإن كان قد تمكن قبل رحيله من فرض تشريع جديد يخول بعض موظفى مصلحة

الأثار المصرية سلطات واسعة في ضبط وملاحقة الذين يقومون بسرقة وتخريب وتهريب الأثار المصرية قضائياً.

ويقضى التشريع الجديد الذى وافق عليه مجلس النظار بتاريخ ٢٧ يوليو ١٨٩٢ م (٢ المحرم ١٣١٠ هـ) وصدر به أمر عال في أول أغسطس ١٨٩٢ م (٧ المحرم ١٣١٠ هـ) بأنه : " يعتبر من مأمورى الضبطية القضائية مأمورو حفظ الأثار القديمة المكلفون بالتفتيش، وكذلك المفتشون الثوانى بالمصلحة المذكورة " (١٨٣).

ويستفاد من وثائق هذه الفترة أن الدولة كانت لا تزال تشترط - على عهد إدارة جريبو لمصلحة الأثار - حصول المصلحة المذكورة على ما قد يكتشف بالمصادفة من أثار قديمة أثناء قيام الأفراد والشركات الخاصة بتنفيذ مشروعاتهم الاستثمارية في مصر، فقد تضمن العقد الذى وقعته الحكومة المصرية بتاريخ ٢٦ أبريل ١٨٩١ م (٢٨ رمضان ١٣٠٩ هـ) مع أحد الأجانب الباحثين عن المعادن النفيسة والأحجار الكريمة في منطقة قريبة من أسوان شرطاً ينص على أن " جميع الأشياء التى من قبيل الأثار القديمة أو اللازمة للأنثيقغانة يجب تسليمها بدون أدنى تعريض إلى الحكومة التى هى لازالت مالكة لها، وعلى ذلك فلا يصير إجراء الحفر إلا تحت ملاحظة مندوب من الأنثيقغانة تكون ماهيته على طرفكم " (١٨٤).

وهكذا نجح جريبو - خلال السنوات الست التى قضاها في إدارة مصلحة الأثار المصرية والمتحف المصرى - في أن يضيف الكثير إلى رصيد اللوائح والقوانين والتشريعات المتعلقة بالأثار المصرية في مصر في القرن التاسع عشر، ولعل هذا يفسر ذلك العداء الشديد من جانب الإنجليز للرجل، فقد اعتبر الإنجليز أن نجاح جريبو في فرض لائحة ١٧ نوفمبر ١٨٨٩ م يعد عجزاً من الدبلوماسية الإنجليزية عن حماية المصالح البريطانية (١٨٥)، وقد أدى ذلك النجاح إلى اشتعال الموقف في إنجلترا، فتعالت صيحات المعارضين، وانهالت رسائل الاحتجاج على الصحف، كما قدمت العديد من الاستجابات إلى البرلمان البريطانى (١٨٦)، ويرى عالم المصريات البريطانى ويليام فلندرز بيتري أنه توجه في إحدى المرات إلى السير إيفلين بارنج المعتمد البريطانى في مصر شاكياً تشدد جريبو، ويقول بيتري إنه وجد بارنج متعاطفاً وأنه كان يقول وهو يضرب المائدة بقبضته مرة بعد الأخرى : " إن الصعوبة كلها تكمن في هذا الرجل جريبو " (١٨٧).

د - عصر عباس حلمي (حتى نهاية القرن التاسع عشر)

بعد جريبو جاء جان جاك دى مورجان الذى طالب في العام التالى لوصوله إلى مصر بسن قانون صارم لمعاقبة الذين يشوهون أو يدمرون الأثار التاريخية، وقد دفعته إلى هذه المطالبة واقعة عربية وطرفه حدثت خلال الأيام الأولى من شهر ديسمبر عام ١٨٩٣ م، ولم يكن الرجل قد اعتاد على مثلها في بلاده.

كانت مصلحة الآثار التاريخية قد انتهت لتوها من استكشاف مسطبتين^(١٨٨) قديمتين في سقارة، وشرعت في ترميمهما، ولما لم تكن المصلحة قد فرغت بعد من بناء سور يحيط بهاتين المسطبتين لحمايتهما من المخربين، فقد قامت بتعيين اثنين من الخفراء يقيمان فيهما ليلاً ونهاراً لحراستهما، على أن يبني كل واحد منهما في إحدى المسطبتين، ولكن هذين الرجلين - طلباً للأمن والسلامة والتسليّة ومضي الوقت - كانا يقضيان الليلة في واحدة منهما ويتركان الأخرى خالية من الحراسة، مما أتاح الفرصة لبعض المخربين الأشقياء لكي يتسللوا إلى داخل المقبرة الخالية من الحراسة، وكانت النتيجة الحتمية أن تلك المقبرة "قد وقعت عليها أشد الأفعال استنكاراً وشناعة" حيث إن "النقوش البارزة والكتابة الهيروغليفية قد خربت وقشطت^(١٨٩) بألة حادة في غرفتين من الغرف التي وجدت محفوظة أكثر من غيرها" مما يعني أن المخربين كانوا يعرفون جيداً ماذا يفعلون، ولأشد ما كانت دهشة دي مورجان حين أدرك أن الغرض من هذا التشويه لم يكن "سوى محبة الإتلاف والتخريب ليس إلا، لأنه في الحقيقة لا منفعة للفاعل في ذلك، إذ أن النقوش البارزة التي اقتلعت لا تنبع" ومن ثم "فإن قصد التخريب بدون الحصول على فائدة منه أمر ظاهر لا ريبه فيه" ويضيف دي مورجان باستغراب ومرارة بالغين: "إن مخربي الآثار يترقبون حركات الخفراء ترقباً دقراً فينتهزون الفرصة عند أقل تهاون يحصل من هؤلاء الخفراء" للقيام بأعمالهم التخريبية، وأنهم في هذه المرة "قد شوهوا أثراً من أجمل أثار المملكة القديمة حال اكتشافه" ومما لا شك فيه أن "سخط أرباب العلم سيكون شديداً" بسبب هذه الأفعال الهمجية، وأكد دي مورجان أنه قد استنفد كل الوسائل الممكنة، وأنه قد فعل ما بوسعه في سبيل تخويف هؤلاء المخربين حتى إنه قد اضطر في إحدى المرات إلى إطلاق الأفعية عليهم لطردهم وإبعادهم عن المواقع الأثرية، ولذلك فإنه يعتبر نفسه منذ الآن غير مسئول عن حماية الآثار لأن المصلحة ليس فيها العدد الكافي من الخفراء حتى تتمكن من مقاومة الأشقياء والمخربين، وأهاب دي مورجان بالمسؤولين سرعة ضبط هؤلاء الجناة ومعاقبتهم بأشد عقوبة على هذا الفعل، لأن ذلك سيكون - من غير شك - "مفيداً بالنظر إلى حفظ باقي الآثار".

ثم انتقل دي مورجان إلى معالجة المسألة من وجهة نظر أعم وأشمل، فأكد على أنه "من الضروري أن تكون مصلحة الآثار مستندة إلى قانون صريح صارم" لأن المحاكم لم تنجح حتى الآن في منع وقوع مثل هذه الحوادث، بل إنها فشلت كذلك في منع أمور أقل خطورة من ذلك مثل عمليات الحفر والتنقيب الفردية وغير القانونية، وذلك لأن المحاكم لا تحكم على الجناة عادة إلا بغرامة بسيطة لا تتعدى بضعة قروش، وحتى هذه الغرامة لا تكون إلا في حالات نادرة، ومن ثم فإنه لا بد من تصنيف هذه المخالفات في عداد الجنايات حتى يمكن بذلك وضع حد لها والقضاء عليها، وذلك لأن العقوبات المقررة للجناح بسيطة جداً ولا تكفي لمعاقبة هؤلاء الأشقياء، وختم دي

مورجان كلامه في إفادته التي بعث بها إلى نظارة الأشغال يطالبها فيها بوضع قانون صارم يعاقب بموجبه من يخربون الآثار، ختمها بالقول بأن سن هذا القانون " هو من أشد الضروريات ".

ثم بعث دي مورجان بإفادة أخرى إلى نظارة الأشغال العمومية بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٨٩٣ م (٥ جماد الآخر ١٣١١ هـ) لكي تقوم بعرضها على مجلس النظار مع الإفادة الأولى، وقد ذكر دي مورجان في هذه الإفادة الأخيرة أن الخديوى عباس حلى الثانى (٨ يناير ١٨٩٢ - ١٨ ديسمبر ١٩١٤ م / ٧ جماد الآخر ١٣٠٩ - ٣٠ المحرم ١٣٣٣ هـ) لما بلغ إلى مسامحه أنباء حادثة تخريب مسطبة سفارة استدعى دي مورجان لمقابلته، وأظهر له الخديوى أثناء المقابلة " ميله إلى سن قانون تودى أحكامه إلى وقاية الآثار التاريخية " ومن ثم فإنه - أى دي مورجان - يلتبس من أعضاء المجلس إجراء ما يلزم لتنفيذ هذه الإرادة السامية وذكر دي مورجان مجلس النظار بالمحاولات التي بذلها سلفه جربو في سبيل تشريع مثل هذا القانون، ولعله يشير بذلك إلى مشروع قانون ٤ فبراير ١٨٨٨ م والذي عالج في مادتيه : الثانية عشرة، والثالثة عشرة مسألة معاقبة من يخربون أو ي تلفون الآثار القديمة، وقد ذكرنا قبلاً أن مشروع هذا القانون لم يحظ بموافقة مجلس النظار ربما بسبب بنوده المتشددة وأكد دي مورجان أنه قد وجه اهتمامه إلى هذا الموضوع بصفة شخصية، ولكن نظراً لأنه لم يكن من الأكفاء في التشريعات القضائية فقد قابل بنفسه مستشار الخديوى للشئون القضائية وسلمه بياناً بجميع الحالات التي حدثت من هذا النوع منذ توليه إدارة مصلحة الآثار التاريخية لعلها تساعد في سن مشروع القانون المنتظر.

ولفت دي مورجان أنظار المجلس إلى مسألة هامة وهي أنه من الواجب " ألا يقتصر القانون المنوه عنه على الآثار التاريخية فقط [يقصد القديمة] بل يجب أن يتناول أيضاً الآثار العربية، وعلى ذلك يُقتضى أن توضع في هذا القانون أحكام عمومية شاملة لجميع المباني والمحلات التي يقصدها المتفرجون... إذ أنه يخشى على المساجد والمباني التي لا تقام فيها الشعائر الدينية من الاعتداء، كما يخشى على الهياكل والآثار التاريخية " (١٩٠)، وأوضح دي مورجان أنه قد كان كاشف بذلك لجنة حفظ الآثار العربية، وأنهم قد شاركوه الرأي بوجود من مثل هذا القانون.

قامت نظارة الأشغال بعرض هاتين المذكرتين على مجلس النظار بعد أن شفعهما بمذكرة ثالثة من طرفها تعضد فيها طلب دي مورجان بسرعة " اتخاذ الوسائل الفعالة لمنع وقوع حوادث مثل هذه في المستقبل، ووقاية الآثار التاريخية بكيفية بالغة حد الشدة، وذلك بسن قانون خصوصى صريح شديد العقوبة " وقام مجلس النظار من ناحيته بدراسة هذه المذكرات جميعاً في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٨٩٣ م (١٧ جماد الآخر ١٣١١ هـ) حيث انتهى إلى القرار التالى : " يصير تحضير مشروع القانون بواسطة مسيو دي مورجان مع قلم قضايا نظارة الأشغال ثم يعرض على المجلس " (١٩١).

ولأمر ما لم تقف عليه لم يصدر هذا القانون، بل وربما حتى لم يتم وضع مشروعه من الأساس، وفيما عدا هذه المحاولة لم يُجرِ دى مورجان خلال السنوات الخمس التي أقامها في مصر مديراً لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري أدنى اهتمام لمسألة سن تشريعات أو قوانين تتعلق بالمحافظة على الآثار المصرية أو التنقيب عنها تضاف إلى حصيلة القوانين والتشريعات التي كانت موجودة بالفعل، بل على العكس من سلفه (جريبو) تماماً فقد انتهج دى مورجان سياسة متسامحة إزاء منع تصاريح الحفر والتنقيب لمن يستحق ولن لا يستحق، حتى إن جريدة "المقتطف" قد نشرت في عددها الصادر في شهر أكتوبر من عام ٨٩٥ م (ربيع الآخر ١٣١٣ هـ) رأياً لعالم المصريات الألماني شفينفرت قال فيه: "كنا نشكو قبلاً من صعوبة نيل الرخصة للتنقيب، أما الآن فصارت الشكوى من سهولة نيلها وكثرة الناقلين ووفرة الآثار المكتشفة، وصار النقب يباح لأناس لا يعلمون شيئاً من أمر الآثار وقيمتها" (١١٦)

بعد رحيل دى مورجان خلفه مواطنه فيكتور لوريه (يونيو ١٨٩٧ م / المحرم ١٣١٥ هـ) الذي أحيا من جديد فكرة تشريع قانون بعقوبات يسرى على الوطنيين والأجانب الذين يحفرون في المحلات الأثرية الممنوع الحفر فيها قانوناً، أو يتلفون المباني التاريخية أو يختلسون أنتيكات من أراضي الحكومة، وقالت نظارة الأشغال في مذكرتها التي رفعتها إلى مجلس النظارة بهذا الصدد: إنها "قد صادفت حتى الآن صعوبات كلية، ولم تتحصل على منع ارتكاب الجنج فيما يختص بالحفر الممنوع قانوناً في المحلات الأثرية، وإتلاف المباني التاريخية، واختلاس الأنتيكات من أراضي الحكومة، فإن هذه الجنج لم تعين بالحقيقة تعييناً صريحاً في نص من النصوص القانونية" ولمعالجة هذه المسألة أرفقت النظارة بمذكرتها مشروع أمر عالي بعقوبات مقررته لهذه المخالفات مصدق عليه من اللجنة التشريعية ومحكمة الاستئناف المختلطة، والتمست النظارة من المجلس عرض القانون - بعد اعتماده - على الحاضرة الخديوية للتوقيع عليه، وأعرب وكيل نظارة الأشغال للمجلس عن أنه يود حضور الجلسة التي يتداول فيها المجلس في هذه المسألة. وقد تضمن مشروع الأمر العالي المقترح ثلاث مواد، الثالثة منها ذات صفة إجرائية:

المادة الأولى: يعاقب بغرامة من خمسين قرشاً إلى مائة قرش، وبالسجن من ثلاثة أيام إلى أسبوع:

أولاً: من باشر حفراً في أرض للحكومة بلا رخصة.

ثانياً: من استولى على شيء من الأشياء الأثرية (الأنتيكات) التي تمتلكها الحكومة خلاف ما هو محفوظ في المتاحف والمباني الأثرية أو نقل تلك الأشياء بقصد امتلاكها.

ثالثاً : من تسبب في إتلاف أو تخريب أثر من الآثار القديمة أو تدمير بناء من الأبنية القديمة تدميراً جزئياً أو كلياً، أو تسبب في تشويه ما في ذلك البناء من النقوش البارزة والتماثيل والكتابات أو كتب عليها أسماء وكتابات.

رابعاً : من أخذ سباحاً من مكان ممنوع أخذه منه، ويجوز قبول الظروف المخففة للعقوبة.

المادة الثانية : يحكم القاضى زيادة على هذه العقوبة بأن تعاد للحكومة جميع الأشياء الأثرية التى أوجبت حصول المخالفة.

المادة الثالثة [الإجرائية] : على ناظر الأشغال العمومية والحقانية تنفيذ أمرنا هذا كل فيما يخصه (١١٣).

بحث مجلس النظار مذكرة الأشغال في جلسته التى عقدها بتاريخ ٨ يوليو ١٨٩٧ م (٧ صفر ١٣١٥ هـ) وقرر إحالة مشروع الأمر العالى المرفق بها إلى مجلس شورى القوانين لإبداء الرأى.

عرض مشروع الأمر العالى على مجلس شورى القوانين في جلسته المنعقدة في اليوم الأول من أغسطس عام ١٨٩٧ م (٢ ربيع الأول ١٣١٥ هـ) فوافق عليه، غير أن أحد أعضائه - ويدعى إبراهيم بك سعيد - قد اقترح إدخال تعديل على الفقرة الأولى من المادة الأولى ليكون منطوقها كما يلى : " أولاً : من باشر حفراً في أرض للحكومة ممنوع الحفر فيها بلا رخصة " وقد قوبل هذا التعديل من جانب الأعضاء " باستحسان عام " (١١٤).

أعيد مشروع القانون مرة أخرى مع التعديل المقترح إلى مجلس النظار لإقراره بصفة نهائية، غير أن أعضاء المجلس قد رأوا أن التعديل الذى اقترحه مجلس شورى القوانين " لا حاجة له اكتفاء بنص الفقرة الرابعة من المادة المذكورة القاضية بعدم أخذ السباح من مكان ممنوع أخذه منه، إذ لا عذر سوى أخذ السباح يعنى أحداً من العقاب إذا باشر حفراً في أرض للحكومة بلا رخصة " (١١٥) ومن ثم فقد أقر مجلس النظار صدور القانون كما هو بدون تعديل، وقد كان ذلك بتاريخ ١٢ أغسطس ١٨٩٧ م (١٣ ربيع الأول ١٣١٥ هـ). وهكذا ظهر القانون الذى جامد جريبو ودى مورجان ولوريه سنين طويلاً من أجل إصداره، وإن كان يمكن القول - بدون مبالغة - بأنه قد ولد هزلاً بل ولد ميتاً، فإن عقوباته

التي تقررت لمواجهة المخالفات التي وُضِع القانون من أجل وضع حد لها والقضاء عليها ليست رادعة على الإطلاق، وعقوبته المالية - بصفة خاصة - جد بسيطة، ولا يعترض علينا في ذلك باختلاف القيمة النقدية زمن تشريع القانون عما هي عليه الآن، فنحن حين أصدرنا حكمنا هذا إنما نظرنا إليها في هذا الإطار، أعنى قيمتها في عصرها، وتفصيل ذلك أنه لدينا ما يؤكد أن عدد العمالة العادية - وأعنى بها الوظائف غير الفنية - العاملة في مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى كان يبلغ سنة ١٨٨٧ م تسعة وستين عاملاً ما بين مشرفي حفائر ونجارين ومرمخين

وفراشين وسعاة وعتالين وبوابين وخفراء ونحو ذلك من العمال الذين ينتمون إلى الفئة الاجتماعية التي يتوقع منها - عادة - القيام بمثل هذه المخالفات التي وضع من أجلها القانون، ولا سيما مخالفتي إتلاف وتخريب الآثار. وأخذ السباخ من التلوث القديمة، فضلاً عن أن هذه الفئة هي الأقل دخولاً من بين فئات المجتمع المصري من ذوات الدخل الثابت مما يجعل من أخذها في الاعتبار عند القيام بإجراء مقارنات من هذا النوع ضرورة ملحة وأمر لا بد منه. هذه العنبة من العمال ذات التسعة وستين عاملاً كانت تتقاضى مرتباً شهرياً يبلغ مجموعه مائة وسبعة جنيهات مصرية بمتوسط مقداره (١,٥٥) جنيهاً للعامل الواحد شهرياً^(١١٦). فإذا أخذنا في الاعتبار الزيادة التي طرأت على الدخول طوال عقد كامل - منذ ذلك الوقت (١٨٨٧ م) وحتى صدور القانون (١٨٩٧ م) - وإذا أخذنا في الاعتبار كذلك مسألة قبول الظروف المخففة للعقوبة والتي نص عليها القانون، ثم إذا أخذنا في الاعتبار - أخيراً - ما يمكن أن يحققه المخالفون من مكاسب مادية ضخمة من جراء بيع ما قد يعثرون عليه من آثار قديمة، وذلك بالنسبة لمخالفة الحفريين رخصة: أقول: إذا أخذنا كل ذلك في الاعتبار فإننا لا نكون قد جدنا عن جادة الصواب كثيراً إذا حكمنا على العقوبة المالية التي نص عليها قانون سنة ١٨٩٧ م بأنها غير رادعة، إذ أن هذه العقوبة في حددها الأدنى تقل كثيراً عن ثلث الدخل الشهري الثابت لموظف بسيط، ومما لا شك فيه أن قوة الردع لهذه العقوبة المالية تخف حدتها كثيراً متى كان المخالفون من ذوى النزعات الغربية والهوايات العجيبة مثل نزعة إتلاف وتحطيم الآثار القديمة دون مبرر، وذلك على النحو الذي كان عليه الأشخاص الذين خربوا مسطبتى سقارة من غير نفع يرجونه.

باستثناء هذا القانون لم يقدم لوريه شيئاً آخر في مجال التشريعات الأثرية خلال السنتين اللتين قضاهما مديراً لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري إلى أن اضطر إلى الاستقالة في ديسمبر عام ١٨٩٩ م (شعبان ١٣١٧ هـ) بسبب خلافاته مع الإنجليز، ولكن لوريه - رغم استقالته من مصلحة الآثار - ظل على حبه للآثار المصرية، فقد أسس بعد عودته إلى فرنسا معهداً لدراسة الآثار المصرية القديمة بمدينة ليون عرف باسم "معهد فيكتور لوريه للمصريات"^(١١٧).

عاد ماسبيرو مرة أخرى إلى إدارة مصلحة الآثار المصرية في ديسمبر عام ١٨٩٩ م، وتمكن بعد عودته مباشرة من أن يستخلص أمراً عالياً باعتبار عدد من مفتشى مصلحة الآثار - الذين كانت المصلحة قد قامت بتعيينهم مؤخراً في وظائف جديدة استحدثتها - من مأموري الضبطية القضائية، وذلك أسوة بزملائهم الذين كانوا قد اكتسبوا هذه الصفة بمقتضى الأمر العالى الصادر في أول أغسطس ١٨٩٢ م^(١١٨).

وفي ١٠ مايو ١٩٠١ م (٢١ محرم ١٣١٩ هـ) نجح ماسبيرو - عن طريق مجلس النظار - في فرض لائحة جديدة لأخذ السباخ وافق عليها المجلس بالتاريخ المذكور، وهي لائحة مفصلة تفصيلاً

دقيقاً، وتدل الدقة التي صيغت بها تلك اللائحة على مدى عمق المشكلة التي كانت تمثلها عملية أخذ السباح - وما يتبعها من تسرب كثير من الآثار القديمة إلى أيدي التجار والمهربين - بالنسبة لمصلحة الآثار المصرية، وعلى أية حال فهناك مواد اللائحة :

المادة الأولى :

لا يباع السباح الذي على التلال والأراضي الأثرية (الكفريّة) الخاصة بالحكومة، وهي تابعة لمصلحة الآثار التاريخية، بل يباح للناس أخذه مجاناً لكن برضى المصلحة ومراقبة عمالها.

المادة الثانية :

لا يسوغ أخذ السباح من كامل سطح تل من تلك التلال، أو أرض من تلك الأراضي الأثرية في آن واحد إلا متى كانت مساحة ذلك السطح قليلة، وشكله يمكن الخفراء المعيّنين في الجهة من مراقبة ذلك مراقبة صحيحة، أما إذا كان الأمر بخلاف ذلك فلكي تكون المراقبة صحيحة لا يؤخذ السباح إلا من نقط معلومة يتفق مفتشو المصلحة والسلطة المحلية معاً على تعيينها من قبل، فمتى بوشر العمل في تلك النقط لا يجوز الانقطاع عنه إلا متى نفذ جميع السباح الذي فيها، فإذا وجد أحد يأخذ سباحاً في غير حدود النقط المذكورة يعد مخالفاً ويعاقب بالعقوبات المفروضة لمثل هذا الارتكاب.

المادة الثالثة :

في الجهات التي للمصلحة فيها خفراء تمليون (مقيمون) يترتب على هؤلاء الخفراء بحكم وظيفتهم نفسها أن يراقبوا أخذة السباح، وليس لهم حق ما بمكافأة إضافية لا من قبل المصلحة ولا من قبل أخذه السباح.

المادة الرابعة :

في الجهات التي ليس فيها خفراء على الإطلاق، والجهات التي يكون عدد الخفراء التملين فيها غير كاف لمراقبة أخذة السباح مراقبة وافية، فالمصلحة توعز إلى مفتشيها في تلك الجهة بإقامة خفراء على نفقتهم خاصة. ويكون تعيين هؤلاء الخفراء مؤقتاً في كل مدة الأخذ، وعددهم بنسبة مساحة السطح الذي يراد استخراج السباح منه، وموقع البلاد التي تستخرجه، وعدد الأشخاص الذين يريدون استخراجها.

المادة الخامسة :

على الخفراء الوقتيين أن يقدموا عين الضمانة التي يقدمها الخفراء التمليون، وتكون أجرة الخفير الواحد منهم خمسين مليماً في اليوم، وللقيام بهذه الأجرة تفرض على أخذة السباح فريضة تقدر السلطة المحلية ما يخص النفر الواحد منها، ثم يسلم ما يُحصل منها للمركز وهو يسلمه

لمفتش المصلحة، وهذا يدفع أجرة كل خفير على قدر الأيام التي يكون قد أقامها في الملاحظة، ويبعث بالوصلات إلى الإدارة العمومية لمراجعتها ثم حفظها.

المادة السادسة :

على أخذ السباخ قبل أخذه بأسبوع واحد على الأقل إخطار مفتش الجهة بعزمهم على الأخذ من النقطة التي يريدونها لكي يكون للمفتش الزمن الوافي لانتقاء الخفراء لتدبير أمر الملاحظة على ما تقتضيه أحكام هذه اللائحة.

المادة السابعة :

القاعدة في أخذ السباخ أن يكون أخذه في النهار لتيسير ملاحظة أخذه ملاحظة صحيحة، ويبتدى ذلك بعد الشروق بساعة واحدة، وينتهي قبل الغروب بساعة واحدة أيضاً، على أنه إذا تعذر الأخذ في النهار في أية جهة من الجهات أو فصل من الفصول فيجوز استثناء مباشرته بالليل، على شرط أن يدفع أخذه السباخ أجرة ضعف عدد الخفراء الذين يقتضى استخدامهم فيما لو كان الأخذ بالنهار.

المادة الثامنة :

كل ما يظهره أخذه السباخ من خرايب المباني - سواء كانت من الحجر أو الطوب - والأعمدة والمسلات والنقوش والتماثيل والمساخيط والعوز^(١٩) والتمائم وخرز القلايد والحلي والمسكوكات النحاسية والذهبية والفضية والبردى والرق والنواويس والتوابيت والمومياء الإنسانية والحيوانية وكل متاع أثرى مهما كانت قيمته وزمنه يكون كله ملكاً صحيحاً شرعياً للحكومة المصرية، ويجب إبلاغ الخفير القائم على العمل به أو تسليمه إليه وهو يسلمه إلى مفتش الجهة فيأخذه بالنيابة عن مصلحة الآثار التاريخية، أما الطوب الأحمر والشقف وكسر الزجاج وحطام الحجر النحت وبقايا السيمنتو والحمره وبالجملته كل ما يوجد في السباخ من المهمات الأثرية فيجب تركه في مكانه والمصلحة تبيعه لنفسها عندما يتسنى لها بيعه.

المادة التاسعة :

كل من يعثر في أثناء أخذه السباخ على شيء من الأمتعة الأثرية مما هو مذكور في المادة السابقة ويبلغ به الخفير يكافأ مكافأة يعين المفتش مقدارها، وإذا اختلف فيها فتعينها إدارة العموم بحسب أهمية الشيء المعثور عليه، ومن يقبل على إتلاف شيء من هذه الأمتعة أو يقدم على استملاكه يعاقب بعقوبة الاختلاس الواردة في القانون المصري، وكل خفير يبلغ بأشياء أثرية مكشوف عنها أو يضبطها يعطى (تنشيطاً له) ما كان يستحقه أخذ السباخ من المكافأة فيما لو أبلغ هو بتلك الأشياء.

المادة العاشرة:

لا يسوغ لتاجر من تجار الأنتيكات أو وكيل تاجر من هؤلاء التجار مغالطة أخذه السباخ أو الدنو منهم أثناء مباشرة عملهم، ومن يرى في محل العمل فهو مخالف لهذا الحكم فيضبطه الخفير ويسلمه لبوليس الجهة بمثابة مرتكب جنحة التحريض على السرقة^(٢٠٠).

وأخيراً فإنه بصدر القانون رقم ١٤ لسنة ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ) الخاص بالآثار المصرية^(٢٠١) وقد كان ذلك في عهد ماسيرو أيضاً - تكون قد اكتملت بذلك منظومة التشريعات واللوائح والأوامر والقوانين المتعلقة بالآثار المصرية في القرن التاسع عشر، فقد نظم هذا القانون جميع المسائل ذات الصلة بالآثار القديمة من الحفر عنها والتنقيب عليها والمتاجرة بها وإتلافها وامتلاكها ونقلها إلى الخارج تنظيمياً دقيقاً بحيث أصبح هذا القانون والقرارات المفسرة والمكملة له هو المعول عليه في هذا الإطار وذلك لعدة عقود من الزمان حتى قال عنه الدكتور كاريه Carre مدير متحف بروكسل وأحد أكبر علماء المصريين في النصف الأول من القرن العشرين: "إن في مصر قانوناً للعاديات (الحفريات)، ومصلة الآثار والحكومة تمنح حق التنقيب في الأطلال القديمة بشروط دقيقة جداً حبذا لو طبقت في جميع البلدان الأوروبية التي كثيراً ما تترك آثارها لأيدي السلب والنهب"^(٢٠٢).

وإذا كنا بصدد المقارنة بين تشريعات الآثار الصادرة في مصر، ومثيلتها الصادرة في الدولة العثمانية صاحبة السياسة الإسمية على مصر؛ فإننا كنا قد أشرنا قبلاً إلى القانون السلطاني الصادر في سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٥ م والقاضى بتطبيق عقوبات على المتسببين في هدم وتخريب وإتلاف الآثار القديمة، والذي قام سعيد باقتباس نصه وتطبيقه في مصر، ثم أصدر الأتراك في مارس من سنة ١٨٦٩ م (ذى القعدة ١٢٨٥ هـ) قانوناً آخر للآثار القديمة يضم سبع مواد، وأول ما يلاحظ على هذا القانون أن إدارة الآثار في كلا البلدين كانت تتبع - عند نشأتها - الجهة المسؤولة عن التعليم (ديوان المدارس في مصر ونظارة المعارف في تركيا) حيث نصت المادة الأولى من القانون المذكور على أن "كل رخصة للتفتيش على الآثار في بلاد عظمة السلطان يجب أن تقدم من الآن فصاعداً إلى وزارة المعارف، ولا يمكن حفر الأراضى في أية جهة بدون الحصول على رخصة رسمية".

بينما عالجت المادة الثانية مسألة منع تصدير الآثار القديمة إلى الخارج: "ممنوع حتماً على الأشخاص الذين يفتشون في السلطنة على الآثار القديمة برخصة الحكومة أن ينقلوا هذه الآثار إلى البلاد الخارجية ولكن لهم الخيار في بيعها داخل المملكة إلى الأفراد أو إلى الحكومة إذا طلب منهم ذلك".

ونصت المادة الثالثة على أن : " كل أثر قديم يكشف عنها في الأطلال المختصة بالأفراد يكون ملكاً لصاحب تلك الأملاك " وهو مبدأ لم تعرفه قوانين الآثار المصرية قديماً أو حديثاً.
واستثنت المادة الرابعة من القانون النقود القديمة بأنواعها من حكم " منع التصدير الوارد في المادة الثانية " منه. وقضت المادة الخامسة بأن " كل رخصة تعطى للبحث عن الآثار تقتصر على الآثار المدفونة في باطن الأرض، ولا يسمح لأي من كان بأن يمس أو يتلف الآثار القديمة ومتعلقاتها الكائنة على وجه الأرض، وكل من يتعدى ذلك يجازى بحسب القانون."

وفي تركيا - كما في مصر - يظل الباب مفتوحاً دائماً لاستثناءات ومجاملات محتملة : " قبول طلب إحدى الدول الأجنبية مما يتعلق بالآنتيكات يتوقف على إرادة سلطانية تصدر خصوصياً لذلك " طبقاً لمنطوق المادة السادسة من القانون.

بينما أعطت المادة السابعة والأخيرة من القانون ميزة لعلماء الآثار وللجمعيات العلمية المتخصصة في الدراسات الأثرية، والعاملة في مجالات التنقيب عن الآثار : " الأشخاص الحاصلين على معارف خصوصية للتفتيش على الآثار القديمة وبمكثهم إثبات ذلك أمام نظارة المعارف العمومية، يعهد إليهم من قبل الحكومة السنية بإجراء البحث على نفقاتها، وينالون من الحكومة السلطانية مأموريات خصوصية لنفس الغاية، وعلى الأشخاص المذكورين الراغبين في ذلك أن يصدروا طلباتهم إلى نظارة المعارف العمومية " (٢٠٢).

على أن الأتراك قد سبقوا المصريين بعقود كثيرة في سن تشريع متكامل يجمع كافة النواحي المتعلقة بالآثار القديمة بحيث جاء التشريع جامعاً مانعاً لم يترك صغيرة ولا كبيرة من شئون الآثار القديمة - تنقيباً وحيازة وتجارة وتصديراً وعقوبة على إتلافها - إلا وقام بتقنينها ووضعها في إطارها الملائم حتى خرج القانون على أحسن ما يتوقع وينتظر من قانون وضى يشرع لمعالجة مسألة من هذا النوع، ولا غرو في ذلك ؛ فإن الأتراك ينحدرون من سلالة مشرعين عظام، ولهم خبرة طويلة بسن وتشريع القوانين.

ويتألف هذا القانون الذي صدر في ٢٤ مارس ١٨٧٤ م (٣٠ صفر ١٢٩١ هـ) من أربعة فصول تضم ستاً وثلاثين مادة يهمن منها خمساً :

المادة الأولى التي تلقى الضوء على نظرة الأتراك وتفهمهم لطبيعة الأثر القديم " كل صنف من الأشغال الفنية قديم التاريخ يعتبر أثراً قديماً " وهو تعريف عام للأثر القديم لا يحدده بفترة زمنية معينة تبين نوعه كما هو الحال في مصر القرن التاسع عشر من تقسيم الأثر إلى قديم (ما قبل الإسلام)، ثم إسلامي أو عربي.

والمادة الثانية التي تنص على أن " الآثار القديمة نوعان : أولهما النقود، والثاني كل شيء

يمكن نقله أو لا " .

والمادة الثالثة التى تنص على أن " الأنتيكات التى يكتشفها أولئك الذين فى يدهم رخصة من الحكومة يكون ثلثها للحكومة والثلث الثانى لمن وجدها والثلث الأخير لصاحب الأرض، وإذا كان صاحب الأرض هو الذى وجد الآثار فى أرضه فالثلثان له والثلث الثالث للحكومة " وذلك بخلاف الطريقة المصرية فى التقسيم، وهى طريقة التقسيم مناصفة أو ما تطور عنها.

ثم المادة السابعة عشرة التى شرعت للحد من مشاركة القناصل والدبلوماسيين - أترافاً وأجانب - فى عمليات التنقيب عن الآثار القديمة، ومنعهم فى استغلال نفوذهم ومكانتهم للترويج من التجارة غير المشروعة فى الآثار القديمة، حيث نصت المادة على أنه " لا يجوز إعطاء الرخصة لكائن من كان من مأمورى الحكومة السلطانية أو مأمورى الدول الأجنبية للبحث عن الآثار لحسابهم فى الجهة التى تكون فيها مأمورياتهم ".

وأخيراً المادة الخامسة والثلاثون القاضية بأن " من يتجاسر على هدم أو إتلاف الآثار القديمة المنصوبة فى المحلات العمومية يجازى بحسب نص المادة ١٣١ من قانون الجزاءات " العقوبات " الهامبولى بأن يدفع تعويضاً وجزاءً نقدياً ويسجن من شهر إلى سنة " (٢٠٤) والمقارنة بين قوة الردع والجزاء فى هذه المادة وبين قوته فى القانون المصرى الهزيل الذى صدر عام ١٨٩٧ م تغنى عن الكلام.

ولكنه وفى الدولة العثمانية - كما فى مصر - يودى الإهمال واللامبالاة وغياب الرقابة وانعدام الإحساس بالمسئولية وخراب الذمم وفساد الضمان إلى غلّ القوانين المفروضة عن مواجهة السلبات التى شرعت تلك القوانين لمواجهتها والقضاء عليها، فالوثائق التركية تتحدث هى الأخرى عن : " إخراج وتهريب جملة آثار عتيقة ذات قيمة بناء على مسامحة مأمورية الرسومات حالة عدم وجود رخصتنا منه رسمية بيدهم " وتطالب " بالتنبيه على من يلزم بإجراء التقييدات الكاملة بالنسبة لمأمورية الرسومات لأجل عدم تهريب آثار عتيقة بعد الآن " (٢٠٥) فالخلل - إذن - ليس فى القوانين، وإنما فى تطبيق القوانين.

على أية حال فإننا إذا سرنا على نهج التقسيم التركى للآثار القديمة إلى ثابتة أو منقولة ونقود، فإننا نكون بذلك قد انتهينا لتونا من عرض كافة القوانين والتشريعات المتعلقة بالقسم الأول من الآثار القديمة، وأعنى به الآثار التى يمكن نقلها أو لا، ويتبقى لنا الآن أن نعرض للتشريعات المتعلقة بالقسم الثانى منها وهو النقود الأثرية.

ثانياً : النقود الأثرية :

والحق أنه لم تكن هناك تشريعات وقوانين ثابتة تقرر كيفية التعامل مع النقود الأثرية المكتشفة وإنما كانت الحكومة المصرية تتعامل مع كل حالة من هذا النوع على حدة، وذلك حسبما يتراءى لها اتخاذها من قرارات، وربما كان فلاح شبين القناطر (٢٠٦) الذى عثر فى السبخا بطريق

المصادفة على قدر كبير من النقود الأثرية النحاسية خلال صيف عام ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ) هو أول من لفت أنظار الإدارة المصرية إلى قيمة هذه اللقاي، ومن ثم فقد أصدر محمد على أمراً إلى مرموسيه يقول لهم فيه : " إنه أحياناً توجد نقود أثرية مثل هذه النقود يكون لها قيمة عظيمة، وبناء عليه : ففى مثل هذه المواد يجب أولاً عرض الكيفية على الاعتبار السنية للنظر فيما يجب إقراره^(٢٠٧) ولكن موظفى محمد على قد حملوا هذا الأمر على محمل التشديد على الأهالى الذين يعثرون على أشياء من هذا النوع، وضبط تلك الأشياء وتوريدها لحساب الخزنة، لما رأوا من محمد على رغبته المطلقة فى الاستحواذ على كل ما تفلته الأراضى المصرية ظاهرها وباطنها وذلك طمعاً فى كسب تأييده ونيل رضاه، حتى تعرض كثير من الأهالى للعقوبة والسجن بسبب عثورهم على الأشياء، وهو الأمر الذى أدى إلى تدخل مجلس الأحكام ومطالبته لديوان الخديوى بسرعة إصدار الأوامر اللازمة إلى هؤلاء المسئولين بإطلاق صراح المحبوسين فى أمثال هذه القضايا^(٢٠٨)، بل وكذلك مطالبته بدفع ما يوازى قيمة هذه العملات الأثرية التى يعثر عليها الأهالى من العملة الدارجة للذين يجدون شيئاً من ذلك بعد مصادرة العملات الأثرية المكتشفة وتوريدها لجانب الميرى " حتى إذا أحداً وجد شيئاً^(٢٠٩) لا يخفيه ويخبر عنه ".

وشدد مجلس الأحكام على أنه من الضروري : " إذا كان يوجد أوادم مثل هولاء ويوجدوا شيئاً مثل ذلك^(٢١٠) بالأرض فليس من الواجب إهانتهم ولا سجنهم، بل إنه يصير ملاطفهم ويتعاملون بالتي هى أحسن، ويتخصص لهم شيء معلوم فيما يوجدوه، حتى يصير لهم الضمانينة، وفيما بعد إذا وجد شيئاً^(٢١١) يحضر يعرض عنه إلى الديوان الخديوى بقلب غير مراتب^(٢١٢)، ومنذ الإفادة السابقة التى حررها مجلس الأحكام إلى مأمورى الضبطية فى منتصف عام ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) بخصوص " ما يوجد فى الخبايا من اللقاي " صار ما ارتآه المجلس المذكور من مصادرة العملات الأثرية المكتشفة لصالح الخزنة وصرف قيمتها من العملة الجارية لمن عثر عليها هو القاعدة المتبعة التى يجرى العمل بها والسير عليها عند معالجة هذه القضايا، فقد حدث فى سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٢ م) أن أرسلت مديرية الغربية إلى المعية السنية عدة عملات ذهبية قديمة كان قد عثر عليها رجلان من هذه المديرية أثناء أخذ السباح، وكان قرار المعية السنية " أنه يجرى إرسالها إلى الضريخانة^(٢١٣) ويعطيان بدلها عملة من الجارى استعمالها " ^(٢١٤) كما حدث فى سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م) أن بعض أهالى قرية ششت الأنعام^(٢١٥) بمديرية البحيرة قد عثروا على بعض عملات أثرية ذهبية وفضية فصدر النطق السامى " باستلامها منهم وصرف قيمة أثمانهم لأربابهم^(٢١٦)،

وفى مقابل ذلك كانت هناك إجراءات عقابية لمن يعثر على عملات من هذا النوع ولا يقوم بإبلاغ السلطات عنها، مثلما عوقب هؤلاء الأربعة من ناحية أشمون الرمان^(٢١٧) بمديرية القليوبية

والذين " كانوا يحفرون في رابية قديمة بهذه الناحية فعثروا على مسكوكات من الزمن القديم وتقاسموها فيما بينهم، ولما نما الخبر إلى الحكومة صار التحقيق في ذلك فتيبن أن كل واحد أخذ ما قيمته ستة آلاف [قرش] وكسر، فصار تحصيله منه وإضافته لجانب الديوان، وصار إعطاء المخبر تلك القطعة الذهبية التي أتى بها " (٢١٨).

على أنه كان من الصعب على حكومة متقلبة الأحوال وغريبة الأطوار مثل حكومات مصر في القرن التاسع عشر أن تسير على منوال واحد لمدة طويلة من الزمن، ومن ثم فقد كانت الحكومة تأمر - في بعض الأحوال - بترك النقود المكتشفة كاملة لمن وجدها، وذلك كما في حالة الكنز الثمين الذي عثر عليه رجلان من ناحية بليس (٢١٩) في سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٥٧ م) والذي بلغ ثلاثمائة وسبعاً وستين عملة فضية، وكان من حسن حظ واجديه أنهم عوملوا بكرم وافر من حكومة سعيد التي قضت بمنحهم النقود التي عثروا عليها كاملة (٢٢٠).

وببدو أن سعيداً وحكومته قد كانا متسامحين إزاء الأهالي الذين يعثرون على شيء من ذلك، فقد أصدر سعيد أمراً في حالة مماثلة للواقعة السابقة يقضى كذلك برد النقود المكتشفة إلى أصحابها، وكانت تسعاً في هذه المرة (٢٢١)، كما قضى سعيد في سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م) بالعفو عن ثلاثة أشخاص من أهالي قرية الصوامعة (٢٢٢) بمديرية جرجا كانت الحكومة قد سجنهم لمدة من الزمن بسبب عثورهم على عملات ذهبية قديمة ولم يقوموا بالإبلاغ عنها (٢٢٣) وشدد سعيد في عفوه الذي أصدره على أنه " من الآن فصاعداً لا يحصل مثل ما حصل مع الثلاثة أشخاص المار ذكرهم من أنواع التهديد والتشديد ونحوه، مادام أن كل من وجد شيئاً فهو له " وأمر سعيد بأن " يصير قرز الذي وجد جميعه، وما يوجد منقوشاً باللغة العربية يعطى لأربابه كل بقدر ما أخذ منه، وأما ما يكون منقوشاً بلغة خلاف العربية فجميعه يرسل إلى مخزن أنتيقات الميرى الموجود بالبحرسة (٢٢٤) لتسليمه هناك بالسند اللازم، وقيمة ذلك تصرف نقدية لأربابه من خزينة المديرية ويخصم بالأعبادية " (٢٢٥).

وهكذا كان سعيد والقائمون على إدارة المتحف المصري ينظرون إلى النقود القديمة نظرتهم إلى الآثار القديمة، والتي تتلخص في أن كل ما كان سابقاً على الفتح العربي لمصر يعتبر نقوداً أثرية قديمة ينبغي مصادرتها وحفظها بالمتحف المصري بعد أن يصرف لأربابها قيمتها من العملة الدارجة، أما ما كان بخلاف ذلك من النقود مما ضرب في عصور زمنية تالية للفتح الإسلامي لمصر فهذه لا تعتبر نقوداً قديمة، ومن ثم فإنها ترد للذين عثروا عليها، وذلك عملاً بقاعدة " أن كل من وجد شيئاً فهو له " إذ لم يكن الاهتمام بحفظ الآثار الإسلامية والعربية قد ظهر بعد.

وكان طبيعياً أن يكون المتحف المصري هو جهة الاختصاص التي يرجع إليها لمعرفة ما إذا كانت العملات المكتشفة ينطبق عليها حد الآثار القديمة أم لا، فقد كانت ترسل إليه النقود التي يعثر

عليها ليرى مسئولو المتحف رأيهم في مسألة قدم تلك النقود من عدمه، بحيث تحفظ النقود المكتشفة في المتحف متى كانت أثرية مع صرف تعويض ملائم لصاحب الحظ الذي وجدها، أو ترد إليه بذاتها إن لم تكن كذلك، وهو عين ما حدث في شهر شعبان من عام ١٢٧٧ هـ حين أرسلت المعية السنية إلى ماريت خمس عشرة قطعة نقود أثرية عثر عليها أحد الأهالي أثناء التنقيب عن السياخ " ليرى أهميتها الأثرية للتنقيب عن مثلها، وحفظها بمخزن الآثار " (٢٢٦) غير أنه لما كانت تلك القطع التي وجدت بالسياخ غير أثرية فقد سلمت للشخص الذي عثر عليها (٢٢٧). وذلك بخلاف القطع الذهبية الأخرى التي عثر عليها شرق دير بصره (٢٢٨) بمديرية أسوط، فهذه الأخيرة قد اتضح أنها أثرية بالفعل، ومن ثم فقد صرف ثمنها للذين عثروا عليها بينما أرسلت النقود نفسها إلى مأمور الآثار (٢٢٩).

كذلك أرسلت المالية إلى مصلحة الآثار المصرية في ١٥ جماد الأول ١٢٩٠ هـ (١١ يوليو ١٨٧٣ م) عدة عملات ذهبية وفضية عثر عليها بعض الأهالي من مديرية الدقهلية وذلك " حتى من بعد مناظرتهم فما يكون منهم أنتيكات يجرى حجزه بالمصلحة... وما يكون ليس أنتيكات يتوضح عنه لأجل التحرير للضربخانه باستلامه " (٢٣٠) كما أرسلت إلى المصلحة مرة أخرى في ٧ شعبان ١٢٩٠ هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٧٣ م) نقوداً فضية كان قد عثر عليها بتل قديم بناحية قرية زاوية صقر (٢٣١) بمديرية البحيرة " بالنسبة لما تلاحظ من أن تلك الأصناف أنتيكة بالنسبة لقدمها، وعلى هذا يكون حفظها بالمصلحة أوفق بما أنها معدة لذلك " (٢٣٢) ومفهوم أن مصلحة الآثار التاريخية كانت تعيد تلك النقود المكتشفة إلى المالية ثانية متى اتضح " عدم لزومها لكونهم ليسوا من الأشياء الأنتيكة " (٢٣٣).

وهذا كله في حالة ما إذا نجت هذه المكتشفات من طمع الطامعين، فقد كان يحدث في بعض الأحيان أن تذهب هذه اللقاي في سبيل إرضاء نزعة الجشع وحب التملك لدى بعض حكام مصر، مثلما حدث مع تسع الأربعين عملة ذهبية التي عثر عليها أشخاص من قرية صا الحجر في تل كفرى قديم " حيث إنه بالعرض عن هذه المادة للأعتاب السنية صدر النطق العالي بحفظ القطع المحكى عنها بخزينة جيب مكارم (٢٣٤)، ويكتب إلى [مفتش عموم الأقاليم] عن حصول الممنونة للحضرة الخديوية فيما حصل من ضبط تلك القطع وإرسالها، وإن كل ما يوجد من هذا القبيل يبعث لهذا الطرف " (٢٣٥).

ويبدو أن حكام الأقاليم المصرية المختلفة قد تشددوا في تنفيذ إرادة الخديوى هذه، ومن ناحيتهم شعر الأهالي الذين قادتهم الظروف إلى العثور على مثل هذه اللقاي أن مكتشفاتهم التي عثروا عليها بأنفسهم سوف تذهب لمن لا يستحقونها، وأنهم لن ينالوا منها شيئاً ولو جزءاً يسيراً مكافأة لهم على عثورهم عليها، ومن ثم فقد عمدوا إلى إخفاء ما يعثرون عليه من هذه النقود

والتصرف فيها لمصلحتهم الشخصية، إما بصهرها وإعادة ضربها من جديد عملة دارجة، وإما ببيعها إلى تجار الآثار أو إلى هواة جمع النقود والعملات القديمة من السائحين الأجانب والأثرياء، وكانت هذه السياسة من جانب الإدارة المصرية مثار انتقاد شديد من جانب جريدة "المقتطف" التي كانت قد طرحت المسألة على مائدة البحث في نهاية القرن التاسع عشر بعد أن قام سائح إنجليزي يدعى جون أفانس بزيارة مصر في هذا الوقت للاستشفاء من مرض أصابه، وكان هذا السائح قد اشترى وهو في القاهرة نقوداً رومانية ذهبية كان قد عُثِر عليها حديثاً في مصر، ومن بينها دينار وصف بأنه "لم يكتشف مثله حتى الآن" وكان تجار الآثار قد ابتاعوا هذه النقود الأثرية من الفلاحين الذين عثروا عليها بنحو خمسة آلاف جنيه مصري، ثم باعها هؤلاء بدورهم إلى السائحين الأجانب، ومن ثم فقد عرفت هذه النقود الأثرية طريقها إلى أوروبا وقد علقت "المقتطف" على هذا النبأ بقولها "والظاهر أن الحكومة المصرية لم تدبر بذلك، فخرجت هذه الدنانير من بلادها، ولو أباحت للناس أن يمتلكوا ما يكتشفون من هذه التحف القديمة واشترتها منهم بالثمن الذي يشتريها به غيرها لبقيت في البلاد ولم تخرج منها إلا ما يوجد مثله في دار التحف المصرية، أما مصادرة المكتشفات على الوجه المتبع الآن فيدعوا المكتشفين إلى إخفائها وبيعها للأجانب فتخرج من البلاد، وفي ذلك من الخسارة المادية قدر ما فيه من الخسارة الأدبية، لأن بقاء التحف النادرة في هذا القطر يغري كثيرين بزيارته، وهم ينفقون الأموال الطائلة في هذه الزيارة فتربح البلاد منهم أكثر مما تتفق حكومتها على ابتياع هذه التحف" (١٣٦)، وأنت ترى أن هذا الرأي السديد الذي ارتآه محررو جريدة "المقتطف" لا يختلف في جوهره كثيراً عما رآه أعضاء مجلس الأحكام الملكية في مداوالتهم التي أجروها حول هذا الموضوع منذ ما يزيد على ستة عقود من الزمان، مما يؤكد أن إعجابنا بحصافة رأي أعضاء هذا المجلس لم يأت من فراغ.

وباستثناء هذه الأوامر العلية والإفادات الصادرة من المجالس المختلفة والأراء الفردية الخاصة بمسألة النقود الأثرية المكتشفة لم تضع الحكومة المصرية تشريعاً مستقلاً مفصلاً يعالج هذه القضية، اللهم إلا ما ورد ذكره عرضاً عن هذه المسألة بين ثنايا بنود اللوائح المختلفة التي أصدرتها الإدارة المصرية طوال القرن التاسع عشر لتقن وتنظم بها عملية أخذ السباخ من تلوث المدن القديمة، وتحتم فيها ضرورة تسليم ما يعثر عليه من هذه النقود إلى الجهات المختصة - على ما مر بك سلفاً - ويبدو أن الإدارة في مصر لم تر ما يدعو إلى إفراد هذه المسألة بتشريع خاص، وأن النقود الأثرية تخضع - كغيرها من سائر أنواع الآثار القديمة - لما هو موجود بالفعل من التشريعات والقوانين التي تعالج شئون الآثار بشكل عام.

ها نحن أولاء قد انتهينا من عرض كافة الأوامر واللوائح والقرارات والقوانين والتشريعات المتعلقة بالآثار المصرية في مصر في القرن التاسع عشر، على أننا لم نكتف بعرضها فقط، وإنما

حاولنا - بالإضافة إلى هذا العرض - أن تلقى الضوء على مدى التزام كل حكومة من الحكومات المصرية المختلفة بما أصدرته من تشريعات وقوانين تعالج المسألة التي نحن بصددتها، وأن تلقى الضوء كذلك على الأسباب التي أدت إلى صدور هذه التشريعات، وكذلك الأسباب الأخرى التي أدت إلى نجاح أو فشل تلك التشريعات في معالجة السلبات التي وضعت التشريعات خصيصاً من أجل القضاء عليها، ثم حاولنا أن تلقى الضوء - أخيراً - على مواطن الضعف والقصور والذلل التي شابت بعض هذه القوانين مما جعل من المحتتم على القائمين على أمور التشريع ومن القوانين في مصر أن يعملوا على تعديل تلك القوانين أو استبدال غيرها بها أكثر منها مصادراً وأشدّ أحكاماً، ونحن نأمل في أن نكون قد نجحنا بذلك في تقديم فكرة عامة عن منظومة القوانين والتشريعات التي كانت تحكم كافة المسائل المتعلقة بشئون الآثار المصرية القديمة في مصر في القرن التاسع عشر.

الهوامش

- (١) عماد عدلى: "شامبلون في مصر"، ص ٤١٦.
- (٢) عماد عدلى: "شامبلون في مصر"، ص ٤١٦، ٤١٧.
- (٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٦) عماد عدلى: "شامبلون في مصر"، ص ٤١٩.
- (٧) نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٧.
- (٨) المرجع السابق، ص ٣٩٩.
- (٩) المرجع السابق، ص ٣٩٣.
- (١٠) مجدى عبد الحافظ: "محمد على والحضارة القديمة" بحث منشور ضمن كتاب "إصلاح أم تعديت؟ مصر في عهد محمد على" ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على رحيل محمد على باشا الكبير (٩ - ١١ مارس ١٩٩٩ م) تحرير: رءوف عباس حامد. طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠، ص ٤٧٨.
- (١١) Wiet: op. Cit., P: 22
- (١٢) انظر لهما لهذه المذكرة في عماد عدلى: "شامبلون في مصر"، ص ٤٠٢ - ٤١٦ وهي تتضمن استعراضاً للتاريخ المصرى القديم منذ بداية ظهور المصريين كأمة على مسرح التاريخ وحق الفتح الإسلامى لمصر.
- (١٣) المرجع السابق، ص ٣٧٩.
- (١٤) كان إبراهيم بن محمد على قد دعا كلاً من شامبلون وبارنزيت للذهاب معه لمقابلة والده، وأثناء تناول وجبة العشاء أصيب إبراهيم بأزمة قلبية فمستط على الأرض مفشياً عليه، فقام بارنزيت بمداواته بفعالية وأنقذه من الموت المهدق به، ثم اضطر لإجراء سفره أسبوعاً لملاج إبراهيم من وعكته تماماً، وقد سُرع محمد على لذلك كثيراً وردد مقولته الأتفة الذكر. انظر: المرجع السابق، ص ٣٩٥.
- (١٥) مجدى عبد الحافظ: "محمد على والحضارة القديمة"، ص ٤٧٦، ٤٧٧.
- (١٦) "الأوامر والمكتابات" ج ١، ص ٣٤٨، ٣٤٩، وانظر كذلك: فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية دج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٢٨) وثائق رقم (٥٦٧)، (٥٦٨)، (٥٦٩) وكلها بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٤٥ هـ (١٤ مارس ١٨٣٠ م)، وانظر كذلك: نفس السجل وثيقة رقم (٢٥٩) بتاريخ ٢٨ رمضان ١٢٤٥ هـ (٢٣ مارس ١٨٣٠ م).
- (١٧) Wiet: op. Cit., p: 21
- (١٨) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٧٦.
- (١٩) Wiet: op. Cit., p: 22.
- (٢٠) Ibid p: 23
- (٢١) Wiet: op. Cit., P: 24.
- (٢٢) عماد عدلى: "شامبلون في مصر"، ص ٣٩٩، ٤٠٠.
- (٢٣) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم ٤٢ وثيقة رقم (٤١) بتاريخ ٩ شعبان ١٢٤٦ هـ (٢٣ يناير ١٨٣١ م).
- (٢٤) Wiet: op. Cit., p: 24.
- (٢٥) Wiet: op. Cit., p: 25
- (٢٦) "رسائل من مصر"، ص ٢٠.
- (٢٧) Tager: "orders superieurs" p: 17
- (٢٨) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل (٥٨) وثيقة رقم (٣٩٠) بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٤٩ هـ (٢ يناير ١٨٣٤ م).
- (٢٩) البيت من بحر "الخشيف" وهو لأحمد شوقي. انظر: أحمد محمد الحوي: "ديوان شوقي" ج ١، ص ٢٠٥.
- (٣٠) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٥٣) وثيقة رقم (٧٩٥) بتاريخ ١٦ ذو القعدة ١٢٤٩ هـ (٢٧ مارس ١٨٣٤ م).

- (٣١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. دمج رقم (١) آثار. سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٦٠) وثيقة رقم (٣٦٤) بتاريخ ٧ صفر ١٢٥١ هـ (٤ يونيو ١٨٣٥ م).
- (٣٢) انظر: أنور لوقا غبريال "ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي" سلسلة "اقرأ" عدد رقم ٥١٠ أبريل ١٩٨٥ م / شعبان ١٤٠٥ هـ. ص ١٥٧. وانظر كذلك له: "رفاعة بين القاهرة وباريس" بحث منشور ضمن كتاب "مهرجان رفاعة رافع الطهطاوي" طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٨ م. ص ١٣٩. ثم انظر: محمد عمارة: "رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث" طبعة دار الشروق. الطبعة الثانية. القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م. ص ٧٤.
- (٣٣) عبد المنعم أبو بكر: "مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٩.
- (٣٤) رفاعة رافع الطهطاوي: "أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل" طبعة: بولاق. القاهرة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م. ج ١. ص ٤٩.
- (٣٥) ج ١. ص ٤٩.
- Tagher: op. cit., p: 21 (٣٦)
- Ibid p: 21 (٣٧)
- Ibid p: 21 (٣٨)
- Ibid p: 21 Also wiet: op. cit., p: 28 (٣٩)
- (٤٠) "الأوامر والمكتبات" ج ٢. ص ٦.
- (٤١) المصدر السابق. نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٤٢) بريس دافين: "إدريس أفندي في مصر" ص ٨١ يتصرف.
- (٤٣) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية دمج رقم ١ آثار. سجلات معية سنية (تركي) سجل رقم (٦٦) ص ٦٦ وثيقة رقم (٣٠٠) بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر ١٢٥١ هـ (١٨ أغسطس ١٨٣٥ هـ).
- (٤٤) محافظ الأبحاث. محفظة رقم (١٢٧) موضوعات مختلفة. ملف الأوراق الخاصة بإنشاء دار للآثار ومنع خروجها من القطر المصري بتاريخ ٥ جمادى الأولى ١٢٥١ هـ (٢٩ أغسطس ١٨٣٥ م).
- (٤٥) "الأوامر والمكتبات" ج ٢. ص ١٤٩.
- (٤٦) البيت من بحر "الطويل" وقد اختلف في قائله. فقبل: جرير. وقبل: الأعشى. وقبل: الأخوص. انظر محمد أمين طه: "ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب" طبعة دار المعارف. القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م. ج ٢. ص ١٠٢١. وانظر: البصري: "الحماسة البصرية" طبعة عالم الكتب. بيروت. بدون تاريخ. ج ٢. ص ٢٦٢. وهو فيه لأعشى همدان بهجو لصوصاً. فما أشبه الليلة بالبارحة.
- (٤٧) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٣) كراسة رقم (٢١). ص ١١ بتاريخ ٧ رمضان ١٢٥١ هـ / ٢٧ ديسمبر ١٨٣٥ م. وانظر كذلك: محافظ الأبحاث. محفظة رقم (١٢٧) موضوعات مختلفة. ملف الأوراق الخاصة بإنشاء دار للآثار ومنع خروجها من القطر المصري.
- (٤٨) "اغتصاب مصر". ص ١٠٦.
- (٤٩) يقصد إلى الخارج.
- (٥٠) "الأوامر والمكتبات" ج ٢. ص ٣٧٧. وانظر كذلك: محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٢). ص ٦ بتاريخ ١٤ المحرم ١٢٥٤ هـ (١٠ أبريل ١٨٣٨ م).
- (٥١) السباغ: نوع من السماد، وهو عبارة عن الرماد والأتربة التي تستخرج من أنقاض المباني القديمة، وهو يحتوي على نسبة كبيرة من ترات الصوديوم التي تساعد على تسميد التربة الزراعية، وكان الأهالي يعفرون في هذا السباغ على العديد من قطع العملة والعاديات القديمة من كل نوع ويبيعونها إلى الأجانب، وقد تسرب بهذه الطريقة الكثير من الآثار المصرية إلى المتاحف الأوروبية حتى غدت مشكلة السباغ من أكبر المشاكل التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر. وسوف نعرض لها بالتفصيل في حينها. انظر: علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٢. ص ٢٠٤.
- (٥٢) سجلات ديوان مجلس أحكام مصر. ص ٧ / ٣٣. دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم. ص ٢٧٥ بتاريخ ١ رجب ١٢٥١ هـ (٢٦ أكتوبر ١٨٣٥ م).
- (٥٣) وزارة الأشغال العمومية: "مجموعة الأوامر المختصة باللقاها والأنتيقات". ص ٤.
- (٥٤) سجلات ديوان مجلس أحكام مصر. ص ٧ / ٣٣. دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم. ص ٢٨. خلاصة صادرة سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م.

- (٥٥) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٣) كراسة رقم (٢٦) . ص ١٩ بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٥٢ هـ (٢٣ نوفمبر ١٨٣٦ م).
- (٥٦) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ١٤٦.
- (٥٧) محافظ معنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفظة رقم (٧٨) وثيقة رقم (٦٢٠) بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٢٥٢ هـ (٢٨ يوليو ١٨٣٦ م).
- (٥٨) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ٣٥٢.
- (٥٩) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٥) . ص ٤ بتاريخ ٢٣ صفر ١٢٥٨ هـ (٥ أبريل ١٨٤٢).
- (٦٠) سجل مجموع أمور جنانية من ٨ / ٦١ / ١ ، ص ٥ فيمن يهدم الآثار القديمة. هذا ولم نستطع الاستدلال على التاريخ التفصيلي لصدر هذا القانون. حيث لم ينص عليه تفصيلاً إلا في هذه الوثيقة ولا في الوثائق الأخرى المشابهة.
- (٦١) محافظ الأبحاث. محفظة رقم (١٢٧) موضوعات مختلفة. ملف الأوراق الخاصة بإنشاء دار للآثار ومنع خروجها من القطر المصري بتاريخ ٥ رجب ١٢٥١ هـ (٢٧ أكتوبر ١٨٣٥ م).
- (٦٢) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ٧٨.
- (٦٣) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفظة رقم (٨٤) دفتر رقم (٧٥) وثيقة رقم (٨٠) بتاريخ ٢٩ شوال ١٢٥١ هـ (١٧ فبراير ١٨٣٦ م).
- (٦٤) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٣) كراسة رقم (٢٥) . ص ٨ بتاريخ ٢٥ جماد الأول ١٢٥٢ هـ (٧ سبتمبر ١٨٣٦ م).
- (٦٥) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفظة رقم (٧٨) وثيقة رقم (٥٥) بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٢٥٢ هـ (٢٤ يونيو ١٨٣٦ م).
- (٦٦) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر. محفظة رقم (٩٠) وثيقة رقم (١٠٧) بتاريخ ١٨ رجب ١٢٥٢ هـ (١٠ نوفمبر ١٨٣٦ م).
- (٦٧) محافظ الأبحاث. محفظة رقم (٦١) موضوع التعليم. دفتر رقم (٤٤) مكتبة رقم (٤٢٠) بتاريخ ٢ جماد أول ١٢٦٤ هـ (٦ أبريل ١٨٤٨ م).
- (٦٨) محافظ الأبحاث محفظة رقم (٦١) موضوع التعليم. دفتر رقم (٤٤) مكتبة رقم (٢٠) بتاريخ ٩ ذو القعدة ١٢٦٢ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٨٤٦ م.
- (٦٩) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ٥٥٦.
- (٧٠) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٤) كراسة رقم (٣٦) . ص ٥ بتاريخ ٤ صفر ١٢٦٢ هـ (١ فبراير ١٨٤٦ م).
- (٧١) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ٣٨٨.
- (٧٢) مجدى عبد الحافظ : "محمد على والحضارة القديمة" ، ص ٤٩٤.
- (٧٣) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ٥٣٢.
- (٧٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية. سجلات مجلس شورى المعاونة (تركي) سجل رقم (٢٨٢) . ص ٧٧ وثيقة رقم (١٢٣٢) بتاريخ ٢١ شوال ١٢٥٦ هـ (١٥ نوفمبر ١٨٤٠ م). انظر كذلك ، ص ١٨٧ وثيقة رقم ١٣١٧ بتاريخ ٧ ذو القعدة ١٢٥٦ هـ (٣١ ديسمبر ١٨٤٠ م).
- (٧٥) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم ٤ كراسة رقم ٣٥ ، ص ٥ بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٥٨ هـ (٢٥ أبريل ١٨٤٢ م).
- (٧٦) "الأوامر والمكتبات" ج ٢ ، ص ٤٦٤.
- (٧٧) محافظ معية سنية (تركي) ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر. محفظة رقم (٤) كراسة رقم ٣٧ ، ص ١١ بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٦١ هـ (١٨ أغسطس ١٨٤٥ م).
- (٧٨) بيتر فرانيس : "اغتصاب مصر" ، ص ١٣١.
- (٧٩) بريان فاجان : "تعب آثار وادى النيل" ، ص ١٦٧.
- (٨٠) Wiet : op. cit., p: 29.
- (٨١) محمد فؤاد شكرى وآخرون : "بناء دولة مصر محمد على. السياسة الداخلية" ، ص ٣٧٧.
- (٨٢) محمد فؤاد شكرى وآخرون : "بناء دولة مصر محمد على. السياسة الداخلية" ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤.

- (٨٣) المرجع السابق. ص ٤٩٤.
- (٨٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٨٥) المرجع السابق، ص ٧٠٣. والكنيس حافظة نفود تحتوى على ٥٠٠ قرش. انظر: هيلين آن ريفلين: "الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر"، ص ٤٣٢.
- (٨٦) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة مصر محمد على. السياسة الداخلية"، ص ٤٩٤.
- (٨٧) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة مصر محمد على. السياسة الداخلية"، ص ٤٩٤.
- (٨٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٧.
- (٨٩) Wiet: op. cit., p: 30.
- (٩٠) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٦٦، ١٦٧ باختصار.
- (٩١) Wiet: op. cit., p: 30.
- (٩٢) سجل مجموع أمور جنائية، ص ١/٦١/٨، ص ٥٠. فيمن يهدم الآثار القديمة، قانون سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٩ م.
- (٩٣) ديوان مجلس أحكام مصر، ص ٣٢/٧ دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم، ص ٢٧٥.
- (٩٤) عمر الإسكندري، سليم حسن: "تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر" مراجعة: أ. ج. سندح، سلسلة: "صفحات من تاريخ مصر" عدد رقم (٦) طبعة: مكتبة مديبول، القاهرة ٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م، ص ٢٢٩.
- (٩٥) وزارة الأشغال: "مجموعة الأوامر المختصة بالقضايا والأحكام"، ص ٤ بتاريخ ٢٦ شوال ١٢٦٦ هـ (٤ سبتمبر ١٨٥٠ م).
- (٩٦) سجلات معية سنية (عربي) دفتر قيد المصادر بالمعية والدواوين والأقاليم والمحافظات، سجل رقم (٣٥) ج ٢ ص ٣٤٤ وثيقة رقم (١٠٩) بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٦٥ هـ (١٥ مايو ١٨٤٩ م) ضمن ميكرو فيلم رقم (١) معية سنية (عربي).
- (٩٧) الأمير محمد علي: "مجموعة خطابات وأوامر خاصة بالمغفور له عباس باشا الأول" بدون ذكر دار النشر أو مكان أو زمان الطبع، ص ٧٣ بتاريخ ١٧ محرم ١٢٦٥ هـ (١٣ ديسمبر ١٨٤٨ م).
- (٩٨) أمين سامي: "تقويم النيل" المجلد الأول من الجزء الثالث "عصر عباس وسعيد"، ص ١٥.
- (٩٩) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٢٣.
- (١٠٠) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، دفتر رقم (٤٨٠)، ص ٧٦ بتاريخ سنة ١٢٦٨ هـ/ ١٨٥٠ م بدون ذكر رقم الوثيقة أو التاريخ التفصيلي لها.
- (١٠١) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم ١ آثار، محفظة رقم ١ معية سنية (تركي) ورقة رقم (١٥) وثيقة رقم (٢٩٠) بتاريخ ٢ ربيع الثاني ١٢٧٠ هـ (٢ يناير ١٨٥٤ م).
- (١٠٢) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١٤٠) جمارك، دفتر رقم (٨٢) معية سنية (عربي)، ص ٦٧٧ وثيقة رقم (٢٧٤) بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٦٨ هـ (١٥ يوليو ١٨٥٢ م).
- (١٠٣) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (٥١٦) مدارس، دفتر رقم (١١٠) صادر معية (عربي)، ص ٩١ وثيقة رقم (١٠) بتاريخ ٢٩ ذو الحجة ١٢٦٩ هـ (٣ أكتوبر ١٨٥٣ م).
- (١٠٤) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، محفظة رقم ١٤ معية سنية (تركي) ورقة رقم (١١٥) وثيقة رقم (٢٩٣) بتاريخ ٢٤ ذو القعدة ١٢٧٢ هـ (١٧ يوليو ١٨٥٧ م).
- (١٠٥) سجل مجموع أمور جنائية ص ١/٦١/٨، ص ٥٠. فيمن يهدم الآثار القديمة.
- (١٠٦) "قانون نامه السلطاني" طبعة: بولاق ١٢٧١ هـ/ ١٨٥٤ م، ص ٢٥ ضمن محفظة رقم ١٦٩ لوائح وقوانين.
- (١٠٧) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٥٨) معية سنية (عربي) ص (١٠٤).
- (١٠٨) وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٧٧ هـ (٩ مايو ١٨٦١ م).
- (١٠٩) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٥٨) معية سنية (عربي)، ص (١٥٦).
- (١١٠) وثيقة رقم (٦٤) بتاريخ ٢١ محرم ١٢٧٨ هـ (٢٩ يوليو ١٨٦١ م).
- (١١١) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٨٩٨) أوامر، ص (١١٤) وثيقة رقم (١٦) بتاريخ ٨ جماد الأول ١٢٧٨ هـ (١١ نوفمبر ١٨٦١ م).
- (١١٢) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦١٦) صادر معية سنية (عربي)، ص ٤١٢ وثيقة رقم (١٦٦) بتاريخ ٢٦ جماد أول ١٢٧٢ هـ (٣ فبراير ١٨٥٦ م).
- (١١٣) أمين سامي: "تقويم النيل" المجلد الأول من الجزء الثالث "عصر عباس وسعيد"، ص ٢٥٠ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٧٤ هـ (١٦ نوفمبر ١٨٥٧ م).

- (١١٢) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (٤٥) وثيقة رقم (١٤٧) ورقة (١٣) بتاريخ ١٩ رجب ١٢٧٢ هـ (١٥ مارس ١٨٥٧ م).
- (١١٣) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨٨٥) أوامر، ص ٣٥ وثيقة رقم (٤٩) بتاريخ ٧ ذو الحجة ١٢٧٢ هـ (٩ أغسطس ١٨٥٦ م).
- (١١٤) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (١٥) وثيقة رقم (١٤٦) ورقة (٣) بتاريخ ٢٣ محرم ١٢٧٤ هـ (١٣ سبتمبر ١٨٥٧ م).
- (١١٥) محافظ معية سنية (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (٤٥) وثيقة رقم (١٠٢) ورقة (٣) بتاريخ ١١ رجب ١٢٧٢ هـ (٧ مارس ١٨٥٧ م).
- (١١٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر (١٦٤٦) صادر معية سنية (عربي)، ص ٥٨ وثيقة رقم (٥٣) بتاريخ ٢٧ ذو القعدة ١٢٧٦ هـ (١٦ يونيو ١٨٦٠ م).
- (١١٧) فهارس بطاقات الدار الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم ١٦٤٦ صادر معية سنية (عربي)، ص ٥٥ وثيقة رقم ٨٤ بتاريخ ٢٧ ذو القعدة ١٢٧٦ هـ.
- (١١٨) سجلات معية سنية (عربي) سجل رقم (١٨٩٨) ج ١ صادر الأوامر العليا، ص ١٣ وثيقة رقم (٦) بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٢٧٨ هـ (١ أكتوبر ١٨٦١ م)، وانظر كذلك نفس السجل، ص ٥٧ وثيقة (١٠) بتاريخ ٨ جماد الأول ١٢٧٨ هـ (١١ نوفمبر ١٨٦١ م)، وانظر، ص ٧٦ وثيقة رقم ١٢ بتاريخ ٨ جماد الأول ١٢٧٨ هـ، وكذلك، ص ١١٤ وثيقة رقم (١٨) بتاريخ ٨ جماد الأول ١٢٧٨ هـ، وكلها ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية (عربي).
- (١١٩) سجلات معية سنية (عربي) سجل رقم (١٨٩٨) ج ١ صادر الأوامر العليا، ص ١٠٧ وثيقة رقم (٦٠) بتاريخ ٨ جماد الأول ١٢٧٨ هـ.
- (١٢٠) سجلات معية سنية (عربي) سجل رقم (١٨٩٤) ج ١ صادر الأوامر العليا، ص ٣١ وثيقة رقم (٦) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٧٧ هـ (٢٧ سبتمبر ١٨٦٠ م) ضمن ميكروفيلم رقم (٢٥) معية سنية (عربي).
- (١٢١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (٥٣٤) معية سنية (تركي)، ص ٢٧ وثيقة رقم (٣٣) بتاريخ ٢٧ جماد الأول ١٢٧٩ هـ (٢٠ نوفمبر ١٨٦٢ م).
- (١٢٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (٥٣٠) معية سنية (تركي)، ص ٥٥ وثيقة بدون رقم، بتاريخ ٢٩ جماد الآخر ١٢٧٩ هـ (٢٢ ديسمبر ١٨٦٢ م).
- (١٢٣) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٤٦) صادر معية (عربي)، ص ١٣ وثيقة رقم (٥٩) بتاريخ ٢٠ ذو القعدة ١٢٧٦ هـ (٩ يونيو ١٨٦٠ م).
- (١٢٤) بيتر فرانس: "اغتناب مصر"، ص ١٤٠.
- (١٢٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٥٥) صادر معية سنية (عربي)، ص ٨٠ وثيقة رقم (٣٦٤) بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٧٧ هـ (٢٨ مارس ١٨٦١ م).
- (١٢٦) أمين سامي: "تقديم النيل" المجلد الثاني من الجزء الثالث "عصر إسماعيل"، ص ٤٧٣.
- (١٢٧) جاك تاجر، جورج جندى: "إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية" طبعة: دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م، ص ١٣٨، ١٣٩.
- (١٢٨) المرجع السابق، ص ١٣٩.
- (١٢٩) يقصد "الجرأة والتجقق".
- (١٣٠) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، سجل رقم (٥٢٦) معية سنية (تركي)، ص ٧٢ وثيقة بدون رقم، بتاريخ ١٠ ذو القعدة ١٢٧٩ هـ (٢٩ أبريل ١٨٦٣ م).
- (١٣١) جون مارلو: "تاريخ التهب الاستعماري لمصر"، ص ١٩.
- (١٣٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨٠٨) صادر معية (عربي)، ص ٥ وثيقة رقم (٣) بتاريخ ١ شعبان ١٢٨٣ هـ (٩ ديسمبر ١٨٦٦ م).
- (١٣٣) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨٣٣) صادر معية (عربي)، ص ١٣ وثيقة رقم (١) بتاريخ ٢٩ شوال ١٢٨٦ هـ (١١ فبراير ١٨٧٠ م).
- (١٣٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٩٢٨) أوامر، ص ٣٠ وثيقة رقم (٢٥)، ص ٢٦ وثيقة رقم (١١)، ص ٥ وثيقة رقم (٦)، ص ٩ وثيقة رقم (٤)، ص ١٤ وثيقة رقم (٥)، ص ١٢ وثيقة رقم (٦).

- ص ١٦ وثيقة رقم (٤) ، ص ١٧ وثيقة رقم (٦) ، ص ١٠ وثيقة رقم (٥) ، ص ٢٧ وثيقة رقم (٢) ، ص ١٥ وثيقة رقم (٥) ، ص ١١ ، وثيقة رقم (٥) ، ص ١٣ وثيقة رقم (٤) ، وكلها بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٨٨ هـ
- (١٣٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) أثار ، دفتر رقم (١٧) مجلس خصوصي ، ص ١٧ وثيقة رقم (١٧٢) بتاريخ ١٥ صفر ١٢٩٠ هـ (١٤ أبريل ١٨٧٣ م) .
- (١٣٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) أثار ، دفتر رقم (١٩٥٠) صادر غير رسمي ، ص ٢٨ وثيقة رقم (٩٣) بتاريخ ١١ ربيع الثاني ١٢٩١ هـ (٢٨ مايو ١٨٧٤ م)
- (١٣٧) سجلات معية سنية (عربي) الأوامر العلوية الصادرة للدواوين والمجالس ، سجل رقم (١) قديم ، ص ٦٤ وثيقة رقم (٣٩) بتاريخ ٦ صفر ١٢٩٣ هـ (٣ مارس ١٨٧٦ م) ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية (عربي) .
- (١٣٨) محمود الفلكي : " رسالة عن الإسكندرية القديمة وضواحيها والجهات القريبة منها التي اكتشفت بالحفريات وأعمال سبرالفور والمنح وطرق البحث الأخرى " ترجمة : محمود صالح الفلكي ، مراجعة : محمود عواد حسين ، طبعة : دار الثقافة ، الإسكندرية ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ص ٥٢ .
- (١٣٩) سجلات ديوان الأشغال ، صادر عربي ، صادر المحافظات والضبطيات والمجالس م ١٠ / ١ سجل رقم (٣) حديث ، ص ٥٠ وثيقة رقم (١٠) بتاريخ ١٨ ربيع أول ١٢٩٢ هـ (٦ مايو ١٨٧٤ م) .
- (١٤٠) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) أثار ، دفتر رقم (١٣) صادر معية (عربي) ، ص ٢٨ وثيقة رقم (٣٩) بتاريخ ١٧ رمضان ١٢٩٣ هـ (٧ أكتوبر ١٨٧٦ م)
- (١٤١) سجلات معية سنية (عربي) دفتر قيد المصادر الغير رسمي ، سجل رقم (٥) قديم ، ص ٦٧ وثيقة رقم (٣٣٩) بتاريخ ١ جماد الثاني ١٢٩٢ هـ (٥ يوليو ١٨٧٥ م) ضمن ميكروفيلم رقم ٢٠ معية سنية (عربي) .
- (١٤٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) أثار ، محفظة رقم (٤٧) معية سنية (تركي) وثيقة رقم (٤٧) مرفق نمرة (٢) بتاريخ ٦ محرم ١٢٨٦ هـ (١٨ أبريل ١٨٦٩ م) .
- (١٤٣) " تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩ م " طبعة : مكتبة مدبولي ، سلسلة : "صفحات من تاريخ مصر" عدد رقم ٩ ، ٨ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .
- (١٤٤) سجلات محافظة مصر ، صادر عربي ، صادر الدواوين ، سجل رقم (١٢٢٣) قديم ، ص ٨٣ وثيقة رقم (٤٧) بتاريخ ٧ رجب ١٢٨١ هـ (٦ ديسمبر ١٨٦٤ م) ، وانظر كذلك : سجلات محافظة مصر ، وارد عربي ، وارد الدواوين ل ١ / ٢٨ سجل رقم (٤٥) حديث ، ص ١٧٧ وثيقة رقم (٥٩) بتاريخ ١٢ رجب ١٢٨١ هـ (١١ ديسمبر ١٨٦٤ م) .
- (١٤٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) أثار ، دفتر رقم (٥٣٧) معية سنية (تركي) ، ص ٥١ وثيقة رقم (٥٩) بتاريخ ٢١ صفر ١٢٨١ هـ (٢٦ يوليو ١٨٦٤ م) .
- (١٤٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) أثار ، دفتر رقم (١٨٥٣) صادر معية سنية (عربي) ، ص ٦٩ وثيقة رقم (١٠) بتاريخ ١ رجب ١٢٨٩ هـ (٤ سبتمبر ١٨٧٢ م)
- (١٤٧) وزارة الأشغال العمومية : " مجموعة الأوامر المختصة بالقايا والأنتيقات " ، ص ٨ .
- (١٤٨) المصدر السابق : نفس الصفحة .
- (١٤٩) هو لورد كرومر الذي شغل منصب المقيم البريطاني في مصر بعد ذلك .
- (١٥٠) يفهم من السياق أن هذه الأمانة يقصد بها مصلحة الجمارك في الدولة العثمانية .
- (١٥١) مصطفى رياض : (١٢٥٠ - ١٣٢٩ هـ / ١٨٣٤ - ١٩١١ م) ساهم مشهور ، تدرج من كاتب بدويان المالية إلى رئيس للوزارة ، وشغل هذا المنصب ثلاث مرات ، واشتهر بمناصراته للصعافة ، توفي بالإسكندرية . انظر : الزركلي " الأعلام " ج ٧ ، ص ٢٣٣ .
- (١٥٢) علي مبارك بن سليمان الروي (١٢٣٩ - ١٣١١ هـ / ١٨٢٤ - ١٨٩٣ م) من المؤرخين العلماء ، تولى نظارة الأوقاف والمعارف والأشغال العمومية ، له : " الخطط التوقيفية " في ٢٠ جزءاً . انظر ترجمته لنفسه في خطه : ج ٩ ، ص ٣٧ وما بعدها ، وانظر : الزركلي : " الأعلام " ج ٤ ، ص ٣٢٢ .
- (١٥٣) مصطفى فهمي : وزير مصري ورئيس للوزراء ، توفي في ١٤ سبتمبر ١٩١٤ م ، قال عنه الراهي : إنه " الرجل الذي لم يجد الإنجليز أطوع ولا أخلص منه بين رجالات مصر ، وكان عهد وزارته هو أوج السلطة للاحتلال البريطاني . انظر عبد الرحمن الراهي : " مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال " طبعة : دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٧٨ .
- (١٥٤) نظارة الأشغال : " مجموعة الأوامر المختصة بالقايا والأنتيقات " ، ص ٥ - ٨ .

- (١٥٥) قليوب : مدينة قديمة، وهي قاعدة مركز قليوب - محافظة القليوبية، والمطرية وحلوان ضاحيتان من ضواحي مدينة القاهرة، اشتهرت الأولى منهما قديماً بشجر البلسان الذي يخرج منه نوع من الدهن. انظر : محمد رمزي : " القاموس الجغرافي " قسم ٢ ج ١ ، ص ٥٨، ٥٧. وانظر نفس الجزء ، ص ١٢، ١١.
- (١٥٦) خطأ لغوي، صوابه : المتعاهدان.
- (١٥٧) خطأ لغوي صوابه : " إلى أن يستولى كل منهما ".
- (١٥٨) كذا في الأصل، ولعل صوابه : " في آخر شهر يونيو " وليس ديسمبر إذ أن يونيو هو الشهر الذي تنتهي بانتهائه مدة التصريح الزمنية.
- (١٥٩) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ٢) أ مجموعة (٤٩) أشغال ترجمة مذكورة من نظارة الأشغال إلى مجلس النظار بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٨٨١ م (٢ ذو الحجة ١٢٩٩ هـ) بشأن طلب التصريح لمستر ويلد بالحفر والتنقيب في جبل المقطم والأراضي المجاورة له عن الآثار القديمة.
- (١٦٠) محافظ مجلس الوزراء ، نظارة الأشغال ، مصلحة الآثار ، محفظة رقم (٤/٢).
- (١٦١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) أ مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة صورة باللغة الفرنسية من تصريح خاص بالتنقيب عن الآثار.
- (١٦٢) وزارة الأشغال العمومية : " مجموعة الأوامر المختصة باللقايا والأنتيقات " ، ص ١٤.
- (١٦٣) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، مذكورة من نظارة الأشغال العمومية بشأن عدم التصريح ببيع سبعة أفدنة ونصف كائنة بجوار الهرم الأكبر.
- (١٦٤) دامر : يقال : دمر القوم يدمرون دماراً أي هلكوا، ودامر أي هالك. انظر : ابن منظور : " لسان العرب " مادة " د. م. ر. ج " ، ص ١٤٢٠.
- (١٦٥) ترويح النفس في مدينة الشمس " ، ص ٨، ٧.
- (١٦٦) بقصد " عدم خلوها " كما هو ظاهر من السياق.
- (١٦٧) جدير بالذكر أن هذا المبلغ كان يعادل أكثر من ثلاثة أمثال ميزانية مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري آنذاك، فقد كانت ميزانيتها في ذلك الوقت لا تتجاوز ستة آلاف جنيه مصري.
- (١٦٨) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤، ٢) أ مجموعة ٤٩ أشغال، مذكورة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٨٧ م (٣ رمضان ١٣٠٤ هـ) تحت رقم (٥٣٢) بخصوص إصلاح مصلحة الآثار التاريخية.
- (١٦٩) وزراء الأشغال العمومية : " مجموعة الأوامر المختصة باللقايا والأنتيقات " ، ص ١٦، ١٥.
- (١٧٠) بقصد : " موقعة ".
- (١٧١) أي : المشار إليه.
- (١٧٢) التقاها : أي عثر عليها.
- (١٧٣) ما تحته خط هو صورة مطابقة لما في الأصل، وهو تعبير غامض وغير مفهوم، وربما كان اصطلاحاً قانونياً مفهوماً أيام تشريع هذا القانون، ثم حل محله اصطلاح قانوني آخر في أيامنا هذه، مما ألبسه - بتقديم العهد به - ثوباً من الغفاه والغموض.
- (١٧٤) خطأ لغوي، صوابه " يرشو ".
- (١٧٥) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤، ٢) أ ترجمة مذكورة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٤ فبراير ١٨٨٨ م رقم ٦٣١ تتعلق بالبحث على الأنتيقات ونقلها وتصديرها إلى الخارج.
- (١٧٦) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤، ٢) ب صورة إهداء من ناظر الداخلية إلى مجلس النظار بتاريخ ١٧ مارس ١٨٨٨ م (٥ رجب ١٣٠٥ هـ).
- (١٧٧) يبدو أنها تعني " فريدة من نوعها ".
- (١٧٨) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) أ ترجمة مذكورة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بطلب اعتماد رأي لجنة الآثار التاريخية فيما يختص بالحفر على الأنتيقات.
- (١٧٩) وزارة الأشغال العمومية : " مجموعة الأوامر المختصة باللقايا والأنتيقات " ، ص ١٨، ١٩.

- (١٨٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) ترجمة مشروع لائحة خاصة بالحفر على الأنتهقات.
- (١٨١) وذلك بعد نقلها إليها من بولاق سنة ١٨٩٠ م على ما سأتى تفصيله.
- (١٨٢) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة ٤٩ أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) ترجمة مشروع لائحة مختصة بإعطاء الرخص بالحفر على الأنتهقات، وانظر كذلك : وزارة الأشغال العمومية : " مجموعة الأوامر باللحاق والأنتهقات " ، ص ٣٠ ، ٣١.
- (١٨٣) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) ترجمة مذكرة من الحقانية إلى مجلس النظار بتاريخ ١٨ يونيو ١٨٩٢ م (٢٤ ذو الحجة ١٣٠٩ هـ) ومشروعاً أمرين عالين باعتبار مفتش ومأموري الدخوليات بمدينة مصر ومأموري حفظ الآثار من مأموري الضبطية القضائية.
- (١٨٤) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة ٤٩ أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) ترجمة إفادة من لجنة قضائها الحكومة بتاريخ ٢٦ أبريل ١٨٩١ م إلى بروجش باشا رداً على طلبه التصريح له بالبحث عن المعادن بالقرب من أسوان.
- (١٨٥) بيتر فرائس : " اغتصاب مصر " ، ص ١٩٧.
- (١٨٦) بريان فاجان : " نهب آثار وادي النيل " ، ص ٢١٦.
- (١٨٧) بيتر فرائس : " اغتصاب مصر " ، ص ١٩٦.
- (١٨٨) المسطبة والمسطبة : قبور خاصة من عهد الدولة القديمة بنيت في الجزيرة وسقارة وبعض جهات أخرى، وكانت المسطبة عادة تبنى على هيئة متوازي مستطيلات ذي حوائط مائلة قليلاً، ومن هنا اتخذت الاسم العربي " مسطبة " وقد اهتم قدماء المصريين بالإفراط في زخرفة هذه المساطب من الداخل، إما بالنقوش البارزة أو بالمناظر التي تمثل حياتهم على الأرض. انظر : جورج بوزنر وآخرين " معجم الحضارة المصرية القديمة " ، ص ٣٠٨.
- (١٨٩) كذا في الأصل، وصوابها " كسحت ".
- (١٩٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) إفادتان من مومسيو دي مورجان مدير عموم الآثار التاريخية إلى نظارة الأشغال بتاريخ ٩ ، ١٤ ديسمبر ١٨٩٣ م (٣٠ جماد الأول، ٥ جماد الآخر ١٣١١ هـ) بشأن طلب من قانون صارم لمراقبة الذين يشوهون أو يدمرون الآثار التاريخية.
- (١٩١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٨٩٣ م (١١ جماد الآخر ١٣١١ هـ) بخصوص ذات الموضوع.
- (١٩٢) جريدة " المقتطف " مجلد ١٩ ج ٢ ، ص ٧٨٢.
- (١٩٣) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٢) مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ٢ يوليو ١٨٩٧ م (١ صفر ١٣١٥ هـ) ومعها مشروع أمر عال بتقدير عقوبات تسمى على الأجانب والوطنيين الذين يحفرون في المحلات الأثرية الممنوع الحفر فيها قانوناً، أو يتلفون المباني التاريخية، أو يختلمسون أثنيكات من أراضي الحكومة.
- (١٩٤) مجلس شورى القوانين : " مجموعة محاضر المجلس " المجلد الرابع " مجموعة محاضر جلسات سنة ١٨٩٧ م (١ فبراير - ٢٧ ديسمبر) " مطبعة : قلع الله إلياس، القاهرة، بدون تاريخ. ، ص ٥٣ محضر جلسة الأحد أول أغسطس ١٨٩٧ م / ٢ ربيع الأول ١٣١٥ هـ.
- (١٩٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٦٢ محضر جلسة الخميس ٢٦ أغسطس ١٨٩٧ م / ٢٧ ربيع الأول ١٣١٥ هـ.
- (١٩٦) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات م ١ / ١ / ٦ ، استحقاقات مستخدمين ديوان الأشغال، سجل رقم (٣٥) حديث، ٣٢٢ قديم لسنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م. ، ص ٢٠ المستخدمين ساهرة بالآثار التاريخية.
- (١٩٧) روبرت سوليه : " مصر ولع فرنسي " ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٢.
- (١٩٨) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة (٤٩) أشغال، محفظة رقم (٤ / ٣) مذكرة نظارة الحقانية ومشروع أمر عال باعتبار مفتش الآثار القديمة من مأموري الضبطية القضائية بتاريخ ٥ مارس ١٩٠٠ م (٣ ذو القعدة ١٣١٧ هـ).
- (١٩٩) لعله يقصد " التعاويذ ".

(٢٠٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة (٤٩) أشغال، محفوظة رقم (٢/٤) ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال ومعها مشروع لائحة وضعها مصلحة الآثار التاريخية عن أخذ المباح بتاريخ ١ مايو ١٩٠١ م (١٢) المحرم ١٣١٩ هـ.

(٢٠١) كنا نعمل إلى إيراد نصوص هذا القانون هنا ثم بدا لنا ألا نفعل بعد أن وجدنا أن طول بنوده المفرط يحول دون ذلك، ثم إن هذه البنود في أغلبها نصوص ذات صبغة قانونية بحتة مما يقلل من فرص تدخلنا أثناء عرضها، إما لصياغتها القانونية المحكمة والصارمة التي لا تساعد على هذا التدخل، وإما لأننا لا نملك الثقافة القانونية التي تسمح لنا بمثل هذا التدخل، فضلاً عن أن هذا القانون يعتبر - إلى حد ما - خارجاً عن الحدود الزمنية لفترة البحث، رغم أنه وثيق الصلة بها إلى حد بعيد؛ إذ يعتبر مكملاً لها، مما يجعل من غير المقبول إغفاله كلية، وكل ذلك قد جعل من مسألة إيراد بنود هذا القانون هنا أمراً غير ذي جدوى.

(٢٠٢) مجلة "المقتطف" عدد أبريل ١٩٢٣ م / شعبان ١٣٤١ هـ مجلد ٦٢، ص ٣٧٢.

(٢٠٣) فيليب جلال: "قاموس الإدارة والقضاء" المطبعة التجارية، الإسكندرية ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م ج ١، ص ٧٨، ٧٧ آثار قديمة (دولة عليّة).

(٢٠٤) انظر النص الكامل لهذا القانون في: فيليب جلال: "قاموس الإدارة والقضاء" ج ١، ص ٧٨ - ٨٠.

(٢٠٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٨٥ بتاريخ ٤ ذو الحجة ١٢٩٤ هـ / تشرين ثان [نوفمبر] ١٨٩٣ م.

(٢٠٦) شبين القناطر: بلدة قديمة كانت تعرف باسم "شبين" ثم عرفت باسم "شبين القناطر" نسبة إلى القناطر التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون على بحر أبي المنجا سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٣ م، وهي الآن قاعدة مركز شبين القناطر محافظة القليوبية، انظر: محمد رمزي "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ١، ص ٣٥ - ٣٦.

(٢٠٧) "orders superieurs": p: 17 Tagher.

(٢٠٨) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، دفتر رقم (٢٧٨) شوري المعاونة (تركي) وثيقة رقم (١١٤٢) بتاريخ ١٤ جماد الآخر ١٢٥٤ هـ (١٤ سبتمبر ١٨٣٨ م).

(٢٠٩) خطأ لغوي، صوابه "إذا أخذ وجد شيئاً".

(٢١٠) ما تحت خط تعبير ريك يقصده به "إذا وجد أناس مثل هؤلاء قد عثروا على شيء من ذلك".

(٢١١) خطأ لغوي، سبق أن بينا على منطه في هامش رقم (٤).

(٢١٢) ديوان مجلس أحكام مصر، ص ٧ / ٣٣ دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم، ص ٢٣١ إفادة في سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م.

(٢١٣) الضريبة: دار سك العملة.

(٢١٤) ديوان مجلس أحكام مصر، ص ٧ / ٣٣ دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم، ص ٢٣١ إفادة في سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٢ م.

(٢١٥) ششت الأنعام: قرية قديمة تابعة لمركز إيتاى البارود - محافظة البحيرة، انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ٢، ص ٢٥٠.

(٢١٦) ديوان مجلس أحكام مصر، ص ٧ / ٣٣ دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم، ص ٢٣١ إفادة في سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م.

(٢١٧) أشمون الروان: قرية قديمة تابعة لمركز دكرنس - محافظة الدقهلية، انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ١، ص ٢٢٩.

(٢١٨) فهرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، محفوظة رقم (٥) مكية سليمة (تركي) ورقة رقم (٢٧) وثيقة رقم (٥٣١) بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٢٧١ هـ / ١١ يناير ١٨٥٥ م.

(٢١٩) بلبيس: إحدى مراكز محافظة الشرقية، وقد أنشئ هذا المركز سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ)، انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ١، ص ١٠٠.

(٢٢٠) ديوان مجلس أحكام مصر، ص ٧ / ٣٣ دفتر مجموع إدارة وإجراءات، سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم، ص ٢٣١ إفادة في سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٧ م.

(٢٢١) المرجع السابق، نفس السجل والصفحة.

(٢٢٢) الصوامع: ذكر محمد رمزي قريتين بهذا الاسم: الصوامع غرب التي تقع على الشاطئ الغربي للبل، وهذه تتبع مركز طهطا محافظة سوهاج، والصوامع شرق الواقعة على الشاطئ الشرقي للبل، وهي تتبع مركز أخميم بذات المحافظة. انظر "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ٤، ص ١٤١، ١٤٢.

- (٢٢٣) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ١٧، ص ١٧ طبعة بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٧ م.
- (٢٢٤) بقصد به المتحف المصري الذي كان يدبره ماريث.
- (٢٢٥) وزارة الأشغال العمومية: "مجموعة الأوامر المختصة باللقايا والأنتيكات"، ص ٥.
- (٢٢٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٥٥) صادر معية سنبة (عربي)، ص ٦٣ وثيقة رقم (٢٤٤) بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٧٧ هـ (١٤ مارس ١٨٦٠ م)
- (٢٢٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٥٨) صادر معية سنبة (عربي)، ص ٧٦ وثيقة رقم (٨٩) بتاريخ ٨ رمضان ١٢٧٧ هـ (٢١ مارس ١٨٦١ م)
- (٢٢٨) بصرية: قرية قديمة واقعة على الشاطئ الشرق للنيل، وتتبع مركز أبنوب - محافظة أسيوط. انظر محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ٤، ص ٦٠٥.
- (٢٢٩) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٧٧) صادر معية سنبة (عربي)، ص ٤٧ وثيقة رقم (٧٥) بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٢٧٨ هـ (١٧ يونيو ١٨٦٢ م)
- (٢٣٠) سجلات ديوان المالية، صادر عربي، صادر دواوين وفروع وساهرة، سجل رقم (٥٥١) نقل (٢٣٥) حديث (١٩٧٤) قديم، ص ١٨١ وثيقة رقم (٢٠٧٢) بتاريخ ١٥ جماد الأول ١٢٩٠ هـ (١١ يوليو ١٨٧٣ م).
- (٢٣١) زاوية صقر: قرية كانت تابعة قديماً لمركز أبو حمص محافظة الشرقية، ثم ألحقت منذ عام ١٩٣٠ م بمركز أبو المطامير بذات المحافظة. انظر محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ٢، ص ٢٣٤.
- (٢٣٢) سجلات ديوان المالية، صادر عربي، صادر دواوين وفروع وساهرة، سجل رقم (٥٥٤) نقل (٣٧٨) حديث (٢٠٥٦) قديم، ص ١١٥ وثيقة رقم (١١٢) بتاريخ ٧ شعبان ١٢٩٠ (٣٠ سبتمبر ١٨٧٣ م)
- (٢٣٣) سجلات محافظة مصر، صادر عربي، صادر الدواوين، سجل رقم (١٨٠٦) قديم، ص ١٧ وثيقة رقم (٩٩٤) بتاريخ ١٢ شوال ١٢٩٥ هـ ٩ أكتوبر ١٨٧٨ م.
- (٢٣٤) مصطلح بقصد به: "نفقات الغديوى الشخصية".
- (٢٣٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨٥٣) صادر معية سنبة (عربي)، ص ٦٩ وثيقة رقم (١١) بتاريخ غرة رجب ١٢٨٩ هـ
- (٢٣٦) عدد أبريل ١٩٠٢ م (المحرر ١٣٢٠ هـ) مجلد ٢٤، ص ٤٠٣، ٤٠٢، ٤٠٣.

الفصل الرابع

المشكلات البشرية والأخطار الطبيعية التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر وموقف الإدارة المصرية منها

واجهت الآثار المصرية القديمة خلال القرن التاسع عشر عدداً من المشكلات التي صنعتها يد البشر، كما مرت ببعض الأخطار التي فرضتها ظروف الطبيعة والمناخ في مصر، وقد كان لهذه المشكلات وتلك الأخطار أثرها الواضح على الآثار القديمة المصرية، إيجاباً أو سلباً، غير أن تأثيرها السلبي كان أكبر بكثير من تأثيرها الإيجابي، وسوف نتحدث فيما يلي عن هذه المشكلات وتلك الأخطار مع بيان تأثيراتها - السلبية منها والإيجابية - على وضعية الآثار القديمة في مصر في القرن التاسع عشر^(١) وسوف نبدأ بالحديث عن المشكلات البشرية.

أولاً: المشكلات البشرية:

١- نقل المسلات:

ويأتى في مقدمة المشكلات البشرية قيام الحكومة المصرية بالتفريط في عددٍ من أروع ما أخرجته يد الصناعة المصرية وفن النحت المصرى عبر تاريخه الطويل من آثار، ومن أهم ما انفردت به حضارة مصر القديمة عن غيرها من حضارات العالم القديم الأخرى المماثلة، ونعنى بذلك " المسلات المصرية "، فقد تسامحت الإدارة في مصر في خروج عدد من تلك المسلات من وطنها الأصلي إلى أماكن أخرى تبعد عنها بالآلاف الأميال وتختلف في ظروفها الطبيعية وأحوالها المناخية، مما ألحق بها أضراراً جسيمة حتى كادت أن تفقد رونقها وبهاءها وتذهب عنها نقوشها الرائعة، وقد كان الباعث الأساسى على التفريط في هذه الآثار الفريدة هو اتخاذها - في أكثر الأحوال - وسيلة من وسائل الدعاية السياسية وكسب تأييد الرأي العام الدولى، ولا سيما الدول الكبرى التي يمكن لحكوماتها أن تلعب دوراً ذا شأن في توجيه دفة السياسة العالمية، هذا وقد بالغت الإدارة المصرية في هذا الكرم الأثرى حتى كادت مصر أن تصبح خلواً من هذا النوع من الآثار القديمة، وحتى غدا ذلك من أهم المشكلات التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر وسببتها يد الإنسان، وسوف نتحدث الآن عن أشهر المسلات المصرية التي خرجت من مصر

في القرن التاسع عشر من حيث كيفية هذا الخروج وظروفه وأهدافه وبواعثه وموقف الإدارة منه وسوف نبدأ بالحديث عن مسألة فيلة.

أ- مسألة فيله :

هي إحدى مسلتين صغيرتين من الجرانيت الوردى أقامهما بطليموس السابع أمام معبد إيزيس بجزيرة فيله، ويبلغ طول هذه المسلة اثنتين وعشرين قدماً - حوالى ٦,٧ متراً - كما يبلغ عرضها قدمين عند القاعدة، وتزن حوالى ستة أطنان، ولهذه المسلة أهمية كبيرة لأنها تحمل نصاً ذا كتابات ثلاث : هيروغليفية وديموطيقية وأغريقية - شأنها في ذلك شأن حجر رشيد - إذ تعتبر المخطوطات اليونانية والكتابات المنقوشة على قاعدتها بمثابة ترجمة للنص الهيروغليفي المنقوش على أحد جوانبها، وبذلك أتاحت للسيد وليام جوزيف بانكس في عام ١٨١٦ م (١٢٣١ هـ) قبل نقلها من مكانها فرصة إجراء دراسات مقارنة على النصوص الثلاثة ذات المعنى الواحد، تمكن خلالها من التعرف على اسم " كيلوباترا " وقد أسهم ذلك في الإسراع بحل رموز اللغة الهيروغليفية^(١).

وكان بلزوني قد رأى هذه المسلة أثناء زيارته الأولى للجزيرة عام ١٨١٥ م، وأعجب بها، ولاحظ أنها قريبة من المياه بما يسمح بنقلها، فطمع في الاستيلاء عليها، وبدا له أن من السهل نقلها إلى القاهرة عبر النيل متى توفر له قارب كبير في وقت ارتفاع الماء عند الشلال الأول في زمن الفيضان، فاستولى عليها بلزوني باسم " ممثل بريطانيا وقنصلها العام في القاهرة " ^(٢) هنرى سولت والذي كان بلزوني يعمل تحت إمرته، وأعطى بلزوني حاكم أسوان نقوداً ليضع عليها حارساً ريثما تسمح الظروف بنقل المسلة، وسأله حاكم أسوان صراحة عما سهدفه له مقابل إذنه بنقل المسلة، ورغم أن تصرع التنقيب الذي منحه محمد على لبلزوني كان يخصص له الاستيلاء على كل ما يريد من التماثيل والأحجار الأثرية، إلا أن بلزوني كان يدرك أن حاكم أسوان وغيره من حكام الأقاليم كانوا يعتقدون أن من حقهم المطالبة بشئ، وأنهم إن لم يكونوا يستطيعون الاعتراض أو الرفض صراحة فإن في وسعهم أن يضعوا أمامه من العقبات ما يعبط مشروعه تماماً، وهكذا وعد الأغا بأنه سيحصل على ثلاثمائة قرش حال ما تشحن المسلة بنجاح^(٣).

تنازل هنرى سولت عن حقوقه في المسلة لصالح وليام جوزيف بانكس الذي كان أحد رعاة سولت، وكانت وساطته وتزكيتته لهذا الأخير سبباً في تعيينه في وظيفة قنصل بريطانيا في مصر ؛ بحيث ظهر هذا الإهداء وكأنه نوع من الاعتراف بالجميل لأولياء نعمته. وفي عام ١٨١٨ م زار بانكس مصر، وقام برحلة نهلية إلى الشلال الأول صحبه فيها سولت، وهناك تقابلا مع بلزوني الذي كان يواصل جمع الآثار لحساب سولت، وسعد بانكس كثيراً عندما علم بأنه أصبح يمتلك مسألة

صغيرة رائعة، وسعد أكثر عندما قبل بلزوني أن يتولى بنفسه نقل المسلة إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية^(٥).

التقى الفريق الإنجليزي أثناء رحلته إلى صعيد مصر بنظير له من الفرنسيين كان يضم القنصل الفرنسي دروفيتي ووكلاءه الذين يقومون بجمع الآثار لحسابه، ودهش القنصل الفرنسي كثيراً عندما علم بعزم بلزوني على نقل مسلة فيله لصالح بانكس، وادعى أنه تلقى من الأتراك في أسوان وعوداً في مناسبات عديدة بأنهم سينقلون المسلة لحسابه هو، فهم بذلك قد خدعوه، ولكن بلزوني أوضح له أن المسلة ملك له منذ أول رحلة قام بها إلى فيلة عام ١٨١٥م، وأنه قد أهداها للقنصل البريطاني، وأنه هو الذي دفع تكاليف حراستها كل ذلك الوقت، ثم أوضح بلزوني للقنصل الفرنسي أن مولت نفسه قد تنازل على المسلة للسيد بانكس وعلى ذلك فإن بلزوني سوف ينقلها بنفسه لحساب بانكس إلى الإسكندرية^(٦). والواقع أن دروفيتي كان يطمح في الاستيلاء على هذه المسلة وإهدائها إلى مليكه العاهل الفرنسي^(٧).

أظهر دروفيتي عدم اكتراثه بالأمر، ولكنه أوحى سرّاً إلى وكيله الإيطالي أنطونيو ليبولو بأن يسبق بلزوني إلى أسوان ويحرض الأهالي على منع بلزوني من أخذ المسلة، ولكن حاكم أسوان الذي لم ينس للبلزوني هداياه وعوده بمنحه الثلاثمائة قرش عند نجاحه في نقل المسلة، صرح للوكيل الإيطالي بأن المسلة يملكها الإنجليزي، وأنهم يدفعون أجور حراستها منذ ثلاث سنوات، فلجأ ليبولو إلى المراوغة، فذهب إلى فيله وتظاهر بأنه يقرأ المکتوب عليها بالهروغليفية، وأمام جمع المواطنين البسطاء، ادّعى ليبولو أن النصوص تقول أن المسلة ملك لأسلاف دروفيتي، ومن ثم فهو وارثها، ثم رفع الأمر إلى قاضي المنطقة، وقدم له رشوة، فحقق له مأربه ثم اختفى عن الأنظار^(٨).

وفي نفس الوقت كان دروفيتي قد سعى سعيه لدى الحكومة المصرية في القاهرة وحصل منها على خطاب موجه إلى حاكم أسوان بدا أنه يدعم موقفه : " إنه بموجب انضمام رأى صاحب السعادة ولدنا الدفتردارك وسندات مشايخ جزيرة الفيلوية^(٩) وإن يكن قد اشترى صديقنا الخواجة دوروتي قنصل فرانس سابقاً عامود حجرى^(١٠) بماله من ذاك الطرف إلا أن الإفرنجى المدعو بلزوني قد ادعى قائلًا إن ذاك العامود الحجرى هو لى، فإذا كان ذاك العامود الحجرى قد أخذه الخواجة دوروتي من مشايخ الجزيرة بماله، وبيده أيضاً مستند، فلا تدع أحداً ما يتداخل في خصوص نقله إلى هذا الطرف^(١١)."

عندما وصل بلزوني إلى أسوان كان الأمر قد قضى، ولكنه اتصل بحاكم أسوان لإقناعه بمشروعية دعواه، وكان الوقت ضيقاً، فالمسلة يجب أن تنقل فوراً وإلا أدى انخفاض منسوب المياه - في حالة التأخير - إلى استحالة نقلها عبر الشلال، وانتظار حلول موسم الفيضان القادم، وهو ما يعنى تأخير نقل المسلة عاماً كاملاً، لذلك قرر بلزوني تجاهل كل ما فعله دروفيتي وأعوانه

اعتماداً على أن وضع اليد على المسلة سوف يضع الجميع أمام الأمر الواقع، وقد كان لحسن علاقته مع الأهالي عن طريق اتباع سياسة الهد المبسوطة معهم ومع المسئولين المحليين أثره في نجاح خطته، وذلك بعكس وكلاء دروفيتي المتغطرسين، فأهدى بلزوني حاكم أسوان ساعة، كما دفع لصاحب القارب نصف الأجر مقدماً، فقبل نقل المسلة، مع أن هذا الرجل نفسه كان قد رفض القيام بنفس المهمة لدروفيتي قبل ذلك بشهرين تحت زعم أن المياه قد انحسرت بالفعل ولا يمكن نقل المسلة^(١٢)، والواقع أن الأهالي والمسئولين جميعاً لم يكونوا متحمسين للوقوف في وجه بلزوني، فالأمر عندهم سيان، والمسألة برمتها لم تخرج في نظرهم عن كونها مجرد سوء تفاهم بين الإنجليز والفرنسيين.

وعندما بدأت عملية النقل حضر حاكم أسوان ومعه الخطاب الذي حصل عليه دروفيتي من الإدارة المصرية، والذي تطلب فيه من حاكم أسوان عدم السماح بنقل المسلة إلا لصالح دروفيتي وحده، فتدخل القنصل البريطاني سولت ومعه بانكس وطلبها من الحاكم إبلاغ دروفيتي أن الإنجليز قد أخذوها بالفعل وقضى الأمر^(١٣).

ويعتبر التقرير الذي وضعه بلزوني عن مراحل إنزال هذه المسلة ووضعها في القارب الذي قام بنقلها ممتعاً ومسلماً وشيقاً^(١٤)، ولا سيما عندما يتحدث عن انزلاق المسلة وسقوطها في النيل نتيجة لهبوط الرصيف الذي عهد إلى الأهالي بإقامته لتستند عليه المسلة حين إنزالها إلى القارب، وكذلك عندما يتحدث عن العقبات والصعوبات التي واجهت القارب الذي كان يحمل الشحنة الثمينة أثناء اجتيازه لصخور وجنادل الشلال الأول وحتى وصوله إلى أسوان، والواقع أنه كان لجهود أهالي جزيرة فيله، كما كان لمهارة طاقم القارب من البحارة دورٌ كبير في نجاح عملية نقل هذه المسلة، إذ قدم أولئك وهؤلاء لبلزوني معونة صادقة، وأزروه في مهمته، وكانوا حقاً على مستوى الموقف، ولا غرو في ذلك فإن للملاحين من أهالي النوبة خبرة واسعة، وباع طويل بشئون الملاحة النهرية عبر شلالات نهر النيل صعوداً أو هبوطاً وذلك منذ قديم الأزل.

حرص بلزوني على مكافأة حاكم أسوان وأهالي فيله وإرضائهم قبل أن يغادر المنطقة، وعندما وصل القارب إلى قبالة الأقصر وقع شجار عنيف بين بلزوني وأعوانه من ناحية ودروفيتي وأنصاره من ناحية أخرى، ويعتقد أن بلزوني أن الفرنسيين قد دبروا لهذا الشجار بدافع الرغبة في الانتقام، وعلى أية حال فإن المعركة قد انفضت دون سقوط ضحايا من الجانبين، وواصل القارب رحلته إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية حيث شحنت المسلة إلى لندن، وهناك قام ويليام بانكس بنصب المسلة بنفسه في ضيعة العائلة في كنجستون لاسى دورسيت بحضور دوق ويلنجتون وذلك في عام ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ).

٢- مسألة باريس^(١٥) :

سبق الإلماع إلى أن فكرة نقل مسألة من مصر إلى فرنسا إنما تنسب إلى نابليون بونابرت، فقد كانت حملته هي التي أثارت في كل من فرنسا وإنجلترا رغبة جارفة في الحصول على مسائل مصرية : أما الإنجليز فلتخليد نصرهم، وأما الفرنسيون فلتخليد منجزاتهم العلمية، وكان مع ازدياد الاهتمام بمصر أن قررت حكومة كل من إنجلترا وفرنسا أن تكون لها مسألة أو أكثر من المسائل المصرية، ليس لتخليد النصر أو المنجزات العلمية هذه المرة وإنما لترتين عاصمة كل من الدولتين، ولم يكن عسيراً على هاتين الدولتين الحصول على إذن بنقل المسائل، ذلك أن محمد علي كان حريصاً على كفايتهما ما يطلبان ولو عني ذلك تحريد مصر مما يوشك أن يكون كل مسلماتها الباقية، ولما كان عدد المسائل محدوداً فقد قاما بالمطالبة بأحسبها، وكانت هذه المطالبات تتعارض في كثير من الأحيان^(١٦).

أما فرنسا فقد قرر ملكها لويس الثامن عشر على أثر عودة الملكية الفرنسية عام ١٨١٤م إحضار مسألة من فرنسا لترتين عاصمته، فأمر الملك قنصله العام في مصر برناردينو دروفيتي بالتقدم إلى محمد علي ليرى إن كانت فرنسا تستطيع الحصول على واحدة.

وإلى دروفيتي يرجع الفضل في أن أصبح لويس الثامن عشر في أواخر عهده مالكاً لمسلة هي واحدة من اثنتين موجودتين بالإسكندرية كانتا قد نقلتا إليها قديماً من هليوبوليس وترجعان إلى عصر تحتمس الثالث، وما دامت إحدهما - القائمة - قد أهديت إلى فرنسا، فقد بدا أنه لا مناص من إهداء الأخرى - الساقطة - إلى إنجلترا، وذلك كنوع من الحفاظ على التوازن الدبلوماسي بين الدولتين العظميين^(١٧).

مرت الأعوام دون أن يفكر الملاك الجدد للمسلتين في الحضور لأخذهما، ونسى شارل العاشر ووزراؤه وجودهما، ونسيهما الإنجليز كذلك، إلى أن ذكرهما شامبليون أثناء رحلته إلى مصر، فهو ينصح في إحدى رسائله لأخيه بعدم التأخير في أخذ تلك التي تخص فرنسا خشية أن يستولى غيرها على المسلة^(١٨)، وقد أحيا هذا الخطاب من جديد فكرة نقل المسلة، وعاد ملف المسلة إلى الظهور مرة أخرى على السطح، وتملكت شارل العاشر رغبة في أن يراها منقولة إلى عاصمته، ومنذ ذلك الوقت وشامبليون لا يتوانى عن شحذ همم مواطنيه ومسئولي حكومته، ودفعهم إلى المضى قدماً في سبيل اتخاذ الإجراءات اللازمة لنقل المسلة إلى فرنسا والعمل على توفير الأموال التي يتطلبها مثل هذا المشروع الضخم، فراه يتسأل في رسالة إلى أخيه [في ١٠ فبراير ١٨٢٩م] : " ترى هل حان الوقت الذي نرى فيه أخيراً مسألة فرعونية تزين أحد ميادين باريس ؟ إن ذلك سيكون مدهشاً، وإنني مغتبط لعدم تراجعنا أمام ذلك المشروع الذي يمكن تنفيذه " ثم يعرب شامبليون

عن ثقته في " إمكانية تحقيق ذلك بالتعاون مع سمو محمد علي باشا الذي لا ينكص أبداً عن تحقيق الأشياء النافعة والمفيدة " (١١).

وعندما زار شامبليون الأقصر في ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨م عندما كان مصعباً في النيل في طريقه إلى بلاد النوبة نزل شامبليون إلى الضفة الشرقية ليزور القسم الشرق من طيبة، وفي معبد الأقصر توقف شامبليون طويلاً أمام المسلتين المنحوتتين من قطعة واحدة من الجرانيت الوردي والمتصبتين أمام المعبد المذكور مبدئاً إعجابه الشديد بهما، وبعد رجوعه إلى طيبة مرة أخرى في طريق العودة في بداية مارس ١٨٢٩م راجع شامبليون من جديد المسلتين، وتأكد له أن مسلات الإسكندرية المتواضعة ليست شيئاً مذكوراً بالقياس إلى مسلات طيبة الرائعة، وأنه إن كان لمسلة أن تنقل إلى باريس فلتكن واحدة مما في الأقصر، وكانت أولى رسائله موجهة إلى دروفيتي الذي كان يستعد لمغادرة مصر : " أود أن تصلكم هذه الرسالة في الوقت المناسب حتى تقدموا في باريس اقتراح فكرة الحصول على إحدى مسلى الأقصر بدلاً من تلك المسكينة المطموسة القائمة عند الميناء القديم، وسيكون ذلك أجدر بالأمة وبالوزارة وبكم " (٢٠).

كما نراه يكتب لأخيه في ١٢ مارس ١٨٢٩م قائلاً : " قد رأيت المسلتين الرائعتين من جديد، وقل لي بالله عليك، لماذا ننقل إلى فرنسا مسلة الإسكندرية في حين أن يمكننا نقل إحدى هاتين المسلتين دون أن يكلفنا ذلك أكثر من أربعمائة ألف فرنك ؟ إن الوزير الذي سينجح في نصب إحداهما في أحد ميادين باريس سيخلد اسمه دون جهد أو مشقة " (٢١) ثم يؤكد عليه مرة أخرى في ٢٥ مارس ١٨٢٩م : " إن الحكومة الفرنسية إذا كانت ترغب في تزيين باريس بمسلة مصرية فإن شرف الوطن وعزته تحتم علينا اختيار إحدى مسلى الأقصر... أوصيك بالإلحاح في هذا الأمر والعثور على وزير يرغب في تخليد اسمه عن طريق تزيين باريس بمثل هذه الجوهرة " (٢٢).

وفي ٤ يوليو ١٨٢٩م يعود شامبليون إلى بسط المسألة من جديد : " إن كان محتماً أن تنقل مسلة مصرية إلى باريس فلتكن إحدى مسلى معبد الأقصر، وستجد مدينة طيبة عزاءها في الاحتفاظ بمسلة الكرنك التي تعد من أروع المسلات جميعاً، بيد أني لن أوافق بتاتاً... على المشروع الذي يهدف إلى نشر إحدى المسلات المنحوتة من كتلة حجرية واحدة إلى ثلاثة أجزاء لتسهيل عملية نقلها ؛ إذ أن ذلك سيعد تدنيساً وانتهاكاً للحرمان " (٢٣).

أدت رسائل شامبليون إلى تحويل أنظار الفرنسيين عن مسلة الإسكندرية إلى مسلى الأقصر، فما كان لرأى خبير قدير مثل شامبليون أن يتم تجاهله، وبدأت الاستعدادات للقيام بنقل إحدى هاتين المسلتين الجديديتين - أوهما معاً إن أمكن - بدلاً من مسلة الإسكندرية حتى قبل أن يوافق محمد علي على المشروع، إذ كانت الحكومة الفرنسية تنوى الاعتماد على مساندة الفرنسيين العاملين في خدمة الإدارة المصرية لمعاونتها في الحصول على هذه الموافقة، وكان هؤلاء الفرنسيين

من الكثرة بحيث يمكن أن يشكّلوا ضغطاً مؤثراً وفعالاً على محمد على وحكومته، ومع الأخذ في الاعتبار قلة اهتمام محمد على بتاريخ البلاد وأثارها، وحرصه على إرضاء الأجانب فقد صار من المسلمات أنه لن يثور أى اعتراض من جانبه.

ويعتقد أن شامبليون قد تمكن خلال الفترة التي قضها بالإسكندرية انتظاراً لوصول السفينة التي أقلتته إلى فرنسا، تلك الفترة التي امتدت قرابة الشهرين منذ نهاية شهر سبتمبر ١٨٢٩م، يعتقد أنه قد تمكن خلال الفترة التي أضرنا إليها من إنهاء مسألة نقل مسلة الأقصر إلى فرنسا بعد إهدائها إليها من قبل محمد على، ويعتقد كذلك أن القنصل الفرنسي ميمو - والذي خلف دروفيتي - قد لعب دوراً بارزاً من خلال مهارته الدبلوماسية في إنهاء هذه المسألة تلك النهاية السعيدة التي انتهت إليها^(٢٤).

قامت الحكومة الفرنسية بتخصيص ثلاثمائة ألف فرنك للإنفاق على عملية نقل مسلة الأقصر - أو كليهما معاً متى أمكن ذلك - وأمرت ببناء مركب صمم خصيصاً لنقل المسلة من طيبة إلى باريس، وهو الحوض العائم الذي سمي "الأقصر" والذي تم إنشاؤه في مدينة طولون الفرنسية كما قامت الحكومة الفرنسية بتكليف البارون تيلور - وهو فرنسي من أصل إنجليزي كان كاتباً ورحالة ورساماً ومهتماً بالمصريات - بالذهاب إلى مصر على ظهر الباخرة "درومادير" بقصد حث محمد على على المضي قدماً في تنفيذ وعوده، والحصول منه مرة أخرى على موافقته الفعلية بالإفراج عن مسلي الأقصر، وفي سبيل إعانته على إنجاز مهمته زوّد تيلور بمرسوم ملكي وهدايا قيمة لمحمد على وبمبلغ كبير مقداره مائة ألف فرنك لتغطية نفقات مهمته الرسمية وللقيام باقتناء عاديات المتحف اللوفر وإجراء حفائر أثرية على نطاق واسع بهدف إثراء المجموعة المصرية في المتحف الشهير، كما صدرت التعليمات إلى القنصل الفرنسي لهندل كل عون ممكن^(٢٥).

وعندما وصل تيلور إلى مصر فوجئ بما لم يكن يتوقعه، وذلك أن القنصل البريطاني باركر عندما علم أن محمد على ينوى إهداء مسلي الأقصر إلى فرنسا طالبه بهما من أجل بلاده، وإذا فات محمد على أنه سبق وأن وعد آخرين بهما فقد تعهد بمنحهما إياه^(٢٦)، والحقيقة أن محمد على كان كثير السهو والنسيان فيما يتعلق بعطاياه الأثرية، فمن قبل مطالبة باركر بالمستلن كان محمد على قد وعد القنصل البريطاني سولت - سلف باركر - بإعطاء المستلن للحكومة الإنجليزية، أى أن ما فعله باركر لم يكن إلا تجديداً للهبة العلوية، وبذلك يكون محمد على قد وهب المستلن أولاً لإنجلترا بوساطة سولت ثم منحهما لفرنسا بوساطة شامبليون، ثم منحهما مرة أخرى للإنجليز عن طريق باركر. وبوصول البارون تيلور مطالباً بمسلي بلاده وقع محمد على في حيرة شديدة، وأخذ يفكر في طريقة للخلاص من هذا المأزق، فميوله الفرنسية ليست محل شك، ولكنه مع ذلك لا يريد إغضاب الحكومة الإنجليزية، فعرض على الفريقين اقتسام مسلي الأقصر

أو استبدالهما بمسلمات أخرى غيرهما من المسلمات الموجودة بالقطر المصري^(٣٧)، ولكن يبدو أن العزة الوطنية قد وقفت حائلاً دون قبول تلك الحلول جميعاً. هناك دعى ميمو لممارسة مواهبه الدبلوماسية مرة أخرى، وتم ترتيب الأمر بلباقة شديدة على أن يُمنَح الإنجليز مسألة حثبوسوت القائمة بالكرك، والتي تعد أروع المسلمات المصرية على الإطلاق وذلك كبديل معقول وملاتم لمسلى الأقصر اللتين تقرر إعطاؤهما للفرنسيين^(٣٨)، وهو بدلٌ بدا في الظاهر أنه يحفظ عزة وكرامة الحكومة الإنجليزية، ولكن المدقق في الأمر يلاحظ أنه بدل يوشك ألا يكون صفقة عادلة، وذلك بحكم الصعاب التي تكتنف نقل مسألة الكرك، والتي كانت تستلزم إزالة الكثير من المباني الأثرية من أجل إيجاد مخرج لنقل المسلة المذكورة حتى شاطئ النهر، وقد كان كل من شامبليون وميمو يدركان ذلك جيداً، بدليل أن الإنجليز لم يقدموا على نقل مسألة الكرك واستعاضوا عنها بمسلة الإسكندرية الأيسر حملاً، ومن ناحية أخرى فإن ميمو بهذه الحيلة الشيطانية يكون قد حرم إنجلترا من مسلتين وأعطاهما واحدة، وبذا تكون المحصلة النهائية ثلاث مسلات لفرنسا (مسلة الإسكندرية القائمة ومسلى الأقصر) واثنين لإنجلترا (مسلة الإسكندرية الساقطة ومسلة الكرك) مع أن الأمر قد كان على العكس من ذلك قبل اقتراح ميمو الماكر.

لم يعد هناك مناص من تعجيل تدابير نقل المسلات الممنوحة لفرنسا قبل أن يرى محمد على رآياً آخر، فهب واحدة متهم لهذه أو تلك من الدول تحت ستار السهو والنسيان، وكان تايلور مصمماً على أخذ المسلات جميعاً إلى باريس، ولكن الأمر قد بدا يوم يومئذ صعب التنفيذ، وكان شامبليون قد رأى أن المسلة القائمة إلى الغرب من مدخل معبد الأقصر هي أجمل ما متحت فرنسا، وينبغي أن تكون أول ما ينقل، فإذا بقى من الوقت والاهتمام والمال ما يكفي لنقل المسلتين الآخرين أمكن أداء ذلك فيما بعد^(٣٩). أما لماذا اختار شامبليون تلك المسلة الغربية الواقعة على يمين الداخل^(٤٠) بالذات ؟ الواقع أن شامبليون يعزى ذلك إلى " أسباب وجهة لا يعلمها أحد سوى"^(٤١) كما يقول في رسالة له إلى أخيه في ٤ يوليو ١٨٢٩م. على أن أحد أقوى هذه الأسباب قد تضمنه تقرير رفعه شامبليون إلى حكومته وصف فيه المسلة التي على اليمين بأنها " أفضل كثيراً من التي على اليسار، لأن الجزء الأسفل لهذه الأبرة مصاب حتى ارتفاع قاعدتها بأضرار جسيمة"^(٤٢).

بدا أن المسألة في طريقها إلى الحسم، وتعهد محمد على من ناحيته بتوفير جميع الوسائل الممكنة لنقل المسلة إلى الإسكندرية، وتسهيل شحنها على إحدى البواخر، بل تراءى له أن بإمكانه أن يكفى أصدقائه الفرنسيين مؤونة نقل المسلة من الأقصر إلى الإسكندرية، فأوفد في الحال رسولاً من قبله إلى الأقصر ومعه حبال وقطع عديدة من الخشب وفرقة من الرجال، وأبحر الجميع على ظهر سفينة صغيرة إلى الأقصر لأخذ المسلة ونقلها إلى الإسكندرية، ولما لم يكن قد

اجتمع لديهم من الأيدي العاملة أو المهمات اللازمة ما يكفي لإنجاز العمل فقد خشي ميمو أن ترتكب بعض الأخطاء، ولهذا طلب من المهندس الفرنسي لبنان دى بلفون أن يرحل في الحال لا للشروع في العمل وإنما لملاحظة ما سيُعمل وللحيلولة دون وقوع خطأ ما قد يؤدي إلى تحطيم المسلة. ووجد لبنان الرجل الذي أرسله محمد على يسأل في كل مكان يصل إليه عن قطعة الحجر - المسلة - التي سيحملها إلى ملك فرنسا، ولعله كان بعيداً أن يخطر بباله حينئذ أنها هي تلك القطعة الهائلة من الجرانيت والتي تعادل المنذنة طولاً، والتي كانت موجودة أمامه في الأقصر، وأكبر الظن أنه تخيلها تمثالاً يشبه تلك التماثيل التي سبق له أن رآها، ولما عرف أنه يجب عليه انتزاعها ونقلها إلى الإسكندرية وأنه لا توجد لديه الأدوات اللازمة، عجز عن التصرف، ورحل في الحال إلى الإسكندرية وكذلك فعل لبنان ليلتقى هناك بكل من ميمو وتابلور، حيث علم الجميع عند وصولهما بنبا نشوب ثورة يوليو ١٨٣٠ م في فرنسا، وكان ذلك باعثاً على تأجيل نقل المسلة إلى أجل غير مسمى^(٣٣).

أعادت ثورة يوليو ١٨٣٠ م الأمور كلها إلى نقطة البداية، إذ أن المسلات كانت مهداة إلى شارل العاشر، فلما تم عزله عاد القنصل الإنجليزي من جديد - ويبدو أنه قد شعر أخيراً بغبن الصفقة - بصر على الحصول عليهما، ولكن تابلور وميمو نجحاً في إقناع محمد على بعدم إمكانية الرجوع في قراره، لأن الهدية كانت مقدمة إلى ملك فرنسا؛ لا إلى الملك ولكن إلى الأمة الفرنسية بأسرها^(٣٤). كان مبلغ الثلاثمائة ألف فرنك الذي تم تخصيصه لتغطية نفقات النقل قد أنفق في تشييد مركب " الأقصر " وعلى مهمة تابلور، فوافق البرلمان الفرنسي على اعتماد آخر جديد قيمته مائتا ألف فرنك، تبعه بعد ذلك العديد من المبالغ الأخرى، سمحت بوضع المشروع حيز التنفيذ، وتحدد ربيع سنة ١٨٣١ م موعداً لسفر البعثة المكلفة بإحضار ما تستطيع نقله من المسلات الثلاث الممنوحة لفرنسا، مع إعطاء أولوية لمسلة الأقصر الغربية " التي على اليمين " تنفيذاً لنصائح شامبليون، وفي غضون ذلك تلقت الحكومة الفرنسية خطاباً من بوغوص بك وزير خارجية محمد على يعتمد فيه التنازل عن المسلتين لفرنسا، وهذا الخطاب المؤرخ في ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ م وضع محمد على تحت تصرف صاحب الجلالة لويس - فيليب ملك فرنسا الجديد مسلة كليو باترا الموجودة بالإسكندرية، ومسلى الأقصر الموجودتين ضمن آثار طيبة^(٣٥). ثلاث مسلات دفعة واحدة في حين أنه لم يكن يتبقى على أرض الفراعنة سوى ست منها فقط كانت اثنتان أخريان منهما قد وهبتا لإنجلترا بالفعل، وإذا وضعنا في الاعتبار المسلة الأخرى التي منحها إسماعيل لمدينة نيويورك في سبعينات القرن التاسع عشر، فإن ذلك يعني بكل بساطة أنه لو أخذ كل ما وهبه محمد على وخلفاؤه من بعده من مسلات للدول الأجنبية لكانت مصر - مهد المسلات - قد أصبحت خلواً من هذا النوع من الآثار، ولكن كان من حسن حظ مصر أن عجزت بريطانيا

وفرنسا عن قبول تلك المسلات جميعاً، ولم يكن ذلك عن مقصد نبيل أن تترك المسلات حيث تقوم، بل الأرجح أن ذلك كان لضخامة النفقات وما يعتور نقل حتى مسلة واحدة من متاعب وصعوبات، فكان أن رضيت كل من الدولتين في آخر الأمر بحمل فضلى المسلات الممنوحة أو أيسرها حملاً، موافقة في كرم على ترك الأخباريات لمصر^(٣٦) فكانت المسلات التى هى اليوم فى باريس ولندن ونيويورك نتاج تلك السياسة الدبلوماسية الكريمة والمتسامحة للغاية من جانب محمد على وخلفائه.

المهم أنه بعد تدبير الأموال اللازمة قامت الحكومة الفرنسية بتكليف مهندس بحرى يدعى أبو اللينير لوبا Apollinaire Lebas بأخذ السفينة " الأقصر " التى كان قد تم الانتهاء من بنائها فى ترسانة ميناء طولون والتوجه بها إلى الإسكندرية ومنها إلى الأقصر لإحضار المسلة المنشودة، وزُوِّد لوبا برسائل تقديم لمن عمى أن يكون ذا نفع له من الناس، مع نسخة من تقرير شامبليون فى شأن مسلتى الأقصر^(٣٧).

غادرت السفينة الأقصر فرنسا فى ١٥ أبريل ١٨٣١م وعلى متنها مائة وخمسون شخصاً ما بين تجارين وحدادين ونحاتى حجر وميكانيكيين^(٣٨)، ووصلت إلى الإسكندرية فى الثالث من مايو نفس العام، ونتيجة لغياب قنصل فرنسا العام تأخر لقاء لوبا بمحمد على إلى الثامن يونيو، ويذكر لوبا أن اللقاء بينهما كان ناجحاً، وأن محمد على قد وعده كل عرنٍ مشجعاً إياه فى عمله الكبير قائلاً: " إننى مهتم بها كأنما تُصنَّع بأسى ولمجدى الشخصى، وقد أصدرت الأوامر من قبل بالأى يرفض شئ يهم فى سبيل إنجاز ذلك العمل الهائل "^(٣٩) وصدرت الأوامر إلى الكتخدا بك فى ٤ محرم ١٢٤٧م (١٥ يونيو ١٨٣١م) : " بأنه لا يخفى عليه رغبة دولة فرنسا أخذ الأعمدة الكفيرة الموجودة بالأقصر " ومن ثم فإنه لا بد من " إخراج الأحجار المذكورة من محلها وإنزالها بتلك السفينة، وبناء عليه يشير بالتنبيه على ناظر القسم الموجودة به تلك الأحجار بوجوده أثناء ذلك لإعطاهم الأنفار والفعلة التى تلزم، ومهما فعلنا مع هذه الدولة لا يعادل جميلها ومراعاتها السابقة لى، وبانه لزم وجوده فى محل العمل ليهو هذه المادة وتزيل الأحجار بالمركب... حتى يقال إنه أدى خدمة مقابل معروفهم وصنعهم الجميل معه "^(٤٠) ثم صدر أمر آخر " بجعل المصاريف اللازمة لنقل الأحجار الأثرية المطلوبة لفرنسا على حسابنا [على طرف الميرى] نظراً للخدمات الجليلة التى أسديتها فرنسا ورجالها "^(٤١) كما تم تكليف المهندس لبنان الذى كان حينئذٍ موظفاً فى الحكومة المصرية باعتباره رئيساً لمهندسى الوجه القبلى بتقديم كل المساعدات الممكنة للسفينة الأقصر^(٤٢).

انطلقت السفينة الأقصر فى طريقها من الإسكندرية إلى القاهرة عبر رشيد، وفى القاهرة استقبل قرالى بك مدير الملاحة المهندس الفرنسى لوبا، وحذره قرالى بك من أن مهمته قد تبدو مستحيلة، وأنه وإن كان محمد على قد منح لوبا إذناً بنقل المسلتين إلا أنه لن يستطيع نقلهما نظراً

لحجمها الهائل، كما أكد له قرالى بك أن شرخاً كبيراً قد انبعث من أسفل المسلة الغربية التى كان لوبيا ينوى نقلها أولاً وامتد بما يقارب الثلث إلى أعلى بدن المسلة المذكورة، وكان هذا خيراً مزعجاً، وعاد لوبيا إلى سفينته مأخوذاً بأن يكون الشرخ الذى لم ترد عنه إشارة في أى كتاب على معروفاً لدى قرالى بك^(٤٣).

واصل لوبيا رحلته جنوباً حتى وصل إلى الأقصر، وفور وصوله أسرع إلى فحص المسلة الغربية، ووجد أن الشرخ الذى حدثه عنه قرالى بك ليس خطيراً بالدرجة التى تمنع من نقل المسلة متى اتُخذت الاحتياطات اللازمة، ومتى تمت إزاحة المسلة ببطء شديد. كما كانت هناك عقبة أخرى واجهت لوبيا ورفاقه وتتمثل في تلك المنشآت الحديثة التى انتشرت فوق المعبد المردوم ومالت طوله بأسره، إذ كان هناك أكثر من ثلاثين بيتاً قائمة حول المسلة وعلى الطريق المنتوى حمل المسلة إلى النيل عليها، وكان ينبغي تشكيل لجنة للتفاوض مع أصحاب هذه البيوت حتى تزال، وتوصلت اللجنة بعد اجتماعات كثيرة إلى اتفاق مرضى للطرفين في آخر الأمر^(٤٤).

بدأ العمل في ظروف صعبة ومرهقة، حيث كانت درجة الحرارة ترتفع أثناء الصيف إلى معدلات عالية، كما ضرب وباء الكوليرا مدينة الأقصر، وفقد كثير من الناس ومنهم بعض العاملين في نقل المسلة حياتهم، وظلت البعثة الفرنسية تواجه مشكلة بعد أخرى من المشاكل التى ينبغي عليها مجابتها ووضع الحلول الملائمة لها، حتى تحدد الثالث والعشرون من أكتوبر ١٨٣١ م يوماً لإنزال المسلة على الأرض، ثم صار سحبا إلى الأقصر، وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً، إذ لم يتم الانتهاء منه حتى التاسع من ديسمبر ١٨٣١ م حتى ليقول لوبيا: " أربعة أشهر ونصف من المخاوف والقلق.... وقد احتاج الأمر جمع أكثر من تسعين ألف متر مكعب من الرمل، والحفر في تلال كبيرة من التربة، وهدم ثلاثين بيتاً، وإقامة بيوت أكثر فوق سطح المعبد، وأخيراً بناء ما ينبغي من أحياء لإيواء مائة وأربعين عاملاً، وذلك كله في بلد لا موارد له، وسط رمال الصحراء، وفي قلب ألوان من عذاب عنيف من أرض تغلى وتحت شمس تجعل مقباس الحرارة يرتفع إلى خمسين درجة مئوية"^(٤٥).

والواقع أن مثل هذا العمل الجبار لم يكن ليكتمل على هذه الصورة المثلى لولا المساعدات الضخمة التى تلقتها البعثة الفرنسية من محمد على باشا، فقد قدم محمد على بمعاونة موظفيه كافة التسهيلات اللازمة لهذه العملية، وكان يتابع بنفسه مراحل اقتلاع المسلة ونقلها إلى الإسكندرية خطوة بخطوة مع توفير الأدوات والمواد اللازمة لهذا المشروع، فنراه مثلاً يوافق في ١٥ جمادى الأول ١٢٤٧ هـ (٢٢ أكتوبر ١٨٣١ م) على " صرف مائة وخمسين قنطاراً من الحطب إلى السفينة الحربية الفرنسية التى مستقل الحجر الكفرى بالأقاليم الصعيدية بناء على التماس قنصل فرنسا"^(٤٦) كما نراه يصدر أمراً إلى البك الكتبخدا في ١٠ ربيع الآخر ١٢٤٨ هـ (٦ سبتمبر

١٨٣٢م) يقول له فيه : " إذا قمتم من محل إقامتكم بالوجه القبلى فعرجوا إلى لوقسر حجاج [يقصد الأقصر] وساعدوا الفرنسيين الذين يريدون نقل الحجر بإعطائهم رئيسين من رؤساء القوارب الألفية ليسهل لهم نقله، وأجروا اللازمة في نقله بدون أن يصيبهم تعب" (٤٧) وهذا يرجع الفضل العظيم لمحمد على في أن امتلكت مدينة باريس مسلة فرعونية رائعة، أولاً لأنه وهب هذا الأثر الفخم، وثانياً لجميع المساعدات التى أمر بها للقيام بشحنها إلى فرنسا.

كان شامبليون قد أوصى لوبا بأن يحضر المسلة مع قاعدتها، ولكن لوبا وجد أن هذه القاعدة قد تأكلت تماماً بفعل أملاح التربة لدرجة أن لوبا قد تخلى عن فكرة إحضارها معه (٤٨) وإذا كان قد أخذ - عوضاً عن ذلك - عدة تماثيل عثر عليها عند الحفر تحت قاعدة المسلة الأخرى الباقية وهى المسلة الشرقية (٤٩).

ظلت السفينة الأقصر قابضة على الأرض لا تنتظر سوى مياه الفيضان لرفعها، وفي ٢٥ أغسطس ١٨٣٢م وقع ذلك، وتُركت السفينة هابطة النهر حيث وصلت خاتمة المطاف إلى الإسكندرية، ثم بعد ثلاثة أشهر قضتها في الإسكندرية رحلت الأقصر إلى فرنسا، ورسّت في ميناء طولون في ١١ مايو ١٨٣٣م. واعتقد لوبا أن مهمته قد انتهت، إلا إنه سرعان ما تلقى رسالة تخبره بأن عليه إقامة المسلة في باريس " فإن المهارة التى أقمت عليها الكثير من الأدلة في إحضار ذات الحجر الواحد إلى قلب فرنسا لتؤكد النجاح الكامل للعملية الجديدة التى سوف تتولاها " (٥٠) وإذ تقرر أن تنصب المسلة الفرعونية في ميدان الكونكورد Concorde (الوفاق) فقد اتجهت السفينة الأقصر صعوداً في نهر السين بحملها الثمين حتى وصلت إلى أقرب نقطة إلى ميدان الكونكورد في ١٥ ديسمبر ١٨٣٢م.

وبعد الانتهاء من إعداد قاعدة المسلة الجديدة في ٢٥ أكتوبر ١٨٣٣م كان خمسمائة وثلاثون رجلاً من رجال سلاح المدفعية الفرنسى على استعداد للعون في المرحلة الأخيرة من العمليات، وفي هذا اليوم احتشد أكثر من مائتى ألف مشاهد في ميدان الكونكورد والطرق المتفرعة منه، وعند الظهر اتخذ الملك والملكة أماكنهم في شرفة وزارة البحرية المطلّة على الميدان، وبعد ثلاث ساعات انتصبت المسلة وسط تهليل الجمهور المحتشد، بعد رحلة مضية وجهود شاقة استمرت ما يقرب من ثلاثة أعوام (٥١).

وعلى القاعدة التى ترتفع فوقها المسلة نقشوا السطور التالية : " في حضور الملك لوى - فيليب الأول، تم نقل هذه المسلة من الأقصر إلى فرنسا، ونصبت فوق هذه القاعدة بواسطة المهندس لوبا وسط تصفيق جمهور غفير، ٢٥ أكتوبر ١٨٣٣م " (٥٢) ويشرف لوبا بظهور اسمه على ثلاث من واجهات القاعدة الأربع، وكان اسمه سيظل وحده مع اسم الملك المذكوراً على الصرح، لولا أن أضيف إليه اسم فرينيك قبطان السفينة " الأقصر " بينما اختفى تماماً كل من رمسيس

الثاني صاحب المسلة الحقيقي، وشامبليون صاحب الفكرة ومحركها الأساسي - كما يذكر ميمو - وهكذا اضطر شامبليون المكتشف أن يتنحى أمام لوبا الشيال^(٥٦). وقد تلقى لوبا مقداراً كبيراً من المال، كما كوفئ من عاونه من الرجال في عمله^(٥٧)، أما شامبليون الذي ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته يستعلم من المقربين له عن مراحل نقل المسلة كلما سمحت ظروفه الصحية بذلك، فلم يتذكره أحد^(٥٨).

وهكذا أصبح لباريس مسئلتها أخيراً، وأوضحت الحسابات التي تم إجراؤها أن هدية محمد علي قد تكلفت أكثر من ١٥٠٠٠٠ فرنك^(٥٩)، وهو أمر تعرضت الحكومة الفرنسية من أجله لكثير من الانتقادات. كانت التجربة قاسية، والانتقادات لاذعة لدرجة أن أيّاً من الحكومات والدول الأخرى لم تفكر في تكرار التجربة إلا بعد مضي وقت طويل.

٣- مسلة لندن^(٥٦) :

أما قصة نقل مسلة لندن فنستغرق من الزمان وقتاً أطول من الوقت الذي استغرقته قصة نقل أختها مسلة باريس، وتبدأ القصة بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر عندما قرر القائد الإنجليزي إيرل كافان - وكان قائداً لفصيلة من الجيش الإنجليزي في مصر أن يسجل انتصارات الإنجليز على الفرنسيين، فأمال الكتلة العليا من قاعدة مسلة الإسكندرية الساقطة على جانبها وحفر نقشاً يصف انتصارات الجيش الإنجليزي على لوح من الرخام أو النحاس وادخله أسفل الكتلة لدوام حفظه^(٥٨). غير أن كافان كان يرنو إلى تذكّار أبرز لها الانتصار ؛ إذ كان ينوي نقل المسلة الساقطة ذاتها إلى لندن، ولما كان الأتراك ينظرون بعين العرفان والتقدير للمعونة البريطانية في سبيل إجلاء الفرنسيين عن مصر فقد استجابوا بسرعة لطلب كافان بالسماح له بنقل المسلة، ورجا كافان من قواته الإسهام في نفقات المشروع بأن يتبرع كل منهم بأجر بضعة أيام فوافقوا على ذلك، وعندما تجمع بعض المال بهذه الطريقة قرر كافان استئجار سفينة لنقل المسلة، كما بدأ في إنشاء جسر يعين على تحريك المسلة نحو السفينة التي تحملها إلى إنجلترا، وأبدى الجنود استعدادهم لشحن المسلة على ظهر السفينة^(٥٩). وكان العمل قد تقدم تقدماً حسناً حين توقف فجأة لسبب مجهول، ويعتقد البعض أن أوامر صدرت بذلك من سلطات بحرية عليا، على حين يرجع آخرون السبب إلى عاصفة عاتية أطاحت بالجسر، وعلى أية حال فإنه سرعان ما جلا الجيش البريطاني عن مصر وبقيت المسلة من ورائهم^(٦٠).

ظلت المسلة قابضة في مرقدها سنين طوالاً حيث جرت أثناء ذلك محاولات لحث الحكومة الإنجليزية على القيام بنقلها غير أنه لم يكتب لأى من هذه المحاولات أن تصادف نجاحاً، وكان من بينها محاولة القنصل البريطاني - صمويل بريجز - الذي كان قنصلاً لبريطانيا في الإسكندرية من عام ١٨٠٣ م إلى عام ١٨٠٩ م (١٢٢٤-١٢١٨ هـ) - فقد وجد هذا القنصل أثناء عودته إلى مصر مرة

أخرى عام ١٨٢٠م (١٢٣٥هـ) في زيارة خاصة له أن الظروف مواتية لنقل المسلة، إذ وافق محمد على الإفراج عنها، على حين كان بلزوني مستعداً لتدبير أمر نقلها إلى إنجلترا، وكتب بريجز بذلك إلى أحد وزراء الملك جورج الرابع، ورغم أن الملك قد أمر ببحث المسألة في وزارة الخارجية إلا أن البرلمان الإنجليزي لم يقرر المال اللازم لنقلها، ومن ثم فلم تقترب المسلة من إنجلترا^(١١)، ويبدو أن الإنجليز

كانوا يرون أن المسلة على حالة من السوء تجعلها غير جديرة بالنقل، كما يبدو كذلك أن الصعوبات الفنية والتكلفة المادية المرتفعة المطلوبة للقيام بمشروع ضخيم كهذا قد جعل الحكومة الإنجليزية تحجم عن نقل المسلة خوفاً من المسألة والنقد، ولاسيما وقد وضع أحد المهندسين الإنجليز دراسة أكد من خلالها أنه يلزم لنقل مسلة الإسكندرية عمل طريق معبدة تتكلف وحدها ثلاثمائة ألف فرنك^(١٢)، وهذا عدا تكاليف النقل الأخرى.

وكانما كان محمد على حريصاً على التخلص من المسلة فعرضها مرة أخرى على الملك جورج الرابع عام ١٨٢١م^(١٣) ثم وهبها مرة أخرى للأمة الإنجليزية عام ١٨٢٣م عن طريق القنصل البريطاني سولت الذي طلب من صديقه الفرنسي لينان أن يضع مشروعاً لنقلها، فوضع هذا الأخير مشروعاً يتلخص - على وجه التقريب - في استخدام نفس الوسائل التي اتبعها الرومان قديماً عند نقل المسلات المصرية إلى عاصمة بلادهم، وقد بقى هذا المشروع مجرد حبر على ورق نظراً لعدم إقدام الحكومة الإنجليزية على اتخاذ خطوات فعالة لنقل المسلة^(١٤). وفي عام ١٨٣١م كرّر محمد على عرضه مرة أخرى، بل ووعده بنقل المسلة على نفقته إلى السفينة التي سوف تحملها إلى إنجلترا غير أن ذلك العرض السخّي لم يحرك السلطات في بريطانيا ولم يدفعها إلى عمل شئ جاد، ولا كذلك الشائعات التي سرت عام ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) بأن عيون الفرنسيين على المسلة^(١٥). ومع ذلك فقد كان هناك بعض المثقفين الإنجليز الذين كانوا يتحمسون لفكرة نقل المسلة، ومن بينهم الرحالة ويليام ثاكراي William Thacheray الذي زار مصر عام ١٨٤٦م وانتقد الحكومة الإنجليزية لأنها أبدت فتورها ولم تتحمس لتقبل المسلة المصرية التي أهدها لها محمد على، والتي كان إهداؤها رمزاً لانتصار الإنجليز على الفرنسيين في مصر عام ١٨٠١م^(١٦) كما كان من بينهم كذلك الفيلسوف الإنجليزي جوزيف هيوم والذي ما انفك يحث الحكومة على ذلك حتى بدأت المناقشات الجادة في تكاليف ووسائل النقل ونحو ذلك^(١٧)، ويبدو أنه كان للغيرة والمنافسة الوطنية بين إنجلترا وفرنسا أثرها في ذلك، فقد لاحظ أمبير أن أصوات الإنجليز المطالبين بنقل مسلة الإسكندرية إلى لندن قد ارتفعت أكثر من ذي قبل عقب قيام الفرنسيين بنقل مسلة الأقصر إلى باريس، بيد أن اعتراض جماعة من مشاهير علماء المصريات الإنجليز بسبب رداءة النقوش الهيروغليفية التي تكسو المسلة المذكورة قد وضع نهاية لهذه المحاولات^(١٨).

وفي عام ١٨٥١م (١٢٦٧هـ) طلبت شركة إنجليزية خاصة من الحكومة البريطانية الإذن بتحمل المسؤولية في القيام بنقل المسلة، وذلك بعد أن رأت هذه الشركة عجز الحكومة عن نقل المسلة على مدى نصف قرن من الزمان، ولكن هذا العرض قد قوبل بالرفض من جانب الحكومة، إذ عُدَّ ضرورياً أن المسلة إن كان لها أن يؤتى بها إلى إنجلترا فلتكن أثراً قومياً ولا تكن ملكاً لشركة خاصة^(٦١).

وفي عام ١٨٦٧م (١٢٨٤-١٢٨٣هـ) قام الجنرال جيمس ألكسندر - وهو رجل عسكري ورحالة إنجليزي - بزيارة باريس، وأعجب بالمسلة المصرية المنتصبة في ميدان الكونكورد، فعزم على بذل أقصى جهده لنقل مسلة الإسكندرية إلى لندن، وقد استغرق منه هذا الجهد ما يقرب من عشر سنين واصل خلالها جيمس ألكسندر حملته قارئاً أوراقاً للجمعيات العلمية مبيناً جدوى إحضار مسلة إلى لندن معجداً بأن المسلة خليفة بأن تضيف الكثير إلى جمال إنجلترا، وإن في إحضارها إلى الوطن الإنجليزي إنقاذ لكرامة البلاد، وقرر ألكسندر الذهاب إلى مصر لتفقد المسلة ودراسة ما هو مطلوب لتنفيذ المشروع^(٦٢).

وصل جيمس ألكسندر إلى مصر في مطلع ربيع عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) وذكرت جريدة "الوقائع الرسمية المصرية أن حضوره" من لندره إلى الإسكندرية بقصد إخراج السارية المركوزة تحت التراب بالقرب من السارية الأخرى التي فيها [الإسكندرية] المعروفة بمسلة (قليوباتره) التي يقال إنها متوارية من أجل التدبير في طريقة نقلها إلى أنكلتره^(٦٣) وفي سبيل تحقيق هذه الغاية قام ألكسندر بتدبير لقاء له مع الخديوى إسماعيل أوضح خلاله الجنرال للخديوى أنه من هواة الآثار المتحمسين، وأنه أقبل من إنجلترا في شأن المسلة الطريحة في الإسكندرية لفحص حالتها والاستئذان في نقلها، فأجابه الخديوى بقوله: "لقد أهديت هذه المسلة إلى الأمة البريطانية من لدى جدى محمد على باشا عن خدمات أدت لمصر وهى ملك بريطانيا، وأنا أقدمها طواعية، ولكن كيف يكون نقلها؟" فرد الجنرال بتقديم كافة التفاصيل التي سوف تنقل المسلة بمقتضاها إلى إنجلترا^(٦٤). وإذ نجح ألكسندر في مساعده فقد نشرت جريدة "الوقائع" أنه قد رخص الآن إلى موسيو (جيمس ألكساندر) المهندس باستخراج الأثر المدفون المعروف بالمسلة، الذى بجوار مسلة (قليوباتره) ونقله إلى إنجلترا، وهاهو جار البحث عن أنسب الطرق والوسائل اللازمة لنقل هذا الأثر إليها بدون حصول أدنى خلل فيه^(٦٥).

استعان جيمس ألكسندر بخدمات مهندس إنجليزي يدعى وايتمان ديكسون وافق على العمل في نقل المسلة، فأزال كل ما حولها لتحديد حالتها التي دلت على أنها مرضية، وكانت الخطوة التالية تتمثل في الحصول على موافقة مالك الأرض التي كانت تقبع فيها المسلة يومئذ وكان هذا المالك تاجراً ثرياً يدعى ديمتريو، وكان ديمتريو هذا قد اشتكى مراراً إلى السلطات الرسمية من وجود

المسلة في أرضه. وكان يتوسل إلى المسئولين في محافظة الإسكندرية والخارجية المصرية من أجل العمل على نقل المسلة من ممتلكاته، حتى إن محافظ الإسكندرية قد أبلغ المعية السنية ذات مرة " بأنه كتب للخارجية بأن الأرض الكائنة بها المسلة السابق التسليم فيها لدولة الإنجليز بنقلها إلى إنكلترا، فإنها تعلق^(٧٤) واحد رومى، والمذكور متضرر من ذلك، ولما كتب من المحافظة للخارجية بأن هذه المسلة تنعلق بدولة الإنكليز، أعيدت منها المكاتبه بأنه صرف النظر عن مادة المسلة المذكورة من طرف دولة الإنكليز، وأنه صار تركها، وحيث المعلوم أن المسلة المذكورة حضر في شأنها واحد مهندس مخصص من إنكلترا... وجارى أعمال المطالعات اللازمة لنقلها إلى إنكلترا، ولم تترك هذه المسلة كما تحرر من الخارجية للمحافظة، وبهذه الكيفية فإن هذه المسلة لا تختص بالحكومة بل تتعلق بالدولة الإنكليزية^(٧٥) وإذا أدرك ديمتريو قيمة ذات الحجر الواحد الموجودة في أرضه والتي اشتكى كثيراً من وجودها حتى إنه هدد بتقطيعها واتخاذها مادة للبناء - إلا وأسرع بتعزيز مطالبه فطلب مبلغاً من الحكومة المصرية على سبيل التعويض لسماعها بتعطيل أرضه بوجود المسلة فيها، ولعل هذا ما يثير الدهشة، فقد كان الأحرى بديمتريو هذا أن يطالب بالتعويض من الحكومة الإنجليزية وليس من الحكومة المصرية، وذلك لأن الأولى هي التي كانت تملك المسلة بحكم إهبائها لها منذ عهد محمد على، وبقاء المسلة المذكورة في أرض هذا اليونانى إنما كان نتيجة لتقاعس الحكومة الإنجليزية عن نقلها، ومن ثم فهي المسئولة عن تعطيل أرضه وليست الحكومة المصرية. وعلى أية حال فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبات بطريقة ما، وإن كانت الرواية الرسمية تقول إن هذه المشكلة قد حلت عن طريق توقيع وثيقة تشير إلى أن مالك المسلة [كذا] قد أعطاه هدية إلى إنجلترا^(٧٦) II.

عاد الجنرال ألكسندر إلى إنجلترا للحصول على المال اللازم لنقل المسلة، ولكنه وجد تجاهلاً من جانب الحكومة بحجة ضيق ذات اليد، فكان أن تحول إلى المصادر الأهلية حيث وجد المساندة والتأييد من السير إيراسموس ويلسون الذى كان طبيباً مسناً جمع ثروة كبيرة من مهنته، وقد وافق ويلسون بعد لقاء بينه وبين ألكسندر وديكسون على تقديم عشرة آلاف جنيه لاستحضار المسلة إلى لندن ونصبها على ضفة نهر التايمز، وقد وقع العقد في أواخر عام ١٨٧٦م^(٧٧).

ابتنى ديكسون سفينة خاصة قسمت إلى عشر غرف محكمة لا يتسرب إليها الماء، ثم شحنها إلى الإسكندرية مفككة إلى أجزاء لتبنى من حول المسلة. وفي الإسكندرية كان ينبغي قبل حمل المسلة تطهير المنطقة من حولها، حيث عثر أثناء ذلك على كثير من الآثار، ثم فجرت البيوت وقتل الأحجار الكبيرة في الطريق إلى البحر، كما حفر فتاة من المسلة إلى المياه العميقة، ثم وضعت المسلة داخل سيفنتها الخاصة التي سميت (كيلوباترا) وقطرتها باخرة تدعى أولجا، وفي ٢١ سبتمبر ١٨٧٧ م انبثقت أولجا قاطرة كيلوباترا بمسلتها وهي في طريقها إلى إنجلترا^(٧٨).

وبعد مسيرة عدة أيام وأثناء عبور السفينة كليوباترا وقاطرتها خليج بسكاي تعرضت الرحلة لريح عاصف يتبعها موج عاتٍ قلبت الكيلوباترا على جانبها الأيمن، فعمد البحارة إلى قطع الجبال التي تربطها بالباخرة خوفاً على حياتهم، وكانت العواصف والأمواج من الشدة بحيث تعرض بعض بحارة السفينة للغرق، وضلت كيلوباترا طريقها بينما عادت الباخرة أولجا إلى إنجلترا، وأصر ديكسون على أن كيلوباترا بوسقها الثمين ما زالت آمنة، وأنها سوف تظل طافية حتى تلتقطها سفينة أخرى، وقد حدث ذلك بالفعل، فقد عثرت عليها إحدى البواخر الأسبانية وأعادتها إلى إنجلترا سالمة^(٧٩).

قوبل وصول المسلة إلى إنجلترا بسرور عظيم، ورحبت جريدة " التايمز " بوصولها في مقال طويل^(٨٠)، وإن كان فقدان البحارة قد أثقل ضمير إنجلترا، وتلقى ديكسون برقية تقول إن الملكة قد سمعت بسرور نياً إنقاذ المسلة، وتأمل في أن يكون البحارة المفقودين قد أنقذوا، فلما أتضح أن لا أمل في نجاحهم ارتدت الاتهامات المريرة إلى توقيت الرحلة، فقد كان معروفاً أن العواصف كثيرة في خليج بسكاي في هذا الوقت من السنة، وأن عاصفة كبرى قد كان متوقعا لها أن تصل إلى الخليج في ذات اللحظة التي كانت أولجا وكيلوباترا تمران فيها، ووُجّه النقد بعد النقد لتخطيط الرحلة^(٨١).

قامت الملكة فيكتوريا بمنح أرامل البحارة المفقودين قدراً كبيراً من المال، وتقرر حفر أسمائهم على قاعدة المسلة^(٨٢)، وكانت قاعدة المسلة الأصلية ملقاة بالقرب منها في أوائل القرن التاسع عشر حيث وضع الإبريل كافان في أسفلها اللوح المنقوش الذي يتحدث فيه عن انتصار الإنجليز على القوات الفرنسية على أرض مصر، فلما كان أوان نقل المسلة إلى إنجلترا كانت كل من القاعدة واللوح الذي أسفلها قد اختفيا ولم يعثر عليهما في مكان، ومما لا شك فيه أنهما قد وقعا في أيدي البنائين السكندريين^(٨٣). وقد حدا فقدان القاعدة الأصلية بالحكومة الإنجليزية إلى أن تصنع للمسلة قاعدة جديدة زينت بأربعة ألواح من البرونز تروى تاريخ المسلة، وتذكر أسماء الذين اتصلوا بها على مدى سياحاتها الكثيرة، ولعل من الغريب أن يلاقى الجنرال جيمس ألكسندر نفس المصير الذي لاقاه شامبليون، فقد حذف اسمه دون سواه من ألواح البرونز رغم أنه كان واحداً من أبرز الذين عملوا طويلاً في سبيل الإتيان بهذه المسلة^(٨٤).

جعل اليوم الثالث عشر من سبتمبر عام ١٨٧٨ م يوم إقامة المسلة، وقد حدث ذلك بغير احتفال رسمي، ومع ذلك، وعلى الرغم من الطقس السيئ في ذلك اليوم فقد تجمع آلاف الناس لمشهدوا المسلة وهي ترتفع على ضفاف نهر التايمز^(٨٥)، ومن الغريب أن الإنجليز يسمونها هناك خطأ بمسلة كليوباترا، مع أنه سبق القول إنها لتحتوئهم الثالث^(٨٦).

٤- مسألة نيويورك :

أما مسألة نيويورك فهي عبارة عن عامود من حجر واحد من جرانيت أسوان الأحمر، ويبلغ ارتفاع المسلة ثمانياً وعشرين قدماً وعشر بوصات، وتزن حوالى مائتين وعشرين طناً، وقد شيدت هذه المسلة في الأصل كجزء من معبد الشمس في مدينة هليوبوليس خلال حكم الفرعون تحوتمس الثالث، ثم نقلها الرومان إلى الإسكندرية مع شقيقتها التي نقلت إلى لندن^(٨٧).

وترجع فكرة الحصول على مسلة لمدينة نيويورك إلى عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ)، وقد نشأت هذه الفكرة عن الأنباء الواردة في الصحف بشأن العمل الجارى في نقل مسلة الإسكندرية إلى لندن، أما باريس، فقد كان لديها مسلة سلفاً، وكانت لندن على وشك أن تحصل على واحدة، فلم لا تجامل نيويورك تلك المدينة العظيمة في العالم الجديد بنقش الطريقة ؟ ولذا فقد بدأت في مدينة نيويورك حملة للحصول على تلك المسلة، قام بشنها كل من هنرى ستيبنز Henry Stebbins عضو لجنة الميادين الشعبية ومدير مصلحة المتزهات العامة لمدينة نيويورك، ووليام فاندر بيلت William Vanderbilt الذى تطوع بمحض إرادته وعرض أن يقوم بكافة النفقات اللازمة للقيام بهذا العمل، وكان أن أصدرت الإدارة الأمريكية تعليماتها إلى قنصلها العام في القاهرة ألبرت فارمان باستخدام كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذه الرغبة^(٨٨).

وكان قد نشر خطأ في إحدى صحف نيويورك أن خديوى مصر - الخديوى اسماعيل - قد أبدى رغبته في إهداء مدينة نيويورك المسلة الباقية بالإسكندرية عند التقدم بطلب مناسب للحصول عليها، وكان جون وايمان ديكسون الذى أشرف على نقل مسلة لندن هو الشخص الذى قيل إن الخديوى قد أدلى أمامه بهذا التصريح، ولم تمض ثمانية أيام على نشر هذا التصريح الخاص حتى أرسل المستر ستيبنز إلى الخارجية الأمريكية خطاباً اقترح إرساله إلى خديوى مصر، وقد أوضح ستيبنز في هذا الخطاب " أن السرور العظيم الذى عمّ العالم المتمدنين إزاء خبر انتقال المسلة المعروفة باسم (مسلة كيلواترا) إلى إنجلترا تحت رعاية حكومة سموكم قد أثار في الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الأخص لدى أهالى مدينة نيويورك شغفاً عميقاً زاد منه التلميح لشعب مدينة نيويورك عن طريق مستر ديكسون... بأن سموكم سوف تنظرون بعين العطف إذا قُدم طلب خاص... بإهداء مدينة نيويورك المسلة المناظرة لها القائمة الآن بالإسكندرية لإقامتها في أحد الميادين العامة العظيمة... وذلك لتبقى شاهداً ينطق بلسان روحكم الحرة المستنيرة التى أشرفتم بها على أعمال المملكة الجليلة القديمة التى استؤمنتم عليها بما أوتيت من سطوة ونية صادقة نحو أحدث الدول العظيمة " وأكد ستيبنز في خطابه : " أن إنجاز مثل هذا العمل سيحييه كل فرد من أفراد نيويورك بل كل شعب الولايات المتحدة كدليل جديد على الحكمة والكياسة التى تبديها

سموكم في رعاية هذا المشروع... وكرابطة جديدة تثير الاهتمام، وتربط جمهورية الولايات المتحدة بحكومة سموكم وبالشعب المصري^(٨٩).

أحالت الخارجية الأمريكية خطاب ستينيز المقترح إلى قنصلها العام في القاهرة ألبرت فارمان للنظر في إمكانية تقديمه إلى الخديو اسماعيل، ووعد فارمان بأنه سوف يستخدم كل الوسائل الممكنة لتحقيق رغبات المستر ستينيز. وإن كان قد أبدى تخوفه من أن تكون هناك معارضة جدية إزاء نقل هذه المسلة من الإسكندرية، خاصة وأن الحصول على هذه المسلة سوف يحرم المدينة من أحد الأثرين الكبيرين الباقيين في هذه المدينة وهما المسلة القائمة الآن والأثر المعروف باسم "عمود بومبي" وقد كان لهذين الأثرين أهمية كبرى لدى السائحين. ولفت فارمان أنظار المسؤولين الأمريكيين إلى أنه إذا كان من العسير الحصول على مسلة الإسكندرية فإن من الممكن الاستعاضة عنها بإحدى المسلات الموجودة بالأقصر أو الكرنك، ونصح فارمان المهتمين بالأمر في نيويورك بأن يأخذوا هذه المسألة في اعتبارهم، وواقع الأمر أن فارمان لم يكن متفائلاً في البداية، إذا كان يتوقع معارضة إنجليزية فرنسية للمشروع الأمريكي، على اعتبار أنهم هم الذين يمتلكون مسلات الأقصر والكرنك، وسرعان ما تأكدت مخاوفه عندما نشبت معارضة عنيفة أثارها الفرنسيون والبريطانيون المقيمون في مصر. وفي نفس الوقت كان المستر ديكسون قد أحبط علماً بالخطوات التي تقوم بها الأطراف المعنية في نيويورك من أجل الحصول على إحدى المسلات المصرية، وأدهشته الكيفية التي استخدم بها اسمه في هذه المسألة، فبعث برسالة إلى القنصل العام الأمريكي بالقاهرة يعرب له فيها عن غضبه إزاء الزج باسمه في قضية لا علاقة له بها، ونفى ديكسون تماماً النبأ القائل بأن الخديوي اسماعيل قد تحدث إليه بشأن مسلة الإسكندرية، أو أنه ألحج إليه بتقديم مسلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو إلى مدينة نيويورك، وأكد ديكسون أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل، وأن النبأ كاذب من الأساس، وأعرب ديكسون عن حزنه الشديد لأن اسمه "قد اقترن بهذه المسألة كما لو كنت متعهداً لتوريد المسلات لدى سموه!!" وإن كان ديكسون لم يستبعد في نهاية خطابه إمكانية حصول المدينة الشهيرة على إحدى المسلات فيما لو دبر الأمر بطريقة ملائمة، وألحج ديكسون إلى أن تدخل وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في المسألة قد يفى بالغرض، ورجا ديكسون القنصل الأمريكي ألا يذكر اسمه على أنه هو صاحب هذه الفكرة، وإن كان قد أبدى استعداده لتقديم العون - بما لديه من خبرة - في نقل المسلة إلى مدينة نيويورك، وذلك في حالة ما إذا تمكن المسؤولون الأمريكيون من الحصول عليها^(٩٠).

أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تعطيل المسألة برمتها لفترة من الوقت، ولكن فارمان كان لا يزال يعتقد في قرارة نفسه بأن بإمكانه أن ينجح - بقليل من الصبر والحكمة والتروي - في مساعاه في الظفر بإحدى المسلات، ومن ثم فقد كان حريصاً على أن يفحص في أثناء رحلة له إلى الوجه

القبلى تلك المسلة القائمة بالأقصر بالإضافة إلى مسلتي الكرنك وذلك لبحث إمكانية نقل واحدة منها، وفي ٤ مارس ١٨٧٨ م (٢٩ صفر ١٢٩٥ هـ) قابل فارمان الخديوى اسماعيل في قصر عابدين وأحاطه علماً برغبة شعب الولايات المتحدة في الحصول على إحدى المسلات القديمة من مصر، وأن رجلاً ثرياً في نيويورك على استعداد تام للقيام بكافة مصاريف نقلها وإقامتها في تلك المدينة، وأوضح فارمان للخديوى اسماعيل أن الأمة الأمريكية حديثة العهد ؛ ولذا فإن أثراً واحداً من الآثار المصرية سوف يكون له قيمة أكبر في الولايات المتحدة عنها في إنجلترا وفرنسا، وأضاف فارمان قائلاً إنه إذا كان سموه سيطلق عنقنا بمثل هذه الهدية فإنه ليسرنا أن نتقبل أية مسلة يقع اختيار سموه عليها، ويقول فارمان إن المسألة بدت جديدة وحديثة العهد بالنسبة للخديوى اسماعيل ؛ إذ اعترضته الدهشة عند سماعه الاقتراح لأول مرة، وإن كان قد أكد بأنه يسره كثيراً أن يحقق رغبات فارمان، وأن يعمل ما في طاقته لإرضاء شعب الولايات المتحدة، ثم طلب منه الخديوى أن يلفت نظره إلى الموضوع في وقت آخر مقبل^(٩١).

بعد فترة وجيزة أتاحت لفارمان فرصة مقابلة الخديوى مرة أخرى، وذكره فارمان بأمر المسلة، فأجاب الخديوى بأنه لا يرى مانعاً من إعطائهم واحدة وأن ذلك " لا يضرنا في شئ، ولسوف يكون شيئاً عظيم القيمة لديهم " وفي مناسبة ثالثة أكد الخديوى اسماعيل لفارمان أنه قد عزم على منح الأمريكيين إحدى المسلات، ودعا الخديوى سكرتيره الخاص، وكلفه بكتابة مذكرة إلى هنرى بروجش يطلب منه فيها قائمة ببيان جميع المسلات الباقية في مصر مع إبداء الرأي في أى المسلات يمكن الاستغناء عنها، ولكن بروجش أكد للقنصل الأمريكى في مقابلة له معه أنه سوف يعارض بشدة فكرة نقل أية واحدة من المسلات المصرية المتبقية، لأن ذلك سوف يخلق شعوراً عدائياً ضخماً ؛ إذ أن كل علماء أوروبا سوف يدينون مثل هذا التصرف، وأوضح بروجش أنه سوف يعمل جاهداً على إقناع الخديوى بذلك^(٩٢).

في هذه الأثناء كان مارييت بك مدير مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى قد عاد من بلاده إلى القاهرة بعد قضاء أجازته الصيفية، وكان مارييت يعارض هو الآخر بشدة إهداء المسلة إلى الولايات المتحدة، وقدم بذلك مذكرة إلى مجلس النظار المصرى أكد فيها معارضته المطلقة لنقل أية مسلة من مصر، وقال مارييت : " هناك متحفان في مصر : أحدهما هو متحف بولاق، والآخر هو مصر بأسرها التى تمثل بكل خرائطها المنتشرة على كلتا ضفتى النيل من الدلتا حتى الشلال أجمل متحف في العالم بأسره... فلماذا نقل من أهمية هذا المتحف الثانى الذى يأتى العالم كله - كل شئ - لتأمله ؟ إن هناك مبدءاً عاماً سارياً في كل المتاحف، وهو أن المتحف يمكنه أن يتلقى، ولكنه يجب أن ألا يعطى فماذا لو طلبت مصر فينوس مهلو من اللوفر أو حجر رشيد من لندن أو أى أثر من مجموعة أبوت في نيويورك ؟ إن أحداً لن يعطيها هذه الهدية، فلماذا تعامل مصر

بطريقة تختلف عن المتاحف الأخرى^(٩٣) وأشار ماريت إلى حقيقة " أنه لم يبق في القطر المصري سوى خمس مسلات، فإذا تلبى - والحالة هذه - التماس أمريكا بهذا الشأن لم يبق مسوغ للامتناع عن إهاب سائر الآثار لمن يروق له من الدول أن يطلبها " وأوضح ماريت لمجلس النظار أنه يتناوم إعطاء المسلة المذكورة للولايات المتحدة بمقدار اختصاص ذلك به، وأضاف قائلاً إنه أبلغ القنصل الأمريكي بذلك^(٩٤).

والواقع أن كلام ماريت منطقي تماماً وحجته دامغة، ومن ثم فقد كان في وسع معارضته - هو وبروجش وسائر الإنجليز والفرنسيين المقيمين في مصر - أن تعوق وتؤخر المفاوضات الجارية للحصول على المسلة، حتى تسبب ذلك في تأخير الوفاء بالهدية التي استقر عليها رأى الخديوى عاماً كاملاً. أما فارمان فقد كان يعتقد أنه مهما كانت آراء واستنتاجات هؤلاء الأوروبيين المقيمين بمصر مقنعة ومبنية على أسس سليمة، إلا إن هؤلاء لم يكن لهم أى حق في حماية مصر ضد الولايات المتحدة، ولذا لم يكن لآرائهم في نظره أى اعتبار، فمادامت لم توجد هناك معارضة من جانب المصريين فإن فارمان لا يشعر بأى التزام نحو هذه المعارضة الأجنبية، ولن يتورع عن استخدام كافة الوسائل للتغلب عليها^(٩٥)، وفي حقيقة الأمر فإن الإدارة المصرية كان يسودها - في هذا الوقت - شعور طيب نحو الولايات المتحدة الأمريكية والشعب الأمريكي، إذ لم يكن للحكومة الأمريكية أية أغراض سياسية تسعى وراء تحقيقها في القطر المصري، ولذا لم يكن غريباً أن توافق الإدارة المصرية في النهاية على منح مدينة نيويورك مسلة الإسكندرية القائمة، ولعل السر في تخصيص هذه المسلة بالإهداء إنما يرجع إلى أن مسلات الأقصر والكرنك كانت ممنوحة بالفعل ومقسمة بين الإنجليز والفرنسيين منذ أيام محمد على - كما سبق القول - هذا في الوقت الذي كانت فيه مسلة هليوبوليس تتمتع بوضعية خاصة باعتبار أنها تدل على موقع تلك المدينة الشهيرة في الأيام الخالية بحيث لم يكن لينكر أحد في نقلها من مكانها، وبذا لم يعد متيقناً من المسلات الصالحة للاستغناء عنها سوى مسلة الإسكندرية القائمة، وقد كان لقرب هذه المسلة الأخيرة من الشاطئ وسهولة نقلها عن المسلات الأخرى أثره في أن رحب فارمان بقبول تلك الهدية غير المتوقعة^(٩٦).

بعث محمد شريف ناظر الخارجية ورئيس مجلس النظار المصري خطاباً بهذا المضمون إلى القنصل العام الأمريكي بالقاهرة ألبرت فارمان، وذلك بتاريخ ١٨ مايو ١٨٧٩ م (٢٦ جمادى الأولى ١٢٩٦ هـ) وقال شريف للقنصل الأمريكي في هذا الخطاب: " إنه نظراً لما اتخذتم من الوسائل، ومراعاة لما أثبتتم من الرغبة نيابة عن حكومة الأقاليم المتحدة الأمريكية، قد ارتضت الحضرة الخديوية أن تهب مدينة نيويورك الأثر المعروف بمسلة كليوباترا الموجودة على شاطئ البحر في الإسكندرية، وبناء على ذلك ستصدر الأوامر للحكومة المحلية لكي تسلمه إلى وكيل الدولة المشار

إليها، وتسبّل - فيما هو متعلق بها - ما يقتضى إجراؤه لرفع الأثر المذكور الذى يجرى نقله على نفقة مدينة نيويورك.... هذا وإننى بمسرة لا مزيد عليها أعلن لحضرتكم هذا القرار الذى تكون نتيجته تزيين تلك المدينة العظيمة بأحد الآثار المصرية المعلومة أهميته فى التواريخ القديمة، وإننى لمقتنع أن يكون تذكراً مديداً، وعربوناً جديداً، يؤكد المودة المستديمة الكائنة بين دولة أمريكا الفخيمة وبين حكومة الحضرة الخديوية السنية^(١٧).

وعلى أثر ذلك قام فارمان بإبلاغ المسئولين فى وزارة الخارجية الأمريكية بانتهاء المفاوضات مع الحكومة المصرية من أجل الحصول على مسلة لمدينة نيويورك بنجاح تام، فكتب إليه المستر أفارتس وزير الخارجية الأمريكى رسالة أوضح له فيها: " أنه لمبعت سرور عظيم لهذه الحكومة أن تحوز فى القريب العاجل مثل هذا الأثر التذكارى بفضل كرم الخديوى... وإننا نشعر بأن عملاً ودياً كهذا لا يسعه إلا أن يقوى من أواصر الصداقة التى تقوم بين البلدين، وأن يجعل ذكرى الخديوى دائمة يقدرها الشعب الأمريكى كل تقدير"^(١٨) ولعل من الغريب أن الصحافة المحلية المصرية لم تذكر شيئاً عن هذا الموضوع بحيث أن أول نبأ يذاع على الجمهور فى مصر بشأن المنحة المصرية للولايات المتحدة إنما ورد من نيويورك عن طريق الصحافة الإنجليزية، ويبدو أن نشر هذا الخبر قد أثار انزعاجاً كبيراً بين أوساط المثقفين المصريين وبين الأجانب المقيمين فى مصر، حتى لقد تم بحث المسألة أكثر من مرة فى مجلس النظائر المصرى، بل حاولت الحكومة المصرية إلقاء قرارها عندما تولى محمد توفيق منصب خديوى مصر فى يونيو عام ١٨٧٩م إلا أنها توقفت عن محاولتها عندما تحقق لها أن الهدية قد تأكدت بناءً على مذكرات رسمية^(١٩)، وقررت الحكومة أن الوقت قد فات بالنسبة لإتخاذ أية إجراءات فى هذا الموضوع. وفى محاولة من الإدارة المصرية الجديدة لتبرئة نفسها من تهمة التفريط فى الآثار المصرية القديمة - ولاسيما بعد أن زادت حدة الاعتراضات على هذا العمل - رأت الحكومة المصرية وجوب نشر جميع الحقائق المتعلقة بإيهاب مسلة الإسكندرية لمدينة نيويورك وذلك " من أجل إيقاف العامة على حقيقة الوقائع المتعلقة بهذا الإيهاب"^(٢٠).

عهد بالعمل على نقل المسلة إلى ملازم من بحرية الولايات المتحدة يدعى هنرى جورنج، وقد وصل جورنج هذا إلى مصر فى أكتوبر عام ١٨٧٩م لى ينفذ عملية نقل المسلة، وفوجئ جورنج عند وصوله بمشكلات وعقبات كثيرة كان عليه أن يجاوبها قبل أن يتمكن من نقل المسلة بنجاح، وتبدأ تلك المشكلات حين ادعى قنصل إيطاليا بالإسكندرية أن الأرض التى تقوم عليها المسلة ملك له، ومنع العمل على نقل المسلة، ودارت المفاوضات بين القنصلين الإيطالى والأمريكى، وانتهت المفاوضات إلى تسوية مرضية للطرفين، وبدأ العمل يجرى فى تنظيف ما حول قاعدة المسلة، وإذا بدائن للحكومة المصرية يلجأ إلى المحكمة الدولية لمنع نقل المسلة حتى يجاب مطلبه، فكان ذلك

سبباً في مزيد من التأخير، ثم كان أن رفع علم أمريكى على قمة المسلة، فكان في هذا الفعل دلالة على أن المسلة رسمياً ملك للولايات المتحدة، واستؤنف العمل من جديد^(١٠١).

كان لابد من تطهير ما حول المسلة لكشف أساساتها، وفي أثناء ذلك عثر على كثير من الآثار وضع بعضها في متحف المتروبوليتان بنيويورك، فلما أن خُصص الموقع أنزلت المسلة بنجاح على ملا من محافظ الإسكندرية وبضعة مئات من المصريين والأجانب^(١٠٢).

لم يكن من الممكن نقل المسلة بالطريقة التي نقلت بها مسلة لندن لتعذر ذلك في المحيط الأطلنطي، فاشترى جورج الباخرة "دسوق"^(١٠٣) التي بنيت في إنجلترا من أجل مصلحة بريد الحكومة المصرية، ثم أدخل عليها تعديلات لتقوية الباخرة بحيث تستطيع حمل المسلة وقاعدتها، ثم أُحْدِثَتْ ثقب في جسم الباخرة حيث جئ بالمسلة ثم دفعت إلى قلب السفينة على منصة من خشب بحيث تظل على توازنها أثناء الرحلة^(١٠٤)، ولم تبحر الباخرة من الإسكندرية إلا في يوم ١٢ يونيو عام ١٨٨٠ م حيث استغرقت عملية إنزال المسلة وشحنها حوالى ثمانية شهور بمساعدة مختلف الوسائل الحديثة التي أعدت سلفاً لهذا الغرض، وقد احتيج إلى ستة شهور أخرى بعد وصول المسلة إلى نيويورك لإنزالها إلى البر وإقامتها هناك^(١٠٥).

كان على القاعدة التي تزن خمسين طناً أن تنقل أولاً إلى الموقع الذي اختير لنصب المسلة في سنترال بارك أمام تمثال لينكولن تجاه متحف المتروبوليتان^(١٠٦)، وقد أثار نقل هذه القاعدة الضخمة مشكلة كبيرة، ففي الرابع من أغسطس عام ١٨٨٠ م دفع هذا الحجر الهائل عن الباخرة ثم وضع على الحوض، ثم حُرك عندئذ على عجل، ثم سُجِبَ خلال طرق المدينة تجره اثنان وثلاثون حصاناً مقرنين في ستة عشر زوجاً. وقد كتب جورج: "إن ذلك الحجر هو أكبر وأثقل ما حرك على عجل لدينا عنه سجل مكتوب، وهو باستثناء المسلة أكبر ما نقل خلال نيويورك"^(١٠٧).

وبعد ذلك جئ بالمسلة نفسها إلى الموقع في سنترال بارك حيث وصلت المسلة في الخامس من يناير عام ١٨٨١ م، وفي ما يزيد قليلاً على أسبوعين رفعت المسلة وسط تهليل أكثر من عشرة آلاف من المتفرجين، ولم يتبق سوى تقديم الأمة الأمريكية الرسمي للمسلة إلى مدينة نيويورك، وقد وقع ذلك في الثاني والعشرين من فبراير على ملا من عليه القوم وعشرين ألفاً من الجمهور، وألقى المستر أفارتس وزير الخارجية الأمريكى خطاباً مطولاً شكر فيها مصر على هديتها السخية، وحيا جورج على جليل عمله بإحضار المسلة آمنة إلى الولايات المتحدة، وتحدث أفارتس كذلك عن الإمبراطوريات الآشورية والرومانية والبيزنطية التي أخذت كذلك مسلات من مصر، وقد بلغت حضارتهم كحضارة مصر نهايتها، ثم تسامع عما عسى أن تصير إليه حضارات إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وقد حصلت كذلك على مسلات؟ "من ذا الذي يستطيع القول بما سوف تفعل أمتنا إذا كان ممكناً لأى تحول أن يتحقق، ومع ذلك فقد تمألنا هذه المسلة : أنتوقعون الإزدهار

أبداً ؟ أتوقعون تراكم الثروة ولا يفنى الإنسان... تلك أسئلة قد تجد الإجابة في عصر المسلة لا في عصرنا" (١٠٨).

آراء المؤرخين والكتاب في نقل المسلات من أماكنها الأصلية :

وهكذا يستبين لك أن أشهر ما أقامه فراعنة مصر العظام من المسلات قد نقل لترتين ميادين العواصم الأجنبية الكبرى مثل روما ولندن وباريس ونيويورك، على حين أن مصر موطن المسلات الأصلية لا تملك إلا خمسة أمثلة منها، من بينها واحدة حقيرة قطعت من الحجر الخشن وأقامها سیتی الثاني (١٠٩)، في حين أن أعظم هذه المسلات وأكثرها شهرة وجمالاً منصوبة الآن في ممالك أجنبية متحضرة، وقد لاحظ عالم المصريات الأمريكي جيمس هنرى برستيد أن فرعون مصر العظيم تحتمس الثالث قد " أقام مجموعة لا تقل عن سبع مسلات، منهن خمس في طيبة واثنان في هليوبوليس، وتقوم الأخيرون وجهاً لوجه على جانبي الأطلسي كما كانتا قائمتين جنباً لجنب عند باب معبد هليوبوليس، ومن الخمس اللاتي في طيبة بقيت واحدة في مصر، وقد فُتيت كلها إلا اثنتين هما اليوم في أوروبا : واحدة في بيازالاتران في روما والأخرى في القسطنطينية، وبذلك يتمثل أمامنا ذلك المنظر العجيب أن يكون أعظم الفراعين بغير مسلة وحيدة باقية في الأرض التي حكمها، على حين يمتلك العالم الحديث صفراً منها يتصل من القسطنطينية إلى نيويورك" (١١٠) وقد شارك برستيد في هذه الملاحظة المهندس الإنجليزي إنجلباخ في الذي تساءل بدوره " ماذا عساه يكون شعور تحتمس الثالث عندما أمر بقطع هذه المسلات للإله رع لو أدرك أن واحدة منها ستنتقل إلى أرض لم يكن يحلم بوجودها في العالم، وأن الثانية ستقع في يد قوم كانوا وقتئذٍ شعباً يهيم على وجهه في الأحراج ؟ ومع ذلك فإن هذه المسلات بعد أن تقلبت عليها غير الزمن ، وخيف عليها الغرق وأخطار القنابل لا تزال باقية منتصبة في مكانها بعد أن مضى على صنعها حقبة من الزمن تربي على ٣٤٠٠ عام" (١١١).

وفي فرنسا اعترض بيتروس بوريل Petrus Borel على نقل المسلات المصرية من موطنها الأصلي إلى الخارج، وقال ساخطاً : " ألا يمكنكم ترك كل منطقة وكل مناخ محتفظاً بمفاخرة وزخرفة ؟ ليس لأى شئ قيمة إلا حينما يكون في موضعه الخاص، ووسط أرضه ومسقط رأسه وتحت ظل سمائه، يوجد ارتباط متبادل وتآلف حميم بين الصروح والبلاد التي أقامتها ؛ يجب أن تتجاوز المسلات المصرية مع أعمدة المعبد وعبادة الشمس، ويجب أن تكون وسط الصحراء" (١١٢)

وأبندى دافيد روبرتس أسفه لغياب مسلة الأقصر التي انتزعت من مكانها أمام معبد الأقصر بعد ثلاثة وثلاثين قرناً، ونقلت إلى فرنسا لترين " بقعة دنستها ألف جريمة" (١١٣) وقال عالم المصريات لژی جرينر عن معبد الأقصر : " لسوف يظل للصرح بمدخله الرائع مظهر المحروم كفيل له من واحدة" (١١٤).

وقد نعى المؤرخ الإنجليزي ويجل على مواطنيه عدم اهتمامهم بالمسلة التى منحتها لهم الحكومة المصرية وقال : " إذا كان غرور جيل مضى من الإنجليز قد استحل لنفسه إقامة مسلة فى بلادهم قطعت من أفخر أحجار الجرانيت الأحمر لا يمكن أن تحفظ قيمتها وما تنطوى عليه من معاني إلا إذا كانت قد بقيت فى التربة التى نشأت فيها، كما أن جمالها كان فى حفظ لونها الرشيقي الأصلي، فإن أقل ما يمكن أن يقوم به أهالى لندن فى أيامنا هذه من الاحترام والتقدير لهذا الجندي القديم الذى لابد أنه يحتدم غيظاً وحنقاً [يعنى رمسيس الثالث] هو أن يحافظوا على نظافة أثره الذى أقامه لعيده الثلاثيني المقدس، فيميطوا عنه ما لحق به من أذى، وألا يسموه بالاسم المفعج الخاطى : مسلة كيلوباترا " (١١٥).

وقد لاحظ الأثرى المصرى سليم حسن - رحمه الله - أن المسلات المصرية التى نقلت إلى البلاد الأجنبية قد أخذت تفقد قدرأ كبيراً من رونقها وبهائها إلى درجة أن نقوشها قد بدأت تتلاشى ويذهب عنها بريقها (١١٦)، وكانت جريدة " المقتطف " قد عرضت لهذه المسألة فى عدددين لها خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، فقد نشرت المجلة فى عددها الصادر فى شهر ديسمبر عام ١٨٨٦م مقالاً بعنوان : " المسلات المصرية فى البلاد الأجنبية " قالت فيه إن المسلات قد صنعت لمصر، ثم " طمحت إليها أبصار الأجانب فنقلوها إلى بلادهم، ولكن أبت الطبيعة إلا حرمانها منها، ولو أطاعوها لردوا المسلات إلى بلادها حفظاً لها من الانحلال والاضمحلال، فالمسلة التى فى باريز والتى فى لندن قد شققتهما العوامل الجوية حتى صار يخشى عليهما من التحات والاضمحلال فى أقل من مائة سنة من الزمان " ثم لاحظت المجلة أن مسلة نيويورك قد أصابها التدهور أكثر مما أصاب غيرها من المسلات التى نقلت إلى البلاد الأجنبية بسبب تأثير البيئة فى وطنها الجديد، فقد " ضربتها نواجد الأيام حتى التزمو أن يطلوها بالطلاء، ليدفعوا عنها رطوبة الهواء، ويقوها من نائبات الحر والقر، ومن بعد ما تجشموا النفقات الطائلة على طليها بأنواع الطلاء أنكر مهندسهم نفع ما فعلوا، وقالوا إن المسلة لا تصان عندهم إلا إذا بنى عليها بناء لا تنفذه رطوبة الهواء، ولا تنطرق منه إليها غوائل الحر والبرد " (١١٧).

عادت المجلة مرة أخرى إلى فتح ملف المسلة المصرية المنقولة إلى نيويورك، والأضرار التى أصابها من جراء الظروف المناخية القاسية، وذلك فى عددها الصادر فى يناير من عام ١٩٠٠م بعد أن اعترفت المجالات العلمية الأمريكية المتخصصة أن المسلة المذكورة قد عادت إلى التفتت من جديد، وأن الطلاء الذى طليت به لم ينجح فى وقايتها من التلف، وأسفت " المقتطف " لأن هذه المسلة قد " نصبت معرضة للحر والبرد والرياح " ولم تنصب فى دار المتحف [المتروبوليتان] الداخلية " وأمايت المجلة بالمسئولين الأمريكين أن ينقلوها إلى مكان يمكن فيه الحفاظ عليها

وحمايتها من الأضرار ووقايتها من التلف " حتى لا يقال إنهم أخذوا كنزاً من كنوز مصر فأتلفوه" (١١٨).

أما المؤرخ الأمريكي جيمس بيكي فقد خطا خطوات أبعد مما طلبته " المقتطف " من المسؤولين الأمريكيين من نقل المسلة إلى مكان آمن، فقد راود بيكي الأمل في أنه : " من قبل المجاملة، أو بسبب عدم إمكان المحافظة على آثار الماضي في ظروف مغايرة تؤدي إلى زوال ما عليها من نقوش بسرعة، سوف يعجل في إعادة هذه المسلات إلى الأماكن الأصلية التي أقيمت فيها " واعترف بيكي بأنه يجب الإقرار بالندم " على ما أصاب مصر من ضرر بسبب نقلها " (١١٩).

وهكذا كانت مشكلة نقل المسلات من أعقد المشكلات التي واجهتها الآثار المصرية القديمة في القرن التاسع عشر، وليس أدل على ذلك من اتفاق عدد كبير من المؤرخين والكتاب - على اختلاف جنسياتهم وانتماءاتهم - على خطورة هذه المشكلة التي خلقتها إدارات مصرية غير واعية بقيمة هذه الآثار.

ب - مشكلة صناعة ملح البارود :

من المعلوم كيميائياً أن ملح البارود يتكون في الأرض من انحلال الأمونيا واتحاد نيتروجينها بأملاح البوتاسا والصودا لتكوين ملح البارود (١٢٠)، ويدخل ملح البارود - كما هو واضح من اسمه - في صناعة البارود والذخائر، ويوجد هذا النوع من الملح - والذي يعرف كذلك باسم (النتر) - بمقادير وافرة في الأطلال المتراكمة حول المدن، ويعتبر النتر أو ملح البارود من المواد الملحية التي تحتويها أراضي القطر المصري بكميات عظيمة حتى أصبح ذلك من الخواص البارزة التي تميز القطر على غيره من الأقطار (١٢١).

وقد كانت صناعة البارود قبل عصر محمد علي " صناعة قذرة ممهنة " كما يقول الجبرتي (١٢٢)، ولكن نظراً لما لهذه الصناعة من استراتيجية خطيرة من الناحية العسكرية فقد اهتم بها محمد علي اهتماماً كبيراً حتى غدت على عهده صناعة واسعة النطاق، إذ كان محمد علي في حاجة شديدة ودائمة لهذا النوع من الملح لتلبية احتياجات جيشه من الذخائر والبارود والتي كان الجيش المصري يستنفد كميات ضخمة منها خلال حروبه المتعددة التي خاضها في شتى بقاع الأرض أثناء حكم محمد علي.

ولما كان الاحتكار هو لغة العصر فقد أصبحت هذه الصناعة كذلك مقصورة على أحد الملتزمين، إذ يقول الجبرتي في ملخص حوادث سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) : " إن الذي التزم بعمل البارود قرر على نفسه مائة كيس، واحتكر جميع لوازمه مثل الفحم وحطب الترمس والذرة والكبريت، فقرر على كل صنف من ذلك قدراً من الأكياس، وأبطل الذين كانوا يعملون في السباخ بالكيمان ويستخرجون منه ملح البارود، ثم يؤخذ منهم إلى المعمل فيكروونه حتى يخرج ملحاً

أبيض يصلح للعمل^(١٢٣) ويقول كذلك في ملخص حوادث سنة ١٢٣١هـ (١٨١٦م): "ومنها... شغل البارود وصناعته بالمكان والصناع المعدة لذلك بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس بعد أن يستخرجوه من كهان الأسباخ في أحواض مبنية ومخففة^(١٢٤)، ثم يكرورنه بالطبخ حتى يكون ملحه في غاية البياض والحدة كالذي يجلب من بلاد الإنكليز، والمتقيد كبيراً على صناعته شخص أفرنكي، ولهم معالم تصرف في كل شهر"^(١٢٥).

وهذا الشخص الأفرنكي الذي يشير إليه الجبرتي هو السنيور رافي الكيمياء الإيطالي الذي أذاع طريقة مبتكرة لاستخراج ملح البارود تتمثل في إلقاء ما يجمع من أنقاض المباني القديمة في أحواض عريضة قليلة العمق، فيتحلل النتر بواسطة الغسل بالماء، فإذا تمت هذه العملية سبق الماء إلى أحواض آخر أقل عمقاً من السابقة، فيتبخر بتأثير حرارة الشمس في درجة ٤٠ إلى ٥٠ درجة مئوية، ويبقى النتر متبلوراً^(١٢٦). ولما كانت هذه الصناعة قائمة على أنقاض ومخلفات المباني القديمة فقد تركزت مصانعها ومعاملها قرب المناطق التي تكثر فيها أطلال المباني القديمة وأنقاضها مثل سفارة والبدرشين وإهناسيا والأشمونين وندندره وأرمنت وكوم أمبو وغيرها، حيث استعاض عن إقامة الأحواض بإطلاق المياه في الأنقاض ذاتها مباشرة، وذلك طلباً لمرعة نجاز الأعمال، إذ أنه بعد استخراج ملح البارود من الأنقاض لا تلبث تلك الأنقاض أن تتشبع من جديد بعد سنوات قليلة، وقد يتخلف عنها من ملح البارود ما يكاد يعادل المقدار الأول^(١٢٧).

وفي عام ١٨٢٣م (١٢٩٣هـ) وصل عدد معامل ملح البارود في مصر - والتي كانت تسمى كهرجلات أو كهرجالات - إلى ستة معامل كانت تنتج ما مجموعه خمسة عشر ألفاً وسبعمئة وأربعة وثمانون قنطاراً من ملح البارود، هذه المعامل هي: معامل القاهرة والبدرشين والأشمونين والفهيوم وإهناسيا والطرائنة^(١٢٨). وقد ظلت هذه المعامل على إنتاجها هذا فترة طويلة، إذ يذكر القنصل الروماني دوهاميل أنه في سنة ١٨٣٧م كانت معامل ملح البارود تنتج ستة عشر ألف قنطار^(١٢٩). ويذكر القنصل الإنجليزي جون بورنج أنه كان يستخرج من خرائب هرمبوليس كل عام نحو ألفين وسبعمئة قنطار من ملح البارود^(١٣٠). وكان علماء الحملة الفرنسية قد ذكروا أن العربان كانوا يترودون بالذخيرة التي يحتاجونها من قرى كانت تصنع فيها بشكل سرى، وأن قرية الأشمونين الكبيرة كانت تمدهم بالكثير منها، إذ يوجد هناك من البارود أكثر مما يوجد في أي مكان آخر بفضل اتساع أطلال هرمبوليس الكبرى التي بنيت فوقها المدينة الحديثة، إذ تهى هذه الخرائب تراباً يحتوي على الكثير من ملح البارود^(١٣١).

وفي عام ١٨٣٥م (١٢٥٠/١٢٥١هـ) رأى محمد على ضرورة التوسع في إنشاء معامل ملح البارود حيث نراه يصدر في ٤ ربيع الآخر ١٢٥١هـ (٣٠ يوليو ١٨٣٥م) أمراً إلى عموم المديرين يقول فيه: "إنه بالنسبة لما تعود عليه من التفكير في الطرق المؤدية لنفع الأهالي وتقدم القطر، ولكثرة وجود

السباخ في الأقاليم المصرية قد أحدث معامل البارود، ويتعشم أنه بتعددتها تحصل الفائدة للميرى والأهالى معاً، بناء عليه يشير بوصول حامله الأسطى الأوروبى ويلزم إرفاقه بأحد معاونين ومروره بالمديريات لمعاينة المحلات التى يمكن إخراج ملح البارود منها، ولكون أن إظهار تلك المحلات لا يمكن إلا بواسطة مشايخ البلاد فيلزم وعدهم وتفهمهم بأن من يتعهد بإظهار محلات السباخ ببلدته ستعطى له إدارة القرية شياخته بدون تعرض ناظر القسم له، ويتخلص من تسلطه عليه^(١٣١) بشرط ألا يكون عليه متأخرات^(١٣٢)، ولاح يفكره أنه بهذه الكيفية يمكن إظهار هذه المصلحة الخيرية من العدم إلى الوجود، مع عدم ذكر هذه المادة أمام الأوسطى، وأنه بمجرد العثور على محل السباخ بأى قرية كان، يعمل كشف له بما يلزم من الأدوات مبيناً به اسم شيخ القرية، وتفهم المشايخ أيضاً بأن الميرى يشتري منهم القنطار الواحد من ذلك بقيمة ٢٠٢٢ وأنه باجتهادهم فى عمل وتشغيل كثير من ذلك سينالوا الفائدة العظيمة كما ليس خاف، ويؤكد عليهم الاهتمام فى إيجاد هذه المصلحة الخيرية، وتشويق هؤلاء المشايخ لذلك كما يجب^(١٣٣).

ونتيجة لهذه السياسة الجديدة فقد زاد عدد الكوهرجلات أو معامل إنتاج ملح البارود فى القطر المصرى، إذ ظهر مثلاً من المعامل الجديدة مصنع المنشية الذى بلغ إنتاجه اليومى نحو قنطارين من ملح البارود ناتجة من إمرار الماء فى خرائب المدن القديمة - وهى مدن من عهد البطالة فى حالتنا هذه - فى سلسلة من الحُفَر قريبة الغور قليلة الانتظام^(١٣٤). وقد سار خلفاء محمد على على سيرته فى الاهتمام بإنشاء معامل ملح البارود بحيث إن الكوهرجلات المعدة لتشغيل البارود قد وصل عددها فى سنة ١٨٦٦ (١٢٨٢هـ) إلى إحدى عشرة كوهرجلة تقوم على أنقاض المباني القديمة، وقد أدى وجود هذا العدد الكبير من معامل ملح البارود إلى زيادة الناتج المحلى عن احتياجات الحكومة المصرية بحيث صار معتاداً " تصريف الزيادة بأثمان أقل من التكاليف " ومن ثم فقد أهملت الحكومة الاعتناء بأمر هذه المعامل حتى ساءت حالتها وأصابها أضرار كبيرة وتعطل بعضها عن العمل، ولذا رأت الحكومة فى العام المذكور - ١٨٦٦ م - " الاكتنى بإبقى ثلاث كوهرجلات، والثمانية الباقية يصير إبطالهم "^(١٣٥) والكوهرجلات الثلاث التى قررت الحكومة المصرية الإبقاء عليها كانت واحدة منها بالبدرشين واثنان بإهناسيا، وجدير بالذكر أن معمل بارود البدرشين قد ظل مستعملاً منذ عصر محمد على وحتى قبيل تولية الخديوى توفيق حيث كانت تجلب له الأسباخ من تلؤل ميت رهينة وتلؤل مصر العتيقة^(١٣٦).

ولكن يبدو أن الإدارة المصرية لم تلتزم طويلاً بقرارها القاضى بتخفيض عدد معامل ملح البارود التابعة لها، فقد ظهرت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر كوهرجلات أخرى جديدة مثل كوهرجلة أنصنا - الشيخ عباده - التى كانت تقوم على خرائب أنصنا القديمة والتى

يقول على مبارك إنها كانت مستعملة إلى عهده وأن موقعها كان بحرى الشيخ عباده^(١٣٨)، وهناك أيضاً كوهرجلة قرية بنويط التى كانت تتبع مديرية جرجا بقسم سوهاج^(١٣٩).

وجدير بالذكر أن الحكومة المصرية كان تقوم باستغلال مزدوج لأنقاض المباني القديمة في صناعة ملح البارود، إذ كانت تستخدم تلك الأنقاض في إنتاج الملح المذكور، بينما كانت تستعمل ما يخرج من تلك الأنقاض من طوب وحجارة في بناء مزيد من الكوهرجلات^(١٤٠).

ومما لاشك فيه أن مشكلة صناعة ملح البارود تعد من المشاكل الخطيرة التى واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر، إذ أن غمر أنقاض المباني القديمة بالمياه من شأنه أن يضر بما بقى من تلك الأنقاض، هذا فضلاً عن تسرب العديد من القطع الأثرية الصغيرة من أيدي العمال الذين كانوا يعثرون عليها أثناء قيامهم بجمع الأنقاض القديمة اللازمة لمعامل صناعة ملح البارود، فقد كان هؤلاء العمال يبيعون ما يعثرون عليه من هذه الآثار للسائحين وتجار الآثار من الأجانب والمصريين، وذلك في ظل غياب الرقابة الصارمة على العاملين في هذه الصناعة، وقد نتج عن ذلك تسرب الآلاف من القطع الأثرية القديمة إلى خارج القطر المصرى، وقد أكد القنصل الإنجليزي بورنج في تقريره الذى رفعته إلى حكومته أنه قد لفت نظر الحكومة المصرية إلى أن من المرغوب فيه أن تتخذ من الوسائل ما يحول دون هدم الآثار القديمة، وبكفل المحافظة على ما يعثر عليه منها في أثناء جمع الأنقاض لمصانع ملح البارود^(١٤١)، ومما لا شك فيه أن التشريعات واللوائح التى وضعتها الحكومة المصرية لتنظيم بها عملية أخذ السباخ من خرائب وأطلال المدن القديمة تنطبق كذلك على عملية جمع الأنقاض لمصانع ملح البارود، وقد أسهم فرض هذه اللوائح والتشريعات من جانب الإدارة المصرية في الحد من خطورة هذه المشكلة على نحو كبير.

ح- مشكلة التسميد أو أخذ السباخ :

يطلق الأهالي كلمة " السباخ " أو " السماد الكفرى " على بقايا جدران اللبن المتخلف مما كان منازل لقدماء المصريين، وهو يكوّن نواة الأكوام التى تجمعت على أطلال تلك المدن الدارسة، ويحوى هذا السباخ عناصر مخصبة^(١٤٢) وهو مؤلف من ردم الخرائب القديمة ممزوجاً بمواد أولية وبقايا مواد مختلفة، وهو يختلف كثيراً في تركيبه، فمنه ما ينفع كثيراً ومنه لا ينفع شيئاً^(١٤٣)، غير أن النافع منه فعال جداً أو حار جداً، لدرجة أنه إذا لم تفصل منه جميع الأرض بالمياه الكثيرة بعد شهر من جمع المحصول منها فإن الأرض لا تخرج شيئاً بعد ذلك مطلقاً، ويستخدم هذا السماد العضوى في إخصاب الذرة بنوعها لتقوية إنتاجها^(١٤٤)، وقد كان يسمح للفلاحين بالحفر عن هذا السماد واستعماله بدون قيد أو شرط، غير أنه لما كانت هذه الخرائب تحتوى على كثير من بقايا الآثار القديمة فقد أصبح استخراجها يستلزم ترخيصاً يشترط فيه أن يسلم السباخون ما يعثرون عليه من آثار أثناء حفرهم إلى مصلحة الآثار المصرية، على أن ضمان

تنفيذ هذا الشرط كان يعد أمراً مستحيلاً، وذلك على الرغم من تعدد الأوامر واللوائح والتشريعات التي فرضت لتنظيم عملية أخذ السباخ ووضع ضوابط مقننه لهذه العملية^(١٤٥)، ولعل هذا هو السر في ضياع الكثير من الآثار الهامة التي كانت تهرب سنوياً إلى الخارج دون تقييم أو تسجيل لها، ولو أنها استخرجت بطريقة علمية منظمة لأصبحت لها قيمتها العلمية الكبيرة^(١٤٦). هذا وقد حرص على مبارك أثناء حديته في خططه عن المدن والقرى المصرية التي كانت تقوم على خرائب وأطلال مدن أخرى أقدم منها عهداً أن يشير إلى المواضع التي اعتاد الأهالي على أن ينقلوا منها السباخ الذي يحتاجونه لزراعاتهم، فذكر من ذلك ما يربو على خمسة وعشرين موضعاً^(١٤٧)، ونص صراحة على أن بعض هذه التلوي والخرائب القديمة كانت تحتوى على آثار كثيرة كانت لا تزال تستخرج منها حتى عهده بواسطة الأهالي الباحثين عن السباخ، فهو يقول مثلاً أثناء حديته عن "دندره": "وأهل هذه البلدة يستعملون أتربة تلوه [تل دندره المعروف بقصر الصياد] في تسبيخ الزرع ككثير من القرى، وكثيراً ما يجدون أشياء قديمة فيبيعونها للسباخ من الأفرنج"^(١٤٨) ويقول عن قرية "مرصى": "في شرق هذه المدينة تل مرتفع يسمى تل اليهودية يذهب إليه السياحون وغيرهم فيجدون به من الآثار القديمة وصور الحيوان شيئاً كثيراً، وربما يجدون قطعاً من الذهب أو الفضة"^(١٤٩) وكان ليدان دى بلفون قد لاحظ أن السباخين قد أخذوا جزءاً كبيراً من هذا التل الكبير - تل اليهودية - لاستخدامه كسماد لجميع أراضي المنطقة، وأن هذا التل قد كان منذ أربعين سنة أكثر ارتفاعاً، وتوقع بلفون أن يختفى تل اليهودية في بضع سنين بسبب كثرة ما يؤخذ منه، حيث يرى دائماً جماهير غفيرة تحفر بقاياها ثم تغربل ما يستخرج منه ثم ينقلونه على ظهور الحمير والجمال إلى مسافات بعيدة، وهذا هو ما يحدث في كل البقاع التي فيها آثار مصرية قديمة^(١٥٠)، وإذا كان بلفون قد لاحظ أن تل اليهودية قد كان منذ أربعين سنة أكثر ارتفاعاً مما صار إليه حاله على أيامه، فإن جريدة "المقتطف" قد لاحظت بدورها سنة ١٨٨٧م (١٣٠٤هـ) - بناء على رسالة وصلتها من سيدة وصفتها بأنها من العالمات بالآثار المصرية، ونحن نظن أنها لن تكون سوى الإنجليزية إميلي إدواردز - لاحظت أن تل اليهودية قد كان منذ ثلاثين أو أربعين سنة أكثر ارتفاعاً مما هو الآن كثيراً، كما كان فيه خرائب كثيرة، ولكن الفلاحين قد احتفروه كله وأخذوا أتربته لتسبيخ أراضيهم، وهذا مما يدل على صحة نبوءة بلفون، واعتبرت المجلة أن هذه "بلية كبيرة على علماء الآثار، لأن في تلوي مصر كثيراً من المعارف لا تقدر قيمتها، ولكن الفلاحين ذرّوا بمنفعة تراثها لأراضيهم، فلا ينفكون عنها حتى يحتفروها كلها"^(١٥١).

هذا وقد كان على مبارك قد أشار إلى بعض حالات بعينها قد عثر فيها على آثار قديمة في بعض هذه الخرائب فهو يقول عن بلدة "صا الحجر": "فيها تل متسع هو أصل المدينة القديمة... وبه آثار من الأبنية القديمة تظهر بالحفر لنحو أخذ السباخ مبنية بالآجر واللبن... ويقال إنه وجد

بالحفر في تلولها في سنة ٨٦ من هذا القرن [يقصد سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م] لعاين من الذهب الأحمر ونقود كثيرة عليها اسم بعض ملوكها باللغة المصرية القديمة ^(١٥٦) ويقول عن مدينة " رشيد " : " وفي جنوب المدينة على الشاطئ الغربى تل مرتفع..... وقد حفر بعض الناس سابقاً في هذا الموضع فوجد عشرين عموداً من الرخام فترتب على ذلك سجنه ومضايقته وسلب أمواله ^(١٥٧) ويقول عن قرية " مرصفى " : " بها آثار تدل على أنها من المدن القديمة التى كانت عامرة قبل الإسلام، فمن ذلك أنه وجد بها وقت أخذ السباح بعد حفر نحو خمس قامات خندق يشقها من المشرق إلى المغرب..... ووجد بها مصانع ممتلئة فخاراً أو خزفاً، ولم يزل يظهر بها أمثال ذلك إلى الآن..... ولكثرة الحفر فيها بنى أهلها منازل خارجها، وتركوا منازلهم الأصلية يأخذون منها السباح ^(١٥٨).

وجدير بالذكر أن بعض هذه الخرائب والتلول القديمة قد كانت تنتشر على مساحات شاسعة من الأرض، كما كانت تصل إلى ارتفاعات كبيرة حتى لتبلغ مبلغاً عظيماً، فخرائب تل بسطة - على سبيل المثال - كانت تنتشر على مساحة أربعة آلاف فدان في بداية القرن التاسع عشر، ثم تسلب عليها الأهالي وأخذة السباح حتى لم يبق منها على نهاية القرن المذكور سوى ثمانمائة فدان كانت مساحتها تقل يوماً فيوماً ^(١٥٩)، ولعل هذا هو ما دفع الأثرى السويسرى إدوارد نافيل إلى توجيه نشاطه الأثرى في مدينة تل بسطة إلى تلك المنطقة فقام بحفائر منظمة هناك عام ١٨٨٧ م بعد أن لاحظ تزايد نشاط تجار الآثار في السنوات الأخيرة وكذلك كثرة تعدى الأهالي على خرائب المدينة القديمة بنقل الأتربة لاستعمالها كسماد للزراعة وصناعة الفخار، واستغلال الأراضى في البناء وغير ذلك، والاستفادة من كل قطعة حجر جبرى بحرقها وتحويلها إلى جير حتى أو لإعادة استعمالها في مبانيهم ^(١٦٠).

وهناك أيضاً تل صا الحجر وهى مدينة سايس القديمة المشهورة. وكان مسطح هذا التل يبلغ نحو أربعة آلاف وتسعمائة متر ^(١٦١)، وهناك تلول الفيوم القديمة، وكانت مساحتها تبلغ نحو ألف فدان، وأغلب مهمات المدينة الجديدة مستخرجة منها ^(١٦٢)، وهناك كذلك تلول قرية الكوم الأخضر التى كانت تتبع قسم الدلنجات بمديرية البحيرة، وكانت هذه التلول تمتد من الشرق إلى الغرب نحو ثلثمائة متر في عرض مائة وخمسين متراً وارتفاع اثنى عشر متراً ^(١٦٣).

مما لا شك فيه أن مشكلة البحث عن السماد كانت من أكبر المشكلات التى واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر، حقاً إن نشاط السباحين قد تمخض في بعض الأحيان عن كشوف أثرية قيمة إلا أنه في معظم الأحيان كان حجر عثرة في طريق البحث العلمى بسبب انعدام الوعى الأثرى لدى الباحثين عن السباح، وكذلك بسبب افتقارهم إلى الخبرة اللازمة للتعامل مع الآثار المكتشفة، ومن ثم فإن ما عثر عليه هؤلاء من الآثار القديمة لم يلق العناية الكافية،

فأصابه الكثير من التلف، كما تم تهريب أكثره إلى المتاحف الأوروبية. ففي عام ١٨٨٧م عثرت امرأة من قرية تل العمارنة في خرائب التل الأثرى المجاور لهذه القرية على حجرة صغيرة كانت فيها مضى تستعمل كمخزن^(١٦٠)، وقد اتضح فيما بعد أن هذا هو المكان الذى كانت تحفظ فيه سجلات الفرعون، أو ما كان يقوم مقام "الرشيف" أو "دار الوثائق" في عصرنا الحالى.

وكان أهل هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد اعتادوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا في تل العمارنة هذا ما يريدون من سجاد لحقولهم أو أدوات لمبانهم، ولقد شاء حظ تلك المرأة أن تعثر على عدد عظيم من الألواح المصنوعة من الجار المحروق مكتوبة بالخط المسمارى البابلى، فنقلت غنيمتها على ظهر حمارها، وباعها لجار لها بمبلغ بدا ثمناً رابحاً في نظرها وهو عشرة قروش، بل لعلها كانت تشعر في قرارة نفسها أنها قد غنبت المشتري في هذه الصفقة الخاسرة في رأيها، ولاغرو في ذلك فإن هذه الألواح لم يكن في شكلها أو هيئتها ما يغرى جامعى الآثار.

جمع هذا الجار بعضاً من أهل عشيرته وذهب إلى نفس المكان للبحث عما عساه يكون منسياً من هذه الألواح، وراحوا يهدمون جدار الحجرة السميكة وينقضونه حجراً حجراً، فوجدوا حجرتين عميقتين صفت فيهما قوالب من الطوب الملون منقوشة بنقوش تملأ جوانبها وتنظمها صفوفاً لا عوج فيها ولا انقطاع، بحيث أشبهت الألواح المكتوبة، فلم يبق لديهم شك في أنهم عثروا على لقية من اللقايا الأثرية التى يملئ بها جوف الأرض في مصر، فحملوا تلك القوالب وعادوا إلى قريتهم غانمين فرحين^(١٦١).

عرضت هذه الألواح على تجار الآثار فقاموا بدورهم بإرسالها إلى أحد المتخصصين في الآثار المصرية القديمة في باريس، ولم يمض زمن طويل حتى جاءهم الجواب بأنها من صنع يد حديثة !!! ؟ ثم أرسلوا بعضها إلى جريبو مدير مصلحة الآثار المصرية وقتئذ فلم يبد رأياً في المسألة، ولما شاع الخبر في نهاية الأمر بأن هذه الألواح قليلة الأهمية والقيمة حملت في غرائر إلى إخميم والأقصر حيث كان ينادى على بيعها بثمن بخس^(١٦٢).

اتضح فيما بعد أن هذه الألواح كانت المراسلات السياسية للشئون الخارجية المصرية على عهد الملك أمنحوتب الثالث ثم عهد الملك أمنحوتب الرابع، وتعد مدة حكمهما من أزهى عصور التاريخ المصرى القديم، وأسفر حل الرموز التى كانت مدونة على هذه الألواح عن أن المعلومات التى تمخضت عنها تلك الرسائل قد كانت قبساً من نور أضاء لنا فترة هامة لا في تاريخ مصر فحسب بل في كل تاريخ العالم المتحضر في ذلك الوقت، بحيث عدّ هذا الكشف الأثرى بحق أهم كشف حدث في وقته في مصر وفي كل بلدان الشرق القديم^(١٦٣).

غير أن مما يؤسف له جد الأسف أن معظم هذه الألواح قد تحطم أثناء نقله، وما بقى منها مما لم تنله يد التحطيم لا يعد إلا جزءاً ضئيلاً مما كانت تتألف منه هذه المجموعة في الأصل، ولو قد أتيت لها في هذه الفترة عالم يقدر قيمتها لكان لها شأن آخر، كما أن ما بقى سليماً من الألواح التي كانت محفوظة في هذا المخزن الثمين قد تفرق شملها بين المتاحف الأوروبية المختلفة^(١٦٤)، وفاز متحف برلين بالنصيب الأوفر من هذه الألواح فقد استحوذ على مائة وأربع وستين لوحاً منها^(١٦٥)، اشتراها المتحف المذكور من طبيب كان مشهوراً في الإسكندرية يسمى دانيئوس باشا، ومن جامع آثار قديمة يدعى جراف^(١٦٦)، أما المتحف البريطاني فقد أمثلت اثنين وثمانين لوحاً منها، بينما اشترى متحف اللوفر سبعة ألواح، ومتحف المتروبوليتان لوحين، ومتحف بروكسل لوحاً واحداً، هذا فضلاً عن بعض الألواح القليلة التي عرفت طريقها إلى المجموعات الخاصة التي كانت في حيازة بعض الأفراد من هواة جمع الآثار، وكذلك ما تسرب إلى الجمعيات العلمية مثل جمعية الحفر الإنجليزية التي قامت بشراء ثمانية ألواح منها، أما المتحف المصري فلم ينل منها إلا جزءاً صغيراً لا يتجاوز خمسين لوحاً، وهو نصيب ضئيل بالنسبة لما كان يجب أن يستولى عليه^(١٦٧).

هذا مثال لما كان يلحقه الحفارون والباحثون عن السمد من دمار بما كانوا يعثرون عليه أحياناً من آثار قديمة قيمة، وقديماً لاحظ على مبارك أن أهالي قرية "أتريب" كانوا "يحفرون في تلالها فإذا وجدوا رخامها أو أحجاراً أحرقوها وعملوها جيئراً فأتلفوا بذلك أشياء عتيقة كثيرة"^(١٦٨) كما ذكر أثناء حديثه عن قرية "بنجا" التي كانت تابعة لمديرية جرجا أن "في بحريها تل مرتفع... وقد كان ذلك التل مقبرة يظهر أنها من قبل الإسلام ذهبت أمواتها في أخذ السياح"^(١٦٩) وفتت السيدة إميلي إدواردز نظر علماء الآثار المصرية - أثناء حديثها عن قلعة كويان الواقعة في منطقة النوبة - إلى أن هذا الصرح قد أصبح "كالفرسة حيث ينقل على شكل قطع صغيرة بعيداً، ويتحول إلى بودرة [مسحوق] وينثر على صفحة الأرض كسماد، وقد استُزِف بالفعل حتى أساساته، ولم يبق إلا البئر التي في الوسط، وحائط الدائرة الضخم، وهذا الحائط يمضى الآن إلى حتفه، وسيلاقى تدريجياً نفس مصير بقية الصرح"^(١٧٠).

وهناك قصة محزنة حقاً هي قصة مدينة "الأشمونين" القديمة التي عاصرت الحضارة المصرية في كافة مراحلها، والتي كانت من أزهى وأغنى المدن المصرية القديمة، فأطال هذه المدينة وقعت فرسة في أيدي السياحين الذين استغلوا هذه المنطقة سنين طوالاً لتموين جميع مناطق مصر الوسطى بالسماد الكفري، وقد كانت كميات البردى الضخمة التي تظهر أثناء أخذ السياح تستعمل كوقود لأهل هذه المنطقة، وبذلك ضاعت على العلم ذخيرة لا حد لها من الوثائق التي لو بقيت لأمدتنا بمعلومات كثيرة، ولألفت ضوءاً على تاريخ الحضارة المصرية القديمة في عصرها المتأخر^(١٧١)، وبشبه الأشمونين في ذلك إقليم الفيوم الذي يتميز بغناه الشديد بأوراق البردى

القديمة، فهو يضم عدداً من أشهر المواقع المنتجة للبردى : إذ كانت خرائب " أرسينوى " القديمة هي المصدر الأول لإمداد الباحثين بالبردى في الثرمزة الحديثة، ولكن مما يؤسف له أن خرائب أرسينوى قد كانت من أهم المواقع التي يباشر فيها السباخون نشاطهم، ومن ثم فإن ما عثر عليه هؤلاء من هذه الأوراق قد تعرض للتلف، ووجد طريقه إلى الموائد والأفران، ومع ذلك فإن ما نجا من أوراق البردى من عبث حفارى المنطقة يتمتع بأهمية كبرى، وإن كان قد استقر به المطاف في المتاحف الأوروبية المختلفة، وذلك مثل مجموعة ريند الموجودة حالياً في متحف فينزا^(١٧٦). ومجموعة جرينفل وهنت اللذين عثرا في أطلال الهنسا على دروج من ورق البردى ملأت أربعة وعشرين صندوقاً، وهي تمتد في تاريخ كتابتها من العصر الروماني إلى الفتح الإسلامي، مكتوبة بلغات مختلفة، وقد احتفظت دار التحف المصرية بمائة وخمسين درجاً فقط من هذه الدروج لنفسها، وأعطت ما بقي للذين وجدوها^(١٧٧). وهكذا أساء السباخون كثيراً إلى مصدر " يعد من أهم المصادر في دراسة تاريخ مصر القديم وأعنى به أوراق البردى.

ومما هو جدير بالذكر أن السباخين كانوا لا يقتصرون على التسميد بخرائب المباني القديمة، بل كانوا يعتقدون كذلك أن بقايا عظام المومياوات القديمة المحنطة - آدمية كانت أم حيوانية - تصلح هي الأخرى لتسميد التربة الزراعية، ومن هنا فقد كانوا يحفرون القلول القديمة بحثاً عن تلك العظام، وفي ذلك تقول جريدة " المقتطف " : " وفي بعض جهات القطر المصرى كجهات الزقازيق مثلاً [وذلك في إشارة واضحة إلى خرائب تل بسطة] مواد مؤلفة من عظام منحلة تستعمل أحياناً للتسميد "^(١٧٨) وقد بلغ من حرص الأهالي على البحث عن تلك العظام مبالغاً جعلهم لا يراعون الطريقة المثلى في القيام بالحفر بما يضمن سلامتهم، وعلى حد تعبير الوثائق : لا يقومون " بإجراء الحفر بالميل الطبيعي "^(١٧٩) بل يحفرون بطريقة رأسية.

وهذا موجب لوقوع الخطر حتى أن بعض السباخين قد قضوا نحبهم دفناً تحت الانقراض وهم يحفرون لاستخراج العظام القديمة مما دفع ضبطية مصر إلى أن " تأمر بالتاكيد على من يلزم باجرائ الحفر بالميل الطبيعي وقاية من الخطر "^(١٨٠).

والغريب أن البحث عن بقايا المومياوات والعظام القديمة قد تحول إلى تجارة مربحة يشتغل بها عدد من الأوروبيين المقيمين بمصر إذ كانوا يجمعون هذه العظام ثم يسحقونها ويقومون بتصديرها إلى الخارج كسماد عضوى ولم يكن قبل عام ١٨٧١م (١٢٨٧/ ١٢٨٨ هـ) حين طرحت مسألة تصدير بقايا المومياوات المصرية القديمة على مائدة البحث أمام المجلس الخصوصى وأوصى المجلس بضرورة عدم اخراج تلك العظام إلى خارج القطر المصرى ومنع الأوروبيين من الاشتغال بهذه التجارة وإبلاغ هذا القرار إلى كافة قناصل الدول الأجنبية التي لها رعايا في مصر، وصدق الخديوى اسماعيل على هذه التوصيات وصدر عليها امر المعية السنية بتاريخ ٨ جماد

الثاني ١٢٨٨ هـ (٢٥ أغسطس ١٨٧١ م) " بشأن المحلات الجارى حفرها بمعرفة بعض الاوروبيين واستخراج العظام منها وإرسالها الى بحر برا على سبيل التجارة وما استُنسب بالمجلس الخصوصى في تحديد ميعاد لذلك غايته ١٩ شوال ١٢٨٨ هـ (٣١ ديسمبر ١٨٧١ م) بحيث بعد هذا الميعاد يصير منع سفرة وإرسال العظام المذكورة لبحر برا منعاً كلياً" (١٧٧).

وفي ٧ أكتوبر ١٨٧١ م اصدرت نظارة الخارجية المصرية تحريرات عمومية الى كافة قناصل الدول الاجنبية العاملين بمصر توضح لهم فيها " أن إخراج العظام الى الخارج لما كان مفضيا الى بعض تشكيات من جهة حفظ الصحة العمومية واللوازم الزراعية خُزِرَ الان من المجلس الخصوصى منع ذلك " وأوضحت الخارجية المصرية في تحريراتها لهؤلاء القناصل انه قد تقرر إعطاء مهلة للمشتغلين بتجارة بقايا المومياوات حتى الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٨٧١ م وأنه ابتداء من أول يناير ١٨٧٢ م سوف " يمنع اخراج تلك العظام منعاً كلياً " وحذرت الخارجية المصرية الرعايا الاجانب من الباحثين عن العظام القديمة من أنه لا يحق لهم التصرف بوجه من الوجوه في أصل الأراضى التى كانوا يقومون بالحفر فيها لاستخراج العظام المذكورة وأنه لا يجوز لهم أن يمتنعوا الأهالى إذا حضروا لاستخراج ما ينفع للزراعة منها كالسباخ وغيره، وأوضحت الخارجية أن الحكومة المصرية قد أجازت استخراج العظام من خرائب المدن القديمة بعدة شروط :

١. ضرورة استعمالها داخل حدود المملكة المصرية وعدم السماح بتصديرها إلى الخارج.
 ٢. ضرورة الحصول على تصريح بذلك من الحكومة المصرية.
 ٣. وجرت موافقة مأمورى المتحف المصرى وغيرهم من أصحاب الدراية على استخراج تلك العظام.
 ٤. أن يتم ذلك تحت رقابة مفتشى ومأمورى الصحة والأنثيقخانة طبقاً للوائح والإجراءات المتبعة في ذلك.
 ٥. عدم المساس بالمقابر الاثرية والأماكن المشتعلة على المباني والآثار القديمة.
- وطلبت الخارجية المصرية من القناصل ضرورة " بذل الهمة في إبلاغ الأمر إلى الرعايا الذين تحت إدارة حضراتكم" (١٧٨).

أدت هذه القرارات إلى الحد من عملية تصدير بقايا المومياوات المصرية إلى الخارج بصورة كبيرة وإن كان ذلك لم يمنع من ظهور محاولات لتهرب هذه السلعة الثمينة الى الخارج ففى ٥ صفر ١٢٩٨ هـ / ٧ يناير ١٨٨١ م قام جمرك بور سعيد " بضبط عشرة براميل كان مرغوبا بتصديرها للخارج واتضح أن داخلها تراب مومياء مستخرجة من قبور قدماء المصريين بدليل وجود بعض اعضاء الجسم الإنسانى فيها، ولمنوعية ذلك تحررت المضبطة اللازمة وحكم فيها

بمصادرتها لجانب الميرى وقد كان، وصار توريد هذا القدر بالأنثيقانة وقد دفعت هذه الحادثة نظارة الأشغال العمومية إلى القيام بتحرير إفادات إلى سائر الجهات التي بها الآثار التاريخية بشدة المحافظة عليها والمراقبة لمن يتجرأ على استخراجها^(١٧٩) كما ذكر أحمد نجيب أن عمدة قرية الهنسا قد أخبره أن إحدى الشركات قد نقلت من مقبرة هناك آلاف مؤلفة من بقايا المومياوات القديمة وملأت بها عدة سفن لتحويلها إلى سماد^(١٨٠).

الدهش في الأمر أن مجلة المقتطف كانت قد تناولت في أعدادها الصادرة عامى ١٨٩٦م، ١٨٩٧م مسألة استخدام العظام في تسميد التربة الزراعية وذلك في مقالات نشرت منجمة^(١٨١) وكتبها المستر ماكترى ناظر المدرسة الزراعية في ذلك الوقت وقد قلل الرجل في مقالاته من فائدة العظام القديمة كسماد للأراضى الزراعية وأوضح أن العظام العادية تفوق مثيلاتها القديمة في هذا المجال حيث إن في العظام العادية ٣٠% من المواد الأولية ومن ٣,٥ إلى ٤% من النيتروجين أما العظام القديمة التي تحضر من الأكام المصرية فليس فيها سوى ٢% من المواد الأولية وخمسة من عشرة آلاف من النيتروجين لأن البلى الذي حل بها أزال منها أكثر المواد النيتروجينية وأزال جانباً من المواد الفسفورية وما بقى منه لا ينحل بسهولة في التربة مالم يمزج بطين رطب أو يعالج بحامض الكبريتيك^(١٨٢).

مما لا شك فيه أنه كان ينبئ على الحكومة المصرية متمثلة في مصلحة الآثار أن تقوم بتنظيم عملية اخذ السباخ من التلول والروابي والخرائب القديمة، وأن تقوم بإخضاع هذه العملية لإشرافها الكامل ووضعها تحت مراقبتها الدقيقة، ولكن تقاعس مصلحة الآثار عن أداء هذا الواجب أو بالأحرى عجزها عن القيام به نتيجة لقصور الموارد وضعف الامكانيات قد نتج عنه فقدان مواد وأدوات كثيرة الآثار القديمة سنة بعد أخرى وإن كثيراً من الآثار التي عثر عليها الحفاريون أثناء أخذ السماد كانت لاتزيد عن اعتبارها أثاراً مفقودة لأنها كانت إما أن تتحطم أثناء اكتشافها نتيجة لانعدام الخبرة في التعامل معها فتصبح أنقاضاً ونفايات، وإما أن تستعمل في أغراض أخرى كما في أوراق البردى وأخشاب توابيت المومياوات التي كان يتم استعمالها كوقود، وإما أن تنتقل لأيدى التجار والمهربين ولصوص الآثار لكي تأخذ طريقها بعد ذلك إلى المتاحف الأوروبية أو المجموعات الخاصة لدى هواة جمع الآثار ومن هنا كانت مشكلة اخذ السباخ أو التسميد من أكبر المشكلات التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر.

د - مشكلة السلوكيات الغاطلة للزائرين :

تسببت بعض التصرفات والسلوكيات السيئة من جانب بعض الزائرين في إلحاق أضرار جسيمة بالآثار القديمة، ولعل من أبرز هذه العادات المرسولة عادة كتابة الأسماء والتعليقات على الآثار القديمة مما يؤدي في بعض الأحيان إلى طمس النقوش التي تكتنف تلك الآثار، ومن ثم

الإساءة إلى الشكل العام للأثر، وهذا ملوك قديم سار عليه الرحالة والسائحون الأجانب من قديم الزمان حيث كانوا يتركون توقيعاتهم وذكرياتهم على جدران الآثار القديمة الهامة التي قاموا بزيارتها، فهذا بول لوكا يعترف بأنه قام بحفر اسمه على أحد الأعمدة الرخامية التي كانت باقية من بعض القصور المهدامة واعتقد لوكا أنها كانت تمثل بقايا قصور التيه أو اللابرنس القديمة^(١٨٣).

وقد كان تمثال ممنون الشهير - منذ الأزمنة القديمة - هو أكثر الآثار جاذبية وإغراء لدى السائحين الأجانب الذين كانوا يطمعون في تخليد زياراتهم له لتدوين أسمائهم على جسد التمثال وقاعدته، فقد كانت أفواج السائحين تغد إليه بانتظام لتسمع أنينه الذي كان يصدره عند شروق كل شمس، وكان هؤلاء السائحون ينقشون على قاعدة التمثال آراءهم في هذا الصوت الصادر عنه، بالنثر تارة وبالشعر تارة أخرى، وكان أول من كتب اسمه رجل من عصر نيرون، ومن بعده أصبح من المؤلفين أن يترك الزائر على قاعدته تعليقاً أو مقطعاً شعرياً أو شيئاً قريباً من ذلك^(١٨٤). وهذا هو ما فعله الرحالة الانجليزى ريتشارد بوكوك حين نقش على قاعدة التمثال قصيدة باللغة اليونانية من ثمانية أسطر^(١٨٥). وفي القرن التاسع عشر لاحظ الرحالة الفرنسى جوستاف فلوير أن النقوش قد تكاثرت على جسد هذا التمثال العجوز بصورة تدعو إلى الدهشة^(١٨٦).

كما أغرت الكسوة الهرمية التي كانت سليمة في الأزمنة القديمة الكثير من السائحين بتسجيل أسمائهم عليها فأتلفوها، وأقدم هذه التوقيعات يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٧٥ م (٨٧٩ / ٨٨٠ هـ) بل ربما كانت هناك نقوش أقدم عهداً كانت موجودة على كسوة الأهرام^(١٨٧). كذلك كان عمود بومبي أو عامود السوارى مكاناً مقرباً للسائحين لتسجيل أسمائهم، وفي ذلك يقول الرحالة الفرنسى لامبير: "وأول شيء يلوح للمقرب من الأثر [عامود السوارى] هي تلك الأسماء المخطوطة بأحرف هائلة، قد كتبها سائحون جاءوا يرسمون بوقاحة ذكرى ظلمتهم على عامود القرون، ولا غفلة أكبر من تلك العادة التي جدها اليونان في عبثهم بالآثار إن لم يتلفوها أو يخربوها في أغلب الأحيان، فستلزم جملة ساعات صبرا لخط تلك الأحرف الكبيرة (أو الأوائل من الأسماء) على صوان تشينه، فكيف الجهد والنصب إلى ذلك الحد لإعلان الكون أن رجلاً مجهولاً تماماً قد زار أثراً، إن ذلك الرجل قد قصمه وشوهه وبتره !!!"^(١٨٨).

والعجيب أن هذه النقوش كانت تتخذ في بعض الأحيان صورة محاورة بين السائحين الذين تعاقبوا على زيارة الأثر الواحد بحيث لا يخلو ذلك من طرافة، وإن كانت طرافة مخربة في حقيقة الحال، فقد وُجد مثلاً على جدران معبد عَمَدَا بيلاد النوبة مخطوط يونانى بنطوى على رواية زائفة ومعلومة خاطئة سرعان ما صححها زائر آخر، حيث تقول الرواية إن هيرودوتس هاليكارناسوس ينظر إليه [أى إلى المعبد] بالاحترام والإعجاب " بينما يقول التصحيح: " لا، لم يرولم يعجب " والحقيقة أن هيرودوت لم يقترب من معبد عمدا على الإطلاق.^(١٨٩)

وقد انتشرت هذه الظاهرة بشكل كبير بين الرحالة والسائحين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر، حتى إن دافيد روبرتس عندما رأى التماثيل الأربعة الكبرى الضخمة التي تزين مدخل معبد "أبو سنبل" قد أبدى تخوفه: "لا من أن يحطمها صائدو الآثار فحسب، بل من أن تغطى أسماء مثل توبيكيتز وسميث وهوبكيتز وغيرهم ممن بلغت بهم الوقاحة أن يطمخوا بأسمائهم الغريبة حتى جبهة الآلهة" (١١٠). وقد رأينا الأمير بوكركي موسكو وقد حفر اسمه مقرونا بوسام الصليب على صدر أحد هذه التماثيل (١١١). واعترفت إميليا إدواردوز بأنها قد قامت هي ورفاقها بنقش أسمائهم داخل بوابة معبد "أبو سنبل" لكنها شعرت بالخزي لهذا الخطأ وأسفت لما سببته من ضرر، وإن كانت قد تعللت بأن هذا العمل إنما تم "في مساحة خالية من النقوش" (١١٢). أما الأمير الفرنسي نابليون فقد أثار ضيقه وحنقه ما علمه من أحد السياح قد أ تلف النقش الفرنسي الذي وضعه الجنرال ديزيه على بوابة معبد "إيزيس" بجزيرة فيلة ليمجد به انتصارات قوات الحملة هناك، فأمر الأمير الفرنسي بأن تحفر الكلمات مرة أخرى، بل أضاف إليها تعليقاً من عنده يقول فيه: "إن أحداً لا يلوث صفحة من صفحات التاريخ" (١١٣). أما أمر ذلك السائح الأمريكي الذي زار آثار الصعيد سنة ١٨٧٠م (١٢٨٦ / ١٢٨٧هـ) فغريب حقاً، كان هذا الرجل يجري متقللاً من معبد إلى آخر - كأنما يسارع إلى فعل الخيرات - حاملاً في يده فرشاة وفي الأخرى وعاء من القطران وأثبت اسمه في عديد من المعابد بطمس كثير من النقوش والنصوص القديمة بحيث لا يرجى لها إصلاح، ثم ذهب وترك الآثار ملوثة باسمه، وعندما قام أحمد نجيب برحلته إلى الصعيد عام ١٨٩٢م رأى اسم هذا السائح في جملة معابد مكتوباً بالخط الكبير وبأقلام على حالته، وأخبره خفراء مصلحة الآثار أنهم بذلوا الجهد في إزالته ولم ينجحوا في ذلك، لأن الجدران قد امتصت القطران وتفتحت واسودت حتى تلف كثير من الرسوم والنقوش، وقد أكد أحمد نجيب أنه رأى في معبد إيزيس وغيره من المعابد خطوطاً من كل نوع محفورة بين أسماء الملوك، تدل على جماعة من حرافيش الناس وهمجهم وبعض أهل الخلاعة وتاريخ مجيئهم، وإن هذه الخطوط قد أ تلفت بهجة الألوان وشوهت الرسوم (١١٤).

هذا وقد انتقد شامبليون من أسماهم بالفضوليين المعاصرين الذين كانوا يعتقدون - مثل أسلافهم من الفضوليين القدماء - أن أفضل طريقة لتخليد أسمائهم إلى الأبد تتمثل في كتابتها على النقوش واللوحات التي يشوهونها بهذه الطريقة (١١٥). أما ماريت فقد أهاب بالسائحين الأجانب "أن يمتنعوا عن الأسلوب الطفولي في كتابة أسمائهم على الآثار" (١١٦).

ومن الكتاب المصريين الذين عالجوا هذه المشكلة في القرن التاسع عشر محمد مجدى بك الذى كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف، وقام في شهر نوفمبر من عام ١٨٩٢م (ربيع الثاني ١٣١٠هـ) برحلة قصيرة إلى صعيد مصر استغرقت ثمانية عشر يوماً راعه خلالها ما كان

يلحقه المستهترون من السائحين الاجانب من إفساد وتخريب للآثار المصرية حتى إنه تمنى " أن يكون بتلك المحلات آلات تضرب أيدى من يتناول بالإفساد والتلف على صنع قوم قد بلغوا بالجد زروة المجد " ورجا محمد مجدى من " كل فاضل محب للعلم، وعادل منصف في الحكم، ألا يقرب للآثار بشيء ما، وألا يحدث بها مثل ما فعل كثير من أوروبيين وأمريكيين قد أخذتهم الغفلة مأخذاً عظيماً فتهافتوا على تخريب شيء عظيم من أهم الآثار نقشاً وكتابة بوضعهم أسماءهم عليها حتى سودوا بها صحيفتهم، إذ طمسوا بها نقوشاً بديعة، وأتلفوا كتابات مفيدة، وأزالوا بفعلتهم الشنعاء أثر تاريخ ربما لا يوجد له ذكر في موضع آخر "، ثم تساءل متعجباً : " أما يعاد برجال يدعون الفطنة، ويزعمون النهاية في الذكاء والعلم أنهم إذا دخلوا أثراً فاحراً عبثوا بكتابة أسماء لهم!!؟ وأى أسماء مهما كثرت متحركاتها وتعددت سواكنها، وطالت مقاطعها، لامحل لها بجانب طغراء ملوكانية، أو مع خاتم فرعونى يشير إلى شوكة سبى الاول، وعظمة رمسيس الثانى، ويشهد بمجد أمة من زمن أقله ستة آلاف سنة، أى يوم أن كان ابن اليوم، صاحب الاسم اللطيف بين الطين والماء " (١١٧)

واعترف محمد مجدى صراحة بأن الإساءة إلى الآثار القديمة بطمس نقوشها برسوم رديئة وساذجة هي ظاهرة عامة يشترك فيها المصريون والسائحون الأجانب كل على حد سواء، ولكنه راح يعقد مقارنة بين دوافع كل من الطرفين للقيام بمثل هذه الأعمال، حيث إن الأهالي من المصريين " لا يؤاخذون بمقدار ما يؤخذ به العالم الغربى الذى يصرف درهمه ووقته لزينة الآثار حصولاً للقائدة منها على شيء ينتفع به بنو الإنسان... أما الفلاح الجاهل الغشوم فإن تعلم شيئاً جارى الأجنبى فيه، وصار على تقليده في غالب أحواله، فتراه إذا زار أثراً وكان كاتباً أودع اسمه البالى كالأوروبى بالمكان، وإلا فهو غالباً إما مأجور من عالم أو غنى لاستخراج جزء من حائط أو عضو من صورة، أو مدفوعاً برغبة الكسب الناشئة من رواج سوق المنبوشات والأدوات العتيقة بالبلاد المتمدينة " ثم خلس محمد مجدى إلى القول بأنه " إن كان جهل الشرق بالأثر ليس بعذر يخليه من اللوم، فعلم الأوروبى والأمريكى لا يحط من عظم وفضاعة طمس النقوش وأخذ بعض الأجزاء القديمة بمعرفة بعض هواة تلك الأشياء " (١١٨).

وأكد محمد مجدى أن الذى دفعه إلى بسط القول وإطالة الحديث في هذا الموضوع هو مشاهدته من شدة التخريب وتعمد الإساءة إلى الآثار القديمة بالهدم والتكسير وطمس النقوش حتى إنه لم يستطع أن يحصى ما وجده مسجلاً من الأسماء على الآثار القديمة، لأن هذه الأسماء كثيرة ومتراخمة حتى في الأماكن المهمة، بل إنه لاحظ أن أسماء السائحين في بعض الاحيان قد تكاثفت بجانب بعضها وفوق بعضها بحيث أدت إلى زوال النقوش الأصلية ومحو الصور الجميلة، وطمس الغانات الملوكية، وحلت محلها ألقاب عامية وأسماء أخرى (١١٩).

والواقع أن استهتار السائحين قد كان يمثل شوكة في جنب المسؤولين عن مصلحة الآثار المصرية بحيث غدا ذلك مشكلة لا تقل في فداحتها وخطورتها عن المشكلات الأخرى التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر، ومن أبرز الأمثلة الصارخة على عبث بعض السياح ما يحكى من أن سائحا إنجليزيا زار مقبرة سيى الأول الرائعة التي اكتشفها بلزوني، وبعد أن شاهد ما بها من اللوحات والرسوم الرائعة بال على وجه أحد الصور المرسومة ثم خرج وترك الأثر منجساً^(٢٠٠)، وقد لاحظ مارت أن عدداً كبيراً من المقابر والتي كانت تمتاز بروعة نقوشها وجمال مناظرها قد تعرضت للتلف والتشويه من جانب بعض الزائرين من السائحين والأهالي، وضرب مارت مثلاً بمقبرة الملك (تي) في سقارة والتي لحقها التخریب على أيدي السياح في العشرة أعوام التي انقضت منذ اكتشافها أضعاف ما لحقها خلال الستة آلاف سنة الماضية^(٢٠١)، ومقبرة سيى الأول التي أشرنا إليها سابقاً قد تسلط عليها أهل القرية والزائرون من الإفرنج بالتلف والإفساد حتى أتلفوا محاسنها وألبسوها ثوب البلى وحفر الزائرون أسماءهم على نقوشها مما أدى إلى زوال تلك النقوش ومحو ألوانها بعد أن كانت تامة عند اكتشافها وذات ألوان زاهية^(٢٠٢)، كما أن معبد بيت الوالى بمنطقة النوبة قد تعرض لمعاملة سيئة من جانب الزوار الذين قاموا بتزعج أجزاء عديدة من نقوشه الجميلة^(٢٠٣)، وقد دفعت هذه التصرفات غير المسئولة مارت بك إلى أن يأمر بإغلاق معبد وادى السبوع عن طريق سد مدخله بالرمال عقب قيام مجموعة من السائحين الألمان بتزعج بعض اللوحات المنحوتة ذات الأهمية العظيمة من حجرات المعبد، وإزاء عملية النهب العجيبة هذه لم يجد مارت بداً من إغلاق مدخل المعبد بالرمال حتى يمنع وصول السائحين إلى حجراته الداخلية^(٢٠٤).

ومن العادات السيئة كذلك أن السائحين الأوروبيين عند مشاهدتهم للأهرام كانوا يتسلون أحياناً بخلع حجر يكسرونه من قمته ثم يتركونه يتدحرج إلى أسفله^(٢٠٥)، بل إن الكاتب الأمريكى مارك توين يذكر أن أحد مرافقيه حاول كسر شظية من وجه تمثال أبى الهول على سبيل التذكرة^(٢٠٦)، ومما لاشك فيه أن هذه الآثار الخالدة قد عانت طويلاً من إساءة السائحين الأجانب حتى إن الأمير رودلف النمساوى يعترف صراحة بأن السائح الأوروبى يسمى كثيراً إلى هذه الآثار الجليلة : إذ إنه لا يدرك كنه دلائعها^(٢٠٧).

على أن هذه السلوكيات الخاطئة والعادات المذمومة حيث يتأذى صدورها من علماء أو متقبين يفترض فهم أنهم على دراية كاملة ووعى تام بقيمة هذه الآثار فان وقعها على النفس يكون أشد إيلاها عن صدورها من غيرهم من السائحين العابرين، فقد درج علماء الآثار الذين زاروا مصر في القرن التاسع عشر على استخدام العديد من المقابر القديمة للإقامة وتخزين معداتهم فيها حتى إن شمبيليون قد أحال مقبرة رمسيس الرابع التي كان يسكن فيها خلال إقامته في وادى

الملوك بطيبة إلى حديقة للحيوان، إذ أسكن معه فيها غزالاً وقطاً من كردفان وبعض فهود صغيرة^(٢٠٨) كما اتخذ روبرت هاى من إحدى مقابر طيبة لنفسه ولزوجته ولأعضاء بعثته مستقراً، فوضع بها رفوفاً تصطف عليها الكتب والمعاجم، وزودها بالأرائك والترجيلات، وكان يستضيف بها زواره حتى قال أحد زائريه من الرحالة : " ما علمت فيما مضى أن مقابر الموتى تشهد مثل هذه الجلسات المرحية الصاخبة "^(٢٠٩) كما كان الكونت فرمنيل fresnel يسكن في مقبرة قديمة حيث كان يعيش وسط كتبه^(٢١٠)، على حين كان جوزيف بونومي يقطن في مقبرة أخرى مجاورة حيث عاش فيها لبضع سنين^(٢١١)، كما حول كافيجليا إحدى المقابر التى اكتشفها في منطقة سقارة إلى مسكن خاص به^(٢١٢)، كذلك أقام بيترى في مقبرة قريبة من الهرم الأكبر^(٢١٣)، ومما لاشك فيه أن الإقامة في المقابر واتخاذها مسكناً من شأنه أن يؤدي إلى إتلاف النقوش التى تزين تلك المقابر، والإسراع بزوال بهجتها ونضارتها ومحو ألوانها.

كذلك كان بعض المنقبين لا يراعون الأصول والقواعد العلمية المقررة لدى قيامهم بعمليات التنقيب عن الآثار القديمة المصرية، وكانوا كثيراً ما يتزلقون إلى سلوكيات خاطئة من شأنها أن تلحق أضراراً بالآثار المكتشفة، فيحدثنا بيترى عن أحد الباحثين الفرنسيين قام بكشوف في مقبرة أبيدوس الملكية ولم ينشر دراسة عنها، والأدهى من ذلك أنه استعمل ما وجده من الأعمال الخشبية الخاصة بالأسرة الأولى كوقود في مطبخه، أما ما اقنائه فقد تبعثر بين شركائه الذين تولوا الكشف حتى بيعت تلك الآثار في مزاد علني بهاريس^(٢١٤). أما روبرت هاى فقد عنَّ له أن يصنع قالباً جصياً لوجه أحد التماثيل العملاقة التى تزين مدخل معبد " أبو سمبل " وبعد أن قام بهذه العملية ترك التمثال ملطخاً بالجص دون أن يكلف نفسه إزاله ما كان ملتصقاً بجسم التمثال من بقايا الجص الذى استعان به في صنع القالب، وهى العملية التى حاولت القيام بها السيدة إميليا إدواردز ومرافقها بعد مرور أكثر من نصف قرن على عمل هاى ؛ إذ عمدت السيدة إدواردز والفريق المصاحب لها إلى طلاء وجه التمثال باللون البنى لإعادة لونه إلى جماله الأصلي، غير أن التمثال ارتد إلى لونه مرة أخرى ولم تؤثر فيه الألوان الجديدة^(٢١٥).

مثل هذه السلوكيات من جانب الزائرين من الرحالة والسائحين والمنقبين الأجانب ألحقت أضراراً كبيرة بالآثار المصرية القديمة، وشكلت عقبة أمام المسئولين عن حفظ وصيانة الآثار القديمة، ومما زاد من صعوبة هذه المشكلة أن رجال مصلحة الآثار كانوا يشعرون كما لو أن يدهم قد باتت مغلولة عن مواجهة المستهترين المتسببين في هذه الأفعال، وذلك بسبب الوضعية الخاصة التى كان يتمتع بها الأجانب الزائرون لمصر والمقيمون فيها ولاسيما خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، والى بلغ فيها النفوذ الأجنبى في مصر غايته وأقصى مداه.

هـ مشكلة الاستغلال :

سبق الإلماع إلى أن العادة قد جرت منذ أقدم العصور على أن يتم الاعتماد في إقامة المنشآت والمباني العامة على الحجارة المنتزعة من المعابد والآثار القديمة، إذ لم تكن توجد لوائح أو قوانين تجرم مثل هذا العمل، والتاريخ ملئ بالأمثلة التي تم فيها السطو على منشآت قديمة من أجل تشييد منشآت أخرى حديثة بدلا منها، ومن هنا لم تكن مشكلة استغلال الآثار القديمة في القرن التاسع عشر تمثل وضعا استثنائيا أو مخالفة لما كانت تقضى به الأعراف أو عادات وتقاليد العصور السابقة عليه، وهذا كله على الرغم من صدور العديد من القوانين والتشريعات في مختلف عقود هذا القرن ترمي إلى ضرورة المحافظة على المباني الأثرية القديمة وعدم المساس بها سواء من جانب الأهالي أو الجهات الحكومية كل على حد سواء.

وطبيعى أن تظهر هذه المشكلة بصورة أكثر حدة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حين دفعت الحاجة المسئولين المصريين إلى استخدام الأهرامات والمعابد والمقابر الفرعونية القديمة كمحاجر يستفاد منها في بناء المعسكرات الخاصة بالجيش، إضافة إلى المصانع والمعامل والجسور التي شهدت طفرة كبيرة في هذه الحقبة التاريخية، تلك الحقبة التي شهدت أيضاً تصاعداً خطيراً على صعيد التدمير الذي لحق بالآثار المصرية القديمة^(٢١٦).

يضاف إلى ذلك أن محمد على وإدارته قد اشتدت حاجتهما إلى أحجار لبناء معامل السكر من ناحية، ولتمويل معامل البارود من ناحية أخرى، وقد دفعه ذلك إلى أن يفرض على الفلاحين أن يقدموا له عن كل فدان مزروع قنطاراً من الأحجار، ولا بأس على فلاحي الصعيد من أن يقطعوا له هذه الأحجار من تلك الأعمدة الضخمة والتمائيل الكبيرة التي تملأ منطقهم : فتلك أحجار مشذبة أصليح للبناء وأقرب منالاً من غيرها، بل كان رجال الإدارة في الحالات العاجلة يسوقون الفلاحين إليها لتكسير ما تحتاج إليه معامل محمد على ومصانعه^(٢١٧).

وهكذا اشترك الجهاز الحكومي في ذلك العهد بماله من قوة وسلطان في تدمير الآثار المصرية القائمة دون حساب، ويؤكد فينت أن العديد من الأعمدة الأثرية والكتل الحجرية قد تم اختفاؤها من الإسكندرية لاستخدامها في بناء المعسكرات، وفي الأعمال البحرية التي أدارها دى سريرى De Cerisy^(٢١٨)، ويرتاع لذلك علماء الآثار في أوروبا، فيكتب ويلكنسون في لهفة إلى برنس دافين يسأله معلومات عن التهديم الذي حدث في الكرنك ويرجوه أن يبادر ليرسم إن لم يكن قد فات الألوان أساطير الفراعنة القدماء التي يقال إنها تكسو الأحجار المستخدمة في بناء هذه الأماكن، وكان برنس دافين قد شاهد ذات يوم موظفى الحكومة المصرية وهم يقطعون الأحجار الضخمة القائمة في جنوب معبد الكرنك والمعروفة بأعمدة "حور محب" وذلك لسد حاجة طرأت على معامل البارود بالكرنك، وكان برنس دافين أول من لاحظ النقوش الممتازة الفريدة المنحوتة عليها،

ووجه إليها بالفعل نظر الرسام نستورلوت، وهو يكتب إلى ويلكنسون عما حل بها فيقول: " كانت الأحجار المستخدمة في ذلك الجزء من العمود ضخمة الحجم، فلاختصار العمل عمدوا في تكسيدها إلى استعمال البارود، وحين وصلت إلى المكان كانوا يتأهبون لإشعال بعض الذبالات فاستمهلهم لحظات ريثما أرسم أبا الهول منحوتا على كتلة طولها متران تقريباً... ولم أكد أتم رسماً حتى تطاير الحجر شظايا، ولكن لحسن الحظ بقى رأس ذلك الفرعون - وإن كان قد تشقق - على قدر من السلامة أتاح لي أن أطبعه على عجينة من الورق استعنت بها بعد ذلك في تهذيب رسماً على مهل ^(٢١٩)، وأكد بريس دافين لو يلكنسون بأنه يعمل على " حماية الآثار المصرية من تلك الأعمال المدمرة " ^(٢٢٠)، ورغم ذلك فإن ما نجا من هذه الأعمدة من بطش عمال حكومة محمد على صارت تغطي عليه من أيدي الاهالي الذين كانوا يرون أن أخذ الأحجار منها أهون عليهم من قطعها من الجبل ^(٢٢١).

ومن الأمثلة الصارخة على استغلال الآثار القديمة في بناء المنشآت العامة الحديثة ما وقع لمعبد الملك أمنحوتب الثالث من الأسرة الثامنة عشرة والذي كان يقوم على جزيرة الفنتين بأسوان، وكان هذا المعبد من أتم المعابد وأجملها، وكان لا يزال محتفظاً بجزء من ألوانه في باكورة القرن التاسع عشر، وقد صورته علماء الحملة الفرنسية تصويراً مبدعاً وضمنوه لوحات كتبهم " وصف مصر " ^(٢٢٢)، وكان لا يزال محتفظاً بكيانه كاملاً على أيامهم ^(٢٢٣)، إلا إنه لم يسلم بعد ذلك بقليل من طغيان أصحاب السلطان، فهدموه عن آخره في نوفمبر عام ١٨٢٢م واستعمل مدير أسوان أحجاره لإقامة معسكر ليسكن فيه الجنود السودانيون الذين كون منهم محمد على جيشاً، ويقول لينان دى بلفون إن المسئولين عن تأليف هذا الجيش قد هدموا هذا المعبد لا جهلاً منهم بقيمته بل عن قصد ليمنعوا زيارة الأجانب لأسوان، وذلك حتى يحققوا لأعمالهم العسكرية هذه قدراً من التكم والسرية، ولولا أن هذا المعبد قد رسم في " وصف مصر " كما وجد في مخطوطات الرحالة الذين زاروه قبل هدمه مثل بانكس وغيره لما عرف أحد عنه شيئاً ^(٢٢٤).

وكان بلزوني قد شاهد هذا المعبد أثناء زيارته للمنطقة عام ١٨١٥م (١٢٣٠ هـ) ^(٢٢٥) وعندما زار شامبليون الجزيرة عام ١٨٢٨ هـ (١٢٤٣ / ١٢٤٤ هـ) حزن بشده على هذا المعبد " الذي دمرته مؤخرًا يد الجهل والهمجية التركية " ^(٢٢٦).

ويرى ماكسيم دوكان أن مدينة أنتينوبوليس القديمة قد كانت ماتزال قائمة حتى عشرين سنة قبل وصوله إلى مصر، إلى أن رأى إبراهيم باشا أن يقيم مصنعاً لتكرير السكر بجوار جزيرة الروضة، فهدم المباني الرومانية الجميلة، وشيد مصنع الدميم ^(٢٢٧).

وإذا كان بعض المثقفين من الموظفين المصريين لم يكن لياهم كثيراً بمسألة استغلال الآثار القديمة المصرية في تنفيذ المشروعات التي تمسند إليهم الحكومة مهام تنفيذها، بل كان يصرف

همته في سرعة إنجاز هذه المشروعات بقطع النظر عن أن يكون ذلك العمل بالسطو على بقايا منشآت السلف أم بخلاف في ذلك : فإن نفرأ آخر من هؤلاء الموظفين قد تورع عن ذلك تماماً، ولعل من الفريق الأول كان أحمد أفندى البارودى الذى كان باشمهندساً بالمديرية الشرقية وأسندت إليه الحكومة سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٥ / ١٨٢٦م) مهمة بناء قنطرة الزقازيق وبحيرة مويس ذات العيون التسع، فبناها " بالحجر والطوب الأحمر المجلوب جميعه من تل بسطه، وكان يستخرج بواسطة لغمجية لفكه من المباني القديمة " (٢٢٨) وربما كان من الفريق الثانى محو بك الذى استجاب لتوسلات بريس دافين من أجل ترك مدخل معبد الكرنك الذى كان الباشا قد أمر باستغلاله في تشييد معامل البارود بالمنطقة، وأمر محو بك - بناء على رجاء بريس دافين - بالبحث عن مواد تصلح للبناء في غير ذلك المكان وهكذا أنقذ الكرنك من تحطيم وشيك (٢٢٩).

ومما هو جدير بالذكر أن استغلال أنقاض الآثار القديمة في تشييد المنشآت الحديثة لم يكن مقصوراً على المنشآت العامة منها فقط، بل إنه كثيراً ما استعيرت بقايا هذه الأنقاض لتزيين منازل وقصور عليّة القوم من رجال الإدارة المصرية، فقد لاحظ مونتولييه أن منازل الأتراك تحتوى على العديد من الأعمدة الأثرية التى انتزع معظمها من الآثار القديمة خاصة من أطلال منف، وعبر مونتولييه عن أسفه لهذه الظاهرة بعد أن لاحظ أن محمد على وأولاده قد انتزعوا الأعمدة الأثرية لتزيين قصورهم (٢٣٠). كما أخرج رستم باشا الذى كان ناظراً للجفالك على عهد محمد على عدة أعمدة من الرخام الأبيض من أنقاض الفيوم وجعلها في منزله الذى بناه هناك سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م) (٢٣١) كما بنى محمد بك الدفتردار - زوج ابنة محمد على - منزلاً جميلاً في مدينة أسيوط على الطراز الأوروبي وتم إحضار أعمدته الداخلية من معبد دندرة (٢٣٢).

على أن القائمين على ملاحظة تنفيذ المنشآت الحكومية لما كانوا من الجهل بمكان باللغة الهيروغليفية القديمة فقد نتج عن استغلالهم لأنقاض المباني القديمة في تنفيذ تلك المنشآت بعضاً من المفارقات الطريفة، ومن ذلك ما أورده بريس دافين من أن عاملاً أوروبياً قد أخبره أنه أثناء تنقيهم في تلال مدينة (أتريب) القديمة بحثاً عن أحجار وجدوا أسداً من الجرانيت الوردى وعدة أعمدة من المرمر الأبيض وقد استخدمت هذه الأعمدة في بناء مصنع غزل القطن بمدينة بنها العسل، أما الأسد فقد أصبح يزين مدخل ذلك المصنع حاملاً خرطوشة رمسيس الأكبر الذى ورد بين ألقابه على هذا التمثال لقب " منظم مصر ومروض البلاد الأجنبية " (٢٣٣).

أما ما بقى من الأبنية الأثرية القديمة صالحاً للاستخدام على هيلته التى كان عليها فقد أعادت الحكومة المصرية استعماله في أغراض أخرى بدا لها أنها نافعة، فقد لاحظ شامبليون أن معبد إسنالكبير قد تحول إلى مخزن عام لتشوين محصول القطن فغطيت واجهته الخارجية كلها بملاط من طلى النيل كما شيدت جدران من الطين لئلا المسافة التى تفصل بين صف الأعمدة

الأول^(٢٣٤) وقد أبدى الرحالة الفرنسي كادلين أسفه لذلك لأنه لمس بنفسه أهمية المعبد وجمال نقوشه وروعها وأنها تشبه إلى حد كبير نقوش معبد دندرة^(٢٣٥) وفي عام ١٨٤٢ م (١٢٥٨هـ) تفتق ذهن محمد على عن استغلال آخر لمعبد إسنا فقام باستكمال الكشف عنه ليس تعبيراً عن الاهتمام بالآثار ولكن لاستخدامه كمستودع سفلى لتخزين إنتاجه من ملح البارود فقد كانت عادة الإدارة المصرية في ذلك الوقت أن تجعل هذه المخازن في الخفاء حتى لا تجذب مخازن ملح البارود إليها الأنظار^(٢٣٦) أما معبد مدينة أرمنت فقد استُغل لتقام فيه آلات أول مصنع لتكرير السكر. ومن البديهي أنه قد تمت إعادة تنظيم المعبد القديم بحيث يتلائم مع وظيفته الجديدة مما أدى إلى ضياع نقوشه المهمة وفقدان أثر جميل يرجع إلى العصر الروماني القديم^(٢٣٧). أما معبد مدينة طاقا ببلاد النوبة فقد رآته السيدة إميلي إدواردز وهو يستخدم كأسطبل للخيول^(٢٣٨). ولم يمنع ذلك التطور الكبير الذي طرأ على طبيعة الوعي الأثري بين أفراد المجتمع المصري خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يمنع ذلك المسؤولين في مديرية قنا من الإقدام على عمل غريب وعجيب حيث عرضوا معبد الأقصر للبيع في مزاد في تصرف لعله هو الأغرب من نوعه وبطبيعة الحال فإن ذلك قد تم من دون علم رجال مصلحة الآثار، فانهز أحد الأجانب هذه الفرصة وقام بشراء المعبد عازماً إلى تحويله إلى فندق وتراعى للمالك الجديد أن يهدم من معبده الذي اشتراه اثني عشر عموداً من أعمدته ليهني بأحجارها طابقيين آخرين جديدين وعندما شرع في العمل أخبر أحد السائحين ماريت بك بذلك فبادر إلى فسخ البيع على الفور^(٢٣٩).

أما المأساة الكبرى بالنسبة لمسألة استغلال الآثار القديمة المصرية في عمليات التشييد والبناء في القرن التاسع عشر فقد تمثلت في محاولة بعض حكامها في هذا القرن هدم الأهرامات الكبرى للاستفادة من أحجارها في بناء القناطر الخيرية، هذا وقد برزت فكرة هدم الأهرامات ثلاث مرات خلال القرن التاسع عشر كانت الأولى منها عام ١٨٣٦ م (١٢٥١، ١٢٥٢هـ) عندما قرر محمد على الكبير إنشاء القناطر الخيرية عند رأس الدلتا، وبدأ الاستعداد للمشروع، وأُخذ في إعداد المهمات والأنوات اللازمة لهذا الغرض وعلى الأخص توفير الأحجار اللازمة التي سوف يتطلبها عمل كبير وضخم مثل هذا العمل.

كان محمد على يولى قسماً كبيراً من اهتمامه لهذه القناطر، وكانت تعتبر شغله الشاغل إذ كان يتلف ويتوق إلى عملها حتى إنه قال لئينان دى بلفون إنه ينبغي هدم أهرامات الجيزة لأخذ أحجارها واستعمالها في إقامة هذه القناطر^(٢٤٠).

ولا يمكن الجزم بما إذا كان محمد على هو صاحب فكرة هدم الأهرام أم أن أحد بطانته قد أوحى إليه بها، غير أن ما يهمنا هنا أن لئينان قد أمعن النظر في هذا الطلب الباعث للأسف، وأدرك لئينان بثاقب نظره وبخبرته الطويلة بحالة البلاد والرجال القائمين على الأمور فيها أنه إذا أبدى

ملاحظة أو رفض ما رآه عملاً همجياً مخرباً للآثار كهذا، فقد يتقدم غيره في الحال لا يحجم عن إخراج هذه الفكرة الخاطئة إلى حيز التنفيذ، كما كان من الممكن أيضاً أن يقدم محمد على بدافع الرغبة في التعجيل بتنفيذ العمل . على ملء أحد الأهرامات بالبارود ونسفه، ومن هنا فقد أثر لينان ألا يبدى أى اعتراض، إنما طلب فقط السماح له بالتوجه إلى موقع العمل ومعاينته ووضع مشروع عن هدم الأهرام^(٢٤١).

تألفت لجنة من نظار الخارجية والأشغال العمومية والمعارف العمومية، وتوجهت مع لينان إلى الأهرام، ووضع لينان بذمة وإخلاص مشروعاً لهدم الأهرام وصلت تكاليفه إلى مبالغ ضخمة^(٢٤٢)، وكان واثقاً كل الثقة بأنه عندما يحين وقت المقارنة بين ما تتطلبه هذه العملية من نفقات، وبين ما سينفق على استغلال المحاجر لابد من الرجوع في النهاية إلى مزايا هذه الوسيلة الأخيرة فيؤثرونها على هدم الأهرام.

ويستفاد من المشروع المفصل الذى وضعه لينان دى بلفون أن متوسط قيمة استخراج المتر المكعب الواحد من الأحجار في حالة توفيره عن طريق هدم الأهرام يبلغ عشرة قروش وعشرين بارة، أما إذا استغلت المحاجر بطريقة حسنة منتظمة فإنه يستطيع الحصول منها على الأحجار اللازمة بالأسعار التى كان المقاولون في ذلك الوقت يتقاضونها عن توريد الحجر أى بثمانية قروش وخمسين وثلاثين بارة للمتر المكعب الواحد^(٢٤٣).

ولما عرض ملخص مشروع هدم الأهرام على محمد على الكبير لم يُذكر له شئ عن المحاجر واستغلالها، إلا أنه قد استعلم بطبيعة الحال عن قيمة ما تتكلفه أحجار المحاجر، ولما وقف على حقيقة الأمر قال من تلقاء نفسه : " إذا يستحسن أخذ الأحجار من المحاجر بدلاً من الأهرامات، لا سيما أننى لن أضطر إلى استحضار عد كبير من الرجال لتشغيلهم عند هذه الأهرامات، وهؤلاء يمكن تشغيلهم في مكان آخر "^(٢٤٤) وهكذا أسدل الستار على هذه المسألة.

ومما هو جدير بالذكر أن القنصل الفرنسى ميمو عندما اتصل بمسامعه - وكان إذ ذاك بالإسكندرية - أن محمد على قرر هدم أكبر الأهرامات ابتغاء الحصول على الأحجار اللازمة لإقامة القناطر، كتب في هذا الموضوع مقالا بديعاً نشر في الصحف في مارس عام ١٨٣٦م (ذى الحجة ١٢٥١هـ) ضد أعمال الهمجية وتخريب الآثار، وجاء هذا المقال في صورة خطاب^(٢٤٥) موجه إلى محمد على بدأه بالإشادة بقراره الحكيم بضرورة تشكيل لجنة لدراسة المسألة، وعدم تسرعه في اتخاذ قرار يقضى بهدم الأهرامات، وإن كان قد ندب بمن وصفهم " بالمنافقين " الذين أوحوا لمحمد على هذه الفكرة المؤسفة، وأوضح ميمو لمحمد على أن هذا العمل المخرب من شأنه أن يثير ضده حفيظة الرأي العام الأوروبي، هذا الرأي الذى يمثل قوة كبيرة في البلاد المتحضرة.

وأكد ميمو أن هذه الأهرامات إنما ينظر إليها في أوروبا على أنها أثر جليل من أعمال الجنس البشري القديم، وأنها تمثل واحدة من عجائب الدنيا السبع القديمة، وأن نابليون قد ردّد أمامها مقالته الشهيرة التي يبدي فيها إعجابه بالحضارة المصرية القديمة صاحبة الأربعين قرناً عمراً، وذكر ميمو محمد على بالمحاولات السابقة لهدم الأهرام والتي قام بها ملوك وأمراء سابقون دفعهم الجهل والغرور إلى التفكير في هذا العمل المخزى، فذكره بمحاولة الخليفة المأمون الفاشلة لفتح الهرم الأكبر لأنه كان يعتقد أن هذا الهرم يحوى بداخله كنوزاً، وكيف أن هذا الخليفة قد تعرض لاستهزاء معاصريه بسبب ذلك، كما ذكره بما أورده الرحالة عبد اللطيف البغدادى عن محاولة الملك العزيز عثمان بن يوسف هدم الأهرام، وكيف أنه جمع لذلك جيشاً عظيماً من العمال والحجارين والنقبائين والحدادين، وكيف أنهم أقاموا في هذا العمل نحواً من ثمانية أشهر بذلوا فيها مجهودات كبيرة ونفقات طائلة وكيف أن محاولاتهم هذه قد باءت بالفشل وأبانت في وضوح عن عجزهم وضعفهم^(٢٤٦).

وأوضح ميمو لمحمد على أن هذه الأهرامات تعتبر أمانة تركها العالم القديم على أرض مصر، وأنه يجب على حكام مصر أن يحافظوا عليها كما فعل أسلافهم من قبل منذ عهد الفراعنة وحتى عصر الخلفاء، وأنه لا يصح أن يكون محمد على أقل من الحكام السابقين عليه اهتماماً بأمر هذه الأهرامات، ثم ذكره بعوده السابقة لشامبليون بضرورة المحافظة على القليل الذى ما زال باقياً من الآثار المصرية القديمة وصيانتها من التخريب والتدمير، وأهاب به. أخيراً. أن يصرف النظر عن مسألة هدم الأهرامات محضراً إياه من أن هذا العمل من شأنه أن يجلب عليه نعمة الأوساط العلمية في أوروبا وستكون له عواقب وخيمة.

وفي عام ١٨٤٥ م (١٢٦١هـ) ظهرت محاولة أخرى لهدم الهرم الأكبر عندما فكر إبراهيم باشا ابن محمد على في ملء بئر الهرم بالبارود ونسفه بعد أن أقنعه أحد السحرة الأفريقيين بأن الهرم يحوى كنوزاً ضخمة، ولكن قنصل فينيسيا ثناه عن ذلك حين أقنعه بأن الانفجار قد يعرض القاهرة للخطر^(٢٤٧). ومن ثم فإننا نجد محمد عارف باشا يقول في ترجمته لإبراهيم إنه " هو الذى كف يده عن هدم الأهرام "^(٢٤٨).

وفي عهد عباس عادت فكرة استخدام أحجار الهرم الأكبر في بناء القناطر الخيرية الى الظهور مرة أخرى رغم ما أثاره هذا المطلب من ردود فعل عنيفة ورافضة قبل سنوات حتى إن الرحالة الفرنسى بارديو قد انتقد فكرة عباس ووصفه بالجهل لأنه لم يدرك قيمة الأهرامات^(٢٤٩) ويبدو أن الخوف من إثارة مشاعر الرأى العام الأوروبى فضلاً عن عدم جدوى الفكرة من الناحية الاقتصادية كان كذلك هو السبب في هذه المرة أيضاً في وأد هذه الفكرة في مهدها وعدم خروجها إلى حيز التنفيذ منذ ذلك الحين وحتى وقتنا هذا.

هذا عن دور الجهاز الحكومي في استغلال الآثار القديمة في إقامة منشآت حديثة عامة أو خاصة، أما الأهالي فقد درجوا بدورهم على أن ينقلوا من الآثار القديمة كل ما فيه منفعة لهم، إذ كانوا يتصورون أن هذه الآثار ليست ملكاً لأحد، بل هي ملك لمن يجدها، ولم يكن هذا مستهجناً على الإطلاق، وربما كان مرد ذلك لاعتبارات دينية في الأساس اعتبرت هذه الآثار أطلالاً وخرائب لأمم سالفة وأقوام سابقين عاثوا في الأرض فساداً، فكان جزاؤهم الهلاك والخراب، ومن ثم فهي آثار الكفرة والمفسدين^(٢٥٠)، فلا ضير إذن من الاستفادة منها حتى في إقامة المنشآت الدينية، بل وحتى في المناطق التي تتوفر فيها مواد البناء لدرجة أن وتشارد وايز قد اشتكى من أن الناس في مصر يهدمون الآثار للحصول على الأحجار حتى في المناطق التي توجد فيها وفرة في مواد البناء الميسورة، وأسف كثيراً لأن عدداً كبيراً من الآثار التي وصفها الرحالة السابقون قد دمرت^(٢٥١)، ولعل هذا هو مادفع على مبارك إلى أن يقول عن المصريين: "إن أخذ الحجارة من الآثار القديمة هو دأبهم في كل زمن، وهذا هو السبب في عدم العثور على ما يكمل به تاريخ الديار المصرية"^(٢٥٢)

كان الأهالي يقومون بالحفر في خرائب المدن القديمة، ويجمعون منها مواداً يستخدمونها في إقامة مساكنهم، كما كانوا يغيرون على أنقاض المباني الأثرية، ينزعون منها ما كان صالحاً للبناء من الأحجار المنحوتة، وكانوا يفضلون في ذلك أنواعاً بعينها من الأحجار مثل الحجر الجيري الذي كانوا يقومون بحرقه وتحويله إلى جير حتى لإعادة استعمالها في بناء مساكنهم، حتى إن طائفة من أبدع المعابد المصرية قد ظلت أحجارها تستغل في صناعة الجير لسنوات طويلة مما أدى إلى تدميرها تديماً تاماً، ولعل ذلك يفسر لنا السر في اختفاء آثار عصور بعينها مثل عصر الدولة الوسطى، فقد لاحظ الأهالي أن الحجر الجيري الأبيض الذي كان يستخرج من معاجر طرة - وهو الحجر الذي كان شائع الاستعمال في عهد الدولة الوسطى - يخرج نوعاً من أحسن أنواع الجير، ومن ثم فقد كان القوم يحصلون عليه لاستخدامه بمثابة جير ليحرق ويستعمل في مبانيهم^(٢٥٣)، وكانت من نتيجة ذلك كله أنه لم يبق من آثار هذه الدولة شيء يذكر ويؤكد روزير - من علماء الحملة الفرنسية - أنه من السهل تخمين الطريقة التي اختفت بها الآثار المشيدة من الحجر الجيري طالما نرى في كل مكان أفراناً جيرية على أطلالها: إذ أن هذه الآثار قد استعملت منذ عدد من السنين كما لو كانت محاجر^(٢٥٤)، وقد لاحظ علماء الحملة أن الأفران التي تستخدم في تكليس الحجر الجيري وعمل الجير تنتشر في طول البلاد وعرضها، كما لاحظوا حجم التخریب والدمار الذي أصاب الأماكن الأثرية التي ارتفعت فيها آثار من الحجر الجيري، وافترضوا جداً أن المصريين لو كانوا لم يستخدموا في بناء منشآتهم إلا هذا النوع من الحجارة فقط فربما يكون من العبث أن نذهب لنبحث اليوم على ضفاف النيل عن بعض آثار عاصمتهم القديمة^(٢٥٥).

وينطبق هذا الكلام بصفة أساسية على أطلال قصر اللابرنس ذى الشهرة التاريخية العريقة، فقد استخدم القرويون اطلال المبنى في صنع الجير لعدة قرون^(٢٥٦)، وبقيت أطلاله تستعمل بمثابة محجر حتى قضى على البقية الباقية في بناء خط حديد الفيوم خلال القرن التاسع عشر، وحينما كشف بيتري عن موقع هذا المبنى في عام ١٨٨٩ م (١٣٠٦/١٣٠٧ هـ) لم يكن قد بقى منه إلا أكواما من شظيات الاحجار^(٢٥٧).

هذا وقد لاقت الأهرام التى بنيت من هذا النوع من الحجر نفس مصير اللابرنس، فقد لاحظ علماء الآثار أن الجدران المغطاة بالنقوش البارزة في مجموعة ساحورع الهرمية -والتي تتكون من ثلاثة أهرام صغار مكسوة كلها بأحجار طرة الجيرية - تبلغ نحو عشرة آلاف متر مربع، ولما كان حجر طرة الجيرى يخرج أحسن أنواع الجير - كما سبق القول - فقد ترتب على ذلك أنه لم يبق من هذه المساحة حين كشف عن هذه المجموعة عام ١٩٠٢ م (١٣١٩/١٣٢٠ هـ) سوى حوالى مائة وخمسين متراً مربعاً فقط هى التى نجت من المخربين وكانت مهشمة إلى قطع صغيرة، وقد قدر علماء الآثار أن بعض هذه الأحجار كان من الضخامة بحيث بلغت أبعاده ٣٥ قدماً × ٩ أقدام × ١٢ قدماً طولاً وعرضاً وسمكاً على التوالى، ولكن على الرغم من حجمها الهائل وثقلها لم يبق منها سليماً دون تكسير سوى اثنين فقط^(٢٥٨).

كما نجد أن أهرامات أبو رواش قد استعملت منذ أيام محمد على محجراً، وبروى بيتري أنه قيل له عام ١٨٨١ م (١٢٩٨ هـ) إنه في وقت الفيضان كانت الأحجار تنقل منها بمعدل ٣٠٠ جمل يومياً^(٢٥٩).

ولما كانت حبشان معبد الدير البحرى مبنية كلها بالحجر الجيرى فإنه لم يثبق منها على نهاية القرن التاسع عشر الا بعض جدر، والسبب في ذلك ان الحجارة والججارة قد تعودوا من قديم الزمان على أخذ احجارهم من مباني العساسيف لقرىها منهم فإن لم يجدوا مطلوبهم تحولوا الى معبد الدير البحرى^(٢٦٠).

كذلك كان الأهالى يرغبون في الحصول على حجر الكوارتزيت الأحمر لأن هذا النوع من الأحجار هو أصلحها لعمل الطواحين والمعاصر^(٢٦١)، في حين كانوا لا يرغبون كثيراً في أحجار الجرانيت أو الحجر الرملى، هذا ليشاشته وذاك لصلابته، وقد لاحظ علماء الحملة الفرنسية أن المصريين المحدثين لم يقوموا باستغلال الحجر الرملى على أى شكل، كما لم يقوموا بتخريب المباني القديمة المقامة به^(٢٦٢).

وهكذا تعرضت المباني الأثرية وأطلال المدن القديمة لهجمات شرسة من الباحثين عن الأحجار الذين لم يتركوا حجراً صالحاً لأغراضهم إلا نقلوه، وقاموا باستغلال الآثار القديمة في استخدامات أخرى جديدة لم تكن قد وضعت لها، فيذكر ماسبيرو أنه رأى في بعض منازل

الفلاحين كثيراً من الأشياء القديمة العديمة المثال وقد استعملوها في غير ما وضعت له، ومن ذلك طاسات ظرفية صنعت من المرمر جعلوها أوعية وعلباً يضعون فيها التبغ، ومنها آنية من البرونز كأجمل ما يرى بالمتحف المصرى رآها ماسبيرو على النار وهى مملوءة بالطعام^(٣٦٣). كما رأى مالو في تل بسطة قطعاً عديدة من الأحجار الأثرية القديمة تم اتخاذها كأساسات للمنازل^(٣٦٤)، منها حجر أثري رآه ديبوا - إيميه، وهو يستخدم كمقعد بينما يمكن أن يدفع فيه تجار العاديات أغلى الأثمان، إذ يوجد على أحد جوانبه آثار نقشين واحد بالهيريوليفية والآخر باليونانية، وهذه النقوش إذا ما حكم عليها من ناحية الحجم تكون أكثر أهمية من حجر رشيد^(٣٦٥)، وشاهد شابرول ولا نكره باباً لإحدى الطواحين وقد ازدان في تناسق بثلاثة أحجار منحوتة^(٣٦٦)، بينما لاحظ أندريومى أن عتبة ثكنة دمياط - على سبيل المثال - إنما هى قطعة من مسلة رائعة الجمال تملؤها النقوش الهيريوليفية^(٣٦٧)، وشاهدت السيدة دف جوردن تماثلاً أثرياً على شكل أسد كان القرويون يستخدمونه موطناً لأقداهم كي يعتلو ظهور حميرهم^(٣٦٨)، بينما رأت إمبليا إدواردز في القرنه تابوتاً أثرياً جميلاً كان يستخدم كحوض مخصص لسقى الماشية^(٣٦٩).

هذا ولم يتورع المصريون على اختلاق دياناتهم في استغلال المباني الأثرية القديمة في إقامة المنشآت الدينية ودور العبادة، ولم يجدوا حرجاً في ذلك، وربما كان ذلك راجعاً إلى نظرة الأزدراء القى كان ينظر بها العامة من الشعب المصرى إلى من شيّدوا هذه الآثار على اعتبار أن هؤلاء الآخرين كفاً وملاعين، أو على حد تعبيرهم " مساحط " لا بأس من الاستفادة من منشآتهم وآثارهم بما يحقق المصلحة العامة، ولم يختلف المصريون - مسلمون ومسيحيون - على هذه الحقيقة، فقد لاحظ بريس دافين أن أكبر مساجد دمياط يقوم على نيف ومائة عمود مختلفة المواد بعضها من المرمر، وبعضها من الجرانيت، وهى آثار عتيقة منتزعة من معابد الدولة الرومانية القديمة^(٣٧٠). كما استعين ببعض الأعمدة من معبد الأقصر لبناء مسجد أبى الحجاج الأقصرى^(٣٧١). ولاحظ ديبوا - إيميه أن فى بعض مساجد منوف أعمدة من الجرانيت جلبت من مبانٍ قديمة^(٣٧٢). أما مدينة الإسكندرية فقد كانت مساجدها الرئيسية تمتلئ بكثير من الأعمدة المزدانة بالنقوش القديمة والمأخوذة من المباني الأثرية القديمة الخربة^(٣٧٣). كما لاحظ ريفو أن أعمدة مسجد السيد أحمد الهدوى بطنطا قد أخذت من بعض الآثار الإغريقية^(٣٧٤).

كذلك قام الأقباط باستغلال المباني الأثرية القديمة في بناء مساكنهم، وعندما زار شامبليون مصر أعرب عن أسفه لأن أقباط مدينة قفط قاموا بهدم المعابد القديمة لاستخدام أحجارها في بناء كنيسة كبيرة يرى في جدرانها العديد من الأحجار الفرعونية، ولذلك فإن قفط لا تحتوى الآن إلا على القدر اليسير من عمائر العصور الفرعونية القديمة^(٣٧٥) كما قدم الخديوى إسماعيل

أعمدة أثرية منتزعة من أطلال معبد الكرنك كهدية إلى كنيسة الأقصر حيث استخدمت في بناء هذه الكنيسة^(٢٧٦).

هذا ومن مظاهر استغلال المصريين للآثار القديمة اتخاذ المعابد والمقابر الفرعونية مسكناً ومأوى لهم، فقد عرف عن أهل القرنه أنهم كانوا يستخدمون مقابرهم القديمة كمحال للسكن^(٢٧٧)، كما يذكر جيمس بيكي أن الرسوم الملونة بمقبرة (رخميرع) وذير تحتمس الثالث قد اسودت كثيراً بفعل دخان النيران التي كان يشعلها الفلاحون الذين اتخذوا من المقبرة سكناً لهم^(٢٧٨). وشاهد جوستاف فلوير أسراً مصرية باكملها تسكن في المقابر ومعهم أطفالهم العراة ودواجنهم، وقد اتخذ البعض منهم من أخشاب التوايت المنقوشة أبواباً لمأواهم^(٢٧٩). أما معبد أرمنت فقد وجده حارس مصري مكاناً مناسباً لبناء بيت له وفناء لتربية الدواجن وبرج للحمام فقام بحجب المعبد وتقسيمه عن طريق تشييد جدران مشيدة بطى النيل^(٢٨٠) كذلك قام سكان الأقصر بتقسيم الفراغات الموجودة بين أعمدة معبد الأقصر لى يستخدموها كاسطبلات ومساكن ومدرسة عمومية ومسجد^(٢٨١)، أما معبد إدفو فقد رآه فلوير وقد تحول إلى مبلولة عامة لسكان القرية جميعاً^(٢٨٢).

وهكذا شهد القرن التاسع عشر استغلالاً من كل نوع للآثار القديمة المصرية، بحيث عُدَّت مشكلة استغلال الآثار في أعمال المنافع العامة والخاصة من أعقد المشكلات التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر.

و- مشكلة الإهمال والتخريب :

عانت الآثار القديمة المصرية خلال القرن التاسع عشر من التخريب المتعمد والإهمال الشديد، إما من جانب المخربين من الباحثين عن الكنوز، وإما من جانب الأهالي الذين كانوا ينظرون إلى تلك الآثار بنوع من اللامبالاة والازدراء، فهم لا يقدرونها إلا من أجل ما يعود عليهم منها من نفع، عندما يحصلون منها على مواد تصلح لاحتياجاتهم اليومية، وقد لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر الأوضاع المتردية التي كانت عليها المعالم الأثرية القديمة سواء مواقع المدن البائدة، أو المعابد الأثرية الشهيرة، أو المقابر الفرعونية، فقد عانت جبانة صا الحجر معاناة شديدة من جانب المتقبين الذين قاموا بتنقيب هذه المقابر تنقيباً دقيقاً فبعثت محتوياتها إلى درجة تحول دون الوقوف على شكلها العام^(٢٨٣).

كما لقيت مقابر سقارة المصير نفسه على أيدي الباحثين عن الكنوز، ومن المحقق أنه لم توجد فيها بقعة إلا وقد قلبتها أيدي الناس مراراً ، قديماً وحديثاً، حتى انتهى بها الحال في نهاية القرن التاسع عشر إلى أن صارت عبارة عن أنقاض ورمال بعضها فوق بعض، مهما سار فيها

الإنسان لا يظاً غير آبار مهدومة ومطمورة بالتراب، وأسوار من الحجر أختت عليها الأيام، ولا يقع بصره إلا على عظام نخرة وأكفان بالية^(٢٨١).

أما مقابر منف فقد تسبب جشع وشراسة تجار الآثار في القضاء تماماً على أهمية تلك المنطقة للدراسة. إذ دمرت أغلب المقابر المزدانة بالنقوش، وردمت بعد سرقة محتوياتها حتى أصبحت سهلاً شاسعاً تتخلله الأهرامات، وتحفه الكثبان الرملية الصغيرة المغطاة بأنقاض الفخار العتيق، ولغافات الموميאות وعظام الرفات والجماجم، وبقايا الأجيال السحيقة، وذلك من جراء عمليات التنقيب بحثاً عن الموميאות والآثار^(٢٨٥).

وفي تل العمارنة عانت بعض المقابر هناك كثيراً على أيدي المخربين الذين يبحثون عن الغريب، والذين يخربون بلا ترو. فقد قُطعت منها نقوش كثيرة كما هُشمت أجزاء أخرى كبيرة من المقابر، وذلك خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر^(٢٨٦).

وإذا ما انتقلنا إلى الجنوب قليلاً حيث مقابر أسبوط أو "كهوف ليكونوبوليس" كما كانت تسمى قديماً والتي كان العاملان الفرنسيان جولوا وديفيليه قد قدما عنها وصفاً شاملاً في "وصف مصر"^(٢٨٧) نجد أن هذه المقابر والكهوف المنحوتة في منحدر الجبل قد أصابها التلف وبلغ بها التخريب شأواً بعيداً منذ ذلك الحين، وكان كلوت بك قد قال عنها إنها كل ما يستحق المشاهدة في أسبوط من الآثار غير أنه لاحظ أن بعضها قد ناله التلف والاندثار^(٢٨٨). وعندما جاء شامبليون إلى مصر وجد العديد منها قد دمر بالفعل، فاكتفى بنسخ ما وجده من رسوم على الجدران ثم قال "يبدو أن كهوف ليكونوبوليس كانت عظيمة الروعة، وضخمة الأبعاد إلا أن كل ذلك قد أصبح في خبر كان، لدرجة لا تسمح لنا بالتعرف حالياً إلا على هياكل مقابر نهبت، ودمرت جميع نقوشها"^(٢٨٩) ولما زارتها إميلي إدواردز في نهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر رأت أشهر هذه المقابر - وقد تشوهت كثيراً كما تحول سقفها إلى اللون الأسود بسبب الدخان مع التشويه الشديد، أما النقوش الحائطية فقد كانت مهشمة، بينما اقتلعت الأعمدة الضخمة من أماكنها في حين سد المدخل بأكوام من الأنقاض^(٢٩٠). وقال محمد مجدى الذى زارها عام ١٨٩٢ م (١٣٠٩ / ١٣١٠ هـ): "إن أغلب تلك المقابر قد هُشمتها أيدي الحجارة والجياراة والجهلاء وغيرهم من السائحين والهابتعين الطماعين عبدة الدرهم والدينار" وإن كان قد أشار إلى أن الحكومة المصرية قد اهتمت أخيراً بأمر تلك المقابر واعتنت بشأنها، فعهدت إلى مصلحة الآثار بملاحظتها، وقامت المصلحة المذكورة بترتيب الخفراء لها، كما جعلت على أهمها أبواباً من حديد^(٢٩١).

أما عن المعابد فقد تعرضت طائفة من أروع وأشهر المعابد المصرية لألوان من التخريب والإهمال خلال القرن التاسع عشر، فمعبد دندرة على مبيل المثال رآه بلزوني في مطلع القرن وقد بنى السكان قرية كاملة فوق سطحه^(٢٩٢). أما مدخل معبد الأقصر فقد شوهه تراكم الغبار

والقذارة وضباب المسلة التي أخذت إلى باريس مما أضاع أثر المسلة الباقية كما يقول ريتشارد وايز^(٢١٣) ومعبد إسنا كان مدفوناً في القمامة عن آخره في ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر^(٢١٤). وفي مدينة الكاب قام الهمجيون بتدمير ثلاثة معابد دفعة واحدة وعندما زارها شامبليون لم يجد عموداً واحداً منتصباً في مكانه^(٢١٥). أما معبد أرمنت فقد لحقه في السنوات الأخيرة من القرن التاسع "عشر من الانهدام ما بلغ به غاية التمام"^(٢١٦)

ومما لا جدال فيه أن الإدارة المصرية في القرن التاسع عشر تحتل وزر بعض هذا التخريب والإهمال نتيجة لعدم اكتراثها أو نتيجة لسياستها الغاطئة في معالجة بعض الأمور ففي عام ١٨٩١ م (١٣٠٨ / ١٣٠٩ هـ) اكتشف بيتري في تل العمارنة ما وصف بأنه من الناحية الفنية أهم اكتشاف بعد تماثيل الدولة المصرية القديمة التي اكتشفها مارت، وهذا الاكتشاف هو رصيف القصر الملون الذي تبلغ مساحته ٢٥٠ قدماً مربعاً حليت حافته بياقات من الزهور وأطباق الطعام، وكان هناك ممر يعبر الرصيف رسمت على كل من جانبيه بحيرة تحوى أسماكاً ونباتات، وصنم بيتري وأقام ممشى يعلو الرصيف بمقدار تسع بوصات حتى يستطيع الزوار المرور عليه دون أن يتلفوا الرصيف، وغطى السطح كله بغطاء رقيق ليصبح غلاقاً واقياً، وأصبح الرصيف مزاراً سياحياً كبيراً ظلت بواخر شركة كوك تدرجه في جولاتها السياحية في النيل لعدة سنوات، ومن المؤسف أنه على الرغم من أن جمعية المحافظة على الآثار المصرية قد وفرت مظلة لحماية الرصيف فإن الإدارة المصرية لم توفر شيئاً للمرور من منطقة رسو السفن إلى مكان الرصيف، فكان السياح يطأون الحقول المزروعة وهم في طريقهم إلى الموقع، وذات ليلة حطم الفلاح مالك الحقول الرصيف الأثرى إذ كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ محصوله^(٢١٧).

كان يمكن - بقليل من الوعي والتبصر بالأمور - وضع حلول ملائمة وغير مكلفة لمثل هذه المشكلات البسيطة دون أن يكلف ذلك الإدارة المصرية شيئاً مذكوراً. والحق أنه يمكن التماس بعض العذر لمصلحة الآثار المصرية في ذلك، فإمكاناتها قاصرة، ومخصصاتها محدودة، وعدد موظفيها قليل، في حين أن المناطق الأثرية التي كانت تتولى مسئوليتها والإشراف عليها عديدة ومتسعة، فهي تشمل كافة أنحاء القطر المصري تقريباً، فضلاً عن أنها كانت لا تجد المعاونة والموازرة من جانب عامة المصريين، بل حتى المثقفين منهم، بل ربما كان أولئك وهؤلاء يناصبونها العداء نتيجة لضعف الوعي الأثرى في ذلك القرن، أو حتى على الأقل في الجزء الأعظم منه، ولا يجب أن ننسى أن مصلحة الآثار المصرية قد قامت بجهود مشكورة في سبيل صيانة بعض المعالم الأثرية ذات الأهمية التاريخية الكبرى مثل معبد إدفو الذي كان مدفوناً تحت التراب ومغطى بقرية كاملة من المنازل والمخازن واسطبلات الماشية، فأزالت مصلحة الآثار المصرية جميع ما عليه وما به وأجرت شروط المحافظة عليه كي لا يتلف كما تلف غيره^(٢١٨).

ز- مشكلة تجارة المومياوات :

ذكرنا أن تجارة المومياوات كانت رائجة في القرون السابقة للقرن التاسع عشر، وقد ظلت هذه التجارة على رواجها - كذلك - خلال هذا القرن فعلى الرغم من تقدم العلوم فقد استمرت المومياوات المصرية تستخدم في علاج الأمراض خلال القرن التاسع عشر أيضاً، وإن كان ذلك على نطاق محدود، وفي ذلك يقول الفيلسوف الإنجليزي توماس براون : " أصبحت المومياة سلعة تشفى الجروح، وصار الفرعون يباع للحصول على البهيم " (٢١٩).

ثم أخذت فكرة العلاج بمسحوق المومياوات تختفى تدريجياً ليحل محلها استعمال المومياوات كسماد لخصوبة الأرض، وقد ذكر ماك ما كون في كتابه " مصر كما هي " الصادر عام ١٨٧٧ م أنه منذ عدة سنوات كانت المومياوات أولى الصادرات المصرية، إذا كان يصدر منها سنوياً ما يقرب من عشرة آلاف طن تذهب أكثرها إلى بريطانيا. وفي الولايات المتحدة الأمريكية كانوا يستخدمون الأكفان الكتانية التي كانت تلف بها المومياوات في صنع الورق وفي عام ١٨٥٦ م نشرت الصحف الأمريكية إعلانات لمصانع إنتاج الورق تفاخر فيها بأن ورقها قد صنع من أكفان المومياوات المصرية. وهكذا كانت المومياوات تستعمل سماً والأكفان تصنع ورقاً (٣٠٠). وفي مصر كانت المومياوات القديمة تستخدم كوقود للقطارات، وفي ذلك يقول الكاتب الأمريكي المعروف بأسلوبه الهزلي مارك توين : " تستخدم القطارات المصرية مومياوات عمرها ثلاثة آلاف سنة كوقود يشتري بالطن، وربما بمحتويات المقابر كاملة، وربما يصبح قائد القطر : رفات السوق لا تحترق ولا تساوى مليماً ابغ لنا ملكاً " (٣٠١).

أما في قرية أبيدوس فقد كان الأهالي يعمدون إلى فتح الجثث المحتطة ثم يستخرجون أحشاءها وينقعون تلك الأحشاء في الماء طائنين أنهم يحصلون من وراء ذلك على ملح من أجود الأنواع، وقد يلجأون أحياناً إلى استخراج الملح من الرمال التي دفنت فيها الجثث المحتطة، ولكن استخراجها من الجثث نفسها كان أكثر شجوعاً (٣٠٢).

وبعد صدور القوانين التي تحد من تهريب المومياوات إلى الخارج، أصبح امتلاك مومياة مصرية أمراً بالغ الصعوبة، وبات سعر المومياوات مرتفعاً مع زيادة الطلب عليها، وتذكر السيدة إميلي إدواردز أن حياة مومياة في هذه الأيام (١٨٧٤م) ليست ممنوعة فقط ولكنها أيضاً رفاهية مكلفة، ومع ذلك تعترف الكاتبة بأنه قد سرت هناك شائعات حول وجود مومياة قديمة فوق سطح ذهبية أمريكية كانت ترسو بالقرب من معبد الكرنك، كما تشير إلى أنها قد قامت هي ورفاقها بزيارة إحدى الأماكن السرية التي كانت تباع فيها البضائع المهربة من الآثار المصرية القديمة في الأقصر، وأنهم وجدوا أنفسهم ذات مرة في حضرة إحدى المومياوات، كما تذكر السيدة إدواردز أن أحد الأعراب من لصوص المقابر من أهالي الأقصر قد عرض عليهم في إحدى المرات شراء بردية قديمة ومومياة

مصرية لقاء مبلغ مائة جنيه إسترلينى. وذكرت أن اثنين من رفاقها في الرحلة قد اشتريا البردية والمومياء معا، ولكنهما لم يستطيعا احتمال رائحة العطر المنبعث من المومياء القديمة فأغرقاها في نهر النيل. وأشارت الكاتبة إلى أنها قد سمعت أن خمس عشرة مومياء قد هربت خلال هذا الشتاء (شتاء ١٨٧٣ - ١٨٧٤ م) من جمارك الإسكندرية عن طريق وكيل واحد، واعترفت بأن السائحين الأجانب كانت لديهم رغبة متزايدة في حيازة المومياءات^(٣٠٦). وقد أوجد ذلك خطراً هو من أكبر الأخطار التي واجهت الآثار المصرية القديمة في القرن التاسع عشر، إذ لم تفلح التشريعات العديدة التي سنتها الحكومة المصرية في مواجهة هذه الظاهرة المشينة وهي ظاهرة تهريب المومياءات القديمة الى الخارج.

ثانياً :- المشكلات والأخطار الطبيعية

واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر عدداً من المشكلات والأخطار التي سببتها طبيعة المناخ والأرض في تلك البقعة من الكرة الأرضية، وقد تمثلت أهم تلك الأخطار في عاملين اثنين هما : تأثير الرمال، وتأثير المياه.

أ - تأثير الرمال :

إن مصر بلد ذو طبيعة صحراوية، تهب عليها رياح شديدة خلال فترات طويلة من العام، هذه الرياح تسفى كميات كبيرة من الرمال تؤدي إلى طمر الآثار القديمة ودفنها تحت سطح الأرض، ويساعد على ذلك أن هذه الآثار يقع معظمها في مناطق صحراوية تنتشر فيها الرمال الناعمة بكثرة مما يضاعف من تأثير سافيات الرمال، وقد رصد هذه الظاهرة واهتم بها عدد كبير من الكتاب والرحالة الذين زاروا مصر أو كتبوا عنها خلال القرن التاسع عشر فقد ورد في تقرير البارون دى بوالكميت الفرنسى أن أرض مدينة منف القديمة بما فيها من بقايا الآثار والتماثيل قد كستها طبقة من الرمال تضاهى في سمكها طبقة الرماد التي في مدينة بومبي في إيطاليا^(٣٠٧). ورغم أن الكشف عن السيروابيوم قد استغرق من مارت مايقرب من أربع سنوات إلا أنه أضى مطموراً بكامله في الرمال كما لو كان لم ينكشف من قبل وذلك عندما زارته السيدة إميلي إدواردز في عام ١٨٧٣م حتى إنه ليصعب على الإنسان الاعتقاد بأن المكان كله قد كشف عنه تماماً بتكلفة ضخمة في الوقت والعمل منذ عشرين سنة مضت^(٣٠٨). وفي الوقت نفسه كان معبد " عمدا " نصف مدفون في الرمال حتى إن الزائر له كان يجد نفسه مضطراً للزحف على يديه وركبتيه داخل المعبد، وتوقعت إميلي إدواردز أنه إذا لم يتم عمل شيء لإنقاذ المبني خلال جيل أو جيلين قادمين، فإن الرمال ستبتلعه جميعه ويضيع مكانه^(٣٠٩) وهو نفس الوضع الذي كان عليه معبد كورسكو الذي هجم عليه الرمل فغطى نحو نصفه^(٣١٠). كذلك كان معبد " وادى السبع " غارقاً في الرمال، وجميع قاعاته الداخلية غاصّة بالرمال، ومن الصعب عبورها^(٣١١).

وتظهر مشكلة الرمال بصورة أكثر وضوحاً في حالة معبدى " أبو سمبل " الكبير والصغير، فقد نحت هذان المعبدان في جبلين متجاورين يفصل بينهما جرف رملى، هذا الجرف كان يشن على المعبد حرباً خفية بلا هوادة هابطاً ومكتسحاً ومتراكماً، ويعمل في هدوء وبلا كلل على ملء القاعات ودفن التماثيل الضخمة، وإحاطة المعبد كله بالرمال حتى تخفيه عن الأنظار تماماً، وكان قد اقترب من هذه الحالة حين زاره بوركهارت عام ١٨١٣ م (١٢٢٨هـ)^(٣٠٩).

وحينما رأهما بلزوني لأول مرة عند زيارته الأولى لهذه المنطقة كان المعبد الكبير مطموراً في الرمال إلى حد أنه لم يكن يظهر منه سوى رأس أحد التماثيل الضخمة، بينما كانت الرمال تغطى البوابة والواجهة التى فوقها، غير أن بلزوني قد نجح في رحلته الثانية التى قام بها في عام ١٨١٧ م، (١٢٢٢هـ) في تطهير واجهة المعبد بحيث سهل دخوله إلى الغرف الداخلية، وبذا كان أول الأوروبيين الذين دخلوا إلى المعبد في القرن التاسع عشر^(٣١٠) وعندما زاره شامبليون في ديسمبر عام ١٨٢٨ م كانت الرمال قد سدت مدخله تماماً، مما اضطره إلى أن يدلف للداخل وهو يزحف على بطنه من خلال الفتحة الصغيرة التى حفرها في الرمال^(٣١١).

ومنذ أيام بلزوني جرى تطهير المعبد الكبير عدة مرات بصورة حاسمة، مرة أولى على يد لبسيوس أثناء بعثته الكبيرة التى قام بها في السنوات ١٨٤٢، ١٨٤٥ ثم مرة ثانية على يد ماريت في عام ١٨٦٩ م عند افتتاح قناة السويس عندما أبحرت الإمبراطورة الفرنسية أوجيني في نهر النيل حتى الشلال الثانى، حيث أخلت الواجهة كلها من الرمال حتى أصبحت مكشوفة تماماً، كما جرى كنس وتنظيف قاعات المعبد الداخلية، ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٨٧٣ م عادت الرمال مرة أخرى لغزو المعبد والهجوم عليه، فقد كان الرمل المتراكم قد وصل إلى قمة التمثال الذى في أقصى الشمال وإلى منتصف ساق التمثال الثانى، وعادت السجادة الرملية تفتش قاعات المعبد الداخلية، وسرعان ما سدت الرمال مدخل المعبد مرة أخرى، ورأت إميليا إدواردز أنه من المستحيل تفادى الرمال وأنه لا بد من إزاحتها كلما زاد تراكمها^(٣١٢).

وفى عام ١٩١٠ م ١٣٢٨هـ جرى تطهير المعبد وتنظيفه لمرة ثالثة وأخيرة على يد الإيطالى أليساندرو بارسانتى Alessandro Barsanti أحد رجال مصلحة الآثار المصرية، وكانت عملية التطهير هذه المرة هى أكمل العمليات الثلاث، فقد قام بارسانتى بحماية المعبد مما كان يهدده من ميل الرمال المستمر الذى لا يهدأ وذلك بأن قام ببناء أسوار عالية فوق الهضبة المرتفعة التى يبدأ منها تدفق الرمال بغية حجز التيار الرملى وتحويل مجراه^(٣١٣).

ب- تأثير المياه.

كذلك تضررت الآثار المصرية القديمة من طغيان ماء البحر أو النهر أو المياه الجوفية عليها مما الحق بتلك الآثار أضراراً بالغة مع توالى الأيام والأعوام. أما بالنسبة لماء البحر - ونعني به هنا

البحر المتوسط - فقد لوحظ أن عدة مدن قديمة على السواحل كانت مغمورة بمياه البحر، ففي غرب الإسكندرية كان يرى على الساحل خرائب كثيرة تغطيها مياه البحر، كما يرى في الإسكندرية ذاتها في مينائها الجديد خرائب لأثار تحت سطح الماء ببضعة أمتار على الساحل كله لغاية " أبو قير" كما ترى أيضا مباني كثيرة وأعمدة تحت الماء^(٣١٤) وفي الإسكندرية أيضا لاحظ شامبليون أن خرائبها تغرقها المياه الكريهة المنسربة من خزان قريب طوال ثمانية أشهر في السنة^(٣١٥)، كذلك تعدى أثر البحر إلى مسلتى الإسكندرية اللتين كانتا موجودتين بالقرب منه، فقد شعر الرحالة الفرنسي شولشييه بالأسف لأن هواء البحر يضر بهما يوميا ليفسد كل يوم جزء من الجرائيت الذي يزينهما^(٣١٦).

أما بالنسبة للمياه الجوفية فقد تعرضت المباني الأثرية القديمة على طول مصر وعرضها للضرر من تأثير ارتفاع مستوى الماء الجوفى في المناطق المحيطة بها، وارتفاع تركيز الأملاح على سطح التربة حولها، حيث يؤدي التلامس المباشر للمياه والأملاح مع قواعد هذه الآثار لفترات طويلة إلى إحداث أضرار بنائية للقواعد والأعمدة والجدران وإلى تدهور ظاهر في الملامح الفنية لتلك الآثار، وفي المواقع التي تكون الآثار فيها على مقربة من مستوى الماء الجوفى المرتفع تكون قواعدها محاطة بالمياه، كما تكون أجزاؤها السفلى مبللة بالرطوبة التي ترتفع بالخاصية الشعرية، ويتبخر هذه المياه يتراكم الملح في صورة بقع بيضاء أو داكنة يعرفها الجميع في المواقع الأثرية المعرضة للتأثير الضار، ويعزى ذلك التأثير لارتفاع مستوى الماء الجوفى^(٣١٧).

وقد بدأ ذلك منذ بداية القرن التاسع عشر حيث كان رى الحياض هو الأسلوب المساند للرى في مصر حتى عام ١٨٢٠م، وعندما أدخل محمد على زراعة القطن وقصب السكر في مصر ثم تحويل بعض أراضي الحياض إلى الرى الدائم^(٣١٨)، ثم كانت أعمال الرى الكبرى على النيل والتي تم تنفيذها بصورة سريعة ومتلاحقة خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وشملت تلك الأعمال شق مزيد من الترع، وتطهير ماكان موجوداً منها بالفعل، بالإضافة إلى التوسع في إقامة الجسور وبناء السدود بهدف زيادة مساحة الأراضي الزراعية التي يتم رىها دائما. وقد أدى ذلك كله إلى زيادة تأثير عمل المياه الجوفية في الآثار القديمة.

وقد لاحظ علماء الحملة الفرنسية أثناء فحصهم لأعمدة الكرنك تكون بلورات ملحية في أساسات الأعمدة مما يؤدي إلى تحطم الأحجار لدرجة أن الأعمدة التي لم يعد لها ما يدعمها قد انهارت كلها تحت تأثير ثقلها، وقد نتجت هذه البلورات الملحية بفعل الرطوبة الناجمة عن ارتفاع المياه عبر الأنقاض لأن تربة المعبد التي كانت تعلو بلا شك مستوى الفيضان وقت بناء المعبد أصبحت الآن أدنى منه، بل وأصبحت أيضا أدنى من المستوى العام للوادي المحيط بها وهو الأمر الذي كان يؤدي إلى تسرب المياه إلى المعبد مالم تمنعها جبال الأنقاض التي تحيط بها من الاقتراب،

وهكذا ندرك ببساطة أن مثل ذلك الأمر له عظيم الأثر في ارتشاح المياه شيئاً فشيئاً في بلد يعمل مناخه بقوة على الحفاظ على آثاره^(٣١٩).

ظل ارتشاح المياه يعمل شيئاً فشيئاً في أساسات أعمدة الكرنك كما توقع علماء الحملة الفرنسية^(٣٢٠) وذلك على مدار القرن التاسع عشر بأكمله، وفي شهر أكتوبر ١٨٩٩ م (جمادى الآخر ١٣١٧ هـ) بلغ تأثير المياه المرتشحة على تلك الأعمدة مداه فسقط أحد عشر عموداً من أعمدة الكرنك وتزعزعت ثلاثة أعمدة أخرى فيما وصف بأنه كارثة كبرى "ومصاب اضطرب له علماء الآثار في كل الأقطار"^(٣٢١) وفي تقريرها الذي رفعته إلى نظارة الأشغال رأت اللجنة المشكلة لبحث أسباب هذه الكارثة أن الأسباب التي أوجبت سقوط الأعمدة تكمن في تفتت الأحجار الموضوعة في الأساس لتأثير ملح البارود عليها حتى أصبحت هشّة استطاع تفتيتها بين الأصابع، وأن التحاليل الكيميائية قد أثبتت وجود كميات كبيرة من ملح البارود في هذه الأساسات، وقد نشأ وجود ملح البارود عن سببين: أولهما ارتفاع رشح مياه النيل ووصول هذا الرشح إلى طبقة عالية من الأرض حتى إن اللجنة لم تتمكن من الاستمرار في القيام بأعمال سبر الغور لكشف الأساسات نتيجة لكثرة مياه الرشح، وثانيهما وجود بقايا المساكن الكثيرة ووجود السباح بكمية وافرة في قاعات المعبد منذ قرون طويلة، ولفتت اللجنة الانتظار إلى أن رشح المياه ممتزجة بملح البارود قد كان له تأثير سيئ وبالعكس الخطورة على الجهات السفلى من الأساسات. ومما لا شك فيه أن هذا هو عين ما فطن إليه ونبه عليه وحذر منه علماء الحملة الفرنسية^(٣٢٢).

ورأت اللجنة أنه لا بد من إعداد دراسة متكاملة ومستفيضة عن حالة معبد الكرنك. وأنها ستكفي الآن بالإشارة إلى أعمال الإصلاح والصيانة الضرورية والعاجلة، وأنه لا بد من البحث فيما بعد في الوسائل اللازمة لوقاية معبد الكرنك في المستقبل، وقد قدرت اللجنة تكلفة هذه الإصلاحات بمبلغ ثمانية وأربعين ألف جنيه تقريباً.

أما بالنسبة لنهر النيل فقد كان تأثيره على الآثار المصرية القديمة ذا أبعاد متعددة، فمن ناحية كانت الفيضانات السنوية المتعاقبة تجتاح أنقاض المدن القديمة الواقعة على مقربة منه، فتغمر مياهه هذه الأنقاض بما فيها من آثار، وهذا يعرضها للتلف الشديد، وهذه الحقيقة تظهر بصورة جلية في حالة مدينة صا الحجر القديمة، فإن معظم أثارها كانت تغمرها مياه النيل سنوياً، ولذلك فإن الأماكن البعيدة بعض الشيء عن رشح مياه النهر هي التي كان لا يزال يؤمل أن يوجد فيها بعض الآثار، ولعل هذا مادفع الأثرى المصرى أحمد كمال إلى أن يقوم في عام ١٨٩٩ م بحفائر على نطاق واسع في المناطق التي لاتصل إليها مياه الفيضان دون غيرها من المناطق، وقد أسفرت حفائره عن نتائج مثمرة^(٣٢٣).

ومن ناحية ثانية، أدى تغيير نهر النيل لمجره من وقت لآخر - طبقاً لقاعدة النحت والإرساب المعروفة جغرافياً - إلى ابتلاع النهر لبعض المنشآت الأثرية الواقعة على شاطئه الشرقى، ومن الأمثلة على ذلك معبد قاو الكبير الذى وصفه علماء الحملة الفرنسية، ورسموه فى موسوعتهم الشاملة "وصف مصر" (٣٢٤). إلا أن شامبلتون عندما زار هذا المعبد فى نوفمبر عام ١٨٢٨ م (جماد الأول ١٢٤٤ هـ) أدرك بسهولة عدم بقاء أى أثر للراوق الرائع الذى قام علماء الحملة الفرنسية بوصفه فقد طواه النيل فى جوفه منذ ثلاث سنوات (٣٢٥)، وكان علماء الحملة قد لاحظوا أن النهر قد اقترب بشكل كبير من المعبد بحيث لم يعد يفصله عنه سوى خمسة عشر أو ستة عشر متراً وأضافوا " أن من المحتمل أن يستمر اقتراب النهر من المعبد وأن ينتهى الأمر بأن تغمر المياه الرواق إذا ما ارتفع منسوب المياه فى النهر بشكل كافى بل إننا لا نشك فى حدوث ذلك بالفعل" (٣٢٦).

ومن ناحية ثالثة فإن الرواسب التى كانت تحملها مياه النيل أثناء فيضانها كل عام كانت تؤدي إلى ردم المواقع الأثرية القديمة وتغطيتها بطبقة غرينية حتى تختفى تماماً عن الأنظار، ولعل حالة معبد رمسيس الثانى أو قصر ممنون أو المنيوم - كما كان يسمى - تؤكد هذه الحقيقة ؛ فخلال الفترة ما بين الحملة الفرنسية ورحلة شامبلتون كان ذلك الأثر قد اختفى تماماً إذ لم يعد يتبقى منه سوى بضعة أنقاض تعلو بالكاد فوق مستوى سطح الوادى الذى تغطيه ترسيبات الفيضانات المتعاقبة التى تتوارى من تحتها كتل الجرانيت والرخام وباقي الأحجار الصلدة المستخدمة فى زخرفة ذلك القصر... ولنا أن نتخيل بالفعل مساحة يبلغ طولها نحو ألف وثمانمائة قدم تغطيها ترسيبات الفيضانات المتلاحقة التى أدت إلى تسوية سطحها وتنتثر فى العديد من نقاطها أنقاض عتبات وأجزاء تماثيل عملاقة وجنوع أعمدة وأجزاء نقوش ضخمة لم يغمرها غرين النهر بعد لهواربها إلى الأبد عن أنظار الرحالة (٣٢٧)، كذلك تأثرت الآثار القديمة بمشروعات الري الكبرى التى تم تنفيذها على مجرى النيل بقصد ضبط مياهه والتحكم فيها، وذلك مثل مشروع مد أسوان الذى بدأ التفكير فى بنائه منذ مطلع العقد الأخير من القرن التاسع عشر وهو المشروع الذى أثار مجرد التفكير فى تنفيذه ذوبعة كبيرة وجدلاً واسع النطاق فى الأوساط المهتمة بالآثار القديمة المصرية فى مصر ومختلف أنحاء العالم، وانقسم الرأى العام فى مصر ما بين مؤيد للمشروع بمزاياه وبمكاسبه الاقتصادية وما بين معارض له بسبب ما كان ينتظر أن يلحقه من أضرار بالمباني والمنشآت المصرية القديمة التى تقع فى نطاق المستويات التى كان من المتوقع أن يصل إليها منسوب ومستوى المياه المحتجزة حينما يمتلئ الخزان بالماء، وكانوا يشيرون بصفة عامة إلى معابد جزيرة فيلة (٣٢٨)، ولا سيما المعبد المعروف بقصر أنس الوجود.

كان الجدل بين الفريقين شديداً وحامى الوطيس حتى إن جريدة " المقتطف " قد فتحت صفحاتها أمام القراء طوال عقد كامل للإدلاء بأرائهم فى هذه المسألة (٣٢٩)، وكان أول من أدلى بدلوه

في هذا الموضوع السير كولن سكوت منكريف أحد مسئولى نظارة الأشغال المصرية والذي أشار في مقاله الذى نشرته له " المقتطف " في ديسمبر عام ١٨٩١ م إلى مخاوف علماء الآثار من تعرض معبد أنس الوجود بالغمر بالمياه زهاء ستة أشهر في السنة مع ماله من الرونق والبهجة، وما به من الفوائد العلمية والتاريخية وأن ذلك من شأنه " أن يثير علماء العالم وأصحاب الفنون لوماً وتعنيفاً، وأنه يسوؤه بصفة شخصية أن يتعرض هذا المعبد للغرق. على أن منكريف لم يلبث أن عاد إلى القول بأن كل ذلك لا يعنى إلغاء مشروع الخزان بل من الواجب أن يبحث بحثاً دقيقاً عما إذا كان من الممكن اتخاذ التدابير الكفيلة والمحافظة على الأثر المذكور والآثار الأخرى المماثلة له، والتى تحقق الغرض المقصود من حيث صيانة تلك الآثار مع إقامة الخزان في وقت واحد، ودون العدول عن تنفيذ مشروع الخزان لما في ذلك المشروع الأخير من فوائد اقتصادية جمة (٣٣٠).

وفي مايو من عام ١٨٩٤ م كتب إنجليزى آخر يدعى " بنيامين باكر " مقالاً آخر في ذات الموضوع، وجاء المقال أشبه بخطاب وجهه إلى بنى وطنه من الإنجليز المسئولين الفعليين عن إدارة دفة الأمور في مصر، طالهم فيه ألا يأبهوا كثيراً لما يثار عن غرق جزيرة فيلة وقصر أنس الوجود، لأن تلك المسائل لا يعتد بها في مقابل المنافع العميمة التى يعلم الجميع أنها سوف تعود على البلاد من هذا الخزان، ولا ندرى أى بلد يقصد، وأضاف " غنى عن البيان أن كل إنجليزى صادق الوطنية يفضل أن تشوى حجارة هيكل أنس الوجود بالنار على أن يورد مصر حتفها المالى بتكليفها تحمل النفقات الزائدة على إنشاء الخزان، أو بناء سد متانته غير ثابتة، وذلك مادام الإنجليز هم أصحاب الشأن العظيم في تدبير أمور مصر وأحوالها " ونصح المسئولين الإنجليز بالآلا يكثروا الكلام عن الأموال المخصصة لصيانة المعابد المصرية المعرضة للغرق والمحسوبة ضمن النفقات العامة المقدرة لإنشاء الخزان، خوفاً من أن يقول المصريون الذين رأى أنهم لا يعدون لتلك الخرائب قيمة : " دع الذين يهمهم أمرها يدفعون مبلغ مائتى ألف جنيه لرفعها، ولماذا ندفعها نحن عنهم ولا يهمنا بل يهمهم المحافظة عليها " (٣٣١).

وفي عدد يوليو ١٨٩٤ م نشرت " المقتطف " رأياً خاصاً بها، وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت قد اتخذت بالفعل قرارها بإنشاء الخزان، ودبرت الأموال اللازمة لذلك وهو الأمر الذى أغضب علماء الآثار في أوروبا، وكان قد ظهر حينئذ رأى ينادى بتفكيك معبد أنس الوجود ونقله إلى مكان آخر بعيداً عن مياه الخزان وهو ما لم يقبله نفر من العلماء واعتبروه ضرباً من الهزبان أو الجنون نظراً لضعف الإمكانات وقلة الموارد في ذلك الوقت، وهذا الموقف من جانب هؤلاء النفر من العلماء لم يعجب بدوره جريدة " المقتطف " التى علقت قائلة " وبضحكنا سخطهم على من أشار بنقل هيكل أنس الوجود من مكانه إلى مكان آخر بقرب مكانه، كأنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك قط، ولم ينقلوا كل مرتخص وغالٍ من الآثار المصرية إلى بلادهم، بل إلى كل معارض المسكونة "

وشاركت المجلة محرر جريدة " الطبيعة الإنجليزية " رأيه حين اقترح : " أن يشرع العلماء الآن بتفحص هيكل أنس الوجود، وجميع الآثار التي سيغمرها ماء الخزان، حتى إذا رأوا كل أثر وكل كتابة وكل نقش ورسوموا ذلك كله وشرحوه وأثبتوه في بطون الكتب والدفاتر لم تبق لنا حاجة إلى حفظ هذه الآثار سواء غمرها ماء الخزان أو لم يغمرها، أما الخزان فلا يجوز منع إنشائه بوجه من الوجوه لأن نفعه للقطر المصري يساوي خمسة عشر مليوناً من الجنيهات كل سنة، والأرض التي يمكن إحياؤها به تساوي ستة وأربعين مليوناً من الجنيهات " (٣٣١).

كانت ضغوط المهتمين بالآثار من أجل منع إنشاء الخزان في المكان الذي استقر الرأي على بنائه فيه عميقة ومؤثرة، واتخذت هذه الضغوط شكلاً رسمياً عندما طلبت الحكومتان الإنجليزية والألمانية من الإدارة المصرية أن تستجيب لرغائب هؤلاء القوم قياماً لخدمة العلم والتاريخ. فأرسل نوبار باشا مذكرة إلى المعتمد الإنجليزي بمصر والقنصل العام الألماني بالقاهرة قال فيها " إن حكومة الأمير [عباس حلمي] مهتمة بالاعتراضات التي أبدتها رجال العلم البريطانيون والألمانيون على إنشاء الخزان في أسوان، وأنها ستبذل جهد المستطیع في التوفيق بين ماتقنضيه مصلحة البلاد وما تحفظ به آثاره الجميلة " (٣٣٢) وأمام هذه الضغوط المتزايدة اضطرت الحكومة المصرية أن تجعل ارتفاع الخزان أقل مما كان مقدراً له، وبذلك تقل سعته التخزينية وتنخفض كمية المياه المحجوزة أمامه فلا تتلف معابد فيلة، فبدلاً من أن يكون ارتفاع الماء المخزون أمام السد مائة وأربعة عشر متراً أصبح الارتفاع الجديد مائة وستة أمتار وذلك حتى تبقى المعابد المذكورة فوق سطح الماء (٣٣٣). وقد كان هذا مثار اعتراض شديد من جانب جريدة " المقتطف " التي ذهبت إلى حد التشكيك في مصرية معبد أنس الوجود - الذي جاء قرار تخفيض سعة خزان أسوان وقاية وصيانة له - بدعوى أنه لا يشبه المباني المصرية على اعتبار أنه بني في عصر البطالمة، ومن ثم لا يحسب أثراً مصرياً، وتساءلت الصحيفة باستنكار : ولا ندرى ماذا يغسر العلم والعمران لو زال هيكل أنس الوجود من الوجود فإنه من حيث الصناعة لا يقابل بالمباني المصرية الأصيلة ولا بالمباني اليونانية، ومن حيث التاريخ ليس فيه شيء يستحق الذكر إلا وقد استنسخه الباحثون مراراً، ويسهل استنساخه ورسمه بالفوتوغراف رسماً محكماً، وحفظه في بطون الكتب والدفاتر إلى ما شاء الله حيث تحفظ آيات الوحي وأسرار الحكمة وقواعد العلم والفلسفة " (٣٣٥).

وهكذا لم يتم بناء سد أسوان إلا بعد أن رضخت الحكومة المصرية لمطالب علماء الآثار في تقليل ارتفاع السد وبعد إلزام الحكومة بترميم معابد فيلة وتقوية أساساتها حفاظاً عليها من تأثير مياه النيل.

وعندما زادت حاجة البلاد إلى الأراضي الزراعية تقرر تغطية خزان أسوان مرتين، فتمت التغطية الأولى منهما بين عامي ١٩٠٧ م، ١٩١٢ م وقد تكلفت هذه التغطية ١٥٠٠٠٠ جنيه أنفق منها ٦٠٠٠٠ جنيه لتقوية هياكل النوبة وعمل مسح أثرى للمنطقة الواقعة بين وادى حلفا وأسوان^(٣٣٦). أما التغطية الثانية فقد تمت بين عامي ١٩٢٨ م، ١٩٣٤ م وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت معابد فيلة تغطيها المياه عشرة أشهر في السنة وتنحصر عنها شهرين فقط خلال يوليو وأغسطس من كل عام، وهذا أتاح الفرصة لتنظيف المعابد من الطى الذى يتراكم فيها، وفي الوقت نفسه تتاح الفرصة للزائرين لمشاهدة هذه المعابد ويتاح للعلماء مواصلة أبحاثهم ودراساتهم للنصوص والنقوش التى تملأ صروحها وجدرانها^(٣٣٧).

لقد كان بناء سد أسوان - من ناحية - فاتحة خير كبير للدراسات الأثرية بالنسبة لبلاد النوبة السفلى إذ تحرك العلماء وتسابقوا للكشف عن آثار هذه المنطقة^(٣٣٨)، كما أن أعمال التقوية والصيانة التى عولجت بها تلك الآثار قد جعلتها أقوى منها فى أى وقت مضى ولكن بناء السد من ناحية أخرى قد أضر بالآثار القديمة، وأحدث بها آثاراً سيئة : ذلك أن الأعمدة الجرانيتية المطمورة بالماء سرعان ما كسيت بطبقة رمادية شوهت لونها الوردى الجميل الأصلى، وذلك بسبب الألياف الدقيقة والطحالب والنباتات المائية التى تعطى مظهراً سيئاً للأحجار التى كانت فى الماضى جميلة ورائعة، وبالإضافة إلى ذلك أخذت النقوش الغائرة والزخارف والمخطوطات المنقوشة تتعرض للبلل ويصيبها التلف والدمار، وأصبحت مهددة بالاختفاء بالفعل^(٣٣٩).

وكان بارسانتى قد حذر رؤسائه فى مصلحة الآثار المصرية بأنه إذا لم تقم المصلحة بعمل ما تجاهها، واتخاذ الاجراءات السريعة لانقاذها فإنها ستلاشى فى الماء تدريجياً ويصيبها الدمار والتلف وأن عليهم أن يسلموا بمصير هذه الآثار ويتوقعوا اختفاءها رويداً رويداً^(٣٤٠).

وهكذا كانت مشكلة الرمال ومشكلة المياه من أهم الأخطار الطبيعية التى واجهت الآثار المصرية القديمة فى القرن التاسع عشر، وألحقت بتلك الآثار أضراراً فادحة ومما زاد من خطورة هذا الأمر أن بعض المعالم الأثرية القديمة كانت معرضة لتأثير الخطرين - خطر الرمال وخطر المياه فى وقت واحد وبذلك تصبح الأضرار مضاعفة ويدركها التلف سريعاً، فقد لاحظ لانكربيه أن منطقة غرب الدلتا عانت كثيراً من التغيرات الفيزيائية فى السنوات الأخيرة ، وأن طول مكث المياه وكذلك غزو رمال الصحراء لأراضى هذه المنطقة قد أدى إلى اختفاء آثار العصور السابقة بحيث لم يعد يوجد سوى القليل من الآثار فى كل هذه المنطقة^(٣٤١)، كذلك تعرض معبد كوم امبو لخطر مماثل، ذلك أن موقع المعبد كان يضعه بين خطر اعتداء الرمال المتحركة والزاحفة من ناحية البر وخطر ارتفاع منسوب مياه النيل من الجانب الآخر، وقد سجل كل من علماء الحملة الفرنسية^(٣٤٢) وشامبليون^(٣٤٣) وعلى مبارك^(٣٤٤) ظاهرة طغيان نهر النيل على معبد كوم امبو

مسبباً تآكل أساسات المعبد سواء من جراء حفر المياه وإفسادها للأساسات أو تغلغل الفيضانات الزائدة في أرض المعبد، وتوقعوا أن النيل سيطوى المعبد في جوفه قريباً، كذلك شاهدت السيدة إميلي إدواردز في عام ١٨٧٣م أعمدة المعبد وهى مطمورة في الرمال، ولم يعد يبقى منها سوى ثمانية أو عشرة أقدام من تيجانها الفخمة، وتنبأت بأنه لا يمكن إزالة الرمال وأن المعبد أخذ في الغوص روديداً رويدا في النهر، وأنه سيأتى اليوم الذى سيتقوض فيه المعبد ويتحول إلى أنقاض، وأن من المستحيل إزالة كمية الرمال التى أحاطت به خصوصاً وأن المعبد كان يقع بالتدرج لقمة سائقة للنهر^(٣٤٥) وكان ماريت قد سبقها إلى هذه النبوءة عام ١٨٦٩م وقال : " إنه ليس هناك ما يقال عن هذا المعبد الذى سيصبح إن عاجلاً أو آجلاً فريسة لنهر النيل مهما بلغت الوسائل الكافية لحمايته "^(٣٤٦).

ولكن لحسن الحظ أنه لم تتحقق نبوءة هؤلاء القوم، بل خابت توقعاتهم جميعاً ؛ وذلك أن مصلحة الآثار المصرية قد أخذت على عاتقها في عام ١٨٩٣م حماية هذا ال اثر العظيم، فقامت ببناء رصيف له لبقية من غائلة النيل، كما رمت ما كان منه على وشك السقوط، وأزالت منه الاتربة وأزاحت عنه كتل الرمال الهائلة حتى أصبح نظيفاً تماماً بعد أن أنفقت على هذا العمل مبالغ جسيمة^(٣٤٧).

وهكذا عانت الآثار خلال القرن التاسع عشر من مشكلات وأخطار من كل نوع : فأحجارها قد استخدمت في أعمال البناء باعتبارها أقل كلفة من تقطيع أحجار جديدة من المحاجر البعيدة ، كما كان الأهالى - حرصاً منهم على المحافظة على الأراضى الزراعية، وطلباً للسهولة واقتصاداً في النفقات - يستخدمون المعابد والمقابر كمحال للسكن، كما بنى المقتدرون منهم فوق الصروح المدفونة قرى بأكملها، وهم يجهلون على أى كثر بينون، والمستهترون من السائحين لا يراعون للآثار حرمة فيتلفونها بسلوكياتهم الخاطئة ويشوهونها، برسومهم الساذجة. أما الآثار التى لم تمسها يد البشر فقد تكفلت الطبيعة وعوامل التعرية بدفنها وإتلافها، ومما زاد الأمر سوءاً أن حكام مصر لم يعيروا - في كثير من الأوقات - ماضى مصر وتاريخها القديم أهمية تذكر، وكثيراً ما كانت الآثار في ذلك الوقت تستخدم كوسيلة من وسائل التأثير السياسى. أما الأهالى فقد درجوا على استغلالها أمواً استغلال، وقد لخصت السيدة إميلي إدواردز هذه المأساة بقولها " وهذا هو قدر كل أثر مصرى سواء كان كبيراً أم صغيراً، فالسائح يشغل الآثار كلها بالأسماء والتواريخ وأحياناً بالرسوم الهزلية، وكذلك فإن دارس علم المصريات يبذل ورقة يشفّ بها كل أثر باق من اللون الأصلي، أما جامع التحف فإنه يشتري وينقل كل شيء له قيمة يستطيع أن يتوصل إليه، ويقوم الأعراب بسرقة الآثار لحسابه، وفي نفس الوقت تستمر أعمال التخريب على قدم وساق، ولا يعمل أحدٌ على وقف هذا التخريب أو عدم التشجيع على المضى فيه... أليس من الغريب حقاً

أنه في نفس الوقت الذي يدخل فيه العلم إلى مكان يدخل خلفه الجهل أيضا إلى نفس المكان
{٢٤٨}٢٤٨

إنها حقا معجزة أن يكون قد بقي شيء حتى الآن نستمتع به من ذلك التراث.

الهوامش

- (١) سبق أن ذكرنا في التمهيد أن كثيراً من هذه المشكلات إنما ترجع أصولها إلى فترات زمنية سابقة على القرن التاسع عشر. غير أنه يمكن القول بأن هذه المشكلات قد استفعل خطرهما بصورة كبيرة خلال هذا القرن.
- (٢) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ٥، ص ٥٢، ٥٣ وانظر كذلك: لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٢٨.
- (٣) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٨٦.
- (٤) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ٤٩.
- (٥) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٢٨.
- (٦) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٢٩.
- (٧) جان فيدال: "الفائز عن المسلة" ضمن كتاب جان لاكويتير: "شامبلون"، ص ٦٤٢.
- (٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٢٩، ١٣٠.
- (٩) يقصد جزيرة فيلة.
- (١٠) خطأ صوابه: "عاموداً حجرياً" على ما هو ظاهر.
- (١١) محافظ مصرية سيدة (تركي) تراجم ملخصات الدفاتر، محفوظة رقم (٧) ولبقة رقم (٢٠٦) بتاريخ ٢٤ ربيع أول ١٢٣٤هـ (٢١ يناير ١٨١٩م).
- (١٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٣٠.
- (١٣) Tagher: "P: 78 fouilleurs et antiquaires en Egypte".
- (١٤) انظر سرداً لبعض هذه الوقائع والأحداث في بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٣٠-١٣٣.
- (١٥) هي مسلة ضخمة عبارة عن حجر واحد من الجرانيت الأحمر، وزن ٢٢٧ طناً، ويبلغ ارتفاعها ٢٢,٥٥ متراً. انظر: لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٨٢.
- (١٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٧) جان فيدال: "الفائز عن المسلة"، ص ٦٤٣.
- (١٨) جان لاكويتير: "شامبلون"، ص ٥٥١.
- (١٩) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٢٢٤.
- (٢٠) جان فيدال: "الفائز عن المسلة"، ص ٦٤٤.
- (٢١) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٢٤٦.
- (٢٢) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٢٤٩.
- (٢٣) المرجع السابق، ص ٣٦٥.
- (٢٤) جان فيدال: "الفائز عن المسلة"، ص ٦٤٦، ٦٤٧.
- (٢٥) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٨٥، ١٨٦.
- (٢٦) جان فيدال: "الفائز عن المسلة"، ص ٦٤٩.
- (٢٧) Wiet: op. cit., P: 34, 35.
- (٢٨) Ibid, pp: 35,36.
- (٢٩) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٨٦.
- (٣٠) يذكر أن مدخل معبد الأقصر باتجاه الشمال.
- (٣١) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٣٦٥.
- (٣٢) جان فيدال: "الفائز عن المسلة"، ص ٦٤٥.
- (٣٣) لبنان دي بلقون: "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت بمصر منذ أقدم العصور حتى عام ١٨٧٢م" ترجمة إدارة الترجمة بوزارة الأشغال العمومية، إشراف: علي بك شافعي، مراجعة: محمد بك فخر الدين، المطبعة الثميرية، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص ٢٣٦، ٢٣٥.
- (٣٤) جان فيدال: "الفائز عن المسلة"، ص ٦٤٩، ٦٥٠.
- (٣٥) المرجع السابق، ص ٦٥٠.
- (٣٦) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٨٢ بتصرف.
- (٣٧) المرجع السابق، ص ١٨٦، ١٨٧.

- (٣٨) روبرت سوليه : "مصر ولع فرنسي" ، ص ٩٢.
- (٣٩) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٨٧.
- (٤٠) "الأوامر والمكتاتبات" ج ١ ، ص ٤٠٠ وانظر كذلك : أمين سامي : "تقويم النيل" المجلد الثاني "عصر محمد علي" ، ص ٣٨٢.
- (٤١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) آثار سجلات معية سينة (تركي) سجل رقم (٤٢) وثيقة رقم (٦٦٢) بتاريخ ٧ صفر ١٢٤٧هـ (١٨ يوليو ١٨٣١م).
- (٤٢) لبنان دي بلغون : "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت بمصر" ، ص ٢٣٦.
- (٤٣) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٨٧.
- (٤٤) المرجع السابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩.
- (٤٥) المرجع السابق ، ص ١٩٠ ، ١٩١.
- (٤٦) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) آثار سجلات معية سينة (تركي) سجل رقم (٤١) وثيقة رقم (٤٠٣) بتاريخ ١٥ جماد الأول ١٢٤٧هـ.
- (٤٧) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية ، درج رقم (١) آثار سجلات معية سينة (تركي) سجل رقم (٤٤) وثيقة رقم (٣٢٧) بتاريخ ١٠ ربيع الآخر ١٢٤٨هـ.
- (٤٨) جان فهدال : "الفائز عن المسلة" ، ص ٦٥٧.
- (٤٩) أحمد نجيب : "الأثر الجليل" ، ص ١٦١.
- (٥٠) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩١.
- (٥١) المرجع السابق ، ص ١٩٢ باختصار.
- (٥٢) روبرت سوليه : "مصر ولع فرنسي" ، ص ٩٥.
- (٥٣) جان فهدال : "الفائز عن المسلة" ، ص ٦٦١-٦٦٣ باختصار.
- (٥٤) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٢.
- (٥٥) جان لاكوثير : "شامبوليون" ، ص ٦٣٣ وجدير بالذكر أن شامبوليون قد توفي في ٤ مارس ١٨٣٢م قبل الانتهاء من عملية نقل المسلة ونصبها وسط للهدان الشهير.
- (٥٦) جان فهدال : "الفائز عن المسلة" ، ص ٦٦٠.
- (٥٧) هي مسلة من الجرانيت الأحمر تزن مائة وسبعة وثمانين طناً ، ووصل ارتفاعها إلى ٢٠.٨٧ متراً ، انظر : لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٣.
- (٥٨) جيمس بيكي : "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١ ، ص ٤٠.
- (٥٩) بريان فاجان : "تعب آثار وادي النيل" ، ص ٥٥.
- (٦٠) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٧.
- (٦١) المرجع السابق ، نفس الصفحة.
- (٦٢) عماد عنلي : "شامبوليون في مصر" ، ص ٣٦٤.
- (٦٣) محسن محمد : "سرقعة ملك مصر" ، ص ٤٣.
- (٦٤) لبنان دي بلغون : "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت بمصر" ، ص ٢٣٣.
- (٦٥) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٧ ، ١٩٨.
- (٦٦) ثروت عكاشة : "مصر في عيون الغرباء" ج ٢ ، ص ٣٦٧.
- (٦٧) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٨.
- (٦٨) Weit : op. cit., pp : 37,38.
- (٦٩) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٨.
- (٧٠) المرجع السابق ، نفس الصفحة.
- (٧١) عدد رقم (٦٠١) بتاريخ الأحد ٥ ربيع الأول ١٢٩٢هـ/ ١١ أبريل ١٨٧٥م. وانظر كذلك : أمين سامي : "تقويم النيل" المجلد الثالث من الجزء الثالث "عصر إسماعيل" ، ص ١٢٢١.
- (٧٢) لبيب حبشي : "مسلات مصر" ، ص ١٩٩.
- (٧٣) عدد رقم (٦٠٥) بتاريخ الأحد ٤ ربيع الثاني ١٢٩٢هـ/ ٦ مايو ١٨٧٥م. وانظر كذلك : أمين سامي : "تقويم النيل" المجلد الثالث من الجزء الثالث "عصر إسماعيل" ، ص ١٢٢٥.

- (٧٤) يقصد أنها ملك له.
- (٧٥) سجلات معية سنية (عربي) دفتر المرور - أوامر كريمة - صادر غير رسمي م/ ٢٠ سجل رقم (١٩٣٢) قديم ص (٦٩) وثيقة رقم (٣٤٨) بتاريخ ٦ جمادى الثاني ١٢٩٢ هـ (١٠ يوليو ١٨٧٥ م) ضمن ميكروفيلم رقم (٢٠) معية سنية (عربي).
- (٧٦) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٩٩ - ٢٠٠ باختصار.
- (٧٧) المرجع السابق، ص ٢٠٠.
- (٧٨) المرجع السابق، ص ٢٠٠ - ٢٠١ باختصار.
- (٧٩) راغب عياد: "المسلات المصرية ويوما مدينة المسلات"، ص ١٣٤.
- (٨٠) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٤٣.
- (٨١) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ٢٠٢.
- (٨٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٨٣) جهنم بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٤٠.
- (٨٤) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ٢٠٣، ٢٠٤ باختصار.
- (٨٥) المرجع السابق، ص ٢٠٤.
- (٨٦) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٤، ص ٤٦٢.
- (٨٧) لهنوار تشامبرز رايت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ١٩٢ هامش رقم (٣١).
- (٨٨) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٦٦، ١٦٢ وانظر كذلك: لهنوار تشامبرز رايت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ١٩١.
- (٨٩) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٦١ - ١٦٤ باختصار.
- (٩٠) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٦٥، ١٦٨ باختصار.
- (٩١) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٦٨ - ١٧٠ باختصار.
- (٩٢) المرجع السابق، ص ١٧١، ١٧٢ باختصار.
- (٩٣) بيتر فرانسن: "اغتيال مصر"، ص ١٤٨.
- (٩٤) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة ٤٩ أشغال: محفظة رقم (١/٤) طلب دولة أمريكا المسلة، مستخرج من محضر الجلسة المنعقدة في ٢٥ مارس ١٨٧٩ م.
- (٩٥) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٧٢، ١٧٣.
- (٩٦) المرجع السابق، ص ١٨٢.
- (٩٧) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة ٤٩ أشغال، محفظة رقم (١/٤) إفادة صادرة من نظارة الخارجية لقنصلاتو جنراليتها أمريكا بتاريخ ١٨ مايو ١٨٧٩ م.
- (٩٨) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٨٦.
- (٩٩) لهنوار تشامبرز رايت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ١٩١.
- (١٠٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، مجموعة ٤٩ أشغال: محفظة رقم (١/٤) تعقيب لمجلس النظار على الإفادة الصادرة من نظارة الخارجية لقنصلاتو جنراليتها أمريكا بتاريخ ١٨ مايو ١٨٧٩ م.
- (١٠١) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ٢٠٤.
- (١٠٢) المرجع السابق، ص ٢٠٤، ٢٠٥.
- (١٠٣) راغب عياد: "المسلات المصرية ويوما مدينة المسلات"، ص ١٣٤.
- (١٠٤) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ٢٠٦.
- (١٠٥) ألبرت فارمان: "مصر وكيف غدر بها"، ص ١٩٢.
- (١٠٦) راغب عياد: "المسلات المصرية ويوما مدينة المسلات"، ص ١٣٤.
- (١٠٧) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ٢٠٦.
- (١٠٨) المرجع السابق، ص ٢٠٧ - ٢١٠ باختصار.
- (١٠٩) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٤، ص ٤٦٣.
- (١١٠) لبيب حبشي: "مسلات مصر"، ص ١٩٣.
- (١١١) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٤، ص ٤٦٣، ٤٦٤.
- (١١٢) روبرتسوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٩٣ وانظر كذلك: جان فيدال: "الغائب عن المسلة"، ص ٦٥٤.

- (١١٣) بيتر فرانكس: "اغتصاب مصر"، ص ١٢١.
- (١١٤) لييب حيش: "مسلات مصر"، ص ١٩٢.
- (١١٥) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٤، ص ٤٦٤.
- (١١٦) المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٤٦٣.
- (١١٧) مجلد (١١)، ص ١٨٤.
- (١١٨) مجلد (٢٤)، ص ٧٧.
- (١١٩) "الأثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٤١.
- (١٢٠) مجلة "المقتطف" عدد يونيو ١٨٩٠م، مجلد (١٤)، ص ٦٤٦.
- (١٢١) كلوت بك: "لمحة عامة إلى مصر"، ص ١٢٧.
- (١٢٢) "عجائب الآثار" ج ٣، ص ٣٧٤.
- (١٢٣) "عجائب الآثار" ج ٣، ص ٣٧٤.
- (١٢٤) مخففة: مطلية بالخافق، والخافق: كلمة ليست عربية وإنما هي مصرية قديمة، وهي باللسان المصري القديم "خابق ومعناها: البهاض القشرة المركب من جبر وحمرة وزمل. يمزج بالماء ويوضع في جدران الحيطان الملاصقة للمياه أو الرطوبة لحفظها من تأثير الماء فيها. وقد حرفت الكلمة على توالي الأتومات إلى خافق، وصارت معلومة عند المتخصصين والعوام بأن معناها البهاض الذي يوضع على الحيطان ليقيها من تأثير الماء. انظر: "المقتطف" عدد فبراير ١٩٠٢م، مجلد (٢٤)، ص ١٦٤.
- (١٢٥) "عجائب الآثار" ج ٣، ص ٥٢٥.
- (١٢٦) كلوت بك: "لمحة عامة إلى مصر"، ص ١٢٧.
- (١٢٧) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة محمد علي، السياسة الداخلية"، ص ٤٣١.
- (١٢٨) عبد الرحمن الرافعي: "عصر محمد علي"، ص ٣٤٢.
- (١٢٩) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة محمد علي، السياسة الداخلية"، ص ٣١٧.
- (١٣٠) المرجع السابق، ص ٤٣١.
- (١٣١) "وصف مصر" ج ٢، ص ٢٣٩.
- (١٣٢) مما لا شك فيه أن محمد علي كان يشعر بالفساد الذي كان مستشرياً في نظامه الإداري. ولعل هذه الجملة توحى بذلك، ومما لا شك فيه كذلك أن المشايخ كانوا بدورهم يتسلطون على الأهالي.
- (١٣٣) انظر كيف كان جمع الأموال وجباية الضرائب من أهم الأولويات لدى محمد علي. وذلك بغض النظر عن أي شيء آخر.
- (١٣٤) "الأوامر والمكاتبات" ج ١، ص ٥٦٠.
- (١٣٥) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة محمد علي، السياسة الداخلية"، ص ٤٣١.
- (١٣٦) مجلات ديون المالية، قيد الأوامر العربي الصادر للمالية ح ٤٢/١ مجلد رقم (٧) حديث (١٢٠٠) قديم (٣٢٢٧) نقل من (٩١) وثيقة رقم (١٦٩) بتاريخ ٥ ذو الحجة ١٢٨٢هـ (٢١ أبريل ١٨٦٦م).
- (١٣٧) علي مبارك: "الخطوط التوفيقية" ج ٩، ص ٣٥.
- (١٣٨) المرجع السابق، ج ٨، ص ٣٢٦.
- (١٣٩) المرجع السابق، ج ٩، ص ٢٤٠.
- (١٤٠) المرجع السابق، ج ٨، ص ٣٢٩.
- (١٤١) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة محمد علي، السياسة الداخلية"، ص ٤٣١.
- (١٤٢) جيمس بيكي: "الأثار المصرية في وادي النيل" ج ٢، ص ٣٣.
- (١٤٣) مجلة "المقتطف" عدد مايو ١٨٩٧م، مجلد (٢١)، ص ٣٧٥.
- (١٤٤) لبنان دي بلقون: "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت في مصر"، ص ٨٧.
- (١٤٥) انظر تفصيلاً لهذه الأوامر واللوائح والتشريعات في الفصل الخامس بذلك من هذا البحث وهو الفصل الثالث.
- (١٤٦) جيمس بيكي: "الأثار المصرية في وادي النيل" ج ٢، ص ٣٣.
- (١٤٧) انظر في ذلك: ج ٨، ص ٤٦ "أبشادة"، ص ٥٤ "أبو نيج"، ص ١٩٧ "أتريب"، ص ١٤٤ "إدفا"، ص ٢٤٩ "الأشمونين" وانظر: ج ٩، ص ١٧٢ "بسطة"، ص ٢٢٤ "بنجا"، ص ٢٤٠ "بنويط" وانظر: ج ١٠، ص ١٤٥ "شندويل"، ص ٢١١ "خربتا" وانظر ج ١١، ص ١٥٣ "دندره"، ص ١٩٧ "رشيد"، ص ٢٤٥ "الزقازيق" طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية: القاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م عن طبعة بولاق ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م. وانظر: ج ١٢، ص ٦ "سبك

- الضحاك"، ص ٤٣ "سلمون الصعيد"، ص ٥٠ "سمنود"، ص ١٣٣ "شكينة"، ص ١٣٤ "شلشلمون"، ص ١٣٧ "شندويل" طبعة بولاق ١٢٣٠ هـ/١٨٨٧ م. وانظر: ج ١٣، ص ٢ "صا الحجر" طبعة: بولاق ١٢٣٠ هـ/١٨٨٧ م. وانظر ج ١٤، ص ٢٨٣ "الفيوم" طبعة: دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٧ هـ/١٤١٧ م عن طبعة بولاق ١٢٣٠ هـ/١٨٨٧ م. وانظر: ج ١٥، ص ١٠ "كفر عزاز"، ص ١٢ "الكوم الأخضر"، ص ١٨ "مجدول"، ص ٣٩ "مرصى"، ص ٤١ "تل اليهودية"، ص ٧٢ "مليح" طبعة بولاق، ١٢٣٠ هـ/١٨٨٧ م.
- (١٤٨) ج ١١، ص ١٥٣.
- (١٤٩) ج ١٥، ص ٤١.
- (١٥٠) "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت بمصر"، ص ٨٧.
- (١٥١) عدد نوفمبر ١٨٨٧ م. مجلد (١٢)، ص ٨٣.
- (١٥٢) "الخطط التوفيقية" ج ١٣، ص ٢.
- (١٥٣) المرجع السابق، ج ١١، ص ١٩٧.
- (١٥٤) المرجع السابق، ج ١٥، ص ٣٩.
- (١٥٥) مجلة "المقتطف" عدد فبراير ١٨٩٠ م مجلد (١٤)، ص ٣٠٢.
- (١٥٦) محمد إبراهيم بكر: "صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم" طبعة: دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٧ م.، ص ٢٣٢.
- (١٥٧) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ١٣، ص ٢.
- (١٥٨) المرجع السابق، ج ١٤، ص ٢٨٣.
- (١٥٩) المرجع السابق، ج ١٥، ص ١٢.
- (١٦٠) سليم حمى: "مصر القديمة" ج ٥، ص ٣٤٦.
- (١٦١) عبد القادر حمزة: "على هامش التاريخ المصرى القديم" ج ١، ص ١٧٥.
- (١٦٢) سليم حمى: "مصر القديمة" ج ٥، ص ٣٤٦، ٣٤٧.
- (١٦٣) المرجع السابق، نفس الجزء، ص: ٣٤٨.
- (١٦٤) جيمس بهكى: "الآثار المصرية في وادى النيل" ج ٢، ص ٩٥.
- (١٦٥) سليم حمى: "مصر القديمة" ج ٥، ص ٣٤٧.
- (١٦٦) عبد القادر حمزة: "على هامش التاريخ المصرى القديم" ج ١، ص: ١٧٦.
- (١٦٧) سليم حمى: "مصر القديمة" ج ٥، ص ٣٤٧.
- (١٦٨) "الخطط التوفيقية" ج ٨، ص ٩٧.
- (١٦٩) المرجع السابق، ج ٩، ص ٢٢٤، ٢٢٥.
- (١٧٠) "رحلة الألف ميل"، ص ٣٩٩، ٤٠٠.
- (١٧١) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصرى بمناسبة مرور مائة عام على تأسيسه" مجلة "المجلة" عدد رقم (٢٤)
- جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ/ديسمبر ١٩٥٨ م.، ص ٢٥.
- (١٧٢) جيمس بهكى: "الآثار المصرية في وادى النيل" ج ٢، ص ٣٢.
- (١٧٣) مجلة "المقتطف" عدد أغسطس ١٨٩٧ م. مجلد (٢١)، ص ٥٩٠.
- (١٧٤) عدد مايو ١٨٩٧ م. مجلد (٢١)، ص ٣٧٦.
- (١٧٥) سجلات ديوان الأشغال، صادر عربى، صادر الدواوين م ٣/١ سجل رقم (٣٨) ص (٥٥) وثيقة رقم (٧٩) بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٨٧ هـ (٢٤ نوفمبر ١٨٧٠ م).
- (١٧٦) سجلات ديوان الأشغال صادر عربى، صادر الدواوين م ٣/١ سجل رقم (٣٥) ص (١٠) وثيقة رقم (٤١٣) بتاريخ ١٠ ربيع الثانى ١٢٨٧ هـ (١٠ يوليو ١٨٧٠ م)
- (١٧٧) سجلات معية سنية (عربى) الأوامر العليا الصادرة للدواوين والضبطيات والمجالس والمحافظات، سجل رقم ١٩٣٦ ج ٢، قديم، ص (٤٣) وثيقة رقم (١٣٣) بتاريخ ٨ جماد الثانى ١٢٨٨ هـ ضمن ميكرو فيلم رقم (٢٧) معية سنية (عربى).
- (١٧٨) جريدة الوقائع المصرية عدد رقم (٤٢٩) بتاريخ الثلاثاء ١٠ شعبان ١٢٨٨ هـ - ٢٤ أكتوبر ١٨٧١ م
- (١٧٩) فيليب جلال: قاموس الإدارة والتشضاء ج ١، ص ٨٩
- (١٨٠) الاثر الجليل، ص ٨٠.

- (١٨١) انظر أعداد نوفمبر ١٨٩٦ م. مجلد (٢٠) ، ص ٦٤٨ ، مايو ١٨٩٧ م. مجلد (٢١) ، ص ٣٧٤ - ٣٧٧ يوليو ١٨٩٧ م. مجلد (٢١) ، ص ٥٣٣ - ٥٣٨ .
- (١٨٢) عدد يوليو ١٨٩٧ م. مجلد (٢١) ، ص ٥٣٣ .
- (١٨٣) إلهام ذهني : مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، ص ٢٤٩ .
- (١٨٤) جيمس بكي : " الآثار المصرية في وادي النيل " ج٣ ، ص ١٢٨ .
- (١٨٥) علماء الحملة الفرنسية : " وصف مصر " ج٢١ ، ص ١٢٦ .
- (١٨٦) ثروت عكاشة : " مصر في عيون الغرباء " ج١ ، ص ٢٤٤ .
- (١٨٧) بريان فاجان : " نهب آثار وادي النيل " ، ص ٢٨ .
- (١٨٨) محمد مجدى بك : " ثمانية عشر يوما بصعيد مصر " ، ص ٨٥ .
- (١٨٩) جيمس بكي : " الآثار المصرية في وادي النيل " ج٥ ، ص ١٤٤ .
- (١٩٠) بيتر فرانس : " اغتصاب مصر " ص ١٢١ . وانظر : ثروت عكاشة : " مصر في عيون الغرباء " ج٢ ، ص ٤٤١ .
- (١٩١) انظر ص ٢٣٠ من هذا البحث .
- (١٩٢) " رحلة الألف ميل " ، ص ٣٨٣ .
- (١٩٣) بيتر فرانس : " اغتصاب مصر " ، ص ١٤٤ .
- (١٩٤) " الأثر الجليل " ، ص ٥٨ .
- (١٩٥) عماد عدلى : " شامبلون في مصر " ، ص ٢٩٦ .
- (١٩٦) بيتر فرانس : " اغتصاب مصر " ، ص ١٦٠ .
- (١٩٧) محمد مجدى بك : " ثمانية عشر يوما بصعيد مصر " ، ص ٨٣ ، ٨٤ .
- (١٩٨) المرجع السابق ، ص ٨٤ .
- (١٩٩) محمد مجدى بك : " ثمانية عشر يوما بصعيد مصر " ص ٨٤ ، ٨٥ .
- (٢٠٠) أحمد نجيب " الأثر الجليل " ، ص ١٣٩ .
- (٢٠١) بريان فاجان : " نهب آثار وادي النيل " ، ص ١٧٧ .
- (٢٠٢) أحمد نجيب : " الأثر الجليل " ، ص ٣٠٨ .
- (٢٠٣) أميليا ادواردز : " رحلة الألف ميل " ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
- (٢٠٤) المرجع السابق ، ص ٣٨٩ .
- (٢٠٥) محمد مجدى : " ثمانية عشر يوما بصعيد مصر " ، ص ٥٦ .
- (٢٠٦) بريان فاجان : " نهب آثار وادي النيل " ، ص ١٩٢ .
- (٢٠٧) " رحلة الأمير رودلف " ج١ : ، ص ٨٨ .
- (٢٠٨) ثروت عكاشة : " مصر في عيون الغرباء " ج١ : ، ص ١٧٨ .
- (٢٠٩) المرجع السابق ج٢ ، ص ٣٠١ .
- (٢١٠) Tagher : " fouilleurs et antiquaires en Egypte " p : 82 .
- (٢١١) ثروت عكاشة : " مصر في عيون الغرباء " ج٢ : ص ١٠٣ .
- (٢١٢) عماد عدلى : " شامبلون في مصر " ، ص ١٤٠ .
- (٢١٣) بريان فاجان : " نهب آثار وادي النيل " ، ص ٢٠٧ .
- (٢١٤) بريان فاجان : " نهب آثار وادي النيل " ، ص ٢١٩ .
- (٢١٥) أميليا ادواردز : " رحلة الألف ميل " ص ٣٦٦ وانظر كذلك جيمس بكي : الآثار المصرية في وادي النيل " ج٥ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .
- ووجد بالذکر ان القالب الجصى الذى صنعها لوجه التمثال قد استقر أخيراً في المتحف البريطانى .
- (٢١٦) مجدى عبد الحافظ : محمد على والحضارة القديمة " ص ٤٧٤
- (٢١٧) أنور لوقا : " إدريس الفندى ، مؤرخ أمله التاريخ " مجلة " المجلة " عدد رقم (١٥) شعبان ١٣٧٧ هـ / مارس ١٩٥٨ م ، ص ٥١
- (٢١٨) مجدى عبد الحافظ : " محمد على والحضارة القديمة " ، ص ٤٧٥
- (٢١٩) أنور لوقا : " إدريس الفندى مؤرخ أمله التاريخ " ، ص ٥١ .
- (٢٢٠) إلهام ذهني : مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر ، ص ٨٤ .
- (٢٢١) على مبارك " المخطط التوفيقية " ج١٣ ، ص ٧٨ .

- (٢٢٢) انظر ج ١٥ وصف اللوحات رقم ٣٤-٣٨.
- (٢٢٣) عبد المنعم أبو بكر "مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية"، ص ١٥، ١٦.
- (٢٢٤) سليم حسن: "مصر القديمة"، ج ٥، ص ١٠٢.
- (٢٢٥) إميليادوريز: "رحلة الألف ميل"، ص ٢٠٧.
- (٢٢٦) عماد عدلى "شامبلون في مصر"، ص ٣٦٨.
- (٢٢٧) ثروت عكاشة: "مصر في عيون الغرباء ج ١"، ص ٢٣٩.
- (٢٢٨) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ١٩، ص ٥٣ طبعة: بولاق القاهرة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٧ م.
- (٢٢٩) بريس دافين: "أدريس أفندي في مصر"، ص ٦٦.
- (٢٣٠) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٣٢٦.
- (٢٣١) على مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ١٤، ص ٢٨٣.
- (٢٣٢) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٣٨.
- (٢٣٣) بريس دافين: "أدريس أفندي في مصر"، ص ٥٣.
- (٢٣٤) عماد عدلى: "شامبلون في مصر"، ص ٣٦.
- (٢٣٥) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٤٠٣.
- (٢٣٦) إميليادوريز: "رحلة الألف ميل"، ص ١٤٦، ص ١٨٨.
- (٢٣٧) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ٢٤.
- (٢٣٨) إميليادوريز: "رحلة الألف ميل"، ص ٤١٠.
- (٢٣٩) أحمد بغيث: "الأثر الجليل"، ص ١٤١.
- (٢٤٠) لبنان دى بلغون: "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت بمصر"، ص ٢٦٤.
- (٢٤١) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٢٤٢) Wiet: op. cit., P: 31
- (٢٤٣) انظر تفصيلات هذا المشروع في لبنان دى بلغون: مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت في مصر، ص ٢٦٤.
- ٢٦٦ -
- (٢٤٤) Wiet: op. cit., p: 31
- (٢٤٥) راجع نص هذا الخطاب في المرجع السابق 32-34 p-p
- (٢٤٦) انظر في ذلك: عبد اللطيف البغدادي: "الإفاداة والاعتبار"، ص ٩٤، ٩٥.
- (٢٤٧) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٠٠.
- (٢٤٨) محمد عارف باشا عبر البشر في القرن التاسع عشر "نسخة خطية مودعة بدار الوثائق القومية ضمن حفلة رقم (١٤٩) أبحاث، موضوعات مختلفة ج ١، ص ٢٢.
- (٢٤٩) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٢٠٠.
- (٢٥٠) مجدى عبد العاقظ "محمد على والحضارة القديمة"، ص ٤٨٢.
- (٢٥١) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٠٢.
- (٢٥٢) الخطط التوفيقية "ج ١٣، ص ٧٨.
- (٢٥٣) سليم حسن "مصر القديمة" ج ٣، ص ٤٤١.
- (٢٥٤) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٢٠، ص ٢٠١.
- (٢٥٥) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٢١ ص ٢٣ وهم يقصدون هنا "طبعة" العاصمة المصرية القديمة.
- (٢٥٦) بريان هاجان "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٨.
- (٢٥٧) سليم حسن "مصر القديمة" ج ٣، ص ٣٣١.
- (٢٥٨) إدواريز: "أهرام مصر" ترجمة: مصطفى أحمد عثمان، مراجعة: أحمد فخرى، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثاني) عدد رقم (٢٧٢) الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ص ١٣٤، ١٣٥.
- (٢٥٩) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١ ص ١٥٨، ١٥٩.
- (٢٦٠) أحمد نجيب: "الآثار الجليل"، ص ٣٠٥، ٢٧٢.
- (٢٦١) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٥٥.
- (٢٦٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٢٠، ص ٢٠١.

- (٢٦٣) أحمد نجيب: "الأثر الجليل" ص ٥٢، ٥٣.
- (٢٦٤) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٣، ص ٦.
- (٢٦٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٧٧، ٧٦.
- (٢٦٦) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٧٨.
- (٢٦٧) المصدر السابق، نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٢٦٨) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ١٩٢.
- (٢٦٩) إميلي إدواردز: "رحلة الألف ميل"، ص ٤٧٣.
- (٢٧٠) برنس دافين: "إدريس أفندي في مصر"، ص ٥٦.
- (٢٧١) أحمد نجيب: "القول المفيد في آثار الصعيد" طبعة بولاق، القاهرة ١٣١٠هـ/١٨٩٣ م، ص ٧٢.
- (٢٧٢) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٣، ص ٧٦.
- (٢٧٣) المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٠٩.
- (٢٧٤) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٣٥٤.
- (٢٧٥) عماد عدلي: "شامبلون في مصر" ص ٧٢ وانظر كذلك: إلهام ذهبي "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"، ص ٣٩٠.
- (٢٧٦) إميلي إدواردز: "رحلة الألف ميل"، ص ٤٩٢.
- (٢٧٧) تشارلز نهمس: "طبعة"، ص ٦٤.
- (٢٧٨) الآثار المصرية في وادي النيل "ج ٣، ص ٣٣٥.
- (٢٧٩) ثروت عكاشة "مصر في عيون الغرباء" ج ١، ص ٢٤٤.
- (٢٨٠) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ١٨١.
- (٢٨١) علماء الحملة الفرنسية "وصف مصر" ج ٢١، ص ٢٨٦.
- (٢٨٢) ثروت عكاشة "مصر في عيون الغرباء" ج ١، ص ٢٤٢.
- (٢٨٣) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٣٧.
- (٢٨٤) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ٣٧.
- (٢٨٥) عماد عدلي: "شامبلون في مصر" ص ١٢٨، ص ١٣٤.
- (٢٨٦) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ٢، ص ٨٧.
- (٢٨٧) انظر دراسة جولوا وديفيليه عن هذه المقابر في ج ٢٢ ص ١٢١-١٣٩، ثم انظر اللوحات وشرحها في ج ١٨ لوحات رقم ٤٣، ٤٩.
- (٢٨٨) إلهام ذهبي: "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر" ٣٨٢.
- (٢٨٩) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ١٦٠.
- (٢٩٠) إميلي إدواردز: "رحلة الألف ميل"، ص ١٢٨.
- (٢٩١) محمد مجدي: "ثمانية عشر يوما بصعيد مصر"، ص ٩٨.
- (٢٩٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٧٧.
- (٢٩٣) بيتر فرانس "اغتنصاب مصر"، ص ١٠٢.
- (٢٩٤) إميلي إدواردز: "رحلة الألف ميل"، ص ١٨٥.
- (٢٩٥) عماد عدلي: "شامبلون في مصر"، ص ٢٥٧، ٢٥٨.
- (٢٩٦) أحمد نجيب: "الأثر الجليل"، ص ٦٤.
- (٢٩٧) بيتر فرانس "اغتنصاب مصر"، ص ١٩٧، ١٩٨.
- (٢٩٨) علي مبارك: "الخطط التوفيقية" ج ٨، ص ١٤٧ وانظر كذلك: أحمد نجيب "الأثر الجليل"، ص ٣٣٥.
- (٢٩٩) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٧.
- (٣٠٠) محسن محمد: "مملكة مصر"، ص ٢٤.
- (٣٠١) بريان فاجان "نهب آثار وادي النيل"، ص ٣٧، ٣٨.
- (٣٠٢) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة مصر محمد علي، السيادة الداخلية"، ص ٤٣٢ من تقرير لقنصل الإنجليزى بورنج
- (٣٠٣) "رحلة الألف ميل" ص ٤٨٥، ٤٨٣ باختصار. وانظر كذلك بيتر فرانس: "اغتنصاب مصر"، ص ١٦٠.

- (٣٠٤) محمد فؤاد شكرى وآخرون: "بناء دولة مصر محمد على، السياسة الداخلية"، ص ٢٢٠.
- (٣٠٥) إميليا إدواردز "رحلة الألف ميل" ص ٧٨، ٧٩.
- (٣٠٦) المرجع السابق ص ٢٧٢، ٢٧٣.
- (٣٠٧) على مبارك "الخطط التوفيقية" ج ١٧ ص ٤٠.
- (٣٠٨) إميليا إدواردز "رحلة الألف ميل" ص ٣٨٨.
- (٣٠٩) إميليا إدواردز "رحلة الألف ميل"، ص ٣٢١.
- (٣١٠) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ٥، ص ١٧١.
- (٣١١) جان لاکوتير "شامبليون" ص ٥٦٦.
- (٣١٢) إميليا إدواردز "رحلة الألف ميل"، ص ٣٢٢، ٣٢١.
- (٣١٣) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ٥ ص ١٧٢.
- (٣١٤) لبنان دي بلقون "مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التي تمت بمصر" ص ٧٥.
- (٣١٥) عماد على "شامبليون في مصر" ص ٦٣.
- (٣١٦) الهام ذهبي "مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر" ٣٤٢.
- (٣١٧) عبد الوهاب علام: "الآثار المصرية والمهارة الجوفية" جريدة الأخبار عدد ١٧٧/٢٩ م. ٢٠٠٧ ص ٧.
- (٣١٨) المرجع السابق، نفس العدد والصفحة.
- (٣١٩) علماء الحملة الفرنسية: "وصف مصر" ج ٢١ ص ٣١٦.
- (٣٢٠) انظر بحثنا هذا، ص ٧٨، ٧٩.
- (٣٢١) مجلة "المقتطف" عدد نوفمبر ١٨٩٩ مجلد ٢٣ ص ٨٧٣.
- (٣٢٢) معافط مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ٤) مجموعة ٤٩ أشغال، قرير عن سقوط الأحد عشر عاموداً بهيكل الكرنك، وتزعزع ثلاثة أعمدة أخرى. بتاريخ ١٨٩٩/١٠/٢٨ م وجدير بالذكر أن إعادة نصب هذه الأعمدة الساقطة قد استغرقت عشرة أعوام كاملة تحت إشراف المهندس الفرنسي جورج ليجران-انظر: روبر سوليه "مصر ولع فرنسي" ص ٢٤٠، ٢٤١.
- (٣٢٣) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٢، ص ٢٨٢.
- (٣٢٤) انظر وصفاً للمعبد في ج ٢٣، ص ٨٥ - ١١١، ثم انظر لוחاته وشرحها في ج ١٨ لוחات رقم ٣٨ - ٢.
- (٣٢٥) عماد على: "شامبليون في مصر"، ص ١٦١.
- (٣٢٦) وصف مصر "ج ٢٣، ص ٨٥.
- (٣٢٧) عماد على: "شامبليون في مصر"، ص ٣٢١.
- (٣٢٨) كانت جزيرة فيلة في ذلك الوقت من أجمل جزر هذه المنطقة، بحيث تكثر فيها الأشجار الجميلة والورود، وتزدان بأعداد كبيرة من أشجار النخيل، وكان الناظر إليها يراها وكأنها بقعة من الجمال في مصر العليا، تزينها مجموعة من المعابد الفخمة المعمارية المصرية القديمة وتعتبر معابد فيلة بأثارها التي تمتد من عهد الفراعنة إلى عهود الإغريق والرومان سجلاً غنياً بالنصوص القديمة، ومثلاً رائماً للعمارة المصرية القديمة في صورتها الفرعونية وقد مسحتها من الطابع الإغريقي زادت جمالاً، ولذا كان يخشى عليها من أن تفرقها مياه الخزان الجديد فتؤثر على مظاهر الحياة الطبيعية على سطح هذه الجزيرة وتتلف أثارها الرائعة. انظر "جيمس بيكي" "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ٥ ص ٢٩ وانظر "شحاتة آدم" "فيلة" لؤلؤة مصر مجلة "المجلة" عدد رقم ٧٥ جماد الأول ١٣٨١ هـ - أكتوبر ١٩٦١ م ص ٦٤.
- (٣٢٩) انظر أعداد: ديسمبر ١٨٩١، مايو ١٨٩٤ م، يوليو ١٨٩٤ م، مايو ١٩٩٥ م، يوليو ١٩٩٨ م.
- (٣٣٠) مجلد (١٦) ص ١٦٨، ١٦٩.
- (٣٣١) مجلد (١٨)، ص ٥٤٤.
- (٣٣٢) مجلد (١٨) ص ٧١٩.
- (٣٣٣) ميخائيل شارديم: "الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث" تحقيق عبد الوهاب بكر طبعة دار الكتب المصرية الطبعة الأولى القاهرة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م الجزء الخامس المجلد الأول القسم الأول ص ٣٩٢ هذا ولم يلمس شارديم أن يسجل هو الآخر رايه في الموضوع فأبدى دهشته من قيام بالحكومة بإنفاق الاموال على حفظ وصيانة تلك الآثار مع اعتقاده انها لا تملك الآن لبناء ما يكفى لبناء الخزان.
- (٣٣٤) مجلة المقتطف عدد يناير ١٨٩٥ م مجلد ١٩ ج ١ ص ٧٩.

- (٣٣٥) عدد مايو ١٨٩٥م مجلد ١٩ ج١ ص٢٢٤، ٢٢٥.
- (٣٣٦) محافظ على الوزراء، نظارة الأشغال ميزانية محفظة رقم (٥ / د). ميزانية مجموعة ٤٩ اشغال مذكرة لمالية بتاريخ ٢ يونيو ١٩٠٧ بالموافقة على طلب نظارة الأشغال فتح اعتماد لها لاجل تلبية خزان اسوان
- (٣٣٧) شعاعة آدم " قبلة "، لؤلؤة مصر ص ٦٤ .
- (٣٣٨) عبد المنعم ابو بكر: -" بلاد النوبة تاريخها واثارها " مجلة " المجلة " عدد رمضان ١٣٧٨هـ / ابريل ١٩٥٩ م ، ص ٣٣.
- (٣٣٩) جيمس بيكي: " الآثار المصرية في وادي النيل " ج٥ ، ص ٢٩.
- (٣٤٠) المرجع السابق نفسه الجزء ، ، ص ٤٢٩، ٣٠.
- (٣٤١) علماء الحملة الفرنسية: " وصف مصر " ج٣ ، ص ٤٩.
- (٣٤٢) المصدر السابق، ج٢٠ ، ص ١٨٩
- (٣٤٣) عماد عدلي: " شامبلون في مصر " ، ص ٢٤٤.
- (٣٤٤) " الخطط التوقيفية " ج٨ ، ص ٣٠٣.
- (٣٤٥) " رحلة الألف ميل " ، ص ٤٢٦، ٤٢٧.
- (٣٤٦) جيمس بيكي: " الآثار المصرية في وادي النيل ج١ ، ص ١٢٥
- (٣٤٧) أحمد نجيب: " الاثر الجليل " ، ص ٣٤٠ وانظر كذلك: " جيمس بيكي: " الآثار المصرية في وادي النيل " ، ص ١٢٥
- (٣٤٨) رحلة الألف ميل ، ص ٣٨٣ .

الفصل الخامس

المؤسسات الخاصة بالآثار

في مصر في القرن التاسع عشر

لقد تعددت المؤسسات الأثرية العاملة في مجال البحث والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة ودراساتها في مصر في القرن التاسع عشر. وكان بعض هذه المؤسسات مصراً يعتمد في تمويله على الحكومة المصرية، وإن كان يقوم على إدارته موظفون أجانب، كما كان بعضها الآخر أجنبياً خالصاً سواء من ناحية الإدارة أو التمويل، وقد كانت هذه المؤسسات الأجنبية وهي تعمل في مجال خدمة الآثار المصرية مدفوعة إلى ذلك بدوافع مختلفة، إما بدافع العلم والبحث عن المعرفة، وإما بقصد تحقيق أغراض سياسية أو دينية أو غير ذلك - كما سيتضح لك بعد قليل - وسوف نبدأ بالحديث عن المؤسسات المصرية.

أولاً: المؤسسات الأثرية المصرية.

أ - المتاحف.

١ - المتحف المصري :

يعد المتحف المصري من أكبر متاحف الآثار في العالم، وهو أول متحف للآثار ظهر في منطقة الشرق الأوسط، وإنشاء هذا المتحف تاريخ طويل تبدأ قصته عندما أدرك محمد علي ما تمثله الآثار المصرية القديمة من ثروة عظيمة نتيجة للنتائج المشجعة التي حققها الأوروبيون الباحثون عن الآثار والمنقبون عنها، فأصدر أوامره في عام ١٨٣٥ م بإنشاء مصلحة للآثار تكون مهمتها التنقيب عن الآثار والعمل على صيانتها وحفظها ومنع تصديرها إلى الخارج، كما أمر بإنشاء متحف في مدرسة الألسن التي كانت تشغل جزءاً من سراي الدفتردار بالأنكرية، وقام بتكليف لينان بك بوضع تصميم " للمحل الذي ستوضع فيه الأنتيكات ^(١) "، ثم أمر بتعيين الشيخ رفاعة مديراً للمصلحة والمتحف. ولما كانت سراي الدفتردار ملكاً لرفاعة الطهطاوي فقد اشتهر هذا المتحف باسم " متحف الشيخ رفاعة " ووضع محمد علي تحت إمرة رفاعة عدداً من المفتشين جعل من اختصاصهم أن يحصلوا من المديريات على ما يعثر عليه من القطع الأثرية أثناء أخذ السمار، وأن يقوموا بإرسالها إلى متحف الأنكرية ^(٢).

وأثناء الشروع في بناء المتحف، وبعد الفراغ من جزء منه، بعث مختار بك ناظر مجلس الملكية إلى محمد على يستأذنه في نقل مائة وثمانين قطعة أثرية ما بين كبيرة وصغيرة محفوظة في خزانة الأمتعة " إلى الأماكن الجارية إنشاؤها في مدرسة المترجمين [الألسن] " فسمح له محمد على بذلك مؤكداً في نفس الوقت على ضرورة " مضاعفة الهمة والنشاط في إتمام المباني المقرر وضع هذه الآثار ونقلها إليها، والتنبيه مجدداً على المختصين ليقوموا بإتمام المنشآت عاجلاً^(٣٦) .

ولم تستمر هذه الصحوه طويلاً، فسرعان ما ثبت عدم قدرة هذه المصلحة على أداء عملها على نحو ملائم، خاصة بعد أن فشلت في منع يد السرقة والنهب من أن تمتد إلى الآثار، وبعد أن نقل الأوروبيون كل ما تصل إليه أيديهم من آثار إلى متاحف بلادهم، كما أن معظم القطع التي كانت ترسل إلى المتحف كانت تُفقد في الطريق، وما كان يصل إليه منها كانوا يعاملونها باعتبارها مغزونا يتخيرون منه الهدايا التي كان وإلى مصر يطلبها من حين لآخر ليقدمها إلى زواره من الأجانب الذين لم يستحقوا في نظره الفوز بهدية ذات قيمة مادية ثمينة^(٣٧) .

وفي عام ١٨٤٥ م اجتهد لبنان في حمل الحكومة المصرية على إصلاح المتحف وتوسيعه، ولكن الإهمال عاد مرة أخرى لضرب متحف رفاعة^(٣٨)، وفي عام ١٨٤٩ م تقرر نقل مدرسة الألسن من سراى الدفتردار بالتركية إلى مدرسة المبتديان بالناصرية، غير أنه لما كانت هذه المدرسة الأخيرة لا يوجد بها " محل موافق لوضع كتيبخانة الألسن فيه مع الأنتيكات الموجودة في المدرسة المذكورة فقد استُصوب أن يصير نقل الكتيبخانة مع الأنتيكات إلى مدرسة المهندسخانة^(٣٩) "، ثم نقلت الآثار مرة أخرى في عهد عباس إلى القلعة حيث وضعت في حجرة مظلمة تابعة لديوان المعارف، فقد نال الآثار المصرية في عهد عباس من الإهمال مثلما نال المظاهر العمرانية الأخرى، فأغفل أوامر جده بمنع الأوروبيين من الحفر والتنقيب عن الآثار إلا بأمر من الحكومة، وعدم نقل الآثار إلى الخارج إلا بموافقتها، ثم أمر عباس بإهداء مجموعة الآثار التي كانت محفوظة بالقلعة إلى الأمراء وكبراء الزائرين الأوروبيين بغير حساب، وعندما زار الأرشيدوق النمساوي ماكسيميليان Maxmillian مصر عام ١٨٥٥ م ورأى هذه الآثار طلب من سعيد أن يهديه شيئاً منها، ولما كان سعيد لا يقدر - هو الآخر - قيمتها الفنية أو التاريخية فقد وهبها كلها إياه، وسمح له بأن ينقلها معه إلى فينا، فنقلت إليها حيث كونت النواة الأولى للجنح المصري بالمتحف النمساوي الشهير^(٤٠) .

كان استيلاء الأرشيدوق ماكسيميليان على البقية الباقية في حوزة الحكومة المصرية من التحف والآثار ضربة قاصمة أغاظت الفرنسيين الذين كانوا يمتنون النفس بالحصول عليها لبلادهم، ولكن الفرصة سنحت لهم لتعويض فقدان هذه المجموعة في عام ١٨٥٧ م، فقد كان الأمير نابليون ابن عم الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث يشكل نوعاً من القلق للحكومة الفرنسية، فهو مستخف ناظم على وصول نابليون الثالث إلى السلطة، على أنه كان من حسن

حظ الإمبراطور الفرنسي أن الأمير كان يهوى السفر والترحال، وكان الإمبراطور على استعداد دائماً لأن يشجعه على السفر إلى الخارج بأية ذريعة، وحين أعرب الأمير عن اهتمامه بمصر ذُلت كل العقبات لتحقيق رغبته في القيام برحلة قد تبعده عن فرنسا خمسة أو ستة أشهر^(٨).

ولما كان من المعروف عن سعيد ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم : وثقته بالأجانب ثقة مطلقة حتى إنه لم يكن يقوى أن يخالف لهم رأياً أو يرد لهم طلباً ؛ ولما كان من المعروف أيضاً أنه كان يسعى في ذلك الوقت إلى أن يكفل تأييد فرنسا له ضد تركيا من ناحية وضد إنجلترا من ناحية أخرى ؛ فضلاً عن صداقته لدبلوماسي ووقوعه تحت تأثيره الشخصي فلا غرابة إذن في أن تلقى زيارة ابن عم الإمبراطور الفرنسي لمصر كل ترحيب^(٩).

وتدخل كل من نوبار وديليسيبس في المسألة، وأخبر ديليسبس سعيد باشا أن الأمير عاشق للأشياء الجميلة والتاريخ القديم، ومن ثم فإنه ينتظر أن يطوف به مواقع الآثار في صعيد مصر شخص قادر على أن يشرح له دلالاتها، وأن يغادر مصر بمجموعة من الآثار تليق به، وإن لم تكن تفوق المجموعة التي حصل عليها الأرشيديوق ماكسيمليان فلا أقل من أن تكون مماثلة لها، ونظراً لأن رصيد مصر من التحف المكتشفة فقد نفذ تماماً ؛ فيجب البدء فوراً بعمل حفائر واسعة النطاق على نفقة الدولة، على أن يختار للقيام بها أحد العلماء المتخصصين في علم الآثار، وتظل هذه الحفائر قائمة حتى العثور على تحف تليق بمقام الزائر الكبير، ثم يهال عليها الرمال مرة أخرى، ويكشف عنها ثانياً في حضور الأمير نابليون نفسه وكان الرجل الوحيد الذي يمكن أن يصحب الأمير في جولته، والذي يمتلك الخبرة لتكوين مجموعة جديدة بأن يأخذها الأمير، هو مارييت، فطلب سعيد باشا من ديليسبس أن يقنع مارييت بالعودة إلى مصر^(١٠).

رغب سعيد في أن تكون كل خطوة يخطوها الأمير الفرنسي في زيارته لجهات القطر المصري يثبت فيها من الآثار ما يسر عين الأمير ويملا قلبه غبطة وحبوراً، ولذلك أحضر مارييت في الحال إلى مصر، فوصلها في أكتوبر من عام ١٨٥٧ م في إرسالية مدتها ثمانية أشهر، وخصص له سعيد قارباً بخارياً وأصدر أوامره إلى المديرين بتوفير ما يلزم له من الأيدي العاملة، وفي هذه اللحظة كان هنري بروجش قد وصل إلى مصر فكلفه مارييت بالاستعداد للقيام معه بأعمال الحفر^(١١)، وبدأ مارييت كشوفه الأثرية التي استمرت قائمة على قدم وساق في الجزيرة ومقارة والعراية المدفونة ومدينة هابو وأسوان^(١٢)، وقد كُشف بالفعل عن مجموعة كبيرة من الآثار الهامة حتى إنه قد استخرج من مدينة هابو وجزيرة إلفنتين بأسوان وحدهما ما يقرب من خمسمائة وخمسين قطعة أثرية^(١٣)، بل إن مارييت لم يقتصر على جمع الآثار من الحفائر الأثرية التي كان يجريها وإنما قام إلى جانب ذلك بشراء مجموعات أثرية أخرى من تجار الآثار بهدف مضاعفة المجموعة الأثرية المهداة إلى الأمير الفرنسي، فقد صدر أمر المعية السنية في ٢٩ شوال ١٢٧٦ هـ (٢٠ مايو ١٨٦٠ م) "

بالموافقة على قيد مبلغ ١٠ - ٤٨١٠٩ جنيه بحسابات الخواجة رزنز وإخوته، وهو قيمة ما صرف للخواجة أوجست مارت مأمور الأنتيقات ثمن ماصرف من الأنتيقات للبرنس نابليون^(١٤)، وجدير بالذكر أن جميع هذه النفقات كانت "تسد من جانب الميرى"^(١٥).

أخذ مارت ينقب وينقب سعياً وراء الآثار التي تليق بمقام الأمير نابليون وتصلح كهدية له، ثم وردت فجأة أبناء عن اعتذار الأمير عن رحلته إلى مصر وإنهاء الرحلة، وكانت صدمة قاسية لسعيد وكذلك لمارت الذي أصبح لزاماً عليه أن يوقف نشاطه في البحث عن الآثار، بل كان من المفروض عليه أيضاً أن يعود إلى وظيفته في متحف اللوفر، فقد وصله خطاب من المتحف الشهير يبلغه بأن مهمته مادامت قد انتهت، وإذا لم يعد مطلوباً منه الإعداد للزيارة الملكية فقد ألغيت أجازته وعليه أن يعود فوراً إلى المتحف^(١٦).

غير أن مارت كان قد رسم لنفسه خطة البقاء في مصر ليبني مستقبله العلمي بها، وقد اتخذ فعلاً الخطوات الأولى المؤدية إلى ذلك، فقد بعث مارت إلى سكرتير الأمير نابليون الخاص باقتراح يسمح لمارت بالبقاء في مصر لفترة أطول، ويقضى هذا الاقتراح بأنه لما كان تطلع الأمير لزيارة مصر ناشئاً عن حبه للأشياء الجميلة واهتمامه بتاريخ الإنسان الأول أفلا يود الأمير أن يمتلك مجموعة من أجمل آثار البلاد كذكرى لرحلة لم تتم وإن تعلقت بها كل هذه الآمال المشرقة ؟ ورد السكرتير الخاص معرباً عن سرور صاحب السمو الملكي باقتراح مارت، وطلب قائمة بالمجوهرات والتماثيل الصغيرة وعينات الفن المصري التي يمكن - دون أن يثير ذلك استهجاناً - إضافتها إلى مجموعة الأمير نابليون الباهرة أصلاً، وذلك مع إيضاحات عن كيفية الكشف عنها والعثور عليها، كما يفضل كذلك ألا تكون نفاسة هذه المجموعة الأثرية المختارة من ناحية قيمتها العلمية، بل إن الأمير يرغب في بعض مجوهرات وحلى وتماثيل صغيرة^(١٧).

اختار مارت ما يراه موافقاً لذوق الأمير الفرنسي، وقام بإرساله إليه مع اقتراح بخدمة صغيرة قد يود الأمير تقديمها بشأن الوصاية على مثل هذه الكنوز في مصر في المستقبل، ورد الأمير برسالة رقيقة إلى مارت يشكره فيها على مشاعره الطيبة وقيامه بإرسال الهدية الثمينة، ثم أضاف : " إن الحكومة الفرنسية يسرها تبليغ والى مصر أنه إذا فكر في طلب أحد علماء الآثار الفرنسيين ليشرف على إنشاء متحف للآثار المصرية فهي ولاشك لن تختار شخصاً لهذه المهمة غيرك"^(١٨).

كان هذا هو كل ما يأمله مارت حتى إنه أسرع بمجرد وصول هذه الرسالة إليه وعرضها على سعيد، ولم يكتف مارت بذلك بل إنه أخذ يقنع سعيداً بضرورة إنشاء متحف للآثار المصرية ومصلحة للحفاظ على تراث مصر القديم، واستعان على ذلك بنفوذ ديليسبس حتى استطاع في آخر الأمر أن ينجح في مسعاه، فأصدر سعيد في الأول من يونيو عام ١٨٥٨ م أمراً بتعيين مارت في

وظيفة " مأمور أشغال العاديات " وبدأ ماريت بتشيد متحف للآثار على وجه السرعة لينقل إليه الآثار التي تراكمت في مختلف المناطق الأثرية على طول البلاد نتيجة لحفائره الواسعة، ولما لم يكن يستطيع إقناع سعيد بتأسيس متحف يليق بهذا الغرض فقد اختار مكاناً قصبياً بعيداً عن مؤامرات حاسديه ودسائس الحاقدين عليه ومكاندهم، حيث كان يفصله عن القاهرة طريق سيئ طوله كيلو مترين يمتد وسط المقابر والأنقاض، ويقع هذا المكان في ضاحية بولاق على الضفة الشرقية للنيل حيث كانت تقوم مخازن مهملة ومهجورة كانت مملوكة لمصلحة النقل القديمة أو شركة الدلتا للملاحة التي كانت تعمل بين القاهرة والإسكندرية، ثم توقفت بعد تشغيل السكك الحديدية، وقد تنازلت له الشركة عن هذه المكاتب بقصد استعمالها كمخازن للآثار، توضع فيها المجموعات العالية أو التي سيتم اكتشافها في المستقبل^(١١).

وفي عام ١٨٦١ م حدث أن طلب سعيد باشا من ماريت أن يرتب له زيارة رسمية لفرنسا كان سعيد يأمل في أن يتمكن من خلالها من عقد صفقة للحصول على قرض مالى، ونجح ماريت في مساعده، ففي يناير ١٨٦٢ م حمل ماريت دعوة رسمية بخط الإمبراطور الفرنسي لسعيد باشا، وبلغ من انفعال سعيد بهذا الشرف أنه قبل الرسول بحرارة وعرض أن يحقق له أغلى أمانيه، ورد ماريت بأن كل ما يطلبه هو إنهاء بناء متحفه الجديد، فأصدر سعيد أوامره بتنفيذ ذلك^(١٢)، وسافر ماريت في معية سعيد عند زيارته لباريس، وزارا في طريق عودتهما مدينة بولونى سان - مير مسقط رأس ماريت، وكان الاستقبال من الحرارة والروعة إلى حد دفع سعيد لأن ينعم على ماريت بلقب " بك " ويمنحه معاشاً ثابتاً، كما صرح سعيد بأنه مسئول بصفة شخصية عن تعليم أولاد ماريت^(١٣).

غير أن سعيد توفي فجأة بعد عدة أشهر من عودته إلى مصر، وتعرض وضع ماريت في مصر للخطر، ولحسن حظ ماريت أن إسماعيل الذى خلف سعيداً كان حريصاً على التحديث وعلى إقامة علاقات طيبة مع الدول الأوروبية، وهكذا أخرج ماريت أن شيئاً لن يتغير، وأن الأموال ستؤفر لضمان استمرار العمل في مصلحة الآثار المصرية، بل وأمره إسماعيل بالشروع في بناء متحف جديد بجوار حديقة الأثرية التي تقع في وسط القاهرة ليسهل تردد الناس عليه، على أن يضم هذا المتحف إلى جانب الآثار المصرية القديمة متحفاً للفن اليوناني والروماني وآخر للفن العربي ومعهداً علمياً ومكتبة^(١٤)، فمُر ماريت بذلك، ولكنه لم يكد يشرع في ذلك حتى ورد على إسماعيل نبأ من الأستانة مفاده أن السلطان عبدالعزيز بن محمود عازم على زيارة القطر المصرى قريباً، فانشغل إسماعيل عن بناء المتحف بالإعداد لاستقبال السلطان، وأمر إسماعيل بأن توضع الآثار المصرية في مكان ملائم ليتمكن السلطان من مشاهدتها ريثما يتيسر بناء المتحف المنشود في فرصة أخرى^(١٥)، ومن ثم فقد قاموا بتطوير متحف بولاق، واقتنحه الخديوى في حفل

رسمى في الثامن عشر من أكتوبر عام ١٨٦٣ م بعد أن واجه ماريت صعوبات كبيرة في إقناع إسماعيل بافتتاح المتحف، إذ كان إسماعيل لا يتحمس كثيراً لدخول المتحف ومشاهدة المومياوات، لأن المومياوات - أياً كانت قيمتها التاريخية - ليست في نهاية الأمر سوى جنث، ولم يكن إسماعيل يحس بالراحة في حضورها، ومن ثم فقد حرص إسماعيل على ألا يجتاز عتبة المتحف الداخلية، وأصبح من عاداته أن يصطحب كبار الضيوف حتى الأبواب، ثم ينتظرهم في الفناء بينما ماريت يطوف بهم في أرجاء المبنى^(٢٦).

وفي أول نوفمبر عام ١٨٦٣ م (٥ جماد الأول ١٢٨٠ هـ) تم افتتاح المتحف للجمهور بعد أن تكلف إنشاؤه خمسة وخمسين ألفاً وثلاثمائة وخمسة وسبعين فرنكاً^(٢٧).

بذل ماريت جهداً خارقاً في تحويل المخازن القديمة المهملّة إلى مرادق فرعونية جميلة، وفي الهداية كان المتحف يتكون من فناء خارجي يؤدي مدخله إلى دهليز صغير يتبعه دهليز كبير يوصل إلى ثلاث قاعات متوسطة الاتساع^(٢٨)، ارتفع عددها فيما بعد إلى أربعة^(٢٩)، ثم إلى عشرة^(٣٠) بعد أن ضمت إلى المتحف " الشونة الأميرية المعدة لوضع العربات وغيرها من الأشياء المتعلقة في الأصل بمصلحة المرور نظراً لعدم كفاية محلات الأنتيكخانة لوضع الآثار العتيقة بها "^(٣١) وذلك بناء على طلب من ماريت بك، وفي عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) تم بناء طابق ثانٍ للمتحف تكلف ثلاثة وستين ألفاً وخمسمائة وثمانية وثلاثين فرنكاً^(٣٢).

هذا وقد احتوى متحف بولاق على ستة آلاف وخمسمائة قطعة أثرية ناتجة عن الحفائر الأثرية التي قام بها ماريت^(٣٣)، وكذلك مما قام بشرائه من هواة وتجار الآثار مثلما حدث عندما قام بشراء مجموعة أثرية من قنصل النمسا العام المستر هوير، وذلك في سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٥٩ م)^(٣٤)، وقد خرج أول دليل لشرح الآثار الموجودة في متحف بولاق باللغة الفرنسية في عام ١٨٦٤ م، ويقع هذا الدليل الذي وضعه ماريت في مجلد واحد مختصر يحتوى على ثلاثمائة وخمسين صفحة في قطع الثمن، تتضمن وصفاً لتسعمائة وست وثمانين قطعة أثرية تشمل توابيت وتمائيل ومسلات صغيرة وموائد قربان وأشياء أخرى متنوعة^(٣٥)، وقد ترجم هذا الدليل بعنوان " فرجة المتفرج على الأنتيقة خانة الخديوية الكائنة ببولاق مصر المحمية، وصف نخبة الآثار القديمة المصرية الموجودة في خزينة التحف العلمية المصرية "^(٣٦) وطبع بالقاهرة عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) في مائة وست وسبعين صفحة من القطع الصغير، أما عدد التحف الموصوفة فيه فقد بلغت مائة وسبعاً وعشرين قطعة أثرية بعضها مفرد وبعضها الآخر يضم عدة قطع ذات صلة معينة بحيث توصف جميعها جملة واحدة، ويقول مترجمه أبو السعود أفندي إن الذي دفعه للإقدام على ترجمة هذا الدليل : " تفقيه أبناء مصر، وتنبه أهل هذا العصر، إلى ما كانت عليه أحوال آبائهم السالفين، ولماذا صارت إليه أحوال أبنائهم المستأنفين، حتى يقتنوا في اجتناب

الردائل بقدرتهم، ويهتدوا في اكتساب الفضائل بأسوتهم^(٣٥) وأكد أبو السعود أن معظم الآثار الموجودة بالمتحف هي من نتائج الحفائر الأثرية التي أجريت في مناطق : طيبة، والعرابة المدفونة، ومنف، ومدينة صان، بل إن بعضها قد أحضر من جبل برقل ببلاد الحبشة حيث كان ماريت قد أجرى عدة حفائر هناك أسفرت عن العثور على بعض الآثار الهامة^(٣٦).

ويفهم من هذا الدليل أن ترتيب قاعات العرض في متحف بولاق في ذلك الوقت كان على النحو التالي :

أ - الجوش أو فناء المتحف : وقد وضعت به بعض آثار قديمة لابلحقها الضرر إذا بقيت معرضة للشمس أو الهواء أو تلك التي تعذر إدخالها إلى المتحف لعظم حجمها^(٣٧).

ب - الدهليز الصغير : ووضعت فيه بعض آثار كان يصعب ترتيبها في مكان آخر لعدم وجود رابطة تجمع بينها^(٣٨).

ج - الدهليز الكبير : وهو مدخل المتحف، وقد وضعت فيه بعض الآثار الثقيلة الوزن، الكبيرة الحجم^(٣٩).

د - قاعة الوسط : وهي القاعة الرئيسية، وقد وضع فيها " من الآثار العديدة والمواد القديمة المفيدة مالا يد معه من إيقاف النظر واحتباس الفكر " ^(٤٠).

هـ - القاعة البحرية : وتضم آثاراً كان المصريون القدماء يستخدمونها في حياتهم اليومية^(٤١).

و - القاعة القبلية : وجميع الأشياء المعروضة في هذه القاعة " تختص بمناقب أناس من أعيان الرجال المصريين المستحقين للتسجيل في دفاتر التواريخ " ^(٤٢).

ز - القاعة الغربية : وتضم آثاراً متنوعة من تماثيل وموميאות وأواني فخارية وأسلحة وغير ذلك^(٤٣).

ح - القاعة الشرقية : وتضم آثاراً متنوعة كالسابقة^(٤٤).

ط - قاعة الحلى والمجوهرات : وهي أكثر هذه القاعات أهمية وأعلاها قيمة، وقد وضع في هذه القاعة جميع المصنوعات والمشغولات الذهبية التي تم العثور عليها أثناء الحفائر الأثرية التي قام بها ماريت لصالح المتحف^(٤٥)، وكان بلان قد ذكر عن هذه القاعة أنها تمثل في حد ذاتها متحفاً متكاملًا^(٤٦).

وبالإضافة إلى هذا الدليل وضع ماريت في عام ١٨٧١ م كتاباً رائعاً لبعض الآثار الموجودة في متحف بولاق^(٤٧)، كما نشر في عام ١٨٧٢ م كتاباً بعنوان : " نشرة عن الآثار الهامة في متحف بولاق " والذي أعيد طبعه عدة مرات، وخلال الفترة ما بين عامي ١٨٧٠، ١٨٧٦ م أصدر ماريت ثلاث مجلدات من عمله العظيم " النقوش المصرية بمتحف بولاق " كما وضع ماسبيرو في عام

١٨٨٣ م دليله الشهير بعنوان : " دليل الزائر لمتحف بولاق Guide du visiteur du musée de Boulac " والذي تكرر طبعه بزيادة ما اكتشف من الآثار سنة بعد سنة. وكانت آخر طبعة له عام ١٩١٤ م. والمتحف يومئذٍ بقصر النيل. وفي هذه الطبعة مقدمة من أنفـس ما كتب عن إنشاء المتحف وسبب تأسيسه والأدوار التي تقلب عليها حتى وصل إلى ما كان عليه^(٤٨).

كذلك كان المسئولون في متحف بولاق يفكرون في إنشاء حولية للمتحف المصري، وقد ظهرت هذه الفكرة عام ١٨٨٧ م^(٤٩)، ولكنها لم تخرج إلى حيز التنفيذ الفعلي إلا في عام ١٩٠٠ م عندما صدرت حوليات مصلحة الآثار المصرية^(٥٠).

هذا ولقد كان في نية إسماعيل - بالفعل - أن يقوم ببناء متحف جديد للآثار القديمة بدلاً من متحف بولاق الذي أخذ يضيق بما فيه من الآثار نتيجة لتزايد الاكتشافات الأثرية بصورة مستمرة. ويبدو أن النية كانت تتجه إلى إقامة المتحف الجديد في منطقة الإسماعيلية الحديثة التخطيط^(٥١)، فوثائق ديوان الأشغال تشير إلى قطعة أرض " تعلّق الميرى [من أملاكه] وكان قيل على أنه سابق يصير بناء أنتيكخانة بها، ولأن لم يصدر فيها صنف أمر، وهي من ضمن أراضي الإسماعيلية"^(٥٢) وفي مايو عام ١٨٧٢ م خطت الإدارة المصرية خطوات أبعد على طريق إنشاء المتحف الجديد. فقد طلب ماريت في الخامس من هذا الشهر إجراء تعديلات طفيفة بمتحف بولاق، لأجل " حفظ وصيانة الآثار الموجودة بالأنتيكخانة لحين نهو الأنتيكخانة الجديدة"^(٥٣). وبعد نحو عام بدا أن الإدارة المصرية قد شرعت بالفعل في بناء المتحف حسبما تؤكد الوثائق. ففي هذا الوقت " قدم الخواجة دينير بوشار لاتدا لديوان الأشغال إفادة في ٢٣ أغسطس ١٨٧٣ م بالتشكى والطمع في حق كل من الخواجة منتوريل مقاول أساسات الأنتيكخانة المستجدة بالجزيرة، والخواجة نوف المعماري المعين من طرف الدائرة لإدارة ملاحظة الأشغال بتلك الجهة بقوله إنهم أغروا الأنفار الصناعية أولاد العرب المستخدمين بورشة الأنتيكخانة المذكورة على ضربه في يوم ٢٤ يوليو ١٨٧٣ م"^(٥٤) " وبعد عدة شهور أخرى كان بناء المتحف الجديد قد أوشك على الانتهاء حتى إن وكيل المتحف إميل بروجش طلب من ديوان الأشغال صرف النظر عن استكمال بعض تعديلات بسيطة كانت إدارة متحف بولاق تنوى إجراؤها بالمتحف المذكور بدعوى " أنه لا لزوم للعملية الآن حيث الأنتيكخانة مزعم مقلها إلى البر الغربي"^(٥٥).

على أنه لم يحدث أن نقل المتحف إلى البر الغربي خلال الخمس عشرة سنة التالية، ولا يعرف على وجه التأكيد ماذا فعلت الإدارة المصرية بالمبنى الذي كان مخصصاً للمتحف، والذي كان قد أوشك على الانتهاء في ذلك الوقت، وأغلب الظن أن الحكومة قد قامت باستغلاله في أغراض أخرى ملائمة بخلاف نقل الأنتيكخانة إليه كما كان مقرراً. وربما كان ذلك بدافع الضرورة الملحة، المهم

لدينا أن متحف بولاق قد استمر يؤدي رسالته في حفظ الآثار القديمة المكتشفة، وعرض ما يستحق العرض منها لمدة تزيد على عقد ونصف عقد آخرين.

والحق أنه قد كانت هناك ضرورة لبناء متحف بديل لمتحف بولاق، فقد كثرت اكتشافات ماريت الأثرية، وتراكم ما عثر عليه من كنوز، حتى إن مجموعة المتحف قد تضاعفت عدة مرات في الفترة ما بين عامي ١٨٥٨، ١٨٨١ م مما اضطر ماريت إلى إبقاء كثير من الآثار التي اكتشفها في أماكنها لضيق المكان، هذا فضلاً عن عدم صلاحية معظم قاعاته للعرض، ومن ثم فقد أصبحت فكرة إنشاء متحف جديد فكرة ملحة بصورة أكيدة حتى يمكن عرض كل مقتنيات المتحف بشكل يتناسب مع أهميتها الأثرية والفنية، ولتكون بمأمن من الأخطار التي تحيط بمتحف بولاق، فقد كانت هناك خشية على موجوداته من حدوث حرائق من جراء ما يحيط بالمكان من شون الغلال، كما كانت بجواره مخازن كبيرة مملوءة بأدوات البناء من خشب وجير ومركبات كيماوية يتصاعد منها الدخان، فكانت تنذر بالحريق من جهة اليمين، كما كان النيل يهدده بالخطر من جهة الشمال، فقد كانت موجودات المتحف في خطر دائم من ارتفاع النيل وجرفه إياها مع البناء الذي هي فيه، مثلما حدث في عام ١٨٧٨ م عندما تسبب ارتفاع النيل ارتفاعاً غير عادي أثناء الفيضان في إغراق صالات العرض بمتحف بولاق، كما ألحق بالمتحف أضراراً جسيمة، وفي محاولة لإنقاذ الآثار تم تخزينها لحين الانتهاء من ترميم وإصلاح المتحف، وقد تكلف ذلك مبالغ باهظة، إذ أنفق على ترميم إحدى الغرف التي حدث هبوط بأرضيتها مبلغ ٢٧، ٢٨٨٢ قرشاً^(٥٦)، بل إن المسؤولين في نظارة الأشغال العمومية قد اقترحوا في وقتها إصلاح أحد المباني التابعة لمدرسة البنات بالسيوفية، ونقل الآثار الموجودة بمتحف بولاق إليه^(٥٧)، ويبدو أن هذا الاقتراح لم يقنع مسئول متحف بولاق فاستمرت أعمال الترميم بالمتحف، وأعيد تأسيسه من جديد ليفتح مرة أخرى على يد محمد توفيق عام ١٨٨٠ م^(٥٨).

ورغم ذلك فقد ظل الخطر ماثلاً، ففي تقريرها الذي رفعته إلى مجلس النظارة في ٧ يوليو ١٨٨٥ م ذكرت نظارة الأشغال أن المتبقي لمجرى نهر النيل من جبل السلسة إلى البحر المتوسط يرى أن أضيق مجرى له يقع خلف كوبرى قصر النيل وتحت مدينة بولاق، فإن عرضه عند الكوبرى المذكور يبلغ أربعمئة وستة أمتار فقط، بل إنه ليقل عن ذلك أمام بولاق حتى يبلغ مائتين وأربعين متراً، وهذا ناشئ عن اندفاع سرائى الجزيرة في مجرى النهر، وذكرت النظارة أن مهندسها قد قاموا بسبر غور مجرى نهر النيل في العام السابق أثناء الفيضان فوجدوه أن عمقه ينقص عن ثمانية عشر متراً في المسافة الواقعة بين قشلاق قصر النيل والجزء الشمالى المواجه لبولاق، وعلى ذلك يكون متحف بولاق وما يحتويه من التحف الثمينة، وعدد عظيم من منازل بولاق راسية على شفا جرف خطر، أى على أرض رخوة من طى النيل وليس على أساس صخرى متين، وهو ما

يجعل هذه المنشآت عرضة لخطر كبير، بحيث إن مياه النيل لو ارتفعت ارتفاعاً كبيراً مثلما حدث في عام ١٨٧٨ م لأطاحت بكافة المباني الواقعة على ضفة النيل الشرقية ومن بينها متحف بولاق، وأهابت نظارة الأشغال بأعضاء مجلس النظار أن يقوموا بعرض هذه المسألة على بساط البحث طالبة سرعة اتخاذ ما يلزم من التدابير لتفادي وقوع هذه الكارثة^(٥١).

أصبح لا مفر إذن من الاستغناء عن متحف بولاق، وقرّر قرار الإدارة المصرية أخيراً على نقل الآثار الموجودة به إلى سراى الخديوى إسماعيل بالجيزة، وتقع هذه السراى على الضفة الغربية للنيل في مواجهة جزيرة الروضة، وقد كان من المقرر أولاً أن تكون هذه السراى ملحقة بمتحف بولاق، فقد ذكرت نظارة الأشغال في مذكرة رفعتها إلى مجلس النظار بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٨٨ م " أن متحف بولاق غاص الآن بالآنتيقات، ولامحل فيه مطلقاً لكثير من الآنتيقات الأخرى ذات القيمة والأهمية للعلم، ولذلك استدعت الحال إلى وضعها في أشوان لا تليق لذلك، حتى إن بعض تلك الآنتيقات قد لحق بها الفساد والتشوه " ولما رأت النظارة أن الآثار الموجودة في مخازن متحف بولاق كثيرة جداً بحيث يمكن أن يتألف منها وحدها متحف متكامل يكون ملحقة بمتحف بولاق في حالة ما إذا تم نقل هذه الآثار من مخازن المتحف ووضعها وترتيبها في مكان ملائم، فقد اقترحت النظارة أن تنقل تلك الآثار إلى سراى الجيزة ويؤلف منها الملحق المذكور^(٥٢)، على أنه يبدو أن الإدارة المصرية قد عُنّ لها بعد ذلك أن تنقل متحف بولاق بكامله إلى سراى الجيزة بعد ما لمسته بنفسها من ضيق جنبات متحف بولاق بآثاره حتى لم يبق فيه موضع لقدم، وكذلك لباقي الأسباب الأخرى التي تحدثنا عنها منذ قليل، فبدأ النقل في آثار متحف بولاق إلى سراى إسماعيل بالجيزة اعتباراً من عام ١٨٨٩ م تحت إشراف جريبو مدير مصلحة الآثار وقتئذٍ، وقد تكلف نقل الآثار وعرضها في المتحف الجديد مبلغ تسعة آلاف جنيه^(٥٣)، وافتتح هذا المتحف بحضرة الخديوى محمد توفيق في يناير من عام ١٨٩٠ م، ويبدو أن هذا الافتتاح قد تم بسرعة حتى إن جريبو لم يستطع أن يعرض التحف إلا في خمس وأربعين قاعة فقط من قاعاته التي بلغت إحدى وتسعين قاعة والتي كان يحويها القصر المنيف، أما القاعات الأخرى فقد تمكن دى مورجان الذي خلف جريبو من أن يملأها بالآثار ويقوم بترتيبها وتنسيقها في فترة وجيزة^(٥٤)، وافتتحت تلك القاعات الجديدة بحضور الخديوى عباس حلمى في ٢٠ نوفمبر ١٨٩٢ م^(٥٥).

كان متحف الجيزة يتكون من طابقين خصص الأول منهما لعرض الآثار الكبيرة الحجم الثقيلة الوزن، ورتبت فيه الآثار بحسب فترتها الزمنية، بينما خصص الطابق الثانى لعرض الآثار الصغيرة، ورتبت فيه الآثار بحسب طبيعتها لأنه كان يتعذر - إن لم يكن يستحيل - ترتيب الأشياء الصغيرة بحسب تواريخها لعدم معرفتها بالضبط، ولأن ذلك كان يستلزم وضع آثار ضخمة بجانب آثار صغيرة لكونهما من عصر واحد أو عليهما اسم ملك واحد، ومن ثم فقد كان لامناص

من ترتيب هذه الآثار ترتيباً موضوعياً، وقد خصصت ثلاث عشرة قاعة من قاعات المتحف لعرض آثار الدولة المصرية القديمة، كما خصصت ست قاعات لآثار الدولة الوسطى، وسبع عشرة قاعة لآثار الدولة المصرية الحديثة، هذا بالإضافة إلى قاعة للآثار اليونانية والرومانية، وقاعتين للآثار القبطية، وقاعة للتوابيت، وقاعة أخرى لعرض آثار غير مصرية ولكن عثر عليها في مصر، وجدير بالذكر أن الآثار اليونانية والرومانية والقبطية لم تعرض في المتحف إلا بقصد إظهار عظمة الآثار المصرية إلى جانبها ولأنه قد أنشئ متحف خاص بها في مدينة الإسكندرية منذ عام ١٨٩٢ م^(٩٤).

ورغم بعد متحف الجيزة عن مركز العاصمة إلا أن الإقبال عليه كان شديداً، فتذكر صحيفة "الأهرام" القاهرية أن عدد الزائرين لمتحف الجيزة قد بلغ أحد أيام شهر يناير من عام ١٨٩٠ م (الأربعاء ٢٢) بلغ ما يقرب من ثلاثمائة شخص نصفهم من المصريين، وأعطت الصحيفة متوسطاً مقداره ستون زائراً لرواد المتحف يومياً^(٩٥)، والذي كان يفتح أبوابه لاستقبال الزائرين كل يوم من الساعة التاسعة والنصف صباحاً حتى الرابعة والنصف ظهراً عدا يوم الاثنين من كل أسبوع^(٩٦).

غير أن متحف الجيزة كان يحتاج باستمرار إلى الكثير من أعمال التعديل والترميم، كما إنه لم يكن صالحاً كل الصلاحية للوفاء بالأغراض التي خصص من أجلها، فقد كانت أكثر أجزائه آيلة للسقوط، كما أن قاعاته قد اكتظت بالآثار المكتشفة حتى ضاقت بها، هذا فضلاً عن رطوبتها وسوء تقسيمها وبعدها عن مركز العاصمة، مع أن متاحف الآثار ومدارس العلم يجب أن تكون قريبة من قاصديها، وبالإضافة إلى ذلك فإن في جدرانها وسقفها كثيراً من الخشب الداخل في بنائها وهذا يجعلها عرضة لخطر الحريق " فإذا اضطربت النار في غرفة منها امتدت إلى بقية الغرف بأسرع من لمح البصر، ولا تمضي ساعات كثيرة حتى تسمى الدار وما فيها من الآثار رماداً وأنقاضاً، وتضمحل تلك الكنوز الثمينة التي صبرت على أنياب الزمان وتقلبات الأيام ألوفاً من الأعوام"^(٩٧).

وقد كاد ذلك أن يحدث بالفعل في إحدى المرات لولا يقظة القائمين على حراسة المتحف^(٩٨)، وهذا ما دفع نظارة الأشغال إلى إعداد ثلاث مقاييسات مقترحة لتأمين متحف الجيزة ضد الحريق، وكانت تكلفة المقاييس الأولى اثنين وأربعين ألف جنيه، وتكلفة المقاييس الثانية أربعة وخمسين ألف جنيه، وتكلفة المقاييس الثالثة ستين ألف جنيه^(٩٩)، وقد اختار منها مجلس النظارة هذه المقاييس الأخيرة ذات الستين ألف جنيه تكلفة، وهو الأمر الذي لم يعجب دى مورجان مدير عموم مصلحة الآثار المصرية وقتئذٍ بدعوى " أن المجاميع الأثرية المصرية لا تكون قط بالتعديل المذكور معروضة في الأنتيكخانة بكيفية مناسبة كما يجب " واقترح دى مورجان - وأيده في ذلك نظارة الأشغال - إنشاء متحف جديد بدلاً من تعديل وترميم المبني الحالي، ورأى دى مورجان أن هذا أفضل من إنفاق مبالغ جسيمة على إصلاح متحف الجيزة^(١٠٠).

واستجابة لمذكرة دى مورجان وافق مجلس النظار في جلسته المنعقدة بتاريخ ٦ مايو ١٨٩٤ م على بناء متحف جديد يليق فعلاً بمحتويات متحف الجزيرة الرائعة^(٧١)، واستطاعت الحكومة أن تحصل آنذاك على الموافقة بأخذ المال اللازم لذلك من صندوق الدين العمومي، وتم الإعلان عن ذلك في مسابقة دولية لوضع أفضل تصميم لبناء المتحف الجديد الذي حدد موقعه في ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير حالياً) فيما بين النيل وقشلاق قصر النيل، واشترط أن يضع المهندس المعماري في اعتباره عند التصميم أن المتحف الجديد يجب أن يحتوي على مساحة ٥٤٠٠ متراً مربعاً للعرض وقاعات التخزين في الدور الأرضي، ومساحة ٣٥٠٠ متراً مربعاً للعرض وقاعات التخزين في الدور الأول، بالإضافة إلى مساحات للمكاتب، وثلاث قاعات مساحة كل منها ١٥٠ متراً مربعاً، واحدة للعملة، والثانية مكتبة، والثالثة بيتاً للهدايا، على أن يضاف في التخطيط المقدم مساحة تسمح بتوسيع المتحف فيما بعد^(٧٢)، واشترطت الحكومة أن تقدم تلك التصميمات في مدة زمنية لا تتجاوز ستة أشهر من تاريخ نشر الإعلان، وألا تزيد نفقات إنشاء المتحف على مائة وثلاثين ألف جنيه، وسمحت الحكومة للمهندسين المعماريين المصريين بالاشتراك في المسابقة^(٧٣)، كما رصدت جوائز قيمتها ألف جنيه للتصميمات الخمس الأولى الفائزة في المسابقة^(٧٤).

وقد تقدم للمسابقة سبعة وثمانون تصميماً استُبعد أربعة عشر تصميماً منهم منذ البداية لأن نفقات كل منها تزيد على مائة وثلاثين ألف جنيه فيما لو بُني المتحف على نظامها، أما التصميمات الباقية فقد كان من بينها ستة عشر تصميماً من كل من فرنسا وإنجلترا، وثلاثة وعشرون تصميماً من إيطاليا، وستة من النمسا / المجر، واثنان من كل من مصر وألمانيا والولايات المتحدة، وواحد من كل من اليونان ومالطة وسوريا^(٧٥)، وبعد فحص التصميمات المتقدمة قررت اللجنة المُحكِّمة برئاسة ناظر الأشغال العمومية إعطاء جائزة قدرها مائتان وخمسة وعشرون جنيهاً لأربعة تصميمات، وإعطاء مائة جنيه لتصميم آخر، وإعطاء شهادة شرف لأربعة تصميمات أخرى^(٧٦)، وجدير بالذكر أن التصميمات الأربع الفائزة تقدم بها مهندسون معماريون فرنسيون، كان من بينهم مارسيل دورينون Marcel Dourgnon الذي وقع الاختيار على تصميمه بعد أن أدخلت عليه عدة تعديلات طلبها دى مورجان^(٧٧).

وفي أول أبريل ١٨٩٧ م (٢٩ شوال ١٣١٣ هـ) احتُفل بوضع حجر الأساس لبناء المتحف الجديد الذي صار يعرف بمتحف قصر النيل^(٧٨)، وقد وقع الاحتفال بحضور الخديوى عباس حلمي الثاني الذي خاطبه فخري باشا ناظر الأشغال العمومية بقوله: "إن ملوك مصر الذين أُتلفوا بعد رقادهم مدة أربعين قرناً، وأُخرجوا من مدائنهم المحفورة في الجرانيت والأحجار الصلدة لُعرضوا تارة على ضفاف النيل في غرفة رطبة تنفتت فيها جثثهم المصبرة [المحنطة]، وتارة في

قصر من الخشب معرضة لخطر الحريق، سيشتد لهم قريباً مكان مأمون كافل لحفظ بقاياهم الثمينة، فعلم الآثار المصرية وعلم مصر الحديثة كلاهما يشكران سموكم على ذلك، ويذكران لكم هذا الجميل"، فأجابه الخديوى قائلاً: "... لاريب أن هذا الأثر الذى نقوم بتشجيده الآن يخفف عنا كثيراً من التعب مدة قرن كامل، وما ذلك إلا مهمة أولئك الذين أفسحوا لنا الطريق ورسموا لنا هذه الخطة التى أوّل أن تواصل مصر السير فيها" (٧٩).

عُرِضَ بناء المتحف على المقاولين، فقبل المقاولان الإيطاليان جارسو و زافرانى أن يبنياه بثلاثة وتسعين ألفاً وخمسمائة وجنيين، ويتماه فى ستة وعشرين شهراً، وشرعا فى البناء فى أوائل سنة ١٨٩٧ م فلم يتماه إلا فى أربع سنوات (٨٠)، ورغم أن الحكومة المصرية قد اعتمدت مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه تصرف من صندوق الدين لبناء المتحف الجديد - وذلك تحسباً لأية مصروفات إضافية وكذلك مصروفات النقل والتجهيز - إلا أن تكلفة المتحف الحقيقية بعد الفراغ من بنائه وصلت إلى مائتين وأربعين ألف جنيه، أى ما يقرب من ربع مليون جنيه مصرى (٨١)، ومع ذلك يصير لورد كرومر على أن هذه النفقات ليست زائدة بالنظر إلى حجم البناء وأهميته (٨٢).

شرع المسئولون فى المتحف المصرى فى نقل الآثار من متحف الجزيرة إلى متحف قصر النيل، وانتهوا من هذا العمل فى ١٣ يوليو ١٩٠٢ م حتى إذا ما استهل شهر أغسطس صار المتحف الجديد معداً للافتتاح، إلا أن إصلاح الحوائط والقواعد عقب ما أصابها من الخدوش الناتجة عن عملية نقل الآثار كان مانعاً من ذلك، فلما تم الانتهاء من هذه الإصلاحات افتتح المتحف رسمياً فى ١٥ نوفمبر ١٩٠٢ م (١٤ شعبان ١٣٢٠ هـ) (٨٣) وقال فخري باشا فى كلمة الافتتاح مخاطباً الخديوى عباس حلى: " فى أول أبريل من عام ١٨٩٧ م تفضل جنابكم العظيم فوضعت بمينكم الكريمة الحجر الأول من دار الآثار المصرية وفى يومنا هذا أقدم لمقامكم السامى بمزيد الإبتهاج هذه العمارة، وقد كمل بناؤها وترتبت أوضاعها، ولقد بذل المهندسون بنظارة الأشغال وعمال دار الآثار منتهى العناية والاهتمام فكان تشييد البنيان وتنسيق الآثار على غاية ما يرام " وأضاف ناظر الأشغال: " هذه الكنوز الثمينة التى تدلنا على تفنن الأقدمين فى الصنائع والمعارف، وتخبرنا بحضارتهم الزاهرة على ضفاف النيل فى الزمان العتيق قد أصبحت اليوم فى هذه الدار وهى فى أمان من الضياع والدمار، بل فى حرز حريز يليق بقيمتها العالية، فكيف لا تنبأى مصر وقد صار فى وسعها أن تجلو أمام أبصار العلماء والمتفنتين والسائحين والمولعين بطرائف الأقدمين ما حوته عاصمتها المحروسة فى هذه الدار من بدائع المجاميع وعجائب الآثار" (٨٤).

وقد أجابه عباس حلى بقوله: " يا سعادة الناظر: أفتح دار التحف المصرية الجديدة بصدر ملؤه الانشراح، وهى التى سبق أن وضعت أول حجر من أساسها، وأشكر لسعادتكم ولكبار الموظفين الذين اشتركوا معكم فى العمل مسعاكم الذى اقترن بالنجاح فى إتمام هذا البناء... وإن

مصر لتذكر الجميل لجماعة المشتغلين بآثارها القديمة من رجال العلم... وتعتز بهم باليد الطولى فى اجتماع هذه الكنوز التى تزداد ظهوراً وكثرة على الأيام^(٨٥) وعقب الاحتفال قَدِمَت رتب ونياشين لمن اشتركوا فى تصميم وبناء المتحف المصرى الجديد^(٨٦).

وقد بنى المتحف الجديد بالحجر الأبيض، واستخدم الأسمنت للمرة الأولى فى مصر فى بنائه، وطلبت حوائطه بالجير والجص، ووضع فى واجهته صفائح من الرخام، ورصفت أرضه بالفسيفساء بمعرفة عمال أحضروا خصيصاً من البندقية لهذا الغرض، وبلغت مساحته ٣٠٦٢٥ متراً مربعاً، وأقيم على طابقتين يضمن ما مساحته ١٥٠٥٠ متراً مربعاً صالحة لعرض الآثار، بينما لم يكن فى متحف الجزيرة سوى ٩٧٠٠ متراً مربعاً فقط، وهناك إمكانية للتوسع فى بناء المتحف بإضافة جناحين إليه^(٨٧).

على أن جريدة "المقتطف" لم تقنع بكل هذه المزايا التى تمتع بها متحف قصر النيل الجديد التى جعلت المادحين يطنبون فى وصف روعته والإشادة بمتانتة، فقال محرر الجريدة بعد أن شاهد التصميمات التى اشتركت فى المسابقة التى عملت لوضع تصميم المتحف الجديد: "والذين شاهدوا تلك الرسوم البديعة وشاهدوا المتحف فى حالته الحاضرة ورأوا المباني المصرية القديمة وحجارتها الصلبة يقولون معنا إنه لو عينت الحكومة المصرية الجوائز لمن يرسم لها أبعد الرسوم عن جمال البناء وأقربها إلى التلف المستمر لنال الجائزة الأولى الرسم الذى جرت عليه [يعنى الذى اختارته الحكومة لبناء المتحف على مثاله]"^(٨٨) والحق إن محرر "المقتطف" قد حالفه التوفيق فيما ذهب إليه، ولم تلبث الأيام أن أثبتت صحة فكرته وسلامه رؤيته، ذلك أنه على الرغم من تكلفة المتحف الضخمة التى جاوزت كل تقدير، ورغم توقع الخديوى عباس حلى الثانى بأن يخفف تشييد هذا المتحف عن الحكومة المصرية العناء لمدة قرن كامل، ورغم ما قيل عن متانة بنيان المتحف، فإنه لم يكد يمضى على بناء المتحف سوى ست سنوات فقط حتى أقر مجلس النظار فى جلسته المنعقدة بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٠٨ م فتح اعتماد لنظارة الأشغال العمومية بمبلغ تسعة آلاف جنيه "لهدم منورين أبلين للسقوط بدار الآثار المصرية وإعادة بنائهما من جديد قبل مجئ الموسم السياحى ووفود السائحين"^(٨٩) ثم ظهر بعد ذلك أن هذا المبلغ لا يكفى فزيد إلى ثلاثة عشر ألفاً ورغم ذلك فقد توقعت جريدة "الأهرام" ألا يكفى هذا المبلغ أيضاً، إذ أن الترميم سوف يتطلب عملاً كبيراً ولن يتم قبل ثلاث سنوات^(٩٠)، وفى نفس العام (١٩٠٨ م) ناقشت لجنة الآثار التاريخية فى اجتماعها المنعقد بتاريخ ٦ مايو عملية صيانة وترميم مبنى المتحف المصرى "حيث إن الجزء الشمالى للمتحف صلاحيته لا تزيد على خمس أو ست سنوات وفى حاجة إلى الترميم، وأن الأروقة الشرقية والغربية تحتاج إلى التغطية بالسقوف"^(٩١) وفى يناير عام ١٩٢٥ م أعلنها عالم الآثار الأمريكى جيمس هنرى برستيد صريحة مدوية فى مذكرته الطويلة التى رفعها إلى

الملك أحمد فؤاد الأول عن الحالة المؤسسة للمتحف المصرى بالقاهرة، قال : " المتحف ليس مكاناً آمناً لهذه المجموعة الضخمة من الآثار... أنشئ على أسس خاطئة... سقفه يسمح بتسلل مياه الأمطار. البدرود تحت مستوى مياه نهر النيل، وتدخله مياه الفيضان... مما أتلف كثيراً من الآثار"^(١٧) فهل كانت الآثار المصرية القديمة في متحف قصر النيل " في حرز حرز يلبق بقيمتها العالية " حقاً كما ادعى فخري باشا ناظر الأشغال العمومية في خطبته التى ألقاها بمناسبة افتتاح المتحف!!؟.

وبعد مرور ما يزيد قليلاً على نصف قرن على بناء متحف قصر النيل تأتى مجلة " المجلة " لتؤكد : " لقد ضاقت دار التحف بتحفها وآثارها، وكادت تنشق مرارتها - ومرارتنا - حزناً على التراث المكسب في أقبية المتحف الفسيحة ولاتراه العين "^(١٨) وهكذا ظهرت مرة أخرى الدعوة إلى بناء متحف جديد للآثار القديمة المصرية.

٢ - متحف الإسكندرية اليونانى الرومانى :

كان مجلس المعارف المصرى^(١٩) هو أول من اهتم بجمع الآثار اليونانية والرومانية في مدينة الإسكندرية، وألف منها المجموعة الأولى سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ هـ) عندما كان مقره ب تلك المدينة، حيث جمعها من الهبات والهدايا التى تنازل له عنها وتبرع له بها ذوو المكارم من أصحاب المجموعات الأثرية الخاصة برغبة منهم في إعلاء شأن تلك المدينة الزاهرة وإظهار ما كان لها من مآثر باهرة ومجد طارف وتليد، وكان أغلب هؤلاء المتبرعين من الأجانب المقيمين بالإسكندرية أو الزائرين لها من أمثال باسا لاكوا و أنستازى وهاريس وغيرهم، وكانت مجموعاتهم تشتمل على عملات أثرية قديمة ولوحات حجرية ذات نقوش يونانية ولاتينية وتمائيل جنائزية ونحو ذلك، ولكنها كانت قليلة لا تكفى لإنشاء متحف وافي^(٢٠).

وعندما نقل مجلس المعارف المصرى من الإسكندرية إلى القاهرة عام ١٨٨٠ م (١٢٩٧ هـ) حُرمت مدينة الإسكندرية من هذه المجموعة النفيسة، لأن الجمعية التى كانت مناطة بملاحظة الآثار وجمعها كفت عن هذا العمل، فتبددت من بعدها تلك المجموعة وتفرقت بين متاحف أثينا وفيينا وبولونيا ونيويورك وغيرها من المتاحف، وعندما أنشأ ماريت متحف بولاق لم يخصص للآثار اليونانية والرومانية إلا قاعة واحدة لم يوجه إليها كثيراً من اهتمامه بسبب كثرة مشاغله، ولكن خليفته ماسبيرو بذل قصارى جهده في توسيع القسم اليونانى الرومانى في متحف بولاق، والإكتثار من آثار هذا العصر، حيث أضاف إليها ما عثر عليه منها في الإسكندرية ونقراطيس المعروفة بكونهم جعيف^(٢١) وفي دفنة^(٢٢) وأنتينوبه وغيرها من المناطق، ثم سار جريبو على نهج سلفه ماسبيرو في الاهتمام بالآثار اليونانية والرومانية وإن كان قد تراءى له أن ما جمعه هو وماسبيرو من آثار اليونان والرومان لا يحسن وضعه بجانب الآثار المصرية في متحف الجيزة، لأن الآثار

اليونانية والرومانية كانت متروية لا رونق لها ولا بهاء بخلاف المصرية، أما إذا وضعت في مكان منفرد يليق بها فإن جمالها سوف يظهر للعيان، ولم يكن هناك أصلح من مدينة الإسكندرية - حاضرة مصر في العصر اليوناني والروماني - لكي تكون مركزاً لمتحف يحفظ شتات الآثار اليونانية والرومانية، ويجمع طارفها وتليدها من كافة أنحاء البقاع المصرية، فتشكلت حينئذٍ في مدينة الإسكندرية جمعية صغيرة عرفت باسم أثنيوم Athenaeum أخذت على عاتقها بناء محل لهذا المتحف^(٩٨).

ويمكن القول بأن الفضل في إنشاء متحف الإسكندرية للآثار اليونانية والرومانية إنما يرجع إلى هذه الجمعية التي لفتت أنظار مجلس الإسكندرية البلدي إلى ضرورة السعى لدى الحكومة المصرية من أجل إنشاء هذا المتحف^(٩٩).

وترجع أولى المحاولات الجادة في هذا السبيل إلى عام ١٨٨٤ م (١٣٠١ هـ) حين طالب مجلس بلدية الإسكندرية على لسان محافظ الإسكندرية من مجلس النظار المصري الموافقة على إنشاء متحف ومكتبة في تلك المدينة العريقة^(١٠٠)، ولكن يبدو أن هناك أموراً حالت دون تنفيذ هذا المشروع في ذلك الوقت، وفي عام ١٨٩٢ م (١٣٠٩ هـ) تجدد الاقتراح مرة أخرى، واتخذ المجلس البلدي هذه المرة خطوة عملية بالتفاوض مع إدارة المتحف المصري - الذي كان يديره دى مورجان وقتئذٍ - ومطالبته بالتنازل عن جانب من الآثار الموجودة بالقسم اليوناني الروماني لصالح بلدية مدينة الإسكندرية، فوافق دى مورجان على هذا الطلب مشروطاً فحسب إنشاء متحف خصوصى يكون تابعاً لإدارة المتحف المصري من حيث حفظ الآثار ونظامها، وللمجلس البلدي من حيث النفقات ولوازمها، وعلى هذا الأساس تم توقيع الاتفاقية في أول يونيو سنة ١٨٩٢ م^(١٠١).

- وتتألف هذه الاتفاقية التي عقدت بين مدير مصلحة الأنتيكخانة والحفر المصرية وبين مجلس بلدية الإسكندرية - والتي وافق عليها ناظر الأشغال والداخلية - من عشرين بنداً.
- نُص في البند الأول منها على أن المتحف المزمع إنشاؤه بمدينة الإسكندرية سوف يكون خاضعاً للوائح والقوانين المنظمة للعمل في مصلحة الآثار القديمة المصرية.
 - ونُص في البند الثاني على أن كافة الآثار التي سيضمها المتحف تكون ملكاً للدولة ولايجوز التصرف فيها بأى حال من الأحوال.
 - ونُص في البند الثالث من الاتفاقية على أن يعين مجلس بلدية الإسكندرية مجلساً لإدارة المتحف الناشئ على أن يقسم هذا المجلس الأخير إلى قسمين : القسم الأول يعرف بـ " المجلس الدائم " ويتكون من خمسة أعضاء منتخبين بواسطة المجلس البلدي، بحيث ينوب هذا المجلس العام عن مصلحة الآثار المصرية وعن البلدية السكندرية في إدارة المتحف.

- ونُص في البند الرابع على أن القسم الثاني من مجلس إدارة المتحف يسمى بـ "المجلس العام" ويتكون من أعضاء تتم تسميتهم واختيارهم بواسطة أعضاء المجلس الدائم، على أن يعمل أعضاء المجلس الدائم بصفة مستشارين أو مساعدين للمجلس الدائم في إدارة شئون المتحف، ويراعى في اختيارهم أن يكونوا على حظ وافر من الكفاءة الإدارية والتبوع العلمى بحيث يسهموا في رخاء متحف الإسكندرية وازدهاره.
- ونُص في البند الخامس على أن المجلس العام يكون مختصاً بكافة المسائل المتعلقة بجمع الهبات والعطايا المالية والأثرية لصالح المتحف، وأن يناقش كل اقتراح قد يبدو له أن من الممكن أن يسهم في تطوير المتحف.
- وتقرر في البند السادس تكليف المجلس البلدى السكندرى بوضع كافة اللوائح والقوانين المنظمة للعمل داخل متحف الإسكندرية، على أن يكون وضع تلك القوانين واللوائح بناء على اقتراحات وتوصيات من المجلس الدائم.
- وتقرر في البند السابع أن يكون لمدير مصلحة الآثار المصرية سلطة الإشراف الكامل على جميع المسائل المتعلقة بأعمال الحفر والتنقيب عن الآثار في مدينة الإسكندرية، وكذلك أعمال حفظ وصيانة الآثار المصرية الموجودة هناك، وكذلك سلطة تعيين موظفى المتحف أو عزلهم، على أن يكون متصرفاً في ذلك باسم نظارة الأشغال العامة، وبناء على توكيل من مجلس بلدية الإسكندرية.
- وتقرر في البند الثامن أن يصبح من حق مدير مصلحة الآثار المصرية فرض عقوبات تأديبية على موظفى المتحف في حدود سلطاته المخولة له على جميع موظفى مصلحة الآثار المصرية في كافة أنحاء القطر المصرى.
- ونُص في البند التاسع على أن يتولى محافظ المتحف أمور الحراسة والحفظ والحماية لكل الآثار الموجودة بالمتحف تحت إشراف المدير العام لمصلحة الآثار المصرية.
- ونُص في البند العاشر على أنه يجوز لمدير مصلحة الآثار المصرية أن يمنح مجلس بلدية الإسكندرية تصريحاً خاصاً بالتنقيب عن الآثار القديمة بالمدينة، وذلك لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد.
- ونُص في البند الحادى عشر على أن كل الآثار اليونانية والرومانية المكتشفة في عمليات التنقيب التى سيجريها مجلس بلدية الإسكندرية سوف تودع في متحف الإسكندرية، أما الآثار الفرعونية فإنه يحق لمدير عموم مصلحة الآثار أن يستولى عليها لصالح المتحف المصرى بدون أى تعويض للمجلس البلدى.

- ونُص في البند الثاني عشر على أن يقوم مجلس بلدية الإسكندرية بتعيين موظف لمراقبة أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة التي ستجرى في مدينة الإسكندرية
- ومنع المجلس البلدى السكندرى - وذلك طبقاً لمنطوق البند الثالث عشر - من التنازل عن تصريح التنقيب الممنوح له لأى جهة كانت إلا بعد موافقة صريحة من مدير مصلحة الآثار المصرية.
- ونُص في البند الرابع عشر من الاتفاقية على أن القطع الأثرية المكتشفة التى يتفق مدير مصلحة الآثار المصرية ومجلس متحف الإسكندرية على أنها غير جديدة بأن تُضم إلى المجموعة الأثرية الموجودة في متحف الإسكندرية، أو يتفق الطرفان على أنها غير صالحة للعرض في المتحف المذكور، فإن هذه القطع سوف تباع في متجر الآثار التابع للمتحف المصرى على أن توجه حصيلة بيعها لصالح متحف الإسكندرية.
- ونُص في البند الخامس عشر على أن قبول المنح والهبات والعطايا الأثرية إنما يتوقف على موافقة وتصديق من المجلس البلدى.
- وتقرر في البند السادس عشر أن إيراد متحف الإسكندرية حق له.
- كما تقرر في البند السابع عشر أن يتنازل مدير مصلحة الآثار المصرية لمتحف الإسكندرية عن الآثار اليونانية والرومانية الموجودة بمتحف الجيزة، والتي يبدو أن من الملائم والمفيد أن تعرض في المتحف المذكور.
- وتقرر في البند الثامن عشر أن يتحمل مجلس بلدية الإسكندرية كافة المصروفات والنفقات لعمليات الحماية والحراسة وحفظ الآثار وصيانتها وتنظيمها في المتحف السكندرى، وكذلك نفقات عمليات التنقيب عن الآثار القديمة، وذلك في حدود المخصص لذلك في ميزانية المجلس.
- ونُص في البند التاسع عشر على ان يقدم المجلس الدائم لمتحف الإسكندرية إلى مدير مصلحة الآثار تقريراً سنوياً عن سير العمل بالمتحف، ونتائج أعمال التنقيب والاقتناءات الأثرية، ومشروعات المتحف المقبلة وما إلى ذلك، على أن يقوم المدير المذكور بدوره برفع هذا التقرير إلى نظارة الأشغال العمومية لدراسته وإبداء ملاحظاتها عليه.
- وتقرر في المادة الأخيرة أن يكون ناظر الأشغال العمومية هو الحكم فيما ينشعب بين مدير مصلحة الآثار وبين المجلس البلدى لمدينة الإسكندرية من خلاف حول بنود هذه الاتفاقية^(١٠٧).

بعد توقيع هذا الاتفاق أرسل المتحف المصرى كُتلاً كبيراً من الآثار اليونانية والرومانية إلى المتحف السكندرى، وقام مجلس البلدية باستئجار خمس غرف في مبنى بشارع رشيد لتكون مقرّاً

للمتحف^(١٠٦)، ووضع فيها المجموعة الأولى من الآثار، وهيات الظروف للمجلس أحد العلماء المتعمقين في الآثار القديمة عامة، وفي الآثار اليونانية والرومانية خاصة ويدعى جيوسى بوتى، فولاه المجلس أمر ترتيب ما جمعه من الآثار وتبويبها^(١٠٧)، وفي ١٧ أكتوبر ١٨٩٢ م (٢٥ ربيع الأول ١٣١٠ هـ) قام الخديوى عباس حلى بافتتاح متحف الإسكندرية، وتنقل في قاعاته مشاهداً ما به من الآثار، وفي نهاية زيارته أبدى لأعضاء لجنة المتحف الإدارية عظيم سروره وارتياحه لما شاهده بالمتحف^(١٠٨)، ثم افتتح المتحف للجمهور في أول نوفمبر من عام ١٨٩٢ م^(١٠٩).

بعد سنتين لاحظ أعضاء المجلس البلدى أن مقر المتحف أخذ يضيق بما يرد إليه من التحف سواء منها ما يقدم إليه كهدايا وهبات، أو ما يعثر عليه المتقنون في المدينة وضواحيها فقرروا الشروع في إنشاء دار جديدة لهذه المقتنيات الأثرية المتزايدة، وبدأوا في بناء داره الحاضرة التى وضع تصميمها ديتريتش Dietrich وستينون Stienon حيث انتهى العمل فيه بصورة متكاملة في شهر يوليو من عام ١٨٩٥ م^(١١٠)، وقام الخديوى عباس حلى بافتتاحه في الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس ٢٦ سبتمبر ١٨٩٥ م (٧ ربيع الآخر ١٣١٣ هـ) في احتفال شائق حضره نظار الحكومة وقناصل الدول الأجنبية وجميع أعيان الثغر ووجهائه وكبار موظفيه من الوطنيين والأجانب^(١١١)، وبدأ محافظ الإسكندرية الاحتفال بخطبة بديعة رفع فيها واجب الشكر لخديوى مصر على تفضله بتشريف افتتاح هذا المتحف الذى جعل مدينة الإسكندرية تسابق مدائن أوروبا العظيمة بإنشائها داراً للآثار والمتحف لتكون مدرسة ومترماً لأهاليها وللغريب القادمين إليها، فأجابه الخديوى عباس حلى بقوله : " إني بكمال الارتياح جئت اليوم أحتفل بافتتاح هذا المتحف الجديد الضئيل المنزلة في الحال، الكبير المقدار في الاستقبال، هذا المتحف الذى تقيمه مدينة الإسكندرية إعلاءً لشأن الفنون وتخليداً لمجدها القديم، وإني لأمل بما يتجلى في بحبوحته من آثار الأدهار الخالية سيكون خير معوان لتنقيف الأجيال الحاضرة والجائئة الذين يريدون أن يبنوا كما كانت أوائهم تبنى، فيعملون لارتقاء وطننا العزيز علينا وللرفع من رايته، وإن إنشاء هذا المتحف لفضل أوتيته مدينة الإسكندرية يجل بغيرها أن تحمدها عليه وتحنو حنوها فيه، فليعتمد مديروه على عنايتي وليعتقدوا أنى له نعم المعضد المعين، فإلى حضراتكم جليل شكرى... لما بذلتموه من المساعى في سبيل إيجاد هذا المشيد الجديد الذى أعلن افتتاحه اليوم للعموم"^(١١٢).

بدأ متحف الإسكندرية بعشر قاعات للعرض، ثم شيدت قاعتان أخريان عام ١٨٩٦ م وفي سنة ١٨٩٩ م شيدت أربع قاعات أخرى تذكراً لمولد الأمير عبد المنعم أول أنجال الخديوى عباس حلى حيث أطلق اسم هذا الأمير على إحدى هذه القاعات^(١١٣)، وفي سنة ١٩٠٤ م شيدت ست قاعات أخرى، وقد تمت هذه الأعمال كلها في مدة تولى جيوسى بوتى لأمانة المتحف قبل وفاته في

نفس العام (١٩٠٤ م) كما عُيِّن بوتى بوضع كتالوج للمتحف في قسمين نشر أولهما في سنة ١٨٩٣ م ونشر الآخر في سنة ١٩٠٠ م^(١١١).

ويحتوى متحف الإسكندرية على مجموعة قيمة من آثار العصرين اليوناني والروماني وهي الفترة التي ازدهرت فيها الإسكندرية وأصبحت عاصمة البلاد، كما يحتوى كذلك على آثار من نفس الفترة عثر عليها في بلاد أخرى غير الإسكندرية كالفيوم والهنسا ووادي النطرون والمنيا وأسيوط وأخميم والأقصر وأسوان وغيرها، وهي تكمل مجموعة الآثار المكتشفة بالإسكندرية وضواحيها، وتعطى فكرة واضحة عن آثار هذا العصر^(١١٢).

وقد تشكلت مجموعة متحف الإسكندرية الأثرية مما أرسل إليه من إدارة مصلحة الآثار المصرية ومما وجد في الحفائر التي أجراها بوتى أمين المتحف، ومما آل إليه بطريق الشراء والهدايا من بعض الأشخاص مثل جليمو نوبولو الذي تبرع للمتحف بكثير من العملات الأثرية القديمة وبعض أوراق البردى التي كتبت في العصرين اليوناني والروماني حتى إن إدارة المتحف قد خصصت له إحدى القاعات باسمه لاستعراض تبرعاته فيها اعترافاً بحسن صنيعة^(١١٣). كذلك أهدى جون أنطونيادس لمتحف الإسكندرية قسماً كبيراً من مجموعته^(١١٤). كما أهدى المتحف البريطاني نظيره السكندري نسخة جصية من حجر رشيد الشهير^(١١٥).

ويرجع الفضل في تنظيم شئون متحف الإسكندرية وازدهاره واتساعه على النحو الذي كان عليه في نهاية القرن التاسع عشر إلى رؤساء لجنته الإدارية الذين تولوا أموره في تلك الفترة وهم:

سنة ١٨٩٢ - ١٨٩٥ م هنرى جيريل ونائبه جورج جوسيو.

سنة ١٨٩٦ م جون ستاني.

سنة ١٨٩٧ عمانويل سباكى.

سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م الدكتور شيث بك.

سنة ١٩٠٠ - ١٩٠١ م حسن بك محسن.

وقد اهتم الأخيران منهم على الأخص بالمتحف السكندري اهتماماً بالغاً، ولاسيما حسن بك محسن الذى اتسع في مدته نطاق المتحف مادياً وأدبياً حتى أوشك أن يضارع أمثاله من المتاحف الأوروبية، كذلك لا ينكر فضل أمين المتحف بوتى في ترتيب آثاره والعناية بها عناية فائقة^(١١٦).

ب - مدارس الآثار.

١ - مدرسة اللسان المصرى القديم ولسان الحبش.

كان الأوروبيون يعتبرون علم الآثار المصرية القديمة حكراً عليهم دون سواهم، فأوصدوا الباب في وجه المصريين الذين كانوا في غفلة عن تراث أجدادهم، ولما كان قد عرف عن الخديوى إسماعيل عنايته الشديدة بالتنقيب عن الآثار القديمة المصرية وصيانتها، وإليه يرجع الفضل في

إنشاء المتحف المصري وتشجيع الحفر والتنقيب : فإن إسماعيل قد فكر في تأسيس مدرسة لتعليم اللغة المصرية القديمة للمصريين، وتكوين نخبة من الشبان المصريين الدارسين للغات القديمة ليساهموا مع العلماء الأجانب في خدمة التاريخ المصري القديم والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة وحفظها، فأمر بتأسيس مدرسة للسان المصري القديم ولسان الحبش، كما أمر بأن تكون نفقات تلك المدرسة من نظارة المالية^(١١٧).

ويشير الأمر العالي الصادر بتأسيس هذه المدرسة في ١٣ رجب ١٢٨٥ هـ (٣٠ أكتوبر ١٨٦٨ م) إلى أنه قد تقرر أن يبدأ " بمدرسة التجهيزية لتعليم لسان الحبش، وتعليم خط هورجليف - أى الخط المصري القديم - وأن التلامذة الذين يتعلمون ذلك يكونوا^(١١٨) من الغلمان التلامذة السمر الذين يشبهون غلمان أقصى الصعيد، ومن الغلمان الزنجية أيضاً الذين يكونوا^(١١٩) موجودين بالمدرسة " كما أوصى الأمر العالي بضرورة الاستعانة ببطريكةخانة الأقباط من أجل توفير مدرسي اللغة الحبشية اللازمين للتدريس بالمدرسة المستجدة حيث يقول : " والخوجات التي تلزم لتعليم لسان الحبش ضرورةً يوجدوا ببطريكةخانة الأقباط، فيجري تعينهم منها بحسب ما يلزم"^(١٢٠).

ثم تنوسى أمر هذه المدرسة لمدة تقرب من عام كامل، وربما كان البحث عن ناظر ملائم للمدرسة من العلماء الأوروبيين المتعمقين في الدراسات المصرية القديمة هو سبب هذا التأخير، على أية حال فقد قرّر قرار الإدارة المصرية أخيراً على الاستعانة بخدمات عالم الآثار البرومى [الألماني] هنرى بروجش الأمين الأول لقسم الآثار المصرية بمتحف برلين^(١٢١) ليتولى الإشراف على شئون هذه المدرسة الناشئة. وفي جماد الثاني من عام ١٢٨٦ هـ (سبتمبر ١٨٦٩ م) حضر بروجش من بلاده إلى مصر - بعد التعاقد معه بمعرفة ديوان المدارس في أغسطس من نفس العام - من أجل مباشرة مهام منصبه، وها هي ذى الإدارة المصرية تأمر كلاً من جمرک الإسكندرية وديوان المرور والسكة الحديد بتسهيل نقل مهمات هنرى بروجش : " المحضر من بلاد برا"^(١٢٢) لأجل تعليم تلامذة المدارس لسان الحبش وخط الهورجليف^(١٢٣) وبعد وصوله أعدت له الحكومة منزلاً يعرف بمنزل الشيخ الشرقاوى بطريق بولاق تجاه القللى^(١٢٤)، واستقر الرأى على أن يكون هذا المنزل سكناً لبروجش ومدرسة لتعليم اللغات القديمة^(١٢٥)، وقامت الإدارة المصرية من ناحيتها بإجراء الإصلاحات والتعديلات اللازمة للمنزل ليصبح صالحاً للاستخدام الجديد^(١٢٦).

وحينئذٍ بدأ الإعداد لاختيار نخبة من تلامذة المدارس الأميرية لإحاقهم بمدرسة اللسان القديم، وهنا يثور تساؤل : لماذا اشترط الأمر العالي الخاص بإنشاء هذه المدرسة في التلاميذ الذين يلتحقون بها أن يكونوا سمراً أو زنجياً، ثم لماذا تقرر دراسة اللغة الحبشية إلى جانب اللغة المصرية القديمة ؟ وما فائدة هذه اللغة [الحبشية] بالنسبة لدراسة الآثار ؟ الواقع أن جاك تاجر يرى في

ذلك مغزى سياسياً يتعلق بمشروعات الخديوى إسماعيل التوسعية، ويتمثل هذا المغزى في إصرار إسماعيل على تكوين طبقة من المترجمين يستخدمهم في بلاد الحبشة بعد فتحها، ويدعى تاجر أن مما يؤيد وجهة نظره هذه إلغاء هذه المدرسة بعد فشل الحملة المصرية على الحبشة بسنة واحدة^(١٣٧)، وعندنا أن تاجر - باستنتاجاته هذه - قد حمل الأحداث التاريخية أكثر مما تحتمل، إذ لم يكن هناك مغزى سياسى أو غيره وراء تعليم اللغة الحبشية في مدرسة اللسان القديم، وكذلك وراء اشتراط لون محدد للبشرة التلاميذ الذين يُنتَوَى إلحاقهم بتلك المدرسة، كما لم تكن هناك أدنى علاقة من قريب أو بعيد بين إنشاء تلك المدرسة وبين أطماع الخديوى إسماعيل في الحبشة، وأكبر الظن أن فكرة إنشاء مدرسة لدراسة الآثار واللغة المصرية القديمة إنما نبئت لدى المسؤولين المثقفين المستنيرين في ديوان المدارس المصرية من أمثال على مبارك وغيره ممن تلقوا تعليماً خارجياً يعطى أهمية لدراسة الآثار القديمة وحضارات الأمم المسالفة، وهؤلاء لا علاقة لهم بالحبشة وأطماع مصر السياسية فيها وربما يكمن فضل الخديوى إسماعيل على هذه المدرسة في موافقته على إنشائها حين عرضت عليه فكرتها، ولكن نسب كل الفضل إليه بطبيعة الحال.

أما بخصوص سمة التلاميذ فقد كان هناك اعتقاد سائد بين الباحثين في ذلك الوقت أن الأحباش وأهالى بلاد النوبة بالذات هم الذين ينحدرون من سلالة المصريين القدماء أكثر من غيرهم من سكان مصر الآخرين الذين اختلطت دماؤهم بدماء غيرهم من الأجناس الأخرى التى تعاقبت على حكم مصر عبر العصور المختلفة، وفي ذلك يقول القنصل الفرنسى دى بوالكميت : "ربما كان من المستطاع أن نعتز على النموذج المصرى الأصيل في الحبشة أو بلاد النوبة أكثر مما نستطيع العثور عليه في مصر ذاتها، ومع هذا فقد نصادف بين الأقباط من يشبه المصريين القدماء إلى حد يستوقف النظر، على أن ما بينهم وبين النوبيين الحاليين من تشابه يعيد إلى أذهاننا كيف انحدر سكان مصر الأوائل من أعالي وادى النيل، أما التشابه بينهم وبين الزنوج فيبين إلى أى حد كان مهدمهم الأصلى قريباً من مواطن الجنس الأسود، وفضلاً عن ذلك فإن التشابه الملحوظ بين ملامح الأقباط والصور المنقوشة على التوابيت، وبين تلك الملامح وتماثيل منف وطيبة بل والموميאות نفسها يدل على أن الدم المصرى مازال يجرى في عروقهم، فهم متوسطو القامة، سمر البشرة... أما شعرهم فأسود... كشعر الزنوج"^(١٣٨).

وأما بخصوص تدريس اللغة الحبشية فقد كان يعتقد أن دراستها ضرورية لدراسة اللغة المصرية القديمة، فالمستشرق الفرنسى مارسيل يذكر أن دراسة اللغة الأثيوبية بالغة الأهمية للأبحاث التى تجرى عن اللغة التى تحدث بها المصريون القدماء^(١٣٩)، وإذا كان على مبارك يعددنا في خططه عن صحراء في جنوب الديار المصرية تمتد إلى سواكن تسمى " البُجَاوة " يسكنها قوم

يقال لهم " البُجْه " وينقل عن بروس قوله إن لغتهم التي يتكلمون بها هي لغة الحبش القديم^(١٣٠) ؛ أفلا يكون من المنطقي إذن أنه كلما كان التلاميذ المختارون لمدرسة اللسان القديم من مناطق موعلة في جنوب مصر كلما زادت قابليتهم لدراسة اللغة الحبشية وبالتالي اللغة المصرية القديمة؟.

وأما بخصوص إلغاء المدرسة بعد فشل حملة الحبشة بسنة واحدة فهذه مصادفة محضة، إذ الواقع أنه قد تجمعت عدة عوامل جعلت من إغلاق هذه المدرسة أمراً محتماً، وربما يأتي في مقدمة هذه العوامل ذلك الغياب المستمر لناظرها خارج مصر، وذلك نظراً لقيام الحكومة المصرية بتكليفه بأداء مأموريات لها في الدول الأوروبية مثل تمثيلها في المعارض الدولية وغير ذلك، على أية حال فإننا سوف نعرض لهذه الأسباب في حينها.

كذلك يُرجع جاك تاجر جُعل اللغة الألمانية هي لغة التعليم بالمدرسة، وأيضاً إقدام الخديوي إسماعيل على إدخال تعليم اللغة الألمانية إلى مناهج الدراسة بالمدارس في عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) إلى ازدياد النفوذ الألماني بعد هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية الألمانية^(١٣١)، والواقع أنه لا علاقة بين تزايد النفوذ الألماني وبين جعل التعليم في مدرسة اللسان القديم باللغة الألمانية، بل لا علاقة في الأصل بين هذه المسألة وبين اختيار الألماني بروجش ناظراً للمدرسة الجديدة، أما اختيار بروجش فإنه لم يخرج عن كونه اختياراً للمتاح أو المعروف، ولا يمنع ذلك من أن يكون اختياراً للأفضل، فالرجل كان معروفاً جيداً للإدارة المصرية، وزار مصر أكثر من مرة، وشارك مع ماريت في حفائره للكشف عن " السيرايبوم " كما اشترك معه في الإعداد لرحلة الأمير نابليون التي لم تتم، كما طبعت له حكومة سعيد من قبل كتاباً في تاريخ مصر في ثلاثة أجزاء^(١٣٢)، كما تعين لفترة من الوقت قنصلاً لبروسيا في مصر منذ عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م)^(١٣٣) فضلاً عن إن تضلعه في الدراسات المصرية القديمة – ولاسيما اللغة الهيروغليفية – أمر لا يقبل الشك، فلا غرو إذن أن اختارته الحكومة المصرية لإدارة المدرسة الأثرية التي قررت إنشائها، ومادام المسئول عن الحركة التعليمية بهذه المدرسة قد أصبح ألمانيا فإن من المستحسن – والحالة هذه – أن تكون لغة التعليم بها هي اللغة الألمانية، ولاسيما أنه كان هناك اتجاهاً للتفكير في إدخال هذه اللغة إلى مناهج التدريس بالمدارس الحكومية المصرية.

نعود إلى مراحل تأسيس المدرسة فنذكر أنه في ١٤ شوال ١٢٨٦ هـ أعلن ديوان المدارس : " أن مدرسة اللسان القديم الصادر الأمر الكريم رقم ١٣ رجب ١٢٨٥ هـ باستجادها من ضمن المدارس الملكية وحضر من أجلها مسيو بروجش قد صار فتحها بالمنزل المعد لسكنه الكاين بطريق بولاق تجاه القللى... ومن اللزوم انتخاب التلامذة اللزيمين لأجل تعليمهم اللسان المذكور وخط الهيروجليف وباقي العلوم "^(١٣٤) ذات الصلة، ولتحقيق هذه الغاية اختار ديوان المدارس

عشرة طلاب كنواة لهذه المدرسة من الطلاب الناهين والمتفوقين من المدارس الحكومية الأخرى، وعلى ديوان المدارس اختيار هؤلاء العشرة بالذات بأنه "فضلاً عن رغبتهم في تعلم العلوم المحكى عنها وجد فهم استعداد ولباقة لإلحاقهم بالمدرسة المذكورة" (١٣٥) وهكذا تنوسبت تماماً مسألة سمرة بشرة التلاميذ المختارين بدليل ما وصلنا من صور فوتوغرافية لأحمد كمال أحمد أشهر خريجي هذه المدرسة، وعموماً فإن هؤلاء العشرة هم :

- (١) محمد توفيق : من مدرسة الإدارة.
- (٢) أحمد نجيب : من مدرسة الإدارة.
- (٣) على حيدر (١٣٦) : من مدرسة المساحة والمحاسبة.
- (٤) محمد فخري : من مدرسة المساحة والمحاسبة.
- (٥) محمد عصمت : من مدرسة المساحة والمحاسبة.
- (٦) محمد وصفي : من مدرسة التجهيزية (الفرقة الثانية)
- (٧) إبراهيم نجيب : من مدرسة التجهيزية (الفرقة الثانية)
- (٨) أحمد حسن : من مدرسة التجهيزية (الفرقة الثانية)
- (٩) حسين زكي : من مدرسة التجهيزية (الفرقة الثانية)
- (١٠) أحمد كمال : من مدرسة التجهيزية (الفرقة الثانية)

وصدرت الأوامر إلى حسابات ديوان المدارس بـ " صرف ما يلزم لهم من أدوات التعليم والكساوى كما هو مرتب للمدارس الخصوصية، وتحرر للاستحقاقات عن قيد كل منهم بماهية شهرى خمسين قرش من ضمن وفورات المدارس، ويصرف لكل منهم بدل تعيين يومى ٤ قروش" (١٣٧) وفى إطار توفير هيئة التدريس اللازمة للعمل بالمدرسة تمت الاستعانة بمدرسين للغة الحبشية من بطريـكـخانة الأقباط كما سبق القول، كما تم ترتيب دروس فى اللغة العربية للطلاب رغم أنهم " كانوا قد تحصلوا على علوم العربى منذ كانوا بالمدارس [الأخرى] قبل الانتقال لمدرسة اللسان القديم، إلا أنهم لم يكونوا متمكنين فى تعلم هذا الفن ولم يصلوا فيه إلى الدرجة المقصودة" (١٣٨).

وهكذا تحدد نظام المدرسة على النحو التالى : مدرسة ملكية بدرجة تعليم " خصوصى " معدة لتربية رجال يكون لهم دراية باللسان المصرى القديم واللغة الحبشية، بمصروفات على المألية ذات نظام إقامة داخلية، دروسها باللغة الألمانية، كما تدرس فيها كذلك العربية والفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى الحبشية والهيروغليفية، فضلاً عن مبادئ وأصول علم المصريات.

كان بروجش يأمل فى أن يجعل من هؤلاء الطلاب العشرة علماء آثار، ولم يدخر جهداً لتحقيق هذه الغاية، حتى إنه أثقل كاهل الإدارة المصرية بمطالبه التى لا تنتهى، ها هو ذا يطلب أن تُصنَّع

له خريطة كبرى للقطر المصري^(١٣٩)، ثم يطلب "مداركة ثلاثة قواميس بقطر^(١٤٠) وثلاثة قواميس نمساوى فرنساوى، و فرنساوى نمساوى معاً"^(١٤١) بل ويطلب جلب كتب متخصصة في التاريخ القديم من خارج القطر المصري، وإن كان تخليص هذه الكتب من جمرك الإسكندرية قد استغرق من بروجش ستة شهور كاملة^(١٤٢).

واجه بروجش مع تلاميذه عديداً من المشاكل التربوية التي يواجهها عادة أولياء الأمور المتعاملون مع طلاب في ميعة الصبا وشرح الشباب من أمثال طلاب مدرسة اللسان القديم هؤلاء، ومما زاد من تفاقم وخطورة هذه المشكلات أن المسؤولين في ديوان المدارس قد جانبهم التوفيق في اختيار مكان إقامة هذه المدرسة، فاختاروا لها - خطأ - منطقة سكنية لم تكن أبداً فوق مستوى الشبهات مما دفع بروجش إلى رفع شكواه إلى إدارة المدارس الملكية "بخصوص الدكاكين المجاورين للمدرسة الجارى فهم مبيع الحشيش وما هو موجود فهم من النساء الفاحشات واللبصوص، وحيث إن ذلك مما لا ينبغي حصوله خصوصاً المواد المحكى عنها فلزم شرحه لإجرى ما يقتضى لذلك منعاً للضرر وحصول مواد غير مرضية"^(١٤٣).

بيد أن تدخل ضبطية مصر قد وضع حداً لتدهور الأمور^(١٤٤)، وبات مفهوماً أن بعض تلاميذ مدرسة اللسان القديم كانوا منخرطين في هذه الأحداث بحيث أوجب ذلك فصل بواب المدرسة وغفريها واستبدال غيرهم بهم نظراً لتساهلهم في مسألة خروج ودخول طلاب المدرسة بغير إذن^(١٤٥)، ويبدو أن بروجش لم يكن هو المتضرر الوحيد من تدنى المستوى الاجتماعى لهذه المنطقة، بل إن وكيل ديوان المدارس نفسه قد شكّا إلى الضبطية ذات مرة من تعرض منزل له كان يقع في نفس المنطقة للسرقة^(١٤٦).

يبدو لى أن اختيار على حيدر من جملة التلاميذ الناهيين ممن لديهم رغبة لدراسة اللسان المصري القديم قد قام على أسس خاطئة، ذلك أن سلوكه في مدرسته أو منزله لم يكن يبشر بمستقبل واعد، أرسل والده حسن رجائى الذى كان معاوناً بديوان الأوقاف إلى إدارة المدارس الملكية يطلب منها حجز ابنه بالمدرسة "وعدم التصريح له بالخروج منها مطلقاً، لا في أيام المواسم والأعياد ولا خلافها ولا خروجه منها مطلقاً... حتى تنصلح أحواله"^(١٤٧) ثم تكررت الشكوى من على حيدر من ناحية ناظره بروجش الذى أوضح أنه "كان دائماً في غياب الناظر يخرج من المدرسة ويعود سكراناً ويفعل أموراً شرسة، ولا يدخل المكتب"^(١٤٨) قط، ولا يعتبر بتهديد ولا بكلام سيدي، وقد أيسست منه كل الخوجات، ولاسيما وقد تبرأ عنه والده مع أن ناظر المدرسة قد عفا عنه مرات عديدة"^(١٤٩) وإذ بدا أنه لا أمل في صلاح أمر على حيدر فقد باتت مسألة فصله من المدرسة أمراً حتمياً لا مفر منه، وهكذا انخفض عدد طلاب مدرسة اللسان القديم من عشرة طلاب إلى تسعة فقط.

على العكس تماماً من على حيدر كان كل من محمد توفيق وأحمد نجيب في الاجتهاد والتفوق الدراسي والقدرة على تحصيل العلوم، وإذا كان التعليم الحكومي في عصر إسماعيل ذا صبغة عسكرية فقد رفع كل من توفيق ونجيب إلى رتبة باش جاويش^(١٥٠) وصارت لهما الريادة على أقرانها في المدرسة، كما زيد لهما في مخصصهما الشهري، وكان يقترب منهما كثيراً محمد وصفي حتى إنه حل محل أحمد نجيب بعد تنزيل هذا الأخير إلى رتبة نفر^(١٥١)، بينما لا أثر لكمال حتى الآن.

وفي صفر من عام ١٢٨٧ هـ أحس بروجش بمرض في كبده فطلب التصريح له بتوجهه إلى مدينة كارلسباد الألمانية مدة شهرين ونصف لأجل التداوي بالمياه المعدنية الموجودة هناك وأرفق بطلبه هذا شهادة من الأطباء تؤكد صحة دعواه، وأكد بروجش أنه حريص على عدم تعطيل سير الدراسة بالمدرسة في مدة غيابه، وأنه سيعطى الطلاب دروساً يقرءونها طوال مدة الأجازة^(١٥٢)، ووافقت المعية السنية على قيامه بتلك الأجازة "ومعاملته فيها حسب الأصول المتبعة في ذلك"، وذلك بشرط "عدم تجاوز أيام زيادة عن المدة المصرح له بها"، ولما كان "الجاري في معاملة من يتوجهوا للأجازة هو احتساب نصف ماهيته مدة الأجازة"^(١٥٣) فقد طمع بروجش في أن "تُعطى له الماهية كاملة لإعائته على السفيرة، وأنه إذا لم يصرح له بذلك فسيبقى بمعاناة المرض ولو يحصل له التلف"، وأشار بروجش إلى أنه "مجتهد في عمله، وأن مكارم الساحة الخديوية قد جبلت على إكرام مثله"، كما التمس بروجش أن يسمح له "باستصحاب تلميذين معه في مدة السفيرة لتعليمهم حتى يزدادوا علماً في المعارف والفنون مدة السياحة"^(١٥٤)، وبطبيعة الحال لم يكن هذان التلميذان سوى محمد توفيق وأحمد نجيب، وعلى أية حال فإن إسماعيل قد كان من الكرم بحيث وافق على جميع ما طلبه بروجش كما أمر بصرف مبلغ ثلاثة آلاف فرنك "لأجل مصروفات التلميذين مدة سفرهما"^(١٥٥)

ولعل أكثر ما يثير الدهشة والاستغراب هو عدم تفهم كثير من المسؤولين في الإدارة المصرية لطبيعة الدراسة في تلك المدرسة غير المألوفة والدخيلة على الحقل التعليمي في مصر في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، طلبوا من إدارة المدرسة ذات مرة - في غياب بروجش - "تعيين من يلزم من تلامذة مدرسة اللسان القديم لتلاوة (قراءة) التاريخ المكتوب على السبيل المجاور لمنزل محمد سلام ببولاق" وأكبر الظن أن التلميذين محمد وصفي ومحمد فخري اللذين اختيرا للقيام بهذه المهمة الغربية كانا يسخران أثناء الطريق عند توجههما إلى السبيل المذكور بصحبة مندوب الأوقاف من العقيلة الخارقة التي تتمتع بها الإدارة المصرية، والتي دفعتهم إلى الاستعانة بدارسين متخصصين في اللغات القديمة من أجل قراءة نص لن يخرج عن كونه خطأ كوفياً - في الأعم الأغلب - ولن يزيد عمره عن قرن أو قرنين من الزمان باستطاعة أي مجيد للخط العربي أن

يقرأه لأول وهلة، على أية حال فإن التلميذين قد أدبا مهمتهما على أكمل وجه، وأوضحا " ما يفيد بأن السبيل المذكور وقف زينب بنت الخضرى في سنة ١١٤٤ هـ "(١٥٦) وانتهى الأمر.

عاد بروجش من أجازته واستأنف عمله، ومع اقتراب العام الدراسى من نهايته أرسلت إليه إدارة المدارس تخبره بأنه " قد صيّم على امتحان تلامذة مدرسة اللسان القديم الميرية من ابتداء يوم السبت ١١ شعبان ١٢٨٧ هـ بسرأى الجماميز... ومن اللزوم حضور جنابكم وصحبكمم التلامذة في صباح يوم السبت الساعة الواحدة من النهار ولايسين الكساوى البيض... لأجل امتحان التلامذة الأنجاب ومعرفة ما تحصلوا عليه من العلوم والفنون في ظل الساحة الخديوية "(١٥٧) كما أرسلت إفادات بهذا المضمون إلى كل من " جناب المحب المحتشم بطربرك طائفة الأقباط " تطلب منه تعيين شخص من طرفه لامتحان الطلاب في اللغة الهيروغليفية والخط القديم (١٥٨)!!! وإلى حضرة سالم بك الحكيم (١٥٩) الذى وقع عليه الاختيار لامتحان الطلاب في اللغة الألمانية (١٦٠)، وبعد الامتحان صرّح للطلاب بالقيام بأجازة نهاية العام الدراسى " لأجل ترويق أذهانهم واتساع قوتهم العقلية "(١٦١) وهكذا انتهى العام الدراسى الأول من عمر مدرسة اللسان المصرى القديم.

ومما يؤسف له أنه ليست لدينا سجلات أو تقارير عن أداء طلاب مدرسة اللسان القديم في الامتحان الذى أعقب عامهم الدراسى الأول، ولا عن درجة تحصيلهم الدراسى ومدى تقدمهم في العلوم، ولا كذلك عن العام الدراسى الثانى، على أية حال فقد شهدت بداية العام الدراسى الثالث انتقال مدرسة اللسان المصرى القديم إلى سراى درب الجماميز بعد أن شكا بروجش من أن منزل الشرقاوى مقر المدرسة " قد صار رطباً ويغشى على صحبة من فيه "(١٦٢) كما تقرر البحث عن مسكن بديل ملائم لناظر المدرسة.

كان بروجش يوقن أن الدراسة العملية لا تقل أهمية عن الدراسة النظرية، فكان يخرج بتلاميذه من وقت لآخر مرتحلاً إلى الصعيد لمشاهدة الآثار القديمة ودراستها على الطبيعة، وكانت الإدارة المصرية توفر له من جانها ذهبيتين : إحداهما لهيئة التدريس بالمدرسة، والأخرى للتلاميذ، كما كانت تصرف لهم مقدماً استحقاقاتهم الشهرية طوال مدة الرحلة (١٦٣).

ويبدو أنه لم تكن هناك سنوات محددة يتحتم على التلميذ قضاؤها في المدرسة حتى يمنح إجازة التخصص في المواد التى درسها، فقد تخرج كل من محمد توفيق، وأحمد نجيب التلميذين الناهين بعد سنتين فقط من الدراسة بالمدرسة، فقد نُشرت مجلة " روضة المدارس " في عددها الصادر في غاية محرم ١٢٨٩ هـ الملزمة الأولى والثانية من كتاب " العقد النظيم في مأخذ جميع الحروف من اللسان المصرى القديم " الذى ألفه بالألمانية هنرى بروجش وترجمه إلى العربية " راجى مولاه المجيب، عبده المفتقر إليه أحمد نجيب أحد مترجى ديوان المكاتب الأهلية المتخرج

على مدرسة اللسان القديم^(١٦٥) كما ذكرت المجلة في عددها الصادر في ١٥ جماد الأول ١٢٨٩ هـ أنها تلقت من " محمد أفندي توفيق المتخرج على مدرسة اللسان المصري القديم رسالة وجيزة في تاريخ قدماء اليونان... عربها من اللغة النمساوية التي له فيها معرفة وفية^(١٦٥) وقد نشرت الرسالة منجمة على عدة أعداد تلت هذا العدد، ومما يؤكد ذلك أن إحصائية المدارس الملكية والمكاتب الأهلية المنشورة في نفس المجلة في عدد غاية شوال ١٢٨٩ هـ قد ذكرت أن عدد التلاميذ المقهدين بمدرسة اللسان القديم والجاري تربيتهم وتعليمهم على طرف الحكومة يبلغ سبعة تلاميذ، وتقول الإحصائية عن هذه المدرسة إنها معدة لتربية رجال يكون لهم دراية باللسان المصري القديم واللغة الحبشية، وتضيف: " وليس بها الآن بعد الذي خرج منها سوى هذا القدر^(١٦٦) ويؤكد ذلك أيضاً أن الرحلة العلمية التي نظمها بروجش لتلاميذه في شوال عام ١٢٨٨ هـ والتي أشرنا إليها سابقاً لم تضم سوى سبعة تلاميذ ليس من بينهم محمد توفيق ولا أحمد نجيب.

وقد علمنا من ملحق لطيف نشرته مجلة " روضة المدارس " كذلك في صورة إحصائية بأسماء تلاميذ المدارس الميرية الملكية الذين تخرجوا منها وتعيينوا للعمل في دواوين الحكومة وترقوا فيها في مدة ست سنوات من ابتداء سنة ١٢٨٤ هـ إلى غاية سنة ١٢٨٩ هـ أن محمد توفيق قد عين في عام ١٢٨٨ هـ معاوناً بالمكاتب الأهلية ثم نقل مدرساً للغة الألمانية بالإسكندرية، كما علمنا أيضاً أن زميله أحمد نجيب قد عين معه في نفس العام وفي نفس الوظيفة، ثم نقل مدرساً للغة الفرنسية والألمانية بمدرسة المتديان، ثم معيداً للغة الألمانية بمدرسة المهندسخانة^(١٦٧).

بعد تخرج محمد توفيق وأحمد نجيب طرأت فكرة اختيار خمسة تلاميذ من السبعة الباقين بمدرسة اللسان القديم والسفر بهم إلى ألمانيا والحقاقهم بإحدى المدارس هناك ليتمكنوا من إتقان هذه اللغة، وقد كان هذا الاقتراح من بروجش بعد أن قرر الخديوي إسماعيل إدخال تدريس اللغة الألمانية إلى مناهج الدراسة بالمدارس الملكية وظهور حاجة ملحة إلى مدرسين لتعليم هذه اللغة، ورأى بروجش أنه إذا تم استحضار مدرسين لذلك الخارج فسوف يكلفون خزينة الدولة مبالغ طائلة، فضلاً عن أنه لن يحقق النتائج المرجوة على اعتبار أن اكتساب التلاميذ من هؤلاء المدرسين الأجانب وفهمهم عنهم لن يكون مثل اكتسابهم من معلمين من بني جلدتهم عارفين بلغتهم الأصلية، واقترح بروجش أن تستمر هذه البعثة لمدة عام ونصف العام بتكلفة تبلغ ثلاثمائة فرنك للتلميذ الواحد^(١٦٨). وإن المرء ليهش من تخلى بروجش بهذه السهولة عن مسؤولياته تجاه هذه المدرسة ومحاولته القضاء عليها بهذه الصورة، ويبدو أن بروجش كان مغرمًا بالعودة إلى أوطانه أكثر من أي شيء آخر، فقد كان يعلم جيداً أنه لن يرافق هؤلاء التلاميذ - في حالة العمل باقتراحه - أثناء بعثتهم إلى بلاده أحد سواه.

مهما يك من امر فقد صرف النظر عن هذا الاقتراح، ودخل الطلاب امتحان السنة الدراسية الثالثة من عمر مدرسة اللسان المصري القديم، وفي هذا الامتحان حصل اثنان من التلاميذ على تقدير " أعلى الأعلى " الأول منهما محمد وصفي ثالث النابهين بالمدرسة، والثاني أحمد كمال الذي نبغ أخيراً وظهر اسمه بعد طول غياب، وقد حصل محمد وصفي نظير تفوقه على جائزة من الدرجة الأولى هي كتاب " مجمع الأمثال " للميداني في مجلدين، كما حصل كمال على جائزة من الدرجة الثانية هي كتاب " مروج الذهب " للمسعودي في مجلدين كذلك، أما الخمسة الباقون فقد حصل ثلاثة منهم على تقدير " أعلى " واثنان على تقدير " عال " بينما لم يحصل أحد - بطبيعة الحال - على تقدير " وسط " أو " دون " أو " أدنى " أو " لم يمتحن " (١٦٩).

وفي أواخر عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) عُيِّن هؤلاء السبعة معاونين ومترجمين بديوان المكاتب الأهلية، وكان على مبارك يعلق على نشاطهم في ترجمة الكتب أملاً كبيرة (١٧٠)، نظراً لما لهم من معرفة باللغة الحبشية والفرنسية والألمانية، فتقرر نقلهم من على طرف ديوان المدارس وقيدهم مترجمين ومعاونين بالمكاتب الأهلية بعد زيادة رواتبهم الشهرية (١٧١):

وقد عمل أكثرهم بعد التحاقهم بديوان المكاتب الأهلية معلمين بالمدارس الابتدائية والتجهيزية للغات الأجنبية - وخاصة الألمانية - وللحساب، فنحن نعلم أن حسين زكي تعين مدرساً للغة الفرنسية والحساب بمدرسة المبتديان، ثم مدرساً للغة الألمانية بمدرسة اللسان المصري القديم ومحمد وصفي تعين مدرساً للغة التركية بمدرسة المبتديان ثم معيداً للغة الألمانية بمدرسة التجهيزية، كما تعين أحمد كمال مدرساً للفرنسية والألمانية والحساب بمدرسة المبتديان قبل أن يلتحق بالأنثى كخانة للعمل بها، وتعين محمد فخرى مدرساً للألمانية والحساب بمدرسة المبتديان، ثم مدرساً للهيوغلفيقي بمدرسة اللسان القديم، أما إبراهيم نجيب فقد تعين مدرساً للفرنسية والحساب بالمبتديان، وأما محمد عصمت فقد تعين معيداً للفرنسية بمدرسة التجهيزية، بينما تعين محمد حسن مدرساً للفرنسية بمدرسة اللسان القديم (١٧٢).

وفي السنة الرابعة من عمر مدرسة اللسان القديم التحق بها خمسة تلاميذ آخرين جدد درسوا بها حولين كاملين هم : محمد لطفى الذي نشرت له مجلة " روضة المدارس " في عددها الصادر في غاية رجب ١٢٩١ هـ : " ترجمة لما وجد على بعض الآثار من اللغة القديمة إلى اللغة العربية تتضمن الحرب الذي وقع (١٧٣) بين الملك رمسيس الثاني وأهل خيتا، وهي مدينة قديمة بالشام في شمال أورشليم " (١٧٤) ثم نشرت له أيضاً في عددها الصادر في غاية شوال ١٢٩١ هـ : " حكاية مترجمة من اللسان المصري القديم إلى اللغة العربية (١٧٥)، وقالت عنه المجلة في المرتين إنه أحد تلامذة مدرسة اللسان القديم، والثاني هو محمد على ابن الشيخ على الذي نشرت له نفس المجلة في عددها الصادر بتاريخ ١٥ رجب ١٢٩١ هـ : " ترجمة لما وجد على بعض الأحجار القديمة

باللغة الهيروغليفية^(١٧٦) وقالت عنه كذلك إنه أحد تلامذة مدرسة اللسان القديم، والثالث هو محمود طلعت الذى نشرت له نفس المجلة في عددها الصادر بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٩١ هـ: "حكاية ظريفة وعبارة لطيفة مترجمة من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية"^(١٧٧) وقالت عنه مثل ما قالت عن زميله، أما الرابع والخامس فهما مصطفى راسخ وأحمد قاسم، وهذان الأخيران لم تنشر لهما روضة المدارس شيئاً وإنما عرفنا اسمهما من سجلات ديوان المدارس^(١٧٨).

ومما هو جدير بالذكر أن جاك تاجر حين تحدث عن أشهر مترجى القرن التاسع عشر أورد شخصاً يدعى إبراهيم متى، وقال عنه: "مترجم ومتخرج من مدرسة اللسان القديم"^(١٧٩) وهذا خطأ دون شك، إذ أن من الثابت من الوثائق التى اطلعنا عليها أن مدرسة اللسان القديم لم يلتحق بها سوى العشرة تلاميذ الذين يمثلون دفعها الأولى وقد أوردنا لك أسماءهم، ثم الخمسة الآخرون الذين يمثلون دفعها الثانية وقد ذكرت لك أسماءهم منذ قليل، ومما يؤكد ذلك أن إحصاء المدارس الملكية عن سنة ١٢٩٠ هـ لا يثبت لمدرسة اللسان القديم سوى خمسة تلاميذ فقط^(١٨٠) هم ذاتهم الذين كانوا بها وقت إغلاق المدرسة خلال العام التالى ١٢٩١ هـ كما سيتضح لك بعد قليل.

والحق أننا قد استفدنا كثيراً من معلوماتنا عن مدرسة اللسان المصرى القديم مما ورد عرضاً في مجلة "روضة المدارس المصرية" ذلك أن بروجش الذى كان واحداً من كبار محرريها حيث أسندت إليه مهمة الإشراف على ما ينشر بالمجلة "من التواريخ العمومية المقررة فيما يختص بالأعصر القديمة والحاضرة"^(١٨١) قد فتح باب المجلة على مصراعيه أما تلاميذه لكى ينشروا فيها ما يدبجونه ببراعهم أو يترجمونه بالبايهم من مقالات تتناول تاريخ مصر القديم وحضارتها وأثارها، كما أتاح بروجش لتلاميذه فرصة الاشتراك في المعارض الدولية الخارجية بأعمال يدوية ومصنوعات فنية من إنشائهم، حتى إنهم قد فازوا بـ "نيشان تقدم" عن أعمال اشتركوا بها في معرض فيينا الدولى بالنمسا الذى أقيم عام ١٨٧٣ م^(١٨٢).

نعود إلى الحديث عن سير العمل الدرامى في مدرسة اللسان القديم، فنذكر أن بروجش كان خلال الفترة الأخيرة من عمر المدرسة كثير الانشغال عن التدريس بالمدرسة بالقيام بالمأموريات التى تكلفه بها الحكومة المصرية خارج القطر المصرى، تلك المأموريات التى كانت تمتد لفترات طويلة في كثير من الأحيان مما تعذر عليه أن يكرس كل وقته لتعليم تلاميذه، ففى سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) عينته الحكومة مأموراً أولاً للبعثة المصرية لمعرض فيينا^(١٨٣)، وفى منتصف عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) عينته الحكومة مأموراً للجناح المصرى بمعرض فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية في مهمة استغرقت ما يقرب من أربعة أشهر "ولأجل أن يكون تلامذة مدرسة اللسان القديم متجهزين في المعارف التى يمكن بواسطتها إلقاء الدروس عليهم بنوع مفيد" فقد رغب

بروجش في تكليف مواطنه الألماني بهمر ناظر الكتبخانة الخديوية المصرية بالتدريس لطلاب هذه المدرسة لحين عودته^(١٨٤)، وفي رجب عام ١٢٩١ هـ لاحظ المسئولون بديوان المدارس أن مدة العقد المبرم مع بروجش لإدارة مدرسة اللسان القديم - وهي خمس سنوات - قد انتهت " ونظراً لعدم إعطاء دروس لتلاميذ مدرسة اللسان القديم هذا العام وتأخرهم عن التقدم " فقد بعثت إدارة المدارس الملكية إلى المعية السنية تستعلم منها عما إذا كان ينبغي تجديد العقد مع بروجش وإدراج مخصصه السنوي ضمن ميزانية ديوان المدارس عن السنة التالية التي كان يجري إعدادها أو يتم نقله إلى جهة أخرى، وألح ديوان المدارس إلى إمكانية قيد مخصصه على ديوان المالية^(١٨٥).

على أن اقترح المسئولون بديوان المدارس بنقل استحقاق بروجش على ذمة ديوان المالية لم يرض مسئولو ديوان المالية الذين رأوا أنه مادام أن " تعيينه [بروجش] بتلك المأمورية كان بالأمر [العالي] واستحقاقه مقيد بالمدارس فصار هذا لا يختص بالمالية "^(١٨٦) ولم يمه هذا النزاع بين المصلحتين الحكومتين سوى صدور نطق كريم " بقيد استحقاق المسيو بروجش بالمالية من أول ديسمبر ١٨٧٤ م "^(١٨٧) وهكذا انقطعت صلة بروجش بديوان المدارس بصفة نهائية.

أما طلاب المدرسة فقد تم توزيعهم على المصالح الحكومية المختلفة للعمل بها، فذهب كل من أحمد قاسم ومحمود طلعت ومحمد لطفي للعمل بأشغال التلغراف بالسكة الحديد، بينما ذهب مصطفى راسخ ومحمد على ابن الشيخ على للعمل بديوان الجهادية، وقال ديوان المدارس في إطار تركيبته لهؤلاء التلاميذ لدى الجهات الحكومية التي أرسلهم للعمل بها : إن لديهم " معرفة باللغة الإنكليزية وبعض لغات آخر "^(١٨٨) وكان المسئولون بإدارة عموم السكة الحديد قد عرضوا على أحمد قاسم وصاحبيه العمل لديهم بمرتب شهري يبلغ مائتين وخمسين قرشاً، ولكنهم اعترضوا على ضعف المخصص لهم من وجهة نظرهم، فاستشارت الإدارة ديوان المدارس والذي أوصاها بمعاملة هؤلاء الثلاثة معاملة خاصة " بالنسبة لما كابده في التعليم والاجتهاد في معرفة اللغة الإنكليزية وطرفاً من بعض لغات أجنبية، ويستحقوا أن يكونوا مميزين عن خلافتهم ليكونوا مستمرين على حصول الاجتهاد في أشغالهم على الوجه الأتم " واقترح ديوان المدارس مبلغ ثلاثمائة قرش كراتب شهري عادل ومجزي لهؤلاء الثلاثة نفر^(١٨٩).

وبعد التخلص من تلاميذ مدرسة اللسان القديم لم يبق سوى الاستغناء عن ميخائيل جرجس مدرس اللغة الحبشية، فتم فصله في ٥ محرم ١٢٩٢ هـ (١١ فبراير ١٨٧٥ م)^(١٩٠).

وهكذا اختفت مدرسة اللسان المصري القديم ولسان الحبش بعد حياة قصيرة لم تتجاوز خمس سنوات، حيث تم إلغاؤها في أخريات عام ١٢٩١ هـ (أواخر عام ١٨٧٤ م) وليس صحيحاً أبداً ما ذكره أمين سامي من أن المدرسة قد ظلت مفتوحة حتى عام ١٨٧٦ م^(١٩١)، وفي إطار حكمنا على هذه التجربة الفريدة ينبغي أن نذكر أن إنشاء مدرسة اللسان المصري القديم كان خطوة

رائدة في وقتها على طريق الاهتمام بالدراسات المصرية القديمة، ومحاولة تدريسها لأبناء الشعب المصرى لأول مرة في تاريخ مصر الحديث، ورغم الحياة القصيرة لهذه المدرسة فقد استطاعت أن تخرج عدداً من أوائل الأثريين المصريين الذين ساهموا في النهوض بعلم الآثار المصرية القديمة في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أمثال أحمد نجيب وأحمد كمال أول من نبغ من المصريين في هذا المجال، كما أنجبت عدداً آخر من أعيان مترجى هذا العصر من أمثال محمد وصفي وأحمد فخري وأحمد حسن وحسين زكي الذين لعبوا دوراً كبيراً في النهوض بحركة الترجمة في مصر خلال الفترة السابقة^(١١٣)، كما أسهمت هذه المدرسة إلى حد كبير في تطور الوعي

الأثري لدى عامة المصريين وزيادة إقبالهم شيئاً فشيئاً على مطالعة تاريخ مصر القديم والاهتمام بآثارها القديمة، وفي ذلك يقول إلياس الأيوبي عن بروجش وتلاميذه: "فمازال بالطلبة المتعلمين على يديه حتى أوجد فيهم روح الاهتمام بالماضي المصرى السحيق بالرغم من الهاوية التي حفرتها العقائد بين عقليتهم وعقلية أجدادهم البعيدين، وحتى تمكن من إنشاء قنطرة على تلك الهاوية بين عصر الفراعنة وعصر إسماعيل"^(١١٣).

وفي إطار تقييمنا لأداء هذه المدرسة ينبغي أن نشير إلى آراء المعارضين لها، ويأتى في مقدمة هؤلاء السويسري دوريك الذي وضع تقريراً عن سير العمل الدراسى في المدارس الحكومية المختلفة في مصر عام ١٨٧٢ م ومن بينها مدرسة اللسان المصرى القديم، وقد جاء تقريره - فيما يتعلق بهذه المدرسة - قاسياً ويحمل قدراً كبيراً من التجنى، فقد انتقد دوريك المستوى العلمى للتلاميذ، وزعم أنهم لا يستطيعون أن يحصلوا المعارف الفيلولوجية^(١١٤) والتاريخية، ووصفهم بأنهم ليست لديهم القدرة على إدراك الأفكار المجردة ويفتقرون إلى التفكير اللازم لهذه الدراسة الشاقة، كما نصح الحكومة المصرية بأن تكتفى بتعيينهم كمشرفين على الحفائر وأمناء للمتاحف لأنها لن تستطيع أن تجعل منهم علماء آثار^(١١٥)، وقد أثبتت الأيام خطأ حسابات دوريك بدليل نبوغ كمال ونجيب.

أما ما ريت فقد كان معارضاً للمدرسة منذ بدايتها، بل ربما لعب دوراً خفياً في حث الحكومة على القيام بإغلاقها، كما عارض بشدة إلحاق خريجها للعمل بالأنثيكلخانة المصرية حين حاول بروجش ذلك، وواضح أن السبب في ذلك يرجع إلى خشية ما ريت من زوال السيطرة الفرنسية على مصلحة الآثار المصرية، إذا ظهر من المصريين جيل يهتم بماضى مصر القديمة وتراثها العريق، ويرى أنه الأحق بذلك الاهتمام من الأجانب، وقد تنهت جريدة "المقتطف" لهذه المسألة في إحدى مقالاتها، فعُلّت سبب معارضة الأجانب لإشتغال المصريين بالآثار بالخوف "من أن ينشأ من المصريين رجال يعرفون قيمة آثار أجدادهم وأهميتها لبلادهم فيصعب نقل الآثار المصرية إلى

أوروبا^(١٩٦)، وقد أغضب ذلك التصرف من جانب مارت صديقه القديم بروجش الذي أفصح بصراحة عما كان يضمه مارت نحو المدرسة من نوايا سيئة فقال : " إن الخديوى كان راضياً تماماً عن عملى، وكذلك وزير التعليم [على مبارك] لكن صديقى القديم مارت كان قلقاً من أن يودى هذا [الرضا] إلى أن يستخدم الخديوى ذلك كورقة جاهزة، فيعين هؤلاء الذين درسوا الهيروغليفية كموظفين في متحفه، ولم آل جهداً في محاولة تليين عريكته لكنه بقى على شكوكه لدرجة أنه أعطى الأوامر لموظفى المتحف ألا يسمحوا لأحد من أهل البلد بأن ينسخ الكتابات الهيروغليفية، وبهذا استطاع أن يقصى المعنيين من الطلاب^(١٩٧) .

تلك كانت قصة مدرسة اللسان المصرى القديم ولسان الحبش.

٢ - مدرسة الآثار التابعة لمتحف بولاق.

ترجع فكرة إنشاء هذه المدرسة إلى شهر أكتوبر من عام ١٨٨١ م عندما اقترح ماسبيرو مدير عموم مصلحة الأنتيقخانة والحفر المصرية على نظارة الأشغال مشروعاً " بخصوص " إنشاء مدرسة للآثار المصرية لكي يتعلم فيها عدد كاف من الوطنيين علم الآثار واللغة الهيروغليفية، إذ أن من ذلك ينتج للأنتيقخانة في المستقبل فائدة عظيمة .

اقتنعت نظارة الأشغال بفكرة ماسبيرو الرائعة وطلبت منه وضع تصور كامل لهذه المدرسة المقترحة من حيث كيفية إدارتها وعدد طلابها ومدرسيها وكافة المصروفات اللازمة لها، فوضع ماسبيرو مشروعاً تفصيلياً لهذه المدرسة وضح من خلاله أن المصروفات اللازمة للمدرسة المذكورة سوف لن تتجاوز خمسمائة جنيه مصرى، على أساس أن المدرسة لن تبدأ الدراسة إلا بعدد قليل من التلاميذ ربما لا يزيد عن خمسة، وقد شملت هذه المصروفات مرتبات ثلاثة مدرسين، أحدهم للآثار المصرية واللغة الفرنسية والتاريخ القديم ويتقاضى ثمانمائة قرش شهرياً، والثاني للحساب والجغرافيا ويتقاضى خمسمائة قرش شهرياً والثالث للغة العربية والكتابة ويتقاضى أربعمائة قرش شهرياً، هذا بالإضافة إلى مرتبات خدمة المدرسة ومرتبتي التلامذة الخمسة (بواقع خمسة عشر قرشاً لكل تلميذ شهرياً) ومؤونة التلامذة وملبوساتهم وكافة وسائل إعاشتهم، وكذلك الأدوات والكتب اللازمة لعملية التعليم بالمدرسة، وقد قُيّرت هذه وتلك جميعاً بمبلغ خمسمائة جنيه مصرى كما سبق القول.

وافقت نظارة الأشغال على كامل ما جاء بمشروع ماسبيرو فرفعته إلى مجلس النظار " أملاً بصدور أمر المجلس بالترخيص بإنشاء المدرسة المحكى عنها ابتداء من أول سنة ١٨٨٢ م على أن تكون تابعة لأنتيقخانة بولاق وتحت ملاحظة مدير عموم الأنتيقخانة " كما طلبت الأشغال من مجلس النظار - في حالة موافقته على إنشاء مدرسة الآثار المصرية المذكورة - أن يقوم بإدراج

مبلغ الخمسمائة جنيه اللازمة لمصروفات المدرسة في ميزانية مصلحة عموم الأنتيخانة عن سنة ١٨٨٢ م، وقد وافق مجلس النظار على جميع ذلك في ١٦ أكتوبر ١٨٨١ م^(١٩٨).

بدأت المدرسة بخمسة تلاميذ هم : محمد شعبان^(١٩٩)، وأحمد نجيب^(٢٠٠)، ومسعود حمدي، وعبدالرحمن فهمي، وحسن حسني^(٢٠١)، أما بالنسبة للمدرسين فقد اختير أحمد كمال المترجم بالمتحف ليتولى نظارة المدرسة وتدرّس اللغة الهروغليفية واللغة الفرنسية وتاريخ مصر القديم لطلابها، ولما كان كمال يتقاضى راتباً شهرياً قدره ألف ومائتا قرش عن عمله الأصلي كمترجم بالآنتيخانة فقد رأى ماسبيرو أن يضاف له مبلغ ثلاثمائة قرش شهرياً نظير قيامه بالمهام الجديدة التي أسندت إليه، وبذلك يرتفع راتبه إلى ألف وخمسمائة قرش على أن يحال عليه تأدية الوظائف معاً، كما اختير الشيخ محمد دياب المدرس بديوان المدارس لتدرّس اللغة العربية بالمدرسة، وخصص له راتب شهري يبلغ ثلاثمائة قرش زيادة على راتبه الأصلي بالمدارس والبالغ خمسمائة قرش شهرياً، واختير إبراهيم حسين المدرس بالمدارس أيضاً لتدرّس الخط العربي، وخصص له راتب شهري يبلغ مائتي قرش فوق راتبه الأصلي بديوان المدارس والذي يبلغ سبعمائة وخمسين قرشاً، واختير خليفة حسن الموظف بالروزنامة لتدرّس مادة " الحساب " بالمدرسة، وربط له مرتب شهري يبلغ خمسمائة قرش علاوة على راتبه الأصلي بالروزنامة والبالغ ثمانمائة قرش شهرياً^(٢٠٢)، وكان ذلك إيذاناً ببداية الدراسة بالمدرسة منذ شهر يناير عام ١٨٨٢ م، وكان افتتاح المدرسة حدثاً فريداً سجله مؤرخو العصر حيث يذكر محمود فهمي : " وفتحوا مدرسة في دار العجائب بمصر القاهرة لأجل تعليم اللغة المصرية القديمة "^(٢٠٣).

وفي أبريل ١٨٨٢ م رأى ماسبيرو ضم عشرة تلاميذ آخرين إلى المدرسة بجانب الخمسة الموجودين بها منذ افتتاحها، وقالت ديباجة مذكرته التي رفعها إلى نظارة الأشغال بهذا الصدد : " لما كانت مصر قديمة العهد، وكان لسان سكانها قديماً جداً واندثر، ثم تحصّلت الأجانب على هذا اللسان من الكتابة القديمة الموجودة على أحجار البرابي والمعابد القديمة الموجودة في الجبال المصرية، وكان من الضروري أن أبناء المصريين هم الأولى بتعلم هذا اللسان بما أنه لسان أجدادهم فقد رأت نظارة الأشغال ضرورة لزوم إنشاء مدرسة بالآنتيخانة لكي يتعلم فيها عدد كاف من الوطنيين هذه اللغة الهروغليفية والآثار، وقد تصرّح لها من مجلس النظار بزيادة مبلغ خمسمائة جنيه على ميزانية الآنتيخانة لتعليم خمسة تلامذة، وصدر قراره رقيم ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ م بذلك، وبمقتضاه جرى العمل، ولما رأينا أن هذا العدد غير كاف فقد استُصوب ضم عشرة تلامذة على الخمسة الموجودين الآن، منهم أربعة من أولاد معتبري الطائفة القبطية^(٢٠٤) حيث كان هذا اللسان هو لسان أسلافهم، ويوجد معهم بعض كلمات تُستعمل عليهم تعلّم هذا اللسان "^(٢٠٥) وأرفق ماسبيرو بمذكرته هذه حساباً بالمصروفات اللازمة سنوياً لتعليم هؤلاء

التلاميذ العشرة المستجدين، ويتضح من هذا الحساب أن المبلغ الإضافي اللازم لذلك سنوياً يبلغ خمسمائة وستة وأربعين جنياً، وأوضح ماسبيرو أن هذا المبلغ مع أنه مطلوب لتغطية مصروفات التلاميذ العشرة فإنه لا يزيد كثيراً عن مصروفات الخمسة تلاميذ القدامى، على اعتبار أن الهيكل الأساسى للمدرسة من مدرسين وعمال وأدوات تعليم وغير ذلك موجود بالفعل، وأن الذى سوف يستجد هو فقط نفقات هؤلاء التلاميذ العشرة الجدد، وطالب ماسبيرو نظارة الأشغال حث مجلس النظار على إصدار قراره باعتماد هذا المبلغ - خمسمائة وأربعين جنياً - وإضافته إلى ميزانية الأنتيقيخانة على أن يحتسب من عموم وفر ميزانية نظارة الأشغال عن سنة ١٨٨٢م، ولا تتضمن الوثيقة ما يشير إلى قبول النظار مجلس لاقتراحات ماسبيرو التى تضمنتها مذكرته أو رفضها، بيد أن كل الدلائل تشير إلى أن ما طلبه ماسبيرو لم يحظ بموافقة أعضاء مجلس النظار، فجريدة استحقاقات خدمة الأنتيقيخانة عن سنتى ١٨٨٢، ١٨٨٣ م لا تتضمن أية إشارة إلى تلاميذ جدد ألحقوا بمدرستها، غير أنه أشير فقط فى استحقاقات سنة ١٨٨٣ م إلى رفع المخصص الشهرى لكل تلميذ من التلاميذ الخمسة من خمسة عشر قرشاً فى السنة الماضية إلى خمسة وعشرين قرشاً فى الحالية^(٢٠٦) كما ذكر أيضاً أن خليفة حسن مدرس الحساب بالمدرسة قد تم الاستغناء عنه فى شهر أكتوبر ١٨٨٣ م. وذلك نظراً لضعف مستوى التلاميذ فى الحساب والهندسة^(٢٠٧) وأن تدريس المادة المذكورة قد أسند بصفة مؤقتة إلى محمد دياب مدرس اللغة العربية^(٢٠٨) قبل أن يستعفى هذا الأخير من وظيفته ليحل محله مدرس آخر يدعى محمد حسين^(٢٠٩).

استمرت الدراسة بمدرسة الآثار لمدة أربع سنوات، وفى ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥ م طالب ماسبيرو بإلغاء مدرسة الآثار التاريخية التابعة للأنتيقيخانة بحجة أن إنشاء المدرسة كان مؤقتاً وأنها قد أصبحت الآن عديمة الجدوى بعد أن أتم تلاميذها دراستهم وجاء زمن الانتفاع بخدماتهم بتعيينهم مفتشى حفر فى المناطق الأثرية الخالية من المفتشين، ولكن لما كان ترتيب خدمة الأنتيقيخانة عن سنة ١٨٨٦ م قد تقرر وصودق عليه من مجلس النظار : ولما كانت المبالغ الواردة بميزانية هذا العام لا تسمح بزيادة عدد المفتشين فقد اقترح ماسبيرو حلاً لتعيين هؤلاء المفتشين بدون الحاجة إلى زيادة مربوط الميزانية، ويكمن هذا الحل فى إلغاء مدرسة الآثار على أساس أن إنشاءها كان بصفة مؤقتة، وأن ميزانيتها قد عملت على تقدير أن التلاميذ متى أتموا دروسهم وألغيت المدرسة بمصروفاتها التى كانت قد قدرت لها وتوفرت بالإلغاء فإن هذه المصروفات تكفى للوفاء برواتب الوظائف التى تستجد، ومن هنا فقد طالب ماسبيرو بزيادة عدد مفتشى الحفر من ستة مفتشين إلى أحد عشر مفتشاً، وألح ماسبيرو إلى حقيقة أنه على الرغم من أن التعيينات الجديدة قد أحدثت زيادة قدرها مائة وثمانون جنياً فى المخصص السنوى لرواتب خدمة الأنتيقيخانة إلا إنها

لم تُحدث أية زيادة في الإجمالي العام لميزانية مصلحة الأنتيقيخانة السنوية على أساس أنه قد تم توفير مصروفات مدرسة الآثار بالكامل، وطالب ماسبيرو من نظارة الأشغال بضرورة العمل على محاولة إقناع مجلس النظار بإصدار قراره باعتماد التعديلات المطلوب إجراؤها في ترتيب خدمة الأنتيقيخانة وإلغاء مدرسة الآثار وهو ما وافق عليه مجلس النظار في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٨ يناير ١٨٨٦ م^(٢١٠).

ولا يسع المرء إبان انتقاده لهذا القرار المتسرع من جانب ماسبيرو بإلغاء المدرسة إلا أن يلتمس له بعضاً من العذر في ذلك، إذ أن وجود مدرسة بصفة دائمة تقوم بتدريس الآثار واللغة المصرية القديمة، وتخرج عدد كبير من الطلاب أمر لا تحتمله ميزانية مصلحة الأنتيقيخانة والحفر المحدودة الموارد أصلاً، وربما كان ماسبيرو صادقاً في قوله إنه عندما قرر إنشاء هذه المدرسة كان في نيته أن يكون وجودها مؤقتاً لخدمة الأنتيقيخانة لتخرج عدد من الدارسين الحاصلين على المعارف الأثرية اللازمة التي تؤهلهم للالتحاق للعمل بالمتحف المصري، على أساس أن العمل في المجال الأثري يتطلب معارف خصوصية لا تتوفر عادة في الدارسين من خريجي المدارس الحكومية الأخرى، وكان الأولى بالدولة وقد لمست بنفسها مدى تطور الوعي الأثري بين أفراد شعبها أن تأخذ على عاتقها فكرة إنشاء مثل هذه المدرسة الأثرية واحتضانها والإتفاق عليه ونظمها في سلك المدارس الحكومية الأخرى العالية والمتخصصة والتي كانت تخضع لإشراف نظارة المعارف العمومية.

ولا يفوتنا أن نذكر أن ماسبيرو لم ينس لكمال حرصه على إنجاح فكرة مدرسة الآثار طوال فترة الأربع سنوات التي عاشتها هذه المدرسة، فاستوصى به نظارة الأشغال خيراً قبل مبارحته القطر المصري بعد استعفائه من منصبه كمدير لمصلحة الآثار المصرية لظروف خاصة، وتقول وثائق نظارة الأشغال : إن ماسبيرو " قد استلقت نظر هذه النظارة بنوع خصوصي إلى أحمد أفندى كمال المترجم بالأنتيقيخانة لكونه قام بتعليم الخط الهيروغليفي مدة خمس سنين^(٢١١) بمدرسة علم الآثار التاريخية التي ألغيت الآن " وطلب ماسبيرو من من الحكومة " أن تكافئه على غيرته وأتعا به بمبلغ ثمانية وثلاثين جنهاً " عوضاً له عن " المكافأة الطفيفة التي كانت تعطى له " والطريف أن المذكرة تؤكد على تخصيص قيمة هذه المكافأة "لمشتري كتب متنوعة عن تواريخ المصريين ولغاتهم في أيام الفراغة " وتطلب من مجلس النظار إصدار قراره باعتماد مبلغ المكافأة، وتكليف جريبو الذي خلف ماسبيرو " بملاحظة استخدام هذا المبلغ في مشتري تلك الكتب التي يصير اعتبارها مع ذلك ملكاً لأحمد أفندى كمال^(٢١٢).

وجدير بالذكر أن كمال كان فخوراً بقيامه بالتدريس في مدرسة الآثار التاريخية وتولى نظارتها لفترة من الزمن حتى إنه كان يحرص على ذكر ذلك دائماً، فكان يتبع اسمه في مؤلفاته بلقب "

معلم التاريخ واللغة الفرنسية والبريائية ومترجم الأنثيقه خانه الخديوية وناظر مدرستها البهية
"٢١٣".

ويذكر أحد الباحثين أن هؤلاء الخمسة نفر الذين تعلل ماسبيرو بتعيينهم لإغلاق المدرسة قد تم فصلهم من وظائفهم على يد خليفته جريبو^(٢١٤)، والواقع أن الذى تم فصله بطريق الاستغناء هما : أحمد نجيب مفتش الآثار بالمنصورة والزقازيق، ومحمود حمدى مفتش الآثار بالغربية والبحيرة، وكان ذلك فى يناير عام ١٨٨٧ م^(٢١٥)، أما عبدالرحمن فهى فقد أقيـل من وظيفته فى سبتمبر عام ١٨٨٩ م باستعفائه هو^(٢١٦)، وأما حسن حسنى ومحمد شعبان فقد عُـيـرَ طويلاً فى وظيفتهما فى مصلحة الآثار المصرية حتى إن محمد شعبان قد حضر افتتاح مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٣ م بشهادة نفس الباحث^(٢١٧).

ثانياً : المؤسسات الأثرية الأجنبية العاملة فى مصر.

١ - المعهد الفرنسى للآثار الشرقية.

يرجع تأسيس هذا المعهد إلى مرسوم صادر من رئيس الوزراء الفرنسى جول فيرى Jules Ferry فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٠ ورد فيه أنه " قد عُيـنـت بعثة دائمة بالقاهرة تحمل اسم المدرسة الفرنسية بالقاهرة، وأن مهمة هذه المدرسة : دراسة الآثار والنصوص المصرية وتاريخ الشرق ولغاته وآثاره"^(٢١٨).

وكانت السنوات الأولى من ثمانينات القرن التاسع عشر قد شهدت دعوة صريحة من جانب الأدباء والكتاب والمسئولين الفرنسيين إلى ضرورة إنشاء مدرسة فرنسية لدراسة علم الآثار فى القاهرة على غرار مثلها التى تأسست فى أثينا ببلاد اليونان عام ١٨٤٦ م^(٢١٩) فى برقية مؤرخة بـ ١٤ مارس ١٨٨٠ م أرسلها البارون دى رينج وزير فرنسا فى مصر طالب بإنشاء هذه المدرسة وطرح حجتين فى هذا الشأن وقال : " نحن نعانى لكوننا ندرس علم المصريات من منازلهم، وإن إنشاء مدرسة فى الموقع هو وحده الذى سيتيح لعلمائنا ولطلبتنا الذهاب إلى هذا الموقع، ومن ناحية أخرى فإن إنشاء هذه المدرسة سوف يؤدى إلى تعاظم دورنا فى مصر "^(٢٢٠).

وفى العام التالى - ١٨٨١ م - جدد الكاتب الفرنسى أرنتس رينان الدعوة إلى إنشاء هذه المدرسة التى سيكون وجودها فى القاهرة " مفيداً للحضارة ولتقدم السلوك الأخلاقى فى الشرق " وقال : " إن رؤية منشأة يعيش فيها رجال ذوو قدرات عالية حياة متواضعة، ويكرسون أنفسهم لأعمال غير شخصية، ومع ذلك فهم محاطون بأكبر تقدير سيكون درساً مفيداً ومشهداً جديداً فى الشرق "^(٢٢١).

اختير عالم الآثار الفرنسى جاستون ماسبيرو مديراً لهذه المدرسة الجديدة فوضع لها برنامج عمل موسعاً، ورأى تقسيم أعمال المدرسة إلى قسمين : الأول : يبحث فى مصر القديمة والقبطية،

والثاني: يبحث في الشرق القديم والحضارة الإسلامية واللغات الشرقية، واقترح ماسبيرو أن يكون هناك نوعان من الأعضاء العلميين:

- ١- الأعضاء: وهم ستة ممن تخرجوا من المدارس الاستشراقية الكبرى على أن يكون هؤلاء نظراء لأعضاء المدرستين الفرنسييتين في أثينا وروما، وهؤلاء يتعين على الحكومة الفرنسية توظيفهم بعد الانتهاء من أعمالهم في مصر، إما في المدارس الثانوية بفرنسا أو في الكليات لتدريس التاريخ وعلم الآثار، أو في المكتبات الوطنية والمتاحف.
- ٢- أصحاب المنح: وهم ستة أيضاً يختارون من الفنانين أو المستشرقين الذين جاوزوا السن المطلوب لكونوا أعضاء، والذين أثبتوا قدرتهم العلمية دون الحصول على شهادات جامعية، وهؤلاء يتقاضون راتباً أعلى من رواتب الأعضاء، ومدة إقامتهم في مصر تتراوح ما بين سنة وخمس سنين، كذلك اقترح ماسبيرو إلحاق مطبعة بالمدرسة تقوم بنشر أعمال الأعضاء العلمية، ورأى أن تتكون بادية ذى بدء من معلم وثلاثة أو أربعة عمال وتستعير حروفها من المطبعة الأهلية بهاريس^(٢٢٢).

استعرض رنن هذه الاقتراحات التي وضعها ماسبيرو فوافق على معظم ما جاء بها، ولكنه اعترض على التفرقة بين "الأعضاء" و"أصحاب المنح" فإنه من ناحية قد استكثر عدد المجموع وهم اثنا عشر عضواً، ومن ناحية أخرى خشى أن يتدخل في هذا العدد من ليس أهلاً له طلباً للرزق، ونصح بأن يكون عدد المقبولين غير محدد، وموقوف على عدد المرشحين وأهليتهم لهذا العمل، وبعد مراجعة ما اقترحه ماسبيرو ولاحظه رنن تمت صياغة مشروع قانون المدرسة على هذا الأساس، ووافق عليه كل من مجلس النواب والشورى الفرنسيين، وأصبح عدد الأعضاء في هذا المشروع يتراوح بين ثمانية وعشرة يتم قبولهم بعد امتحان، ولم ترع التفرقة بين "الأعضاء" و"أصحاب المنح" ولم يعتبر إلا اختلاف السن والمؤهلات العلمية والأحوال العائلية عاملاً في تحديد المرتب^(٢٢٣).

كانت هذه المدرسة في بدايتها تضم قسمين: يركز القسم الأول منهما على أعمال التنقيب والآثار وفقه اللغة المصرية القديمة، ويركز القسم الثاني على المذنبات واللغات الشرقية القديمة غير المصرية^(٢٢٤). على أن هذا البرنامج لم يتحقق كله دفعة واحدة؛ فقد بقي نشاط المدرسة في عهدها الأول مقصوراً على بعض الأعمال المحدودة؛ ذلك أن أول بعثة للمدرسة لم يتجاوز عددها خمسة أفراد. إذ كانت تشمل اثنين من علماء المصريين ومستشرقاً ومهندساً معمارياً^(٢٢٥).

أقام ماسبيرو ورفاقه خلال الفترة ما بين عامي ١٨٨١، ١٨٨٤ م في منزل مستأجر من السيدة ظريفة المولدة لدى الحرم الخديوي، وجعلوا المدرسة بالطابق الثاني، بينما سكن الأعضاء في طابقه الأول^(٢٢٦) وفي أواخر عام ١٨٨٤ م وأوائل عام ١٨٨٥ م انتقلت البعثة إلى مكان جديد يقع

في مدخل شارع بولاق، وفي عام ١٨٩٥ م وبفضل الحصول على اعتمادات استثنائية اقتنت البعثة أرضاً قريبة من المتحف المصري الذي كانت تقيم فيه مصلحة الآثار المصرية وقتئذٍ، وبنت فيه البعثة مقراً جديداً افتتح في سنة ١٨٩٨ م^(٢٢٧) ومنذ ١٧ مايو من هذا العام تغير اسم البعثة الفرنسية من " مدرسة القاهرة الفرنسية لدراسة المصريات والتاريخ وفقه اللغة والآثار الشرقية " إلى " المعهد الفرنسي للآثار الشرقية " Institut Francais d'Archéologie orientale المعروف اختصاراً بالإفاو (IFA O)^(٢٢٨).

أدى اتساع دائرة أعمال المعهد ونمو المكتبة وإنشاء المطبعة إلى ضرورة البحث عن مبنى آخر أكثر اتساعاً، ففي عام ١٩٠٧ م قام مدير المعهد في ذلك الوقت إميل شاسينا Emeel Chassinat ببيع مقر المعهد واشترى بدلاً منه أرضاً واسعة محتوية على قصر ضخيم هو قصر الأميرة منيرة سابقاً، ومنذ عام ١٩٠٧ م والمعهد لا يزال يقيم في هذا المبنى " قصر المنيرة " حتى الآن^(٢٢٩).

بدأت البعثة الفرنسية فور وصولها إلى مصر عام ١٨٨١ م في تنفيذ البرنامج العلمي الذي وضعه لها مؤسسها ماسبيرو ورينان، وكان من الطبيعي أن تأخذ دراسة الآثار المصرية الجزء الأوفر من اهتمام البعثة، فنظمت رحلات علمية إلى مواقع الآثار القديمة بصعيد مصر على نفقة المدرسة، وشرع أعضاؤها في العمل على نسخ ونشر النصوص التي تكتنف تلك الآثار^(٢٣٠)، وبذل ماسبيرو - بصفة خاصة - جهداً كبيراً في هذه الأعمال حيث اختص بالدراسات المتعلقة بالعهود الفرعوني^(٢٣١)، ولكن ذلك لم يصرّف همه البعثة عن العمل في المجالات الأخرى، فقد قام دارسو القبطيات من ناحيتهم بدراسة الوثائق القبطية المحفوظة في القاهرة، في حين قام المتخصصون في الدراسات الإسلامية بدراسة طبوغرافيا الفترة الفاطمية وترجمة المخطوطات^(٢٣٢)، وأصدرت البعثة نحو ثلاثين مجلداً عن آثار مصر من فرعونية وقبطية وإسلامية^(٢٣٣)، غير أنه بعد إنشاء هيئات علمية أخرى في مصر متخصصة في الدراسات القبطية والإسلامية استطاع المعهد الفرنسي أن يركز جهوده على العمل في مجال الآثار المصرية^(٢٣٤).

أما عن الحفائر الأثرية فإن ميزانية المعهد حتى سنة ١٨٩٨ م لم تكن تسمح له بأعمال تنقيب واسعة النطاق، غير أنه منذ سنة ١٨٩٨ م لم تمض سنة - باستثناء أعوام معدودة لطروف طارئة - إلا وقام فيها المعهد بأعمال حفر أو رفع في موقع أو أكثر من موقع، وزودت حفائر المعهد المتحف المصري بالآثار الكثيرة، وزودت كذلك متحف اللوفر ببعض الآثار^(٢٣٥) فقد كانت القوانين واللوائح المنظمة لعملية الكشف الأثري في ذلك الوقت تقضى بمنح الهيئة القائمة بالحفر نصف الآثار المكتشفة.

أما المطبعة فإنها لم تنشأ إلا في عام ١٨٩٨ م على يد شاسينا الذي كان في الأصل عامل جمع حروف طباعة، ورسم بيديه حوالى أربعة آلاف حرف بدأ بها العمل في مطبعة المعهد، ومنذ نشأة

المطبعة لم تزل آلات الطبع تتطور بها لإنتاج أوفر وأتقن، وفي إمكانية المطبعة الطبع بالهيوغليفيه واللاتينية واليونانية والقبطية والحميرية والآشورية والأمهرية والعبرية والعربية مما جعل من مطبعة المعهد واحدة من أشهر وأفضل المطابع الاستشرافية في العالم، ولا يوجد لها نظير في أوروبا، ولا مثيل لها في حروفها الهيوغليفيه بالذات، ولاتقتصر المطبعة على سد احتياجات المعهد فقط ولكنها تعمل أيضاً لأشهر الهيئات العلمية بمصر مثل مصلحة الآثار المصرية، والجمعية الجغرافية المصرية، وجمعية البرديات، وجمعية الآثار القبطية وغير ذلك^(٢٣٦).

كذلك أصدر المعهد الفرنسي منذ سنة ١٩٠١ م حولية عرفت باسم " نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية " " Le Bulletin de L'Institut Francais d'Archeologie orientale " وهي حولية تهتم بالآثار والحضارات الشرقية القديمة وتتناول كذلك الفنون القبطية والإسلامية المختلفة^(٢٣٧).

هذا وقد تعاقب على إدارة المعهد منذ تأسيسه باسم " مدرسة القاهرة " وحتى نهاية القرن التاسع عشر كل من :

- ١- جاستون ماسييرو ١٨٨٠ - ١٨٨١ م.
- ٢- إيوجين لوفيهور Eugen Lefebure ١٨٨١ - ١٨٨٣ م.
- ٣- إيوجين جريبو ١٨٨٣ - ١٨٨٦ م.
- ٤- بوريان Bouriant ١٨٨٦ - ١٨٩٨ م.
- ٥- شامينا ١٨٩٨ - ١٩١٢ م^(٢٣٨).

٢ - جمعية المحافظة على الآثار المصرية القديمة.

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ارتفعت في إنجلترا الأصوات المطالبة بالحد من تدمير الآثار المصرية وضرورة المحافظة عليها وصيانتها، ومما ساعد على ظهور هذا الاتجاه تعدد المعارض التي كانت تقوم بعرض الآثار المصرية المكتشفة على الجمهور، وانهار الزائرين لهذه المعارض بعظمة الحضارة المصرية القديمة، هذا فضلاً عن معارضة بغض الأثريين الإنجليز - مثل وليم بيتري - لمسألة نقل الكنوز الأثرية من مصر، وتبنيهم لوجهة نظر تدعو إلى الإبقاء على تلك الآثار في مهدها الأصلي، كذلك كان للمحاضرات والندوات التي كانت تقوم بإعدادها السيدة إميلي إدواردز في بريطانيا أثرها في زيادة اهتمام الإنجليز بالآثار المصرية القديمة^(٢٣٩)، ومن أجل ذلك تأسست في إنجلترا لجنة نمت لتصبح جمعية للمحافظة على آثار مصر القديمة، وكان أعضاء هذه الجمعية الأوائل من ذوى النفوذ والمكانة الرفيعة في المجتمع الفنى والفكرى والسياسى في العاصمة الإنجليزية مثل الكاتبة الشهيرة إميلي إدواردز، والرسامان هوكمان هنت وبيرن جونز،

والبروفيسور أرشيبالد سايس أستاذ الأسوريات في جامعة أكسفورد، والسير هيوارد لابارد الذي أصبح سفيراً لبريطانيا في الأمستامنة^(٢٤٠).

قامت الجمعية بجهود دعائية ضخمة بقصد زيادة عدد أعضائها وحث المهتمين بالمصريات على المشاركة فيها، كما نظمت حملة لجمع التبرعات، فجمعت من ذلك ما يقرب من خمسمائة جنيه إنجليزي، وفي ٩ ديسمبر ١٨٨٩ م عقدت لجنة رئاسة الجمعية اجتماعاً قررت فيه ما يأتي :
أولاً : أن يستفهم من الحكومة المصرية عما إذا كانت توافق على أن تقوم هذه الجمعية بتخصيص مالدتها من النقود في الوقت الحاضر لجعل المعابد المصرية وغيرها من الآثار في حالة ملائمة من الصيانة والحفظ، وأن تقوم الجمعية باتخاذ التدابير العاجلة الموصلة للحصول على اشتراكات من أعضائها لهذا الغرض، وذلك في حالة ما إذا وافقت الحكومة المصرية على تعيين موظف إنجليزي براتب من طرفها في وظيفة " مفتش هياكل " أو " ملاحظ خفر " وعلى تعيين عدد كافٍ من الخفراء لحراسة الآثار القديمة.

ثانياً : أن توافق الحكومة المصرية على اتخاذ الطرق اللازمة لتشكيل لجنة بالقاهرة لإدارة نقود الجمعية، واقترحت الجمعية أن تتكون هذه اللجنة من : السير سكوت منكريف، آرئين باشا، هاملتون لانج، جريبو، توماس كوك، القس شستر^(٢٤١)، الكونت ديامو دولست. هذا مع تخويلهم السلطة في أن يشركوا معهم ما يشاءون من الأعضاء^(٢٤٢).

كُلف إدوارد بونتر كاتب شرف جمعية حفظ الآثار القديمة بتحرير خطاب بهذا المضمون إلى اللورد سالسبوري وزير الخارجية البريطانية ورجا منه التصريح بإرسال مشروع الجمعية إلى من يدهم الأمر بالقاهرة عن طريق وزارة الخارجية البريطانية، ولفت بونتر نظر الوزير الإنجليزي إلى " إن نقود الجمعية في الوقت الحاضر تبلغ نحو الخمسمائة جنيه إنجليزي، وأملنا متى تمكنا من إعلان الجمهور بالصفة التي يكون بموجبها صرف النقود أن نزيد هذا المبلغ زيادة بلهفة بما إن الجمعية قاصدة تكوين عدد من المشتركين يدفعون مبالغ سنوية، وعاملة على تشكيل لجنة صغيرة بالقاهرة لإدارة ما يتحصل لديها من النقود " وأوضح بونتر أنه لا مانع لدى أعضاء الجمعية من أن يشترك في هذه اللجنة بعض أعضاء من لجنة الآثار التاريخية المصرية، وكذلك بعض المشتركين المستوطنين بالقاهرة أو زائريها سنوياً^(٢٤٣).

قامت الخارجية البريطانية بإرسال خطاب بونتر إلى رجلها في مصر سير إيفلين بارنج فأرسله بارنج بدوره إلى ذو الفقار باشا ناظر الخارجية المصري مع إفادة أوضح له فيها : " أن من الأمور المرغوبة جداً استمالة القلوب إلى هذه الجمعية وتعضيدها، فإن من أعضائها بعض الذين برعوا في إنجلترا في العلوم والمعارف " وخوفاً من احتمال قيام تعارض ونشوب خلافات قد تترتب على وجود لجنتين للآثار تعملان في القطر المصري إحداهما لجنة الآثار التاريخية التابعة لمتحف بولاق

والتي ترأب إنفاق نقود الحكومة، والأخرى لجنة جمعية المحافظة على الآثار المصرية القديمة لمراقبة صرف نقود الجمعية فقد اقترح بارنج للخروج من هذا المأزق حلاً ملائماً، وبتلخص هذا الحل في " أن المبالغ المتحصلة من الرسم المفروض على السواحين الذين أخصهم من الإنجليز والأمريكانين تُضم إلى المبالغ التي جمعها الجمعية في إنجلترا بحيث يتكون منهما رأس مال مشترك، وأنه لأجل مشروعات استعمال هذه النقود فقط يضاف إلى لجنة بولاق الحالية [لجنة الآثار التاريخية] ثلاثة أو أربعة أعضاء تعينهم الجمعية " أما بخصوص مطالبة الجمعية بتعيين موظف إنجليزي بوظيفة " مفتش الهياكل " أو " ملاحظ الخفر " فقد أوصى بارنج الحكومة المصرية بأن تنظر إلى هذه المسألة بعين القبول، لأن الجمعية الإنجليزية تولى هذا المطلب اهتماماً كبيراً، ورأى بارنج " أن أحسن طريقة هي تعيين أحد الشبان المهندسين في هذه الوظيفة لمدة سنة، وفي نهاية هذه المدة ينظر في هذه المسألة مرة ثانية، ويمكن دفع ماهية ذلك المهندس من رأس المال المشترك " وطلب بارنج في نهاية خطابه إلى ناظر الخارجية المصري أن يقوم الناظر بعرض ملحوظاته هذه على جهات الاختصاص^(٢٤٤).

عرض ذو الفقار باشا كافة الأوراق المتعلقة بهذه القضية على مجلس النظار المصري وطلب من المجلس سرعة اتخاذ قرار في هذا الشأن حتى يتسنى للخارجية المصرية أن تقوم بالرد على اقتراحات بارنج في أقرب فرصة^(٢٤٥).

في هذا الوقت كان قد نما إلى علم نظارة الأشغال نبأ مقترحات جمعية حفظ الآثار المصرية القديمة، وما كان من تأييد بارنج لها، ولما كان الإنجليز يسيطرون على تلك النظارة - بل إن السير كولن سكوت منكريف وكيل نظارة الأشغال كان واحداً ممن اختارتهم الجمعية الإنجليزية ليكون عضواً في لجنها لمراقبة صرف نقودها - فقد أوعزوا إلى المسؤولين في تلك النظارة بأن يقوموا بتأييد مطالب الجمعية الإنجليزية لدى مجلس النظار، فرفعت نظارة الأشغال مذكرة إلى المجلس ادعت فيها أن كثيراً من أعضاء لجنة الآثار التاريخية يرون أن ليس لمصلحة الآثار الآن مراقبة عليها كافية مع ما لتلك المصلحة من الأهمية التي تزداد يوماً بعد يوم بالنسبة لاتساع دائرة المتحف بعد نقله إلى سراى الجزيرة، وازدياد عدد السائحين المهتمين بأمر الآثار القديمة والحريصين على زيارتها، وكثرة النقود التي تحصل من الزائرين للمواقع الأثرية القديمة ومن رواد المتحف المصري ومن الآثار التي تباع في متجر الآثار التابع للمتحف، وأن هؤلاء الأعضاء يرون أن رقابة مصلحة الآثار على المعالم الأثرية القديمة يشوبها الآن بعض قصور تتج عنه تطاول أيدي بعض الأشقياء على تحطيم المباني الأثرية وتدميرها، وأرجع أعضاء لجنة الآثار السبب في ذلك إلى الانشغال الدائم للمسئور جريبو مدير المصلحة في مسائل إدارية لا يلزم لها عالم آثار للنظر فيها، حتى إنه لا يتبقى له سوى وقت قصير يصرفه في الأبحاث العلمية الأثرية، وقال هؤلاء الأعضاء

إنهم قد ألحوا مراراً على جريبو باتخاذ مساعد له ذى أهلية يعول عليه في تخفيف كثير من الأعمال الإدارية والاعتيادية عنه، ويقوم بالتجول في أنحاء القطر المصرى وتحرير التقارير اللازمة عن كل حادثة تستدعى النظر فيها.

وهنا تنتقل مذكرة الأشغال إلى بيان الغرض الحقيقى منها، فتقول إنه لما كانت غالبية السانحين من الإنجليز؛ ولما كانت هناك جمعية إنجليزية على استعداد لأن تكتب بمبلغ يخصص لحفظ المباني التاريخية المصرية بشرط أن يعهد بالنفقات التى تؤخذ من هذا المبلغ إلى مسئول إنجليزى فإن أعضاء لجنة الآثار التاريخية - وتعضدهم في ذلك نظارة الأشغال - يرون أن من الضروري تعيين هذا الموظف الإنجليزى، ويمكن تسميته بصفة (وكيل مصلحة الأنتيقخانة) براتب سنوى قدره من خمسمائة إلى ثمانمائة جنيه، ودعت نظارة الأشغال مجلس النظار إلى عدم الاعتداد بمعارضة جريبو للمشروع، لأن البراهين التى قدمها لتعليل هذه المعارضة غير مقنعة على الإطلاق، وقالت مذكرة الأشغال على لسان أعضاء لجنة الآثار التاريخية: "إنه ولئن كان المسيو جريبو يستحق كل الثناء على إعداده الأنتيقخانة الجديدة في الجيزة، لكن من رأيهم أن إدارة مصلحة الآثار التاريخية ليست على ما يرام، ولن ينتظم حالها إلا بتعيين وكيل [إنجليزى] لها ذى إلمام وأهلية، ولذلك فهم يلحون كثيراً لنوال هذا الأمر من الحكومة" (٤٦) والتمست نظارة الأشغال من مجلس النظار أن ينظر إلى هذه المسألة بعين الأهمية لدى دراسته لمقترحات بارنج والجمعية الإنجليزية.

كان من الواضح إذن أن جمعية المحافظة على الآثار المصرية القديمة كانت ترمى إلى أهداف بعيدة ذات مغزى سياسى تتمثل في العمل على محاولة إقحام موظفين إنجليز في مصلحة الآثار المصرية التى كانت تمثل آخر قلعة للنفوذ الفرنسى في مصر، وكان الفرنسيون من جانبهم يعارضون أية محاولة إنجليزية للتدخل في شئونها، ولعل هذا هو السبب في معارضة جريبو الشديدة لاقتراحات هذه الجمعية، ومما ساعده على ذلك أن موقف الجمعية الإنجليزية نفسها كان ضعيفاً ومهزوزاً، ومطالبها غير واقعية، وحججها التى ساقتها لتبرير هذه المطالب واهية وغير منطقية، واشتراطها تعيين وكيل إنجليزى لمصلحة الآثار المصرية يعد تدخلاً سافراً فيما لا يعنها، وإذا كان أعضاءها يريدون التأكد من صرف أموالهم التى جمعوها في مصارفها المنشودة فإن بإمكان موظفيهم القابضين على دفة تسيير الأمور في الإدارة المصرية - ولاسيما في نظارة الأشغال بالذات - أن ينوبوا عنهم في ذلك، ثم أين هى هذه الأموال التى يريدون إنفاقها على حفظ وصيانة الآثار القديمة المصرية، ذلك أن كل ما جمعته الجمعية الإنجليزية كان لا يتجاوز خمسمائة جنيه تكاد تكفى بالكاد - بل حتى لا تكفى - لتغطية الراتب السنوى للوكيل الإنجليزي الذى يطالبون بتعيينه، على أية حال فإن معارضة جريبو العنيدة للأهداف المشبوهة لهذه الجمعية كانت من

القوة بحيث أدت إلى وأد المشروع والقضاء عليه في مهده رغم تعاطف بارنج مع أهداف الجمعية وإصراره على تأييد طلباتها.

٣ - صندوق استكشاف مصر Egypt Exploration fund .

تأسس هذا الصندوق في العاصمة البريطانية لندن في أبريل من عام ١٨٨٢ م، ووضع له مؤسسوه ثلاثة أهداف رئيسية لتحقيقها، الأول: دعم الاستكشافات الأثرية في مصر والإشراف عليها وجعلها تقوم على أسس علمية^(٢٤٧)، والثاني: مساعدة إنجلترا على استعادة الأرض التي فقدتها أمام منافسيها الفرنسيين والألمان في مجال الكشف الأثري في مصر^(٢٤٨) أما الهدف الثالث فهو هدف ديني، ذو شقين: أحدهما خاص يتمثل في محاولة الكشف عن حقيقة الفترة الضائعة من تاريخ مصر ذو فترة الأربعمئة عام التي عاشها اليهود في مصر، وطريق خروجهم منها^(٢٤٩)، والآخر عام يتمثل في الرغبة في دراسة نصوص الكتاب المقدس على ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة، وإبراز حقيقة عصمة الكتاب المقدس، ففي بداية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر دارت في إنجلترا معركة عنيفة بين العلم والدين أثارت الكثير من الجدل العام بسبب عقيدة راسخة بين المتدينين مفادها أن الكتاب المقدس فوق مستوى النقد، ولأن الكتاب المقدس كان يشير إشارات خاصة إلى مصر والتاريخ المصري فإن من يؤيدون قضية عصمة الكتاب المقدس كانوا يتطلعون إلى الحفائر الأثرية لتأكيد ما هو مكتوب، بينما يبحث خصومهم عن تفنيدها محتجين بأن تواريخ الاكتشافات الأثرية في مصر باتت تهدد بصورة متزايدة تواريخ النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس، وبلغ القلق العام حداً دفع إيرل برايد جواتر إلى أن يوصى بمقدار كبير من المال للجمعية الملكية البريطانية لإجراء سلسلة من الأبحاث تبين أن الدين المسيحي يتمشى مع اكتشافات العلم الجديدة، ومن هنا رأى الأعضاء المؤسسون لصندوق استكشاف مصر أنهم يستطيعون الاعتماد على تأييد العامة طالما أسهموا في الجدل الدائر حول حجية العهد القديم كسجل للأحداث التاريخية^(٢٥٠).

ويرجع الفضل في إنشاء هذا الصندوق إلى السيدة إميلي إدواردز التي بدأت، بعد عودتها إلى إنجلترا من رحلتها إلى مصر - في مراسلة كبار الشخصيات المهتمة بالآثار القديمة طالبة منها العون في إنشاء صندوق للاستكشافات الأثرية المصرية بهدف إلى حفظ الآثار القديمة المصرية في موطنها، وبدأت إميلي بمخاطبة صمويل بيرش أحد أمناء المتحف البريطاني، ولكن بيرش رفض دعوتها محتجاً بأنه لا يستطيع أن يوصى الجمهور "بالاشتراك في أعمال حفر ستكون النتائج التي تخرج منها مملوكة للحكومة المصرية، وتبقى متحف بولاق"، ولكن لم يفت هذا في عضد إميلي فمضت في طريقها واتخذت من ريجينالد ستيوارت بول - ابن عم إدوارد ولين مؤلف كتاب "

سلوك وعادات المصريين المحدثين " - حليفاً ووثيقاً لها، ويقول البعض إن بول هو الراعى الأكبر للصندوق^(٢٥١).

وبعد قليل انضم إلى الأعضاء المؤسسين للصندوق الجراح البريطانى المشهور إيراسموس ويلسون الذى قام بتمويل مشروع نقل مسلة الإسكندرية إلى لندن لتقام على ضفاف نهر التايمز بتكلفة بلغت عشرة آلاف جنيه، وهو مبلغ طائل بمقاييس ذلك العصر^(٢٥٢)، وكان ويلسون قد قرأ كتاب إميليا إدواردز " رحلة الألف ميل " وأعجب به إعجاباً كبيراً، فأمرع يعرض أمواله ومساندته تأييداً لاقتراح إميليا بإنشاء الصندوق إن هو ساعد إنجلترا على دخول حلبة المنافسة في ميدان الاستكشافات الأثرية في مصر، وقال : " كان لفرنسا وألمانيا دائماً ممثلون نشطون ومتحمسون في الميدان، ويتطلب طابع إنجلترا العلمى أن تكون ممثلة تمثيلاً جديراً بها " ^(٢٥٣).

اجتمعت الجمعية التأسيسية للصندوق في المتحف البريطانى، وأسفر الاجتماع عن تأسيس " صندوق استكشاف مصر " برئاسة الطبيب ويلسون وسكرتارية كل من السيدة إدواردز والسيد بول، وحُدِدت أهداف الصندوق كما يلي : " تنظيم البعثات الكشفية في مصر مع العناية ببحث تاريخ وفنون مصر القديمة، وتوضيح ما جاء في قصص التوراه عن مصر والمصريين " ^(٢٥٤). وفي أول أبريل ١٨٨٢ م أعلن عن تأسيس الصندوق في جميع الصحف الهامة، واحتوى الإعلان على طلب التبرعات لتمويل الصندوق مع بيان تفصيلى عن المواقع المزمع اكتشافها، وأوضح الإعلان أن إنجلترا - بتأسيس هذا الصندوق - تكون بذلك قد خطت خطوة في سبيل إقرار نفسها كدولة رئيسة في مجال الاستكشاف الأثرى في مصر في المستقبل، وقال : " يسرنا للغاية أن نعلن أن الجمعية التى طالما تقنا إليها لتشجيع أعمال الحفر في وادى النيل قد تشكلت أخيراً وبرعاية كريمة، وأشار الإعلان إلى أن هدف الجمعية هو إجراء حفائر أثرية في منطقة الدلتا " حيث ترقد مخفية دون شك وثائق فترة مفقودة من تاريخ الكتاب المقدس، وثائق يمكن أن تزودنا بمفتاح سلسلة بأسرها من المشاكل المحيرة " ^(٢٥٥).

كان الأعضاء المؤسسون للصندوق فريقاً مهيّباً، فبالإضافة إلى ويلسون وإميليا وبول كان هناك عدد غير قليل من الأساقفة الإنجليز فضلاً عن كبيرهم، وكبير الحاخامات، ولورد كارنارفون رئيس جمعية الآثار^(٢٥٦)، ولعل وجود هذا العدد الضخم من رموز المجتمع الدينى في إنجلترا ضمن الأعضاء المؤسسين لصندوق استكشاف مصر مما يؤكد على الطابع الدينى لهذه المؤسسة الأثرية الجديدة.

كذلك قامت السيدة إميليا إدواردز برحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٩ م للدعاية لصندوق استكشاف مصر، ولحث الأمريكيين إلى التبرع له من أجل دعم الاستكشافات الأثرية واستمرارها، وكانت رحلتها ناجحة للغاية، ومعاضراتها تلقى ترحيباً، وبذلت إميليا جهوداً جبارة

لجمع دعم مالى للإنفاق على الحفائر في مصر، وكان قد أنشئ فرع للصندوق في مدينة بوسطن الأمريكية عام ١٨٨٢ م ثم أنشئت مكاتب فرعية في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية وصلت إلى ثمانين مكتباً عام ١٩٠٣ م، وكان البروفيسور الأمريكى توماس وايتمور Thomas Wittmore عضواً باللجنة التنفيذية للصندوق، وقد بلغت المساهمة الأمريكية في هذا الصندوق في الفترة من عام ١٨٨٢ م إلى عام ١٩١٤ م مبلغ مائة وستة وعشرين ألف دولار أمريكى^(٢٥٧)، وقالت السيدة إميلي إدواردز التى يرجع إليها الفضل في تكوين الفرع الأمريكى لصندوق استكشاف مصر إنه يضم مائة وواحداً وسبعين مشتركاً منهم ثلاثة من عمداء الكليات، وسبعة وعشرون من كبار رجال الكنيسة، وتسعة عشر أستاذاً جامعياً بارزاً، واثنان وثلاثون من أعضاء الكونجرس الأمريكى^(٢٥٨).

هذا وقد وقع لنا إعلان نشره صندوق استكشاف مصر في أحد الصحف الأمريكية في ٣ أبريل ١٨٩٣ م بقصد الدعاية للصندوق في أنحاء الولايات المتحدة، وحث الأمريكين على التبرع له، ويشيد الإعلان بجهود السيدة الراحلة إميلي إدواردز نائب رئيس صندوق استكشاف مصر في تأسيس الصندوق، وكذلك جهود جورج ويليام كورتيز George William Curtiz نائب الرئيس الفخرى، ومود طومسون Maude Thompson أمين المتحف البريطانى، ويقول الإعلان إن الصندوق لديه الآن في مصر اثنان من أشهر المستكشفين الأثريين، وثلاثة من أشهر المحترفين في أعمال المسح الأثرى بصفة خاصة، وأن الصندوق قد قضى الموسم الأثرى هذا العام في استكشاف موقعين أثريين: الدبر البحرى في طيبة، وتل العمارنة في مصر الوسطى، وأن هدف الصندوق هو اكتشاف وتسجيل كافة النواحي المتعلقة بالفنون والعلوم والحياة اليومية والعادات الاجتماعية والحرف والمعارف المدنية والقانونية والتشريعية والفلسفية والطبية والمتعتقدات الدينية والعادات والتقاليد لمدة خمسة آلاف عام، تبدأ منذ فجر التاريخ.

ويعترف الصندوق أنه بدون التبرعات التى تفد إليه من الشعب الأمريكى المتعطش للمعرفة فإنه سيضطر إلى وقف أعماله الاستكشافية في مصر، ويقول إنه سوف يرسل كتباً رائعة مزخرفاً ومزوداً بالصور واللوحات يتضمن ملخصاً لنشاط الصندوق على مدار العام إلى كل مكتب بمبلغ لا يقل عن خمسة دولارات، وأنه سوف يوجه عميق شكره إلى هؤلاء المتبرعين في النشرة الأثرية الأمريكية الشهيرة، ويؤكد الإعلان أن أكثر من ثلاثمائة من الشخصيات الأمريكية البارزة من بينهم ثمانية وتسعون من عمداء الكليات ورؤساء الجامعات قد تبرعوا للصندوق منذ عام ١٨٨٢ م، ونقل الإعلان عن رئيس جمعية الشرق الأمريكية قوله: "إنه لا توجد طريقة لإنفاق النقود أفضل من إنفاقها على أعمال الكشف الأثرى"، وناشد الصندوق الأشخاص الذين يريدون المساهمة أو الاستعلام عن نشاط الصندوق أن يتوجهوا إلى السكرتير الشرقى لصندوق استكشاف مصر

بالولايات المتحدة ويليام وينسلو William Winslow حيث سيجدون لديه نشرات عن كافة أعمال الصندوق السابقة والحاضرة، وبإمكانهم أن يحصلوا على هذه المنشورات دون مقابل^(٢٥٩). كان صندوق استكشاف مصر من أوائل الهيئات التي تقدمت للحصول على تصاريح رسمية بالحفر والتنقيب عن الآثار، وكان يولى عناية كبيرة للبحوث الجادة، وهذه الصورة أصبح الصندوق منظمة علمية كشفية قانونية لها الحق في إصدار مطبوعات عن الآثار، وقد اختار الصندوق لإدارة حفائره في مصر أثرياً سويسرياً هو إدوارد هنرى نافيل، وهو عالم مصري ذو صلة بدراسات الكتاب المقدس، كان تلميذاً للأثرى الألماني لبيسوس، وساعد في نشر كتابه الشهير "آثار من مصر وأثيوبيا"، وأجرى نافيل أول حفائره في "تل المسخوطة"^(٢٦٠) بجوار قناة السويس في منطقة الدلتا، وكان ذلك بناء على تعليمات مشددة من الصندوق بالبعد عن الصعيد، وتركيز النشاط الكشفي في الوجه البحري والدلتا لأنه يعتقد أنها منطقة بكر تحوى آثاراً مهمة^(٢٦١)، فضلاً عن أن البحث في هذه المنطقة مما يتلائم تماماً مع أهداف الصندوق، ذلك أن سفر الخروج يسجل أن بني إسرائيل قد تكاثروا في مصر وأصبحوا من العدد والعدة بحيث يخشى خطرهم ولا يؤمن مكرهم، فتسلط عليهم فرعون مصر وسامهم سوء العذاب وأجبرهم على بناء مدينتين كبيرتين كمركزى إمدادات لجيشه هما "بيتوم" و "بروميس" وبدا الكشف عن هاتين المدينتين مشروعاً مثالياً لتأييد نصوص الكتاب المقدس، فلو كانت هاتان المدينتان قد أقيمتا حقاً فستكونان من الكبر بحيث يتبقى منهما آثار وإذا أمكن الكشف عنهما فسيصبح ذلك دليلاً أثرياً على الخروج^(٢٦٢).

بدأ نافيل العمل في "تل المسخوطة" في يناير ١٨٨٣ م ممولاً بمنحة قدرها خمسمائة جنيه من إيراسموس ويلسون الذى وعد بمائة جنيه أخرى إذا دعت الحاجة، وكان هدف نافيل الرئيسي - وهدف مسانديه - اكتشاف صلة ملموسة بين الكتاب المقدس والكشوف الأثرية، وأسفرت حفائر نافيل عن كشف بقايا مدينة قديمة ومعسكر حربي وعدة تحصينات وأطلال أحد المعابد وعدد من المباني الأخرى التي تشبه المخازن، وكانت هناك شواهد تدل على أن المدينة قد أقيمت على عهد رمسيس الثاني، ولكن ليس ثمت علامات يمكن أن تربطها بالإسرائيليين، بيد أن أمناء الصندوق هللوا للكشف ونوهوا به وصنعوا له دعاية واسعة لجمع مزيد من التبرعات والمعونات لاستكمال الاستكشافات الأثرية، وإن كان ذلك لم يقنع كل الأطراف المعنية، فالمتلهفون على تأكيد حجية العهد القديم كانوا أكثر اقتناعاً بما أسفرت عنه حفائر نافيل في تل المسخوطة، أما علماء المصريين فقد ظلوا متشككين، وأدى الجدل الناشئ إلى دعاية رائعة للصندوق، فزاد عدد أعضائه زيادة كبيرة^(٢٦٣)، وقالت مجلة "المقتطف" "إن نافيل" قد اكتشف في ذلك التل [تل

المسخوطة [كتابة تدل على أنه هو موقع بيتوم التي بناها الإسرائيليون " ووصفت المجلة هذا الاكتشاف بأنه " أعظم الاكتشافات قيمة في نظر علماء التاريخ" (٣٦١).

كان هدف نافيل الثاني هو مدينة " صان " التي يشير الكتاب المقدس إلى أنها كانت عاصمة مصر القديمة التي وقعت فيها معجزات موسى عليه السلام، وكان هناك اتفاق عام بين علماء الآثار على موقع هذه المدينة : بقعة جرداء تنتشر فيها المستنقعات والحي في شرق الدلتا، سماها الإغريق تانيس، وسماها العرب صان، وبدأت إميليا إدواردز في العمل على جميع الأموال، فراسلت رجل الدين الأمريكي ويليام وينسلو المستول عن الفرع الأمريكي للصندوق، وبدأ هذا حملة صحفية باسم " فؤوس صان " وقال : " إنه مشروع يروق لكل قارئ للكتاب المقدس، وكل دارس للتاريخ وعجائب آثار مصر " ووعده إيراسموس ويلسون بتقديم ألف جنيه، ووعده المستر نادلر أحد أعضاء الصندوق بدفع خمسين جنيهاً إذا أمكن العثور على تسعة عشر آخرين يدفع كل منهم نفس المبلغ، وفي تلك الأثناء انسحب نافيل فجأة من المشروع زاعماً أن ضغوط العمل تمنعه من التوجه إلى مصر في ذلك الوقت، ويبدو أن موقع تلك المدينة النائي وغير المريح لم يرق له (٣٦٢) على أية حال فإن العلاقة بين نافيل وصندوق استكشاف مصر لم تنقطع إلى الأبد، فقد عاد نافيل إلى العمل لحساب الصندوق مرة أخرى بعد ثلاث سنوات، واستمر يعمل حتى عام ١٩١٣ م وأمكنه أن يرفع من شأن الصندوق حتى احتل مكاناً بين المنظمات المهمة بالبحوث الأثرية المصرية، وكانت حفائر نافيل التي أجراها برعاية صندوق استكشاف مصر مثار اهتمام كثير من علماء الآثار (٣٦٣).

اختار صندوق استكشاف مصر الأثرى الإنجليزي فلندرز بيتري ليحل محل نافيل الذي اعتذر عن العمل في " صان " واستمرت العلاقة بين بيتري والصندوق ثلاث سنوات كشف بيتري خلالها عن موقع مدينة " بقرطيس " أكبر مركز تجارى في مصر في العصر اليوناني وقد ظل موقعها موضع جدال عنيف بين علماء المصريات طيلة جيل بأسره (٣٦٤).

ظل صندوق استكشاف مصر يعمل في مجال الكشف عن الآثار المصرية القديمة حتى جاوز عمره المائة عام، فقد احتفل الصندوق بعيدة المنوى عام ١٩٨٢ م (٣٦٥). وكان الصندوق قد أكد عزمه منذ البداية على الإبقاء على نتائج حفائره في مصر وعدم نقلها إلى الخارج، كما جاء ذلك في أول منشور يوزعه الصندوق على الجمهور : " وتتعهد الجمعية بإجراء الحفائر بوجه خاص في المواقع ذات الأهمية بالنسبة للكتاب المقدس وذات الأهمية العامة دون انتهاك للقانون المصري، وبمقتضاه يصبح كل ما يكتشف مملوكاً لمتحف بولاق" (٣٦٦) على أن الأعضاء المؤسسين للصندوق سرعان ما تخلوا عن هذا الالتزام، وعاونهم في ذلك ماسبيرو المعروف بمرونته وتساهله في التعامل مع القوانين التي تحظر نقل الآثار المصرية إلى الخارج، ففي عام ١٨٨٣ م وافق ماسبيرو على إهداء

صندوق استكشاف مصر أول مجموعة أثرية من تل المسخوطة^(٢٧٠)، شملت اثنين من أفضل التماثيل التي اكتشفت هناك - صقر جرانتي وكتاب يجلس القرفصاء - وقد أهداها الصندوق بدوره إلى إيراسموس ويلسون أسخى رعاة الصندوق والذي تنازل عنها بسهولة إلى المتحف البريطاني^(٢٧١)

وهكذا حصل الصندوق على أجمل الآثار التي كشف عنها كمكافأة له على قراره غير المسبوق بالالتزام بالقانون الذي يمنع تصدير الآثار، وهذا منطبق غريب؛ أن يسمح لك بغرق القانون طالما أظهرت نواياك الحسنة وأعلنت عزمك على الالتزام به، على أية حال فإن حصول الصندوق على نصيب من الآثار التي تكشف عنها حفائره قد أصبح منذ ذلك الحين حقاً مكتسباً له، وعندما تعاقد الصندوق مع بيتري ليحل محل نافيل أصبر بيتري على أن تكون شروط استخدامه مختلفة عن شروط استخدام نافيل في نقطة هامة، فقد اشترط السماح له بشراء الآثار الصغيرة التي قد يجدها عماله أو التي قد يأتي بها التجار إلى مكان الحفر، وكان بيتري يعتبرها المواد الأساسية التي يمكن منها استخلاص التاريخ القديم، ولكن كانت هناك مشكلة القانون الذي يقضي بأن تكون كل الآثار المكتشفة - صغيرة كانت أم كبيرة - مملوكة لمتحف بولاق، وخطرت لبيتري فكرة ظلها حلاً ملائماً، فسوف يقدم بيتري في نهاية الموسم الأثرى المجموعة المكتشفة كلها إلى ماسبيرو طالباً منه فحسب أن يأخذ إلى الوطن الأشياء التي لا يريدتها ماسبيرو، وتقدم هذه الأشياء عندئذٍ إلى الصندوق ليقوم بتوزيعها بين المتاحف البريطانية والأمريكية مع إشارة إلى أن المنح مقبولة للغاية، وبدأت هذه خطة جيدة إذا ما قبلها ماسبيرو، وطلب من بيتري أن يسافر إلى مصر عن طريق باريس ليقابل مدير مصلحة الآثار المصرية - الذي كان في أجازته السنوية - للحصول على موافقته، ووافق ماسبيرو بسهولة مشروطاً فحسب أن يظل الترتيب سرياً إلى أن يعود إلى القاهرة^(٢٧٢) ومشروطاً كذلك أن تذهب كل المجموعات الأثرية التي يكتشفها بيتري إلى متحف بولاق أولاً، وأن توضع في صناديق الآثار المكررة التي يريد بيتري تصديرها، ويبلغ بها ماسبيرو ليفحصها ثم يوافق على إعطائها لبيتري، وكان ماسبيرو يوافق عادة، وكان بيتري يسجل في رسائله للصندوق كرم ماسبيرو، وفي لندن كان الصندوق يقوم بعرض الآثار الواردة من مصر ليحصل على تبرعات، ثم يكتب لبيتري وغيره من الذين ينقبون باسم الصندوق طالباً مزيداً من الآثار المصرية، وبعد أن تولى جربو مصلحة الآثار المصرية اتهم بيتري بهتريب خمسمائة ألف قطعة من الفخار المصري بدون ترخيص^(٢٧٣)، والغريب أن بيتري كان يغضب عندما يقوم ماسبيرو باستبقاء جزء من الآثار المكتشفة لمتحف بولاق، فقد كان يعتقد أنها ستوجه إلى متجر الآثار التابع للمتحف حيث تباع للساكنين، مع أن ماسبيرو كان قد سمح لبيتري بأن يأخذ معه مجموعة كبيرة

من الآثار عرضت في معهد الآثار الملكي بلندن قبل أن تقسم بين المتحف البريطاني ومتحف الفنون الجميلة ببوسطن^(٢٧٤).

ويمكن القول بأن المتحف البريطاني كان أول المستفيدين من الآثار التي يأتي بها الصندوق من مصر رغم أن صمويل بيرش وواليس بدج أمناء المتحف كانا من أشد المعارضين للصندوق منذ نشأته، حتى إن بدج كتب ذات مرة رسالة بعث بها المتحف إلى الصندوق يشتكي فيها من أن الآثار التي أهديت إليه عديمة القديمة، وقالت الرسالة إن الأمناء لا يمكن أن يوصوا بقبول كمية كبيرة من الخزف والقطع الفخارية الصغيرة التي لا تساوي شيئاً من وجهة نظرهم، وقد أثارت هذه الرسالة غضب بيتري حتى إنه كتب إلى أميليا إدواردز شاكياً: "إن العبارات الزائفة لهذه الرسالة وما تكشف عنه من جهل شنيع بالأركيولوجيا الحقيقية والعلمية تمنعني من أن أتعامل مع هذه الجهة مرة أخرى" وقد ظل على ابتعاده هذا طيلة حياته^(٢٧٥).

كذلك استفادت المتاحف الأمريكية كثيراً من علاقتها بصندوق استكشاف مصر وذلك طبقاً لقاعدة وضعها الصندوق مفادها أن جميع الآثار المكتشفة - بعد إعطاء الحكومة المصرية نصفها طبقاً للقانون - يتم توزيعها على المتاحف الممولة طبقاً للمبالغ التي ساهموا بها^(٢٧٦).

وفي التقرير الذي نشره الصندوق عن أعماله في مائة سنة اعترف الصندوق بأن المتحف البريطاني كان أول من أفاد من الحفائر التي أجراها الصندوق، يليه متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن الأمريكية لأنه كان يتبرع للصندوق بمبالغ كبيرة، ثم متاحف ليفربول وشيفلد وأدنبره البريطانية، ثم المتاحف الأمريكية الأخرى، بل إن الأمر لم يقتصر على المتاحف، ففي تقرير الصندوق السابق ذكره أنه عندما توقفت أعمال الحفر في الأقصر بسبب ضعف الإمكانيات ونفاد المخصص تبرع رجل أمريكي بألف جنيه للصندوق مقابل أن يأخذ حصته في الآثار المكتشفة، فوافق الصندوق على ذلك^(٢٧٧)، وهكذا ساعد صندوق استكشاف مصر على نهب آثار مصر تحت ستار البحث عنها والمحافظة عليها.

مؤسسات أخرى.

وبالإضافة إلى هاتين المؤسستين فقد ظهرت خلال القرن التاسع عشر مؤسسات أجنبية أخرى مهمة بشئون الآثار المصرية القديمة، غير أن تأثير هذه المؤسسات على الكشف الأثري في مصر كان محدوداً وعلى نطاق ضيق، وذلك أن بعض هذه المؤسسات قد كانت لها أهداف أخرى خاصة بخلاف هدف دعم الاكتشافات الأثرية في مصر، وهي أغراض دينية في الغالب ترمي إلى خدمة الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس، ولعل من أمثلة هذه المؤسسات "جمعية الآثار الإنجيلية" التي تأسست في لندن في نوفمبر من عام ١٨٧٠م على يد كل من صمويل بيرش أمين المتحف البريطاني وجوزيف يونومي الذي كان أميناً لمتحف جون ساون، وقد وضعت هذه

الجمعية لنفسها أهدافاً تسعى لتحقيقها، وتتمثل هذه الأهداف في " دراسة الأركيولوجيا والجغرافيا والتاريخ القديم والحديث لآشور والجزيرة العربية ومصر وفلسطين وغيرها من أراضي الكتاب المقدس، وتشجيع دراسة آثار هذه البلدان " واختير بيرش رئيساً للجمعية، وضم مجلس الجمعية ستة من رجال الدين المسيحي، كما انضم إليها فيما بعد من كبار رجال السياسة البريطانيين : جلادستون ولورد سالسبوري، وكذلك الرحالة الإنجليزي دين ستانلي، وقد سعت الجمعية كغيرها من الجمعيات الأثرية الإنجليزية التي قامت على أساس ديني إلى أن تضع أمام الجمهور دليلاً أركيولوجياً على الأحداث التي سجلها العهد القديم، ولكنها عجزت عن ذلك (٢٧٨).

وهناك أيضاً جمعية تسجيل الآثار المصرية أو حساب الأبحاث المصرية Egypt Research account وهي جمعية أنشئت في إنجلترا عام ١٨٩٥ م بمعرفة قلندرز بيتري بغرض تسجيل المعلومات عن الآثار المصرية القديمة المكتشفة، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تساهم فيها بمبالغ كبيرة، ورغم أن هذه الجمعية كانت مخصصة لتسجيل المعلومات وتدريب الطلاب على أعمال البحث الأثري إلا أنها كانت تقوم أيضاً بتوزيع أعداد من القطع الأثرية المكتشفة بين أعضائها (٢٧٩).

كانت هذه هي أشهر المؤسسات والجمعيات الأجنبية العاملة في مجال التنقيب الأثري في مصر، ويلاحظ أن جميع هذه المؤسسات قد تكونت في إنجلترا دون غيرها من الدول، وربما كان ذلك أمراً طبيعياً بحكم الاحتلال الإنجليزي لمصر، وبحكم العلاقات الخاصة التي كانت تربط بين مصر وإنجلترا قبل هذا الاحتلال، هذا بالإضافة إلى رغبة إنجلترا في الدفع بنفسها كشريك أسامي في عملية الاستكشاف الأثري في مصر وعدم ترك الساحة خالية أمام منافسيها الفرنسيين والألمان الذين كانوا يحتلون بالفعل موقعاً متميزاً في مصلحة الآثار المصرية، كما يلاحظ كذلك أن هذه المؤسسات كانت تحظى بدعم أمريكي واسع النطاق، ذلك أن الاهتمام الأمريكي بعلم المصريات في القرن التاسع عشر كان يعطى أهمية كبرى لمساعدة المنظمات البريطانية المهتمة بالآثار المصرية القديمة بمنحها تبرعات ضخمة، على حين لم يشارك الأمريكيون بأنفسهم مشاركة إيجابية في مجال الكشف الأثري في مصر إلا مع بداية القرن العشرين.

الهوامش

- (١) محافظ الأبحاث، موضوعات مختلفة، محفظة رقم (١٣٩) ملف طرق وآثار، دفتر رقم (٧١) معية سنية (تركي) ترجمة الأمر الكريم المؤرخ في ١٠ رمضان ١٢٥١ هـ (٣٠ ديسمبر ١٨٣٥ م).
- (٢) وزارة المعارف العمومية: "إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته" طبعة: دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م، ص ٣٩١.
- (٣) محافظ الأبحاث، موضوعات مختلفة، محفظة رقم (١٣٩) ملف طرق وآثار، دفتر رقم (٧١) معية سنية (تركي) ترجمة الأمر الكريم المؤرخ في ١٩ رمضان ١٢٥١ هـ (٨ يناير ١٨٣٦ م)، وانظر كذلك: Wiet : op. cit., p : 29.
- (٤) عبد المنعم أبو بكر: قصة المتحف المصري " ص ٢٦.
- (٥) مجلة "الهلل" عدد نوفمبر ١٩٩٣ م، ص ٩١.
- (٦) محافظ الأبحاث، موضوع التعليم، محفظة رقم (٦٢) دفتر رقم (١٤١) مدارس، ص (٣٨٠) ملخص المكتبة العربية نمرة (٧١) بتاريخ ١٥ ذو الحجة ١٢٦٥ هـ (١ نوفمبر ١٨٤٩ م).
- (٧) وزارة المعارف العمومية "إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته"، ص ٣٩١.
- (٨) بيتر فرانس: "اغتناب مصر"، ص ١٣٨.
- (٩) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ٢٨.
- (١٠) بيتر فرانس: "اغتناب مصر"، ص ١٣٨، ١٣٩، وانظر كذلك: عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ٢٧.
- (١١) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٤، ص ١٣٣.
- (١٢) محافظ معية سنية (عربي) مستخرجة من المعية التركي، محفظة رقم (٢) وثيقة رقم (١٤٢) بتاريخ ١٧ رجب ١٢٧٤ هـ (٤ مارس ١٨٥٨ م).
- (١٣) محافظ معية سنية (عربي) مستخرجة من المعية التركي، محفظة رقم (٢) ملخص الوثيقة رقم (١٥٨) بتاريخ ١٦ ذو الحجة ١٢٧٤ هـ (١٨ يوليو ١٨٥٨ م).
- (١٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨٩٣) أوامر، ص (٩٠) وثيقة رقم (٢٩) بتاريخ ٢٩ شوال ١٢٧٦ هـ.
- (١٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، دج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨) معية سنية (تركي) ورقة (١٤٢) وثيقة رقم (١٩٢) بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٧٤ هـ (١٢ مارس ١٨٥٨ م).
- (١٦) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ٢٩.
- (١٧) سليم حسن: "مصر القديمة" ج ٤، ص ١٣٤، وانظر كذلك: بيتر فرانس: "اغتناب مصر" ص ١٤٠.
- (١٨) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ١٣.
- (١٩) Etienne Drioton : " Le musée de Boulac " cahiers d'histoire Egyptienne, Egyption history papers, serie III, face 1 , novembre 1950. p : 3
- (٢٠) Etienne Drioton : op. cit., P : 4 (٢٠).
- (٢١) بيتر فرانس: "اغتناب مصر"، ص ١٤٣.
- (٢٢) جيمس بيكي: "الآثار المصرية في وادي النيل" ج ١، ص ٩٠، ٩١.
- (٢٣) جرجي زيدان: "تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر" ج ٢، ص ١٩٤.
- (٢٤) بيتر فرانس: "اغتناب مصر"، ص ١٤٤.
- (٢٥) سجلات معية سنية (عربي) صادر الأوامر العليا إلى المجالس والداوين والأقاليم والمحافظات ص ١ / ١ / ٢٤ سجل رقم (١٩٠٧) قديم، ص (١٠٠) وثيقة رقم (٦٢) بتاريخ ١٩ رجب ١٢٨٠ هـ (٣٠ ديسمبر ١٨٦٣ م) ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية (عربي).
- (٢٦) أمين سامي: "تقويم النيل" المجلد الأول من الجزء الثالث "عصر عباس وسعيد"، ص ٣٠٧.
- (٢٧) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ٣٠.
- (٢٨) عبد الرزاق السنهوري: "التعليم" بحث منشور ضمن كتاب "إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته"، ص ٢٧.
- (٢٩) محافظ الأبحاث، موضوعات مختلفة، محفظة رقم (١٢٧) ملف الأوراق الخاصة بإنشاء دار الآثار ومنع خروجها من القطر المصري، ملخص الأمر الكريم رقم (١٠) بتاريخ ٢٨ شعبان ١٢٧٩ هـ (١٨ فبراير ١٨٦٣ م)، وانظر كذلك أمين سامي: "تقويم النيل" المجلد الثاني من الجزء الثالث "عصر إسماعيل"، ص ٤٦٢.

- (٣٠) المرجع السابق، نفس الجزء.. ص ٥٩٤.
- (٣١) دومبليك فالبل: "علم المصريات"، ص ١٤٨.
- (٣٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٨٩١) أوامر، ص (١٢٥) وثيقة رقم (٤٨) بتاريخ ١١ رمضان ١٢٧٦ هـ (٢ أبريل ١٨٥٩ م).
- (٣٣) Blanc : op. cit., p : 305. Also Jean Ellul : " Guides et catalogues musées égyptologiques " cahiers (٣٢) d'histoire Egyptienne, Egyption History papers, serie III, face : 1, November 1950. p : 88. صفحات هذا الدليل ثلاثمائة وأربع صفحات فقط، وانظر أيضاً في ذلك : حسن كمال : " مصلحة الآثار المصرية ودار الآثار المصرية وتاريخ إنشائها " مجلة المقتطف " عدد ديسمبر ١٩٣٥ م مجلد (٨٧) ، ص ٥٩٨.
- (٣٤) ترجمه أبو السعود أفندي المترجم بقلم الترجمة بدويان عموم المدارس الملكية، وطبعته مطبعة وادي النيل (٣٥) ، ص ٤ (مقدمة المترجم).
- (٣٦) للمرجع السابق ص ١٣ - ٢٦ باختصار.
- (٣٧) المرجع السابق ، ص ٢١.
- (٣٨) المرجع السابق ، ص ٢٢.
- (٣٩) المرجع السابق ، ص ٣١.
- (٤٠) المرجع السابق ، ص ٥٢.
- (٤١) مارت : " فرجة المنفرج على الأتليقة خانة الخديوية " ، ص ٩٥.
- (٤٢) المرجع السابق ، ص ١٠١.
- (٤٣) المرجع السابق ، ص ١١٥.
- (٤٤) المرجع السابق ، ص ١٢٥.
- (٤٥) المرجع السابق ، ص ١٦١.
- (٤٦) Blanc : op. cit., p : 318.
- (٤٧) Drioton : op. cit., p : 10 - 11. Also Ellul : op cit., p : 88.
- (٤٨) مجلة " المقتطف " عدد سبتمبر ١٩١٦ م. مجلد (٤٩) ، ص ٢١٥. وانظر كذلك : عدد ديسمبر ١٩٣٥ م مجلد (٨٧) ، ص ٥٩٨.
- (٤٩) محافظ مجلس الوزراء. نظارة الأشغال، ميزانية، محفظة رقم (٥ / ب) ميزانية، موافقة اللجنة المالية بتاريخ ١٥ مايو ١٨٨٧ م على فتح اعتماد بمبلغ ٢٠٠ لإنشاء جرنال للأنتيكخانة المصرية.
- (٥٠) دومبليك فالبل: "علم المصريات"، ص ١٤٢.
- (٥١) الإسماعيلية : خطة جديدة ظهرت في زمن الخديوي إسماعيل، ونسبت إليه لأنه هو الأمر بإنشائها، وحد هذه الخطة البحرية : الطريق الموصل من مصر إلى بولاق، وحدها الغربي : ترعة الإسماعيلية الأخذة من قصر النيل، ومراحل النيل إلى القصر العيني، وحدها القبلي : القصر العالي والخليج المصري، وحدها الشرقي : سور البلد القديم، وأغلب مساحة هذه الخطة هي أرض اللوق. انظر : على مبارك : " الخطط النوبيقية " ج ٣ ، ص ٤٠٤. طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. مصورة عن طبعتها الثانية بالقاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.
- (٥٢) سجلات ديوان الأشغال، صادر عربي، صادر الدواوين. سجل رقم (٣٤) ص (١٣٦) وثيقة رقم (١٢١) بتاريخ ١٩ ربيع الأول ١٢٨٧ هـ (١٩ يونيو ١٨٧٠ م).
- (٥٣) سجلات ديوان الأشغال، صادر عربي، صادر قلم الهندسة، سجل رقم (٢١) ص (٣٦) وثيقة رقم (٣١٣) بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١٢٨٩ هـ (٢٦ مايو ١٨٧٢ م).
- (٥٤) سجلات ديوان الأشغال، صادر عربي، صادر الدواوين ، سجل رقم (٤٨) ص (١٠٩) وثيقة رقم (٣٧) بتاريخ ١٧ رجب ١٢٩٠ هـ (١٠ سبتمبر ١٨٧٣ م).
- (٥٥) سجلات ديوان الأشغال، صادر عربي، صادر الدواوين ، سجل رقم (٤٩) ص (١٤٨) وثيقة رقم (١٨٤) بتاريخ ١٢ ذو القعدة ١٢٩٠ هـ (١ يناير ١٨٧٤ م).
- (٥٦) ممنوح الدماطي : " وثائق المتحف المصري " طبعة : المجلس الأعلى للآثار، القاهرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص ٩.
- (٥٧) محافظ مجلس الوزراء. نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ٢) مجموعة ٤٩ أشغال، إفادة ناظر الأشغال العمومية بتاريخ ٢ أبريل ١٨٧٩ م بخصوص تخصيص أحد مبانى مدرسة البنات وإصلاحه ونقل آثار بولاق إليه.
- (٥٨) وزارة المعارف العمومية : " إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته " ، ص ٣٩٣.

- (٥٩) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، ميزانية، محفظة رقم (٥ / ١) ميزانية، ترجمة مذكرة نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ٧ يوليو ١٨٨٥ م نمرة ٢٨١ بطلب فتح اعتماد لنظارة الأشغال العمومية بمبلغ ستة آلاف وسبعمائة جنيه للإصلاحات اللازمة بالنيل بجهة بولاق.
- (٦٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٨٨ م نمرة ٧٦٦ بشأن نقل الأنتيكات الموجودة في أشوان متحف بولاق إلى سراى الجيزة.
- (٦١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، مذكرة من اللجنة المالية لمجلس النظار بتاريخ ١٠ مارس ١٨٨٩ م بشأن فتح اعتماد بمبلغ ألف جنيه لنقل الأنتيكات الموجودة بأشوان متحف بولاق ووضعها في سراى الجيزة وموافقة المجلس على ذلك بتاريخ ٢١ مارس ١٨٨٩ م، ثم مذكرة أخرى من اللجنة المالية إلى المجلس بتاريخ ٢١ مايو ١٨٨٩ م بطلب فتح اعتماد بمبلغ ثمانية آلاف جنيه بخلاف الألف جنيه الأولى لنقل الأنتيكات وموافقة المجلس على ذلك بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٨٩ م.
- (٦٢) عبدالمعص أبو بكر: " قصة المتحف المصرى "، ص ٣٥.
- (٦٣) أحمد شفيق: " مذكراتى في نصف قرن " الجزء الثانى، القسم الأول (١٨٩٢ - ١٩٠٢ م) مطبعة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م، ص ٣٥.
- (٦٤) فيرى: " الخلاصة الوجيزة في بيان أهم الآثار المعروضة بمتحف الجيزة " تقديم: دى مورجان، ترجمة: أنيس أفندى إكليمندوس، طبعة بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٣ م، ص ٥ - ٧ باختصار.
- (٦٥) عدد الجمعة ٢٤ يناير ١٨٩٠ م.
- (٦٦) فيرى: " الخلاصة الوجيزة " ص ٧٧.
- (٦٧) مجلة " المقتطف " عدد مايو ١٨٩٣ م، مجلد (١٧)، ص ٥٦٣.
- (٦٨) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٣ أبريل ١٨٩٠ م بشأن التدابير المقترحة لتفادها لوقاية ألتفخانة سراى الجيزة من السرقات.
- (٦٩) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٤ فبراير ١٨٩٤ م بشأن التعديلات اللازمة لسراى الجيزة.
- (٧٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة إفادة بعث بها حضرة المسيو مورجان مدير عموم الآثار التاريخية إلى نظارة الأشغال العمومية في ٢٧ مارس ١٨٩٤ م.
- (٧١) يذكر أن النية كانت متجهة في ذلك الوقت إلى إحياء فكرة الغنوبى لإسماعيل بجمع الآثار المصرية القديمة والآثار الإسلامية والكتبة الخانة المصرية في بناء واحد، ولكن صُرف النظر عن هذا المشروع لأسباب غير معلومة. انظر: سجلات معية سنية (عربى) سجلات المصادر الغير رسمى من قلم التعريبات، سجل رقم (١٨) قديم (١٦) خاص، ص (٤٤) وثيقة (بنون رقم) بتاريخ ١٩ شعبان ١٣١٠ هـ / ٨ مارس ١٨٩٣ م. ضمن ميكروفيلم رقم (٢١) معية سنية (عربى).
- (٧٢) مدحود الدماطى: " وثائق المتحف المصرى " ص ١٠، ١١.
- (٧٣) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة محضر الجلسة التى عقدتها القومسيون المشكل للنظر في التصميمات المختصة بألتفخانة الجيزة بتاريخ ٢٦ فبراير ١٨٩٣ م.
- (٧٤) مجلة " المقتطف " عدد ديسمبر ١٩٠٢ م مجلد (٢٧)، ص ١١٣٧.
- (٧٥) مدحود الدماطى: " وثائق المتحف المصرى " ص ١١.
- (٧٦) مجلة " المقتطف " عدد أبريل ١٨٩٥ م مجلد (١٩) ج ١، ص ٣١٩.
- (٧٧) مجلة " المقتطف " عدد ديسمبر ١٩٠٢ م، مجلد (٢٧)، ص ١١٣٨.
- (٧٨) أحمد شفيق: " مذكراتى في نصف قرن " الجزء الثانى، القسم الأول، ص ٢٤٣.
- (٧٩) مجلة " المقتطف " عدد مايو ١٨٩٧ م، مجلد (٢١)، ص ٣٩٤.
- (٨٠) مجلة " المقتطف " عدد ديسمبر ١٩٠٢ م، مجلد (٢٧)، ص ١١٣٨.
- (٨١) مدحود الدماطى: " وثائق المتحف المصرى " ص ١١.
- (٨٢) مجلة " المقتطف " عدد مايو ١٩٠١، مجلد (٢٦)، ص ٤٦٦ من تقرير اللورد كرومر عن أحوال مصر في سنة ١٩٠٠ م.
- (٨٣) ماسيرو: " دليل التحف المصرية الفاخرة لمدينة القاهرة " ترجمة: أحمد كمال، طبعة: بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م، ص (١) من المقدمة. (٨٤) مجلة " المقتطف " عدد ديسمبر ١٩٠٢ م، مجلد (٢٧)، ص ١١٣٨، ١١٣٩.

- (٨٥) ممدوح الدماطي: "وثائق المتحف المصري" ص ١٤.
- (٨٦) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، رتب ونهاشين محفظة رقم (٥)، رتب ونيلشين الأثنيكخانه، ترمه مكتبة نظارة الأشغال العمومية بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٠٢ م بطلب الإحسان برتب ونيلشين على بعض الموظفين والمقاولين الذين اشتركوا في بناء الأثنيكخانه المصرية.
- (٨٧) ممدوح الدماطي: "وثائق المتحف المصري" ص ١١، وانظر كذلك: مجلة "المقتطف" عدد مايو ١٩٠١ م، مجلد (٢٦)، ص ٤٦٦، وانظر كذلك عدد ديسمبر ١٩٠٢ م، مجلد (٢٧)، ص ١١٤٠.
- (٨٨) عدد ديسمبر ١٩٠٢ م، مجلد (٢٧)، ص ١١٤٠.
- (٨٩) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، ميزانية، محفظة رقم (٥/د) ميزانية، مجموعة ٤٩ أشغال، مذكرة اللجنة المالية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٦ أبريل ١٩٠٨ م نمرة (٥٢) بالموافقة على فتح اعتماد خصوصي لنظارة الأشغال العمومية بمبلغ تسعة آلاف جنيه.
- (٩٠) عدد ١٨ ديسمبر ١٩٠٨ م.
- (٩١) ممدوح الدماطي: "وثائق المتحف المصري" ص ٤٢.
- (٩٢) محسن محمد: "سرقة ملك مصر"، ص ٣٧٦.
- (٩٣) عدد رقم (٢٥) جماد الآخر ١٣٧٨ هـ / يناير ١٩٥٩ م، ص ٨.
- (٩٤) تأسس مجلس المعارف المصري Institute Egyptien في مدينة الإسكندرية عام ١٨٥٩ م (١٢٧٥ هـ) على يد جماعة من رجال العلم قصدوا من وراء ذلك إحياء فكرة المعهد العلمي المصري الذي أنشأته الحملة الفرنسية، ثم ذهب بذهابها من مصر عام ١٨٠١ م. وقد ضم مجلس المعارف المصري في عضويته نخبة من العلماء الأجانب كان من بينهم بعض علماء الآثار مثل مارت وماسبيرو، وفي عام ١٨٨٠ م نقل مجلس المعارف المصري إلى القاهرة، وهو قائم بها إلى اليوم يؤدي مهمته في نشر الأبحاث العلمية تحت مسمى "المجمع العلمي المصري". انظر: جرجي زيدان: "تاريخ أدب اللغة العربية" مراجعة شوقي ضيف، طبعة: دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ، ج ٤ ص ٧٧، ٧٨، وانظر كذلك: عبدالرحمن الراجحي: "عصر إسماعيل" ج ١ ص ٢٤٤.
- (٩٥) أحمد كمال: "الخلاصة الدرية" في آثار متحف الإسكندرية "مطبعة عين شمس، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م، ص ٣٠٢.
- (٩٦) كوم جفيف: قرية أنشئت على أطراف مدينة نقراطيس القديمة، وهي تتبع حالياً مركز إيتاي البارود - محافظة البحيرة.
- انظر: محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ٢ ج ٢، ص ٢٤٨.
- (٩٧) دفنه: مدينة قديمة كانت تقع على الفرع الهيلوئي للنيل، ومكانها اليوم يعرف بكوم دفنه بمركز فالقوس - محافظة الشرقية، انظر: المرجع السابق، قسم ١، ص ١٩٣.
- (٩٨) أحمد كمال: "الخلاصة الدرية" ص ٣، ٤ بتصرف.
- (٩٩) عبدالرحمن زكي: "دور التحف في مصر والتجمعات العلمية" بدون ذكر دار النشر، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م، ص ٢٥.
- (١٠٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مذكرة بشأن متحف ومكتبة الإسكندرية.
- (١٠١) أحمد كمال: "الخلاصة الدرية" ص ٤.
- (١٠٢) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، مشروع لائحة خاصة بإنشاء متحف الإسكندرية وموافقة مجلس النظار على ذلك بتاريخ ٨ يونيو ١٨٩٢ م (١٢ ذو القعدة ١٣٠٩ هـ).
- (١٠٣) هنري رياض، يوسف حنا شحاته، يوسف مفيد الغرياني: "دليل آثار الإسكندرية" مراجعة: داوود عبده داوود، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م، ص ٥٧.
- (١٠٤) عبدالرحمن زكي: "دور التحف في مصر" ص ٢٥.
- (١٠٥) أحمد شفيق: "مذكراتي في نصف قرن" الجزء الثاني، القسم الأول، ص ٣٤.
- (١٠٦) أحمد كمال: "الخلاصة الدرية" ص ٥.
- (١٠٧) هيئة الآثار المصرية: "المتحف الهلواني الروماني" بدون ذكر دار النشر أو زمان أو مكان الطبع، ص ١.
- (١٠٨) مجلة "الشمس" الإسكندرية، عدد أكتوبر ١٨٩٥ م / ربيع الآخر ١٣١٣ هـ، مجلد (١)، ص ٢٩٥.
- (١٠٩) مجلة "المقتطف" عدد أكتوبر ١٨٩٥ م، مجلد (١٩) ج ٢، ص ٧٩٩ - ٨٠٠.
- (١١٠) ميخائيل شاروبيم: "الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث" الجزء الخامس، المجلد الأول، القسم الثاني، ص ٣٤.
- (١١١) عبدالرحمن زكي: "دور التحف في مصر" ص ٢٦ وجدير بالذكر أن أحمد كمال قد اعتمد على دليل بوتّي هذا في إخراج كتابه "الخلاصة الدرية" في آثار متحف الإسكندرية بعد أن تناوله بشيء من التنقيح وازدهاد المواد والتصليح، ليسهل على المتفرج الاستدلال، ويفنيه عن كل سؤال انظر: أحمد كمال: "الخلاصة الدرية" ص ٧.

- (١١٢) هنري رياض وآخرون: " دليل آثار الإسكندرية " . ص ٥٧ بتصرف. وانظر أمثلة للآثار التي يضمها المتحف من بلاد أخرى غير الإسكندرية في المرجع السابق، ص ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥.
- (١١٣) أحمد كمال: " الغلاصة النرية " . ص ٢٦٤.
- (١١٤) المرجع السابق، ص ٥.
- (١١٥) المرجع السابق، ص ٢٤٣.
- (١١٦) المرجع السابق، ص ٧٤٦.
- (١١٧) أمين سامي: " التعليم في مصر بين سنتي ١٩١٤، ١٩١٥ م وبها تفصيلي بنشر التعليم الأولي والابتدائي بإنهاء الديار المصرية " مطبعة المعارف، القاهرة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧ م، ص ٢٠.
- (١١٨) خطأ، صوابه: " يكونون " .
- (١١٩) خطأ سبق أن نينا على مثله في الهامش السابق، وما تحته خط ربما يكون غامضاً بمعنى الشيء، على أية حال فإنه يقصد - على ما يظهر - أن تلاميذ هذه المدرسة يختارون من التلاميذ الزوج الذين كانوا يدرسون بالفعل في مدرسة التجييزية.
- (١٢٠) محافظ الأبحاث، موضوع التعليم، محفظة رقم (٦٣) صورة الأمر الكريم رقم (١) بتاريخ ١٣ رجب ١٢٨٥ هـ وانظر كذلك: فيايرس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (٥١٨) مدارس، دفتر رقم (١٩٢٧) أوامر، ص (٢٤) وثيقة رقم (١) بتاريخ ١٣ رجب ١٢٨٥ هـ.
- (١٢١) أحمد عزت عبد الكريم: " تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل والسنوات المتصلة به من حكم توفيق " مطبعة النصر، القاهرة، بدون تاريخ ج ٢، ص ٥٧٠.
- (١٢٢) يقصد: من الخارج.
- (١٢٣) محافظ الأبحاث، موضوع التعليم، محفظة رقم (٦٣) دفتر رقم (٤١٩) أوامر (عربي) ص (٨٥) وثيقة رقم (٢٣٥)، وانظر كذلك نفس السجل، ص (١٠٠) وثيقة رقم (٨) وكلاهما بتاريخ غرة جماد الثاني ١٢٨٦ هـ (٨ ديسمبر ١٨٦٩ م).
- (١٢٤) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين م ١ / ١ سجل رقم (٢٠١) حديث (٤٢٦) قديم، ص (٨٨) وثيقة رقم (٢٠٠) بتاريخ ١٤ شوال ١٢٨٦ هـ (١٧ يناير ١٨٧٠ م).
- (١٢٥) أحمد عزت عبد الكريم: " تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل " ج ٢، ص ٥٧٠.
- (١٢٦) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين سجل رقم (٢٠١) حديث (٤٢٦) قديم ص (٦٠) وثيقة رقم (٦٦) بتاريخ ١٠ رمضان ١٢٨٦ هـ (١٤ ديسمبر ١٨٦٩ م).
- (١٢٧) جاك تاجر: " حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر " مطبعة دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٨٧.
- (١٢٨) محمد فؤاد شكرى وآخرون: " بناء دولة مصر محمد علي، السياسة الداخلية " ص ٢٤٣، ٢٤٤.
- (١٢٩) علماء الحملة الفرنسية: " وصف مصر " ج ١٢، ص ١٧.
- (١٣٠) ج ٩، ص ١٨، ١٩، وانظر كذلك، ص ٣٠، ٣١.
- (١٣١) " حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر "، ص ٨٧، ٨٨.
- (١٣٢) أمين سامي: " تقويم النحل " المجلد الأول من الجزء الثالث " عصر عباس وسعيد "، ص ٢٧٢.
- (١٣٣) سجلات محافظة مصر، وارد عربي، وارد الدواوين، سجل رقم (٤٥) ص (٧١) وثيقة رقم (٢٠٠) بتاريخ ٢ جماد الأول ١٢٨١ هـ (٣ أكتوبر ١٨٦٤ م).
- (١٣٤) محافظ الأبحاث، موضوع التعليم، محفظة رقم (٦٣) دفتر رقم (٤٢٦) أوامر (عربي) ص (٨٨) وثيقة رقم (٢٠٠) بتاريخ ١٤ شوال ١٢٨٦ هـ (١٧ يناير ١٨٧٠ م).
- (١٣٥) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠١) حديث (٤٢٦) قديم، ص (١٠٦) وثيقة رقم (٢٦٣) بتاريخ ١٤ شوال ١٢٨٦ هـ.
- (١٣٦) تذكره جميع المراجع باسم " علي جيد " مع أنني لم أجده مكتوباً في جميع الوثائق التي اطلعت عليها إلا " علي حيدر " .
- (١٣٧) محافظ الأبحاث، موضوع التعليم، محفظة رقم (٦٣) دفتر رقم (٤٢٦) أوامر (عربي) ص (٨٨) وثيقة رقم (٢٠٠) بتاريخ ١٤ شوال ١٢٨٦ هـ.
- (١٣٨) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠١) حديث (٤٢٦) قديم، ص (١٠٦) وثيقة رقم (٥٣) بتاريخ ١٤ محرم ١٢٨٧ هـ (١٦ أبريل ١٨٧٠ م).
- (١٣٩) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٢) حديث (٤٢٧) قديم، ص (١٢٧) وثيقة رقم (٨٥) بتاريخ ٨ محرم ١٢٨٧ هـ (١٠ أبريل ١٨٧٠ م).

- (١٤٠) هو إلياس بقطر : ولد في مدينة أسبوط عام ١٧٨٤ م من أب قبطي، والتحق بقيادة الجيش الفرنسي مترجماً، وسافر إلى فرنسا مع رجال الحملة، وعين سنة ١٨١٢ م لترجمة الكتب المودعة بمحفوظات وزارة البحرية الفرنسية، وأجيز له تدريس اللغة العربية العامة بهاريس، وتوفي سنة ١٨٢١ م، ألف معجماً عربياً فرنسياً في جزأين طبع في باريس عام ١٨٦٤ م. انظر جاك تاجر : " حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر "، ص ١٣ وهو فيه " إليوس بقطر ".
- (١٤١) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٩) حديث (٤٣٨) قديم، ص (١٣) وثيقة رقم (٣٣٠) بتاريخ ١٧ صفر ١٢٨٨ هـ (٨ مايو ١٨٧١ م).
- (١٤٢) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢١٢) حديث (٤٤٨) قديم، ص (٤٣) وثيقة رقم (٥١) بتاريخ ٨ شوال ١٢٨٨ هـ (٢١ ديسمبر ١٨٧١ م).
- (١٤٣) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٢) حديث (٤٢٧) قديم، ص (١٧٩) وثيقة رقم (٥٨٦) بتاريخ ١٨ محرم ١٢٨٧ هـ (٢٠ أبريل ١٨٧٠ م).
- (١٤٤) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٦) حديث (٤٣٥) قديم، ص (٩٩) وثيقة رقم (٤٣) بتاريخ ٤ رجب ١٢٨٧ هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٧٠ م).
- (١٤٥) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٢) حديث (٤٢٧) قديم، ص (٨١) وثيقة رقم (٦٨٢) بتاريخ ١٦ صفر ١٢٨٧ هـ (١٨ مايو ١٨٧٠ م).
- (١٤٦) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٨) حديث (٤٣٧) قديم، ص (١٥٥) وثيقة رقم (٤٧) بتاريخ ٣ صفر ١٢٨٨ هـ (٢٤ أبريل ١٨٧١ م)، وجدير بالذكر أنه ما كان لوكيل ديوان المدارس أن يتفقد مصكناً له في منطقة مبروة كهنه، بل كان يستخدمه في أغراض غير السكن كما تدل على ذلك الوثائق.
- (١٤٧) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٤) حديث (٤٢٦) قديم، ص (٦٧) وثيقة رقم (٥٧٨) بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٢٨٧ هـ (١٠ يوليو ١٨٧٠ م).
- (١٤٨) لعل المقصود قاعة الدراسة بالمدرسة.
- (١٤٩) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٦) حديث (٤٣٥) قديم، ص (١٥٤) وثيقة رقم (٥٤) بتاريخ ١٦ رجب ١٢٨٧ هـ (٦ أكتوبر ١٨٧٠ م).
- (١٥٠) يقول على مبارك في خطته : إن الجاويش والباشجاويش هم المقدمون على أقرانها في المكتب، انظر ج ٩، ص ١١١ في ترجمته لنفسه.
- (١٥١) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٨) حديث (٤٣٧) قديم، ص (١٥٣) وثيقة رقم (٢٧٣) بتاريخ ٢١ محرم ١٢٨٨ هـ (١٣ أبريل ١٨٧١ م).
- (١٥٢) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٣) حديث (٤٢٨) قديم، ص (٦١) وثيقة رقم (٣٢) بتاريخ ١٠ صفر ١٢٨٧ هـ (١٢ مايو ١٨٧٠ م)، وانظر كذلك : سجلات معية سنية (عربي) صادر الأوامر العلمية إلى المجالس والدواوين والمتاحف، سجل رقم (٤١) ص (١٢٤) وثيقة رقم (١٢٦) بتاريخ ٢٣ صفر ١٢٨٧ هـ (٢٥ مايو ١٨٧٠ م).
- (١٥٣) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٣) حديث (٤٢٨) قديم، ص (٧٢) وثيقة رقم (٣٨٣) بتاريخ ١٤ صفر ١٢٨٧ هـ (١٦ مايو ١٨٧٠ م).
- (١٥٤) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٣) حديث (٤٢٨) قديم، ص (٦١) وثيقة رقم (٢٤) بتاريخ ٢٠ صفر ١٢٨٧ هـ (٢٢ مايو ١٨٧٠ م).
- (١٥٥) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٣) حديث (٤٢٨) قديم، ص (٩٩) وثيقة رقم (٣٨) بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٢٨٧ هـ (٣٠ يونيو ١٨٧٠ م).
- (١٥٦) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٣) حديث (٤٢٨) قديم، ص (٩١) وثيقة رقم (١٨) بتاريخ ١٨ ربيع الثاني ١٢٨٧ هـ (١٨ يوليو ١٨٧٠ م).
- (١٥٧) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٧) حديث (٤٣٦) قديم، ص (٨) وثيقة رقم (٨٤) بتاريخ ٨ شعبان ١٢٨٧ هـ (٣ نوفمبر ١٨٧٠ م).
- (١٥٨) سجلات ديوان المدارس، صادر عربي، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٦) حديث (٤٣٥) قديم، ص (١٩٧) وثيقة رقم (٨١) بتاريخ ٧ شعبان ١٢٨٧ هـ (٢ نوفمبر ١٨٧٠ م).

- (١٥٩) هو الطبيب سالم باشا سالم : درس في مدرسة الألسن " ثم في مدرسة الطب، وأوفدته الحكومة في عهد عباس الأول لإتمام دراسة الطب في ميونخ بألمانيا، ولما عاد إلى مصر ارتقى في المناصب الطبية، وجعله الخديوى توفيق طبية الخاص، وله عدة مؤلفات طبية، توفي سنة ١٨٩٣ م. انظر: عبدالرحمن الرافعي: "عصر إسماعيل" ج ١، ص ٢٨٠.
- (١٦٠) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٧) حديث (٤٣٦) قديم، ص (٨) وثيقة رقم (٨٢) بتاريخ ٧ شعبان ١٢٨٧ هـ.
- (١٦١) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢٠٧) حديث (٤٣٦) قديم، ص (٣٣) وثيقة رقم (٩٥) بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٨٧ هـ.
- (١٦٢) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢١١) حديث (٤٤٧) قديم، ص (٥٧) وثيقة رقم (١٩٨) بتاريخ ٤ شوال ١٢٨٨ هـ.
- (١٦٣) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢١١) حديث (٤٤٧) قديم، ص (١١٩) وثيقة رقم (١٠) بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٨٨ هـ.
- (١٦٤) مجلة " روضة المدارس المصرية " طبعة: دار الكتب المصرية، إشراف: جابر عسفير، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، السنة الثالثة، المجلد الأول، عدد (٢) ، ص ٢.
- (١٦٥) السنة الثالثة، المجلد الأول، عدد (٩) ، ص ٦.
- (١٦٦) السنة الثالثة، المجلد الثاني عدد (٢٠) ، ص ٢.
- (١٦٧) السنة الرابعة، المجلد الأول، عدد (٥) بتاريخ ٥ ربيع الأول ١٢٩٠ هـ ، ص ١٨ من الملحق.
- (١٦٨) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الفروع والدواوين، سجل رقم (٢١٦) حديث (٤٥٦) قديم، ص (١١١) وثيقة رقم (٥) بتاريخ ١٧ شعبان ١٢٨٩ هـ (٢٠ أكتوبر ١٨٧٢ م).
- (١٦٩) مجلة " روضة المدارس، السنة الثالثة، المجلد الثاني، عدد (٢٢) بتاريخ غاية ذى القعدة ١٢٨٩ هـ ، ص ٢١ بهان مكافآت مدرسة اللسان القديم، وانظر كذلك: ، ص ٢٨ نتيجة امتحان المدارس المهيبة والمكتب الخيرية المركزية.
- (١٧٠) أحمد عزت عبدالكريم: " تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل " ج ٢، ص ٥٧٢، ٥٧٤.
- (١٧١) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الدواوين والفروع، سجل رقم (٢١٧) حديث (٤٥٧) قديم ص (٣٥) وثيقة رقم (٢٦) بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٨٩ هـ (٢٥ ديسمبر ١٨٧٢ م).
- (١٧٢) مجلة " روضة المدارس " السنة الرابعة، المجلد الأول، عدد (٥) بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٩٠ هـ ، ص ١٨ من الملحق.
- (١٧٣) خطأ لغوى، صوابه " العرب التي وقعت " وهو خطأ يستغرب وروده في مجلة علمية كهذه.
- (١٧٤) السنة الخامسة، المجلد الثاني، عدد (١٤) ، ص ١٩.
- (١٧٥) السنة الخامسة، المجلد الثاني، عدد (٢٠) ، ص ١٥.
- (١٧٦) السنة الخامسة، المجلد الثاني، عدد (١٣) ، ص ١١.
- (١٧٧) السنة الخامسة، المجلد الثاني، عدد (١٥) ، ص ٢٠.
- (١٧٨) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الدواوين والفروع، سجل رقم (٢٣١) حديث (٤٨٠) قديم ص (٣٦) وثيقة رقم (٢٠) بتاريخ ٢٥ ذو القعدة ١٢٩١ هـ (٢ يناير ١٨٧٥ م)، وانظر كذلك نفس المجلد السابق، ص (٦٠) وثيقة رقم (٥٢) نفس التاريخ.
- (١٧٩) " حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر " ، ص ١١١.
- (١٨٠) مجلة " روضة المدارس " السنة الرابعة، المجلد الثاني، عدد (١٥) بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٩٠ هـ ملحق يتضمن نتيجة المدارس الملكية والمكاتب الخيرية، ص ٢ من الملحق.
- (١٨١) مجلة " روضة المدارس " السنة الأولى، عدد (١) بتاريخ ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ ، ص ٦.
- (١٨٢) مجلة " روضة المدارس " السنة الرابعة، المجلد الثاني، عدد (٢٠) بتاريخ غاية شوال ١٢٩٠ هـ ، ص ٩.
- (١٨٣) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الدواوين والفروع، سجل رقم (٢١١) حديث (٤٤٧) قديم ص (١٩٨) وثيقة رقم (٢٨٥) بتاريخ ١٥ ذو الحجة ١٢٨٨ هـ (٢٥ فبراير ١٨٧٢ م).
- (١٨٤) سجلات ديوان المدارس، صادر عربى، صادر الدواوين والفروع، سجل رقم (٢٢٧) حديث (٤٧٠) قديم ص (٣٠) وثيقة رقم (٣٥٥) بتاريخ ٢٤ ربيع الثاني ١٢٩١ هـ (١٠ يونيو ١٨٧٤ م)، وما هو جدير بالذكر أن المؤرخ الكبير أحمد عزت عبدالكريم قد ذكر من أسباب انشغال بروجش عن أعمال التدريس بمدرسة اللسان المصرى القديم قيام الحكومة بتكليفه بالعمل في الأكتيخانة المصرية (انظر: " تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل " ج ٢، ص ٥٧٢) وهذا لم يحدث، فإن الذى التحق بالعمل في الأكتيخانة من أبناء بروجش هو الأصغر إميل وليس الأكبر هنرى ناظر المدرسة، وكان

- هتري قد استعان بأخيه إميل للقيام بتدريس اللغة الألمانية بمدرسة اللسان القديم قبل أن يتركها هذا الأخير للعمل بالأنثيقخانه. ولكن يبدو أن المؤرخ الكبير قد خلط بين الآخرين، ومما يذكر كذلك أن كثيراً من المؤرخين يخلطون في كتاباتهم عادة بين الآخرين بروجش، ولم ينج من ذلك سوى القليل منهم، وهذا ليس بغريب، فإن دواوين الحكومة المختلفة في ذلك الوقت قد خلطت بهما في أكثر من مناسبة.
- (١٨٥) سجلات ديوان المدارس، صادر عري، صادر الدواوين والفروع، سجل رقم (٢٢٨) حديث (٤٧١) قديم ص (١٣٢) وثيقة رقم (٢٨) بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني ١٢٩١ هـ (٦ يونيو ١٨٧٤ م).
- (١٨٦) سجلات ديوان المالية، صادر الدواوين، سجل رقم (٣٣٣) نقل (٢٩٧) حديث (٢١٧٠) قديم، ص (١١٣) وثيقة رقم (٢٦٨) بتاريخ ٢٥ ربيع الثاني ١٢٩١ هـ (١١ يونيو ١٨٧٤ م).
- (١٨٧) سجلات ديوان المالية، صادر الدواوين، سجل رقم (٣٣٣) نقل (٢٩٧) حديث (٢١٧٠) قديم، ص (١٨١) وثيقة رقم (٢٣٩) بتاريخ ٨ جماد الأول ١٢٩١ هـ (٢٣ يونيو ١٨٧٤ م).
- (١٨٨) سجلات ديوان المدارس، صادر عري، صادر دواوين وفروع، سجل رقم (٢٣٠) حديث (٤٧٩) قديم ص (٣٦) وثيقة رقم (٢٠) بتاريخ ٢٥ ذو القعدة ١٢٩١ هـ (٣ يناير ١٨٧٥ م). وانظر كذلك: نفس السجل السابق ص (٤٠) وثيقة (٥٢) بنفس التاريخ.
- (١٨٩) سجلات ديوان المدارس، صادر عري، صادر دواوين وفروع، سجل رقم (٢٣٠) حديث (٤٧٩) قديم ص (٨٣) وثيقة رقم (٢٩) بتاريخ ٢٣ ذو الحجة ١٢٩١ هـ (٣١ يناير ١٨٧٥ م).
- (١٩٠) سجلات ديوان المدارس، صادر عري، صادر دواوين وفروع، سجل رقم (٢٣٠) حديث (٤٧٩) قديم ص (١٤٣) وثيقة رقم (١٥٠) بتاريخ ٥ محرم ١٢٩٢ هـ.
- (١٩١) "التعليم في مصر"، ص ٩١ من الملاحق.
- (١٩٢) جاك تاجر: "حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر"، ص ١١١.
- (١٩٣) "تاريخ مصر في عصر الخديوي إسماعيل" ج ١، ص ٢٣٤.
- (١٩٤) الفيلولوجيا Philology: فقه اللغة التاريخي.
- (١٩٥) أحمد عزت عبدالكريم: "تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل" ج ٢، ص ٥٧٤، وانظر كذلك: لؤي سعيد: "كمال ويوسف أثريان من الزمن الجميل" مطبوعات المتحف المصري، القاهرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، ص ٩٧.
- (١٩٦) عدد نوفمبر ١٩٢٣ م، مجلد (٦٣)، ص ٢٧٣.
- (١٩٧) لؤي سعيد: "كمال يوسف"، ص ٩٧، ٩٦.
- (١٩٨) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، متاحف، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة نظارة الأشغال إلى مجلس النظار بشأن طلب مدير الأنثيقخانه الترخيص بترح مبلغ خمسمائة جنيه في ميزانية الأنثيقخانه عن سنة ١٨٨٢ م لإنشاء مدرسة للآثار المصرية.
- (١٩٩) هو ابن أخت أحمد كمال الأثري المصري المشهور ناظر المدرسة.
- (٢٠٠) بالطبع هو ليس أحمد نجيب زميل أحمد كمال في مدرسة بروجش وفي الأنثيقخانه المصرية وصاحب كتاب "الأثر الجليل" بل هو شخصي آخر.
- (٢٠١) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات م ١٢ / ٢ / ٦ جريدة استحقاقات خدمة الأنثيقخانه والتبائرات بديوان الأشغال، سجل رقم (٣) حديث (١١٠) قديم سنة ١٨٨٢ م / ١٢٩٩ هـ، ص ٤٩ - ٥٣.
- (٢٠٢) سجلات ديوان الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة الأشغال بطلب زيادة مرتبات مذكورين نظير تأديتهم بمدرسة الأنثيقخانه المصرية.
- (٢٠٣) البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر "طبعة بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م، ص ٩١.
- (٢٠٤) هذا على الرغم من أن الترتيب المنظم لمسألة قبول التلاميذ بالمدارس الملكية المهيبة والصادر عليه الأمر العالي رقم ٢٥ ذو الحجة ١٢٩٠ هـ نمرة (١٤) قد قضى في مادته الأولى بأنه "لا يختص قبول التلاميذ في المدارس الملكية بجلوس أو ديانة، بل يعم ذلك كل أحد" انظر: مجلة "روضة المدارس" السنة الخامسة، المجلد الأول، عدد (٤) غاية صفر ١٢٩١ هـ، ص ٤، وانظر كذلك: أمين سامي: "تقويم النبل" المجلد الثالث من الجزء الثالث "عصر إسماعيل"، ص ١١٢٣.
- (٢٠٥) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤ / ١) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة نظارة الأشغال إلى مجلس النظار بتاريخ ١٧ أبريل ١٨٨٢ م بطلب علاوة ٥٤٦ جنهاً على ميزانية الأنثيقخانه، ومما يلاحظ على

- هذه المذكرة أن ماسبيرو قد طالب فيها بضم غممسانة قرش أخرى إلى استحقاق أحمد كمال الشهري، وذلك نظراً " لما له من الاستعداد والدراسة والاستحقاق ".
- (٢٠٦) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات، م ١٢/٢/٦ جريدة استحقاقات خدمة الأنتيكفانة والتبائرات بديوان الأشغال، سجل رقم (٤) حديث (١٤٣) قديم عن سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م، ص ٥٩ - ٦٢.
- (٢٠٧) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات، م ١٢/٢/٦ جريدة استحقاقات خدمة الأنتيكفانة والتبائرات بديوان الأشغال، سجل رقم (٤) حديث (١٤٣) قديم عن سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م، ص ٥٣.
- (٢٠٨) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات، م ١٢/٢/٦ جريدة استحقاقات خدمة الأنتيكفانة والتبائرات بديوان الأشغال، سجل رقم (٤) حديث (١٤٣) قديم عن سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م، ص ٥٤.
- (٢٠٩) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات، م ١٢/٢/٦ جريدة استحقاقات خدمة الأنتيكفانة والتبائرات بديوان الأشغال، سجل رقم (٥) حديث (١٤٤) قديم عن سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م، ص ٦.
- (٢١٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١ / ٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بشأن إلغاء مدرسة الآثار وإدخال بعض تعديلات على ترتيب درجات مستخدمى الأنتيكفانة.
- (٢١١) الثابت أنها أربع سنوات وليست خمساً، فهو سهو بدون شك.
- (٢١٢) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١٣ / ٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٨٦ م نمرة ٤٠٦ بخصوص مكافأة أحمد كمال المترجم بالآنتيكفانة.
- (٢١٣) أحمد كمال: " العقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين " طبعة: بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م، صفحة العنوان، وانظر كذلك له: " الفوائد الهبة في قواعد اللغة البهروغليفيه " طبعة: مدرسة الفنون والصنائع ببولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م، صفحة العنوان.
- (٢١٤) لوى محمود سعيد: " كمال و يوسف "، ص ١٠٥ - ١٠٨.
- (٢١٥) سجلات ديوان الأشغال، استحقاقات م ١ / ١ / ٦ استحقاقات مستخدمين ديوان الأشغال، سجل رقم (٣٥) حديث (٢٣٢) قديم عن سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م، ص ٣ للمستخدمين بالآثار التاريخية.
- (٢١٦) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١٣ / ٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار نمرة ٨٥٨ بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٨٨٩ م بشأن تعيين محمد أفندى جاهين بوظيفة مفتش حفر بدلاً من عبدالرحمن فهى.
- (٢١٧) لوى محمود سعيد: " كمال ويوسف "، ص ٩٨.
- (٢١٨) المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية: " العيد المئوى للمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٨٨٠ - ١٩٨ م " القاهرة ١٩٨١ م، ص ٥.
- (٢١٩) على حسن: " الموجز في علم الآثار " طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ص ٢٥.
- (٢٢٠) روبر سوليه: " مصر ولع فرنسى "، ص ٢٣٧، وهذا موقف غريب من جانب رينان الذى كان معروفاً عنه أنه لم يكن معجباً بالآثار القديمة المصرية وإنما كان شغوفاً بالحضارة اليونانية، بل لقد عد رينان الفن المصرى نقطة انطلاق صوب المعجزة الإغريقية، مع اعترافه بأنه فن جدير بالتحليل والدراسة لا لذاته وإنما لما قدم من عناصر جمالية ومعمارية للفن الإغريقى، انظر: ثروت عكاشة: " مصر في عيون الغرباء " ج ١، ص ٢٦٨.
- (٢٢١) روبر سوليه: " مصر ولع فرنسى "، ص ٢٣٧.
- (٢٢٢) المعهد العلمى الفرنسى: " العيد المئوى للمعهد "، ص ٦.
- (٢٢٣) المرجع السابق، ص ٦، ٧.
- (٢٢٤) دوميلوك فالهبل: " علم المصريين "، ص ١٤٤.
- (٢٢٥) المعهد العلمى الفرنسى: " العيد المئوى للمعهد "، ص ١٥.
- (٢٢٦) روبر سوليه: " مصر ولع فرنسى "، ص ٢٣٧، ٢٣٨.
- (٢٢٧) المعهد العلمى الفرنسى: " العيد المئوى للمعهد "، ص ٧.
- (٢٢٨) روبر سوليه: " مصر ولع فرنسى "، ص ٢٣٦.
- (٢٢٩) المعهد العلمى الفرنسى: " العيد المئوى للمعهد "، ص ٧.
- (٢٣٠) أحمد نجيب: " الأثر الجليل "، ص ٢٥٥.

- (٢٣١) مجلة "المقتطف" عدد سبتمبر ١٩١٦ م. مجلد (٤٩)، ص ٢١٥.
- (٢٣٢) روبرسوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٢٣٨.
- (٢٣٣) مجلة "المقتطف" عدد سبتمبر ١٩١٦ م. مجلد (٤٩)، ص ٢١٥.
- (٢٣٤) المعهد العلوي الفرنسي: "العبد المنوي للمعهد"، ص ٨.
- (٢٣٥) المرجع السابق، ص ٩ بتصرف.
- (٢٣٦) روبرسوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٢٣٨. وانظر كذلك: المعهد العلوي الفرنسي: "العبد المنوي للمعهد"، ص ٨. كلاهما باختصار وتصرف.
- (٢٣٧) محمود المقداد: "تاريخ الدراسات العربية في فرنسا"، ص ٢١٢.
- (٢٣٨) روبرسوليه: "مصر ولع فرنسي"، ص ٤٠١.
- (٢٣٩) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢١٦.
- (٢٤٠) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٩٥.
- (٢٤١) لابد أنه ألق جريفل شمس الذي أُلحنا من قبل إلى دوره في مجال نهب الآثار المصرية القديمة وتهريبها إلى إنجلترا لصالح المتحف البريطاني.
- (٢٤٢) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الخارجية، مؤتمرات، محفظة رقم (٥ / ٤) مجموعة ٩ خارجية، محضر اجتماع لجنة حفظ الآثار المصرية القديمة.
- (٢٤٣) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الخارجية، مؤتمرات، محفظة رقم (٥ / ٤) مجموعة ٩ خارجية، ترجمة نسخة من خطاب مسر إدوارد بونتر إلى جناب لورد سالسبوري، بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨٨٩ م.
- (٢٤٤) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الخارجية، مؤتمرات، محفظة رقم (٥ / ٤) مجموعة ٩ خارجية، ترجمة الخطاب المحرر إلى سعادة ذو الفقار باشا ناظر الخارجية من حضرة السير إيفلين بارنج بتاريخ ١٢ يناير ١٨٩٠ م.
- (٢٤٥) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الخارجية، مؤتمرات، محفظة رقم (٥ / ٤) مجموعة ٩ خارجية، ترجمة المادة واردة إلى رئيس مجلس النظار من سعادة ناظر الخارجية بتاريخ ٢١ يناير ١٨٩٠ م.
- (٢٤٦) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٣ / ٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٩٠ م بشأن تعيين وكيل إنجليزى لمصلحة الأنليقخانة.
- (٢٤٧) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٠٠.
- (٢٤٨) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٦٢.
- (٢٤٩) محسن محمد: "سرقه ملك مصر"، ص ٦٤.
- (٢٥٠) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٥٢ - ١٥٦ باختصار.
- (٢٥١) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٦١.
- (٢٥٢) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٠٠.
- (٢٥٣) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٦٢.
- (٢٥٤) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٠٠.
- (٢٥٥) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٦٢، ١٦٣.
- (٢٥٦) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٦٣.
- (٢٥٧) لينوار تشامبرز رايت: "سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر"، ص ٢٠.
- (٢٥٨) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٩٣، ومما يذكر أن إميليا إدواردز قد توفيت في ٢٥ أبريل ١٨٩٢ م بعد أن نجحت في استنهاض همم الأوروبيين والأمريكيين إلى البحث عن آثار مصر القديمة واستجلاء غوامضها. انظر: مجلة "المقتطف" عدد مايو ١٨٩٢ م مجلد (١٦)، ص ٥٧٣.
- (٢٥٩) "The evening post New York" (٢٦٠) تل المسقوطة: بقايا أطلال مدينة قديمة كانت تسمى ميروبوليس، وموقعها عزبة أبو خشيبة أو عزبة المسقوطة أو تل المسقوطة من توابع المحسنة بمركز أبو حماد - محافظة الشرقية. انظر محمد رمزي: "القاموس الجغرافي" قسم ١، ص ١٩٣.
- (٢٦١) بريان فاجان: "نهب آثار وادي النيل"، ص ٢٠٢.
- (٢٦٢) بيتر فرانس: "اغتصاب مصر"، ص ١٨٤.
- (٢٦٣) المرجع السابق، ص ١٨٥.

- (٢٦٤) عدد مايو ١٨٨٣ م. مجلد (٧) . ص ٦٣٣.
- (٢٦٥) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٨٦.
- (٢٦٦) بريان فاجان: " نهب آثار وادي النيل " . ص ٢٠٢، ٢٠٣.
- (٢٦٧) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٩٢.
- (٢٦٨) محسن محمد: " سرقة ملك مصر " . ص ١٩٢.
- (٢٦٩) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٨٣.
- (٢٧٠) محسن محمد: " سرقة ملك مصر " . ص ٦٥.
- (٢٧١) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٨٥، ١٨٦.
- (٢٧٢) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٩٠، ١٩١.
- (٢٧٣) محسن محمد: " سرقة ملك مصر " . ص ٦٥.
- (٢٧٤) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٩١.
- (٢٧٥) المرجع السابق، ص ١٩٣، ١٩٤.
- (٢٧٦) لينوار تشامبرز رابت: " سياسة الولايات المتحدة الأمريكية لإزاء مصر " . ص ٢٢، وانظر كذلك ، ص ٢٦٩.
- (٢٧٧) محسن محمد: " سرقة ملك مصر " . ص ٦٥، ٦٦.
- (٢٧٨) بيتر فرانس: " اغتصاب مصر " . ص ١٥٦، وانظر كذلك ، ص ١٨٤.
- (٢٧٩) لينوار تشامبرز رابت: " سياسة الولايات المتحدة الأمريكية لإزاء مصر " . ص ٢٠، وانظر كذلك ، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

الفصل السادس

المخصصات والموارد المالية لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري في القرن التاسع عشر

أولاً: المخصصات المنتظمة:

عندما أصدر محمد علي قراره التاريخي الشهير في ١٥ أغسطس ١٨٣٥م (٢٠ ربيع الآخر ١٢٥١م) بإنشاء مصلحة الآثار التاريخية والمتحف المصري لم يطرأ على ذهنه حينئذ أن يخصص نفقات ثابتة ومحددة تندرج في إطار الموازنة العامة للدولة لتلك المصلحة الوليدة، وربما كان ذلك مظهرًا من مظاهر التقشف وضغط النفقات، وأكبر الظن أن محمد علي لم يكن يرى في أعمال البحث عن الآثار القديمة وصيانتها والمحافظة عليها ومنع تصديرها الخطورة والأهمية التي تدعو إلى تخصيص جزء من الدخل القومي للإنفاق على هذه المهام البسيطة: إذ كان يمكن - في نظره - إسناد مهمة القيام بهذه الأعمال إلى موظفين من جهازه الإداري يتقاضون بالفعل راتباً من خزينة الدولة نظير تأدية واجبات أخرى بعيدة عن أعمال حفظ الآثار القديمة، بحيث يصبح تكليفهم بهذه المهمة الأخيرة - مهمة تنظيم شئون مصلحة الآثار والمتحف - زيادة على عملهم الأصلي دون أن يتقاضوا عن ذلك أية حوافز إضافية فوق مرتباتهم الأصلية، وكأنه بدا في نظر محمد علي أن رواتب هؤلاء الموظفين الأساسية تكفي كمقابل مجزٍ وعادلٍ للقيام بتكليفات الوظيفتين معاً، الأولى الأساسية والأخرى الإضافية، ومن ثم فإننا لا نجد في أوامره التي أصدرها بتكليف يوسف أفندي ضبا - أحد موظفي ديوانه - بمهمة الطواف بالأقاليم القبلية والمروور بالمواقع الأثرية الهامة للإشراف عليها وتفقدتها، وكذلك الأوامر التي أصدرها إلى رفاعة الطهطاوي - الذي كان أحد موظفي ديوان المدارس - بمهمة تنظيم شئون المتحف المصري الناشئ: لا نجد في هذه أو تلك ما يدل على قيامه بمنح رواتب إضافية لهذين الموظفين نظير الخدمات الجديدة التي أسند إليهما مهمة القيام بها وتنفيذها.

ولكن سعيد كان له رأى آخر، فيها هو ذا يأمر بإعطاء حكاكيان بك مرتباً شهرياً مقداره ١٤٥٠ قرشاً فوق مرتبه الأصلي البالغ ١٧ ٢١٩٥ وذلك في نظير تكليفه بمأمورية البحث عن الآثار القديمة لمدة شهرين^(١) مشرطة ألا يتجاوز المنصرف ثمانية آلاف قرش^(٢) ولكن يبدو أن هذا الأمر

قد أثار بين أوساط الإدارة المصرية لغطاً زائداً " بشأن المصاريف الباهظة التي تصرف في سبيل استخراج الآثار ورسمها، وعلى تنظيف البريات [المعابد] الموجودة في الوجه القبلى " (٧) بحيث أدى ذلك - خلال فترة وجيزة - إلى تسوية حساب الدهبية التي كانت تحت إمرة حكاكيان بك أثناء جولاته التفقدية لمواقع الآثار القديمة في الأقاليم القبلية، وإعطاء حكاكيان بك والكاثب المعين معه استحقاقهما (٨)، أو بالأحرى إنهاء المهمة وإغلاق ملف البحث عن الآثار القديمة، وإرجاء ذلك إلى وقت آخر.

وكانت إدارة سعيد تلجأ إلى انتداب موظفين من الدواوين المختلفة التابعة لها للقيام بمهمة البحث عن الآثار القديمة، فتصدر إلى مديرية الفهوم أمراً يقضى بأنه : " نظراً لانهاء أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة تطلب منها إرسال الصاغقول أغاسى محمد زهدى أفندى الذى كان منتدباً لهذه العملية من المالية " (٩).

وبعد قدوم مارت إلى مصر وتعيينه في وظيفة " مأمور أشغال العاديات " أصدر سعيد مرسوماً في أول يونيو ١٨٥٨م بمنح مارت راتباً سنوياً قدره ١٨ ألف فرنك (٧٢٠ جنياً) (١٠)، وبذا صار مارت " بأمر حكومته لحكومة مصر من بعض المستخدمين وعلى جريدة خزينتها من المُجَمَّكين " (١١) كما يقول عبد الله أبو السعود (١٢) بتعبير عصره، ولكن مارت لم يكن يتقاضى راتبه الضخم من خزينة الدولة، بل كان يتقاضاه هو والمبالغ الأخرى اللازمة لتغطية نفقات الحفر والبحث عن الآثار القديمة من خزينة الخديوى سعيد الخاصة وذلك بحسب احتياجات العمل، وطبقاً لتعبير الوثائق : " إن استحقاقه [أى مارت] بالدايرة السنية " (١٣) وهكذا لم تخصص لمارت ميزانية محددة وإنما منح الحق في طلب الأموال عند الحاجة إليها، كذلك رخص لمارت أن يجمع ما يحتاج إليه من الرجال بطريق المسخرة (١٤).

وهذا الأمر كان يضع مسألة تمويل مشاريع مارت في البحث عن الآثار القديمة وإنشاء المتحف المصرى تحت رحمة سعيد باشا ووفقاً لرغبته : إذ كانت الأموال التي تبقى لمارت في العمل منحة يقدمها سعيد بناءً على طلب مارت، وكان بإمكان سعيد أن يقطع الاعتمادات المالية الممنوحة لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى وقتما يشاء وبدون سابق إنذار.

ورغبة من مارت في سرعة نجاز الأعمال دون تحميل ميزانية الحكومة مرتبات موظفين جدد فقد اعتاد مارت على القيام بتعيين بعض الأشخاص في وظائف مؤقتة بقصد تكليفهم بأداء مهام محددة نظير مكافأة معلومة تدفعها لهم الحكومة، مثلما أسند إلى شخص يدعى كابيتز مهمة الاطلاع على الكتب والآثار القديمة الموجودة في الأديرة القبطية المنتشرة في مختلف أنحاء القطر المصرى، ونقل ما يستحق نقله من هذه الآثار إلى المتحف المصرى على أن يكون مشغل هذه

الوظيفة بصفة مؤقتة^(١١)، وأن يمنح كابيتز مقابل أداء مهام هذه الوظيفة مكافأة قدرها مائة وثمانون جنهاً مصرية، بالإضافة إلى خمسين جنهاً أخرى كمصروفات للسفر والانتقال^(١٢). ومع اتساع نطاق أعمال البحث عن الآثار، وتضخم المجموعة الأثرية المحفوظة في متحف بولاق، لاحظت الإدارة أن مصروفات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري "لم تكن محصورة بشهر، ويخشى من وقوع التكرار بها" ومن ثم فإنه ينبغي "حصص المصروفات المذكورة بحساب الشهر الذي تصرف فيه بمقتضى السندات القوية كي لا يقع ذكر في تكرارها"^(١٣) وقد كان ذلك إيذاناً بالتفكير في وضع أول ميزانية في تاريخ مصلحة الآثار المصرية.

دعى مارت - عن طريق أمر شفهي من اسماعيل - إلى إعمال ترتيب عن خدمة مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري ومراتبهم، وتقديم هذا الترتيب إلى المعية السنية لإقراره، فوضع مارت ميزانية رفعها إلى اسماعيل في ٢٤ رمضان ١٢٧٩ هـ (١٥ مارس ١٨٦٣ م) فأقرها اسماعيل وأصدر أمراً عالياً باعتمادها في ٣ ذو القعدة ١٢٧٩ هـ ويستفاد من تلك الميزانية^(١٤) أن عدد العاملين في مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري قد بلغ وقتئذٍ ثلاثة وأربعين موظفاً وعاملاً ينقسمون إلى قسمين : أجنب يتقاضون رواتبهم بالفرنك الفرنسي^(١٥)، ومصريون يقبضون رواتبهم بالقرش المصري، وهؤلاء الأخيرون قد انقسموا بدورهم إلى قسمين : عمالة دائمة تتقاضى راتباً شهرياً منتظماً، وأرباب صنائع يشتغلون بنظام اليومية.

أما الأجانب فقد كان عددهم خمسة موظفين بلغ مجموع رواتبهم الشهرية أربعة آلاف وواحداً وأربعين فرنكاً وستة وستين سنتيماً، بمجموع سنوي مقداره ثمانية وأربعون ألفاً وخمسمائة فرنك، أما الموظفون المصريون - الدائمون منهم والعاملون بنظام اليومية - فقد وصل عددهم إلى ثمانية وثلاثين موظفاً وعاملاً، منهم ثمانية وعشرون براتب شهري، وعشرة باليومية، وقد بلغت الاستحقاقات الشهرية لأولئك هؤلاء جميعاً ستة آلاف وتسعمائة وثلاثة قروش، منها ستة آلاف وثمانمائة وأربعة قروش للموظفين، وتسعة وتسعون قرشاً يومياً لأرباب الصنائع اللذين يعملون بنظام اليوم الواحد، أما الأجانب الخمسة فهم مارت بك المدير وراتبه ألف وخمسمائة فرنك شهرياً، وجايبه محافظ المتحف وراتبه ٨٣٢ فرنكاً و٣٣ سنتيماً، ووسالي وكابيتز^(١٦) مفتش حفائر وراتب كل منهما ٦٦٦ فرنكاً و٦٦ سنتيماً، وفلوريس ملاحظ ورشة ترميم الآثار التاريخية وراتبه الشهري ٣٧٥ فرنكاً.

أما الموظفون المصريون الدائمون فهم : مترجم المتحف، وكان يدعى مصطفى أفندي سيد احمد وراتبه الشهري مائة وخمسون قرشاً، وثلاثة معاونين يتقاضى كل منهم خمسمائة قرش شهرياً، وقد شغل إحدى هذه الدرجات الثلاث شخص يدعى خورشيد أغا بينما بقيت الدرجتان الأخريان شاغرتين، هذا بالإضافة إلى أربعة موظفين بدرجة "باش ريس حفائر" يتقاضى كل منهم

شهرياً مائتي قرش، ثم ستة عشر رئيساً للحفائر يتقاضى كل منهم شهرياً مائة وخمسون قرشاً، ثم أمين مهمات يدعى إبراهيم التونى وراتبه الشهري ثلاثمائة وخمسون قرشاً، هذا بالإضافة إلى (سقاً) يتقاضى مائة قرش، وبوابين اثنين يتقاضى كل منهما سبعة وسبعين قرشاً.

أما أرباب الصنائع الذين يعملون بنظام اليومية فقد كان من بينهم أربعة مُرَحِّمِينَ يتقاضون أربعة وثلاثين قرشاً يومياً، وستة يشتغلون في أعمال جلو الرخام ويتقاضون ستة وثلاثين قرشاً يومياً، وثلاثة تجاربن يتقاضون تسعة وعشرين قرشاً في اليوم الواحد

وبالاحظ أن مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري في هذه الميزانية قد اقتصرت على مرتبات موظفيها، بينما لم تخصص مبالغ أخرى لتغطية مصروفات المصلحة والمتحف، وكذلك تغطية نفقات الحفائر الأثرية الجارية، ويبدو أن هذه النفقات كانت تطلب من خزينة الخديوى مباشرة كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

بعد سنتين ونصف تقريباً دُعي ماريت مرة أخرى إلى "إعمال جدول عن ترتيب مصلحة الأنتيقيخانة المصرية حسب رسم كشوفات المصالح كالجاري لأجل صدور الأمر الرسمى عليه بالاعتماد" (١٧) فقدم ماريت ترتيباً آخر جديداً عن "مستخدمين مصلحة الأنتيقيخانة وما تقرر من الأجر والمشتروات" (١٨) وفيهم من واقع هذا الترتيب الجديد - الذى اعتمده الخديوى اسماعيل في ١٤ جمادى الثاني ١٢٨٢ هـ (٤ فبراير ١٨٦٥ م) - أن أصل مربوط الماهيات سنوياً خمسمائة واثنان وتسعون كيساً ومائتان وأربعة وعشرون قرشاً وعشرة بارات توفر منها مائتان وسبعة وثلاثون كيساً ومائة وتسعة وسبعون قرشاً وثلاثون بارة، وبذا بلغ صافي مربوط الماهيات سنوياً ثلاثمائة وخمسة وخمسين كيساً وأربعة وأربعين قرشاً وعشرين بارة. أما الأجر والمشتروات فأصل مربوطها السنوى مائة وثلاثة وسبعون كيساً وأربعمائة وثلاثة عشر قرشاً وثلاثون بارة، وما تم توفيره منها مائة وتسعة أكياس ومائة وثلاثة وستون قرشاً وثلاثون بارة، وبذا يكون صافي الذى تم ربطه سنوياً للأجر والمشتروات أربعة وستين كيساً ومائتين وخمسين قرشاً.

وعند المقارنة بين هذا الترتيب الجديد وترتيب سنة ١٢٧٨ هـ السابق عليه، يلاحظ - بالنسبة للموظفين الأجانب - أن منصب المدير وناظر عموم المصلحة الذى يشغله ماريت قد بقى في الترتيب الجديد على ما هو عليه بمرتبه البالغ ١٥٠٠ فرنك (٣٥ ٥٦٩٥) شهرياً بمجموع يبلغ ١٨٠٠٠ فرنك سنوياً، بينما انخفض راتب محافظ المتحف من عشرة آلاف فرنك سنوياً إلى ثمانية آلاف فقط، على حين ألغيت وظائف مفتشى الحفائر وملاحظ ورشة ترميم الآثار التاريخية، واستبدلت بها وظائف أخرى جديدة هي: مساعد محافظ المتحف بنفس مخصصات المحافظ [ثمانية آلاف فرنك سنوياً] وكاتب أفرنكى ووكيل مدير المتحف براتب شهري قدره ١٥ ٣١٦٤

بمجموع يعادل عشرة آلاف فرنك سنوياً، وظيفة مهندس معمارى براتب شهري يبلغ ٣٨٥٠ بمجموع يعادل عشرة آلاف فرنك سنوياً.

أما الموظفون والعمال المصريون فقد كان من بينهم ثمانية رؤساء حفائر يتقاضون ١٢٥٠ قرشاً شهرياً، ومترجم (١٥٠٠ قرش شهرياً) وخمسة خفراء يتقاضون ٧٥٠ قرشاً شهرياً، وأربعة آخرون يتقاضون ٤٠٠ قرش شهرياً، وثلاثة فراشين يتقاضون ٤٥٠ قرشاً شهرياً، وأربعة آخرون يتقاضون ٥٧٥ قرشاً شهرياً، وبوابان اثنان يتقاضيان مائتي قرش شهرياً، بالإضافة إلى جنائبي (٢٥٠ قرشاً شهرياً) وسفلاً (١٢٥ قرشاً شهرياً).

هذا عن العمالة المنتظمة، أما العمالة اليومية فقد كانت تضم سبعة عمال يعملون ثلاثمائة يوم من العام، ويشملون ثلاثة نجارين يتقاضون في العام تسع عشرة كيساً وأربعمائة قرش، ومرجّم واحد راتبه السنوى سبع كيسات ومائة قرش، وثلاثة عمال يشتغلون في جلو الرخام ويستحقون سنوياً أربع عشرة كيساً ومائتي قرش. وبذا يبلغ مجموع الموظفين والعاملين في مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري - أجنبية ومصريين، منتظمين وباليومية - طبقاً لهذا الترتيب الجديد اثنين وأربعين موظفاً وعاملاً.

وفي ٢٣ رجب ١٢٨٩ هـ (٢٦ ديسمبر ١٨٧٢ م) أقر المجلس الخصوصي "مربوط الأنتيكخانة المصرية البالغ مقداره (٣٦٦ بارة / ٣٧٢ قرشاً / ٤٤٥ كيساً)^(١٩) مما يعنى أن مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري قد ارتفعت خلال الفترة ما بين عامي ١٨٦٥، ١٨٧٢ م بمقدار (١٦ بارة / ٧٨ قرشاً / ٢٦ كيساً).

وفي عام ١٨٧٥ م (١٢٩٢ م) بلغت مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري (٣٩ بارة / ٤٧٩ قرشاً / ٤٩٢ كيساً) منها (٢٥ بارة / ١٠٣ قرشاً / ٣٨٤ كيساً) ماهيات و (١٤ بارة / ٣٧٦ قرشاً / ١٠٨ كيساً) مصروفات^(٢٠)، وهذا يعنى أن تلك المخصصات قد زادت بمقدار (٣ بارة / ١٠٧ قرشاً / ٤٧ كيساً) أى بنسبة ١٠,٥ % في ثلاث سنوات فقط، وبنسبة ١٧,٤ % خلال عشر سنوات أى عما كانت عليه في ميزانية سنة ١٨٦٥ م.

ويبدو أن الأزمة المالية التي حلت بالبلاد في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر، وأدت إلى الإطاحة بالخدوي إسماعيل قرب نهاية العقد المذكور قد ألقت بظلالها على مخصصات مصلحة الآثار ومتحفها، حيث يقول المسئولون في محافظة مصر التي كانت تتبعها المصلحة من الناحية الإدارية وقتئذٍ: إن الصافي الذي صار ربطه لماهيات ومصروفات مصلحة الأنتيكخانة والحفر بعد استبعاد ما صار توفيره قد بلغ سنة ١٨٧٢ م (١٢٤٩ هـ) ٥ بارة / ٣٩٩ قرشاً / ٤٢٩ كيساً^(٢١) محققاً انخفاضاً قدره (٣٤ بارة / ٨٠ قرشاً / ٦٣ كيساً) بنسبة بلغت ١٢,٨ % خلال سنتين فقط.

وفي عام ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ) وبعد أن قامت الحكومة المصرية بجعل معاملاتها المالية على أساس نظام الجنية المصرى كوحدة نقدية للتعامل بدلاً من نظام القروش، أصبحت مخصصات مصلحة الأنتيقخانة والحفر - كما كانت تسمى - تبلغ أربعة آلاف ومائة وعشرة جنيهات مصرية^(١٣)، ثم ارتفعت المخصصات في عام ١٨٨٢م (١٢٩٩هـ) إلى خمسة آلاف وأربعمائة وواحد وستين جنيهاً تتوزع على خمسة بنود:

البند الأول: مستخدمون يعملون داخل الأنتيقخانة أو المتحف المصرى ومخصصاتهم سنوياً ألفان وستمئة وسبعة وسبعون جنيهاً.

البند الثانى: مستخدمون يعملون بعيداً عن المتحف في المناطق الأثرية المختلفة بأقاليم الدلتا والصعيد وفي الحفائر الأثرية الجارية هناك ولكنهم يتبعون مصلحة الآثار التاريخية المصرية. وتبلغ مخصصاتهم السنوية ستمائة وأربعة وثمانين جنيهاً.

البند الثالث: مصروفات الحفائر الأثرية ونفقاتها، وتبلغ مخصصات هذا البند ألف ومائتا جنيه.

البند الرابع: مصروفات متنوعة، وتشمل أثمان مهمات مشتراه من أجل المتحف، وبدلات انتقال ومسفرات لموظفيه ولتنقل الآثار المكتشفة من أماكن الكشف عنها إلى المتحف المصرى بواسطة النهر أو السكة الحديد، وشراء أدوات كتابية ونحو ذلك، وهذه تبلغ مخصصاتها أربعمائة جنيه.

البند الخامس: مصروفات مدرسة الآثار التابعة للمتحف، وقد خصص لها مبلغ خمسمائة جنية من الموازنة الإجمالية للمصلحة.

أما موظفو وعمال المتحف فقد كانوا واحداً وثلاثين موظفاً وعاملاً، يرأسهم جميعاً جاستون ماسبيرو مدير عموم المصلحة وراتبه السنوى ١٠٠٠ جنية، ويعاونه أمين المتحف (٤٢٠ جنيهاً سنوياً) وأمين معاون (٣٠٠ جنيهاً سنوياً) وناظر معاون وراتبه (١٩٢ جنيهاً سنوياً) بالإضافة إلى كاتب ومترجم ومخزنى والثلاثة يتقاضون سنوياً ٢٥٨ جنيهاً. هذا إلى جانب ثلاثة وعشرين من العمالة العادية وتبلغ استحقاقاتهم سنوياً خمسمائة وسبعة جنيهات.

أما المستخدمون خارج المتحف فقد كانوا ستة مفتشى آثار يتوزعون على مناطق منف وأبيدوس ودندره وطيبة الغربية وطيبة الشرقية وإدفو، ومخصصات هؤلاء المفتشين الذين كانوا من ضباط الاستيداع تبلغ خمسمائة وأربعين جنيهاً سنوياً. هذا بالإضافة إلى ثمانمائة من رؤساء الحفائر تصل رواتبهم السنوية إلى مائة وأربعين جنيهاً^(١٣).

ونستنتج من ذلك أن الراتب السنوى لمديرى عموم المصلحة كان يستهلك وحده ما يقرب من ثلث (٢٩,٧%) المخصص لموظفى وعمال المصلحة جميعاً، سواء الذين كانوا يعملون داخل

المتحف أو خارجه، كما كان يستهلك ما يقرب من خمس (١٨,٣%) المخصص الإجمالي السنوى للمصلحة في موازنة الدولة العامة.

ولا تختلف موازنة مصلحة الأنتيقيخانة والحفر عام ١٨٨٣م عن موازنة العام السابق له سوى في بضع تعديلات طفيفة، فإجمالي الموازنة عام ١٨٨٣م قد سجل ارتفاعاً غير مذكور يبلغ سبعة عشر جنياً بحيث وصل هذا الإجمالي إلى خمسة آلاف وأربعمئة وثمانية وسبعين جنياً، وتقتصر هذه الفروق البسيطة بين الموازنتين على الفصل بين وظيفة ناظر ومعاون المتحف بجعلهما وظيفتين بدلاً من وظيفة واحدة ورفع مخصصاتهما إلى مائة وأربعة وستين جنياً عام ١٨٨٣م بدلاً من مائة واثنين وتسعين جنياً عام ١٨٨٢م. وكذلك رفع جملة رواتب الكاتب والمترجم والمخزن من مائتين وثمانية وخمسين جنياً إلى ثلاثمائة وثمانية عشر جنياً في الموازنة الجديدة. وكذلك خفض عدد العمالة غير الفنية من أربعة وعشرين عاملاً إلى ثلاثة وعشرين عاملاً في السنة الجديدة. ثم تعيين سبعة وعشرين من الخفراء برواتب تبلغ جملة مستواً ثلاثمائة وأربعة وعشرين جنياً. ثم خفض مخصصات البند الرابع الخاص بالمصرفيات المتنوعة من أربعمئة إلى ثلاثمئة جنية فقط. وأخيراً خفض مصروفات مدرسة الآثار من خمسمئة إلى أربعمئة وأربعة وعشرين جنياً^(١٤).

بقى مربوط بميزانية الدولة العامة لمصلحة الأنتيقيخانة والحفر على ماهو عليه بدون أدنى تعديل خلال عامي ١٨٨٤م، ١٨٨٥م، وإن كانت نظارة الأشغال العمومية التي أصبحت المصلحة تابعة لها قد طلبت - بناء على رغبة المصلحة المذكورة - من مجلس النظار المصري سنة ١٨٨٥م إقرار ترتيب جديد لموظفي المتحف دون أن يؤثر ذلك على المبلغ الإجمالي المخصص لمصلحة الآثار في السنة المذكورة. أما الوظائف التي تضمنها الترتيب الجديد فقد شملت ما يأتي :

المدير العمومي ومخصصاته السنوية ١٠٠٠ جنية، ومعاوناً أولاً (٤٢٠ جنية سنوياً) ومعاوناً ثانياً (٣٠٠ جنية سنوياً) ومفتشين من الدرجة الأولى وراتبهما السنوى معاً مائة وعشرون جنياً، وآخرين من الدرجة الثانية وراتبهما السنوى تسعون جنياً، ومفتشين من الدرجة الثالثة وراتبهما السنوى ستون جنياً. وناظراً (٢٨٨ جنية سنوياً) وكاتب (٢٨٨ جنية سنوياً) ومخزنجياً من الدرجة الأولى (٧٢ جنية سنوياً) وآخر من الدرجة الثانية (٤٨ جنية سنوياً) وثلاثة خوجات (مدرسين) لمدرسة الآثار التابعة للمتحف ومستحقاتهم ثمانية وأربعون جنياً سنوياً^(١٥).

غير أن نظارة الأشغال عادت مرة أخرى لتعرض على اللجنة المالية في ٢٢ أكتوبر ١٨٨٥م (١٣ المحرم ١٣٠٣هـ) بناء على طلب اللجنة المالية ترتيباً آخر عن الموظفين التمليين (الدائمين) بإدارة عموم الأنتيقيخانة، وأرسلت النظارة للجنة المالية جدولين : الأول (ب) يحتوى على أصل ترتيب المستخدمين التمليين المشار إليهم طبقاً للتعليمات الواردة للأشغال من المالية، بينما يتضمن

الجدول الثانى (أ) بياناً بالمستخدمين الموجودين الآن والعلاوات المطلوبة لهم، وقد تقرر بحسب الترتيب الوارد فى الجدول (أ) - والذي ترغب النظارة أن يقوم مجلس النظار بالتصديق عليه - أن يكون عدد المستخدمين التمليين بالأتنيقخانة ستة عشر مستخدماً مجموع رواتهم فى السنة ٣٠٣٤ جنياً، وبما أن مربوط هؤلاء المستخدمين فى ميزانية سنة ١٨٨٥ م هو ٢٩٦٨ جنياً فتكون قيمة الترتيب الجديد المطلوب اعتماده زائدة بمقدار ستة وستين جنياً عن مربوط سنة ١٨٨٥ م، وتود الأشغال أن يوافق مجلس النظار على اعتماد هذه الزيادة الجديدة.

عرض هذا الترتيب الجديد على اللجنة المالية للدراسة وإبداء الرأى، وانتهت اللجنة بعد مداولاتها إلى الموافقة على اعتماد هذا الترتيب مع الزيادات الواردة فيه أن يبدأ العمل بموجبه من أول نوفمبر ١٨٨٥ م شريطة ألا تتجاوز هذه الرواتب فى المستقبل مبلغ الثلاثة آلاف والأربعة والثلاثين جنياً، وأن يعرض على مجلس النظار لإقراره قبل تنفيذه، وهو ما صادق عليه مجلس النظار فى جلسته المنعقدة بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٨٨٥ م (٤ صفر ١٣٠٣ هـ) موافقة مقيدة بالالتزام بالشروط الذى وضعته اللجنة المالية^(٦).

وفى عام ١٨٨٦ م بلغ الإجمالى العام المخصص لمصلحة الأتنيقخانة والحفر فى ميزانية الدولة العامة خمسة آلاف وثمانمائة وثمانية جنهات، ويبدو أنه لم يطرأ خلال هذا العام أى تعديل على ترتيب المستخدمين الذى أقره مجلس النظار ووافق على العمل به ابتداء من أول نوفمبر ١٨٨٥ م. أما فى عام ١٨٨٧ م فقد ارتفعت مخصصات مصلحة الأتنيقخانة والحفر إلى ستة آلاف جنية مصرى، وبدا أن هناك تعديلات أخرى قد أدخلت على ترتيب المستخدمين فى المصلحة المذكورة، ولعل من أبرز هذه التعديلات زيادة عدد مفتشى الدرجة الثانية من اثنين يتقاضيان رواتب تبلغ مائة وثمانين جنياً سنوياً عام ١٨٨٦ م إلى ثلاثة يتقاضون مائتين وسبعين جنياً سنوياً عام ١٨٨٧ م بمتوسط مقداره تسعون جنياً للمفتش الواحد. ثم زيادة عدد مفتشى الدرجة الثالثة من اثنين يتقاضيان مائة وعشرين جنياً عام ١٨٨٦ م إلى ستة يتقاضون ثلاثمائة وستين جنياً عام ١٨٨٧ م باعتبار ستين جنياً للمفتش الواحد. على حين قد تم فى عام ١٨٨٧ م إلغاء الاعتمادات المخصصة لمدرسة الآثار التابعة للمتحف بعد أن رأى المسئولون المعنيون بالأمر أنها قد أدت الغرض المقصود منها فى تخريج جيل جديد من الأثريين المصريين، وقد ترتب على ذلك أنه قد تم الاستغناء عن المدرسين الثلاثة الذين كانوا يعملون بالمدرسة المذكورة وتوفير مخصصاتهم البالغة مائة وستين جنياً، وبذا يكون المستخدمون فى الأتنيقخانة المصرية قد زاد عددهم من ستة عشر مستخدماً عام ١٨٨٦ م إلى ثمانية عشر مستخدماً تملياً - أى دائماً - عام ١٨٨٧ م.

أما بند المصروفات المتنوعة من نفقات الحفر وشراء المهمات اللازمة للمتحف ومصروفات الانتقال والنقل وكافة المصروفات الأخرى العامة فقد انخفضت من ألف وستمائة وأربعة وثلاثين جنياً عام ١٨٨٦ م إلى ألف وأربعمائة واثني عشر جنياً عام ١٨٨٧ م^(٢٧). وربما كانت الحاجة إلى تغطية الزيادات التي طرأت على رواتب المستخدمين بمصلحة الأمتكخانة نتيجة للتعينات الجديدة هي التي أدت إلى ضغط النفقات المخصصة لبند المصروفات المتنوعة على النحو السابق.

وتكاد تكون تفاصيل موازنة مصلحة الأمتكخانة والحفر المصرية عام ١٨٨٨ م مطابقة لما كانت عليه عام ١٨٨٧ م باستثناء زيادة طفيفة طرأت على الراتب السنوي لكاتب المتحف قفزت به من مائتين وأربعة وستين جنياً عام ١٨٨٧ م إلى مائتين وثمانية وثمانين جنياً في العام اللاحق له بزيادة مقدارها أربعة وعشرون جنياً. وزيادة أخرى طرأت على المخصص لبند المصروفات المتنوعة رفعته من ألف وأربعمائة واثني عشر جنياً عام ١٨٨٧ م إلى ألف وستمائة وأربعة وستين جنياً عام ١٨٨٨ م بزيادة مقدارها مائتان واثنتان وخمسون جنياً. وقد أدت هاتان الزيادتان بدورهما إلى رفع المخصص الإجمالي العام لمصلحة الأمتكخانة والحفر من ستة آلاف جنية عام ١٨٨٧ م إلى ستة آلاف ومائتين وستة وسبعين جنياً عام ١٨٨٨ م^(٢٨).

بقيت مخصصات مصلحة الأمتكخانة والحفر في عام ١٨٨٩ م على ما كانت عليه في عام ١٨٨٨ م دون أي تعديل، ولكنها ارتفعت ارتفاعاً ملحوظاً عام ١٨٩٠ م حيث وصلت إلى ستة آلاف وستمائة وعشرين جنياً مسجلة زيادة قدرها ثلاثمائة وأربعة وأربعون جنياً نتجت عن رفع المخصص لرواتب معاوني مدير المصلحة من سبعمائة وعشرين جنياً خلال عامي ١٨٨٨ م، ١٨٨٩ م إلى ثمانمائة وأربعين جنياً في عام ١٨٩٠ م بزيادة قدرها مائة وعشرون جنياً، وكذلك رفع مخصصات بند المصروفات المتنوعة من ألف وستمائة وأربعة وستين جنياً في عامي ١٨٨٨ م، ١٨٨٩ م إلى ألف وثمانمائة وثمانية وثمانين جنياً خلال عامي ١٨٩٠ م بزيادة وصلت إلى مائتين وأربعة وعشرين جنياً^(٢٩).

وفي عام ١٨٩١ م شهدت مصلحة الأمتكخانة والحفر المصرية طفرة هائلة في ميزانيتها عندما ارتفعت مخصصاتها من ستة آلاف وستمائة وعشرين جنياً إلى تسعة آلاف ومائة واثنتين وأربعين جنياً خلال السنة المذكورة محققة زيادة قدرها ألفان وخمسمائة واثنتان وعشرون جنياً دفعة واحدة، بنسبة مئوية بلغت ثمانية وثلاثين بالمائة تقريباً من موازنة عام ١٨٩٠ م، وقد نشأت هذه الزيادة من عدة وجوه منها: استحداث وظيفة "كاتب حسابات" في ميزانية عام ١٨٩١ م براتب سنوي قدره ثلاثمائة وستون جنياً، ولم تكن هذه الوظيفة موجودة ضمن ترتيب عام ١٨٩٠ م. ثم من زيادة المخصص لتغطية رواتب العمالة غير الفنية من ألف وثلاثمائة وخمسين جنياً عام

١٨٩٠م إلى ألفين وخمسمائة جنية ١٨٩١م. ثم من رفع مخصصات بند المصروفات العمومية من ألف وثمانمائة وثمانية وثمانين جنيهاً عام ١٨٩٠م إلى ألفين وتسعمائة جنية عام ١٨٩١م، وربما كان مرد هذه الزيادة المفاجئة في المصروفات إلى نقل المتحف المصري من مكانه القديم ببولاق إلى مكانه الجديد بمرسى الخديوى اسماعيل بالجيزة، بحيث استلزم ذلك تخصيص نفقات إضافية بقصد تغطية مصروفات المتحف الجديد وتجهيزه وجعله صالحاً لعرض الآثار التي نقلت إليه، ومن ثم فإننا نجد في بند المصروفات المتنوعة ما يشير إلى تخصيص مبلغ ستمائة جنية بهدف " توضيب الأنتيكة خانة" (٣٠).

وفي العام التالي (١٨٩٢م) وضع جريبو ميزانية مقترحة لمصلحة الأنتيكلخانة المصرية (٣١) بلغ فيها إجمالى المخصصات المالية المطلوبة أحد عشر ألفاً وخمسمائة وأربعة وستين جنيهاً، وطلب جريبو من مجلس النظار اعتماد هذه الميزانية الجديدة.

فاقت ميزانية جريبو المقترحة كل الحدود التي كانت تضعها الحكومة لمصلحة صغيرة كهذه، ومن ثم لم يجد مجلس النظار بداً من رفضها حين عرضت عليه للمصادقة عليها، ولكن جريبو نجح خلال العام التالى - ١٨٩٣م - في أن يتجاوز بميزانية مصلحة الأنتيكلخانة والحفر حاجز العشرة آلاف جنية ربما لأول مرة في تاريخها، فقد وصل إجمالى مخصصات المصلحة المذكورة في هذا العام إلى عشرة آلاف وخمسمائة وأربعين جنيهاً، منها أربعة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرون جنيهاً للمستخدمين الداخليين هيئة العمال، وألفان وثمانمائة وستة وعشرون جنيهاً للمستخدمين الخارجيين عن هيئة العمال (الخدمة السائرة) وألفان وتسعمائة وتسعة وثمانون جنيهاً للمصروفات المتنوعة (٣٢).

ولكن مخصصات مصلحة الأنتيكلخانة والحفر لم تلبث أن عادت للانخفاض مرة أخرى في العام التالى - ١٨٩٤م - وإن كان ذلك دون أن تتجاوز حد العشرة آلاف جنية نزولاً، فقد بلغت موازنتها في هذا العام عشرة آلاف ومائتين وستة وثلاثين جنيهاً بواقع أربعة آلاف وستمائة وستة وثلاثين جنيهاً للبند الأول، وألفين وخمسمائة وثمانية وخمسين جنيهاً للبند الثانى، وثلاثة آلاف واثنين وأربعين جنيهاً للبند الثالث من البنود الثلاثة التي تنقسم إليها ميزانية مصلحة الآثار (مستخدمون داخلون هيئة العمال، مستخدمون خارجون عن هيئة العمال، ومصروفات متنوعة) (٣٣).

وفي هذا العام - ١٨٩٤م - قدم دى مورجان مدير عموم الأنتيكلخانة إلى نظارة الأشغال مشروعاً بشأن تحويل ميزانية مصلحة الأنتيكلخانة والحفر عرضته النظارة بدورها - بعد تأييده وتعضيده من جانبها - على مجلس النظار لاتخاذ ما يراه مناسباً بشأنه من قرارات.

ويقضى هذا المشروع الذى وضعه دى مورجان بزيادة مخصصات مصلحته إلى أربعة عشر ألفاً ومائتين وسبعة وخمسين جنهاً أى بما يزيد على أربعة آلاف جنية مرة واحدة، وذلك حتى تتمكن تلك المصلحة من أن تسيير أمورها على نمط قويم مناسب. وعلى دى مورجان طلبه هذا بأن ميزانية مصلحة الأنتيخانة الحالية لا تكفى لإدارة تلك المصلحة الإدارة المرجوة منها، ولا سيما بعد أن اضطرت المصلحة المذكورة منذ عام ١٨٩١م إلى ترتيب مقتشين فى الأقاليم للملاحظة والتفتيش بعد أن رأت إقدام الكثيرين من الأفراد على القيام بعمليات الحفر غير المشروعة فى مواقع عديدة من البلاد، وجرأة البعض الآخر على تدمير الآثار التاريخية القديمة على اختلاف أنواعها مثل مقابر بنى حسن وغيرها من الآثار. واقترح دى مورجان إدخال عدة تعديلات على الميزانية الحالية للمصلحة وذلك على النحو التالى:

أولاً : بالنسبة للخدمة الداخلى هيئة العمال : يتضمن المشروع الجديد إحداث وظيفتين : الأولى وكيل أشغال علمية، والأخرى وكيل أشغال إدارية، وهذان الوكيلان يستعاض بهما عن الأمين والسكرتير المحاسبى الحاليين، ورأى دى مورجان - وأيدته فى ذلك نظارة الأشغال - أن هذا التغيير فى مسعى الوظيفتين من شأنه أن يحدد اختصاصات كبار الموظفين فى مصلحة الأنتيخانة بصورة أكثر إيضاحاً عن ذى قبل. كما يستعاض عن الأمينين المساعدين الحاليين بأمين واحد ومساعد واحد، ويدخل أمين المكتبة والمسكوكات المعدود الآن من الخدمة الخارجين عن هيئة العمال فى عداد الخدمة التمليين. كما تلغى وظيفة الناظر فإن مدير عموم المصلحة لا يرى لها لزوماً. وأما الكاتب المترجم فمن حيث أنه لا يكفى وحده للقيام بأشغال المصلحة فيستعاض عنه بسكرتير محرر من الوطنيين وكاتبين مترجمين. كما يخفض عدد مفتشى الأقاليم من عشرة إلى ستة، وتلغى وظيفتا المستخدمين المقررتين فى الميزانية الحالية لعدم لزومها. ويكون فى المصلحة مخزنه واحد عوضاً عن اثنين، وهذه التعديلات تكون نفقة هذا البند من الميزانية خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وثمانين جنهاً بدلاً من أربعة آلاف وتسعمائة واثنين وستين جنهاً، أى أنها تزيد مبلغاً قدره أربعمائة واثنان وعشرون جنهاً منها مائتان وعشرة جنيهات النفقة التى يستلزمها جعل أمين المكتبة من الخدمة التمليين.

ثانياً : بالنسبة للخارجين عن هيئة العمال : أكد دى مورجان أن المبلغ المخصص لهذه الخدمة فى الميزانية الحالية وقدره ألفان وخمسمائة جنية كان قد تم تقريره قبل عمل الترتيب النهائى لخدمة الأقاليم، وأن سلفه جربو قد طلب قبل ذلك مبلغاً أكبر من المبلغ المذكور، ولكن لم تساعد الظروف فى تشجيع طلبه هذا بكشف مفصل ومبين فيه مفردات النفقة التى كان يريد اعتمادها، وذلك بسبب عدم الاستقرار بصفة نهائية على ترتيب خدمة الأقاليم، وهذا ما دفع نظارة الأشغال إلى أن تقترح مبلغ الألفين والخمسمائة جنية السالف ذكره كمخصص للبند

المذكور بصفة مؤقتة، إذ لم تتمكن نظارة الأشغال هي الأخرى من الاعتماد في ذلك على مستندات وافية ودقيقة ومؤكدة، وقد تبين الآن من المشروع التفصيلي الذي قدمه دي مورجان واستند فيه على ترتيب مستوف للمصلحة أن ذلك المبلغ لا يفي أبداً بالغرض المقصود، بل تجب زيادة إلى أربعة آلاف وثلاثمائة وخمسة وخمسين جنياً كما يتضح ذلك من الجدول التفصيلي الملحق بهذه المذكرة.

ثالثاً : الحفر : إن المبلغ المخصص لذلك في الميزانية الحالية يبلغ ألفاً وثمانمائة جنية، وهو مبلغ طفيف بالنسبة لمساحة البلاد المصرية، وقد طلب دي مورجان زيادته إلى ألفي جنية، وعضدت نظارة الأشغال هذا الطلب.

رابعاً : مصاريف الانتقال وبدل السفرية : يبلغ المخصص لذلك في الميزانية الحالية سبعمائة وثمانية وثلاثين جنياً، وكان تقرير هذا المبلغ بوجه تقريبي قبل ترتيب التفتيش في الأقاليم، ولكن لما ترتب هذا التفتيش وانتظمت أحواله تبين بمرور الوقت أن تلك المصروفات تجب زيادتها إلى ألف ومائة وعشرين جنياً على الأقل حتى تسير أعمال المصلحة على نمط مناسب.

خامساً : بالنسبة للمصروفات المتنوعة : إن هذا البند يشمل نفقات متنوعة يبلغ مجموعها ألفاً وثلثمائة وثمانية وستين جنياً، ولكن لم يدرج شيء من أجلها في الميزانية الحالية مع أن مصلحة الأنتيقيخانة مكلفة بها، ومن ثم لم يكن هناك بدٌّ من احتسابها من المبلغ المخصص للحفر، ولا ريب في أن الحكومة لم تكن تقصد ذلك عند تقريرها ميزانية الأنتيقيخانة بمبلغ عشرة آلاف جنية تقريباً شاملة مبلغ ألف وثمانمائة جنية مخصص للحفر، ثم إن النفقات الرئيسة التي تدخل في البند المذكور إنما تتمثل في صيانة حدائق الأنتيقيخانة وتوفير المياه اللازمة لإطفاء الحرائق وري الحديقة، وشراء مستلزمات صيانة الآثار ونحو ذلك، ومن الواجب أن يفتح اعتماد خصوصي لهذه النفقات في ميزانية المصلحة.

سادساً : بالنسبة لإجمال الميزانية : تبين من هذا المشروع الجديد الذي وضعه دي مورجان أن ميزانية الأنتيقيخانة - ومربوطها الآن نحو العشرة آلاف جنية تقريباً - يصبح مربوطها بالترتيب المطلوب أربعة عشر ألفاً ومائتين وسبعة وعشرين جنياً، فتكون الزيادة المطلوبة أربعة آلاف ومائتين وسبعة وعشرين جنياً، وترى نظارة الأشغال أنها ملزمة بأن تدفع من ميزانيتها إلى الأنتيقيخانة - وذلك من أصل تلك الزيادة - مبلغاً قدره خمسمائة وسبعة وخمسون جنياً، منه مبلغ ثلاثمائة واثنين وثمانين جنياً هو قيمة الزيادة في نفقة مصروفات الانتقال وبدل السفرية، وكذلك مبلغ مائة وخمسة وسبعين جنياً تساعد به النظارة الأنتيقيخانة في تحمل نفقات القارب البخاري المخصص لمدير عموم المصلحة، كما أن نفقة صيانة الحدائق ورفع المياه والتي كانت نظارة المالية مكلفة بها قبلاً لحساب تفتيش الجزيرة والجزيرة قد تكلفت بها الآن مصلحة

الأنثيقخانة، مع أنه لم يوضع المبلغ اللازم لتلك النفقة تحت تصرفها، ولذا كان من الإنصاف أن يخصم ذلك المبلغ من ميزانية نظارة المالية ويضاف إلى ميزانية الأنثيقخانة. هذا وقد قدرت النفقة المذكورة بمبلغ أربعمائة وخمسة وعشرين جنياً، منها مائتان وخمسون جنياً لصيانة الحدائق، ومائة وخمسة وسبعون جنياً لرفع المياه. فإذا خصم هذا المبلغ ومبلغ الخمسمائة والسبعة وخمسين جنياً الذي تقدم ذكره من الزيادة المطلوبة لميزانية مصلحة الأنثيقخانة وقدرها أربعة آلاف مائتان وسبعة وعشرون جنياً فيكون الباقي ثلاثة آلاف ومائتين وخمسة وأربعين جنياً تطلب نظارة الأشغال من مجلس النظار وضعه تحت تصرفها لتتمكن به من أن تجعل أشغال تلك المصلحة تسير سيراً حسناً وفى لذلك تلتزم من المجلس إصدار قراره باعتماد الطلبات المشتمل عليها مشروع دى مورجان الذى تقدم ذكره، هذا وقد أرفقت نظارة الأشغال بمذكرتها التى رفعتها إلى مجلس النظار كشف مقارنة بين الميزانية الحالية لإدارة عموم الأنثيقخانة والميزانية الجديدة المطلوبة لتلك الإدارة.

أحال مجلس النظار مشروع دى مورجان المقترح ومعه مذكرة نظارة الأشغال المرفقة به إلى اللجنة المالية لإبداء الرأى وذلك بتاريخ ١٠ أبريل ١٨٩٤م (٤ شوال ١٣١١هـ) ويبدو أن اللجنة المالية لم تر ما يدعو لبحث هذه المسألة فى مثل هذا الوقت المبكر من السنة المالية فأعادت نظارة الأشغال الكرة وقامت بتقديم المذكرة مرة أخرى إلى مجلس النظار فى ١٤ يوليو ١٨٩٤م (١٠ المحرم ١٣١٢هـ) وقرر المجلس من جانبه إحالتها ثانية إلى اللجنة المالية لإبداء الرأى والتى بعثت إلى مجلس النظار بالرد التالى : " بالمداولة باللجنة المالية فيما وردت به إفادة المجلس بشأن ميزانية مصلحة الآثار التاريخية الجديدة رؤى : حيث إن وقت النظر فى موازن المصالح لم يحل بعد فالأوراق عائدة بأمل إعدادها لنظارة الأشغال العمومية حتى إنه لدى حلول أوان تقديم الموازن عن سنة ١٨٩٥م تدرج ماترى لزومه لمصلحة الآثار " وقد أبلغ هذا الرأى إلى نظارة الأشغال بتاريخ ٨ أغسطس ١٨٩٤م (٥ صفر ١٣١٢هـ) (٣٥).

بعد هذا الرد لم تفكر نظارة الأشغال فى عرض المذكرة مرة ثالثة على مجلس النظار ولعل الأشغال قد شعرت - من خلال البوادر التى ظهرت فى موقف اللجنة المالية من المذكرتين السابقتين - بأن اللجنة لن توصى بقبول هذه الزيادة الكبيرة المفاجئة فى ميزانية مصلحة الأنثيقخانة والحفر المصرية، وذلك خوفاً من مطالبة المصالح الأخرى بزيادات مماثلة فى مخصصاتها. وربما كان ذلك من أقوى الأسباب التى أدت إلى وأد مشروع دى مورجان الطموح والقضاء عليه فى مهده، وربما كانت هناك أسباب أخرى غير معلومة جعلت كل من دى مورجان والأشغال يصرفان النظر عن التمسك بهذه الميزانية الجديدة المقترحة، ومهما يك من أمر فإن مخصصات مصلحة الأنثيقخانة المصرية فى العام التالى -١٨٩٥م - لم تزد عما كانت عليه خلال

عام ١٨٩٤م بل على العكس من ذلك فقد سجلت هذه المخصصات انخفاضاً آخر وصل بها إلى عشرة آلاف وواحد وستين جنياً بواقع أربعة آلاف وثمانمائة وخمسة وأربعين جنياً للمستخدمين الداخليين هيئة العمال، وألفين وخمسمائة وتسعة عشر جنياً للمستخدمين الخارجيين عن هيئة العمال، وألفين وستمائة وسبعة وتسعين جنياً للمصروفات المتنوعة^(٣٦). ثم سجلت انخفاضاً ثالثاً عام ١٨٩٦م نزل بالموازنة إلى عشرة آلاف وخمسة وأربعين جنياً بواقع أربعة آلاف وتسعمائة وسبعة وخمسين جنياً، وألفين وأربعمائة وخمسة وتسعين جنياً، وألفين وخمسمائة وثلاثة وتسعين جنياً للهنود الثلاثة السابقة على التوالي^(٣٧).

وفي عام ١٨٩٧م أصبحت مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري دون العشرة آلاف جنية مرة أخرى، فقد بلغت هذا العام تسعة آلاف وأربعمائة واثنين وتسعين جنياً (أربعة آلاف وستمائة وستة وعشرون، وألفان وأربعمائة وثمانون، وألفان وثلاثمائة وثمانون)^(٣٨) ثم انخفضت انخفاضاً طفيفاً في العام التالي ١٨٩٨م مسجلة تسعة آلاف وأربعمائة وتسعة وستين جنياً (بواقع أربعة آلاف وسبعمائة واثنين وتسعين، وألفين وأربعمائة وخمسة وستين، وألفين ومائتين واثنى عشر جنياً على التوالي)^(٣٩) وذلك قبل أن تعود إلى الارتفاع من جديد عام ١٩٠٠م^(٤٠) حيث بلغت المخصصات هذا العام أحد عشر ألفاً وتسعمائة وأربعة وخمسين جنياً موزعة على النحو التالي : ستة آلاف وثمانمائة وثمانية وأربعون جنياً للبند الأول (مستخدمون داخل هيئة العمال) وألفان وأربعمائة وتسعة وتسعون جنياً للبند الثاني (مستخدمون خارج هيئة العمال) وألفان وستمائة وسبعة جنهات للبند الثالث (مصرفات متنوعة)^(٤١) وبذلك تكون موازنة المصلحة هذا العام - ١٩٠٠م - قد ارتفعت عن موازنة عام ١٨٩٨م بنسبة مئوية بلغت ٢٥,٩% في الإجمالي العام، وبنسبة مئوية وصلت إلى ٤٨% في مخصصات البند الأول، و٧,٠% في مخصصات البند الثاني، و٩,٢% في مخصصات البند الثالث.

واصلت مخصصات مصلحة الأنتيكخانة والحفر ارتفاعها خلال السنوات الأولى من القرن العشرين : إذ بلغت هذه المخصصات في العام الأول من هذا القرن - ١٩٠١م - اثني عشر ألفاً وثلاثمائة وخمسة وثلاثين جنياً (بواقع ستة آلاف وتسعمائة وواحد وثمانين جنياً للبند الأول وألفين وستمائة وواحد وثلاثين جنياً للبند الثاني وألفين وسبعمائة وثلاثة وعشرين جنياً للبند الثالث)^(٤٢). ثم ارتفعت هذه المخصصات في العام التالي - ١٩٠٢م - حتى وصلت إلى ثلاثة عشر ألفاً ومائة وخمسة وثمانين جنياً (سبعة آلاف ومائتان وسبعون جنياً وثلاثة آلاف وواحد وثلاثون جنياً، وألفان وثمانمائة وأربعة وثمانون جنياً للهنود الثلاثة على التوالي)^(٤٣).

ومع انتقال المتحف المصري إلى مكانه الجديد في قصر النيل، واتساع دائرة أشغاله، وزيادة عدد موظفيه باتت الحاجة ملحة إلى ضرورة زيادة مخصصات مصلحة الأنتيكخانة والحفر حتى

تصبح قادرة على الوفاء بمتطلبات المتحف الجديد وبحلول عام ١٩٠٥م كانت موازنة مصلحة الآثار المصرية قد وصلت إلى عشرين ألفاً وستمئة واثنين وأربعين جنيهاً، منها تسعة آلاف ومائة واثنان وأربعون جنيهاً مخصصة للبند الأول (مستخدمون داخلون في هيئة العمال) موزعة على النحو التالي: مدير عموم المصلحة وراتبه السنوى ١٥٠٠ جنية، وأمين وراتبه السنوى ٧٠٠ جنية، واثنان باشمفتشان يتقاضيان ١٢٠٠ جنية سنوياً، وثالث يتقاضى ٥٠٠ جنية سنوياً، وأمين مفتش وراتبه ٣٥٠ جنيهاً سنوياً، ومفتش رسام (٤٥٠ جنيهاً سنوياً) واثنان من الأمناء المساعدين يتقاضيان ٩٠٠ جنية سنوياً، وأمين منوط بالتصليح (٤٠٠ جنية سنوياً) وسكرتير كاتب حسابات (٤٨٠ جنيهاً) وناظر (٢٥٠ جنيهاً) ومهندس (٢٥٨ جنيهاً) وكاتب ومترجم بالدرجة الثالثة (٢٨٨ جنيهاً) وكاتب ومترجم من الدرجة الرابعة (١٩٨ جنيهاً) وكاتبان ومترجمان من الدرجة الخامسة (٢٦٤ جنيهاً) وثلاثة مفتشين من الدرجة الأولى يتقاضون سنوياً ٤٨٠ جنيهاً، وثمانية مفتشين من الدرجة الثانية تبلغ مخصصاتهم السنوية ٨٦٤ جنيهاً، ومخزننى بالدرجة الثانية وراتبه السنوى ٦٠ جنيهاً وبذا يبلغ مجموع العاملين بالمصلحة من المستخدمين الداخلين في هيئة العمال تسعة وعشرين مستخدماً.

أما البند الثانى (مستخدمون خارجون عن هيئة العمال أو الخدمة السائرة) فقد بلغت مخصصاتهم السنوية ثلاثة آلاف وستمئة جنية. وأما البند الثالث من الموازنة وهو بند المصروفات العمومية فقد انقسم إلى قسمين: قسم المصروفات العمومية وخصص له مبلغ ثلاثة آلاف وتسعمائة جنية. وقسم الصيانة والترميم وقد خصص له مبلغ أربعة آلاف جنية تصرف على أشغال معبد الكرنك وأشغال الجدول العلوى (دليل المتحف أو كتالوج الآثار الموجودة بالمتحف) وعلى أعمال الترميم الجارية ببعض المعالم الأثرية الهامة^(٤).

وفى عام ١٩٠٦م بلغت مخصصات مصلحة الأنتيكخانة والحفر المصرية اثنين وعشرين ألفاً وسبعمائة وستين جنيهاً بزيادة قدرها ألفان ومائة وثمانية عشر جنيهاً، وقد نشأت هذه الزيادة الجديدة من زيادة عدد الباشمفتشين الذين يتقاضون خمسمائة جنية سنوياً من باشمفتش واحد عام ١٩٠٥م إلى اثنين عام ١٩٠٦م يتقاضيان ألف جنية سنوياً. ثم من استحداث وظيفة أمين مفتش براتب سنوى قدره ثلاثمائة وخمسون جنيهاً. ثم من زيادة المخصص السنوى لوظيفة سكرتير كاتب حسابات من أربعمائة وثمانين جنيهاً عام ١٩٠٥م إلى خمسمائة وستين جنيهاً عام ١٩٠٦م. ثم من استحداث وظيفة كاتب ومترجمين درجة سادسة تعين فيها ثمانية وبلغت مخصصاتهم السنوية خمسمائة وستة وسبعين جنيهاً. ثم من استحداث وظيفة "أمين الكتيبة" أو أمين مكتبة المتحف براتب سنوى يبلغ مائة واثنين وتسعين جنيهاً. وأخيراً من زيادة المخصص

لتغطية نفقات الصيانة والترميم من البند الثالث من أربعة آلاف جنية عام ١٩٠٥م إلى خمسة آلاف ومائة وعشرين جنيهاً عام ١٩٠٦م^(٤٥).

وهكذا يمكن القول بأن ميزانية مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري قد تضاعفت أربع مرات تقريباً خلال عشرين عاماً فقط، فقد زادت مخصصاتها من خمسة آلاف وخمسمائة وثمانية جنيهات عام ١٨٨٦م إلى اثنين وعشرين ألفاً وسبعمائة وستين جنيهاً في عام ١٩٠٦م. كما يمكن القول كذلك بأن هذه الميزانية قد تضاعفت مرتين تقريباً خلال ست سنوات فقط، وذلك في الفترة ما بين عامي ١٩٠٠، ١٩٠٦م. كما ارتفع عدد موظفيها خلال الفترة السابقة من أربعة وعشرين إلى حوالي المائة^(٤٦).

هذا وقد راودتنا فكرة عقد مقارنة بين تطور ميزانية مصلحة الأنتيقيخانة والحفر المصرية وتطور ميزانية مصلحة أخرى تدانها في الهدف والمضمون، ولم نجد لذلك أقرب من مصلحة الأوبرا والتياترات : فكلتا المصلحتين لهما هدف تثقيفي، وكلتاهما مستهلكة غير منتجة، حقاً إن الحفائر الأثرية قد تسفر عن حلى ومجوهرات ومصنوعات فنية غالبية الثمن بل لعلها لا تقدر بثمن، ولكنه إنتاج مصون من أجل متعة المشاهدة والبحث، ولا يمكن التصرف فيه بأي حال من الأحوال على أية حال فإن المصادر تؤكد أن مخصصات التياترو والأوبرا قد بلغت في عام ١٨٨٦م ألفين وخمسمائة جنية، ولم يطرأ عليها تغير في عام ١٨٨٧م^(٤٧). وذلك في الوقت الذي كانت فيه مخصصات مصلحة الآثار خمسة آلاف وثمانمائة وثمانية جنيهات في العام الأول، وستة آلاف جنية في العام الثاني كما سبق القول.

وفي عام ١٨٩٠م انخفضت مخصصات مصلحة التياترو والأوبرا إلى ألفين وثلاثمائة جنية قبل أن تعود لترتفع ارتفاعاً فجائياً في العام التالي - ١٨٩١م - إلى أربعة آلاف جنية^(٤٨) محققة زيادة قدرها ألف وسبعمائة جنية بنسبة مئوية بلغت ٧٣,٩% دفعة واحدة. وخلال الأعوام التالية واصلت ميزانية مصلحة التياترو والأوبرا ارتفاعها الملحوظ وكانت هذه الزيادة الكبرى في ميزانية المصلحة المذكورة مثار اعتراضات دائمة من أعضاء مجلس شورى القوانين أثناء مناقشتهم لموازنة الدولة العامة عند عرضها على المجلس المذكور للمداسة وإبداء الرأي، فقد ذكرت اللجنة البرلمانية المشكلة للبحث في ميزانية سنة ١٨٩٤م " أن المصاريف التي تصرف للتياترو العمومي لا وجه لها، وأن معظم الحكومات في أوروبا لا تفعلها، وعلى الخصوص في بلاد الإنكليز، وإن فعلتها بعض الدول الأخرى فهو لغرض معروف فيه منفعة لأمتها، أما في مصر فليس فيه شيء من ذلك مطلقاً، ولا تخرج فائدته عن تزينة بعض الأجانب المقيمين بها "^(٤٩) وقال مصطفى بك منصور - أحد أعضاء المجلس - في خصوص هذا الموضوع : " ورب معترض يقول بضرورة لزوم التياترو بالنسبة للسياح، فترد عليه بأن السياح لا يحضرون إلى مصر لغرض التوجه إلى التياترو لما هو

ملعوم من أن التيارات في بلادهم موجودة بكثرة، بل الغرض من حضورهم هو مشاهدة الآثار القديمة^(٥٠).

وببدو أن الحكومة لم تأخذ برأى اللجنة البرلمانية ؛ ذلك أنه بحلول عام ١٨٩٧م كانت مخصصات مصلحة الأوبرا والتياترات قد تجاوزت الثمانية آلاف جنيه، وهذا يعنى أنها قد تضاعفت في مدة ستة أعوام، وهو مالم يعجب اللجنة البرلمانية المشكلة لبحث الموازنة العامة للدولة عن عام ١٨٩٧م، وقالت اللجنة في تقريرها إنها وإن كانت " تتمنى تعضيد المشروعات الأدبية التى من ضمنها فن التشخيص إلا أنها ترى أن الحكومة المصرية بحالتها الحاضرة لا يسوغ لها أن تنفق في سبيل هذا التعضيد أموالاً وحالة رعيها في حاجة إلى كل بارة منها، هذا فضلاً عن أن المبلغ المنوه عنه جار صرفه إلى الجوقات الأوروبية التى لا حظ منها لأبناء البلاد، ولا تعود على فريق منهم فائدة مطلقاً، ولا يترتب عليها أدنى حركة بسبب إقبال السياح عليها كما يقال، لأن السياح الذين يقصدون وادى النيل، إنما يقصدونه لاعتدال جوه ولمشاهدة آثاره كما لا يخفى، ولهذا فإن اللجنة ترى وجوب استلفات نظر الحكومة لإتفاق هذا المبلغ فيما يعود على أبناء البلاد بالمنفعة والفائدة^(٥١).

وهكذا يمكن القول بأنه قد كان هناك وعى تام بين أوساط النخبة المثقفة من المجتمع المصرى بقيمة الآثار المصرية والمتحف المصرى كمصدر يسهم في زيادة الدخل القومى، ويساعد على توفير النقد الأجنبي الذى يستخدم في تمويل مشروعات وخطط التنمية، كما يتيح الكثير من فرص العمل للذين يشاركون في الأعمال التى تتعلق بخدمة السائحين بحيث يعود ذلك على البلاد بالمنفعة والفائدة.

ثانياً الموارد غير المنتظمة :

لم تكن الأموال المخصصة لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى في الميزانية العامة للدولة كافية للوفاء باحتياجات هذه المصلحة وتلبية متطلباتها الأساسية، ولا سيما مع تضخم أعباء هذه المصلحة بتزايد الآثار القديمة المكتشفة في ظل التوسع الدائم والمستمر في عملية الكشف الأثرى، وتضاعف القطع الأثرية المعروضة في قاعات المتحف، وزيادة عدد هذه القاعات بعد نقل المتحف من مكانه القديم في بولاق إلى سراى الجيزة ثم إلى مكانه الفخم الجديد في قصر النيل، وظهور الحاجة الملحة إلى تعيين موظفين جدد لمواجهة هذا التوسع الكبير في أعمال المصلحة، ولتشديد الرقابة على عمليات الحفر غير القانونية، والقضاء على ظاهرة تهريب الآثار إلى الخارج ؛ كل ذلك قد جعل الحاجة ماسة إلى زيادة الأموال التى تدفعها الحكومة لهذه المصلحة، وقد رأينا كيف كان المسئولون عن إدارة شئون هذه المصلحة يرفعون أصواتهم ويجأرون كثيراً بالشكوى من ضعف المخصصات المالية للمصلحة وأنها لا تكفى لتسيير أمورها على نحو ملائم، وكثيراً ما طالبوا

الحكومة بزيادة هذه المخصصات بل ومضاعفتها في بعض الأحيان، ولكن الاعتذار بضيق ذات اليد ونقص الأموال ومحدودية الموارد وضرورة ألا يتجاوز رئيس كل مصلحة المبالغ المقررة له في الميزانية وأن يجعل مصروفاته على قدرها، كانت هي الرد الوحيد من جانب الحكومة على طلبات هؤلاء المسؤولين، ومن ثم فقد لجأ هؤلاء إلى التفكير في طرق أخرى غير طريق الحكومة من أجل الحصول على الأموال اللازمة لتحسين الخدمات التي تؤديها المصلحة، وتطوير أدائها على نحو أفضل، وقد كان من بين هذه الطرق التي لجأ إليها مديرو المصلحة لتدبير الأموال: فتح الباب أمام تلقى التبرعات عن طريق افتتاح اكتتابات لجمع الأموال في الصحف المحلية والأجنبية الكبيرة، وإلى ماريت يعزى الفضل في ابتكار هذه الفكرة، فقد جمع من هذا الطريق أموالاً استخدمها في الكشف عن تمثال أبي الهول^(٥٦). واتبع ماسبيرو خطة سلفه، فاجتهد في جمع مبالغ مالية من أوروبا استخدم بعضها في استكمال الكشف عن التمثال المذكور، وذلك بعد أن اتضح لديه قصور ما بيده من اعتمادات مالية كان يتردد في استخدامها في عمل قد لا يأتي بما ينتظر من نتائج، ووجد السبيل إلى الخلاص من ذلك في الالتجاء إلى كرم الجماهير، فوجه نداءً باسم " أبو الهول " وتعهدت صحيفة " ديبا " الفرنسية بفتح اكتتاب لهذا المشروع في فرنسا، واستغلت الصحيفة البلاغة الفائقة لكاتب صحفى لديها يدعى رنان في الدعاية لأعمال التنقيب وما يمكن أن يكون لها من ثمار، وكان المبلغ المطلوب خمسة عشر ألف فرنك، وقد جُمع هذا المبلغ وتم وضعه تحت تصرف ماسبيرو في ثلاثة أيام فقط^(٥٧).

وفي عام ١٨٨٤م افتتح ماسبيرو اكتتاباً عاماً جديداً في جريدة " ديبا " الفرنسية السابقة وجريدة " التايمز " الإنجليزية من أجل الكشف عن معبد الأقصر المردوم وتطهيره من المنازل التي تعلو سطحه، فجمع من ذلك نحو تسعة عشر ألف فرنك تعادل ثلاثة وسبعين ألفاً ومائتين واثنين وتسعين قرشاً خصص جزء منها لشراء هذه المنازل وهدمها وإزالتها، كما خصص جزء آخر من أجل إزاحة التراب عن المعبد^(٥٨).

والحق أن مساهمة الأجانب في الكشف الأثرى بمصر إنما ترجع إلى عهد يسبق حتى إنشاء مصلحة الآثار المصرية ذاتها، فقد أنفق الإيطالي كافيجليا ما يقرب من أربع مائة وخمسين جنيهاً في حفائره التي أجراها حول تمثال " أبو الهول " عام ١٨١٨م^(٥٩). كما فتح بلزوني هرم خفرع بمبادرة فردية منه^(٦٠)، وحتى بعد إنشاء مصلحة الآثار المصرية وتخصيص ميزانية لها ظل الموسرون من الأجانب يساهمون من جانبهم في عمليات الكشوف الأثرية، وكنا قد أشرنا قبلاً إلى مساهمات الأمريكي تيودرو دافيز الضخمة في الحفائر الأثرية التي كان يقوم بها المتحف المصري^(٦١)، كما فتح ماسبيرو عام ١٨٨١م هرم الملك أوناس - آخر ملوك الأسرة الخامسة - على نفقة الإنجليزي توماس كوك^(٦٢)، وفي عام ١٨٨٧م جمع الإنجليزي فردريك ستيفنسن مبلغاً من المال تمكن به

السير آرثر باجنولد من رفع تمثال رمسيس الثانى الذى كان ملقى فى حفرة مليئة بالوحل والطين فى منطقة ميت رهينة، ووضعته على قاعدة أكثر صلابة من الحجارة^(٥١)، وإن كانت الحكومة المصرية قد أسهمت من جانبها فى هذا العمل " بإعطائه الأدوات اللازمة من الترسانة وورشه العمليات لإجرى عملية رفع التمثال المذكور "^(٥٢).

ومن الوسائل التى لجأ إليها المسئولون عن مصلحة الأنتيكخانة والحفر المصرية من أجل زيادة موارد هذه المصلحة : فرض رسوم مالية على الخدمات التى تؤدها المصلحة، فوضعوا فى عام ١٨٨٨م مشروع لأئحة تقضى بفرض رسم على الذين يقومون بزيارة متحف بولاق أو يزورون المعالم الأثرية القديمة فى الوجه القبلى، وتقص علينا نظارة الأشغال من أنباء الدوافع التى حدث بها إلى الإقدام على فرض هذه الرسوم المستحدثة فتذكر فى مذكرتها التى رفعها إلى مجلس النظار فى ١٤ مايو ١٨٨٨م (٣ رمضان ١٣٠٥هـ) بصدد هذه المسألة أن لجنة الآثار التاريخية قد رأت فى جلستها المنعقدة فى ٧ أبريل ١٨٨٨م (٥ شعبان ١٣٠٥هـ) أنه يتيسر للحكومة المصرية أن تزيد من إيرادات المتحف المصرى الاعتيادية التى هى الآن طفيفة جداً لا تذكر بدون أن تنقل على ميزانيتها وذلك بأن تضرب على زائرى متحف بولاق والآثار التاريخية فى الوجه القبلى رسماً يدفعونه عند زيارتهم، واعترفت اللجنة بأن هذا الرسم أمرٌ مستحدث فى القطر المصرى غير أنه لا يعد بدعة جديدة ابتدعتها الأنتيكخانة المصرية دون سائر المتاحف الأجنبية الأخرى، ذلك أن كثيراً من متاحف أوروبا لا يمكن دخولها ومشاهدة ما بها من آثار إلا بعد دفع رسم مقرر لذلك، كما أن مشاهدة خرائب وآثار مدينة بومبى فى إيطاليا ومشاهدة غيرها من كثير من الأبنية التاريخية فى تلك البلاد لا يكون إلا بعد دفع رسوم معينة، فلا يكون من المستغرب حينئذٍ إذا فرضت الحكومة المصرية رسماً على الذين يريدون التفرج على السرايوم وعلى غيره من المعالم الأثرية القديمة فى صعيد مصر والتى أنفقت الحكومة المصرية الكثير من الأموال على كشفها وصيانتها، وتعهدت لجنة الآثار التاريخية من جانبها بأن هذا الرسم لن يكون مبالغاً فيه، وأوصت اللجنة فى نهاية مناقشتها بتقرير عدة أمور :

أولاً : أن يوضع لدخول متحف بولاق رسم قدره خمسة قروش يفرض على كل زائر فى جميع أيام الأسبوع ما عدا يومين منه فقط، يخصص أحدهما لمن يأنف ازدحام الزائرين فى الأيام الأخرى، ويكون رسم الدخول فى ذلك اليوم عشرة قروش، ويخصص اليوم الآخر للدخول مجاناً، وأن تجعل تذاكر قيمة الواحدة منها خمسون قرشاً تنيع لصاحبها التفرج لمدة ستة أشهر.

ثانياً : أن يعطى للسائحين فى الوجه القبلى تذاكر قيمة الواحدة منها جنيه مصرى واحد تنيع

لصاحبها مشاهدة جميع الخرائب والآثار التاريخية.

ثالثاً : أن تعطى للسائحين الذين يرغبون مشاهدة آثار سقارة فقط تذاكر قيمة الواحدة منها عشرون قرشاً.

رابعاً : أن الأموال الناتجة من بيع التذاكر المذكورة، والمتحصلة من الرسم المفروض لدخول متحف بولاق تخصص جميعها لمصلحة الآثار التاريخية، وأن تتفق نظارة الأشغال مع لجنة الآثار التاريخية على كافة الإجراءات التي يجب اتخاذها لضمان تحصيل الرسوم المذكورة على أكمل وجه.

وأكدت نظارة الأشغال العمومية من ناحيتها أنه بالنظر إلى الفوائد الجمة التي سوف تجنيها مصلحة الآثار التاريخية من العمل بالأثر التي اقترحتها لجنة الآثار التاريخية فإنها تعرض على المجلس هذه الاقتراحات راجية من مجلس النظار أن يقوم بدراستها واعتمادها^(٦١).

وافق مجلس النظار على ما اقترحته لجنة الآثار التاريخية وتضمنته مذكرة نظارة الأشغال السابقة، كما قام بتكليف مصلحة الآثار التاريخية بوضع مشروع لائحة مفصلة بتقرير الرسم الذي يُقتضى دفعه لمشاهدة المعالم الأثرية القديمة بالوجه القبلي، وقد نصت المادة الأولى التي وضعتها مصلحة الآثار بأن المصلحة المذكورة سوف تعطى تذاكر شخصية قيمة الواحدة منها مائة قرش تخول من أعطيت له حق مشاهدة الآثار الفرعونية من المعابد والمقابر والأهرامات وغير ذلك من الأبنية التاريخية في الوجه القبلي، وأن هذه التذاكر سوف تباع فقط لدى موظف مندوب عن المصلحة يتم اعتماد تعيينه من ناظر الأشغال العمومية.

ونصت المادة الثانية على أنه لا يجوز الدخول إلى المباني الأثرية المقلقة أو المسورة إلا بعد شراء هذه التذكرة. وقضت اللائحة في مادتها الثالثة بإعفاء المرشدين السياحيين والمترجمين من دفع هذا الرسم متى كانوا معتمدين من الأنتيكخانة المصرية، وبإيداعهم ما يثبت ذلك، وحذرت المصلحة هؤلاء المرشدين والمترجمين من التعامل مع السائحين الذين لا يحملون هذه التذاكر، وأن من يخالف تلك التعليمات سوف يتم إيقافه عن العمل، ويسحب منه تصريح العمل الخاص به.

وقضت المادة الرابعة بأن الذين يرغبون مشاهدة آثار سقاره وحدها يدفعون لذلك رسماً مخفضاً قيمته خمسة قروش فقط.

ونصت المادة الخامسة على أن الأموال المحصلة من بيع هذه التذاكر تنفق أولاً في تعبيد الطرق المؤدية إلى تلك الآثار، وتوفير وسائل المواصلات اللازمة للوصول إليها، ثم في إتمام الأسوار المحيطة بها، وكذلك كافة الأعمال اللازمة لوقايتها وحفظها من صيانة وترميم ونحو ذلك. هذا وقد أقر مجلس النظار هذه اللائحة بموادها الخمس في ٢٧ أكتوبر ١٨٨٨ م (٢١ صفر ١٣٠٦ هـ)^(٦٢).

وفي نهاية ١٨٨٨م قررت إدارة متحف بولاق إلغاء تذاكر الدخول من فئة العشرة قروش والتي كان مخصصاً لها يوم واحد من كل أسبوع، وجعلت إدارة المتحف رسم الدخول خمسة قروش في جميع أيام الأسبوع باستثناء يوم واحد يخصص للدخول مجاناً، وذلك بعد أن رأت الإدارة عدم إقبال الزوار على زيارة المتحف في ذلك اليوم الذي يرتفع فيه رسم الدخول إلى عشرة قروش حتى إن السائحين الذين كانوا يحضرون إلى المتحف في ذلك اليوم بدون علم كانوا يرتدون على أعقابهم راجعين مفضلين عدم زيارة المتحف في ذلك اليوم على دفع رسم العشرة قروش^(١٣).

وفي ٩ أبريل ١٨٩٢م (١١ رمضان ١٣١٠هـ) وافق مجلس النظار على اقتراح لجنة الآثار التاريخية بتخفيض رسم الدخول إلى متحف بولاق من خمسة قروش إلى قرشين مع استمرار العمل بنظام اليوم المجاني، وقد جاء هذا القرار بعد أن لوحظ أن غالبية الزائرين يفضلون الحضور إلى المتحف في يوم الثلاثاء، وهو اليوم المقرر للدخول مجاناً، ومن هنا كان قرار خفض رسم دخول المتحف بقصد الحد من ظاهرة ازدحام الزائرين في يوم الدخول المجاني، وتشجيعاً للسائحين على زيارة المتحف في أيام الأسبوع الأخرى^(١٤).

ظل هذا النظام لدخول متحف بولاق متبعاً لمدة تقرب من عشرين شهراً رغم مطالبة الكثيرين برفع رسم الدخول إلى متحف بولاق بغرض زيادة موارد المتحف المالية، وقالت جريدة "المقتطف" إن أكثر السائحين متفقون على أن الرسم الذي يؤخذ من السياح مقابل رؤية ما في دار التحف وهو قرشان فقط زهيد جداً، وأنه يجب أن يرفع إلى خمسة قروش أو عشرة، ونقلت عن سائح أمريكي قوله إن الذي ينفق خمسة آلاف ريال في المعجى إلى هذا القطر لا يستصعب دفع خمسة قروش لرؤية أعظم كنوزه وأعجب آثاره^(١٥).

ولكن لم يكن قبل ١٦ نوفمبر ١٨٩٣م (٧ جمادى الأولى ١٣١١هـ) حين وافق مجلس النظار على فرض لائحة جديدة لدخول متحف الجيزة - بعد نقله من بولاق - على أن تطبق هذه اللائحة ابتداءً من أول ديسمبر ١٨٩٣م، ويقضى نظام الدخول الجديد بجعل ثمن التذكرة خمسة قروش في كامل أيام الأسبوع وذلك في فصل معي السائحين إلى القطر المصري في الفترة من أول نوفمبر إلى نهاية مارس من كل عام. ثم جعل الدخول مجاناً في أشهر الصيف خلال الفترة المتبقية من السنة وذلك من أول مايو إلى نهاية أكتوبر، ورأت لجنة الآثار التاريخية أن هذا النظام من شأنه أن يؤدي إلى زيادة دخل المتحف المصري دون تكليف السائحين أعباء مالية كبيرة، وفي نفس الوقت يعطى الفرصة للمواطنين لزيارة المتحف ودخوله مجاناً في مدة طويلة من السنة^(١٦).

وفي السنوات الأولى من القرن العشرين ارتفع رسم دخول المتحف المصري إلى خمسة جنيهات كاملة^(١٧) والواقع أنه كان يمكن لهذه الرسوم المقروضة على دخول المتحف وعلى زيارة المعالم الأثرية القديمة في صعيد مصر أن تكون مصدراً لزيادة الموارد المالية لمصلحة الآثار المصرية لولا ما

شاب نظام تطبيقها من خللٍ وقصور. فقد لاحظ محمد مجدى أن خقراء مصلحة الآثار المكلفين بحراسة الأماكن الأثرية بالوجه القبلى كانوا يتفاوضون في كثير من الأحيان عن مطالبة السائحين بأن يطلعوهم على تذكرة زيارة هذه الأماكن ذات المائة قرش، ولا سيما إذا كان السائح بصحبة مرشدٍ أو دليل يعرفه الخفير، فهناك " تغلب المحبة على الأصول " كما يقول محمد مجدى^(٦٨)، ويؤكد أنه صادف خلال رحلته أموراً كثيرة من هذا القبيل.

كذلك قام المسئولون عن مصلحة الأنتيكخانة والحفر المصرية بتحصيل رسم قدره جنية واحد على الطلبات التى يقدمها الأفراد للحصول على موافقة المصلحة بتشغيل محاجر أو مشترى أراضي. وكانت هذه الطلبات كثيرة جداً يبلغ عددها في العام الواحد عدة مئات، ويستغرق النظر في شأنها معظم أوقات مفتشى المصلحة، وتتطلب نفقات ضخمة لمصاريف الانتقال وبدل السفيرة، وكانت مصلحة الآثار تضطر إلى تحمل هذه النفقات ودفعها من ميزانيتها الخاصة، ولما رأت المصلحة أن هذه الطلبات لا يحصل من ورائها على منفعة للعلم أو لعامة الناس، وإنما يقدمها الأفراد لتحقيق مصالح خاصة : لذلك رأت المصلحة وجوب فرض رسم ثابت قدره جنية على كل طلب، على أن يجعل ذلك الرسم تحت تصرف مصلحة الآثار التاريخية، ويخصص للنفقات التى يستلزمها النظر في الطلبات المذكورة. مع تأكيد أن تحصيل الرسم المذكور لا يخول الطالب حقاً من الحقوق سوى نظر المصلحة في طلبه سواء قبل الطلب أو لم يقبل^(٦٩).

وفي ٤ مايو ١٨٩٧م (٢ ذو الحجة ١٣١٤هـ) أقر مجلس النظار - بناء على طلب من لجنة الآثار التاريخية - فرض رسم قدره جنيان على الطلبات التى تقدم إلى مصلحة الآثار ويطلب مقدموها الترخيص لهم بالحفر بحثاً عن الخبايا والكنوز مستندين في ذلك إلى إشارات غير صحيحة في كتاب أو دليل قديم، على أن يكون تحصيل هذا الرسم وفقاً للضوابط والمعايير التى يتم بها تحصيل الرسم المماثل لذلك على الطلبات التى تقدم لتشغيل المحاجر أو مشترى الأراضي كما هو موضح بالفقرة السابقة^(٧٠).

ومن الوسائل التى لجأت إليها مصلحة الآثار التاريخية من أجل زيادة مواردها المالية غير الاعتيادية قيامها بفتح متجر لبيع بعض الآثار المصرية القديمة ذات الأهمية التاريخية المحدودة، واستخدام الأموال الناتجة من ذلك البيع في إجراء مزيد من عمليات الحفر للبحث عن الآثار القديمة، وهذا تصرف عجيب يستغرب صدورهِ من مؤسسة من المفترض أنها وجدت أصلاً لغرض المحافظة على الآثار التاريخية لا لبيعها والاتجار فيها، ولكنه لم يكن مستغرباً في هذا الوقت، ذلك أن محال بيع الأنتيكات والآثار القديمة المرخصة ظلت منتشرة بكثرة في كافة أرجاء القطر المصرى حتى منتصف القرن العشرين، ويرجع ظهور هذه الفكرة إلى عام ١٨٨٦م عندما وافق مجلس النظار في ٢٥ مارس من هذا العام على طلب مصلحة الآثار التاريخية بالسماح لها ببيع بعض

الآثار القديمة التي لا تتمتع بأهمية كبيرة شريطة أن يقدم مدير الأنتيكخانة حساباً عن ذلك كل ستة أشهر إلى اللجنة المالية، وفي العام التالي أصدر مجلس النظار قراراً آخر ينص على أن يكون بيع الآثار عموماً محتكراً للحكومة دون غيرها كما طالبت بذلك لجنة الآثار التاريخية، ولكن يبدو أن هذا القرار قد وقفت دون تنفيذه في ذلك الوقت صعوبات كبيرة حتى إن مصلحة الآثار قد صرفت النظر عن المطالبة بتطبيق القرار الوزاري الخاص بقصر عملية بيع الآثار القديمة عليها دون غيرها، عندما لمست بنفسها عدم إمكان تنفيذه في هذا الوقت، وإن كانت قد قامت بالبده في تنفيذ مشروع المتجر الذي انتوت افتتاحه ملحقاً بالمتحف المصري لبيع الآثار القديمة، وإن تم ذلك على نطاق محدود وفي ٢١ مايو ١٨٨٨ م (١٠ رمضان ١٣٠٥ هـ) أودت مصلحة الآثار أن تتوسع في فكرة متجر بيع الأنتيقات عندما رأت لجنة الآثار التاريخية أن في إمكان مصلحة الآثار أن تحصل من وراء عملية بيع الآثار القديمة على مبالغ جسيمة متى تم اتخاذ كافة الوسائل اللازمة لتدعيم ذلك المشروع وتوسيع دائرته، فإذا وضع في متجر الأنتيقات بالمتحف أنتيقات ذات أهمية تكون غير لازمة للمتحف لأقبل السائحون على مشتراها من ذلك المتجر لوثوقهم بعدم تزيفها، وتيقنهم أنها قطع أصلية.

وفي إطار محاولات نظارة الأشغال الجادة لدعم هذا المشروع الغريب طلبت النظارة من مجلس النظار أن يصرح بإعطاء مصلحة الآثار قرضاً قيمته خمسمائة جنية يجعل رأسمال للمتجر المذكور، ويخصص ذلك المبلغ إما لمشتري بعض الآثار التي يعثر عليها الفلاحون بقصد إعادة بيعها للراغبين بثمن أعلى، أو لإجراء بعض أعمال الحفر عند الضرورة، على أن تقوم مصلحة الآثار برد هذا القرض متى تيسر لها جمع قيمته من حصيلة البيع المذكور، وتلتزم مصلحة الآثار من جانبها بتقديم كشف حساب كل ستة أشهر إلى المالية عما يباع في المتجر من آثار وفقاً لقرار المجلس القديم الصادر في ٢٥ مارس ١٨٨٦ م (١٩ جمادى الآخر ١٣٠٣ هـ).

أحال مجلس النظار اقتراح نظارة الأشغال إلى اللجنة المالية للدراسة وإبداء الرأي، ورأت اللجنة المالية بعد المداولة أنه لا مانع من تنفيذ رغبة نظارة الأشغال متى تم تقديم كشوف الحسابات اللازمة إلى المالية في مواعيدها، وأقر مجلس النظار موافقة المالية في ٢١ يوليو ١٨٨٨ م (١٢ ذو القعدة ١٣٠٥ هـ)^(٣١).

ومنذ افتتاح متجر الآثار التابع للمتحف المصري والمسؤولون في نظارة الأشغال يلحون على مدير المتحف بأن يقيم له علاقات مع الجهات المهتمة بتجارة الآثار القديمة ومديري المتاحف الأجنبية الأخرى على أساس أن هؤلاء يميلون كثيراً إلى بذل الدرهم الكثير من أجل الحصول على آثار مصرية أصلية قلما توجد في بلاد أخرى غير مصر مثل الولايات المتحدة الأمريكية والمستعمرات الإنجليزية، فهذه الأنتيقات الموجودة بالمتجر ولئن تكن قليلة الأهمية للمتحف

المصري لكون المتحف غاص بكثير منها من النوع الواحد إلا إنها مع ذلك ذات أهمية كبيرة وقيمة عظيمة في البلاد الأجنبية كالبلاد المذكورة، وأثمانها تكون من الوسائل المؤدية إلى اتساع نطاق الحفر أكثر مما هو عليه الآن.

كان من نتائج هذه السياسة الدعائية الناجحة التي قام بها المسئولون عن المتحف المصري - بناء على تحريض من الأشغال - أن انتهت عروض شراء الآثار المصرية على المتجر التابع للمتحف، وكانت فاتحة هذه العروض عرض ضخيم من متحف المتروبوليتان في نيويورك يطلب فيه المتحف شراء آثار بمبلغ ألف جنية، وعرضت نظارة الأشغال كافة الأوراق المتعلقة بهذه الصفقة الأثرية الكبيرة على مجلس النظار لإقرارها، ولم يفت نظارة الأشغال أن تذكر أعضاء المجلس بأن "شدة آمال المسيو ماسبيرو في توسيع ثروة الأنتيقيخانة أكبر دليل على أنه لم يفرط قط في الأنتيقيقات التي لها ولو بعض الفائدة وحرية بأن تحتفظ " ولعل هذا مما يثير الدهشة، فإذا كانت الآثار المباعة لا تكتسب أى أهمية ولو قليلة، كما أنها غير جديرة بالحفظ فما الذى يدفع المسئولون في متحف المتروبوليتان إلى شرائها إذن؟! على أية حال فإن نظارة الأشغال عادت لتؤكد لمجلس النظار بأن الأموال المتحصلة من عملية البيع هذه سوف تستخدم في القيام بأعمال الحفر الضرورية للكشف عن الآثار القديمة التي لازالت مدفونة في باطن التربة، ولما كان ماسبيرو يصدد إرسال أول شحنة من الآثار المباعة إلى المتحف الأمريكى فقد طلبت نظارة الأشغال من مجلس النظار سرعة " صدور قراره باعتماد هذا البيع وأى بيع آخر كهذا يحصل في المستقبل " وهو الأمر الذى أقره مجلس النظار بتاريخ ٢٥ مارس ١٨٨٦م^(٧٦).

وفي ديسمبر عام ١٨٩٠م قام المتحف بعقد صفقة أخرى لبيع آثار من متجر الآثار التابع له بقيمة مائة جنية لإحدى المستعمرات الإنجليزية الواقعة في جنوب القارة الأسترالية وإن كان هذا البيع قد تم على نفقة الحكومة المصرية : إذ أنها هي التي قامت بتسديد ثمن الآثار المباعة نيابة عن المستعمرة الإنجليزية وذلك على سبيل المجاملة الدبلوماسية^(٧٧).

ومن الوسائل التي لجأت إليها مصلحة الآثار من أجل زيادة مواردها غير الاعتيادية قيامها بطلب اعتمادات إضافية من الحكومة زيادة على مخصصاتها الأصلية كلما اقتضت الضرورة ذلك، والحق إن الحكومة المصرية ممثلة في مجلس النظار كانت لا تتوانى عن إجابة رغائب المسئولين في المتحف في منحهم اعتمادات مالية زائدة عن ميزانية المصلحة متى كانت هذه الزيادات في حدود ما تسمح به إمكانيات الدخل القومى، ومتى لم تكن الحكومة في حالة من الإعسار لا تسمح لها بتجاوز ما هو مقرر في الموازنة العامة للدولة لكل مصلحة من المصالح الحكومية، وقد سجلت وثائق الفترة - ولاسيما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر - حالات عدة طلبت فيها مصلحة الآثار من الحكومة مبالغ إضافية لإنفاقها على حفائرها بحثاً عن الآثار

القديمة، وعلى تنظيم شئون المتحف المصرى، وتحسين أداء إدارة المصلحة، وجعل أمورها تسير على نحو أفضل، ومن الأمثلة على ذلك أن مجلس النظار المصرى كان قد وافق في ٢٥ مايو ١٨٨١ م (٢٥ جماد الآخر ١٢٩٨ هـ) على فتح اعتماد إضافي لمصلحة الأنتيكخانة والحفر المصرية لتغطية نفقات الحفر اللازمة لفتح أحد الأهرامات، وذلك بناء على طلب من ماسبيرو مدير المصلحة الذى أوضح للمجلس أن هذا الاكتشاف ذو أهمية علمية كبيرة، وأن عماله قد تمكنوا من تطهير مداخل الهرم ودهاليزه بحيث أمكن الوقوف على اسم الملك المدفون فيه من النقوش المسجلة على جدرانه، وأنه قد اضطر لمضاعفة الأموال المخصصة للحفر في هذه المنطقة حتى أنفق في شهر يناير وحده خمسة آلاف قرش، كما أنفق في فبراير ومارس وأبريل ستة آلاف قرش، فإذا أضيفت هذه المبالغ إلى ما أنفق من الأموال المخصصة للحفر في جهات أبيدوس والجيزة وما صرف أيضاً في الكرنك ومدينة هابو فيبلغ مجموع ما صرف حتى الآن حوالى تسعة وأربعين ألف قرش، وهذا المبلغ يزيد على نصف المخصص لبند الحفر في ميزانية مصلحة الآثار عن السنة بأكملها، مع أنه لم يمض منها سوى أربعة أشهر فقط، مما اضطر ماسبيرو إلى وقف العمل في أبيدوس والجيزة، وأن يرفع المبلغ المخصص لفتح الهرم المذكور بسقارة إلى أربعة آلاف قرش عن شهر مايو، وبذلك لم يتبق له من المخصص للحفر في الميزانية كلها سوى سبعة وعشرين ألف قرش. وهذا يعنى أن ماسبيرو لو اقتصر على المخصص المدرج بميزانية المصلحة للحفر فسوف يضطر إلى وقف العمل في سقارة أيضاً خلال أشهر يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر مع أن هذا العمل قد وصل إلى الدرجة التى يعطى بها أفضل نتيجة متوقعة، فلاجتنب ذلك ولاستمرار الأعمال التى صار وقفها طلب ماسبيرو من مجلس النظار أن يصرح له باعتماد إضافي زيادة على المخصص لبند الحفر في الميزانية يبلغ ستين ألف قرش ويكون توزيعه كالاتى:

- ٢٤٠٠٠ لزوم الحفر في سقارة مدة شهور يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر (٤ شهور × ٦٠٠٠ قرش).
- ٢٣٠٠٠ لزوم تنظيف معابد الكرنك ومدينة هابو مدة أكتوبر ونوفمبر وديسمبر (٣ شهور × ١١٠٠٠ قرش).
- ٣٠٠٠ لزوم تكملة مصروفات شهر مايو بسقارة التى صار خفضها من ستة آلاف إلى أربعة آلاف قرش.

هذا وقد وافق مجلس النظار على ما جاء بمذكرة ماسبيرو على أن يؤخذ هذا الاعتماد الإضافي من مجموع الزيادة في الميزانية العامة عن سنة ١٨٨١ م^(٧٤).

وفي ٨ يناير ١٨٩١ م (٢٧ جمادى الأول ١٣٠٨ هـ) طلب مدير عام مصلحة الآثار المصرية المسيو جريبو من ناظر الأشغال العمومية إقناع مجلس النظار بالموافقة على الاعتمادات الإضافية التى

يتقدم بطلبها زيادة على الميزانية الخاصة بالمصلحة حتى تستطيع أن تقوم بالتزاماتها من صيانة الآثار والمحافظة عليها، وحتى تستطيع أن تظهر أمام السائحين وكبار الزائرين الأجانب بالمظهر الملائم^(٧٥). وفي ٢٦ يوليو من نفس العام طلب جريبو أول اعتماد مالي إضافي بمبلغ يصل إلى ألف جنيه منه ستمائة جنيه لإتمام إعداد متحف الجيزة الجديد الذي لم يتم الانتهاء إلا من جزء منه فقط، وأوضح جريبو أن عدداً كبيراً من قاعات العرض الموجودة بالمتحف لم يتيسر فتحها لدخول الزوار في العام الماضي - ١٨٩٠م - ومن الضروري الفراغ من إعداد هذه القاعات في أقرب وقت ممكن حتى يمكن الانتهاء من إعداد فهارس القطع الأثرية الموجودة بالمتحف. أما الأربعمائة جنيه الأخرى فسوف تستخدم إعداد أوراق البردي الهامة التي عثر عليها مؤخراً في مقابر كهنة آمون للعرض على الجمهور، وقال جريبو إن أعضاء لجنة الآثار التاريخية قد أجمعوا على تأييد مطلبه هذا، وأنه لذلك يلتمس من مجلس النظار سرعة اعتماد الأموال اللازمة بأقرب وقت ممكن حتى يمكن الشروع في إجراء الأعمال المشار إليها قبل بدء الموسم السياحي ووفود السائحين^(٧٦).

وفي ١٦ نوفمبر ١٨٩٣م (٧ جماد الأول ١٣١١هـ) وافق مجلس النظار على منح مصلحة الأنتيكخانة والحفر اعتماداً إضافياً قيمته مائتا جنيه لاستكمال كشف المسطبتين المكتشفتين حديثاً في منطقة سقارة، وكان دى مورجان مدير مصلحة الآثار المصرية في ذلك الوقت قد وجد أن المبالغ المخصصة للحفر في ميزانية المصلحة لم تساعد إلا على كشف واحدة منهما فقط تشتمل على إحدى وثلاثين غرفة مزدانة كلها بالنقوش والرسوم والكتابات الهيروغليفية مما يضع هذه المسطبة في مصاف المباني التاريخية المكتشفة والأعظم شأناً من هذا النوع، كما أن بعض الغرف التي كُثِفَ عنها من المسطبة الثانية تدل على أنها هي الأخرى ذات شأن كبير كالأولى، ولذلك طلب دى مورجان من مجلس النظار التصريح له باعتماد هذا المبلغ الإضافي ليتمكن بذلك من إتمام هذا الكشف الأثري المفيد^(٧٧).

وفي عام ١٨٩٤م كانت الاعتمادات الإضافية الممنوحة لمصلحة الأنتيكخانة والحفر المصرية كالآتي:

١. أربعمائة واثنتان وعشرون جنهما باقية من مبلغ ألف جنيه كان قد صرح به للمصلحة المذكورة عام ١٨٩٢م لحفظ معبد "أبو سمبل".
٢. ألف جنيه لوقاية الأنتيكخانة من الحريق، صرف منه ستمائة وتسعة وثلاثون جنهما في عام ١٨٩٤م، وتبقى منه ثلاثمائة وواحد وستون جنهما. هذا وقد أجازت المالية لمصلحة الأنتيكخانة والحفر أن تقوم بنقل ما لم يتم صرفه من هذه المبالغ إلى ميزانية سنة ١٨٩٥م التالية^(٧٨).

ولم نجد أن مجلس النظار قد رفض يوماً ما اعتماد ما كانت تطلبه مصلحة الأنتيكخانة والحفر من مخصصات إضافية، وذلك باستثناء مرة واحدة قام فيها المجلس بتخفيض الاعتماد الإضافي الذي طالب به المسئولون عن المصلحة بدرجة كبيرة، وقد حدث ذلك عام ١٨٩٣م عندما طلب دى مورجان مدير المصلحة إعطائه اعتماداً إضافياً قدره ألف ومائتا جنيه لصرفه في المصروفات اللازمة لإدارة المتحف بما أن المبلغ الوارد في الميزانية الاعتيادية للمصلحة لا يكفي لتغطية هذه المصروفات وحينما أحال مجلس النظار مذكرة دى مورجان إلى اللجنة المالية لدراستها وإبداء رأيها ردت اللجنة بأن الواجب على رئيس كل مصلحة ألا يتجاوز المبالغ المقررة له في الميزانية، وأن يجعل مصروفاته على قدر المربوط له، ورأت اللجنة من ناحية أخرى أن الاعتمادات الإضافية التي أعطيت في هذا العام - ١٨٩٣م - قد بلغت مبلغاً جسيماً، ومن ثم فليس بمقدور اللجنة أن تطلب من مجلس النظار الإقرار على الاعتماد المطلوب، ومع كل فإنها تترك للمجلس أمر النظر في هذه المسألة، وإصدار ما يراه مناسباً بشأنها من قرارات. أما المجلس فقد رأى من جانبه الاكتفاء بفتح اعتماد بمبلغ مائتي جنيه فقط على أن تتحمل ميزانية مصلحة الآثار الباقي من المبلغ المطلوب^(٧٩).

ومن السبل الغربية التي سلكتها مصلحة الآثار المصرية من أجل الحصول على المال اللازم لتغطية نفقات حفائرها الأثرية وكافة مصروفاتها الأخرى : هذه الصفة الغربية التي عقدتها مع أحد الممولين الأجانب في ديسمبر من عام ١٨٨٨م وتقضى بنود هذه الصفقة الفريدة أن يقدم هذا الأجنبي إلى مصلحة الآثار قرضاً قيمته تسعة آلاف جنيه هي تكلفة نقل متحف بولاق إلى سراي الجيزة على أن يدفع هذا القرض على ثلاث سنوات في كل سنة ثلث المبلغ، وفي المقابل تقوم مصلحة الآثار بإجراء حفائر أثرية في منطقة " أبو صير " وتسلم ما تعثر عليه من العظام أثناء الحفر إلى هذا الرجل ليتصرف فيه ويستغله كيف يشاء سواء في الصناعة أو التجارة، على أن يدفع هذا الأجنبي إلى المصلحة ما يقتضيه هذا الحفر من نفقات، ولأجل استرداد نفقاته يخصم من ثمن تلك العظام قيمة ما يكون قد أنفقه على الحفائر، وقيمة التسعة آلاف جنيه التي سيقرضها للمصلحة المذكورة، والباقي بعد ذلك يقسم مناصفة بينه وبين المصلحة، على أن يكون مفهوماً أن المصلحة لن تضمن لهذا الأجنبي وجود تلك العظام ولا كميات محددة منها بدون أدنى مسئولية على المصلحة في ذلك.

عرضت بنود هذه الصفقة على اللجنة المالية فأقرتها على الفور بعد أن رأت أن شروط الصفقة تعتبر جيدة ومفيدة بالنظر لما يترتب عليها من تمكين المصلحة من إجراء حفائر أثرية على نطاق واسع في منطقة " أبو صير " التي يعتقد أنها تحوى كثيراً من الآثار الهامة ذات القيمة التاريخية، فضلاً عن توفير تكاليف نقل المتحف المصري إلى الجيزة، واشترطت اللجنة المالية فقط

أن يضاف إلى بنود العقد الذى سيبرم بين الطرفين بند يخول لكل منهما الحق فى فسخ هذا التعاقد فى نهاية المدة المقررة لذلك أو تجديده بشروط يتفق عليها الطرفان^(٨٠).

كذلك اضطرت مصلحة الآثار المصرية إلى الاستعانة بالعمالة المؤقتة بدلاً من العمالة الدائمة (التلمية) كشكل من أشكال التقشف وضغط النفقات بحيث يمكن للمصلحة أن تستغنى عن هذه العمالة المؤقتة متى انتهت من أداء المهام التى أوجبت تعيين هؤلاء الموظفين، أو متى دعت الضرورة إلى الاستغناء عنهم، ويكون ذلك فى الوظائف التى تتطلب معارف مخصوصة لا تتوفر لكثير من الناس، وفى نفس الوقت تكون مهمتهم ذات طبيعة مؤقتة مثل مهمة وضع دليل على [كتالوج] للآثار الموجودة بالمتحف مرتبة ترتيباً علمياً على أساس سليم. فقد حدث أن طلبت مصلحة الآثار من مجلس النظار فى يوليو من عام ١٨٩٧م أن يوافق على اعتماد تعيين أربعة أشخاص - هم الفرنسى شامينا والإنجليزى كروم والألماني فون بيسنج والدنماركى لانجر - تعييناً مؤقتاً لمدة ثلاث سنوات لوضع دليل للمتحف المصرى على أن يتقاضى كل منهم راتباً سنوياً قدره أربعمئة جنية، ويخول الحق فى إجازة مدتها شهران فى السنة، وعلى أن يكون للحكومة المصرية الحق فى الاستغناء عن خدماتهم أثناء فترة التعيين بعد إعلانهم قبل ذلك بثلاثة شهور، ويكون لهم أيضاً حق طلب الإعفاء من الخدمة قبل نهاية مدة عقدهم بالطريقة ذاتها، وأوضحت المصلحة للمجلس أن هؤلاء الأربعة يمثلون حالة خصوصية استثنائية بالنظر لكونهم يشتغلون بفن مخصص، ويتعذر وجود مثلهم أو الاستعاضة عنهم بغيرهم، ولا يوجد فى القطر المصرى رجال حائزون للمعارف التى يتطلبها عمل على كهذا، بل يندر وجودهم فى متاحف الأوروبية ذاتها ومما يزيد من صعوبة الأمر أن المخصص لهذا العمل قليل، فلا يقبل الالتحاق بالوظائف المطلوبة إلا الشبان الذين هم فى مستهل حياتهم العلمية وعلى قدم تقرير شهرتهم، ولذلك لابد من إعطاء هؤلاء الأربعة امتيازات وحوافز مرغية لهم يقصد استمالتهم إلى مبارحة بلادهم والبقاء فى القطر المصرى، وهو الأمر الذى تفهمه مجلس النظار جيداً، فوافق فى ١٢ أغسطس ١٨٩٧م على تعيين هؤلاء الأجانب الأربعة تعييناً مؤقتاً لمدة ثلاث سنوات^(٨١).

كما لجأت مصلحة الآثار المصرية إلى إجراء تعديلات فى هيكلها الوظيفى بين الحين والآخر بغية تحقيق الموازنة بين تحسين أداء جهازها الإدارى وتطوير خدماتها من ناحية وبين الالتزام بالمخصصات التى تمنحها لها الدولة فى إطار الموازنة العامة من ناحية أخرى، فكثيراً ما كان القائمون على إدارة المصلحة يُقدمون على استحداث وظائف جديدة وإلغاء أخرى قديمة ثم تعديل هذه الجديدة المستحدثة وهكذا، وذلك وفقاً لما يقتضيه سير العمل بالمصلحة ومراعاة للصالح العام، وقد أوردنا أمثلة عديدة لذلك حين تحدثنا عما طرأ من تغييرات على هيكل مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى من لدن تأسيسهما حتى السنوات الأولى من القرن

العشرين. ولعل من الأمثلة على ذلك ما فعله دى مورجان عام ١٨٩٧ م حين قام بإجراء تعديل في ترتيب خدمة الأنتيقيخانة يقضى بإلغاء أربعة وظائف هي : كاتب ومترجم، ومخزنجى، ومستخدمين اثنين، واستحداث وظيفتين جديتين بدلاً منهما وهما : وظيفتا كاتب درجة رابعة، وذلك مراعاة لما تقتضيه مصلحة العمل، ولما كانت جملة رواتب الوظائف المستجدة تزيد عن جملة رواتب الوظائف الملغاة بمقدار ستة جنيهات سنوياً فقد وافق دى مورجان على أن تحتسب هذه الزيادة من وفورات الأنتيقيخانة^(٨٢).

ولم تتقاعس الحكومة المصرية من ناحيتها عن أداء واجبها في تحمل تكاليف الإصلاحات المعمارية التي كان يقتضى إجراؤها في المتحف المصرى بين الحين والآخر، والقيام بتوفير هذه النفقات من طرق أخرى غير طريق تحميلها لمخصصات مصلحة الآثار المحدودة أصلاً، بل ربما قام بعض حكام مصر في القرن التاسع عشر بدفع بعض هذه النفقات من ماله الخاص، فقد أصدر الخديوى اسماعيل أمراً عالياً في ٢٩ جماد الأول ١٢٨٠ هـ (١١ نوفمبر ١٨٦٣ م) يقضى بصرف ستة آلاف فرنك قيمة الإصلاحات التي أجريت في متحف بولاق والتي تمثلت في بناء أربع قاعات عرض جديدة، ويؤكد اسماعيل أن المبلغ السابق " وإن كان قد صرف من المالية لكن اقتضت إرادتنا أن هذا المبلغ يصرف من الدائرة الخاصة "^(٨٣). كذلك كان اسماعيل حريصاً على تذليل كافة العقبات الإدارية التي كانت تقف حجر عثرة في طريق إصلاح حال المتحف المصرى وإبرازه بالصورة اللائقة به أمام زواره من السائحين الأجانب، ولعل ما حدث في عام ١٨٧٥ م (١٢٩٢ هـ) يؤكد ذلك؛ فقد أراد المسئولون عن المتحف المصرى في هذا العام إجراء مناقصتين لتقوية جسر النيل المواجه للمتحف وتعليته إلى حد آمن خوفاً من ارتفاع منسوب المياه في النهر أثناء الفيضانات العالية، ولكن تبين أن الأموال اللازمة لتنفيذ هاتين المناقصتين لم يتم إدراجها ضمن المقرر لمصروفات الأنتيقيخانة في ميزانية هذا العام وكان البند الثانى من الحدود نامه يقضى " بعدم إعمال العمارات المماثلة لهذه، وإبقاءها للسنة التالية بعد إعمال مقاييساتها ومراجعتها ودرجتها بالميزانية على وجه ما نص عنه به " وكان هذا إيذاناً بوجوب تأجيل تنفيذ هاتين المناقصتين إلى العام التالى طبقاً لمنطوق بنود الحدود نامه، غير أن الضرورة كانت تحتم - من ناحية أخرى - لزوم إجراء هاتين المناقصتين قبل وقوع فيضان النيل وزيادة منسوب مياهه زيادة قد لا تؤمن معها غوائله، ويخشى منها على الآثار المحفوظة بالمتحف من أن تصبح عرضة للغرق والتلف، وذلك بالنظر إلى أن فيضان النيل سوف يكون قبل مجئ العام القادم، ومن هنا فقد تراءى للخديوى اسماعيل " موافقة إجرى هاتين المناقصتين من الآن واحتساب قيمة تكاليفهما من المبلغ الاحتياطي المندرج بميزانية السنة الحالية "^(٨٤).

وعندما قررت الحكومة المصرية بناء المتحف المصرى الحالى خصصت لذلك اعتماداً قدره مائة وخمسون ألف جنيه على أن يؤخذ هذا الاعتماد من حساب الاحتياطى العمومى، وقد صرف من هذا المبلغ أربعة آلاف وتسعمائة وسبعة وسبعون جنيهاً خلال عام ١٨٩٥م، وسبعة آلاف وستمائة وأربعة وتسعون جنيهاً فى عام ١٨٩٦م، وثمانية وعشرون ألفاً وثمانمائة وجنيه واحد خلال عام ١٨٩٧م وثمانية وثلاثون ألفاً وستمائة وأربعة عشر جنيهاً فى عام ١٨٩٨م وواحد وخمسون ألفاً وستمائة وأربعة جنيهات فى عام ١٨٩٩م وذلك بإجمالى يصل إلى مائة وواحد وثلاثين ألفاً وستمائة وتسعين جنيهاً خلال السنوات المذكورة، وفى الوقت نفسه قامت الحكومة برصد اعتماد آخر يصل إلى ستة آلاف جنيه لوضع دليل على الآثار الموجودة بالمتحف، وقد أنفق من هذا الاعتماد خلال الفترة السابقة ذاتها حوالى ثلاثة آلاف وستة وتسعون جنيهاً^(٨٥).

كذلك أفادت مصلحة الآثار المصرية كثيراً من الاحتفالات العامة التى كانت تقيمها الدولة بمناسبة الانتهاء من تنفيذ بعض المشروعات القومية حيث كان ينفق جانب كبير من مخصصات هذه الاحتفالات للعناية بالآثار المصرية القديمة وترميمها وصيانتها باعتبارها من أبرز المعالم التى يحرص المدعوون لحضور هذه الاحتفالات من الأجانب على زيارتها، ويتجلى ذلك بوضوح فى احتفالات الدولة بافتتاح قناة السويس للملاحة الدولية عام ١٨٩٦م (١٢٨٦هـ)، إذ أنه على الرغم من أن حفر قناة السويس كان يحرم مصلحة الآثار المصرية من إمدادات العمال اللزمين للقيام بالحفائر الأثرية إلا أن هذا المشروع قد تحول إلى مناسبة مفيدة للآثار المصرية القديمة، فقد كان مفروضاً أن يكون افتتاح القناة مهرجاناً دولياً يدعى إليه الملوك والعظماء والعلماء من كافة أنحاء العالم، وكان الباب العالى قد رفع الخديوى إسماعيل لتوّه إلى مرتبة الخديوى، وكان هذا عازماً على أن يستغل أمجاد مصر القديمة لاجتذاب نهلاء أوروبا إلى القاهرة، فتم الاهتمام بالآثار المصرية، ووجهت العناية إلى ترميم ما يحتاج منها إلى ترميم، وقدمت الأموال اللازمة لأعمال الحفر وإخراج المطبوعات، وأعطى ماريت المسئولية كاملة عن تنظيم جولات للضيوف بين المعابد فى مصر العليا، كما تم القيام بطبع دليل لإرشادهم^(٨٦). ولما علم الخديوى إسماعيل أن الإمبراطورة الفرنسية أوجيى Eugenie ربما تود أثناء إقامتها فى مصر أن تزور الأهرام أمر أن ينشأ على وجه السرعة طريق يصلح لسير العربات من القاهرة إلى قاعدة الهرم الأكبر، فجدد فى إنشائه نحو عشرة آلاف عامل حتى تم فى أقل من ستة أسابيع^(٨٧). كما صدرت الأوامر إلى مدير إسنا بضرورة إجراء الترميمات اللازمة للأماكن الأثرية التى تعد مزارات سياحية، لأن الإمبراطورة الفرنسية سوف تمر بهذه المنطقة^(٨٨).

كانت هذه هى أبرز مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى فى القرن التاسع عشر - المنتظمة منها وغير المنتظمة -، ومما يلاحظ أنه رغم تنوع الموارد المالية لهذه المصلحة إلا إنها

كانت عاجزة عن الوفاء بمتطلباتها الأساسية كمؤسسة ثقافية أوكلت إليها مهمة العناية بآثار وحضارة عريقة دامت قروناً طويلة من الزمان، مخلفة وراءها عمائر ومنشآت ومصنوعات من كل نوع ما بين ظاهر للعيان بارزة فوق سطح الأرض، أو مركوزة تحت التراب مخفية عن الأنظار في باطن الأرض، ولعل ضعف الموارد هذا هو الذي كان يدفع بالمسئولين عن هذه المؤسسة إلى التفنن في ابتكار الوسائل والسهل التي تعين على زيادة الدخل المالي لهذه المصلحة بما يسمح من تمكينها من تنظيم شئونها وأداء واجباتها على نحو ملائم. ومن الطبيعي أن تتأثر مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري خلال القرن التاسع عشر بالآزمات المالية التي مرت بها الحكومة المصرية خلال هذا القرن، شأنها في ذلك شأن كل مؤسسات الدولة الأخرى. كما يلاحظ كذلك أن هذه المخصصات لم تكن تسير على نمط واحد أو وتيرة واحدة من حيث الزيادة المنتظمة كلما اتسعت دائرة أعمال المصلحة المذكورة مع التوسع في إجراء الحفائر وزيادة كمية الآثار المكتشفة، بل إن هذه المخصصات كانت تتأثر بتزعات الحكام وأهوائهم، فتارة تنقص وتارة تزيد، وطوراً تنخفض وطوراً ترتفع، على غير أساس ثابت أو نظام محدد.

الهوامش

- (١) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، محافظ معينة سنوية (تركي) محفوظة رقم (٣) ورقة رقم (٤٣٧) وثيقة رقم (١٨٣) بتاريخ ١٤ ذو القعدة ١٢٧٠هـ (٨ أغسطس ١٨٥٤م).
- (٢) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، محافظ معينة سنوية (تركي) محفوظة رقم (٣) ورقة رقم (٢٢) وثيقة رقم (٢٢٣) بتاريخ ٢٦ ذو القعدة ١٢٧٠هـ (٢٠ أغسطس ١٨٥٤م).
- (٣) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، محافظ معينة سنوية (تركي) محفوظة رقم (٤) ورقة رقم (٧) وثيقة رقم (٢١٢) بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٧١هـ (١٧ أكتوبر ١٨٥٤م).
- (٤) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١٨٨٠) أوامر، ص (١٧٥) وثيقة رقم (٧١) بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٢٧١هـ (٢ فبراير ١٨٥٥م).
- (٥) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، سجل رقم (١٦٤٦) صادر معينة سنوية (عربي) ص (٧٥) وثيقة رقم (٣٠) بتاريخ ١٨ ذو الحجة ١٢٧٦هـ (٧ يوليو ١٩٦٠م).
- (٦) عبد المنعم أبو بكر: "قصة المتحف المصري"، ص ٣٠.
- (٧) الجامكية: كلمة ذات أصل فارسي معناها: "بدل الملابس" والجامكية في الاصطلاح: الجرازة الشهيرة تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحة. انظر: أحمد المسعود سليمان: "تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل"، ص ٥٩.
- (٨) ماريت بك: "تاريخ قدماء المصريين"، ص ٥ (مقدمة المترجم).
- (٩) مجلات ديوان المالية، صادر عربي، صادر الدواوين، سجل رقم (١٦٨) نقل (١٢٥) حديث (٩٥٣) قديم، ص (٦٥) وثيقة رقم (٧٧) بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٧٦هـ (١٠ أغسطس ١٨٦٣م).
- (١٠) وزارة المعارف العمومية: "اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته"، ص ٣٩٢.
- (١١) مجلات معينة سنوية (عربي) صادر الأوامر العليا، سجل رقم (١٨٩٨ ج) قديم، ص (٣٢) وثيقة رقم (٥) بتاريخ ٥ ربيع الآخر ١٢٧٨هـ (١٠ أكتوبر ١٨٦١م). ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معينة سنوية (عربي).
- (١٢) مجلات معينة سنوية (عربي) صادر الأوامر العليا، سجل رقم (١٨٩٨ ج) قديم، ص (١٧٤) وثيقة رقم (٢٣) بتاريخ ١٥ جمادى الآخر ١٢٧٨هـ (١٨ ديسمبر ١٨٦١م). ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معينة سنوية (عربي).
- (١٣) مجلات معينة سنوية (عربي) صادر الأوامر العليا، سجل رقم (١٨٩٩ ج) قديم، ص (٥٣) وثيقة رقم (٤٤) بتاريخ ١٨ شعبان ١٢٧٨هـ (١٨ فبراير ١٨٦٢م). ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معينة سنوية (عربي).
- (١٤) مجلات معينة سنوية (عربي) صادر الأوامر العليا، سجل رقم (١٩٠٢ ج) قديم، ص (٤١) وثيقة رقم (٣٨) بتاريخ ٣ ذو القعدة ١٢٧٩هـ (٢٢ أبريل ١٨٦٣م). ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معينة سنوية (عربي). وانظر كذلك: مجلات ديوان المالية، قيد الأوامر العريضة الصادرة للمالية، سجل رقم (٣) حديث (٣٢٢٣) نقل (١١٩٦) قديم، ص (٣٦) وثيقة رقم (٢٨) بنفس التاريخ.
- (١٥) يستفاد من مواضع كثيرة في وثائق تلك الفترة أن كل عشرين فركاً كانت تساوي في ذلك الوقت سبعة وسبعين قرشاً دمت بارات أي ستة أجزاء من أربعين جزءاً من القرش الواحد "عشرين فركاً = ٧٧ ٦" بمتوسط يقترب كثيراً من أربعة قروش للفرك الواحد.
- (١٦) تقول عنه تفصيلات الميزانية إنه مستجد ويبدو أنه قد تم تثبيته في تلك الوظيفة بعد القيام بمهمته المؤقتة في البحث عن الكتب والأتان القديمة في الأمانة القبطية والتي أشرنا إليها منذ قليل.
- (١٧) مجلات ديوان المالية، صادر عربي، صادر الدواوين، سجل رقم (٢٢١) نقل (١٩٩) حديث (١٣٤٣) قديم ص (٨٦) وثيقة رقم (٢٦) بتاريخ ٩ جمادى الثاني ١٢٨٢هـ (٣٠ أكتوبر ١٨٦٥م).
- (١٨) مجلات معينة سنوية (عربي) صادر الأوامر العليا، سجل رقم (١٩١٥ ج) قديم، ص (٧٤) وثيقة رقم (٤٧) بتاريخ ١٤ جمادى الثاني ١٢٨٢هـ ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معينة سنوية (عربي).
- (١٩) فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية، درج رقم (١) آثار، دفتر رقم (١) مجلس خصوصي ص (٤٠) وثيقة رقم (٥١) بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٨٩م.
- (٢٠) مجلات ديوان المالية، مايسترو المالية، مايسترو شطب حساب الجهات بقلم مصارقات المالية، سجل رقم (٥١٤٢)، نقل (١٥٨) حديث (١٦٤)، ص ٢٠، ٢١ حساب ماهيات ومصروفات الأئمة خاتمة

- (٢١) سجلات محافظة مصر. صادر عربي، صادر المايورة ل ١١/١ سجل رقم (١٢) ص (٥٢) وثيقة رقم (١٦٧٨) بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٢٩٤هـ (٢٤ أبريل ١٨٧٧م).
- (٢٢) وجدير بالذكر أن هذه هي أول ميزانية وضعت في عهد الخديوي محمد توفيق، وصدر الأمر بتقريرها في ٢٠ يناير ١٨٨٠م. انظر: عبدالرحمن الراهي: "الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي" طبعة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص ٥٢، ص ٥٧.
- (٢٣) نظارة المالية: "ميزانية الحكومة عن سنة ١٨٨٣م" المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٢٠٠هـ/١٨٨٣م، ص ٣٧، ٤٦ الفصل السابع عشر (الأنثيقخانة وحفظ الأنثيكات).
- (٢٤) المرجع السابق، نفس أرقام الصفحات.
- (٢٥) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١٣/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية (ومعها رأى اللجنة المالية) إلى مجلس النظار بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٨٨٥م بشأن ترتيب درجات أنثيخانة بولاق.
- (٢٦) نظارة المالية: "ميزانية عن إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية عن سنة ١٨٨٧م" المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، ص ٥١ فصل ٦ مصالح متنوعة قسم ١ الأنثيقخانة وحفظ الآثار.
- (٢٧) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤/٣) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٨٥م (٢٢ شعبان ١٣٠٣هـ) بشأن ترتيب درجات موظفي ومستخدمى الأنثيقخانة المصرية.
- (٢٨) نظارة المالية: "ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة عن سنة ١٨٨٨م" المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م، ص ١٦٣ نظارة الأشغال العمومية، فصل ١٥ الأنثيقخانة وحفظ الآثار.
- (٢٩) نظارة المالية: "ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة عن سنة ١٨٩١م" المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٠٨هـ/١٨٩١م، ص ٢٤١ ملحق لميزانية سنة ١٨٩١م مضاميه [مقارنة] بين مربوط موازن سنوات ١٨٨٧م، ١٨٨٨م، ١٨٨٩م، ١٨٩٠م، ١٨٩١م.
- (٣٠) المصدر السابق، ص ١٥٢ فرع ٨ نظارة الأشغال العمومية، فصل ١٣ الأنثيقخانة وحفظ الآثار المصرية.
- (٣١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ميزانية مصلحة الأنثيقخانة بحسب طلب المسو جريبو.
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (32)
pour L'Exercice, 1893, Le caire, 1894,p.64, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (33)
pour L'Exercice, 1894, Le caire, 1895,p.69, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- (٣٤) لعله أحد أفراد بحارة القارب.
- (٣٥) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، ميزانية، محفظة رقم (٥/٥) ميزانية، مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار نمرة ٣٧ بتاريخ ٥ أبريل ١٨٩٤م (٢٩ رمضان ١٣١١هـ) بشأن تحويل ميزانية إدارة عموم الأنثيقخانة.
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (36)
pour L'Exercice, 1894, Le caire, 1895,p.70, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- (٣٧) نظارة المالية: "حساب ختامى عن مصالح المالية سنة ١٨٩٦م" المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م، ص ٦٩ فصل ١٥ الأنثيقخانة وحفظ الآثار.

- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (38) pour L'Exercice, 1896, Le caire, 1897, p.71, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (39) pour L'Exercice, 1898, Le caire, 1899, p.70, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités (٤٠) لم يحالفنا التوفيق في العثور على ميزانية سنة ١٨٩٩ م.
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (41) pour L'Exercice, 1900, Le caire, 1901, p.68, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (42) pour L'Exercice, 1901, Le caire, 1902, p.68, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – (43) pour L'Exercice, 1902, Le caire, 1903, p.68, chap. xiv-Musée et conservation des antiquités
- (٤٤) نظارة المالية: " ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٦ م " المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٥ م. ص ١٤٢ نظارة الأشغال العمومية، فصل (١٥) إدارة عموم الأتليكانة ومصحة العفر.
- (٤٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (٤٦) روبر سوليه: " مصر ولع فرنسي "، ص ٢٤١.
- (٤٧) نظارة المالية: " ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة عن سنة ١٨٨٧ م "، ص ١٥١ مصالح متنوعة.
- (٤٨) نظارة المالية: " ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة عن سنة ١٨٩١ م "، ص ١٥١ مصالح متنوعة.
- (٤٩) مجلس شوري القوانين: " مجموعة محاضر جلسات المجلس " الجزء الثالث " مجموعة محاضر جلسات سنة ١٨٩٣ م، من ١ فبراير إلى ٢٣ ديسمبر "، ص ٩٨ محضر جلسة الإثنين ٢ جماد الثاني ١٣١١ هـ/ ١١ ديسمبر ١٨٩٣ م. التقرير المقدم من اللجنة المشكلة للبحث في ميزانية سنة ١٨٩٤ م.
- (٥٠) المصدر السابق، نفس الجزء ورقم الصفحة.
- (٥١) المصدر السابق، ج٤ " مجموعة محاضر جلسات سنة ١٨٩٦ م، من ١ فبراير إلى ٢٩ ديسمبر "، ص ٢٣ محضر جلسة الأحد ١٥ رجب ١٣١٤ هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٨٩٦ م. رأى اللجنة المشكلة لوضع تقرير عن ميزانية سنة ١٨٩٧ م.
- (٥٢) مجلة " المقتطف " عدد سبتمبر ١٨٨٦ م، مجلد (١٠)، ص ٧٣٢.
- (٥٣) سليم حسن: " أبو الهول "، ص ٣٩.
- (٥٤) أحمد نجيب: " الأثر الجليل "، ص ٩٤.
- (٥٥) إدواردز: " أهرام مصر "، ص ١٠٧.
- (٥٦) بريان هاجان: " نهب آثار وادي النيل "، ص ١١١ وما بعدها.
- (٥٧) انظر في ذلك: لهنوار تشامبرز رابت: " سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر "، ص ٢١ وانظر كذلك، ص ٢٧٣.
- (٥٨) أحمد نجيب: " الأثر الجليل "، ص ٦٦.
- (٥٩) جيمس بيكي: " الآثار المصرية في وادي النيل " ج١: ص ٢٠٦ وانظر كذلك: منير بسطا: " أهم المعالم الأثرية في منطقة سقارة وميت رهينة "، ص ٢٤.
- (٦٠) سجلات معية سلية (عربي) صادر الإفادات الغير رسمية إلى الدواوين والأقاليم، سجل رقم (٢٩) قديم، ص (٤) وثيقة رقم (٤) بتاريخ ٣ صفر ١٢٩٥ هـ (٦ فبراير ١٨٧٨ م) ضمن ميكروفيلم رقم (٢٠) معية سلية (عربي).
- (٦١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار نمرة ٦٦٦ بتاريخ ١٤ مايو ١٨٨٨ م بشأن وضع رسم على المتفرجين على متحف بولاق والآثار التاريخية في الوجه القبلي.
- (٦٢) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١٢/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مشروع لاتعة تتعلق بتقرير الرسم الذي يقتضى دفعه للتفرج على الأبهة التاريخية.
- (٦٣) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٨٨٨ م (٢٣ ربيع الآخر ١٣٠٦ هـ) نمرة ٧٧٢ بشأن رسم الدخول إلى متحف بولاق.

- (٦٤) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٩ أبريل ١٨٩٢م نمرة ٢٤ بطلب التصديق على تنزيل رسم الدخول إلى الأنتيكخانة المصرية.
- (٦٥) عدد فبراير ١٨٩٣م، مجلد (١٧)، ص ٣٥٠.
- (٦٦) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٨٩٣م نمرة ٨٩ بطلب التصديق على تعديل رسم الدخول إلى أنتيكخانة الجيزة.
- (٦٧) ماسبيرو: " دليل دار التحف المصرية الفاخرة لمدينة القاهرة "، ص ٥ (المقدمة).
- (٦٨) "ثمانية عشر يوماً بصعيد مصر"، ص ٤٤، وجدير بالذكر أن أحمد نجيب كان قد قدر دخل مصلحة الآثار من رسم دخول متحف بولاق ورسم مشاهدة المعالم الأثرية القديمة بما يقرب من أربعة آلاف جنيه سنوياً. انظر: " الآثار الجليل "، ص ٦٩.
- (٦٩) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٢/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٨٩٦م (٢ ربيع الآخر ١٣١٤هـ) نمرة ٧٧ بغرض تحصيل رسوم على الطلبات التي يقدمها الأفراد لمصلحة الأنتيكخانة.
- (٧٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٢/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٥ أبريل ١٨٩٧م (٣ ذو القعدة ١٣١٤هـ) نمرة ٢٥ بشأن تحصيل رسم على كل طلب يقدم إلى مصلحة الأنتيكخانة بطلب التصريح بالحفر عن الخبايا.
- (٧١) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢١ مايو ١٨٨٨م نمرة ٦٧٢ بخصوص فتح اعتماد لمصلحة الآثار على سبيل السلفة يجعل رأس مال لمخزن الأنتيكفات.
- (٧٢) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ١٣ يناير ١٨٨٦م (٧ ربيع الآخر ١٣٠٣هـ) بشأن التصريح مدير الأنتيكخانة ببيع أثنيكات بمبلغ ١٠٠٠ جنيه إلى متحف نيويورك، وانظر كذلك: " مجموعة الأوامر المختصة باللغايا والأنتيكفات "، ص ١٥.
- (٧٣) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١٢/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى مجلس النظار بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٩٠م (٦ جماد الأول ١٣٠٨هـ) بشأن إعطاء مبلغ مائة جنيه لمخزن البيع بالأنتيكخانة قيمة بعض أثنيكات مباحة للمستعمرة الإنجليزية في جنوب أستراليا.
- (٧٤) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٩/٥) ميزانية، ترجمة مكتبة واردة لديوان الأشغال من ماسبيرو مدير الأنتيكخانة بتاريخ ٢١ أبريل ١٨٨١م (٢١ جمادى الأول ١٢٩٨هـ) بطلب الترخيص له بمبلغ ستين ألف قرش لمصاريف عملية الحفر.
- (٧٥) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، ميزانية، محفظة رقم (٥/٥) ترجمة مذكرة من مدير عام مصلحة الآثار المصرية إلى ناظر الأشغال العمومية بتاريخ ٨ يناير ١٨٩١م يطلب منه فيها أن يوافق مجلس النظار على الاعتمادات التي يتقدم بطلبها.
- (٧٦) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، ميزانية، محفظة رقم (٥/٥) ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٦ يوليو ١٨٩١م (١٩ ذو الحجة ١٣٠٨هـ) نمرة ٥٩ بطلب فتح اعتماد خصوصي للأنتيكخانة بمبلغ ألف جنيه.
- (٧٧) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، ميزانية، محفظة رقم (٥/٥)، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٩٣م (١٨ ربيع الآخر ١٣١١هـ) نمرة ٨٥ بفتح اعتماد خصوصي قدره مائتي جنيه لإتمام كشف المسطحين المكتشفين بناحية سفارة. نقول: ولبت مجلس النظار لم يوافق على صرف هذا الاعتماد الإضافي بالذات، وذلك أن الأموال التي أنفقت في الكشف عن هاتين المسطحيتين قد ذهبت كلها هباءً بعد أن قام الأثقياء بتخريب نقوشهما كما سبق القول. انظر بحثنا هذا ص ٢٧٣، ٢٧٤.
- (٧٩) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الأشغال العمومية، ميزانية، محفظة رقم (٥/٥) ميزانية) ترجمة مذكرة من اللجنة المالية إلى مجلس النظار نمرة ١٦ بتاريخ ٩ فبراير ١٨٩٥م (١٣ شعبان ١٣١٢هـ) ببيان الاعتمادات الإضافية التي تصرح بها في سنة ١٨٩٤م.

- (٧٩) محافظ مجلس الوزراء : نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٤/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من اللجنة المالية إلى مجلس النظار بتاريخ ١٦ أغسطس ١٨٩٣ م (٣ صفر ١٣١١ هـ) بشأن فتح اعتماد إضافي لإدارة مصلحة الأنتيخانة والحفر.
- (٨٠) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (١/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ م (٢٠ ربيع الآخر ١٣٠٦ هـ) بشأن استخراج العظام من جهة " أبو صير ".
- (٨١) محافظ مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٣/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٩ يوليو ١٨٩٧ م (٨ صفر ١٣١٥ هـ) بطلب التصريح بتعيين أربعة أشخاص بها لمدة ثلاث سنين لوضع فهرس للأنتيخانة.
- (٨٢) محافظ مجلس الوزراء : نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، محفظة رقم (٣/٤) مجموعة ٤٩ أشغال، ترجمة مذكرة من نظارة الأشغال العمومية إلى رئاسة مجلس النظار لمرّة ١٤ بتاريخ ٢٧ فبراير ١٨٩٧ م (٢٥ رمضان ١٣١٤ هـ) بطلب التصديق على التعديلات المرغوب إجراؤها في ترتيب خدمة الأنتيخانة وموافقة مجلس النظار على ذلك بتاريخ ٦ أبريل ١٨٩٧ م.
- (٨٣) سجلات معية سنية (عربي)، صادر الأوامر العلية إلى المجالس والداوين والأقاليم والمحافظات من ٢٤/١/١ سجل رقم (١٩٠٧) قديم، ص (٥٢) وثيقة رقم (٦) بتاريخ ٢٩ جماد الأول ١٢٨٠ هـ.
- (٨٤) سجلات ديوان المالية، صادر الداوين، سجل رقم (٣٣٣) نقل (٣١٧) حديث (١٢٧٠) قديم، ص (٨٢)، وثيقة رقم (٢٨٢) بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني ١٢٩٢ هـ (٢٦ مايو ١٨٧٥ م).
- (٨٥) نظارة المالية : " حساب ختامى عن مصالح المالية سنة ١٨٩٦ م " . ص ١١٣ أنواع المصروفات، وانظر كذلك : " حساب ختامى عن مصالح المالية سنة ١٨٩٩ م " المطبعة الأهلية، القاهرة ١٣١٧ هـ / ١٩٠٠ م . ص ١٣ ، ١٤ بهان الاعتمادات والسلف المحسوبة من الاحتياطى العمومى، اعتمادات معنوعة بصفة نهائية .
- (٨٦) بيتر فراتس : " اغتصاب مصر " . ص ١٤٦ باختصار.
- (٨٧) عمر الإسكندري وآخرون : " تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى قبل الوقت الحاضر " . ص ٢٤٦، وانظر كذلك : عبد الرحمن الرفاعي : " عصر إسماعيل " ج ٢ ، ص ٣٠.
- (٨٨) سجلات معية سنية (عربي) صادر الأوامر العلية إلى المجالس والداوين والأقاليم والمحافظات، سجل رقم (١٩٣٤) قديم، ص (٧) وثيقة (١٠) بتاريخ ١٢ رجب ١٢٨٦ هـ (١٨ أكتوبر ١٨٦٩ م).

الغائمة

يجدر بنا بعد أن انتهينا من هذه الدراسة أن نشير في إيجاز إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث، والتي تتمثل فيما يأتي :

• إن الإسلام لا يقف موقفاً عدائياً مما اصطلح على تسميته بـ "الفنون الجميلة" فهو لا يحرم من هذه الفنون إلا ما كان مسيئاً إلى المعتقد، أو يتناقى مع الآداب المرعية، أو يمجّه النوق الفطري السليم، كما أن الإسلام لم يحرم رقم الصور أو نحت التماثيل متى انتفت مظنة عبادتها وتعظيمها، ولم تكن سبيلاً إلى الشرك بالله تعالى، ولعل هذا هو السبب في بقاء الآثار القديمة في البلاد الإسلامية إلى اليوم.

• خَرَص الرحالة القدامى والعرب والأجانب الذين زاروا مصر عبر العصور التاريخية المختلفة على أن يختصوا الآثار المصرية القديمة بحديث خاص يسجلون فيه إعجابهم بهذه الآثار، ودهشهم من ضخامتها وإتقان صنعها وبعد عهدها، وإن كانوا قد ذهبوا مذاهب شتى في تفسير كثيها وتعليل سبب وجودها، بعد أن استغلق على أذهانهم فهم أسرار تلك الحضارة العريقة.

• عانت الآثار المصرية قبل القرن التاسع عشر من العديد من المشكلات مثل التخريب والاستغلال والسرقة، كما نُقِل بعضها خارج القطر المصري على يد المحتلين الذين خضعت لهم مصر لفترات متعددة من تاريخها القديم والحديث مثل الرومان وغيرهم، على حين كانت تجارة الموميאות تمثل مشكلة من أعقد المشاكل التي واجهت الآثار المصرية قبل القرن التاسع عشر، وأكثرها تأثيراً على تلك الآثار بسبب ما ألحقته بها من آتاز التدمير والتلف.

• لعبت الحملة الفرنسية دوراً كبيراً في الكشف عن حضارة مصر القديمة وآثارها، وكان عثور الحملة على حجر رشيد من أهم العوامل التي ساهمت في التعجيل بحل رموز اللغة الهيروغليفية، وإلى هذه الحملة يرجع الفضل في إيقاظ اهتمام الشعوب الأوروبية بمصر من جديد بعد أن عاشت مصر مزوية عن أنظار العالم لعدة قرون من الزمان.

• على أن كل ذلك لم يكن مانعاً من تورط الحملة الفرنسية في كثير من الممارسات الخاطئة التي كان من شأنها أن تسيئ إلى الآثار القديمة المصرية، فأُتلفوا بعض تلك الآثار بتدوين الأسماء ونقش النصوص عليها، كما قاموا بسرقة بعض هذه الآثار، ونقلوها إلى فرنسا، على حين خسروا بعضها الآخر لصالح الإنجليز بعد هزيمتهم على يد الجيش الإنجليزي وإجبارهم على الجلاء عن الإسكندرية، وهكذا خسر الفرنسيون الآثار التي بذلوا الجهد في جمعها طوال

مدة إقامتهم في القطر المصري، فلا هم استفادوا منها ولا هم تركوها في موطنها الأصلي، وربما كان حجر رشيد الشهير هو أعظم هذه الآثار المفقودة قيمة من الناحية التاريخية.

• ساهم الأجانب بدور كبير في نهب الآثار المصرية القديمة وتهريبها من مصر خلال القرن التاسع عشر، وساهمت الهيئة القنصلية - ولا سيما القنصلين : الفرنسي دروفيتي، والإنجليزي سولت - بالنصيب الأوفى من هذا الدور، فقد تخلى هذان القنصلان عن القيام بأداء مهام منصبهما الدبلوماسي، وتفرغاً تماماً للقيام برحلات في طول البلاد وعرضها بقصد البحث عن الآثار القديمة وجمعها والتجارة فيها، وقدمت لهما الإدارة المصرية كافة التسهيلات اللازمة لمساعدتهما على القيام بهذه الأعمال، ولم يقتصر الأمر على الدبلوماسيين فقط، بل إن كافة الأجانب الذين أقاموا بمصر خلال القرن التاسع عشر أو زاروها زيارة عابرة قد أسهموا بدورهم في نهب الآثار المصرية، وحتى رجال الدين من الأوروبيين لم ينأوا بأنفسهم عن المشاركة في هذه التجارة المشبوهة، كما شارك في ذلك رجال البعثات العلمية الموفدة من الدول الأوروبية لدراسة الآثار المصرية القديمة، وخاضت المتاحف الأوروبية بدورها غمار التجارة في الآثار القديمة، فأرسلت إلى مصر مندوبين عنها مزودين بمبالغ ضخمة وصلاحيات واسعة بغرض شراء ما تيسر من الآثار المصرية لوضعها في قاعات هذه المتاحف وعرضها على الجمهور، وكانت المنافسة بين هذه المتاحف عنيفة وقوية، وكان كل متحف يفاخر المتاحف الأخرى بما يملك من آثار مصرية قديمة.

• لقد أكدت الدراسة على تورط عدد كبير من مشاهير علماء المصريات الأجانب مثل "شامبليون و" ماريت "و" لبيسوس "و" بدج " وغيرهم في عمليات نهب واسعة النطاق للآثار المصرية القديمة، مع أن هؤلاء العلماء ينظر إليهم - عادة - من قبل الأوساط المثقفة المصرية نظرة إعجاب وإكبار، ونرى أنه قد حان الوقت لمراجعة النفس حيال تلك المكانة غير المستحقة التي منحناها لهؤلاء القوم، نتيجة غفلتنا وسوء تقديرنا للأمور، والواقع أننا قد أخذنا ما كان يكتبه عن هؤلاء العلماء مترجمو حياتهم وواضعو سيرتهم من بنى جلدتهم على أنه من المسلمات التي لا تقبل الجدل، ونقلناه عنهم دون تمحيص أو دراسة.

• لعب الاحتلال البريطاني دوراً كبيراً في تسهيل عمليات نهب الآثار المصرية القديمة خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر عندما كان يسيطر على مقدرات الأمور في هذا الوطن، وقد رأينا كيف تعاونت كافة مؤسسات هذا الاحتلال من مدنية وعسكرية مع " واليس بدج " مندوب المتحف البريطاني من أجل نقل كميات ضخمة من هذه الآثار إلى المتحف الإنجليزي الشهير.

• مما لا شك فيه أن التبريرات والحجج التي ساقها الأجانب لتبرير سطوهم على تراث مصر القديمة واهية وغير مقنعة، فقد كانوا يدعون أنهم إنما ينقلون هذه الآثار إلى الخارج بدافع

المحافظة عليها، وأن المتاحف الأوروبية هي الموطن الملائم لهذه الآثار حيث تحفظ هناك في أمن وأمان، مع أننا قد أوردنا العديد من الشواهد التي تؤكد تعرض الآثار المصرية المنقولة إلى أوروبا للتدمير والتلف، إما من جراء سوء نقلها وتخزينها، أو من جراء سوء عرضها في المتاحف الأوروبية، أو من جراء عوامل أخرى مثل الفتن والثورات والحروب وما إلى ذلك.

• لقد تعددت اللوائح والقرارات والقوانين والتشريعات المتعلقة بالآثار المصرية، والتي صدرت في القرن التاسع عشر بقصد تنظيم جميع المسائل ذات الصلة بالآثار القديمة من الحفر عليها والتنقيب عنها والمتاجرة بها وإتلافها وامتلاكها ونقلها إلى الخارج تنظيمًا دقيقاً وقد أسهمت هذه القوانين والتشريعات إلى حد كبير في الحد من ظاهرة إتلاف الآثار التاريخية وتدميرها، وكذلك ظاهرة تهريبها إلى الخارج، وهذا على الرغم مما شاب تطبيق هذه القوانين والتشريعات من خلل أو قصور، وكذلك على الرغم من ضعف عقوباتها بما يؤدي إلى الحد من قوة الردع فيها.

• وفي القرن التاسع عشر تضاعفت المشكلات البشرية والأخطار الطبيعية التي كانت تعاني منها الآثار القديمة المصرية قبل هذا القرن، وظهرت مشكلات أخرى جديدة حتمتها مشروعات التنمية التي جرى تنفيذها في القطر المصري خلال القرن التاسع عشر مثل مشروعات الري الدائم من شق الترع والقنوات وإقامة الجسور وغيرها، وقد أدت هذه الأعمال إلى ارتفاع مستوى الماء الجوفي بما يؤثر سلباً على جدران المباني الأثرية القديمة، كذلك أدى بناء سد أسوان في نهاية القرن وتعليته أكثر من مرة إلى غمر كثير من الآثار القديمة بالمياه لفترات طويلة من العام، هذا بالإضافة إلى المشكلات الأخرى ذات الجذور القديمة مثل إقدام الحكومات المصرية على استخدام أحجار المباني الأثرية في أعمال البناء، وكذلك استخدامها وسيلة من وسائل الدعاية السياسية، وقيام الأهالي باتخاذ المعابد والمقابر الفرعونية مسكنًا، هذا فضلاً عن السلوكيات الخاطئة لبعض المستثمرين من السانحين الذين كانوا يتلقون هذه الآثار بالكتابة عليها، ويشوهونها برسوم ساذجة.

• لقد تعددت المؤسسات الأثرية العاملة في مجال البحث والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة ودراستها في مصر القرن التاسع عشر، وكان بعض هذه المؤسسات مصرياً يعتمد في تمويله على الحكومة المصرية وإن كان يقوم على إدارته موظفون أجانب، كما كان بعضها الآخر أجنبياً خالصاً سواء من ناحية الإدارة أو التمويل، وكانت هذه المؤسسات الأجنبية وهي تعمل في مجال خدمة البحث الأثرى في مصر مدفوعة إلى ذلك بدوافع مختلفة بعضها سياسي وبعضها ديني وبعضها معرفي بحث.

• ولعل من أبرز هذه المؤسسات الأثرية التي عملت في مجال دراسة الآثار المصرية القديمة في مصر في القرن التاسع عشر "مدرسة اللسان المصري القديم ولسان الجبش" تلك المدرسة

الفريدة التي كان إنشاؤها في وقتها خطوة رائدة على طريق الاهتمام بالدراسات المصرية القديمة ومحاولة تدريسها لأبناء الشعب المصري لأول مرة في تاريخ مصر الحديث بعد أن كان الأوروبيون يعتبرون علم الآثار المصرية القديمة حكراً عليهم دون سواهم، فأغلقوا هذا المجال أمام المصريين الذين كانوا في غفلة من تراث أجدادهم. ومنعواهم من المساهمة فيه حتى لا يقف هؤلاء الآخرون حائلاً دون تنفيذ المخططات الأجنبية التي ترمى إلى الاستيلاء على تراث مصر القديم.

• ورغم الحياة القصيرة لهذه المدرسة فقد استطاعت أن تخرج عدداً من أوائل الأثريين المصريين الذين أسهموا في النهوض بعلم الآثار المصرية القديمة في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما أنجبت هذه المدرسة عدداً آخر من أعيان مترجى هذا العصر ممن لعبوا دوراً كبيراً في النهوض بحركة الترجمة في مصر خلال الفترة السابقة. كما أسهمت هذه المدرسة إلى حد كبير في تطور الوعي الأثري لدى عامة المصريين، وزيادة إقبالهم شيئاً فشيئاً على مطالعة تاريخ مصر القديم والاهتمام بآثارها القديمة.

• ومع تنوع الموارد المالية للمؤسسات الأثرية المصرية في القرن التاسع عشر - مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري - إلا أنها كانت عاجزة عن الوفاء بمتطلباتها الأساسية كمؤسسات ثقافية أولكت إليها مهمة العناية بآثار حضارة عريقة دامت قروناً طويلة من الزمان. تأثرت مخصصات مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري في القرن التاسع عشر بالقرارات المالية التي مرت بها الإدارة المصرية خلال هذا القرن، شأنها في ذلك شأن كل مؤسسات الدولة الأخرى.

• يلاحظ أخيراً - أن هذه المخصصات لم تكن تسير على نمط واحد أو تيرة واحدة من حيث الزيادة المنتظمة كلما اتسعت دائرة أعمال المصلحة المذكورة، بل إن هذه المخصصات كانت تتأثر بتزعزعات الحكام وأهوائهم قبل أي شيء آخر.

وبعد :

فإن آثارنا كنوز وطنية، المتاجرة فيها وتهريبها خيانة، والتفريط فيها ونقلها إلى خارج الوطن يقطع تواصل التاريخ ويشوهه، إنها شاهد لا يدحض، فلنحافظ على المكشوف منها والمستور إلى أن تتاح فرصة كشفه ودراسته بطرق وأساليب علمية، فننهي معرفتنا، ونصل ما انقطع من تاريخنا، ونغني علماً لا مالا.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

أ- فهارس البطاقات الموجودة بدار الوثائق القومية:
أدراج رقم: (١) آثار، (١٤٠) جمارك، (٥١٦) مدارس، (٥١٨) مدارس.

ب - السجلات:

١- سجلات ديوان الأشغال^(١)

سجلات ديوان الأشغال - استحقاقات م ١/١/٦

الفترة التاريخية ^(١)	رقم السجل	
	قديم	حديث
١٨٨٢/٥١٣٠٤ م	٢٣٢	٣٥

سجلات ديوان الأشغال - استحقاقات - جريدة م ١٢/١٢/٦
جريدة الأتيكخانه

١٨٨٢/٥١٢٩٩ م	١١٠	٣
١٨٨٣/٥١٣٠٠ م	١٤٣	٤
١٨٨٣/٥١٣٠٠ م	١٤٤	٥

سجلات ديوان الأشغال - صادر عربي
صادر الدواوين وجهات أخرى م ٣/١

ج ٤	من ١٨٧٠/٥/٣٠ م إلى ١٨٧٠/٧/٦ م	٩٣	٣٤
ج ٥	من ١٨٧٠/٧/٦ م إلى ١٨٧٠/٩/٥ م	٩٤	٣٥
ج ٢	من ١٨٧٠/١١/٣ م إلى ١٨٧١/١/٢٦ م	١٠٦	٣٨
ج ٥	من ١٨٧٣/٧/٧ م إلى ١٨٧٣/٩/١٠ م	١٤١	٤٨
ج ١	من ١٨٧٣/٩/١٢ م إلى ١٨٧٤/٢/٢٤ م	١٥٧	٤٩

صادر المحافظات والضبطيات والمجالس م ١٠/١

ج ١	من ١٨٧٤/٩/١٣ م إلى ١٨٧٥/٩/٥ م	١٨١	٣
-----	-------------------------------	-----	---

(١) التواريخ المثبتة هنا هي المدونة على غلاف السجلات، وقد أثبتناها كما هي.

صادر قلم الهندسة م ١/١

٢١	١٢٦	من ١٨٧٢/٥/٢ إلى ١٨٧٢/٨/٢٥ م	٢
----	-----	-----------------------------	---

٢- سجلات ديوان المالية - صادر عربي

سجلات قيد الأوامر العربي الصادرة للمالية

ملحوظات	الفترة التاريخية	رقم السجل		
		نقل	قديم	حديث
	من ١٤ ربيع ثان ١٢٧٩ هـ إلى ٢٣ ربيع أول ١٢٨٠ هـ	٣٢٢٣	١١٩٦	٣
	من ٢١ رجب ١٢٩٢ هـ إلى ٢٣ جمادى ثان ١٢٨٢ هـ	٣٢٢٧	١٢٠٠	٧

صادر دواوين وفروع ومسيرة

	من ١٧ ربيع ثان ١٢٩٠ هـ إلى ١٩ جماد أول ١٢٩٠ هـ	٥٥١	١٩٧٤	٢٣٢
	من ١٨ رجب ١٢٩٠ هـ إلى ٢٤ شعبان ١٢٩٠ هـ	٥٥٤	٢٠٥٦	٣٧٨

صادر الدواوين

	من ١٣ صفر ١٢٧٦ هـ إلى ٧ ربيع ثان ١٢٧٦ هـ	١٦٨	٩٥٣	١٣٥
	من ٢٠ جماد أول ١٢٨٢ هـ إلى ٢٣ جماد ثان ١٢٨٢ هـ	٢٢١	١٣٤٣	١٩٩
	من ٨ ربيع ثان ١٢٩٢ هـ إلى ١٠ جماد أول ١٢٩٢ هـ	٣٣٣	٢١٧٠	٣٩٧

مايسترو المالية

مايسترو شطب حساب الجهات التابعة بقلم مصارفات المالية

١٥٨	١٦٤	٥١٤٢	من ١٢٩١ هـ
-----	-----	------	------------

٣- سجلات ديوان المدارس - صادر عرني
صادر دواوين وقروع م ١/١

ملاى	هجري	قديم	حديث
من ١٨٦٩/١١/٤ إلى ١٨٧٠/٣/١ م	من ٢٩ رجب ١٢٨٦ هـ إلى ٣ ذو الحجة ١٢٨٦ هـ	٤٢٦	٢٠١
من ١٨٧٠/٢/١٧ إلى ١٨٧٠/٥/٢٠ م	من ١٦ ذو القعدة ١٢٨٦ هـ إلى ١٨ صفر ١٢٨٧ هـ	٤٢٧	٢٠٢
من ١٨٧٠/٤/٢٥ إلى ١٨٧٠/٦/٢١ م	من ٢٣ محرم ١٢٨٧ هـ إلى ٢١ ربيع أول ١٢٨٧ هـ	٤٢٨	٢٠٣
من ١٨٧٠/٦/٢٠ إلى ١٨٧٠/٨/٢٣ م	من ٢٠ ربيع أول ١٢٨٧ هـ إلى ٢٥ جماد أول ١٢٨٧ هـ	٤٢٩	٢٠٤
من ١٨٧٠/٩/١١ إلى ١٨٧٠/١٠/٣١ م	من ١٤ جماد ثان ١٢٨٧ هـ إلى ٥ شعبان ١٢٨٧ هـ	٤٣٥	٢٠٦
من ١٨٧٠/١٠/٢٧ إلى ١٨٧١/٢/١ م	من ٥ رجب ١٢٨٧ هـ إلى ١٥ ذو القعدة ١٢٨٧ هـ	٤٣٦	٢٠٧
من ١٨٧١/٢/١٧ إلى ١٨٧١/٤/٣٠ م	من ٢١ ذو القعدة ١٢٨٧ هـ إلى ٩ صفر ١٢٨٧ هـ	٤٣٧	٢٠٨
من ١٨٧١/٤/٣٠ إلى ١٨٧١/٨/١٢ م	من ٩ صفر ١٢٨٨ هـ إلى ٢٥ جماد أول ١٢٨٨ هـ	٤٣٨	٢٠٩
من ١٨٧١/٨/١٢ إلى ١٨٧١/٩/١٢ م	من ٢٦ جماد ثان ١٢٨٨ هـ إلى ٢٦ شعبان ١٢٨٨ هـ	٤٤٧	٢١١
من ١٨٧١/٩/١٢ إلى ١٨٧١/١١/١٠ م	من ٢٥ شعبان ١٢٨٨ هـ إلى ٢٠ ذو الحجة ١٢٨٨ هـ	٤٤٨	٢١٢
من ١٨٧١/١١/٩ إلى ١٨٧٢/٣/١ م	من ٧ رجب ١٢٨٩ هـ إلى ٧ شوال ١٢٨٩ هـ	٤٥٦	٢١٦
من ١٨٧٢/٣/١ إلى ١٨٧٢/١٠/١٠ م	من ٢٤ رمضان ١٢٨٩ هـ إلى ١٤ محرم ١٢٩٠ هـ	٤٥٧	٢١٧
من ١٨٧٢/١٠/١٠ إلى ١٨٧٢/١١/٢٥ م	من ١٩ ربيع ثان ١٢٩١ هـ إلى ١٩ جماد ثان ١٢٩١ هـ	٤٧٠	٢٢٧
من ١٨٧٢/١١/٢٥ إلى ١٨٧٢/١٢/٥ م	من ٩ جماد أول ١٢٩١ هـ إلى ١٦ جماد ثان ١٢٩١ هـ	٤٧١	٢٢٨
من ١٨٧٢/١٢/٥ إلى ١٨٧٢/٢/٢٤ م	من ٢٩ رجب ١٢٩١ هـ إلى ٢٠ ذو القعدة ١٢٩١ هـ	٤٧٩	٢٣٠
من ١٨٧٢/٢/٢٤ إلى ١٨٧٢/٤/١٨ م	من ١١ ذو القعدة ١٢٩١ هـ إلى ١٦ رجب ١٢٩٢ هـ	٤٨٠	٢٣١

٤- سجلات محافظة مصر - صادر عرني
صادر الدواوين

الفترة التاريخية	رقم السجل	
	قديم	حديث
من ١٧ جماد آخر ١٢٨١ هـ إلى ٢٨ رجب ١٢٨١ هـ	١٢٢٣	٨١
من ١٥ شعبان ١٢٩٥ هـ إلى ٩ شوال ١٢٩٥ هـ	١٨٠٥	١٨٨
من ٩ شوال ١٢٩٥ هـ إلى ٢ ذو الحجة ١٢٩٥ هـ	١٨٠٦	١٨٩

صادر السائرة

الفترة التاريخية	رقم السجل	
	قديم	حديث
من ٦ ربيع أول ١٢٩٤ هـ إلى ١٦ جماد ثان ١٢٩٤ هـ	١٧٦٠	١٢

سجلات محافظة مصر - وارد عربي

وارد الدواوين

٤٥	١٢٤٩	من ٨ ربيع ثان ١٢٨١ هـ إلى ٢١ رجب ١٢٨١ هـ
----	------	--

٥- سجلات معية سنية (عربي)

رقم السجل	نوع السجل	رقم الميكروفيلم
سجل رقم ١٨٩٤ ج١ قديم	صادر الأوامر العليا	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٨٩٨ ج١ قديم	صادر الأوامر العليا	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٨٩٩ ج١ قديم	صادر الأوامر العليا	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٩٠٢ قديم	صادر الأوامر العليا	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٩٠٧ قديم من ٢٤/١/١	صادر الأوامر العليا إلى المجالس والدواوين والأقاليم	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٩١٥ قديم	صادر الأوامر العليا	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٩٣٤ قديم	صادر الأوامر العليا إلى المجالس والدواوين والأقاليم والمحافظات	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ١٩٣٦ ج٢ قديم	الأوامر العليا الصادرة للدواوين والضبطيات والمجالس والمحافظات	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٧) معية سنية عربي
سجل رقم ١٩٣٨ قديم	الأوامر العليا الصادرة للدواوين والمجالس	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٦) معية سنية عربي
سجل رقم ٢٣٥ ج٢ قديم	دفتر قيد الصادر بالمعية والدواوين والأقاليم والمحافظات	ضمن ميكروفيلم رقم (١) معية سنية عربي
سجل رقم ٥ قديم	دفتر قيد الصادر غير الرسمي	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٠) معية سنية عربي
سجل رقم ٢٩ قديم	صادر الإقادات الغير رسمية للدواوين والأقاليم	ضمن ميكروفيلم رقم (٢٠) معية سنية عربي
سجل رقم ١٨ قديم، ١٦ خاص	سجلات الصادر الغير رسمي من قلم التحريات	ضمن ميكروفيلم رقم (٢١) معية سنية عربي

٦- سجلات أخرى

- سجلات عابدين (عربي) ملخصات الأوامر الكريمة المصادرة إلى جهات من ٢/٥، سجل رقم (١) حديث.
- سجلات ديوان خديوي (تركي) سجل رقم (٧٣٢)، (٧٣٣)، ضمن ميكروفيلم رقم (٣٣٠) ديوان خديوي (تركي).
- سجلات ديوان مجلس أحكام مصر، من ٣٢/٧ سجل رقم (١) حديث (١٧٨) قديم، دفتر مجموع إدارة وإجراءات.

- سجل مجموع أمور جنائية من ١/٦١/٨.

ج- المحافظ

١- محافظ الأبحاث

موضوع "التعليم"

- محفظة رقم (٥٨) من محرم ١٢٢٧ هـ إلى ربيع ثان ١٢٥٢ هـ
- محفظة رقم (٦١) من محرم ١٢٦٢ هـ إلى ذى الحجة ١٢٦٤ هـ
- محفظة رقم (٦٢) من محرم ١٢٦٥ هـ إلى ذى الحجة ١٢٧٢ هـ
- محفظة رقم (٦٣) من محرم ١٢٧٣ هـ إلى ذى الحجة ١٢٨٦ هـ
- موضوعات مختلفة
- محفظة رقم (١٢٧) الأوراق الخاصة بإنشاء دار الآثار ومنع خروجها من القطر المصرى.
- محفظة رقم (١٣٩) دار الآثار المصرية.
- محفظة رقم (١٤٩) ترجمة كتاب "عبر البشر في القرن الثالث عشر".

٢- محافظ مجلس الوزراء

محافظ مجلس الوزراء - نظارة الأشغال

رقم المحفظة	موضوعها	الفترة التاريخية
١/٤	مصلحة الآثار - متاحف	من ١٨٧٩/٣/٢٥ م إلى ١٩١٤/٥/٢٨ م
١٢/٤	مصلحة الآثار - موضوعات عامة	من ١٨٧٩/٤/٢ م إلى ١٨٩٠/١٢/٢٧ م
٢/٤ ب	مصلحة الآثار - موضوعات عامة	من ١٨٩١/١/٨ م إلى ١٩٢٣/١٢/٤ م
١٣/٤	مصلحة الآثار - شئون موظفين	من ١٨٧٩/٤/٢٢ م إلى ١٨٩٠/١١/٢ م
٣/٤ ب	مصلحة الآثار - شئون موظفين	من ١٨٩١/٢/٢٢ م إلى ١٩٠٧/١٢/٢٨ م
٤/٤	مصلحة الآثار - تماثيل، تقارير، ميزانية	من ١٨٨٣/١/١١ م إلى ١٩١٠/٥/٢٣ م
١/٥	أشغال - ميزانية	من ١٨٧٨/٥/٨ م إلى ١٨٨٥/١٢/٢٣ م
٥/ب	أشغال - ميزانية	من ١٨٨٦/١/٧ م إلى ١٨٨٩/٧/١٨ م
ج/٥	أشغال - ميزانية	من ١٨٩٠/١/٣١ م إلى ١٨٩٤/١٢/٤ م
٥/٥	أشغال - ميزانية	من ١٨٩٥/١/٢٧ م إلى ١٩١١/١/٨ م

محافظ مجلس الوزراء - رتب ونياشين

٥	رتب ونياشين الأنتيكخانة	من ١٨٨١/١١/٢٩ م إلى ١٩١٤/٦/٢٧ م
---	-------------------------	---------------------------------

محافظ مجلس الوزراء - نظارة الخارجية

٥/٤	مؤتمرات - مؤتمرات للآثار	من ١٨٩٢/١٢/١٣ م إلى ١٩٢٣/٦/٢٦ م
-----	--------------------------	---------------------------------

٣- محافظ معية سلية تركي

ملخصات الأوامر العلية المستخرجة من الدفاتر

محافظ رقم (١)، (٢)، (٣)، (٤)

تراجم ملخصات الدفاتر

محافظ رقم (١٠)، (١٥)، (١٧)، (٤٥)، (٦٤)، (٧٨)، (٨٤)، (٩٠).

٤- محافظ معية سنية عربى مستخرجة من المعية السنية التركى.

- محفظة رقم (٢).

٥- محافظ أخرى

- محفظة رقم (١٦٩) لوائح وقوانين.

ثانياً: المصادر^(١)

أ- المصادر المخطوطة:

- محمد عارف باشا: عبر البشر في القرن الثالث عشر، نسخة خطية مودعة بدار الوثائق القومية ضمن محفظة رقم (١٤٩) أبحاث (موضوعات متنوعة).

- محمد على باشا وولده إبراهيم: الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد على باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، نسخة مودعة بدار الوثائق القومية، مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب القومية تحت رقم (٢٤٨٤) تاريخ تيمور.

ب - المصادر المطبوعة:

- تزييل من رب العالمين: القرآن الكريم.

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، دار صادر، الطبعة السادسة، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى (ت. ١١٥٠هـ/١٧٣٧م: أوضح الإشارات فيمن تولى حكم مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

- الإصطخرى (أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مسالك الممالك، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، مصورة عن طبعة مطبعة بريل، لينن ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.

- ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ت نحو ٩٣٠هـ/نحو ١٥٢٤م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٥٢م.

- النبحترى (أبو عبادة الوليد بن عبيد ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م): ديوان النبحترى، تحقيق: حسن كامل الصيرفى، م، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- البخارى (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ت ٢٥٧هـ/٨٧١م): صحيح البخارى، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

- البصرى (صدر الدين على بن أبى الفرج ت ٦٥٩هـ/١٢٦١م): الحماسة البصرية، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن محمد ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، نشر: طلال حرب، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

- البغدادي (موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثانى) عدد رقم (٣١٤) الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- الهلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد ت بعد ٣٣٠هـ/٩٤١م): سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد على، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.

(١) رتب هذه المصادر ترتيباً مجانياً مع إغفال "أب" و "ابن" و "أل" الق للتعريف.

- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم ت ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجليل، بيروت، بدون تاريخ.
- مظهر التقديس بذهاب دولة
الفرنسيس، تحقيق: أحمد عبده على، مكتبة الآداب، القاهرة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي ت ٦١٤هـ/١٢١٧م): تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف برحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن حوقل (أبو القاسم ابن حوقل النصيبى ت بعد ٣٦٧هـ/بعد ٩٧٧م): كتاب صورة الأرض، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، مصورة عن طبعة مطبعة بريل، لندن ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م.
- أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف ت ٧٤٥هـ/١٣٤٣م): البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على معوض، زكريا عبد المجيد التوني، أحمد النجوى الجمل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوات السلاطين الأكر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م): الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢١م): تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧هـ/٨٧٧م): فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ، مصورة عن طبعة مطبعة بريل، لندن ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م.
- ابن عطية الأندلسي (أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٥٤٦هـ/١١٥١م): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر، مجموعة الملاحظات والبحوث التي أجريت في مصر أثناء حملة الجيش الفرنسي، ترجمة: زهير الشايب، منى زهير الشايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ٢٠٠٢، ٢٠٠٣م/١٤٢٢، ١٤٢٣هـ باستثناء الدراسة التي وضعها جومار عن "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل" فقد اعتمدنا فيها على ترجمة: أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد العلي بن العماد ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- الفخرى الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر ت ٦٠٦هـ/١٢١٠م): التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، طهران، بدون تاريخ.
- القزويني (أبو عبد الله زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ/١٢٨٢م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت نحو ٣٨٠هـ/ نحو ٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، مصورة عن الطبعة الثانية من طبعة مطبعة بريل، لندن ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.
- المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.

- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ت ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
- نقولا الترك (نقولا بن يوسف الترك ت ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م): ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، تحقيق: ياسين سويد، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.
- ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ثالثاً: المراجع العربية والمصرية

- إبراهيم غالى: سينا عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبى من الدخيل، دار المعارف، القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، مطبعة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م.
- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى مصر، عصر اسماعيل والسنوات المتصلة به من حكم توفيق، مطبعة النصر، القاهرة، بدون تاريخ.
- أحمد كمال: بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين، مطبعة مدرسة الفنون والصنائع الخديوية ببولاق، القاهرة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م.
- _____: ترويح النفس فى مدينة الشمس المعروفة الآن بعين شمس، بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م.
- _____: الخلاصة الدرية فى آثار متحف الإسكندرية، مطبعة عين شمس، القاهرة ١٣١٩هـ/١٩٠١م.
- _____: العقد الثمين فى محاسن أخبار وبيدائع آثار الأقدمين من المصريين، بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م.
- _____: الفوائد الالهية فى قواعد اللغة الهيروغليفية، مدرسة الفنون والصنائع ببولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م.
- أحمد نجيب: الأثر الجليل لقدماء وادى النيل، بولاق، القاهرة ١٣١١هـ/١٨٩٢م.
- _____: القول المفيد فى آثار الصميد، بولاق، القاهرة ١٣١٠هـ/١٨٩٣م.
- إدواردز: أهرام مصر، ترجمة: مصطفى أحمد عثمان، مراجعة: أحمد فخري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثانى) عدد رقم (٢٧٢) الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- السيد السيد توفيق أحمد دياب: السياحة فى مصر خلال القرن التاسع عشر، دراسة فى تاريخ مصر الإقتصادى والإجتماعى، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة: " مصر النهضة " عدد رقم (٤٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ألفريد بتلر: الكنائس القبطية القديمة فى مصر، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: الأنبا غريغوريوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- إلهام محمد على زهني: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، سلسلة: " مصر النهضة "، عدد رقم (٣٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- _____: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة: " تاريخ المصريين " عدد رقم (٥٢) القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- _____: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة: " مصر النهضة " عدد رقم (٥١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٧م.

- إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عصر الخديوى اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣م إلى سنة ١٨٧٩م، مكتبة مديولى، سلسلة: "صفحات من تاريخ مصر" عدد رقم (٨، ٩) الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- إميليا إدواردز: رحلة الألف ميل، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: محمود ماهر طه، سلسلة الألف كتاب (الثاني) عدد رقم (٢٨٠)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٧م.
- أمين سامي: التعليم في مصر بين سنتي ١٩١٥، ١٩١٤م، وبيان تفصيلي بنشر التعليم الأولي والإبتدائي بأثناء الديار المصرية، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م.
- تقويم النيل، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.
- أنور لوقا غبريال: ربع قرن مع رفاعة الطهطاوى، سلسلة: "اقرأ" عدد رقم (٥١٠) شعبان ١٤٠٥هـ/أبريل ١٩٨٥م.
- رفاعة بين القاهرة وباريس، بحث منشور ضمن كتاب: مهرجان رفاعة الطهطاوى، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٨م.
- بريان فاجان: نهب آثار وادى النيل ودور لصوبص المقابر، ترجمة: أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- بيتر فرانس: اغتصاب مصر، كيف جرد الأوروبيون مصر من تراثها، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، سينا للنشر والانتشار العربى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- بريس دافين: إدريس أفندى في مصر، مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى بريس دافين في مصر ١٨٠٧-١٨٧٩م، جمع وترجمة: أنور لوقا، سلسلة: "كتاب انبوم" عدد رقم (٣٢٣) القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- تشارلز نيمس: طيبة، آثار الأقصر، ترجمة: محمود ماهر طه، مراجعة: محمد العز موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، بدون رقم، القاهرة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ثروت عكاشة: مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- موسوعة التصوير الإسلامى، مكتبة لبنان، بيروت، بدون تاريخ.
- جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
- جاك تاجر وجورج جندى: اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
- جان فيدال: الغائب عن المسلة، بحث منشور ضمن كتاب جان لاکوتير: شامبوليون حياة من نور.
- جان كلود جلفان: الحملة الفرنسية في مصر العليا بحثاً عن مواقع الآثار، أو كشف العمارة الفرعونية، بحث منشور ضمن كتاب هنرى لورنس وآخرين: الحملة الفرنسية في مصر، بونايرت والإسلام، ترجمة بشير السباعى، سينا للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- جان لاکوتير: شامبوليون، حياة من نور، ترجمة: نبيل سعد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة: شوق ضيف، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ.
- تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى الآن مع فذلکة في تاريخ مصر القديم، م، الهلال، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- جورج بوزلر، سبرج سونرون، جان يويوت، أ.أس. إدواردز، ف.ل. ليونيه، جان دوريس: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، مراجعة: سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- _____ الحضارة المصرية، ترجمة: صادق رستم، المطبعة العصرية، القاهرة، بدون تاريخ.
- جون مارلو: تاريخ النيب الاستعماري لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م إلى الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ م، ترجمة: عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م.
- جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل، ترجمة: لبيب حبشى، شفيق فريد، مراجعة: محمد جمال الدين مختار، نشر: دار الكرنيك، القاهرة ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجبل، بيروت، ومكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.
- حسن الباشا: جامع ابن طولون، بحث منشور ضمن كتاب: القاهرة: تاريخها، فنها، آثارها، مطابع الأهرام، القاهرة ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.
- خير الدين الزركلي: قاموس الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م.
- دف جوردن (الليدي): رسائل من مصر، ترجمة: على الكاتب، بدون ذكر دار النشر أو مكان أو سنة الطبع.
- دومينيك فالبييل: علم المصريات، ترجمة: لويس بقطر، دار الفكر، سلسلة: "كتاب الفكر" عدد رقم (١٨) الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.
- رفاعه رافع الطهطاوى: أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل، بولاق، القاهرة ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨ م.
- روبير سوليه: مصر ولع فرلنى، ترجمة: لطيف فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.
- رودلف (الأمير): رحلة الأمير رودلف إلى الشرق، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، سلسلة الألف كتاب (الثاني) عدد رقم (١٩٧)، (٢٠٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.
- زكى محمد حسن: التصوير في الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٦ م.
- _____ في الفنون الإسلامية، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م.
- سليم حسن: أبو الهول تاريخه في ضوء الكشف الحديثة، ترجمة: جمال الدين سالم، مراجعة: أحمد محمد بدوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.
- _____ مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م.
- سيريل الدريد: الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة: مختار السويفى، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- شارل جليسمي: الجوانب العلمية لحملة مصر ١٧٩٨-١٨٠١ م، بحث منشور ضمن كتاب هنرى لورنس وآخرين: الحملة الفرنسية في مصر، بونايرت والإسلام.
- طه جابر العلوانى: الجمع بين القراءتين: قراءة الكون، وقراءة الوحي، المعهد العالى للفكر الإسلامى، سلسلة: "إسلامية المعرفة"، عدد رقم (٢) الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- عبد الرازق السنهورى: التعليم، بحث منشور ضمن كتاب: اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته.
- عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطوير نظام الحكم في مصر، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.
- _____ عصر محمد على، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.
- _____ عصر اسماعيل، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.
- _____ الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م.

- _____ مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال. دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- عبد الرحمن زكي: دور المتحف في مصر والجمعيات العلمية، بدون ذكر دار النشر، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
- _____ قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، نهضة مصر، سلسلة الألف كتاب، عدد رقم (٢٨٨)، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
- عبد القادر حمزة: على هامش التاريخ القديم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.
- عبد الله أبو السعود: الدرس التام في التاريخ العام، مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م.
- عبد المنعم أبو بكر: مساهمة العلماء الإيطاليين في الدراسات المصرية، بحث مستخرج من مجلة، المشرق، رقم (٤) السنة السابعة، شعبان ١٣٨٠هـ/ديسمبر ١٩٦٠م، طبعة جوتنبرج، بدون تاريخ.
- عبد النعيم محمد حسن: قاموس الفارسية، دار الكتاب المصري اللبناني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- علي حسن: الموجز في علم الآثار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج١، ج٢، ج٣، ج٤، ج٥، ج٦، ج٧، ج٨، ج٩، ج١٠، ج١١، ج١٢، ج١٣، ج١٤، ج١٥، ج١٦، ج١٧، ج١٩، طبعات مختلفة، هذا وقد أثبتنا بإزاء كل جزء في الهامش طبعته التي اعتمدنا عليها فيه.
- عماد عدلي: شامليون في مصر، الرسائل والمذكرات، مراجعة: طاهر الحكيم، دار الفكر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- عمر الإسكندري، سليم حسن: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مراجعة: أ. ج. سفدج، سلسلة: "صفحات من تاريخ مصر" عدد رقم (٦)، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- فولفي: ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام، ترجمة: إدوارد البستاني، منشورات دار المكشوف، بيروت ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
- فيري: الخلاصة الوجيزة في بيان أهم الآثار المعروضة بمتحف الجيزة، تقديم: دي مورجان، ترجمة: أنيس أفندي إكليمندوس، بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٠هـ/١٨٩٣م.
- فيليب جلاذ: قاموس الإدارة والقضاء، المطبعة النجارية، الإسكندرية ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م.
- كارستن نيبور: رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١-١٧٦٧م، الجزء الأول، رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م، ترجمة: مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، القاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- كريستوفر ميرولد: بونايرت في مصر، ترجمة: فؤاد أنداروس، مراجعة: محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة: محمود مسعود، دار الموقف العربي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- كلود ترونكير: مصر القديمة في وصف مصر، بحث منشور ضمن كتاب هنري لورنس وآخرين: الحملة الفرنسية في مصر، بونايرت والإسلام.
- لوى سعيد: كمال ويوسف أنريان من الزمن الجميل، مطبوعات المتحف المصري، القاهرة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- لبيب حبشي: مصلات مصر، ناطحات السحاب في الزمن الماضي، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة: جمال مختار، المجلس الأعلى للآثار، سلسلة: "الثقافة التاريخية والأثرية" موسوعة المائة كتاب، عدد رقم (٢٣) القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- لويس اليسوعي: المنجد في الأعمال، دار المشرق، الطبعة الثالثة عشرة، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ٨٤: المنجد في اللغة، دار المشرق، الطبعة السابعة والعشرون، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- لبنان دى بلفون: مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التى تمت بمصر منذ أقدم العصور حتى عام ١٨٧٢م. ترجمة: إدارة الترجمة بوزارة الأشغال العمومية، إشراف: على بك الشافعى، مراجعة: محمد بك فخر الدين، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
- لينوار تشامبرز رايث: سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٢٠-١٩١٤م. ترجمة: فاطمة علم الدين عبد الواحد، مراجعة: يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة: الألف كتاب (الثانى) عدد رقم (٤٢) القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- مارت: تاريخ قدماء المصريين، المسى "قناصة أهل العصر من خلاصة تاريخ مصر"، ترجمة: عبد الله أبو السعود أفندى، بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م.
- فرجة المتفرج على الأثنية خانة الخديوية الكاتبة ببولاق مصر المحمية، وصف نخبة الآثار القديمة المصرية الموجودة في خزينة التحف العلمية المصرية، ترجمة: عبد الله أبو السعود أفندى المترجم بقلم الترجمة بديون عموم المدارس الملكية، م. وادى النيل، القاهرة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.
- ماسبيرو: دليل دار التحف المصرية الفاخرة لمدينة القاهرة، ترجمة: أحمد كمال، بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م.
- مالك محمد أحمد رشوان: مصالحي الولايات المتحدة في مصر وتوابعها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بدون ذكر دار النشر، أو مكان أو سنة الطبع.
- مجدى عبد الحافظ: محمد على والحضارة القديمة: بحث منشور ضمن كتاب: إصلاح أم تحديث، مصر في عصر محمد على، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على رحيل محمد على باشا الكبير (١١-٩ مارس ١٩٩٩م)، تحرير: رءوف عباس حامد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- مجلس شورى القوانين: مجموعة محاضرات المجلس، م. فتح الله إلياس، القاهرة، بدون تاريخ.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الكبير، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- محسن محمد: سرقة ملك مصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- محمد إبراهيم بكر: صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٧م.
- محمد أحمد الحوفى: ديوان شوقي: توثيق وتبويب، وشرح وتعليق، دار نهضة مصر، بدون تاريخ.
- محمد أمين طه: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، دارالمعارف، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- محمد رمزي: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، دار الكتب المصرية، القاهرة، صدرت أجزاءه تباعاً خلال الفترة ١٣٧٣-١٣٨٣هـ/١٩٥٣-١٩٦٣م.
- محمد عبد العزيز مرزوق: الإسلام والفنون الجميلة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م.
- محمد عبد الواحد حجازى: موقف الإسلام من الفنون الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- محمد على (الثمري): مجموعة خطابات وأوامر خاصة بالمفقور له عباس باشا الأول، بدون ذكر دار النشر أو مكان أو سنة الطبع.
- محمد عمارة: الإسلام والفنون الجميلة، دار الشروق، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- رفاعة الطهطاوى، رائد التنوير في العصر الحديث، دار الشروق، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ.
- محمد فؤاد شكرى، عبد المقصود العنانى، سيد محمد خليل: بناء دولة مصر محمد على، السياسة الداخلية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٥م.
- محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

- _____ : خطط الشام، نشر: مكتبة النورى، الطبعة الثانية، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- محمد مجدى بك: ثمانية عشر يوماً بصعيد مصر، مطبعة الموسوعات، القاهرة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.
- محمود الفلكي: رسالة عن الإسكندرية القديمة وضواحيها والجهات القريبة منها التي اكتشفت بالحفريات وأعمال سبر الغور والمسح وطرق البحث الأخرى، ترجمة: محمود صالح الفلكي، مراجعة: محمد عواد حسين، دار الثقافة، الإسكندرية ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- محمود فهسي: البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر، بولاق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م.
- محمود المقداد: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، سلسلة: "عالم المعرفة"، عدد رقم (١٦٧) المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت جمادى الأولى ١٤١٣هـ/ نوفمبر ١٩٩٢م.
- مختار السويفى: مصر القديمة، دراسات في التاريخ والآثار، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية: العيد المئوى للمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٨٨٠-١٩٨٠م، مطبوعات المعهد، القاهرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- ممدوح الدماطي: وثائق المتحف المصرى، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- منى يوسف نغلة: علم الآثار في الوطن العربى، مدخل، منشورات جروس برس، لبنان، بدون تاريخ.
- منير بسطا: أهم المعالم الأثرية بمنطقة سقارة وميت رهينة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ميخائيل شاروبيم: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الخامس، تحقيق: عبد الوهاب بكر، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- نجيب العقيقى: المستشرقون، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- نجيب ميخائيل: أبو سمبل، محاضرة عامة أقيمت بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية في ١٠ نوفمبر ١٩٦٠م بمناسبة أسبوع إنقاذ آثار النوبة، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.
- نظارة المالية: ميزانية الحكومة عن سنة ١٨٨٣م، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م.
- _____ : ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة عن سنة ١٨٨٧م، المطبعة الأهلية ببولاق، القاهرة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م.
- _____ : ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية عن سنة ١٨٨٨م، المطبعة الأهلية ببولاق، القاهرة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م.
- _____ : ميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية عن سنة ١٨٩١م، المطبعة الأهلية ببولاق، القاهرة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.
- _____ : حساب ختامى عن مصالغ المالية سنة ١٨٩٦م، المطبعة الأهلية ببولاق، القاهرة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م.
- _____ : حساب ختامى عن مصالغ المالية سنة ١٨٩٩م، المطبعة الأهلية ببولاق، القاهرة ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م.
- _____ : ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٦م، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م.
- هنرى رياض، يوسف شحاتة، يوسف مفيد الغربانى: دليل آثار الإسكندرية، مراجعة: داوود عبده داوود، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.
- هيئة الآثار المصرية: المتحف اليونانى الرومانى، بدون ذكر مكان أو سنة الطبع.
- هيلين آن رفلين: الإقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسيى، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- وزارة الأشغال العمومية: مجموعة الأوامر المختصة باللقايا والأنتيقات، بولاق، القاهرة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م.
- وزارة الأشغال العمومية - مصلحة الآثار: قانون نمرة (١٤) لسنة ١٩١٢م خاص بالآثار، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م.

- وزارة المعارف العمومية: اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٤هـ/١٩٦٥م.

رابعاً: المراجع الأجنبية

- Charles Blane: Voyage de La Haut Egypte, Librairie renouard, paris, 1876.
- David Rohl: Pharaohs and kings, Crown publishers, NewYork, first edition, 1995.
- Etienne Drioton: Le musée de Boulac, cahiers d'histoire Egyptienne, Egyptian history papers, serie III, face 1, novembre, 1950.
- Gouvernement Egyptien-Ministere Des finances: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1893, Le caire, 1894.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1894, Le caire, 1895.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1895, Le caire, 1896.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1897, Le caire, 1896.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1898, Le caire, 1899.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1900, Le caire 1901.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1901, Le caire, 1902.
- _____: compt General De L'Administration Des finances – pour L'Exercice, 1902, Le caire, 1903.
- Guillemtte Andreu, Marie – Hélième Rutschowskaya, christian Ziegler: L'Egypte ancienne au louvre, Hachette Literatures, Paris, 1997.
- Jaques Tagher: fouilleurs et antiquaires en Egypte au XIX^e, siècle, cahiers D'Histoire Egyptienne, Egyptian history papers, serie III, face 1 novembre, 1950.
- _____: orders superieurs relatifs a la conservation des antiquités et a la creation d'un musée au caire " cahiers d'Histoire Egyptienne, Egyptian history papers, serie 4 Face, 2 december 1950.
- Jean Edward Goby: Les Quarante Editions Traducation et Adaptations Du (voyage Dans La Basse et La Haute Egypte) De Vivandénon" Cahiers d'histoire Egyptienne, Egyptian history papers, face 2, December 1950.
- Jean Ellul: Guides et catalogues musées egyptotologues, cahiers d'histoire Egyptienne, Egyptian history papers, serie III, face: 1, November 1950.

- Louis Keimer: Le musée égyptologique de Berlin, cahiers D'Histoire Egyptienne, Egyptian history papers, serie III, face 1 novembre 1950.
- Paul Lucas: Voyage du sieur Paul Lucas Au Levant, Rouen, 1772, III Tome
- Wallace Budge: A Guide To the Egypt collections in the British museum, British museum press, London, 1901.

خامساً: الدوريات

أ- العربية:

- جريدة "الأخبار": ٢٠٠١.
- جريدة "الأهرام": ١٩٠٨/١٨٩٠.
- المجلة التاريخية: ١٩٥٦.
- مجلة "تقويم الهلال": ١٩٣٨.
- مجلة "الثقافة": ١٩٧٨.
- مجلة "الثمرة" المكنندرية: ١٨٩٥.
- مجلة "روضة المدارس المصرية": السنة الأولى ١٨٧٠، السنة الثالثة ١٨٧٢، السنة الرابعة ١٨٧٣، السنة الخامسة ١٨٧٤.
- مجلة "العربي": ١٩٩٤.
- مجلة "كلية الآثار - جامعة القاهرة": ١٩٧٨/١٩٩٠.
- مجلة "المؤرخ المصري": ١٩٨٨.
- مجلة "المجلة": ١٩٥٧/١٩٥٨/١٩٥٩/١٩٦١/١٩٦٢/١٩٦٣.
- مجلة "المقتطف": ١٨٧٧/١٨٨٣/١٨٨٦/١٨٨٧/١٨٩٠/١٨٩١/١٨٩٢/١٨٩٣/١٨٩٤/١٨٩٥.
- ١٨٩٦/١٨٩٧/١٨٩٨/١٩٠١/١٩٠٢/١٩٠٩/١٩١٦/١٩٢٣/١٩٣٥.
- مجلة "الهلال": ١٩٤١/١٩٩٣.
- جريدة "الوقائع": ١٨٧١/١٨٧٥.

ب- الأجنبية:

- The Evening post New York, 1893.

فهرس

٧ تقديم:
١٣ مقدمة:
١٧ تمهيد: موقف الإسلام من الآثار القديمة.....
٦٣ الفصل الأول: الحملة الفرنسية وموقفها من حضارة مصر القديمة وآثارها...
١١٧ الفصل الثاني: الدور الأجنبي في غلب الآثار القديمة من مصر في القرن التاسع عشر وموقف الإدارة المصرية.....
٢٣٩ الفصل الثالث: تطور الأوامر واللوائح والقرارات والقوانين والتشريعات المتعلقة بالآثار المصرية في مصر في القرن التاسع عشر.....
٣١٥ الفصل الرابع: المشكلات البشرية والأخطار الطبيعية التي واجهت الآثار المصرية في القرن التاسع عشر وموقف الإدارة المصرية منها...
٣٨٩ الفصل الخامس: المؤسسات الخاصة بالآثار في مصر في القرن التاسع عشر.....
٤٥١ الفصل السادس: المخصصات والموارد المالية لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري في القرن التاسع عشر.....
٤٨٧ الخاتمة:
٤٩١ المصادر والمراجع: